٢

الأعمال الكاملة

للإمام

الشيخ محمد عبده

الطبعة الثانية
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
تليفون : 4023399 (202) - فاكس : 4037567 (202)
e-mail: dar@shorouk.com - www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

للإمام

الشيخ محمد عبده

تحقيق وتقديم

الدكتور محمد عمارة

الجزء الثاني

في الكتابات الاجتماعية

دار الشروق

حكومتنا والجمعيات الخيرية [١]

إن مما تثلج به الصدور، وترتاح له النفوس، ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا، ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الأعمال الخيرية، وجدهم ونشاطهم فى تأليف الكلمة، وضم الشمل، واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التى تؤدى إلى ذلك، وإن سَبَقَنَا إليها سكان الممالك المتمدنة، وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكمال السطوة، وهى إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة، تختلف أشكالها وتتحد مقاصدها، وتتعدد أماكنها وطرق سيرها، وتتفق غاياتها وفوائدها، فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بَدَن واحد ذى أعضاء مختلفة، يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة. ويزيدنا أملاً وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات، وشد عضدها، بما تبديه من المساعدات لها فى كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشييد أركانها وتقوية دعائمها، وبما تصدره من الأوامر السامية فى شأن تقريرها واعترافها بها، حتى يظهر لجلى النظر ودقيقه أن الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة، لطيف الإشارة، يبث الغيرة فى القلوب، ويجذب الهمم من خطة الخطابة، ويدعو أفراد الرعايا إلى الهدى والرشد، ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم، وهو المحبة الوطنية، والألفة الإنسية، والتعاون على جلب المنافع العامة التى يشترك فيها كل واحد منهم، ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض، المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الإنسانية.

وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية، وإن كان غريبًا عجيبًا - إذا رجعنا إلى صفحات التاريخ فى الأزمان الماضية - إلا أنه ليس بمكان الغرابة فى عصرنا هذا؛ فإن

الجناب الخديوى المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف، وشدة الحب لها، والسعى فى تربية الأهالي وتهذيب عقولهم، وعلى ذلك وزراؤه الكرام، أيد الله شأنهم. ومن ذلك لا نعجب إذا رأينا هذه الحكومة[٢] الجليلة مساعدة لأهل الخير، ممهدة لهم طرق الوصول إلى خير ما يقصدون، بعدما ذللت لهم المصاعب الكلية - التى أدركهم اليأس من تذليلها فى سنين طويلة - بعناية خديويها الجليل، وهمة دولتلو رئيس النظار. وإن من أقوى البراهين على ما نقول، إقبال الجناب الخديوى ودولتلو رياض باشا، ناظر الداخلية الجليلة، على من قدموا إليه من رجال الجمعيتين الخيريتين (الجمعية الخيرية الإسلامية) بالإسكندرية و(جمعية المقاصد الخيرية) بمصر؛ فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب، ووجه باش، وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولى العهد رئيسًا عامًا للجمعية المبعوث من طرفها.

وعندما عُرض قانون كل من الجمعيتين على دولتلو ناظر الداخلية الجليل، أقره واستحسنه، وبعث إلى نظارة المعارف باعترافه وقبوله، وأصدر الأمر بتقرير كل من الجمعيتين، وشكر صنيع كل من رجالهما، وحث على مساعدتهما فى كل ما به تقدمهما. غير أنه لم يغض الطرف عمّا يلزم لعموم نفعهما، وهو مراعاة وحدة التعليم، وأن تكون موضوعات التعليم فيهما متحدة مع ما فى المدارس الميرية، ليتأتى قبول تلامذتهما فى المدارس العالية، ليتمتعوا بتتميم دروسهم فيها، ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون. وخَصّ جمعية الإسكندرية بإعانة نقدية، يبلغ مقدارها ٣٥٠ جنيهًا من جانب الحكومة فى كل سنة، حيث إنها قرنت بين العزم والفعل، وشوهد لها أثر فى العيان. إلا أنه حث مندوبها على مراعاة الفقراء والأيتام، والإكثار منهم بالمدرسة، قائلاً: إن للأغنياء طرقًا كثيرة فى تعليم أبنائهم، أما الفقراء فليس لهم سبيل إليه، وإننا لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم فى الإعانة والنقدية. ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقيًا، راسخًا فى القلوب، ثابتًا فى العقول، لا أن يكون ظاهريا على سطوح الخيالات والأوهام.

فهذا الصنيع الجميل من هذا الوزير الجليل يستدعى انطلاق الألسنة بالثناء عليه، وميل الأفئدة بكليتها إليه. وما كل ذلك إلا بعناية الخديو وحسن مقاصده، خلد الله دولته، ومكن فى الآفاق سطوته. وسنرى من آثار هاتين الجمعيتين ما يحمد أثره ويخلد ذكره.

وهذا محصل ما كتب من نظارة الداخلية إلى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالإسكندرية بتاريخ ١٣ من ذي القعدة سنة ١٢٩٧هـ[٣] :

«ليس بخاف ما نهض إليه الموفقون من أهل البر والإحسان، من «ذوات» ووجوه الثغر السكندري في تأليف وإنشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة، وقد قارنوا العزم بالفعل إذ أنشئوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى، وحبًا فيما يعود على الوطن بالخير. والآن قدَّموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم، بما قرروه من إنشاء مستشفى للمرضى، ومكتبة لمطالعة الكتب واستنساخها، ثم دار ضيافة لمن يَقْدَم على الجمعية، وأن يكون من شئونها مواساة الأرامل، وتربية الأيتام من أبناء أعضائها بعد موتهم، وغيرهم، ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم. وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الأكرم. وحيث كان هذا المشروع من محاسن الأعمال العائدة بالمزايا على الوطن وأهله، الدالة على جمال المقصد، وهي مطابقة من كل وجه لأفكار الحضرة الخديوية، وعند تلاوة مفصلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع، ملائمًا موافقًا للطبع، فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية، وتقريرها على حدتها، ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به، ولزم تحريره لسعادتكم إخطاراً بذلك، لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به تقدمها وحسن سيرها. ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه، وحفظها أساسًا لذلك بالمعارف:

«وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدريس العلوم، ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها، وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها، فعليكم إعطاء جميع التعليمات والأوامر التي تلزم لذلك».

حب الفقر أو سفه الفلاح [٤]

كان أهالي بلادنا محملين من الأثقال النقدية ما لا يطيقون، من ضرائب على الأراضي متنوعة متكثرة، تتجدد على الدوام بتجدد الأشهر والأعوام، و«جرائم»[٥] تفرض على الأنفس وتوابعها من غير نظام، لا تنتهي إلى غاية، ولاتقف عند حد، حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم. ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين، ولا قاعدة معروفة، بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته غير المرتبة. فتارةً يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها فى أول شهر منها، وتارةً يطالبون بأموال السنة القابلة فى منتصف السنة الحاضرة. ولا محيص لهم عن الأداء، فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك، والحبس المؤبد، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً، وما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة.

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلاً سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب «البنوكة» الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم فى ذلك الوقت، وأشد أنصاره؛ فإذا رأوا حاجة الأهالي إليهم تدللوا وتمنعوا، لعلمهم أن «القرباج» وراءهم؛ فلا قدرة لهم على الصبر، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتًا إلا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة؛ فكان التاجر لا يؤدي نقوده «سلما»[٦] ولو قبل الحصاد بعشرين يومًا إلا: ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد، فتكون الفائدة أربعين أو أزيد فى الشهر الواحد. وصاحب «البنك» لا يعطي إلا بفائدة فى المائة عشرة بل أزيد فى كل شهر. ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين فى أربعة أشهر. وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون؛ فكانت تلك الأيام ويلاً

ووبالاً على الحكومة والأهالي جميعًا، وكانت سعداً وربيحًا للتجار وأرباب «البنوكة» الغرباء الدخلاء، الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الأغنام، فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة، واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ورهن عقاراتهم وأراضيهم، أو الانسلاخ عنها بالكلية، فأحاط بهم الفقر وصاروا في أسوإ حال.

والحمد لله، أصبحوا في هذه الأيام وقد خففت عنهم الأثقال، وألغى كثير من الضرائب غير القانونية، ووقفت المطلوبات عند حد معروف، وضربت لتأديتها مواقيت محددة، على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة، فتوافرت على الأهالي ثمرات أتعابهم، وصاروا الآن لا حاجة لهم إلى بيع شيء بأقل من قيمته ولا بفلس واحد، فإن أوقات الأداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة. ومع ذلك، فالمطلوب مقسط بأقساط خفيفة سهلة الأداء، لا تلجئ صاحبها إلى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولاً، فنمت الثروة نموًا لم يكن يخطر بالبال، وأيقنا أن الأهالي سيثبتون على أملاكهم، ويعتبرون بسوابق أحوالهم، فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى، حتى يستردوا ما سلب من أيديهم قهراً ولو بأعلى قيمة وأعلى ثمن، وتأخذهم الغيرة على أملاكهم وأملاك إخوانهم التي أصبحت في أيدي غيرهم، يتمتع بخيراتها، ويتلذذ بشهي ثمراتها، فيطلبون رجوعها إليهم بدفع أضعاف قيمتها الأصلية، كما هو شأن الأحرار ذوي الشرف والهمة، وذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد، والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة أو دونها، حرصًا على نيل الشرف الحقيقي، وهو تخليص أملاكهم، أو حفظها من تطرق يد الغير إليها.

إلا أننا نأسف كل الأسف إذ لم نظفر بهذه الأمنية، فإن الحكومة لما رفعت عن كواهلهم أثقال المظالم، وخففت عنهم أحمال المغارم، فتحوا على أنفسهم بابًا من الفقر آخر يلجونه باختيارهم وإرادتهم، بدون قاسر ولا قاهر، وهو باب السرف والتبذير، والإكثار من لوازم الرفاهية والزينة، وما يكسب الظهور الكاذب بلاطائل؛ فرأيناهم يتفاخرون في إعداد الولائم، وإتقان أشكال الزينة، ويتنافسون في تشييد الأبنية، ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ، لا يقفون فيها عند حد، ولا ينتهون إلى غاية. كما كانت الضرائب في الزمن السابق. وليتهم مع ذلك ينقدون

في اجتلاب هذه الأشياء قيمتها الحقيقية، ولكنهم من الجهل يشترون ما يساوى عشرة بعشرين، إن لم نقل بمائة، فإن ضاق إيراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع إلى «البنوكة» يرهن فيه أرضه وعقاره، بفائدة ليست بقليلة يلزم نفسه بأدائها أعوامًا كثيرة، ويظنها سهلة الأداء، مع أنها تحت شروط شديدة عليه، لطيفة على صاحب البنك، غير متدبر عاقبة الأمر، ولا متبصر فى نتائج هذه الغفلة.

بلغنى أن بعض الأعيان فى بلادنا رهن أرضه الزراعية الخصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه، يدفعها فى خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور!! أليس هو الأحق بهذه الفائدة، التى هى ثلاثة أضعاف ما أخذ؟! وهى ثمرة كسبه ونتيجة تعبه؟! وما عليه إذا اقتصد فى مصرفه، ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ، بل أكثر منه؟! ولعمر الحق، إنه لو أنفق على قدر إيراده، أو نصفه، لقلنا إنه من المسرفين، ولكن أبى حاكم الشهوات إلا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس، المنحطى الأفكار، بما لا يطيقون، كأنهم يبرهنون بأعمالهم هذه، وتهورهم فى الإسراف والإنفاق، على أنهم ليسوا أهلاً للثروة، ولا مستحقين للغنى، ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم. بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء، مُتْربين[7] لا يملكون شيئا، وإن كانوا فى صورة أغنياء مثرين، ويرغبون أن يكونوا تحت ذل الدّين وأثقاله، إذ رسموا على ذواتهم أن تكون فى قبضة أرباب الدَّين، يتصرفون فيها وقت ما يشاءون. ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الورود، شديدة البطش؛ فربما اجتاحت (زرعه) جائحة سماوية - (كالمعروف عندنا بالندوة أو الهيفة) - أو أصيب بموت ماشيته، أو نزلت به حادثة غرق أو شَرَق[8]، أو ما شاكل ذلك من المصائب التى لا مندوحة عنها، فيعجز عن الأداء، فتباع أملاكه، ويصبح من الخاسرين، ولايبقى له سوى الحسرة فى قلبه على ما فرط فى شأن نفسه. وكان من الواجب على هؤلاء المساكين - الأغنياء والمتوسطين - أن ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيها ما ينفعهم زمن الشدة، ويوفروا على أنفسهم شيئًا من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكريهة، وإلا فقد دلت التجارب على أن عاقبة الإسراف حسرة تملأ القلب، وحيرة تدهش اللب. وسنعود إلى هذا الموضوع مرارًا إن شاء الله.

عدنا والعود أحمد

إلى موضوع حب الفقر أو سفه الفلاح [٩]

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الإنسانية الجليلة، بل هو من أهمها، مدحته جميع الشرائع، وبينت فوائده. وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين: بذل، وإمساك. وأعنى أن الاقتصاد هو التوسط في الإنفاق، بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط، حتى لا يُبقى فيها شيئًا، ولا يقبضها كل القبض، حتى لا يُخرِج منها شيئًا، بل ينفق من ماله على حسب حاله، يقدم الأهم فالمهم، فيدفع الضرورة، ويقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وفقره، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للعوارض غير المنتظرة، التي قلما ينجو الإنسان من ورودها عليه بغتة من حيث لا يشعر. فإذا جمع الشخص بين الإمساك عما لا يلزمه، والبذل فيما هو أحوج إليه، فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم: «الاقتصاد نصف المعيشة». والمعنى أن المعيشة تقوم بأمرين: الكسب والاقتصاد في إنفاق ثمرته. فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين. فإن لم يحز الآخر وهو حسن التدبير فقد نصف معيشته، أى فقد انهدم أحد ركنى المعيشة. فإن حاز الأمر الثانى وهو الاقتصاد فقد تمت له المعيشة.

وتوضيح الحقيقة فى هذا الباب، أن من أجهد نفسه فى الاكتساب وتحصيل الأموال، ولم ينفق منها شيئًا على نفسه فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته، أو أنفق منها قليلاً جداً بحيث لا يفى بلوازمه، ولا يقضى واجباته، فهو - وإن كثر ماله وغزرت مادة ثروته، لكنه فى الحقيقة ناقص المعيشة - فقير جداً. وهذا الكاسب ليس إلا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ، فهو خفير فقير بيده مفاتيح الخزائن، ولكن كأنها مملوكة لغيره، لا ينال

منها شيئًا، ولم ينل إلا التعب والشقاء لا غير. وكذلك إن تجاوز في النفقة حد الواجب، بأن حدد لنفسه من الأمور ما ليس بلازم، وصرف جميع ما اكتسب أولا فأولاً، فإنه يكون في غاية من الفقر ـ وإن كثر الإيراد جداً ـ لأنه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئًا. فهو بمنزلة من يصب ماء في حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقي شيئًا مما يصب في الحوض؛ فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ؛ فهو في الحقيقة فقير جدا، إن ألمت به مصيبة أصبح مُتْرِبًا في غاية الاحتياج والاضطرار. يرشد إلى هذا كله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (سورة الإسراء ـ الآية: ٢٩).

وهذه القاعدة الجليلة، مع ظهور فائدتها في انتظام أحوال الإنسان، بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل، وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها، على ما نطقت به الآيات والأحاديث ـ نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف: بعضهم يميل إلى جانب الإمساك بالمرة، والبعض الآخر يميل إلى جانب الإسراف بالكلية. أما الأولون، فإنهم يصرفون جميع أوقاتهم في الكد والتعب، والأخذ بأنواع الحيل لتحصيل الدينار والدرهم، ثم يودعون جميع ما يحصلون بطن الأرض، وترتعد يد الواحد منهم عندما يقرب من الصرة أو الوعاء المحتوى على النقود. فإن وجب في ذمته لله أو للناس حق، صعب عليه أداؤه، فيكتسب الوزر والجرم، وينال من الناس الإهانة والتعزير في طلب حقوقهم، وتحيط به الضرورات بأنواعها، ولا يدفع شيئًا منها بشيء من ماله؛ بل إن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته، ولكنه لا يرضى بذلك، ويجب أن يدوم كما أودعه، لا يزيد إلا بما يضمه من خارج. ويقتر على نفسه في كافة لوازمه، فلا يحافظ على صحة بدنه، ولا يبذل شيئًا في تربية أبنائه وتهذيبهم، وإن كان على علم بأن ذلك واجب، خشية من نقص عدد من النقود. وإن كان ذا عائلة أضرَّ بها من عدم الإنفاق، وأهمل واجباتها، وتركهم يئنون تحت آلام الاحتياج؛ فمثل هذا السفيه أتعس حالاً من الفقير، فإن الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والإعدام، ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار، والتلذذ الوهمي بأن له نقوداً في بيته. فإذا مات، تركها لا يعلم بها أحد، لأنه اكتنزها في أخفى الأمكنة وأشدها بعداً عن الأعين، فيصبح أبناؤه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لا يملكون

شيئًا. فهذا الصنف من الناس خلق لأن يتحرك فى الهواء حركات الذرات غير الشاعرة، لا يدرى لأى شيء يغدو ويروح، وهو عاشق للافتقار والاضطرار، ويلتقى فى نهاية سيره مع إخوانه فى الرذيلة المسرفين.

وأما قسم المسرفين من أهالى بلادنا، فأولئك شأنهم غريب، إذا خَفَّت عنهم المغارم، وأقالتهم الحكومة من المظالم، وتوافر لدى البعض منهم شيء من النقود، وارتفعت أسعار المحصولات، أو جاد موسمها، ورأى بعضًا من النقود يَرنُّ فى يديه، قصد إلى سوق البضائع الإفرنجية - التى يعد اقتناؤها تمدنًا - يشترى أخَسها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها، حلْية لزوجته، وزينة لابنته أو ابنه، وبهرجة لنفسه يظهر بها، يظنها رونقًا يكسبه حليَة واعتبارًا، حتى يعود وقد صرف جميع ما توافر لديه. وربما كان مع ذلك بيته مُهدَّمًا يحتاج إلى البناء، ومضجعه خاليًا من الفراش لا يستر بسوى الحصير البسيط، وزوجته التى يحليها هى المنغمسة فى الأقذار، المكلفة بأداء جميع الأعمال الخسيسة، وليس عندها من الأوقات ما تتجمل فيه بتلك الزينة، اللهم إلا يوم المأتم والفرح، وأبناؤه الذين حباهم بتلك الزخرفة فاقدى التربية، متروكين فى زوايا الإهمال، يسره أن يراهم يلعبون ويتواثبون فى مساحة بيته المفترشة بطبقات من الأتربة، ثم إذا ازداد إيراده مرة أخرى رأيته يتفنن فى الولائم وإقامة الأفراح لأبنائه وأقاربه، تحت مصاريف متى فتحها على نفسه أخرجته عن طاقته، وأنفق فيها المئين والألوف، بجانب الأشياء التالفة التى لا قيمة لها سوى العدم، ويسره فى كل ذلك أنه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئًا من الفضائل.

وكان الأليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب مُعينًا له فى أعماله، يخفف عنه بعضها، فإن ما ينفق على المساعدين يأتى بالربح، ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها، أو يأتى لأهل بيته بمعين على أعمالهم، حتى ينالوا شيئًا من الراحة، أو يؤدب أولادهم ويهذبهم، على شَرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب، بل لابد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند الحوادث، وينظر للعواقب نظر الحكيم، ويكفيه من الأفراح أن ابنه خُتِن أو تزوج فى حياته، بلا احتياج إلى ما هو أزيد من ذلك.

فقد رأينا كثيرًا من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيهم بالمحصولات الجيدة، والأرزاق الوافرة، ثم ينفقونها عند ورودها فى أمثال هذه الزخارف الباطلة، حتى

إذا مضت مدة السكْرة التى أتى بها الإيراد، وطرقته نائبة من موت مواشيه، أو فساد زرعه بجائحة سماوية، أو خسران تجارته، أو كساد صناعته، أو حدوث أمراض أوقفته عن الأعمال، وكيسُه فارغ وبيته خال - إلا من الزخارف التى لا أساس لها - عمد إلى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته، ورهن أملاكه أو بيعها، حتى يصبح فقيراً معدمًا. وقلما مكنه الزمان من الرجوع إلى مثل حالته الأولى أو ما يوازيها، فيأخذ فى الانزواء قهراً عنه، ويخلع ثياب الفخفخة والزينة ويلبس رداء الخمول والفقر، وترميه العقلاء - بل وأمثاله من السفهاء الذين ذاقوا مثل ما ذاق أو ينتظرون عاقبة كعاقبته - بالسفه وضعف الرأى وقلة العقل، ويمسى ذليلاً محتاجًا بعد أن كان يظن نفسه غنيًا عزيزاً؛ فما أصعبها على النفس من حالة، ويا ليت النقمة خاصة بشخصه، ولكنها تأتى على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله.

وهذه الحالة نراها فى الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها، وهذا كما يَضُرُّ بهم وبحواشيهم يَضُرُّ أيضًا بثروة البلاد نفسها، إذ تحصر الثروة فى دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين، لوازمهم ليست بالكثيرة، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين فى الصنائع والبضائع، أى لقلة القادرين على اقتنائها، وتقل الرغبة فى الأعمال الزراعية، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك. وإن أغنى البلاد وأسعدها هى البلاد التى توزعت ثروتها على غالب أهاليها، ويزداد الضرر إذا وقعت الأملاك والمبيعات فى أيدى الغرباء والأجانب، الذين لا يسرنا أن نراهم واضعى أيديهم على غالب الأملاك العظيمة والأراضى الواسعة التى كانت فى أيدى أبناء البلاد، بل هذا أمر يحزن كل ذى عقل وإدراك، ولا يغفل عنه إلا غبى دنىء محب للفقر والفاقة.

وإننا لنخجل من حكاية هذه الأحوال عن أهالى بلادنا خوفًا من وقوع بصر الأجنبى عليها، فيعرفون منا ما لا نحب أن يُعرف، لكنا نظن أنهم على خبرة من أمورنا بحيث لا يفيدنا السكوت. ولكننا ندعو النبهاء بل والعلماء أن يجتهدوا فى بث هذه الأفكار بين عموم الناس، لعلها تنجح فيهم، ولا أراها إلا ناجحة، ونرغب إلى بعض ذوى الكلمة فى بلاد الفلاحين، بل وفى المدن، أن يلاحظوا ذلك، وينصحوا المتوغلين فى الإسراف على غير قاعدة راشدة، بأن يكفوا عنه، وأن يعتدلوا فى أحوالهم خيراً لهم من ضياع أموالهم.

«حب الفقر أو سفه الفلاح»

(نعود إليه من وجه آخر غير الذى بدأنا به)(١٠)

خُلق الإنسان ولوعًا بالمنفعة، حريصًا على إحراز الفوائد، نَفوراً من غائلات الأضرار، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبعيدها، ويجهد النفس فى توفير ثمرات الكسب، توقيًا من عوارض الاحتياج، وطوارئ الافتقار. وهذه فطرة ألهمه الله إياها لتكون له مخلصًا من تعاسة المعيشة التى تنشأ عن الاضطراب فى حفظ الحياة، فهو يتعب الجسم ويشغل الفكر ويواصل العمل ـ وإن كان فى ذلك نوع من الآلام والشقاء ـ ليعتاض من تعبه هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الأتعاب، وهى الاطمئنان على النفس، والوثوق بصونها من التهلكة؛ فترى العامل يشتغل بأشق الأعمال بياض نهاره، ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل، كأنما قهره عليه قاهر، وفى الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأن لو لم يشتغل لفقد أجر الاشتغال، وهو مادة قوته، وقوام معيشته فى مسكنه وملبسه وكافة ما يقى حياته من الزوال، فيستسهل هذه الأعمال البدنية فى جنب ما تأتى به من الفائدة الكلية، وهى حفظ الوجود، ورفع ألم الاضطرار الطبيعى وهو الجوع والعرى، وتسلط القوى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه. ومصداق ذلك ما نراه من السُّنن المقررة فى أهالى المعمورة عمومًا على اختلاف أصنافهم ومواقع أوطانهم: يشقى كل واحد شقاء جزئيًا وقتيًا لينال سعادة كلية ثابتة على زعمه؛ ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها، كلذة الراحة والبطالة، لتحصيل فوائد أعلى وأثبت. ولو سألنا حال الصبيان فى سن الرضاع، لنطق بحقيقة ما قلنا، فهل يرتاب بذلك أحد؟!.

لكننا من العجب نرى هذا الإلهام الإلهى ـ (إلهام الدأب فى السعى وارتكاب

بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) ـ قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل، فاستتر عن النفوس؛ فعاد الناس لا ينظرون إلا للغايات الوقتية، بل الآنيَّة، التي ربما لايكون لها امتداد أزيد من آن حصولها. وذلك بعد أن نذكره عاماً في غالب طبقات الناس، كما يشهد به العيان، من ميل جميع الطبقات إلى البطالة، والكسل عن تعاطي الأعمال التي يناط بها كل واحد منهم، استلذاذاً للراحة الوقتية، وركونهم إلى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان، لا يُحَكِّم الواحد منهم قانونًا، ولا يستفتي شريعة، طلبًا لمنفعة آنيَّة ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة. نذكره كذلك خاصًا في طبقة المزارعين من إخواننا الفلاحين، فإن لهم في ذلك شئونًا غريبة، وأطواراً عجيبة، أقْتَصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم.

يعلم كل زارع علم اليقين أن الزرع لا ينبت، والنبات لا يثمر، والثمر لا يجود إلا إذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني. ويوقن أن بلادنا ليست أقطاراً يكثر فيها نزول الأمطار فتعم المزارع بدون عمل منا، فننال حظنا منها ونحن رقود وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار ماء السماء؛ فإن ييس الجو مات النبت، ونزل القحط والعياذ بالله، بل يعلم حقًا أن الله منح أراضينا ماء النيل، روحًا لنبتها وحيوانها. وهو ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار، حاملاً من المواد المغذية للنبات ما شاء الله أن يحمل. غير أنه يحتاج إلى أعمال اليد في توزيعه على المزارع، وحفظها من الزيادة المفسدة لها، فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها، وإقامة الجسور والقناطر وما شاكل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضًا. ويتحقق كل فلاح أن هذه الأعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة، أو قيعان الترع غير عميقة إلى الحد الكافي لجلب المياه بسرعة، أو سدت مسالك المياه من أي وجه من الوجوه الطبيعية، لفسد الزرع: إما بالغرق العام، وإما باليبس الكلي المعبر عنه (بالشَّرَق)، فتتعطل مادة الرزق، ويسوء حال الزارعين على العموم.

جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم، ثم نراهم مع ذلك يفرون من الأعمال العمومية التي دعت إليها ضرورة حياتهم ـ على ما قدمنا ـ فرار الفريسة من المفترس، وما هذا الفرار إلا ملاحظة للأتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم قليلاً، وترك بعض أعمال خصوصية في البيت أو أرض الزراعة، وصعوبة العمل نوعًا.

على أن هذه الأتعاب لا تعد شيئًا بالنسبة إلى ما ينشأ عنها من الفوائد، وعن تركها من المضرات الكلية المؤدية إلى فقد الحياة، وعموم القحط. فلو أن لهم بصيرة واعية لقسَّموها على أنفسهم بالتراضي، كبيرهم يستوي مع صغيرهم في كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر، استجلابًا لمادة رزقه، بدون أن يحتاجوا في ذلك إلى سائق يسوقهم أو قائد يقودهم، خصوصًا في هذه الأوقات التي توافرت فيها الأفراد توافرًا تامًا، بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر؛ فكان عدد البلد الواحد الذي لا يزيد عدد القادرين على العمل فيه عن مائة، يؤخذ منه عشرون للعمل في «الجفتلك» الفلاني المتعلق بالست الفلانية، وعشرون آخرون «للأوسية» الفلانية التابعة للباشا الفلاني، وعشرة «لأبعادية» أخرى، وهكذا، فربما أتى يوم من الأيام لا تجد في البلاد إلا الشُّيَّاب والعجائز والصبيان. أما الآن، وقد علموا أن معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب، والباقون يشتغلون بالأعمال الزراعية في الأراضي، فلا يليق بهم التقاعد عنها، بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة إليها بكل ما في قوته وإمكانه، تعاضدًا وتعاونًا واتفاقًا تاما على جلب هذا الخير العظيم لأنفسهم عمومًا. وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعته التي لا طريق له سواها، ثم يتقاعد عنها، ويحتاج إلى من يجذبه إليها بالقوة القاهرة!!.

فإن تعللوا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه، ولكنهم ينفرون من الأعمال التي كانت تصدر من الحكام وتابعيهم: من الضرب المؤلم، والإرهاق المزعج، وإعمال سوط السطوة فيمن يذهب إلى مواقع الأعمال العمومية، وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل، والظلم البين، وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين إذ ذاك إلى بعض الجهات، لغرض ما، وانحرافهم عنها، فيخففون عن بعض البلاد ما يثقلون به كاهل البعض الآخر، حتى ينال من هذه أيضا مثل ما نال من تلك، فيقع التوازن والتعادل بين البلاد، لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب، إذ يخفف العمل عن الجميع بواسطة ما دفعوا من النقود، فيقيمون الزمن المحدد ثم ينصرفون إلى بلادهم بدون طائل، فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الأعمال العمومية، كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها، فأقول لهم في الجواب عن ذلك:

أولاً: إن تلك الأيام قد مضت وانقضت، وهى الأيام التى كان قَدْر الفلاح فيها مجهولاً، وكان يستعمل فى الأعمال كما تستعمل الدواب والماشية، لا يعلم لأى شىء يشتغل، ولا لأى شخص يعمل: هل لنفسه أو لغيره؟ حتى صار يعد جميع الأعمال لغيره لا لنفسه. أما الآن، فقد عرفت الحكومة قَدْر رعاياها، وتقدمت إليهم بجميع الوسائل النافعة لهم، وسارت أوامرها الشديدة فى أنحاء البلاد سيراً حثيثًا، ناطقة بأن لا سلطة لأحد من الحكام على أحد من الناس إلا فيما ينفعهم، ويعود عليهم بثمرات الثروة، والوقاية من موجبات الضرر. وقد شاهدنا رأى العين أن كل من ينحرف فى سيره رمقته عين الحكومة التى لا تغفل، حتى تتحقق سوء فعله، فتأخذه بجرمه، أو تضعه تحت المحاكمة كائنًا من كان. وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا. أفيليق بالزارعين بعد ما رأوا صدق عزيمة الحكومة فى تعميم المنافع بينهم، وأنها تجدّ كل الجد فى تيسيرها بأى الوسائل، أن يتقاعدوا عما علموه منفعة لأنفسهم؟ استحضاراً للصور الماضية وإن كانت هائلة تنزعج منها النفوس؟!.

ثانيًا: إن الذى دعا أرباب السلطة فى الزمن السابق إلى التطاول عليهم، إنما هو تباطؤهم عن منافعهم، بتفرق الكلمة فى طلب المنفعة العائدة على الجميع. فلو أنهم صدقوا جميعًا فى تتميم ما يجب عليهم من الأعمال، وكل واحد يشتغل وهو يعلم أن هذا العمل عائد إليه بالنفع، كعمله فى مزرعته بلا تفاوت، فهل كان يمكن لأحد أن يثقل عليه أو يخفف عنه؟ كلا. . إنهم كانوا جميعًا يقدرون على ردع الظالم وتبديده، لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره إلى من فوقه، وإظهار حاله الرديئة، فلايستقر قدمه بينهم. ولكن ظنهم أن العمل أجنبى للحكومة لا لهم، هو الذى بث فى نفوسهم حب التخلص منه بأى الوسائل، فيتداخل كل منهم فى صرفه عن نفسه بكل ما يمكنه، فيقع الظلم على البعض بل الأغلب من جهة، ويختل نظام الأعمال من جهة أخرى، لوقوع التهاون من البعض الذى أرضى الحاكم السافل. وهذا جهل بيِّن فإن الحكومة لا شأن لها فى هذه الأعمال إلا إيصال الخير إلى رعاياها، فهم الغاية المقصودة بثمرة العمل. فليس من العقل بعدما تحققوا هذا المقصد ـ فى عهد حكومتنا الحاضرة ـ وأن سلطة الباشوات و«الستات» والمأمورين قد ارتفعت، ولم يبق إلا سلطة الحق والمساواة، أن يتقاعد مُكَلَّف بعمل ما عن عمله، اللهم إلا أن يكون سفيهًا يستحق الحجر عليه.

على أننا ننظر فى أحوال الفلاحين أمراً أغرب من هذا الذى قدمنا، وهو الإعراض عن الأعمال الخصوصية المتعلقة ببلد واحد، كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه، أو المحافظة على القنطرة المقابلة له. فيعلم أهل البلد علم اليقين أن ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه، وتعطلت زراعتهم، إما بتلفها كلية وإما بالنقص فى ثمراتها، وأن المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلاً، أمر لابد منه، وإلا اندفعت المياه على أراضيهم فأفسدتها. ثم إن عملية التطهير ربما لا تحتاج إلى أكثر من أربعة أيام أو خمسة. ومع ذلك ترى كثيراً من البلدان يهملون المساقى الخصوصية التى لا طريق لرى المزروعات سواها؛ فإذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الأراضى عن يمينهم وعن شمالهم، وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها. وكلما دعاهم داعٍ فى أيام التطهير إلى العمل، يحتج كل واحد منهم بحجة أن له شغلاً خصوصيا فى بيته أو غيطه يمنعه من ذلك، حتى تمضى الأيام ويأتى وقت الندم حين لا ينفع. فإن لم يكن فى البلد «عُمْدة» يهمه أمر زراعته، لأنها أكثر من زراعة الباقين، فيلجئهم إلى العمل قهراً لتعمهم الفائدة - وإن لم يبعثه إلا المنفعة الخصوصية لكنها أوصلت إلى العمومية - فهذا حالهم.

فانظر إلى هذه الحالة الرديئة التى نشأت من تفرق القلوب وانقطاع التواصل بين النفوس، فلا يهتم واحد بعمل يشترك فى منفعته مع آخر، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه؛ كأن اشتراك الغير فى المنفعة صيرها مضرة ينبغى اجتنابها. وكان من الواجب أن الاشتراك يدعو إلى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط، فكأنهم سُلبوا الخواص الطبيعية التى لإنسان الجبال والغابات. وقد علمت الحكومة ذلك، فأرسلت إلى المديريات بالتأكيدات الشديدة لتتميم العمليات الخصوصية، ومع ذلك لم نزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئًا فى لوازمها الخصوصية، فكان المأمورون يعاملون الفلاحين بما فى نيتهم. لكن ليس هذا غرض الحكومة. فالواجب على كل مأمور فى جهته أن يهتم بتنجيز أعمالها الخصوصية، فقد أزف وقت العمليات العمومية، ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصى، وإلا فكل مأمور سيُسأل عن جهات مأموريته، وإن عاقبة السؤال غير مجهولة. نسأل الله أن يصلح أحوالهم، ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدوا إلى حسن المآل، ويوفقوا لخير الأعمال.

إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية(١١)

عرض إلى نظارة الأوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضى الله عنه فى تاريخ ٣ القعدة ما مفاده: إن مجلس ذكر «السعدية» الذى ينعقد بذلك المسجد فى كل يوم ثلاثاء، لا يُذْكَر فيه اسم الله إلا مصحوبًا بضرب الباز ـ (نوع من الطبل ذى الصوت المزعج، معروف). ولما فى ذلك من تشويش الأسماع، نبهنا عليهم مرارًا بإبطال هذه العادة ـ (وأن يذكروا الله ذكرًا مجردًا عن الطبل) ـ فلم تثمر التنبيهات أدنى ثمرة. وحيث إن الزائرين لضريح الإمام الحسين، وطلبة العلم، وجهوا اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون: إنها من المحرمات شرعًا، ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الأمر بإبطالها، فكتب من نظارة الأوقاف العمومية إلى حضرة فضيلتو شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية ما معناه:

قد تبين من إفادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها، وحيث إن النظر فى ذلك مختص بسيادتكم، بعثنا بها إليكم لإفادة الحكم الشرعى فيها. فوردت إفادة حضرة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية إلى ديوان الأوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أى ونحوه) فى المساجد مما لا يسوغ شرعًا، فعلى ديوان الأوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه. ثم زاد حضرة الأستاذ فى حاشية رقيمة: إن ذلك ليس مختصًا بالباز، بل هو عام بكل ما أوجب تشويشًا على المصلين، حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله فى المسجد إذا ترتب عليه التشويش، وكذلك كل ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد، كاختلاط الفتيان

بالفتيات، ومزاحمتهم ومكاتفتهم معهن في المساجد المحترمة. فصدر أمر نظارة الأوقاف إلى مأموري أقسام أوقاف المحروسة بإلزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لقسمه، وأرسلت إلى كل منهم صورة الإفتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الأزهر، ونبهت عليهم بالاطلاع عليه، وفهم ما أودعه من الحكم الشرعي، والسير على مقتضاه، وأخذ التعهدات القوية على خدمة المساجد دوام المراقبة والتيقظ لمنع أي لفظ يوجب تشويشًا على المصلين أو إخلالاً بحرمة المساجد اتباعًا لنصوص الشريعة الغراء. اهـ(١٢).

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة، والسنة القويمة، وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة، إذ وجه أولو الأمر منا نظرهم إلى تخفيض شأن البدع وإزالتها. فلنشكر همة سعادتلو ناظر الأوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف، واهتمامه باحترام أماكن العبادة، وصيانتها عن وقوع اللهو وسيئ الأفعال. ونُثني كل الثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين؛ فلقد نسمع بعضًا من الجهلة، بل عددًا وافرًا منهم يقول: هذه سنة وجدنا عليها آباءنا، وأخذ العهود علينا باتباعها أشياخُنا، وطبعت على حبها قلوبنا، وتمرنت على القيام بها أعضاؤنا؛ فكيف يصح أن يحكم علينا بتركها؟! إن هذا لشيء عجاب! تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدعين، يُهدرون دم الشريعة طوعًا لأغراضهم، وتنفيذًا لأحكام عاداتهم. ولبئس ما كانوا يصنعون. ويأبى الله إلا أن يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدْحة تصدر من جاهل لا تغني من الجاه شيئًا.

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الأوقاف أن المنع خاص «بالباز» وطريقة «السعدية»، أو بالطبل على العموم، بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشًا على مصل، أو إخلالاً بحرمة مسجد؛ فيدخل في المنع طريقة «المغاربة» المنسوبة للسيد «عبد السلام الأسمر» (كذبًا وافتراءً). ومن شعائر أبناء تلك الطريقة، اتخاذ طبول متنوعة، بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على

أعناقهم وقت الذكر، وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضًا، وبعضها مستدير (يعرف بالطار) إلا أنه كبير ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان، ولا يجتمعون للذكر إلا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت. فإذا قاموا إلى الذكر، غطوا شناعة أصوات تلك الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة، يجأرون بألفاظ لا مدلول لها. وعندما يشتد خمر الأوهام فى عقولهم، يهيمون هيام المعَاتيه، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ويأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه، ويلامس بها بدنه إظهاراً للكرامة. وحاش أن يكون ـ من الكرامة ـ كل ذلك مع حركات شديدة، واختباط غريب. ومن عادتهم أن يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده، فيجتمع عليهم الناس ويزدحم المتفرجون ويشوشون أذهان الزائرين، وهذا حظهم. ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التى يجريها الجهلة فى بيوت الله المعظمة.

ولا يخرج من حكم المنع أيضًا ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الأولياء، رضى الله عنهم، وإن لم تكن مساجد، لمنافاتها الأدب الواجب فى حقهم. على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يُقْرَن ذكر الله بآلات لهو على العموم، بدون استثناء، خصوصًا وأنه لا يشك عاقل فى أن قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها إنما هو اللهو والطرب الممنوعان شرعًا. يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم فى نفس محافلهم الموقرة، وتهافتهم فيها على ما لا يليق بشأن العبادة. ولو كلف أحدهم أن يهتف بذكر الله مرة وهو وحده لم تسمح له نفسه بذلك، ولكن يحركه إلى هذا الذى يسميه ذكراً حب الطرب والميل إلى اللعب، وأقبح شيء فى هذا الباب اعتقادهم أن طاعة شهواتهم هذه طاعة لله. نعوذ بالله من الزيغ. ولا ريب أن علماءنا ـ رفع الله قدرهم ـ سيفرحون بمنع هذه البدع فرحًا شديداً، ويرجون من عدالة الحكومة إزالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع، ويعاب على العقول السليمة أن تقره.

ويشمل حكم المنع أيضًا الازدحامات التى تكون بالمساجد الشهيرة فى أيام تعرف «بالحَضْرات» كيومى الأحد والأربعاء بمسجد السيدة زينب، ويومى السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين؛ إذ يختلط فيه النساء والرجال على

هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعًا، ويجرى فيها من الفعال القبيحة ما لا يليق ذكره. ولا يدع الازدحام مكانا لمصلٍ يصلى فيه، ولئن وجد المكان فقلما يستطيع أداء الأركان بدون تشويش فيها.

فهذا الأمر الذى أصدرته نظارة الأوقاف متبعة فيه إفتاء شيخ الإسلام - حفظه الله - يعتبر أساسًا جليلاً لمنع كثير من البدع، وقد فتح به باب من الخير لابد من الوصول إلى غايته إن شاء الله، وسيسرى ذلك من القاهرة إلى بلاد الأرياف، فعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن تمسهم يد الحق فيجبروا على العدول غير مشكورين.

وخـامة الرشـوة[١٣]

ورد من مديرية الجيزة فى ١٩ ذى الحجة سنة ٩٧:

«قبض على أشخاص من ناحية «كومبره»[١٤] معهم أربع «زكايب»[١٥] ملح «برانى» بها ٥٠٧ أقة و٣٤٠ درهما، بواسطة مندوبى المديرية، بإرشاد متعهد المصلح بناحية «بولاق الدكرور»[١٦]، فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشا وكسورا، على وجه الرشوة، فورِّد المبلغ للخزينة، وها هو اللازم جار لإتمام التحقيق، ومحاكمة الأشخاص، ومبيع الحمير التى كانت حاملة للملح، لنُورِّد أثمانها للميرى، حسب المنشورات فى هذا الشأن» اهـ[١٧].

قد تقرر فى عقول جهلة العوام أن الرشوة هى السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها، فيقدم الواحد منهم على مخالفة الأصول المتبعة، أو يخل بالأمن والسكينة، أو يهتك حرمات الحقوق، اتكالاً على ما يضمره فى نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة من العقاب، أو الحصول على غرضه بأى وجه كان. وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لا يصح أن يقضى أمرا فى مصلحته لأحد إلا بالرشوة، ولذلك يرون أنه من الوجوب على من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحته أن يقدم إلى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل، غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التى انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه فى رأس كل شهر. ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التى لا تشمئز منها طباعهم، ولا يستنكرها أحد منهم، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد، ودفع الغوائل. ومن الناس من تكون حقوقه بينة جلية الثبوت، خالية عن عناد خصم أو تدليس محتال، ولا يكتفى بذلك فى اقتضائها،

فيسارع إلى الرشوة يدفعها لمن يرجع إليه تخليص حقه، غنيمة باردة، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها، وهو من سفهه يتوسل ويتضرع إليه في قبولها منه، لظنه أن لا نجاح بدونها. وليس ذلك إلا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم، تَقَرُّبًا لذوى المناصب، وتذللاً خبيثا لا يُجوِّزه الشرع ولا القانون، وتنفر منه نفس كل ذى إحساس إنسانى، مع أن حفظ الأموال من الضياع فيما لا ينبغي، وصرفها في وجوهها الضرورية، كالمطاليب الميرية والنفقات اللازمة، أليق بفعل العقلاء، وأصون لحرمات القانون، وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة، إذ لو كف كل ذى حق عن أداء الرشوة، واعتصم بالطريق الأقوم، وخضع للأحكام الحقة، لتحصل على حقه بدون أن يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة إلا بالحق، وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتثبطه طمعا في ما يأخذه منه.

على أن أي متوظف كان، وإن بلغ ما بلغ من الزهد والعفة، فلا أظنه يمتنع عن تناول ما يقدمه الغير إليه بالرغبة والرجاء، خصوصًا إذا أكثر التردد مع ظهور الحق له. فإذا مد يده إليها، تعود شيئا فشيئا، حتى يرتشي في الحق والباطل، وبالرهبة بدل الرغبة. فالعلة الأولى في فساد أخلاق بعض المتوظفين هى رغبة ذوى اليسار في إرشائهم بدون تأمل، فيعوّدونهم على ذلك، وحينئذ فما يلحق الراشى من اللوم أشد مما يلحق المرتشى، وإن كان كل منهما مجرما، لأن الأول ضَيَّع ماله، واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوى فيه الحاكم والمحكوم عليه أمام القانون، وأمال المرتشى لأخذ الرشوة، وقوى طمعه، ودله على الشره، وكلف نفسه بما لم يُكَلَّف به.

ومن غوائل الرشوة، ما رأيناه في الزمان السابق يحصل كثيرا بين الخصماء، حيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الأموال، رشوة بالغة ما بلغت، في سبيل إعنات خصمه، والحصول على غرضه، وإن زادت النفقات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافا مضاعفة. ومثل ذلك كثير، لا يمكن الشرح أن يأتى على بعضه. وهذه الحادثة المتقدمة تشهد بالتقريب لما قلناه، فإن ما دفعه الأشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن الملح الذى كان معهم. فلو أنهم اشتروه

على الطريقة المألوفة، لما وقعوا فى الخسائر الجمة، وأثقال المحاكمة، ولكان ذلك أقرب إلى وفرة الكسب، وأسلم للمال والنفس. ولكنهم ظنوا أن الزمن الحاضر هو السالف، والحكومة هى هى، فسهل عليهم أن يتعدوا الحدود، ظنّا منهم أن الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندوبين وأمانتهم.

ومن العجب، بل ما يُتَأسَّف عليه غاية الأسف، أن الأهالى مع علمهم بأن الحكومة تنادى بمنشوراتها وأوامرها وإجراءاتها الفعلية بألا يستقر فى وظائفها سوى ذوى الاستقامة والعفاف، وأنها تبادر إلى عقاب المرتكبين ولو بالمظنة، نرى البعض منهم، بل الكثير، لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك، التى سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الأزمنة السالفة (وصعب على الإنسان ما لم يعود) أليس كان من الواجب على الأهالى أن ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا فى طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التى سهر فى إنشائها وتنقيحها أولو الأمر، طلبًا للعدل ورغبة فى الإنصاف، ويتفق أهالى كل جهة على ألا يدفعوا الذى وظيفة شيئا من الأشياء، بل يسلموا أمورهم إلى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه؟ فإن الحاكم إذا لم يكن له ميل إلى أحد الجانبين، لغرض كهذا الغرض الخبيث، فلا يرى سبيلاً ولا يجد من نفسه داعية إلا إلى الحكم بالقانون، فإن أخطأ فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا، يستأنف فى كل منها النظر فى القضايا من أى نوع.

لا نشك فى أن سلوك طريق الاستقامة أهدى وأقوم، وأفيد للعموم والخصوص وأحكم. أما تلك الطرق العتيقة فهى قريبة العطب، شديدة الخطر، لا نرى لمرتكبها نجاة، خصوصا فى هذه الأوقات التى أصبح بصر الحكومة فيها حديدا، ومن توارى تحت التستر وقتا ظهر بعار الفضيحة فى آخر. نسأل الله الهداية والتوفيق لأرْشَد طريق.

العفة ولوازمها (١٨)

سبق أننا أدرجنا في جريدتنا فصلاً معنونًا بالرشوة ووخامتها، بيّنا فيه أن هذا الداء المميت، لروح العدل، المفسد لمزاج النظام، أزمن فى طباع الأهالى من زمن بعيد، حتى ظنوه صحة، وحسبوه حالاً لازمة لهم، وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم، ويجازفون فيه بأموالهم، مع عدم التبصر والتدبر، وانتفاء الموجب والمقتضى. ولا يقتصرون فى أداء نقودهم وعروضهم لأرباب الوظائف - إن قبلوا منهم - على حالة الضرورة، وربما يؤدون على طريق الرشوة ما يساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه، وهذا يعد من سفه الرأى، وقلة العقل، ودناءة الطبع. وكان من الواجب على أرباب الحقوق أن يعلموا أن الوظائف ليست للموظفين مجانا، بل كل متوظف له مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته، يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة، التى هى خزينة الأهالى حقيقة، فلا حق لمتوظف أيا كان أن يأخذ «بارة» من أحد من الناس فى مقابلة عمل من الأعمال، بل كل ما أخذه فهو سحت. وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم: «كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به»، أو كما قال. وقد أجمعت الشرائع الإلهية على لعن الراشى والمرتشى، واتفقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرد والخزى واللعنة على كليهما أيضًا.

غير أن كلامنا فى ذلك الفصل لم يكن موضوعه أن الموظفين يتعاطون هذا الأمر على العموم، بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذى ينهر راشيه ويبعده. وكيف يصح التعميم، مع علمنا عين اليقين أن فى رجال الحكومة وموظفيها الأعفاء المنزهين؟ ولولاهم لما استقامت الأعمال وانتظمت الأحوال، وهم معروفون بين

الناس، تشهد لهم أعمالهم، وتنشرح صدورهم، وتثنى عليهم سرائرهم عندما يحسون من أنفسهم الاستقامة وسلامة الذمة. حتى كأنى بالرجل العفيف منهم عندما يخلو بنفسه، ويدخل إلى مخدعه، يحدثه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم، الذى عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة. وربما كان محتاجا إليه، ومع ذلك كف يده عن أخذه، وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه، حفظا لشرفه، وصونًا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء، بل والسفهاء، إذا ذكر عنه أنه ارتشى، ومراقبة للأحكام الإلهية والعهود الإنسانية. فعندما يرى لنفسه هذه المزية الشريفة يطير فرحًا وهو وحده، وتكون صداقته سميراً ومحدثًا له ينسر بمرافقتها وملازمتها، ويتحكم فى نفسه سلطان الافتخار الذى لايعارض فيه أحد. فأمثال هؤلاء (الأعزاء الوجود) هم عماد الملك وقوام النظام، وإن دوائر حكومتنا متشرفة بهم.

بخلاف أولئك الساقطى الهمة، الفاسدى الأخلاق، الذين يقبلون ما يقدم إليهم من أرباب الحاجات، قليلاً كان أو كثيراً، أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم، أو بتعطيل أشغالهم. إذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة: إن شاء الله يكون قضاها، فإذا جاءه مرة ثانية قال: اذهب إلى غد، فإن جاء فى الغد عبس فى وجهه، وقال: إن عندى أشغالاً أهم من شغلك، ونحو ذلك من المماطلات. وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد، حريص على نيل مقصوده، فإن كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكنى ويلوح ويعرض، حتى يتنبه الطالب إلى الغرض، فيبذل ما يُقَصِّر به على نفسه مدة الطلب. ولولا جهله ما فعل. فهؤلاء الأشرار وإن استتروا تحت ذيل الحيل والخدع يومًا، فلابد أن تنتشر فى الجو روائحهم الكريهة. وربما غضت عنهم الأبصار زمنًا، لكن لابد من نفوذ أشعتها إليهم فى آخر، فإذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربةً على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق التى لا تفلت. ولعلهم بقبح سيرتهم، ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة، وشدة حرصهم على إخفاء هذا الأمر الشنيع، تراهم إذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ما صنعوا من الحيل لالتهام الأموال، وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة. فرب صاحب حاجة ذكى نبيه يشكو أمره لمن فوق، ورب رقيب من طرف الحاكم اليقظ يطلع على وجوه حيله، ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائراً إلى بيته، ورب حر غيور يبصر الهدية وهى

طارقة باب منزله، ثم يأخذ يعلل نفسه بأن تلك الإشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين، وذاك كان خفيا على المراقبين. وهكذا تستولى عليه الأفكار السيئة والأوهام الخبيثة، فيبيت مضطربًا خائفًا مرهوبًا، لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع إلى قبيح صنعه، فخُبْث السريرة يكون بمنزلة «منكر» و«نكير» يحاسبه ويعاقبه على ما فرط منه، خصوصًا وأن قلبه وعقله فى كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للإنسانية، منافر للطبيعة. إذ لولا ذلك، لما حافظ على إخفائه كالسرقة والنصب، بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك، فإن عاره أشد وجرمه أعظم، وكفى بهذا عقابًا وعذابًا لو كان له عقل وبصيرة. طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا، وقطع من الكون دابرهم.

وإنه ليسرنى ويملأ قلبى ابتهاجًا ما سمعته من أن كثيراً من المتوظفين تكدروا من قولنا فى ذلك الفصل «على أنى لا أظن أن المتوظف، وإن بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح، يمتنع عن أخذ ما يقدم إليه بطريق الرجاء، وخصوصًا مع ظهور الحق لصاحب التقدمة إلخ»، خوفًا على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكلية، فيمسهم ولو بطريق الوهم شىء من عار هذا الوصف الشنيع، أعنى أخذ الرشوة وعلى أى وجه كان. فإن تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعفتهم وحبهم ألا ينتظموا فى سلك المتصفين به، ولو فى مفهومات الألفاظ على وجه بعيد. وهذا غاية فى المحافظة على الشرف، والنفرة من هذا النقص الذى موت الإنسان خير من أن يتصف به.

لكنى أقول: لو دققوا النظر لما تكدروا من هذه الجملة، لوجهين:

الأول: الاستثناء المتقدم فى صدر العبارة، والمفهوم من السياق.

والثانى: أن منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم إليه ويسكت حتى يحصل الرجاء. وإننى أعلم أن العفيف لا يتجاسر أحد على أن يقدم إليه شيئًا متى اشتهر عنه ذلك. ولو اتفق أن أحدًا بذل له رشوة ولم يقبلها، فلا يصح له السكوت عليها، بل عليه أن يخبر فى الحال جهة الاختصاص به، حتى يعاقب الراشى، وتضاف الرشوة إلى جانب الديوان، فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها. أما إن سكت على ذلك واكتفى بالمنع من جهته، فإنى أراه

موضحًا لقولنا فى الجملة السابقة، فإن كثرة الرجاء تلين الحديد إذا كانت فى أمر يتكلف الشخص فيه مشقة، فما ظنك إذا كانت فى إيصال منفعة إلى المرجو.

وإنه ليعجبنى جدًا ما ذكر فى قانون العقوبات من قوانين المحاكم الجارى عليها العمل فى بلادنا فى باب الرشوة منه ببند ١٠٧ حيث قال فيه: «المتوظف أو المأمور الذى قدمت له أو أعطيت له عطية وعده بشىء ما لأجل التوصل إلى الغرض السابق ذكره (أداءه عمل من أعمال وظيفته ولو كان العمل حقًا أو لامتناعه عن الأعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فورًا جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة بحق الرشوة». على أن هذا الإنذار لو لم يكن مثبتًا فى القانون لوجب أن تثبته الذمة والغيرة. فإن من عُرض عليه شىء على سبيل الرشوة إذا كان غيورًا وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة مَن عرض عليه، لوجهين:

الوجه الأول: خصوصى، وهو الانتقام من الشخص الذى ظن السوء فى هذا المتوظف، بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه، فهو ينتقم منه.

والثانى: عمومى، وهو أنه إذا عوقب الراشى لسبب إخبار المتوظف، وشاع ذلك بين الناس، يقع الرعب فى قلوبهم، ويخافون من أن يقدموا شيئًا لمتوظف خشية أن يخبر كما أخبر ذاك، فيقع الراشى تحت العقاب، فينكف أرباب الحاجات عن البذل خوفًا، حتى ولو مد المتوظف يده طالبًا الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لإيقاعه فى الخطر. هذا من جهة ذوى الحاجات. وأما من جهة أرباب الوظائف، فإنهم متى سمعوا أن فلانًا أخبر براشيه، وظهر اسمه، وانتشر ذكره، خصوصًا إذا ترتب على ذلك رفعة قدره، اقتدوا به لينالوا مثل ما نال فى ظهور الشرف والفخار، فيمتنعوا عن قبول الرشوة، بل يتسببوا فى إضافة أموال جمة إلى بيت المال، ويقع التنافر والتسابق فى فضيلة العفة والاستقامة.

وقد بَلَغَنَا أن بعضًا من موظفين أخبر الجهة الموظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك، لكن بمبالغ زهيدة ربما يسمح بها الخاطر، لإظهار العفة، فينال شرفها بقيمة زهيدة. ولم نسمع بأن موظفًا أبلغ جهة عمومية بمبلغ وافر من تلك المبالغ التى كنا نسمعها، وهى التى يعد التعفف عنها تعففًا حقيقيًا، ومع ذلك فإنا نشكر المتزهد عن القليل والكثير.

وربما يتوهم بعض ذوى الاستقامة أن فى الإخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له، فالستر عليه أولى. فهذا الوهم خطأ صرف، لأن الله تعالى جعل من العقاب حكمة بالغة، وهو ردع النفوس الشريرة حتي يقل الشر أو ينقطع. قال الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة ـ الآية: ١٧٩). والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة، لكن يرتدع بسببه أشخاص كثيرون ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس إذا لم يعلموا أن جزاءهم القتل. فترتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة. فكان فى القصاص الذى هو موتٌ حَيَاةٌ. وإن الشفقة والرأفة على من استحق العقاب غير جائزة، بل مخالفة لأمر الله. فقد قال فى سياق حد الزانى والزانية: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ (سورة النور الآية: ٢). وهكذا الذمة والإلهام الإلهى المودع فى طبيعة النوع البشرى يرشداننا إلى ذلك أى أن الواجبات الإنسانية تطالبنا بأنّ من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة، وتؤدى إلى مفسدة عامة، كالرشوة، وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه، فإن فيه صلاحًا له بعدم عوده، وردعًا لغيره.

وبالجملة، فإنا نؤمل من ذوى الاستقامة أن يكونوا قدوة للناس، ودعاة إلى مثل أخلاقهم، وذلك لا يكون إلا بظهور آثارها، وإجراء ما يوجب التنافس فيها، والمسابقة فى ميدانها. وإن داء الرشوة، وإن كان لا ريب يظهر أثره على المبتلى به، فيكون ممقوتًا وإن اجتهد فى إخفائه بإظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه، أو أخذ العهود والمواثيق على من يقدم إليه هذا السحت، لكن لا يظهر رسمًا على وجه مطّرد ـ حتى تظهر المجازاة عليه، وتعرف عند العامة والخاصة، فتعود الأنفس علَى تصور عاقبته ـ إلا بطريقة إخبار المتوظف بمن يرشيه؛ فإنها تظهر لنا شطر المقصود، والمراقبة والتيقظ يظهران الشطر الثانى (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى أن يكثر فى بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء، ويمحق أولئك المجرمين الأشقياء.

ما أكثر القول وما أقل العمل [(١٩)]

إن من أخس الأوصاف وأدناها أن يقول الإنسان ما لا يفعل، وأن يدل غيره على ما ضل هو عنه، وأن يعيب على الناس ما لا يعيبه هو على نفسه.

وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه، ومعترف بنقصه من وجه آخر، وخبيث المقصد دنيء الهمة من الوجه الثالث.

أما جهله، فلأنه أدعى بما ليس فيه من علم أو فضل، مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله. بمعنى أنه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلاً ينتفع به عموم الناس، ويعترف بنفاسة ما فيه العقلاء والمتبصرون من أى أمة. ولم يكشف حقيقة، ولم يحلّ مشكلة، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه. فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق المسموعات على المشاهدات وواقع الأمر، فإن لم تجدها مطابقة رمت بها فى وجه قائلها، فتقلب دعواه مقتًا عليه، ويسقط من قلوب الناس أجمعين، إذ لم يروا له أثرًا يفيدهم سوى أنه يخبر عن نفسه بأوصاف لا حقيقة لها. وكذلك إذا أرشد إلى غاية هو متوجه صوب ضدها، ويظن أن الناس يسترشدون بإرشاده، فهو لا محالة مُطبق الغفلة مُركَّب الجهل، إذ لا يعلم أن الأفعال تؤثر فى النفوس أضعاف ما تؤثر الأقوال. فإن القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب، فتتردد فى مفهومه، فلا يقودها إلى العمل إلا بعد تكرار وتذكار. أما الفعل، فهو أمر مشهور ينطبع فى النفس أشد انطباع، فتندفع إليه، خصوصاً إن كانت فيه لذة معجلة. وإن عاب غيره وصفاً هو موجود فيه، فقد جهل أن ذكره لعيب الغير ينبه الأذهان للنقص القائم بنفسه. فإن المتكبر مثلاً إذا ذم الكبر فى غيره، فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر، فهو جاهل بنفسه وبما يعود عليها، وهو ظاهر.

وأما اعترافه بنقصه وعجزه، فلأنه لم يصدر منه ذلك ـ أى الدعوى بما ليس فيه وترغيب الناس فيما لا يرغبه لنفسه، أى فيما ليس بمتصف به بل هو منحرف عنه وذكره لمثالب الغير وهى فيه ـ إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله، ويظهر لهم وصوله لما يهديهم إليه، وخلوه من النقص الذى يلوم عليه الغير، حتى يعظموه، ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته، حيث علم أن الكمال الذى يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع. وكأنه بذلك ينادى على نفسه بأنه لم يبلغ من ذلك شيئًا، لأنه لو بلغ الكمال الذى يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره، شاهدة بعلو مقامه، سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع، وسواء نقص غيره أو كمل. ولم يكن هناك داع لمدحه لنفسه أو ذمه لغيره، بل تكون آثار فضله فاعلة فى النفوس، جاذبة لها إليه بذاتها. فمن تكلف الإطراء على نفسه بوصف من الأوصاف الفاضلة، أو رام إظهار كماله بالحط من قدر غيره، فذاك معترف بأنه خال من الفضيلة، حيث لم تشهد له الحقيقة، فاضطر إلى النداء بالكذب، ليقنع السامعين بأنه كذلك.

وأما خبث مقصده ودناءة همته، فلأن مَنْ هذه صفته لا يريد أن يكون ذا فضيلة قط، ولا يبتغى الوصول إلى كمال، ولكنه يطلب عيشًا حيثما اتفق. فإذا جلس إلى بعض البسطاء أو غيرهم، طلب التلبيس على عقولهم، ليقرر فى نفوسهم أنه بالصفة التى يذكرها عن نفسه، أو يرشد إليها، وأنه خال من العيب الذى يسب به غيره، ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض أغراضه الخسيسة، أو يستفيد منهم حطامًا يسد به بابًا من أبواب نهمته وشرهه، فهو فى ذلك بمنزلة المشعبذين أو المختلسين أو السارقين، ونحو ذلك من كل ذى حيلة خسيسة لجلب الأموال، ولايختلف عن هؤاء إلا بالاسم فقط، حيث يقال إنه غش الناس بحكاية الكذب عن نفسه.. وهو المسمى فى عرفنا (بالفَشْر ويقال لصاحبه فشّار).

فالقول الذى لا يعضده الفعل يُحْسب من أردإ الأوصاف وأقبحها؛ لأنه يشعر بوجود أوصاف تشهد البداهة بقبحها. ومن المؤسف، أن الوصف يوجد فى كثير من أهالى بلادنا، بل فى الغالب منهم، بل لا يوجد القائل الفاعل إلا قليلاً جدًا. (وإننا نخجل من تسجيل مثل ذلك فى الجرائد، ولكن أى فائدة فى إخفاء عيب فينا عرفه الغير منا، فحق علينا أن نُذَكِّر به لعلها تنفع الذكرى؟!).

إننا، إن طرقنا المجالس الخصوصية فى بواطن البيوت والأندية العمومية فى الأماكن العامة، لا نعدم قائلاً عن نفسه: إنه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها، وطالع الكتب العالية، ووقف على المباحث الجليلة وكشف بواطن الدقائق الخفية، واستطلع الأسرار، وكان مع ذلك مشهوراً فى زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء، وتوقد الفكر وقوة الحافظة ونحو ذلك.. وآخر يقول: إنه بلغ من الاقتدار على الإقناع فى الجدل والإفحام عند المخاصمة، وتفهيم الطالب عند الاستفادة حدّاً لا يصل العالمون إلى غباره، وإن له من طريق الإقناع والإفهام ما لا يتيسر لغيره معرفتها، وإنه يحيى بكلامه الأذهان الميتة، ويحشر إليها صور المعلومات، ويودع فيها أسرار الكائنات.. ولو سألت كل واحد من الذين يُظنُّ فيهم وصف العلم والتعليم، لرأيته يحدث عن ذاته بكل الذى قلناه، ويقول: لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذى أسلكه، لانتشر العلم وعمت المعرفة.

لكننا إذا رجعنا إلى الواقع ونفس الأمر، رأينا أن التأليف والتصانيف مفقودة، وإن وجد منها شيء كان ناقصًا، إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ، بحيث لاتدل عبارته على ما قصد منه، فيكون كعدمه. والطالبون للعلوم على اختلافهم قاصرون عن إدراك ما أضاعوا عمرهم فيه، ودليلنا على ذلك احتياجهم دائمًا إلى غيرهم، وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه فى نفس العلم أو الصناعة التى تعلموها. فتارة يحتاجون إلى الأجانب، وأخرى إلى بعض من الوطنيين. (وربما نبين هذه الجملة فى وقت آخر).

ومن الناس من إذا ذاكرته فى المنافع العامة والمصالح الكلية، أخذ يشرح غوامضها، ويبين الواجب فيها، والطرق الموصلة إلى جلب المنافع ورفع المضار، والوسائل المؤدية إلى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها، من رفع منار العدالة، وبث روح العلم، وتقرير المساواة وما شاكل ذلك. ثم إذا فُوِّض إليه أمر من تلك المصالح رأيته أبعد الناس عن الخير، وأقربهم إلى الشر، واستنكف عن المساواة، واستهجن معنى العدالة، وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها، وسار مع أغراضه وشهواته، وجعلها قانونًا يُتَبع. ويَعُدُّ كل ذلك حقّا. وهو فى درجة وعظه الأولى لم يخجل ولم يتلعثم له لسان فى النصح ودعوى معرفة الحق، ولو أن أحداً عارضه بحق فى أى جزئية

عقب ترغيبه فى قبول النصح والمساواة، لرأيته يتذمر ويتضجر، ويود أن يفتك بمن يناقضه فى بعض آرائه ويهدى نصحًا فى بعض أعماله.

ومنهم من يقول: إن كل مصيبة ألمت بالنوع الإنسانى لم يكن منشؤها إلا التباغض والتحاسد، وتفرق الكلمة، والميل إلى المنافع الشخصية، وعدم الاكتراث بمنافع العامة، ونحو ذلك من الأقوال الصحيحة المُسَلَّمة. ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به، مدعيًا أنه يميل كل الميل إلى الاتحاد والائتلاف، وإنما تأتى النفرة من غيره. ثم لو أتى إليه مُطالب بحق فى وقت المذاكرة، لرأيته يعد هذه المُطالَبة أمرًا كبيرًا، وإن كانت بغاية من اللطف والإنسانية، والتوى من الغيظ التواء الثعبان. ولو دُعِىَ إلى إغاثة ملهوف، أو إزالة مكروه عن بعض إخوانه أو الداخلين تحت إمرته، رأيته يتعالى ويعتذر أو يتمنع ويستكبر، ويقول: ليس هذا من خصائصى..! ولو طُلبَ إلى تأسيس أمر خيِّر يفيد الزراعة أو الصناعة، أو يساعد على التربية الحقة، يستصغر ذلك ويسفه آراء طالبيه، ويقول: ماذا يعود على شخصى من ذلك؟! وما لى وللعامة؟! دعهم فى شأنهم يرزقهم الله من غيرى!! كأن جنابه يظن أن المحبة والاجتماع والألفة التى يدعيها ويميل إليها يجب أن تكون له من الغير: لا فى مقابلة منفعة، ولا جزاء لدفع مضرة، بل لا بد أن ينفعه الناس وهو لا ينفعهم. وما أجهل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم! (ومن العجيب أنهم كثير جدًا).

ومنهم من يرشد إلى العدل، ويدعو إلى الإنصاف، ولكن إذا عرض له حق فى طريق منفعة خاصة له داس الحق برجله، طلبًا للوصول إلى غايته، وكأنه يعد ذلك من قبيل الإنصاف الذى يدعيه، أو أضربَ عن النصح والإرشاد إلى وقت آخر.

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبى الجرائم وفاسدى الإدارة وسيئى التدبير، ثم تراهم واقعين فيما ينتقدونه على الغير، كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادرًا عن سواهم، أما إذا كان صادرًا عنهم فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة..!

فأمثال هؤلاء الذين ذكرتُهم لا يعرفون فى العالم قبيحًا ولا حسنًا، ولا صحيحًا ولا فاسدًا.. وإنما هى ألفاظ ورثوها نطقًا ولم يتفهموها حق الفهم، وألفوا استعمالها فى مواقع مخصوصة، فهم يستعملونها كما سمعوها بدون أن يعلموا لها

حقيقة أو يقفوا لها على مرمى. وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء، أنذال، عديمو الشرف الإنسانى حقيقة.. ووجودهم فى الهيئة الاجتماعية شؤم عليها.. وهم فى رتبة الحيوانية الأولى، لا يعترفون بالحقائق الثابتة، بل لا يرون حسنا إلا ما يصل إلى إحساستهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية، فإذا مضى وقتها ذهلت أذهانهم عنها، ولا ينتبهون لحسنها إلا إذا وردت عليهم مرة أخرى، وهكذا.. ولا يرون قبيحًا إلا ما يصل إلى إدراكاتهم من المؤلمات الوقتية كذلك. فإذا زال ألمها، غفلوا عنها كأنها لم تمسهم. فإن رأوها لا حقة بغيرهم لم يعدوها مؤلمة، ولم ينظروا إليها نظر الأسف المستنكر.. فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالإضافة إلى أنفسهم تارةً وإلى غيرهم تارة أخرى.. وليس عندهم صورة ثابتة لماهية الحسن وماهية القبيح، ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار.. وإنما هى أهواؤهم يعبرون عنها بالألفاظ المصطنعة، كالمصلحة العامة، والمنفعة العمومية، والحقوق الوطنية وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعانى، يلوكونها بألستهم.. ومع ذلك فهم لا يسلمون من شر ما يقولون وما يفعلون؛ فجهلهم لا محالة يعود عليهم بعاقبة بئس العاقبة.

ولكنا لا نحب ذلك، ونود أن يكون الفعل أكثر من القول، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا - صغيراً كان أو كبيراً - مُجداً فى نيل الفضيلة الثابتة، التى يلهج بتحسينها وإجراء مقتضاها، حتى تكون بذاتها شاهداً عدلاً على أهلية صاحبها لما يقول، وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين.. فتسير المصالح على صراط مستقيم، وينال كل شخص حظه الحقيقى من ثمرات أتعابه الآتية على وجه منتظم.. فيعود النفع على العامة والخاصة. أما الفخفخة وكثرة اللغو، فإنها من شدة العجز لا تعيد ولا تبدى. وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة إن شاء الله.

التمــــدن (٢٠)

ما وصلت إليه أمة إلا وحط عن كاهلها جميع الأتعاب والبلايا، والاضطهادات والرزايا. ولا رقى إليه شعب إلا وأمن غائلة الإعنات والاعتساف، وتحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء. فصاحبه هو الساكن فى منازل الرغد والهناء، واللابس حلة الإسعاد. نقول - ولا مغالاة فى الحق - إنه هو الضامن لتوطيد أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع. كيف لا.. وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات، من غير فرق بين أن يكون أدبيا، أو ماديا، حسيا أو معنويا، فالتفنن فى الصنائع فصل من فصوله، والتسابق فى ميادين العلوم باب من أبوابه، والتجافى عن مواضع النقيصة جزء منه، والتجمل بالأخلاق الفاضلة نبذ من جواهره.

فإذن، لا بدع إذا قلنا: إن صاحبه هو السعيد، والواطئ بنعله غرف النعيم.. جد فى طلبه من أدرك نتيجته من الأمم، فجنى ثمره اليانع. تراه يتقلب على بساط العز، ويتدرج فى معارج الإجلال والجمال.. عمرت دياره - بعد أن كانت قاعًا صفصفًا - بالأبنية العالية، وتزينت بالأسواق الفسيحة، والصنائع العديدة، وصارت محط رجال السياسة، ومطمح أنظار النبلاء.. ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات، فطار على جناح العلم يستطلع بقاعًا ربتها الجهالة، وثملتها يد البغى، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيها، يستخرج منها الكنوز بحكمته، ويفجر منها الينابيع بقدرته، ليجنى وأهلها الغارسون، ويقضى وهم المطيعون.

تَسَمَّعَ أهل تلك الديار، صدى صوته فى العشى والإبكار، والغدو والآصال، ولكن يغالطون الحس، ويكابرون بإنكار البداهية، ويسلون أنفسهم بأن هذا

الأجنبى لا سطوة له ولا حكم، وإنما هو غريب دعته الحاجة للتجول فى البلاد لطلب الرزق . . ثم تحدثهم خواطرهم بأننا أرفع شأنًا من أولئك الغرباء، وأسبق منهم بَدْءًا فى المدنية. ولئن تأخرنا عنهم حينًا من الزمن، لكنا لحقنا بهم فى انتظام الهيئة، وحسن السلوك. وهذه قصورنا المشيدة، وثيابنا الملونة، وقُدُودُنا المُجَمَّلة، وأطعمتنا المتنوعة تشهد بأننا قوم غُمِسْنا فى الترف، وحظينا بالثروة، ونهجنا الصراط المستقيم.

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوى النعمة واليسار، والعزة والكمال، اعتمادًا على كونها سنة الأمم المثرية، والشعوب المتنورة. . وأيم الله إنها بالنسبة إلى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع، ومجلبة الشر. وإن هذه الصور الظاهرية التى يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق، يتوهم الغافل من بريقها ولمعانها أنها تأتى بوابل ينعش البقل، ويحيى الموات، ولكن إذا حل الأجل أمطرت ما يذهب الحياة، ويبدد الأجسام.

وذلك لأن الأمم المتمدنة وإن أنفقت الأموال الكثيرة فى تشييد القصور، وتزيين الملابس، وتحسين الأثاث، إلى غير ذلك من المصارف، فإنما يكون على نسبة مخصوصة من إيراداتهم الحائزين لها بالكد والتعب فى إبراز المصنوعات الجميلة والمخترعات الجمة، التى تكسب صاحبها فى قليل من الزمن ثروة واسعة، وقدرًا رفيعًا، ولا يجيزون الإنفاق من رأس المال إلا إذا مست ضرورة لا محيص عنها، ومع ذلك فنفقاتهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم، ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم، فكلها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ورفع الحاجة.

تدخل منزل الرجل منهم، فترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعته وبضائعه ونقوده، وليس فيها قدر شبر عُمِّرَ لغير حاجة، حتى حديقته. ولا يشترى ثوبًا له أو لزوجته وأولاده إلا بقدر العوز، وَحلْى آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس، مهما كثرت ثروته. وليس فى إصطبله سوى عربة أو حمار للركوب، لا يجمع بينهما إلا نادرًا. فرشه وغطاؤه لا يخرج عن نوعى القطن والصوف، كثيابه.

أما أهل تلك الديار، الذين يزعمون أنهم قوم متمدنون - وهم فى ذلك مخطئون - فقد ركبوا الشطط، وَحمّلوا أنفسهم ما لا يطيقون من النفقات الباهظة، يصرف

الواحد منهم آلافًا من النقود في سبيل تعمير أرض فسيحة، وربما كفاه ما لا يبلغ العُشْر من مساحتها، ويفرشها من أغلى أنواع الفرش، ويزينها بأبهج أصناف الزينة؛ فتبقى غرف المنزل بلا ساكن، يعلو التراب على ما فيها من الأثاث والفرش المغشاة بالفضة والذهب حتى يبيدها، وربما لا يستعملها مرة في العام. يتختم بإصبعه بما تجاوز قيمته عقد الألوف من «الفرنكات»، ولدى زوجته من «الألماس» والجواهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد لو استعمل ثمنه في شيء يتجر به، إذا كان ممن يفقهون. . إلى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها، وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات، والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون.

فإن رجعنا إلى سيرهم في طرق جلب المنافع، وتخفيف أتعاب المعيشة، وتحسين وسائل الاكتساب، رأيناهم واقفين على نقطة واحدة من آلاف من السنين. فإيراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللَّبِن الأخضر، المفروشة بقصب «الحلفاء»، المعروشة بقضبان شجر «الجميز» وجذوع النخل، مكتفين من الثياب بما يستر البشرة، ومن الطعام بما يذهب النهمة؛ فمزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام، لم تتغير أشكالها، ولم تتبدل أصنافها. نعم.. قد زادت حاصلاتها نظرًا للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري، ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلم بتجارة أبناء البلاد؛ فقد كان يوجد قبل ورود الغريب إليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات، وغيرها من الأقمشة والمأكولات، ويربحون من ذلك أجرًا عظيمًا. أما بعد ذلك، فلا ترى بينهم إلا من يتضورون جوعًا، وينثنون تحت أحمال المشقات، لبوار التجارة وكسادها، واختصاصها بيد النزيل. ويتبع ذلك سقوط صنعة النجارة والحدادة والحياكة وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الأمم المتمدنين. وربما ينتهي بهم الأمر لو استمروا على الجهالة والسفه إلى خلو أيديهم من الزراعة أيضًا، لوجود من يحسنها سواهم.

ولا عجب بعد هذا، إذا رأينا هؤلاء السفهة واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال، ينثنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من

الأملاك. وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء فى قبضة الدائن الذى يكونون رهنوه أملاكهم، يتصرف فيهم بما يريد، فيلاقون منه شَمَمًا لا تقدر على تحمله النفوس ولا تستطيعه الطباع. وربما كان الدائن من سفلة قومه والمدين من أعيان بلاده، ولا تغنى عنه يومئذ قصوره العالية ولا ثيابه المزركشة ولا أثاثه الخَزِّيّة والحريرية. وهذا فضلاً عما يعتريه من البلبال وكثرة الوساوس والأفكار. يبيت ليله يتقلب على فراش ولا تقَلُّبه على جمر الغضا[٢١]. يقدر محصولات زراعته قبل بذرها، وينسبها لمقدار المطلوب فى إبان الحصاد، فإذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان، ذاهلاً عما عساه يحدث من الغرق أو الشرق أو الأندية[٢٢] المتساقطة من الجو. حتى إذا حل الأجل ولم يجد لدَيْنه ما يفى بالمطلوب، لإصابة الزرع بأحد الأسباب التى ذكرناها، ضرب كفًا على كف، واسود وجهه، وساءت حالته، وتسول الناس ليكفلوه عند عميله، إذا لم يف ما عنده بالرهن، فلا يجد مجيبًا ولا نصيرًا.

لعمر الحق، إن المفترش للحصى، المتوسد لحجر الصخر، المستكن فى منازل الحيوانات، المتكفف فى معيشته، خير من هؤلاء الناس الذين لا يقر لهم قرار، ولا يهدأ لهم بال. ومما يسوءنا أن نراهم أكثر من الكثير فى بلادنا.. أهذا ما حسبوه تمدنا؟ وزعموه نعيمًا مقيمًا؟ بل إنه هو الشقاء الأبدى، الجالب للفقر المدقع والعذاب الأليم.

هذه مشاربهم فى الأحوال المعاشية، تحزن المحب، وتفرح قلب الرقيب. ولعلمنا بأن تلك الحالة لا يرضاها الشرع ولا القانون، لم نقصر فى النصح فيما مضى، ولم نقصر فى البيان الآن. وسنأتى بعد على هذا الموضوع، كما أتينا عليه سابقًا، مبينين علة الميل إلى الانهماك فى السرف الذى لا نعده تمدنًا، ونتبعه إن شاء الله بشرح بعض ما نتحادث به فى منتدياتنا مما هو عقبات فى طريق تقدمنا ونمو ثروتنا، مفردين فى البيان كل موضوع على حدته، إنذارًا من سوء عاقبته، لعلنا نعتاض بما هو خير منه، فنستبشر بانتهاجنا صراطًا قويمًا وطريقًا مستقيمًا.. وما ذلك على الله بعزيز.

منتدياتنا العمومية وأحاديثها [٢٣]

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الأحاديث، وما عكفنا عليه من الأقاويل في مجامعنا الاعتيادية ومحافلنا المتتابعة، مما هو عقبات في طريق تقدمنا، وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية، وحواجز دون الوصول إلى محجة الرشاد، وانتهاج خطة السداد، وإن خاله الكثير منا تمدنًا، وزعمه السواد الأعظم من شعار الأدب، وعلائم الذوق والشرف. وقد أردنا الآن أن نتكلم على هذا الموضوع، وفاء بما وعدنا، فنقول:

إن أحاديث الأمم تدور على محور أفكارها، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة، على اختلاف أشكالها وتنوع فنونها؛ فباختلاف صنوف البشر في المعارف والأمزجة تتباين مفاوضاتها وأحاديثها، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها. وإن تواريخ الأمم الغابرة، وحوادث الملل الحاضرة لترشدنا إلى ذلك بأجلى بيان.

فهذه الأمة العربية في صدر الإسلام وقُبَيْله، لما مال عنصرها إلى التحبب في خُلُق الجرأة وَحَمَلْتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح، قَصَرَت أحاديث رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ومعركة آتية.. تعقد مجالسها على ذكر جياد الخيل ومحاسنها، شارحة معايب الأقواس وأوتارها، منتقلة إلى الكلام عمن اشتهر من رجالها بالإقدام والظفر والبسالة والانتصار، وقصائدهم الشعرية مشحونة بأوصاف الحماس، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النّزال والبراز. وبقيت هكذا أحاديثهم إلى أن ضعفت تلك الحواس، واستعيض عنها بالميل إلى الراحة، والانغماس في النعيم، فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق، ولهجت

شعراؤهم بأوصاف الغَزَل بعد الحماس، وبنعت الحاجبَيْن والخصْر بعد الإسهاب في وصف القوس والوتر.

وهذه أمة اليونان، لما كانت ديارها مهد الحكمة، ومطلع شموس العرفان، دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم، وتبيين مهايا الأجناس والفصول. يطلب الواحد منهم منزل صديقه، ليتحاور معه في كيفية إنتاج الأقيسة المنطقية مع تغاير أشكالها، فيطول بينهما الحديث وهما بين مثبت وسالب، ومعترض ومجيب. وهذا في حال كون المجالس الأخرى غاصة بجماهير النبلاء، فئة تغوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها، وأخرى تطلق عنان اللسان لاستكناه حركات الأفلاك ومراكزها. فإذا عقدوا عزائمهم على المزايا والانصراف، وَدَّعَتْهم أوقات أحاديثهم شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من تقرير المسائل، وإماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات، واستقبلتهم الأيام بوجه باش وثغر باسم، فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ مرسومًا بمداد الثناء على صفحات الأعصار والدهور، لما ستبرزه فيها أفكار هؤلاء القوم إلى عالم الوجود، من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة، والحجج السديدة، وهذا مع محافظتهم وقت المحاورة والجدال على رعاية الآداب، وحرمة قوانين المباحثة.

وهذه أمم أوروبا، تشعبت مجالسها، وتنوعت مواضيعها، تحمل إلينا الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدقه، لولا علمنا بوفرة معلوماتهم، وكثرة مخترعاتهم. فيومًا نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداولة فيما يلزم اتخاذه لإنشاء بنك مالي يكون مركزه في إحدى الممالك الأسيوية مثلاً، فتطول بينهم المخابرة في ذلك، ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها. فمنهم من يرجح إنشاءه في الأملاك الفلانية من تلك القارة، محتجًا بأن فلاحي تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة، لاحتياجهم وشدة فقرهم، فتكون الثمرة أجزل، والربح أوفر، مما لو أنشيء هذا البنك في إحدى الديار الإفريقية التي أصبحت لخصب تربتها ووفرة حاصلاتها وأخذ الأموال الأميرية منها بتقسيط عادل، لا تحتاج إلى استقراض من مالنا، بل ربما إذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من إيراداتها التي تقتدر لها على إنجاز مشروعات عمومية، حتى تصير بذلك معادلة لأعظم ممالك أوروبا في الثروة

واليسار. فيجاوبه الآخر قائلاً: إن الأجدر بنا أيها الشريك أن نعدل عن إنشائه فى أى مركز من مراكز آسيا مطلقًا، إلى اتخاذه بديار مصر. وأما ما قيل من أن تخفيف الضرائب عنها، مع حسن تربتها، وكثرة إيراداتها، يجعلها غنية عن الاستقراض، فذلك إنما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه، وإلا فما دام على هذه الحال فإنه يكون أبداً مثقلاً بديوننا، يقرع أبوابنا آناء الليل وأطراف النهار، ولو أثمرت أرضه ذهبًا، وعوفى من جميع الضرائب سرمداً؛ فإنه - على ما يقال - رَهَنَ عند أحد البيوت فيها ما يجاوز العشرين فى المائة من أطيانها تأمينًا على ما أخذ من النقود فى مدة لا تزيد على العام كثيراً[٢٤]. فيستحسن الحضور بيانه، وتختم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا، ليدركوا من الربح مثل من سلفوا.

وبينما هم كذلك، ترى فئة أخرى تتروى فى مد سكك حديدية فى إحدى «الإيالات» المشرقية، وإنشاء أسلاك برقية فوق البحار وتحتها، تسهيلاً للمواصلات التجارية، وإحكامًا للعلاقات الدولية. وأخرى مجتمعة لتتخير من بينها نبيلاً يكون رسولاً من قبلها عند رجال إحدى البلاد، فيعقد معها شروط التزام مصالح عديدة، وأراض فسيحة، ومياه غذبة، ما كان أهل تلك الديار فى حاجة إلى التزامه. وترى على مقربة من هذه الفئات جماهير متألبة، وجماعات متضافرة، يحسنون صنع الخطابة، ولا يجهلون تاريخ الخليقة، يقلبون العالم بين أصابعهم، ويقطعون وجه البسيطة فى أقل من لمح البصر، وهم جلوس يتحادثون. . يعينون أوقات الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الإمارة أو ذلك الإقليم. . يستطلعون الرسائل المتوالية الورود من أبناء جلدتهم المنبثين فى أنحاء المعمورة، لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التى هم بين ظهرانيهم، يذللون المصاعب، ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح.

ونحن عن كل ذلك غافلون، نواصل الليل بالنهار فى اللهو واللعب. . بلغت منا الخرافات والهذيانات مبلغًا جسيمًا، حتى استحوذت علينا، فأنستنا ذكر الحقائق النافعة، والمصالح المهمة. وصارت تلك الأخلاط الفاسدة كملكات للنفس، يتعسر زوالها إلا بذهاب الأرواح والأشباح. تُعقد عندنا المجالس، ولكن على ذكر أنواع الخمور والمكسرات، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان، ويصرفون

ثلثى الليل على قهاوين (كذا اصطلح وإلا فهى مواضع رجس ودنس) يشربون فيها من المواد الممزوجة بالعقاقير المسمة قدرًا لا تسوغه طباع الوحوش الضارية، ولا الأسود الكاسرة.

وفى خلال ذلك يتناقشون ويتخاصمون، حيث إن كلاً منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه، ويعدد أوصافه، ويذكر محاسنه، ويشرح مزاياه، من حور عيون، ورقة خصور، وعذوبة منطق، وما شاكل ذلك. ويحتج عليه بأن فلانًا لا يبيت فى ذلك المخدع، ولا يطأ ذلك الموضع، حتى يدفع عشرين أو ثلاثين جنيهًا، وما شابه ذلك. والآخر يناقضه وينافسه، ويروم إقناعه فى مقام الجدل. ولا يروق لهم الحديث إلا إذا انتقلوا إلى القذف فى شرف مَن بينه وبينهم جامعة ديوانية، أو علاقة مُجاوَرَة منزلية، أو لا هذه ولا تلك، وإنما هدتهم شهرة ذكره إلى معرفته، فيرمونه بالجبن وعدم الذوق، لكونه نزيه النفس يأنف من سلوكهم، ويرمونه بغلظ الطبع والتقشف ويسمونه «نطعًا». وهم فى خلال ذلك يهزءون ويسخرون ويضحكون بصوت جهورى (وَلاَ يَبْكون وهُمْ سامِدُون).

يتبارون فى ميادين البذاء، واستحضار كل ما قبح وخبث من الألفاظ، وهو المسمى عندهم «تنكيتًا». فقسموا الألفاظ العرفية أبوابًا وفصولاً ليستعملوها فى هزلياتهم السخيفة، حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع. وإذا تبارى اثنان منهم فى باب منها استداما ساعة أو أكثر، وهما مع الحضور فى خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج فمن عجز منهما قبل صاحبه أوسعوه توبيخًا، وصفقوا للمنتصر إعلانًا بظفره، وأجلسوه مكانًا عليا، ويسمونه المعلِّم الماهر. وهذه فئة غير قليلة فى المدن، وأكثرها من أبناء الأغنياء عديمى التربية.

وأما مجالس ذوى الكمالات من أهل المدن، فإنها إن اتفق وتجردت عن الحديث فى منكر، فهى لا تخلو عن حشو، فإنه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس - ولو زمنا قليلا - بحلول الغيبة أو النميمة، المرافقتين لنا مرافقة الشخص لظله، إلا إذا سمحت الصدفة وكان زمن المجلس قليلاً جدًا لا يسع سوى التحية دون ردها، وإنهم لن يستطيعوا أن يبرهنوا على خلال ذلك، فإنى قائل: إذا لم يجلسوا مستديين الصمت، ومنصرفين كذلك، فبماذا ينطقون؟ هل ينطقون بعلم شرعى،

وقد جهلوه أو تجاهلوه؟! أم بعلم صناعي، وقد عادوه؟! أم فن طبي، وقد تناسوه؟! أم حديث عن منفعة عمومية، وقد أغفلوها؟! أم استفسار عن حوادث سياسية، وقد زعموا الاشتغال بها عبثًا؟! فإذن لا سبيل إلا الاشتغال بألعابهم المعتادة كالشطرنج والنرد (الطاولة) وغيرهما من أصناف الملاعب. وإنها دون ريب لتحملهم إلى أسوإ مما فروا منه، كما هو مشاهد.

نعم.. يوجد بيننا بعض الأذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة، ولكن فضلاً عن كونهم نزرًا يسيرًا، فإن أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون، لكونها جملاً حفظوها من غير أن يعقلوا لها معنى، أو لكونها أمورًا إجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها. هذه هي المجالس المنزلية.

وأما المجالس التي تعقد على قهاوى الشعراء أو الحشاشين المخرفين، فلا نستطيع تفصيل ما فيها من العجائب والأحاديث الجنونية، لكثرتها وتشعب مسالكها، سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين، أو خرافات المعاتيه والمجانين.

كما أننا نكتفي في الكلام على منتديات الأرياف بأنها وإن قيل فيها ما يتعلق بالزراعة ومصالحها، ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في أفئدتهم، وأن العداوة والبغضاء، راسختان في ضمائرهم بحيث يعسر زوالهما، وهذا مع مساواة غالبهم لأهل المدن في البغي والفجور، وأن بعض «عُمَد» البلاد أسوأ حالاً وأقبح عملاً من أهل المدن، كما هو معروف.

فهذه أحاديثنا في مجالسنا، وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم سردناها لذوي النقد والبصيرة معرضين عن كثير مما نتفوه به وقت اجتماعنا، ولعلنا نذكره وقتا ما إذا رأينا لهذه البذرة أوراقًا يانعة وثمارًا طيبة، فيقوى فينا ضعيف الأمل، ويحيي ميت الرجاء، ونشمر عن ساعد الاجتهاد، وننطلق لسان العظة داعين إلى طرق النجاح.

وإنا لنخشى أن تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به أخواتها من قبل، كأن يقول «زيد»: ما كُتِبَتْ هذه الجملة إلا للتنديد على أقوالي، ويظن مثله «عمرو». فيصرفونها عَما وضعت لأجله من خالص النصح ومحض الإرشاد، من غير أن

تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة، فالملحوظ فيها كسابقاتها الخُلُق، من حيث تعلقه بالأفراد أيا كانت، كما هو الشأن فى جميع المواعظ والنصائح العمومية، لا المرء المخصوص المتصف بتلك الأخلاق حتى تكون تنديدا وطعنا، فعسى ألا نسمع بمثل تلك التصورات من أحد من الناس، وليعلموا أن ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى فى تهذيب الأخلاق ما استطاعت، ويسرها أن ترى أبناء الديار رافلة فى حلل من الكمالات، متحلية بالعزة والفخار، حقق الله آمالنا، وختم لنا بحسن مآلنا.

تخصيص لما يوجب التعميم (٢٥)

نشرت صحيفتنا فى بعض أعدادها جملة تضمنت المقابلة بين ما يكون فى الأندية الأوروباوية (أى المجالس عامة كانت أو خاصة) وبين ما يدور على ألسنة المتجالسين فى ديارنا. وقد شرحت حقيقة حال كثير من المجالس التى تنعقد وتنحل فى ديارنا على وجه الحق والواقع، إلا أن بعض قرائها من النبهاء رأوا فيها نوعًا من التعميم ربما يجرح حاسة العموم بدون تفاوت، فساءهم ذلك. غير أن التعميم لم يكن مقصودًا منها البتة، وكيف يصح التعميم وإن بداهة العقل تشهد بأن بلادنا مزهرة برجال فضلاء وعقلاء لا يضيعون لحظة من زمانهم إلا فيما يعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والفلاح؟ وإن بلادنا لتفتخر بهم وتجل قدرهم وترفع ذكرهم كلما رأت من فوائدهم وجنت من ثمراتهم، وإن كانوا قليلين فى العد لا يصعب على الحاسب عدهم فى قليل من الزمن. فهؤلاء أنديتهم مكللة بالفضائل مضيئة بأنوار المعارف لا يسمع فيها إلا ذكر المنافع وأحاديث الفضائل.

وإن أولئك الفضلاء العقلاء يشاركوننا فى الأسف من وجود كثير من الشبان والكهول فى القرى والمدن لا يميلون إلا للهزء والسخرية، ولا يهرعون إلا لموارد الشهوات ومواقع اللذات. ولا يوجد فى مخيلة أحدهم عند تفتيشها إلا صور الكئوس وأمثلة الغيد الحسان، بل قد استولت على مدركته تلك التماثيل اللطيفة الغانية حتى لا يوجد فيها مقر لغيرها من المعارف الحقيقية الباقية، وامتلكه الغى حتى نفره من الرشاد. فلو قيل له هوّن على نفسك الأمر، وكف يد الإسراف، وأفق من ثمل السكر، وارفق بأولادك وحواشيك، فإنك إن تماديت فى غيك

أصبحت محاطًا بالغرماء فأرهبوك وأرهقوك، فلا تجد سبيلاً للخلاص، فيتنازعون أموالك ويدك مغلولة، حتى تصبح صفر اليدين ذليلاً فاقدًا لجميع اللذات. فاطلب لذاتك بالتأني والصبر، ولا تكن عجولاً، فالزمن باق واللذائذ وقتية، كل ما فات منها عن وقته فله في الوقت الثاني عوض لا ينقص عما فات في شيء. وانظر إلى بلادك نظر المتبصر، واجعل من سعيك قسطا ولو طفيفا في منفعتها العمومية، فإنها مربى أبنائك ومرتع أصدقائك وأخلائك، فما يكون فيها من ثروة وانتظام قانون ورفعة شأن وقوة شوكة فهو سعادة لكل من تحب من نفسك إلى غير المتناهي من نسلك، فإن الرحمة العامة لا تدع فردا من الأفراد حتى تمسه، وينال حظا منها على حسبه.

فكلما ذكر له شيء من هذه النصائح رأيته يفتل شاربه ويمده على صفحة وجهه ليقطعه بمستقيم، ويذهب على ظهره ضاحكا كأنما سمع نكتة غريبة، متعجبا من سفه الناصح وضعف عقله إذ لم يجعل لنفسه حظا من الدنيا إلا حفظ الكلمات المؤذية التي لا طائل تحتها، وطلب الأمور المستحيلة التي يسميها المنافع العامة ولا سبيل إليها. لعمر الله إن أمثال هؤلاء كثير في بلادنا.

وإن أولئك العقلاء لا ينكرون أن كثيرا من ذوي اليسار والغنى لا يلبون إلا داعي الشهوة، ولا يجيبون إلا نداء اللذات. فإذا قيل إن في جهة كذا مهرجانا، أو في بيت فلان مغنيا مطربًا أو موسيقيًا بارعًا، رأيت الناس يتدافعون إليه ويتقاتلون عليه، كأنما يطلبون ضرورة القوت أو يلجئون إليه خوفا من الفوت. وإذا قيل انتظم مجلس علم أو التأمت جمعية فضل أو جاء خطيب رفيع الفكر واضح البيان أو ما شابه ذلك، رأيتهم يتقاعدون عنها لا يأتونها إلا كسالى أو مجبرين، كأنما يساقون إلى الموت. لكنا لا نيأس من صلاح أحوالهم، فإن الناس في شئونهم وأخلاقهم وأفكارهم تابعون لسير القوة العظمى النافذ أمرها فيهم، التي نعبر عنها بالحكومة. فحيثما تولي الحكومة وجهتها يتبعها رعاياها ويتسابقون إلى اللحاق بها في سيرها. وليست الحكومة إلا الأمير وهيئة رجاله. فإن ساروا في الناس سيرة الإنصاف وسلكوا طرق الجد، رأيت هذه السيرة تفعل في النفوس فعلاً عظيما، لكنه يختلف

بالسرعة والبطء، ورأيت الأفكار تتجه إلى هذا الطريق المسلوك خوفا من الانحراف عنه وطلبا للانتظام في سلك السالكين فيه. وإن كانت على خلاف ذلك لم تر إلا تسابقا وتلاحقا في مجال الاعوجاج والانحراف وميلاً إلى التقرب من الحالة التي عليها الأقوياء وذوو السلطنة لتنال مزية الانتساب إليهم في شبه أعمالهم.

وإن الأزمنة السابقة لو تأملنا حال السلطة فيها لرأيناها أهواء وأغراضا، تنبعث عن شهوات نفسانية وأغراض جاهلية، لا يراعى فيها نظام ولا قانون، ولا ينظر إلى تأسيس إصلاح أو تعميم منفعة، فلا يتسلط المتسلط إلا رغبة في الاقتدار على السلب واكتساب الأموال من وجوهها غير القانونية، ليقتدر على طلب اللذائذ ويتمكن من استيفاء جميع مقتضى الشهوات.

وتوجهت رغبة المتسلطين إلى تقريب كل من يصلح آلة لهم في اجتلاب رغباتهم، فاندفعت الناس إلى التشبه بأولئك في أطوارهم، والتمثل بهم في أفكارهم، ورجعوا عن سبل الاستقامة جازمين بأنه لا ينالهم منها إلا تعب دائم وعناء سرمدي، حيث أقيم عليها من قطاع طريق الخير ما لا تقوى القوى على مقاومته، فانحلت عرى الآمال وخمدت النفوس، وانقطعت عن الاشتغال بالمنافع الكلية، لتيقنهم أن جميع سعيهم يذهب سدى.

لكنا في عهد خديونا المعظم، وهيئة حكومتنا الحالية، نرى الحكومة باذلة جهدها في الوقوف على ذوي الاستقامة لتقييمهم في الوظائف، رفيعة كانت أو غير رفيعة، وساعية كل السعي في تسهيل الطرق لاتساع دائرة العلوم والمعرفة، راغبة كل الرغبة في انتقال البلاد من حالة الجهل والهمجية إلى درجة العلم والانتظام، وانقبضت أيدي الظلم، وكفت عوامل التعدي على قدر الإمكان. فاستحيى في الناس الأمل، وأخذ كل يشتغل بما فيه النفع الحقيقي، لكن الزمن قصير لا يكفي لانتقال عموم الأمة دفعة واحدة، ولا يقضي بظهور ثمرات أتعاب المشتغلين ظهورا تاما، فكفى أن شكلت جمعيات عديدة من الوطنيين لنشر المعارف، ولم يكن ذلك يخطر ببال في الأزمنة السابقة، وانتعش كثير من أهل الفضل والإدراك فأخذوا يبثون الأفكار العمومية غير خائفين ولا وجلين. وإن نار الغيرة قد بدأت في الاشتعال،

بل قوى لهبها حتى أيس الضالون من انطفائها، وصار الناس يقتفى بعضهم أثر بعض فى الفضل والكمال، بل يكفينا أن يكون للكلام العمومى تأثير كلى يفعل فى النفوس فتحس به، وتلتفت إلى فهم ما انطوى عليه، لترى ما فيه من لوم عليها أو شكر لها.

لكنا لا نود أن تكون هذه غاية المسعى، بل نحب أن يكون فى بلادنا كثير جدا من أرباب الفضل تظهر آثارهم فى الهيئة الاجتماعية، ويشهدها الأجانب فضلاً عن الأهلين، ويغلب فضلهم على بساطة العامة، فتسمى بلادنا: بلاداً فاضلة، وتحسب فى عداد الأمم الكاملة.

ورجاؤنا من ذوى الأفكار وأرباب الغيرة الذين يصلون إلى مدارك الأقوال، وينفرون من وجود ما يوجب لوما أو يوجه اعتراضا، أن يقوموا بإرشاد الناس وبث الأفكار الصحيحة بينهم بالقول والعمل، حتى ترى آثارهم مشهودة ويكونوا مثالاً لغيرهم وقدوة لمن سواهم، حقق الله الآمال، وهيأ لنا أسباب الكمال.

تنبيه رسمى

بطـــلان الدوســــة[٢٦]

أطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة[٢٧] من عهد قريب لسان الشكر والثناء للجناب الخديوى، وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة، وللسيد البكرى، على عنايتهم بإبطال بدع كثيرة ليست من الدين فى شىء، بل هى مناقضة للدين المحمدى على خط مستقيم. ومن أفظع تلك البدع، بدعة «الدوسة»، وهى أن ينطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحدا بعد واحد، حتى ينتهى إلى آخرهم؟! وهم مسلمون من أهل الإيمان، وقد أمر الله بتكريمهم وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعى. بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بنى آدم على سائر الحيوانات مطلقا، فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع، وقد جعلهم الله فى الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨). فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم، وقد نهت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الأموات فضلاً عن الأحياء؟!

وإنا لنعلم علم اليقين أن حضرة مولانا سيادتلو شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية قد وقع لديه هذا الأمر، أعنى إبطال «الدوسة» موقع الاستحسان، لعلمه أنها كانت من المنكرات الشرعية، وكان يتمنى التفات الحكومة إلى إبطالها، وهو متشكر من الحكومة التى أقرت السيد البكرى على إزالتها. ولما عاد الجناب الخديوى للمذاكرة معه فى هذا الشأن بيّن - حفظه الله - ما فى هذه البدعة من المحظورات الشرعية، كإهانة المؤمنين، والتعرض للخطر، فإنه لا يؤمن أن تفلت رجل الحيوان

الضخم كالحصان الذى يركبه الشيخ «للدوسة»، فترض عضوا يابسا، أو تبتك[٢٨] عضوا رخوا، ويكون فيه تلف المصاب. وإن التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب. فأمره الجناب الخديوى أن ينبه على بعض المشايخ ليبينوا ذلك للعامة، حتى يقتنعوا بحرمة هذه البدعة. وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين، وأوعز إليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر، ويقفوهم على أن أمثال هذه البدع مما لا أصل له فى الدين. (على أن أصل «الدوسة» فيما تقول العامة كانت كرامة «للشيخ يونس». بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر، وهى مرة واحدة؛ فكيف تبدل الزجاج بالإنسان، وصارت عادة مستقرة؟! نعوذ بالله).

وكذلك سر كل السرور بذلك حضرات العلماء الأعلام، أيدهم الله، فإنهم متضلعون من الأدلة النقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهانهم، خصوصا وأن «الدوسة» وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل فى السنة النبوية الغراء، حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع، ولو بطريق التشبه على بعد.

وأما دعوى أنها من الكرامات، فهى باطلة عند أهل السنة والجماعة. فإنهم نصوا فى كتب التوحيد على أن شروط الكرامة ألا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته؛ فإن صارت كذلك «كأكل النار» و«ضرب السلاح» و«الدوسة» ونحوها، التى يتعاطاها كل من «يأخذ عهدا على طريقة الرفاعى أو السعدى» أو «يتولى مشيخة السعدية» أيا كان، فلا تكون من قبيل الكرامة، بل تُعد من الحيل المذمومة. ومن أجل ذلك، قد بادر السيد البكرى، وساعده أهل الشرع والعقل، على إبطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا.

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الإنسانية، ولا يميزون الحسن والقبيح من: أن هذه عادة قديمة، فكيف يسوغ إبطالها؟! يعد من الهذيان الذى لا طائل تحته. فإن العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن «الدوسة» ونحوها من البدع المنكرة، فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع الله؟! أو يرومون أن العلماء يتحاشون عن إنكار البدع خوفا من جهل الجهلاء؟! أوَ لا يعلم الجاهلون أن مصر، بل وغيرها من البلدان، قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين

ما كاد يُذْهب بهجة الشريعة؟، وأن ذلك كان تبعًا لأهواء الأمراء السالفين، وأن العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفا من سطوة الظالمين؟!

أما الآن، وقد نظر الجناب الخديوى ورجال حكومته إلى الأصول الدينية بعين الاحترام، فلا يخشى العلماء لومة لائم في إنكار المنكر وإقرار المعروف. فليس على الجاهلين بالأصول الشرعية إلا أن يتعلموا خيرا لهم من أن يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء، وغضب الله ورسوله على كل من خالفها. فإن المصائب لم تصُبّ علينا، ولم تصل أيدى الغدر والفجور إلينا، إلا من يوم نَبَذَ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهريا. ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع، ولم يقفوا عند حدوده القويمة، بل زادوا فيه أمورا ظنوها منه وهي ليست منه في شيء.

وإن بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحا لبطلان عادات كثيرة، وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئا فشيئا حتى يرجع الأمر إلى الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الراشدين. هدانا الله للاقتداء بهم. وسنعود إلى الكلام في أمثال هاته البدع مرارا أخرى، إن شاء الله تعالى.

الدوسة[٢٩]

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الإنسانية، وأظهرنا ما شملنا من الأفراح، وما عمنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالى الخديوى إلى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المنابذة لقواعده القويمة الأساس، الواضحة البيان، واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الأستاذ السيد البكرى فأعلن أمره فى السنة الأولى من توليه نقابة الأشراف (سنتنا هذه) ببطلان «الدوسة» وإلغائها كليًا من جميع الموالد والاحتفالات وقد رأينا بداية اتباع هذا الأمر فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم الذى أقيم فى سنتنا الحاضرة فى العاصمة وجميع مدن القطر وبنادره، فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع فى آفاق بلادنا، فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات، وتحفظ هيكل الإنسان ـ الذى كرمه الله ـ من وطئه بمناسم الحيوانات، ورجونا أن يثل عرش كثير ممن أعماهم الجهل وأضلتهم الشهوات.

فبينما نحن نستنشق خبرا ينبئ بإبادة تلك البدعة، أو يشعر بزجر أولئك المشعوذين، وتأديب المخرفين، إذ سمعنا الآن أن نفرا ممن ألفوا تلك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية، وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكرى أن يبيح لهم إعادة «الدوسة» فى مولد الشيخ «يونس» المدفون بجهة باب النصر ـ الذى روى عنه أن الزجاج صف أمام مناسم حصانه، فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعتريه اختلال ـ محتجين على حضرة السيد المشار إليه فى طلبهم هذا بأن «الدوسة»

فضلا عن أنها من كرامات أحد الأولياء ـ الشيخ يونس ـ فإنه عُمل بها من زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الأعلام والسادة الفضلاء، ولم يبدُ من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها. ومضت تلك الأزمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف، فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والأجداد، ومحافظة على العادات والمشارب.

فأسفنا لهذا الخبر، ووقفنا ننتظر ما سيكون من إجابتهم، وترددنا بين أن ندحض ما قام بمخيلاتهم من الشبهات التى جسمها لهم حب الصالح الخصوصى، أو نقتصر على ما شرحناه من ذلك فى بعض الأعداد السالفة. ولكن لعلمنا بأن تلك العادة وما شابهها متمكنة فى أفكار كثير من العامة وبسطاء الإدراك، فلا بد أن يكون طلب تلك الفئة ملائما الجاهلين بأحكام الشرع منهم، ترجح عندنا أن نذكر شيئا مما يتعلق بطلبهم، دفعا لأوهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على إعادة البدع، وإن كنا على يقين من أنهم لا يجابون لما طلبوه، فنقول:

إذا صح ما عزوه إلى الولى الشهير «يونس» من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر، فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل، وذلك لا يفيد إباحة «الدوسة»، بمعنى أن تصف الرجال منكبين على وجوههم متلاصقى الأكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم، لم نَشُم من سيمته كرامة ولم نتبين من حافره منهاج الصالحين، ويمشى أمامه وخلفه نفر من حاشيته وَجمٌ من المتفرجين، وكلهم يطئون بنعالهم أجساما أعلى قدرها الحقُّ فى كتابه العزيز، ولكن سوت بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين. ولو توسعنا فى تلك الرواية ـ غير الموثوق بها ـ وقلنا إن ذاك الولى وطئ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضا، ولم يلحقهم من ذلك ضرر، فهذا إنما كان ـ لو وقع ـ إظهارا لأمر خارق للعادة على يد رجل من المتقين، ولا يستلزم جواز وطء أجسام الرجال بحوافر الخيل ونعال العامة من الناس، بحيث يكون ذلك عادة يقع فى كل زمان ومكان، فإنه لا يكون من الكرامات فى شىء، فضلا عما فيه من انتهاك حرمة الإنسان وتعريضه للخطر والمضرات.

وأما وقوعها فى الأزمان السالفة بمحضر العلماء والأفاضل بهذه الصفة التى كانت عليها الآن، فلا يستدل به على جوازها، وذلك لأن نصوص الشرع الشريف

تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات. فإن كان وجودها مخالفا لتلك النصوص (القرآن الشريف، والأحاديث الصحيحة، وقول الأئمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها، كانت من المحرمات، ووجب نهى فاعليها مهما طال عليها المدى فى أي وقت وأى مكان، وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم بعدم إذاعة النهى عنها، وإلا فتكون من الملحقات بالمباح.

وحيث إن هذه البدعة التى كلامنا الآن فيها ـ «الدوسة» ـ موجبة لانتهاك حرمة الإنسان المنصوص على تكريمه، ومظنة للخطر المَنْهيّ عن التعرض له شرعا، ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف، سيما وأن عملَها تحت اسم كرامة من كرامات الأولياء مما يؤدى بالعقول إلى سوء الظن بالمتقين والصلحاء، فهى لهذه الأسباب من المحرمات التى يجب التضافر على إزالتها من صفحة الوجود، وإن أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهى متسلطة على عقول الجاهلين، بل التى طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بإزالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية أن تعتقدها العامة من المعالم الدينية، ولا يخفى ما فى ذلك من المضرات التى توجب اشتباه الحق بالباطل والخبيث بالطيب.

وأما سكون العلماء عن إزالتها وقت مشاهدتهم لها فى تلك الأيام الخالية فليس ناشئا إلا عن تسلط الخرافات والبدع فى أفكار معاصريهم من العامة، ويأسهم من أن يساعدهم ولاة أمورهم على بطلانها، لعدم اهتمامهم بشئون معالم الدين، والمحافظة على سلامته من الأوهام والبدع. فلو طلبوا إذ ذاك إزالتها لم يجدوا سميعا لدعوتهم، ولا ظهيرا يعضد مقاصدهم من أولى الحل والعقد، فضلاً عن أن عامة الناس تسلقهم بألسنة الجهالة، وترميهم بالخروج عن الدين.

أما الآن، وقد رُزِقْنا أميرا يهمه أمر الدين، ويسعى ما استطاع فى تشييد معالمه وتثبيت أركانه، فلَا غرو إذا رأينا الفضلاء من العلماء والأتقياء من الصلحاء يتسابقون فى وعظ العامة وزجرهم عن الإقدام على اعتناق البدع، والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل، والطامسة لنور البصيرة. وقد رأينا من حضراتهم هذه الفعال المكلفين بها شرعا رأى العين. فإن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر، فهم يثابون عليها إثابتهم على الفروض العينية والواجبات. وقد نشرنا من مدة ما كان من جناب الأستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الأزهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة وكفى بهذا إقناعًا للمتعصبين.

فلتعلم إذن أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسمهم قد أفلت، واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق، ومصابيح الإرشاد إلى طرق الدين القويم. فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم إلا بالخيبة والنكال، وليعودوا أنفسهم على التمسك بعروة الشرع، والاستضاءة بنور الحق، فإنه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة فلا يصغون لكلماتهم المبهمة، ولا يعبئون بأعمالهم الشعوذية. ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التى صار رجوعها متعسرا بل متعذرا.

ولنا أمل قوى فى أن غيرة حضرة السيد البكرى، وميله إلى تعزيز شأن الشرع، والمحافظة على دعائمه، لا تسمح له بإجابة طلب هؤلاء الناس، بل يحثهم على العدول عن هذا الأمر الذى لا يوافق مذاهب السنة ولا ينطبق على قواعد الشريعة ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة-آية ٢١٣)، (النور-آية ٤٦).

المعرفة فى المجتمع (٣٠)

نرى البعض من الناس لا تميل نفوسهم إلى سماع نصيحة تنفعهم لو وعوها، ينفرون من الأقوال المنبهة على بعض صفات ألفوها، الحاثة على اعتناق فضيلة باعدوها، يولون الوجوه عندما يرتفع إلى أسماعهم شيء من ذلك مستنفرين منه كأنما فيه نبال ترشقهم. وإذا أتاهم مخلص بأمر من هذا القبيل امتعصوا وامتعضوا، واستشاطوا غيظا، وقالوا: ما بال هذا يلومنا على أمر ألفناه منذ القدم، ويشوقنا إلى ما لم يكن عليه آباؤنا من قبل؟! وما بال من قبله لم ينبهوا على ما نبه إليه، ولم يلتفتوا إلى ما التفت إليه؟! أكان عنهم غائبا، ولم يغب عنهم شيء أو جهلوه، وكانوا أعرف منه وأوسع نظرًا وأغزر علمًا؟!

ثم تحملهم الحدة والاستشاطة على أن يرموه بما ليس فيه، ويختلقوا معايب ينسبونها إليه، ونقائص يحملونها عليه، يشتغلون بذلك كله دون أن يتفقهوا حديثه ويتفهموا مقصد كلامه، حتى إذا راق لهم منه شيء تبعوه، وإن كان منبها على نقص هو فيهم اجتنبوه، أو فضيلة بعيدة عنهم نهضوا لاقتنائها واجتلبوها. ومن ثم، تراهم يعافون النظر فى صحف الأخبار، وينفرون من مطالعتها لاحتوائها على ما كان من هذا القبيل متعلقا بأمر الآداب النفسانية والأوصاف الخلقية، ويتميزون من الغيظ عندما يرون فيها تنديدا بخلق ذميم تلبسوا به، وعادة غير جميلة ألفوها. وبدل أن يجهدوا أنفسهم بالإقلاع عنها وابتعادها، يأخذون فى اللوم على مصادرها ويتقولون عليهم بعض الأقاويل، شأن كل محب لذاته، راض عن صفاته، يتكدر إذا نبهت حواسه إلى ما هو منطوٍ عليه حقيقة، وإن كان يغالطُ نفسه بتبرئته منه،

فيحب أن يتناساه بإغفاله وعدم ذكره، ويحاول إظهار البراءة منه بما يدل على اتصافه به، ويسلى نفسه بأوهام لا يصادقه عليها أحد.

ولن يغنى عنهم ذلك شيئا، فما فرحوا إلا بأمور اخترعتها أوهامهم، وما نسوا إلا حقائق ثابتة أبعدتهم عن فضائل حقيقية هم فى حاجة إلى القرب منها واعتناقها، إذ عليها مدار سعادتهم، ولن يبلغوا الكمال المطلوب إلا بالحصول عليها.

ولئن زعموا أن مصدر النصيحة دونهم فى القدر، أو لا يصل إليهم فى الكمال، حتى يليق لإرشادهم، فعلى فرض تسليمه لهم، نقول: إن ذلك لا يوجب نبذ أقواله ومعاداتها متى كان فيها نفع وصلاح، إذ لا يعاف الثمر لكونه خارجا من الأرض، ولا تترك الدرارى لخروجها من الصدف. وليس بعار ولا شنار أن يأخذ الإنسان بالقول الحق والرأى الصواب. فالحق حق مهما كانت مصادره، والصواب صواب أيا كانت مظاهره، والفضيلة على حالها لا تتغير حقيقتها ولا تتبدل صفاتها باختلاف مصادر المنبهين عليها. وإنما العار كل العار لمن يهمل محاسن الأقوال ويغل شأن نفسه مؤثرا بقاءها منغمسة فى أوحال الرذائل على تحليها بجميل الأخلاق وبدائع الصفات، بل المتصف بذلك مختل الشعور، إذ العقل السليم والطبع المستقيم يوجبان على المتلبس بهما أن يسعى جهده إلى اجتلاب المحامد والتخلق بمحاسن الأخلاق أيا كانت، لا فرق عنده بين أن يكتسبها من ناقص أو كامل. قال تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ** ﴿١٧﴾ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (سورة الزمر: ١٧، ١٨). ومع كل ذلك، فمن أين أتى لهم أن الناصح لا يدانيهم؟ وما يدريهم لعله أرقى منهم فى الصفات الكمالية، وإن كان أدنى منهم فى الصفات الحيوانية؟

ومن العجيب أن أنوفهم تشمخ عن استماع أقوال المخلصين النافعة لهم نفعا حقيقيا، ولا يخجلون من التملق والتذلل لمن تكون لهم عنده حاجة دنيئة يريدون قضاءها منه، فكيف طابت نفوسهم بهذه الحال التعيسة مع حقارة فائدتها وصغر نتيجتها، واستعصت على تلك الصفة الجميلة، صفة الهداية والعقل؟!

هذه حال أقوام منهم يحسبون أنهم على شىء من المعرفة، تخدعهم شهواتهم بمثل هذه الأوهام، فيركنون إليها، ولا يبغون عما هم عليه حولا. أما غيرهم من

العامة فإنهم إلى الآن لم يدركوا فائدة الجمل الأدبية والفصول التهذيبية، لكنهم إذا تليت آياتها لا يولون عنها نفورا، كما لا يحرصون عليها، فلا يأسفون لفواتها ولا يرتاحون إلى إلقائها. وربما فضل بعضهم سماع القصص والحكايات الخرافية عليها، لكثرة إلفها وتواردها عليهم ومناسبة معانيها لخيالات اعتادوها وتصورات نشئوا فيها.

وهذا ما أوجب كساد علم الأخلاق في بلادنا، وإغفال شأنه، وعدم الاشتغال به. فلا طالب يرغبه، ولا نفس تتوق إليه. ولئن كان، فليس سوى قليل جدا من ذوي الوجاهة والاعتبار، ونفر قليل لا شأن لهم عند العامة ولا منزلة في القلوب، ينظر الجهلاء إليهم شذرا ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (سورة المطففين ـ الآية: ٣٠). بخلاف القصص والحكايات والنوادر والغراميات، فإن أسواقها في بلادنا نافقة، وبضاعتها رائجة، يطلبها السواد الأعظم، ويقصدون المحافل لتلاوتها، ويسهرون الليالي الطوال مميلين الآذان لاستماعها، لا ينالهم في ذلك ملل ولا تلحقهم سأمة، بل يصغون إليها مجتمعين، وترددها خواطرهم عند الافتراق، لا نجد بيتا من بيوتهم خاليا عن كتاب قصة أو مؤلف حكاية أو مجلد عشيقات وديوان غراميات ورواية خرافيات لا فائدة فيها، كالزير، والريادة، وقمر الزمان، وغريب وعجيب، وإبراهيم بن حسن، ورجوع الشيخ إلى صباه، وغير ذلك من الكتب الكاذبة التي هي من أكبر المضرات بالعقول، أو المهيجة للشهوات، المحركة لحاسة الحب الفاسد، التي هي من أشد المفسدات للفضائل.

وهذه الكتب المضلة أشد انتشارا في الأرياف منها في المدن، خصوصا عند بعض العمد والمشايخ ومعلمي الصبيان. ولا ترى في واحد منها كتاب أخلاق أو مجموع آداب. ولئن كان، فما تلقاه إلا في زاوية النسيان والإهمال، لم يطلع عليه صاحبه إلا يوم اشتراه، ولم ينظر إليه نظرة في العام. ولهذا نرى تلك الكتب التي ذكرناها وأمثالها من كتب الأوفاق والتنجيم الكاذب قد طبعت مرارا عديدة في مطابع مختلفة، وإحياء علوم الدين لم يطبع إلا قليلاً بالنسبة إليها، ومع ذلك نرى أن كثيرا من نسخه باقية في الحوانيت لا أحد يسأل عنها ولا طالب يسومها كغيرها من كتب التهذيب والآداب النفسية المطهرة للنفوس من دنس الطباع وسوء الأخلاق.

وليس اشتراك هؤلاء فى الجرائد بدليل على ميلهم للاطلاع على فصولها الأدبية وجملها التهذيبية، فإنا نرى أعدادها عند البعض منهم مطوية بختامها كما وردت إليه. والذين يفضونها منهم لا يقرءون فيها ما كان من هذا القبيل، مما يشرح الأخلاق الفاضلة ويبين مزاياها، وينبه على الصفات الرديئة ويوضح بلاياها، خشية أن يجدوا فيها من الكمال ما هم بعيدون عنه، ومن النقائص المذمومة ما هم متلبسون به، ومن يقرأها منهم فحالهم ما قدمناه من الامتعاض والامتعاص وشد النكير على منشئيها.

وإنها لحالة لا ترضاها نفوس ذوى الغيرة. فعلينا جميعًا، أن نجدّ السير فى اكتساب المعرفة الصحيحة من أى أفق بزغت شمسها، ونطرح كل ما يعده العقلاء عديم الفائدة، أو موجبا لضرر. ولابد أن نرجع إلى تاريخ أمتنا القديم، وننظر إلى شئون معاصرينا من الأمم ونطلب الوسائل المساعدة لنا على مظاهرتهم ومباراتهم فى القوة والشوكة والعزة والسطوة. وفقنا الله جميعا لما فيه صلاح الحال.

الأدب الوهمي (٣١)

من المعلوم أن للأدب معنى مشهوراً عند العلماء والخاصة، وهو «ملكة للنفس تنشأ عنها الأعمال على وفق الحق والحكمة».

وليس هذا موضوع كلامنا الآن، فسنجعل فيما بعد مجالاً فسيحًا في جريدتنا نردد الكلام في حقيقته ولوازمه من أنواع الكمالات الإنسانية بالتدريج شيئًا فشيئًا إن شاء الله.

وإنما موضوع كلامنا هو ما يسميه العامة ومن لا خبرة لهم بالحقائق أدبًا «وهو أداء رسوم تشعر باحترام من تؤدى إليه». وهذا المعنى إذا نظرنا إلى أصل وضعه يعتبر فرعا من فروع الأدب بالمعنى الأول. فإن من الواجبات الإنسانية على كل شخص أن يحفظ حقوق غيره كحفظه لحقوق نفسه، فلا يأتى عند من يساويه فى السن والفضل بما يوهم تهاونا بشأنه، ولا يتكلم بما يشير إلى الازدراء بقدره، بل لابد أن يكون فى أعماله وأقواله حافظًا لناموس جليسه المساوى له، فإن كان أكبر منه سنا أو أرفع قدرا، وجب عليه أن يؤدى تلك الواجبات بعينها ويزيد عليها الرسوم التى تشعر بالأعلوية عليه، كامتثاله لأوامره فيما يمكن، على شرط ألا يكون منافيا لشرع أو خارجا عن قانون وأن يكون صوته أخفض من صوته عند المحادثة، وأن يكون جلوسه على الهيئة المعتادة من الابن لأبيه، وهى تختلف باختلاف البلدان والأمم، إلى غير ذلك من الرسوم التى قررها العلماء والحكماء فى كتبهم.

غير أنه يلزم الجليس، سواء أكان مساويا أم أكبر من جليسه، أن يعترف لمن يؤدى إليه تلك الحقوق حقه أيضا، فلا يأتى بشىء يشين أو يشعر بإهانة من يحترمه

ويعظمه. ويجب على الأكبر سنا أو فضلاً، زيادة عن ذلك، أن ينظر إلى من يؤدى له حق التعظيم بنظر الرفق والرحمة، حتى يزداد عظمة وفضلاً عنده. وجميع ما يلزم لكل من المتجالسين أو المجتمعين فى مكان واحد مطلقا مبين فى كتب الأخلاق والشريعة، يسهل على كل شخص أن يقف عليه حتى يعرف حدوده فلا يأتى شيئا يوجه عليه لوما أو يوقعه فى شر ربما يأتى من سوء المعاملة عند التجادل فى المباحث العلمية أو الحقوقية وغيرها، وواجبات المتكلم عند المحادثة السمرية أو الفكاهية، وجميع ذلك لا بأس به، وهو فضيلة ينبغى اكتسابها.

لكن.. ليت الذين يطلبون أن تقدم إليهم رسوم الاحترام يقتصرون على ما أرشد إليه العقلاء من الحدود والواجبات، فكان ذلك أمرا يسهل تناوله، إلا أنهم لم يرتضوا الاكتفاء بهذا، بل جعلوا لأنفسهم واجبات فرضوها على الناس لابد من قضائها عند الاجتماع معهم على سبيل الملاقاة فى طريق أو الجلوس فى ناد أو نحو ذلك على حسب ما يحبون وما يشتهون (وهى التى نسميها بالأدب الوهمى).

فإن من الناس من كثرت نقوده حتى ملأت صندوقه، فينفق منها على نفسه أنواع الإنفاق، ويجلب بها جميع اللذائذ، أو ارتقى إلى درجة من الحياة يقضى حاجاته بسهولة، ويأخذ راتبا وافرا من الحكومة، ويتصدر في المحافل المعتبرة فيجعل توفير هذه النعم له سببا فى تكليف الناس بواجبات الاحترام على حسب ما تشتهى نفسه من ذلك. فيرى من الأدب أن يجلس الناس عنده سكوتا لا يتكلمون فى شىء، وإنما عليهم أن يصدقوه إذا نطق، ويشيروا برءوسهم إلى الإذعان بما يبينه من الموضوعات التى يتكلم فيها سواء كان خطأ أو صوابًا. ويعد من الواجب أن يسعى كل من يعرفه فى خدمته، ولا يحسب شيئا من الخدم إهانةً أو نقصًا. فإن جلس إليه أحد ممن دونه وجب أن يكون منه مزجر الكلب (أى بعيدًا) وأن تكون هيئة جلوسهم من نحو قبض اليدين على الصدر وطأطأة الرأس وغض الجفون وضم الرجلين إحداهما إلى الأخرى، فإن كان على كرسى أو بجانب حائط فلا يسمح له بأن يستند إليه، بل لا بد أن يكون حانيًا ظهره، وذلك كله بعد أداء رسوم الدخول، كأن يدخل بالهوينى جدا، ثم يتعجل بالمشية عندما يقرب من جنابه حانيا ظهره على هيئة الراكع حتى يصل إليه فيلمس شيئا من أعضائه أو ثيابه، ثم لا يجلس حتى يأذن له. وبعد هذا كله ربما يعد متساهلا فى أداء رسوم التعظيم لأمور فى نفس حضرة هذا

المحترم كان يجب أن يزيدها الوافد عليه في حركاته أو ألفاظه التعظيمية ونحو ذلك، ولا يرى عذرا لهذا الوافد أو المجتمع معه في عدم اطلاعه على ما في نفسه مما يجب أن يقام لديه من التعظيمات لعدم كونه مألوفا. ويستمر مراقبا لكل حركة منتقدا لكل لفظة، حتى إذا صادف كلمة لم توافق ذوقه (وهو لا ذوق له)، ولحظ حركة يد أو رجل أو ما شاكل ذلك (وهو لا نظر له) ولم تأت على طبق ما يروم لنفسه، ولو كان ذلك بدون قصد، أضرمت نار الحقد في قلبه، فلا يهدأ خاطره حتى ينتقم منه انتقاما ربما يفضي إلى هلاكه أو اضمحلاله، وأطلق لسانه بالقدح من عرضه، لا يذكر أنه مقصر في حقوق الآداب فقط، بل يخترع له المذام من كل نوع حتى يضر بالمسكين الذى لم يستفد من الاجتماع بهذا العظيم سوى مضرة تأتى على مقدار عظمه. والأغرب أنهم يطلبون ذلك ممن يعرفهم ولا يعرفهم، ولا يقيمون عذراً لغير العارفين.

ثم إن هذا العظيم الذي يوجب على الناس كل هذه الواجبات لا يوجب على نفسه شيئا إلا لمن يماثله أو يكون أعلى منه. أما من دونه فإنه ينزلهم منازل الحيوانات، بل الجمادات، فلا يرى فضلا لفاضلهم ولا علما لعالمهم ولا كمالا لكاملهم. فإن سمحت نفسه بطلاقة وجه عند الملاقاة أو قيام لأحدهم عند القدوم عليه احتراماً له، أو حسن استماع لكلام متكلم معه، عدّ ذلك تفضلاً منه وإنعاماً، لا حقًا واجبًا، لكنه يعده على الناس من ألزم الواجبات.

فهؤلاء الذين يوجبون على الناس ما يشاءون من أنواع التعظيم، وإن كانت خارجة عن حدود القوانين المألوفة بين الأمم، ولا يوجبون على أنفسهم شيئا لأحد ممن دونهم، تأتى منهم مضرات غير محصورة على كثير من الناس بدون جرم.. فهم يسعون فى إذلال كل من يتهاون فى الحقوق التى أوجبوها، ولم يوجبها لهم شرع ولا قانون. وإنهم لا يجعلون الضرر على قدر التهاون في الواقع، بل يجعلونه لا إلى حد، كما بيّنا أولا. فالاجتماع عليهم وسيلة للأذى والضرر، وإن من لم يرهم لسعيد، فإن خواطرهم لا تتوجه إليه، فلا يخطر لهم ببال، لا على صورة حسنة ولا رديئة. أما المخالط لهم فإنه معرض للخطر، فإن قبل يوما فلا يضمن أن يقبل فى آخر. إذ لا يخلو امرؤ من التقصير، وهو غير مغتفر عندهم، لا حقيره ولا جليله، اللهم إلا أن يكون المخالط لهم نصب نفسه لجلب بعض الفوائد إليهم، كأن

يأتي بذوي الحاجات إلى أبوابهم لينالوا منهم شيئا في نظر قضائها، فحينئذ لا يخشى شيئا، ما دامت الحاجات موجودة والناس أحياء.

وإنا لا نعلم سببا على إيجاب هذه الواجبات الشاقة على عموم الناس إلا كونهم أغنياء ينفقون على أنفسهم، أو أعلياء المناصب فيستوفون الراتب ويقضون الأرب. ونظن أن هذا في الحقيقة لا يوجب لها حقا زائدا. فليريحوا الناس من بلائهم، حفظهم الله، وليتركهم الناس وشأنهم، فإن احتياجهم إلى الناس أشد من احتياج الناس إليهم، ولكن أكثر الناس لا يعقلون. وكأني أرى ضعف الرأي ثابتا في الطرفين: الكبير، لأنه يتكبر على من لم يحسن إليه، والحقير لأنه يتحمل كل هذه التكاليف لمن ضره أقرب من نفعه. وسأعود إلى هذا الموضوع من وجه آخر، إن شاء الله.

حاجة الإنسان إلى الزواج [٣٢]

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية أن نتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن، فالآن نوفي بما وعدنا، بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول:

لما كان من لوازم حفظ النوع الإنساني، المعرض للفناء والزوال، والتناسل والتوالد، أودع الحق سبحانه في طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران، وتحمله على طلب الازدواج، كسائر أنواع الحيوانات.

غير أن الإنسان يمتاز عن الحيوانات بقوة مُذكِّرة يستحضر بها ما شهده في الماضي، فيطلبه إن كان لذيذا، استحصالا لمجرد اللذة. وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه من أن تمسه يد الغير، ويدافع عنه ما استطاع كلَّ من حاول مشاركته فيه. ثم إن هذا التمييز العقلي دعاه لأن يطلب من الأزواج ما هو أبهى في المنظر، وأنعم في الملمس، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك، فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه «غيرة» أن يشاركه فيه، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه، حتى القتل والجرح. وهذا بخلاف باقي الحيوانات، فإنها وإن كان يغار ذكرها على أنثاها وقت طلبه لها، لكنها لُحَيْظَات وتنقضي، فإذا سافدها[٣٣] انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة، والإنسان، لفكره، ليس كذلك، بل يلازم الحرص في جميع أحواله، خوفًا على المستقبل.

ومن المعلوم أن تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الأفراد البشرية. فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال، وسلم من الآفات،

حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به، ويدافع الغير عنه، لما قدمناه من الأسباب. وزد على ذلك أن الإنسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة، وهو في فطرته لا ينظر إلى التعاون بجميع أفراد الإنسان، فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص، فلو ترك الإنسان مسترسلا مع شهوته من غير أن تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها، ويكفل سلامة نتيجتها، لاختل عقد نظام الإنسان، وفسدت أركان سعادته، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء، وذلك من وجوه:

(الأول): أن النسوة إذا أبيحت لكل ذكر من الرجال، وأبيح لكل أنثى أن تقترن بكل زوج في أي وقت، لاشتعلت نار الغَيْرة في أفئدة كل واحد من البشر، وسارع كل إلى مدافعة من يروم الاشتراك معه، ولو أدى ذلك إلى سفك دماء الطالبين والطالبات.

(الثاني): أن المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها، ودرء المكروهات عن ذاتها، خصوصا في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع. وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها والمدافعة عن حقوقها، فتضيع وتضيع ذريتها.

(الثالث): وهو أعم من هذا: إن الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد طلبا للحصول على وسائل المعيشة، إلا إذا رأى صِبْيَةً وعيالاً.. هم عالة عليه في أمور معيشتهم، ونوال مآربهم، يؤدي إليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته، مؤملاً فيهم أنه إذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم إذا كبروا يعوضون عليه أتعابه السالفة، وتسيئهم مصيبته، ويفرحون بثروته وسعادته. بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به، وتعد نسبته إليها كنسبة الجسد للروح، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته، فإن ادخار العيش - الذي هو من لوازم الإنسان - موقوف على عناية الزوجات والأبناء، وتوجه القلوب منهم إلى مساعدة هذا الكاسب العاني، فهو يجتهد للإيجاد، وهم يهتمون بحفظ الموجود، وكل ذلك مفقود إذا اختلطت الأنساب، وجُهلت الأصول، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعي في تربية ولد، فيستأصل الموت أفراد النوع في أوائل أعمارهم.

فظهر من ذلك أن سعادة الإنسان فى معيشته، بل صيانة وجوده فى هذه الدار، موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها، ويضرب لها حدودا يقف كل شخص عندها، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة، فيمتنع التعدى، ثم يظهر منه التعلق الخصوصى بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها، فيسعى كل لخير من اختص به، حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن، بل هو بعيد عن الأفكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشرى. وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر، وإن اختلفت مظاهره بالنسبة إلى اختلاف طبائع الأمم لما طرأ عليها من تقلبات الأجيال والأعصار. ولم تبح للرجل أية امرأة يريدها، إلا إذا كانت خالية عن الأزواج، وتيقن فراغها من الحمل، وخلوها عن جميع الموانع التى تخل بهذا الاختصاص، وطلب العقد عليها، والإجابة منها أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من الناس تذيع هذا الأمر لتَنْكَفَّ الناس عن إرادتها إذا علموا أنها خُصَّت برجل يقوم بحاجاتها، ويدرأ عنها أى مكروه. وأمرت الطرفين بحسن المعاشرة، ونهت عن ارتكاب أى أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلى، الذى لا تتم سعادة العائلة إلا برعاية حرمته، والمحافظة على حقوقه، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحسن الاقتصاد فى المعيشة، وأن ينظر كل واحد إلى مصلحة العائلة نظره إلى مصلحته الخصوصية. وبعبارة أظهر، ليس عنده أمر يعد مصلحة إلا إذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم، وينقلها من حطة الشقاء إلى درجات السعادة والهناء.

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الإنسان لم تكن مقصودة لذاتها، بل هى آلة لنيل الإنسان مآربه التى لا يستطيع المقام بدونها، كبقائه فى عالم الوجود، يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والقرابة، الذى يعد من أقوى الروابط الإنسانية التى لولاها لاختل نظام الوجود الإنسانى بالمرة، كما هو ظاهر. ولما كان التعاون على المصالح المعاشية، والاتحاد والتآلف، وجمع الكلمة من ثمرات الزواج، لم يبح بالإجماع أن يقترن الرجل بأخته أو عمته أو ابنته، لأنه يُضَيِّق تلك الفوائد، ويقلل من الثمرات، فضلا عن كونه فى نظر الأطباء يوجب العقم وانقطاع النسل. فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين،

ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة، بل لا بد أن يقع الاقتران من بيتين، لتجتمع العائلتان على مصلحة واحدة، وتصيرا بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه، فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل، وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة، وتجعلها متجهة إلى كعبة الاتحاد والائتلاف، فيستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والعناء. أما العائلة الواحدة فيكفى فى ارتباطها العلاقة النسبية.

هذا ما أتت به الشرائع، ونطق به علماء الدين، وأوضحه العقلاء في حكمة الزواج والاقتران، بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة. . اقتصرنا عليه الآن، وسنشفعه فى صحيفة غد ببيان ما جاءت به شريعتنا من إباحة الزواج بأربع من النسوة وجواز مفارقتهن بالطلاق، مع بيان ما كان عليه السلف الصالح فى معاشرة زوجاتهم، وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهن، وعدم العدل بينهن، وحصول ضد المقصود، إذ يكون الزواج موجبا للعداوات وتفريق الشمل بدلاً من المحبة وجمع الكلمة كما أوجبته الشريعة، وليس لنا غرض من ذلك سوى تبيين الحق وتوضيح الصراط المستقيم.

الـــزواج (٣٤)

رأيت في كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بأنه: «عقد يملك به الرجل بضع المرأة». وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير إلى أن بين الزوج والزوجة شيئًا آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية، وكلها خالية عن الإشارة إلى الواجبات الأدبية التي هي أعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر.

وقد رأيت في القرآن الشريف كلامًا ينطبق على الزواج ويصح أن يكون تعريفًا له، ولا أعلم أن شريعة من شرائع الأمم التي وصلت إلى أقصى درجات التمدن جاءت بأحسن منه. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (سورة الروم ـ الآية: ٢١). والذي يقارن بين التعريف الأول الذي فاض من علم الفقهاء علينا، والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه إلى أي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهائنا وسرى منهم إلى عامة المسلمين. ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التي سقط إليها الزواج حيث صار عقدًا غايته أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به، وتبع ذلك ما تبعه من الأحكام الفرعية التي رتبوها على هذا الأصل الشنيع.

فهذا النظام الجميل الذي جعل الله أساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علم الفقهاء الواسع إلى أن يكون اليوم آلة الاستمتاع في يد الرجل، وجرى العمل على إهمال كل ما من شأنه أن يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخل بهما.

فمن دواعي المودة ألا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج إلا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر. ومن مقتضى الرحمة، أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما. ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقى الشرعي استخففنا به وتهاونا بواجباته، وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه.

بيّنا فيما سبق أن جميع المذاهب فى اتفاق على أن نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها، وذكرنا حديثًا عن النبى صلى الله عليه وسلم، أمر به أحد الأنصار أن ينظر إلى خطيبته، وهو قوله: «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما». . فما بالنا أهملنا هذه النصيحة، على ما فيها من الفائدة مع أننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها فى الأهمية؟! . . وذلك لأن الجاهل من عادته أن يميل إلى ما يضره وينفر مما ينفعه.

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمى العقل، قبل أن يتعارفا أن يرتبطا بعقد يلزمهما أن يعيشا معًا، وأن يختلطا كمال الاختلاط؟! . . أرى الواحد من عامة الناس لا يرضى أن يشترى خروفًا، أو جحشًا قبل أن يراه ويدقق النظر فى أوصافه ويكون فى أمن من ظهور عيب فيه. وهذا الإنسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامهما الفكر!!

لعلك تقول: إن المرأة ترى خطيبها في الشباك مرارًا، وإن الرجل يعرف بواسطة أمه أو أخته أوصاف خطيبته، مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزانة عقلها وما أشبه ذلك، فيكون عنده علم بما هى عليه من جمال وشمائل.

نقول: هذا قد يكون، ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما، ولا يمكن أن ينبعث عنها ميل إلى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتتعلق بها وبنسلها الآمال، وإنما الذى يهم الإنسان البصير هو أن يرى بنفسه خلقًا يفكر ويتكلم ويفعل. . خلقًا يجمع من الشمائل والصفات ما يلائم ذوقه ويتفق مع رغباته وعواطفه.

كثيرًا ما يرى الواحد شخصًا لم يكن رآه قبل ذلك، وبمجرد ما يقع نظره تنفر منه نفسه في الحال نفورًا تاما ولا يعلم لذلك سببًا . . وربما يستقبح الناظر شخصًا على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث بينهما تبدل منه ما وجد عنه أولاً بضده. وربما زين لأول نظرة منك صورة يظهر عليها بهاء الجمال، حتى إذا دنوت منها تبدل ذلك الإحساس بضده لأول كلمة تصدر منها، وخصوصًا أن هذا الإحساس المادى، سواء أكان ميلاً أم نفورًا، لا يتعلق بجمال وقبح المنظر، ولا يحس به جميع الناس على طريقة واحدة. فإن الإنسان الواحد يكون منظره سببًا للنفور عند شخص وللميل عند شخص آخر. فهذه الجاذبية الحسية لابد منها عند الزوجين، وهى إن لم تكن ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا أرى فى أى شيء آخر تكون لازمة.

على أن الانجذاب المادى ليس كافيًا فى الزواج، بل يلزم أن يوجد أيضًا توافق بين نفوس الزوجين، أى أنه يوجد. لا أقول اتحادًا لأنه مستحيل. وإنما ائتلاف بين ملكاتهما وأخلاقهما وعقولهما، ولا تتأتى معرفة وجود هذا التوافق وعدم وجوده إلا إذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلاً.

ولا يختلف اثنان فى أن الزواج الذى يبنى على هذا التوافق يكون أمرًا محترمًا فى نفوس الزوجين، وتكون عقدته من المتانة بحيث لا يسهل انحلالها، ويكون أيضًا موجبًا للعفة والتصون. وعندى أن كل زواج لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لأحد من الزوجين، مهما طال أجل الزواج، ومهما كانت صفات الرجل والمرأة. ولهذا قال الأعمش: «كل تزويج يقع على غير نظر فأمره هم وغم».

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط، كانت الرابطة بين الزوجين واهية العقد، تنحل لأول عرض يطرأ عليها. وأغلب ما يكون من ذلك لا سبب له إلا رغبة كل منهما فى الخروج من قيد لا يرى وجهًا للمحافظة عليه، والتنصل من أمر لا قيمة له فى نفسه.

وكل ذى ذوق سليم يرى من الصواب أن يكون للمرأة فى انتخاب زوجها

ما للرجل فى انتخاب زوجته، فإنه أمر يهمها أكثر مما يهم ذوى قرابتها، أما حرمانها من النظر فى كل ما يختص بزوجها وقصر الرأى فى ذلك على أوليائها دون مشاركة منها لهم، فهو بعيد عن الصواب.

قضت العادة عندنا أن يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل الذى خطبها، فلا يصلها خبر عن صفاته وأخلاقه، ولا تُسأل هل تحب الاقتران به؟ ولا يبحث أحد عن ذوقها ورغبتها وميلها، وهى لا تجد من نفسها جراءة على أن تبدى ما فى ضميرها. ويرى الناس أنه لا يليق بالمرأة أن يكون لها صوت فى أهم الأشياء لديها، فيعطى القريب أو البعيد رأيه فى زواجها ما عداها، ويظنون أن هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال الأدب، وهم مخطئون فيما يظنون.

منحت شريعتنا السمحاء إلى النساء حقوقًا لا تنقص عن حقوق الرجل فى الزواج، لها الحق مثله فى أن تتأكد بنفسها من إمكان تحقيق آمالها، وما علينا إلا أن نسمع صوت شريعتنا، ونتبع أحكام القرآن الكريم وما صح من سنة النبى صلى الله عليه وسلم، وأعمال الصحابة لتتم لها السعادة فى الزواج.

جاء فى الكتاب العزيز: ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ (سورة البقرة الآية: ٢٢٨). وكان ابن عباس يقول، اتباعًا لهذه الآية الكريمة: «إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى». وقال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ (سورة النساء ـ الآية: ١٩)، وقال فى تعظيم حقهن: ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ (سورة النساء ـ الآية: ٢١). وجاء عن النبى صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله». وكان النبى صلى الله عليه وسلم، يحب النساء، كما ورد فى الحديث: «حبب إلى من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة». وكان يحترم النساء احترامًا برهن للعالم على حسن خلقه، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت أن تركب. وكان يتنازل إلى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى أنه كان يسابق عائشة، رضى الله عنها فسبقته يومًا وسبقها فى بعض الأيام، فقال: «هذه بتلك». وكان يرأف بالنساء. والأحاديث فى هذا الموضوع كثيرة، كلها تدل على أن الدين الإسلامى يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها، ومعاملتها بالإحسان والمعروف.

ولكن ما دامت المرأة على ما هى عليه اليوم من الجهل، فالزواج لا يكون - كما هو الآن - إلا شكلاً من الأشكال العديدة التى يستبد بها الرجل على المرأة.

أما إذا تعلمت المرأة حقوقها، وشعرت بقيمة نفسها، عند ذلك يكون الزواج، الواسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معًا، عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يحب أحدهما الآخر حبًا تامًا بحسهما وقلبهما وعقلهما. عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل إليه وترتبط به بعقد الزواج، ويعرف أهلها أن فى كمال عقلها ما يكفى لحسن اختيارها، فيكونون معها على اتفاق فى الرأى، فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها، عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء، ويذوقون لذة الحب الحقيقى.

انظر إلى زوجين متحابين، تجدهما من اليوم فى نعيم الجنة.. ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خاليًا من المال، أو أن يكون على المائدة عدس وبصل؟؟ أما يكفيهما فرح القلب فى كل دقيقة تمر من اليوم..؟ هذا الفرح الذى يبعث النشاط فى الجسم والطمأنينة فى النفس ويحيى فى القلب شعورًا بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه فى مكان الرضى، حتى قال عمر بن الخطاب: «ما أعطى العبد بعد الإيمان خيرًا من امرأة صالحة».

أين هذا من حال عائلتنا اليوم، التى نرى فيها الزوجين وأحدهما أبعد الناس عن الآخر؟! ولو لم يكن إلا هذا البعد لخف احتماله، ولكن لما كان فى طبيعة الإنسان أن يجرى وراء سعادته، كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها، ومن هذا الاعتقاد يتكون فى المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر، وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات فى كل آن بسبب وبغير سبب، فى الصباح وفى المساء حتى فى الفراش.

تنتهى هذه الحالة بأن تتخلى المرأة عن بيتها إلى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون، فيستولى الاختلال على ما فيه، وتظهر فيه آثار الإهمال، فيبدو للناظر إليه كأنه غير مسكون بأهله، ويعلو التراب فراشه والقذر موائده، وتغفل شئون الزوج والأولاد فى مأكلهم أو مشربهم وملابسهم، وتقضى الزوجة أوقاتها فى مكان واحد تفكر فى سوء ما وصلت إليه، أو تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها الهموم.

وليس الرجل بأحسن منها حالاً، فإنه يهجر منزله، ويستريح إلى العيش فى القهاوى أو عند جيرانه، فإذا رجع إلى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت.

نتج مما تقدم، أن الزواج على غير نظر ـ كما هو حاصل الآن ـ إنما هو طريق يستعملها الرجل فى الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن فى حيازته دفعة واحدة، أو على العاقب، ولا تجد فيه المرأة مزية ترضى نفسها.

وكل رجل يقصد من الزواج أن تكون له صاحبة تشاركه فى السراء والضراء يصعب عليه، بل قد يتعذر أن يبلغ ما يريد من ذلك. ولهذا السبب رأينا فى هذه السنين الأخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه. ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد فى كل سنة ـ لأن الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسيتقدم كثيراً فى المستقبل ـ صارت تربية المرأة على مبدإ التعليم والحرية أمراً ضروريا لا يستغنى عنه، وإلا فما علينا إلا أن نعلن أن الثقة بالزواج قد فقدت، وأن المعاملة به قد بطلت، وحق عليه الإفلاس.

ولست مبالغًا إن قلت إن رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه أمانيهم المحبوبة. فإنهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها، وإنما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل فى كل شيء، ويطلبون أن تكون أم أولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية أولادها على مبادىء الأخلاق الحسنة وقواعد الصحة.

وكل من تجرد من التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لابد أن ينشرح صدره عندما يرى نمو هذا الميل فى نفوسهم، ويرى من نفسه وجوب الإصغاء إلى مقالهم والنظر فى مطالبهم فلا يستهجنها لأول وهلة، ولا يرميهم بالتفرنج فى آرائهم قبل البحث فيها، بل يزنها بميزان العقل والشرع، ومتى ثبت له أن هذا التغيير الذى نطلبه ليس إلا رجوعًا فى الحقيقة إلى أصول الدين وعوائد المسلمين السابقين، وأنه إصلاح يقضى به العقل السليم، لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها.

حكم الشريعة فى تعدد الزوجات [٣٥]

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة. قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (سورة النساء ـ الآية: ٣). فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها، اختل نظام المنزل، وساءت معيشة العائلة، إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة. والرجل إذا خص واحدة منهن دون الباقيات، ولو بشيء زهيد، كأن يستقضيها حاجة في يوم الأخرى، امتضعت تلك الأخرى، وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه إلى من لا حق لها، وتبدل الاتحاد بالنفرة، والمحبة بالبغض. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم، والخلفاء الراشدون، والعلماء، والصالحون، من كل قرن إلى هذا العهد يجمعون بين النسوة، مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن. فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة الزوجات فى نوبة الأخرى إلا بإذنها.

من ذلك، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطاف به، وهو فى حالة المرض، على بيوت زوجاته، محمولاً على الأكتاف، حفظا للعدل، ولم يرض بالإقامة فى بيت إحداهن خاصة. فلما كان عند إحدى نسائه، سأل فى أى بيت أكون غداً؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة، فَأَذِنَّ له فى المقام عندها مدة المرض. فقال: هَلْ رَضِيتُنَّ، فقلن: نعم. فلم يُقِمْ فى بيتَ عائشة حتى علم رضاهن.

وهذا الواجب الذى حافظ عليه النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه. فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه: «الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء، فإنهن عوان في أيديكم - أى أسراء - أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله». وقال: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى - وفى رواية ولم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل». وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبى بقوله «اللهم هذا (أى العدل في البيات والعطاء) جهدى فيما أملك، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك» (يعنى الميل القلبى). وكان يقرع[٣٦] بينهن إذا أراد سفراً.

وقد قال الفقهاء: يجب على الزوج المساواة فى القسم فى البيتوتة بإجماع الأئمة، وفيها وفى العطاء - أعنى النفقة عند غالبهم - حتى قالوا: يجب على ولى المجنون أن يُطَوِّفه على نسائه. وقالوا: لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى إلا لضرورة مبيحة، غايته يجوز له أن يسلم عليها من خارج الباب، والسؤال عن حالها بدون دخول. وصرحت كتب الفقه بأن الزوج إذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة، فأغلقت الباب دونه، وجب عليه أن يبيت بحجرتها، ولا يذهب إلى ضرتها إلا لمانع برد ونحوه. وقال علماء الحنفية: إن ظاهر آية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، أن العدل فرض في البيتوتة، وفي الملبوس، والمأكول، والصحبة، لا فى المجامعة، لا فرق فى ذلك بين فحل وعنين ومجبوب[٣٧] ومريض وصحيح. وقالوا: إن العدل من حقوق الزوجية، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعًا، إذ لا تفاوت بينهما. وقالوا: إذا لم يعدل، ورُفِع إلى القاضى، وجب نهيه وزجره، فإن عاد عُزِّر بالضرب لا بالحبس. وما ذلك إلا محافظة على المقصد الأصلى من الزواج، وهو التعاون فى المعيشة وحسن السلوك فيها.

أفبعد الوعيد الشرعى، وذاك الإلزام الدقيق الحتمى الذى لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة

فضلاً عن تحققه! فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية، واستحصال لذة وقتية، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد، ومخالفة الشرع الشريف؟! فإنا نرى أنه إن بدت لإحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها وإتقانها، وتحلف بالله إنها لصادقة فيما افترت - وما هي إلا من الكاذبات - فيعتقد الرجل أنها أخلصت له النصح لفرط ميله إليها، ويوسع الأخريات ضربًا مبرحًا وسبًا فظيعًا، ويسومهن طردًا ونهرًا من غير أن يتبين فيما ألقي إليه؛ إذ لا هداية عنده ترشده إلى تمييز صحيح القول من فاسده، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة؛ فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة، وتسعى كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية، ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل. . وفضلاً عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل، يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده، فإنهن دائمًا يتوقعن منه الطلاق، إما من خبث أخلاقهن وإما من رداءة أفكار الزوج. وأيًا ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش.

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد في أفئدتهن، تزرع كل واحدة في ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لإخوته أولاد النسوة الأخريات. . فإنها دائمًا تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع، وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم، وتعدد له وجوه الامتياز. . فكل ذلك وما شابهه، إن ألقي إلى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلاً لا يقوى على إزالته بعد تعقله، فيبقى نفورًا من أخيه عدوًا له، لا نصيرًا وظهيرًا له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ.

وإن تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه، وإن لم يعقل ما لفظ إن كان خيرًا أو شرًا لكونه صغيرًا، انتصب سوق العراك بين والدتيهما، وأوسعت كل واحدة الأخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب - وإن كن من المخدرات في بيوت المعتبرين - كما هو مشاهد في كثير من الجهات، وخصوصًا الريفية. وإذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة، تعسر عليه إطفاء الثورة من بينهن

بحسن القول ولين الجانب، إذ لا يسمعن له أمراً، ولا يرهبهن منه وعيداً لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات، لمثل هذه الأسباب أو غيرها، التى أفضت إلى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن، أو لكونه ضعيف الرأى، أحمق الطبع، فتقوده تلك الأسباب إلى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً، وأو طلاق من هى عنده أقل منزلة فى الحب، ولو كانت أم أكثر أولاده، فتخرج من المنزل سائلة الدمع، حزينة الخاطر، حاملة من الأطفال عديداً، فتأوى بهم إلى منزل أبيها - إن كان - ثم لا يمضى عليها بضعة أشهر عنده إلا سئمها، فلا تجد بدا من رد الأولاد إلى أبيهم، وإن علمت أن زوجته الحالية تعاملهم بأسوأ مما عوملوا به من عشيرة أبيها. ولا تسل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوى إليه، فإن شرح ما تعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتقريع، يئنون من الجوع، ويبكون من ألم المعاملة.

ولا يقال إن ذلك غير واقع لأن الشريعة الغراء كلَّفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم، وعلى من يقوم مقامها فى الحضانة إن خرجت من عدتها وتزوجت.. فإن الزوج وإن كلَّفته الشريعة بذلك لكن لا يذعن لأحكامها فى مثل هذا الأمر الذى يكلفه نفقات كبيرة إلا مكرهًا مجبوراً.. والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعى، إما لبعد مركزه فلا تقدر على الذهاب إليه، وتترك بنيها لا يملكون شيئًا مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضى الزوج، وربما آبت إليهم حاملة صكًا بالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضى عليه من النفقة، من غير أن تقبض منه ما يسد الرمق أو يذهب بالعوز، ويرجع الزوج مصراً على عدم الوفاء بما وعد، لكونه متحققًا من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها إلى العودة للشكاية، لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية.. وإما حياء من شكاية الزوج، فإن كثيراً من أهل الأرياف يعدون مطالبة المرأة بنفقتها عيبًا فظيعًا، فهى تفضل البقاء على تحمل الأتعاب الشاقة، طلبًا لما تقيم به بنيتها هى وبنيها على الشكاية التى توجب لها العار، وربما لم تأت بالثمرة المقصودة.

وغير خفى أن ارتكاب المرأة الأيم(٣٨) لهذه الأعمال الشاقة، ومعاناة البلايا المتنوعة التى أقلها ابتذال ماء الوجه، تؤثر فى أخلاقها فساداً، وفى طباعها قبحًا، مما

يذهب بكمالها ويؤدي إلى تحقيرها عند الراغبين في الزواج. ولربما أدت لها هذه الأمور إلى أن تبقى أيِّمًا مدة شبابها، تتجرع غصص الفاقة والذل. وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق، فلا يكون في الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدراً من بعلها السابق، أو كهلاً قلت رغبة النساء فيه، ويمكث زمنًا طويلاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف. فإنها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته، وتضمر له السوء إن فعل ذلك، كأن مطلِّقها يريد أن تبقى أيِّمًا إلى الممات، رغبة في نكالها وإساءتها إن طلقها كارهًا لها. أما إذا كان طلاقها ناشئًا عن حماقة الرجل لإكثاره من الحلف به عند أدنى الأسباب وأضعف المقتضيات، كما هو كثير الوقوع الآن، اشتد حنقه وغيرته عليها، وتمنى لو استطاع سبيلاً إلى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها.

وكأني بمن يقولون إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر إلا من سفْلة الناس وأدنيائهم، وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئًا من ذلك، فإنهم ينفقون مالاً لُبَدًا(٣٩) على مطلقاتهم وأولادهم منهن، وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم، فلا ضير عليهم في الإكثار من الزواج إلى الحد الجائز، والطلاق إذا أرادوا. بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعًا لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: «تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم يوم القيامة». وأما ما يقع من سفْلة الناس، فلا يصح أن يُجْعَل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الأمة خصوصًا وآية ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (سورة النساء - الآية: ٣) لم تنسخ بالإجماع، فإذن يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب.

نقول في الجواب عن هذا: كيف يصح هذا المقال، وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن، فتربى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم، لا يعتنون بشأنهم، ولا يلتفتون إليهم؟! وكثيرًا ما رأينا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار، مرضاة لنسائهم الجديدات، ويسيئون إلى النساء بما لا يستطاع، حتى إنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية إلا إرادة الإضرار بالأولى، وهذا شائع كثير. وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات، لا يمكننا إلا أن نقول كما هو الواقع، إن إنفاقهم على النسوة، وتوفية حقوق الزوجة

من القَسْم فى المبيت ليسا على نسبة عادلة، كما هو الواجب شرعًا على الرجل لزوجاته، فهذه النفقة تستوى مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به الشرع الشريف.

فإذن لا تمايز بينهم وبين الفقراء فى أن كلا قد ارتكب ما حرمته الشرائع، ونهت عنه نهيًا شديدًا، خصوصًا وأن مَضَرّات اجتماع الزوجات عند الأغنياء أكثر منها عند الفقراء، كما هو الغالب. فإن المرأة قد تبقى فى بيت الغنى سنة أو سنتين بل ثلاثا بل خمسا بل عشرًا لا يقربها الزوج خشية أن تغضب عليه من يميل إليها ميلاً شديدًا، وهى مع ذلك لا تستطيع أن تطلب منه أن يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه، فتضطر إلى فعل ما لا يليق.. وبقية المفاسد التى ذكرناها من تربية الأبناء على عداوة أخوتهم بل وأبيهم أيضًا موجودة عند الأغنياء أكثر منها عند الفقراء، ولا تصح المكابرة فى إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره فى غالب الجهات والنواحى، وتطاير شره فى أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الأقطار المشرقية.

فهذه معاملة غالب الناس عندنا، من أغنياء أو فقراء، فى حالة التزوج بالمتعددات، كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعيته، بل اتخذوه طريقًا لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير، وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه، وهذا لا تجيزه الشريعة ولا يقبله العقل. فاللازم عليهم حينئذ: إما الاقتصار على واحدة إذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد، عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ وأما آية ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ** ﴾ فهى مقيدة بآية ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ** ﴾ وإمّا أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعًا من العدل، وحفظ الألفة بين الأولاد، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة، ولا يحملونهن على الإضرار بهم وبأولادهم، ولا يطلقونهن إلا لداع ومقتضى شرعى، شأن الرجال الذين يخافون الله، ويوقرون شريعة العدل، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن، ويعاشرونهن بالمعروف، ويفارقونهن عند الحاجة. فهؤلاء الأفاضل الأتقياء لا لوم عليهم فى الجمع بين النساء إلى الحد المباح شرعًا، وهم وإن كانوا عددًا قليلاً فى كل بلد وإقليم، لكن أعمالهم واضحة الظهور، تستوجب لهم الثناء العميم والشكر الجزيل، وتقربهم من الله العادل العزيز.

تعدد الزوجات (٤٠)

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الإسلام، ومنتشرة في جميع الأنحاء، يوم كانت المرأة نوعًا خاصًا معتبرة في مرتبة بين الإنسان والحيوان . . وهو من ضمن العوائد التي دل الاختبار التاريخي على أنها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية، فتكون في الأمة غالبة عندما تكون حالة المرأة فيها منحطة وتقل أو تزول بالمرة عندما تكون حالها مرتقية، اللهم إلا إذا كان التعدد لأسباب خاصة قضت به عند فرد أو أفراد مخصوصين، فتقف عندهم وتقدر بقدرهم.

حتى في الأمة التي ألف تعدد الزوجات فيها، نرى الرجل إذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله وأولاده وعرف أن من حقوقها أن تكون في المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفطرة، مال إلى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات. ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده، ولا نظن أحدًا ينازعنا فيه، من أن هذه العادة خفت في بعض الطبقات من أهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين أو ثلاثين سنة.

نعم . . إن منع الرقيق كان له أثر محمود في هذه العادة، حيث قطع ورود الجواري التي كانت تملأ بيوت أكابر القوم وأعيانهم، ولكن يظهر لي أن ترقي عقول الرجال وتهذيب نفوسهم لهما أثر مهم أيضًا في تلاشيها؛ ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد، ولا تطاوعه مروءته إن همت شهوته بامتهانها.

وبديهي أن في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة، لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها في زوجها امرأة أخرى، كما أنك لا تجد رجلاً يقبل أن يشاركه غيره في محبة امرأته، وهذا النوع من حب الاختصاص طبيعي للمرأة كما أنه طبيعي للرجل. ولو سلم أنه ليس بطبيعي، كما ذهب إلى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد الذي يعيش بين العشرات من الدجاج، فأقل ما فيه أنه ميل مكتسب، بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت في نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته من الحيوانية إلى ما أمد له من الكمال الإنساني، فهذا الاختصاص، بما كسبه من التأصل في الأنفس والرسوخ فيها، لا يقل أثره عن أثر الغرائز الفطرية.

وعلى كل حال، فكل امرأة تحترم نفسها تتألم إذا رأت زوجها ارتبط بامرأة أخرى، إذ لا يخلو حالها من أحد أمرين: إما أن تكون مخلصة في محبتها لزوجها، فتلهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها، وإما ألا تكون كذلك، لكنها راضية بعشرته لسبب من الأسباب، فهي مع ذلك ترى لنفسها مقامًا في أهله، فإذا ارتبط بأخرى سواها قاست من الألم ما يبعثه إحساسها بأن ذلك المقام الذي كان باقيًا لها قد انهدم، ولم يعد لها أمل في بقاء شيء من كرامتها عنده، فالألم لاصق بها على كل حال.

وإن قيل: إن التجارب دلت على إمكان الجمع بين امرأتين أو أكثر، مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها، فالجواب عنه من وجهين: الأول: إن ما يدعى من رضاء كل منهن بحالها، ليس بصحيح إلا في بعض أفراد نادرة لا حكم لها في تقدير حال أمة، وإن وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن، والجنايات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى، وهو شاهد على أن تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائرهن وبين أزواجهن ومصدر لشقاء الأهل والأقارب. فمن يدعي أن نساءنا يرضين بمشاركتهن في أزواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان وراحة بال فهو غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت.

والثاني: إن ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر، ناشئ عن المرأة إنما تعتبر

نفسها متاعًا للرجل، فله أن يختص بها، وله أن يشرك معها غيرها كيفما شاء، وليس لها على هواه (حق) حتى تطالبه به، كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعًا للحكام في عهد ليس بعيدًا عنا.

ويظهر لي أن رجلاً مهذبًا عارفًا بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطيق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين.

قدمنا أن في فطرة المرأة ميلاً إلى التسلط على قلب الرجل، فإذ رأت بجانبه امرأة أخرى في فطرتها ذلك الميل، ويمكنها أن تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهي، تولاها الاضطراب والقلق، وهجرتها الراحة، وكانت حياتها عذابًا أليمًا. وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب، فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الأليم؟!

ويزيد النساء قلقًا واضطرابًا ما صرح به الفقهاء من أنه لا يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه، وإنما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها.

ولا ريب أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب، حيث يشعر دائما بأنه هو السبب في هذا الشقاء.

ثم إن الأولاد من أمهات مختلفات ينشئون بين عواصف الشقاق والخصام، فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم، بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينمي في نفوسهم البغضاء، ولا يستطيع أحد أن يحول بين ما يشهدون من تخاصم أمهاتهم بعضهن مع بعض وتخاصمهم مع والدهم فيؤثر ذلك في نفوسهم، بل يسري في أفئدتهم سم الغش والخدعة والشر، ويظهر أثر كل ذلك عند الفرصة.. مثلهم كمثل الممالك الأوروباوية تظهر بحالة السلم وهي تأخذ أهبتها للحرب، حتى إذا حانت الفرصة وثب كل منها على الآخر فمزق بعضهم بعضا، كما نشاهده في أغلب العائلات.

أين هذا من منظر عائلة متحدة، يعيش فيها الأولاد في حضن والديهم، تجمعهم محبة صادقة، ولا يتنافسون إلا في زيادة الحب، ولا يتسابقون إلا إلى الخير يصل

من بعضهم لبعض، يربطهم ميثاق غليظ جعلهم كأعضاء جسم واحد، إن فرح أحدهم فرحوا معه، وإن بكى بكوا معه، هم سعداء الدنيا فى كل حال، أسبغ الله عليهم أكبر نعمة يتمناها العاقل، وهى المودة فى القربى.

فلا ريبة بعد هذا أن خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة، ذلك أدنى أن يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفى زوجته وأولاده حقوقهم من النفقة والتربية والمحبة، وأقرب إلى الوصول إلى سعادته.

ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة: اللهم إلا فى حالة الضرورة المطلقة، كأن أصيبت امرأته الأولى بمرض لا يسمح لها بتأدية حقوق الزوجية.. أقول ذلك ولا أحب أن يتزوج الرجل بامرأة أخرى حتى فى هذه الحالة وأمثالها، حيث لا ذنب للمرأة فيها، والمروءة تقضى أن يتحمل ما تصاب به امرأته من العلل، كما يرى من الواجب أن تتحمل هى ما عساه كان يصاب به.

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل أن يتزوج بثانية، مع المحافظة على الأولى إذا رضيت أو تسريحها إن شاءت، وهى ما إذا كانت عاقرا لا تلد، لأن كثيراً من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل فى عائلتهم.

أما فى غير هذه الأحوال، فلا أرى تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية، وهو علامة تدل على فساد الأخلاق واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ.

والذى يطيل البحث فى النصوص القرآنية التى وردت فى تعدد الزوجات يجد أنها تحتوى إباحة وحظراً فى آن واحد.. قال تعالى: ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا** ﴾ (النساء: ٣).

﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (النساء: ١٢٩).

ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع، فمن ذا الذى يمكنه ألا يخاف عدم العدل مع ما تقرر من أن العدل غير مستطاع؟! وهل لا يخاف الإنسان من عدم القيام بالمحال؟! أظن أن كل بشر إذا أراد الشروع فى عمل مستطاع يخاف، بل يعتقد أنه يعجز عن القيام به والوقوع فى ضده.. ولو أن ناظرا فى الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه هذا بعيدا عن معناهما، لولا أن السنة والعمل جاء بما يقتضى الإباحة فى الجملة.

وكأن مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة، وبأن الله تعالى وكل الناس فى ذلك إلى ما يجدونه من أنفسهم، فمن بلغت ثقته من نفسه حدًا لا يخاف معه أن يجور، وإذا أراد أن يتزوج أكثر من واحدة أبيح له ذلك بينه وبين الله، ومن لم يصل إلى هذا الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه أن يتزوج أكثر من واحدة. ثم نبه مع ذلك على أن هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن إدراكها، زيادة فى التحذير.

وغاية ما يستفاد من آية التحليل إنما هو: حل تعدد الزوجات إذا أمن الجور، وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح. فإذا غلب على الناس الجور بين الزوجات، كما هو مشاهد فى أزماننا، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة، وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاما، جاز للحاكم، رعاية للمصلحة العامة، أن يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة.

وإنه ليجمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذا العادة من أنفسهم. ولا أظن أن أحدا من أهل المستقبل يأسف على تركها. فإن التمتع بالنساء، وإن قل فى هذه الحالة من الجهة الشهوانية، فإنه يزيد من الناحية المعنوية التى يلزم أن تكون وجهة كل راغب فى الزواج. فإن رجلا يسوقه إلى الزواج سائق العقل، ويوجه رغبته إليه

حادى الفكر يعلم أنه إنما يتخذ لنفسه بالزواج قرينا صالحا يمده بالمعونة فى شئونه ويؤنسه فى وحدته ويشفعه فى عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من أهله؛ فهو يتخير لذلك خير العقائل وأكرم السلائل، ويصطفيها على ما يحب من العقل والأدب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن، يكون له منها منظر بهى وملمس شهى وصورة تعجب ومعنى يطرب، وفهم يسبق الإشارة وذكاء يستغنى عن العبارة، ولذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل.

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة، تأمن شره وانقلابه، ويأمن منها المكر والخلابة، تحسن القيام على أولاده بالتربية الصالحة، وتغذيهم بآدابها كما غذتهم بلبانها، فتأخذ أرواحهم من روحها ما أخذته أبدانهم من بدنها، فينشئون على المحبة ويشبون على الألفة، فيكون للرجل من ذلك كله مشهد، ظاهره الراحة والطمأنينة وباطنه السعادة والهناء.. عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه، فأين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود إلى ما انحط من دركات الشهوة؟!

فتوى فى تعدد الزوجات [٤١]

السؤال الأول:

«ما منشأ تعدد الزوجات فى بلاد العرب (أو فى الشرق على الجملة) قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم؟»

الجواب:

ليس تعدد الزوجات من خواص المشرق، ولا وحدة الزوجة من خواص المغرب، بل فى المشرق شعوب لا تعرف تعدد الزوجات كالتبت والمغول. وفى الغرب شعوب كان عندها تعدد الزوجات كالغولوا والجرمانيين.. ففى زمن «سيزار» كان تعدد الزوجات شائعا عن الغولوا، وكان معروفا عند الجرمانيين فى زمن «ناسيت»، بل أباحه بعض البابوات لبعض الملوك بعد دخول الدين المسيحى إلى أوروبا كشرلمان ملك فرنسا، وكان ذلك بعد الإسلام.

كان الرؤساء وأهل الثروة يميلون إلى تعدد الزوجات فى بلاد يزيد فيها عدد النساء على عدد الرجال توسعًا فى التمتع. وكانت البلاد العربية مما تجرى فيها هذه العادة لا إلى حد محدود، فكان الرجل يتزوج من النساء ما تسمح له أو تحمله عليه قوة الرجولية وسعة الثروة للإنفاق عليهن وعلى ما يأتى له من الولد.

وقد جاء الإسلام وبعض العرب تحته عشر نسوة. وأسلم غيلان، رضى الله عنه، وعنده عشر نسوة، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم، بإمساك أربع منهن ومفارقة الباقيات، وأسلم قيس بن الحارث الأسدي وتحته ثمانى نسوة، فأمره صلى الله عليه وسلم، بأن يختار منهن أربعًا وأن يخلى ما بقى.

فسبب الإكثار من الزوجات إنما هو الميل إلى التمتع بتلك اللذة المعروفة وبكثرة النساء. وقد كان العرب قبل البعثة في شقاق وقتال دائمين، والقتال إنما كان بين الرجال، فكان عدد الرجال ينقص بالقتل فيبقى كثير من النساء بلا أزواج، فمن كانت عنده قوة بدنية وسعة في المال كانت نفسه تذهب وراء التمتع بالنساء فيجد منهن ما يرضي شهوته، ولا يزال يتنقل من زوجة أخرى ما دام في بدنه قوة، وفي ماله سعة.

وكان العرب ينكحون النساء بالاسترقاق، ولا يستكثرون من ذلك، بل كان الرجل يأخذ السبايا فيختار منهم واحدة ثم يوزع على رجاله ما بقي واحدة واحدة، ولم يعرف أن أحداً منهم اختار لنفسه عدة منهن أو وهب لأحد رجاله كذلك دفعة واحدة.

السؤال الثاني:

«على أي صورة كان الناس يعملون بهذه العادة في بلاد العرب خاصة؟»

الجــــواب:

كان عملهم على النحو الذي ذكرته: إما بالتزوج واحدة بعد واحدة أو بالتسري وأخذ سرية بعد أخرى أو جمع سرية إلى زوجة أو زوجة إلى سرية. ولم يكن النساء إلا متاعا للشهوة لا يرعى فيهن حق، ولا يؤخذ فيهن بعدل، حتى جاء الإسلام فشرع لهن الحقوق وفرض فيهن العدل.

السؤال الثالث:

«كيف أصلح نبينا، صلى الله عليه وسلم هذه العادة، وكيف كان يفهمها؟»

الجــــواب:

جاء صلى الله عليه وسلم وحال الرجال مع النساء كما ذكرنا، لا فرق بين متزوجة وسرية في المعاملة، ولا حد لما يبتغي الرجل من الزوجات، فأراد الله أن يجعل في شرعه صلى الله عليه وسلم رحمة بالنساء وتقريراً لحقوقهن، وحكمًا

عدلاً يرتفع به شأنهن. . وليس الأمر كما يقول كتبة الأوروبيين: إن ما كان عند العرب عادة جعله الإسلام دينا، وإنما أخذ الإفرنج ما ذهبوا إليه من سوء استعمال المسلمين لدينهم وليس له مأخذ صحيح منه.

حكم تعدد الزوجات جاء في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء: ٣).

كان الرجل من العرب يكفل اليتيمة فيعجبه جمالها ومالها، فإن كانت تحل له تزوجها وأعطاها من المهر دون ما تستحق وأساء صحبتها وقتر في الإنفاق عليها وأكل ما لها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك، وشدد عليهم في الامتناع عنه، وأمرهم أن يؤتوا اليتامى أموالهم، وحذرهم من أن يأكلوا أموالهم إلى أموالهم. . ثم قال لهم: إن كان ضعف اليتيمات يجركم إلى ظلمهن، وخفتم أن لا تقسطوا فيهن إذا تزوجتموهن، وأن يطغى فيكم سلطان الزوجية فتأكلوا أموالهن وتستذلوهن، فدونكم النساء سواهن فانكحوا ما يطيب لكم منهن من ذوات جمال ومال من واحدة إلى أربع. ولكن ذلك على شرط أن تعدلوا بينهن فلا يباح لأحد من المسلمين أن يزيد في الزوجات على واحدة إلا إذا وثق بأن يراعي حق كل واحدة منهن ويقوم بينهن بالقسط، ولا يفضل إحداهن على الأخرى في أي أمر حسن يتعلق بحقوق الزوجية التي تجب مراعاتها. فإذا ظن أنه إذا تزوج فوق الواحدة لا يستطيع العدل، وجب عليه أن يكتفي بواحدة فقط.

فتراه قد جاء في أمر تعدد الزوجات بعبارة تدل على مجرد الإباحة على شرط العدل، فإن ظن الجور منعت الزيادة على الواحدة، وليس في ذلك ترغيب في التعدد بل فيه تبغيض له، وقد قال في الآية الأخرى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء: ١٢٩).

فإذا كان العدل غير مستطاع، والخوف من عدم العدل يوجب الاقتصار على الواحدة، فما أعظم الحرج في الزيادة عليها!

فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات، ووقف عند الأربع، ثم إنه شدد الأمر على المكثرين إلى حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة.

وأما المملوكات من النساء، فقد جاء حكمهن في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣) وهو إباحة الجمع بينهن وإن لم يكن من الرجل عدل فيهن، لأن المملوكة لا حق لها، ولمالكها أن يتركها للخدمة ولا يضاجعها البتة. وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز للرجل أن يأخذ من الجوارى ما يشاء بدون حصر، ولكن.. يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك، فإن الكلام جاء مرتبطا بإباحة التعدد إلى أربع فقط، وإن الشرط في الإباحة التحقق من العدل، فيكون المعنى: أنه إذا خيف الجور وجب الاقتصار على الواحدة من الزوجات أو أخذ العدد المذكور مما ملكت الأيمان، فلا يباح من النساء ما فوق الأربع على كل حال، ويباح الأربع بدون مراعاة للعدل في المملوكات دون الزوجات، لأن المملوكات ليس لهن حقوق في العشرة على ساداتهن، إلا ما كان من حقوق العبد على سيده، وحق العبد على سيده أن يطعمه ويكسوه وألا يكلفه من العمل في الخدمة ما لا يطيق، أما أن يمتعه بما تتمتع به الزوجات فلا[٤٢].

وقد ساء استعمال المسلمين لما جاء في دينهم من هذه الأحكام الجليلة، فأفرطوا في الاستزادة من عدد الجوارى، وأفسدوا بذلك عقولهم وعقول ذراريهم بمقدار ما اتسعت لذلك ثروتهم.

أما الأسرى اللاتى يصح نكاحهن فهن أسرى الحرب الشرعية التي قصد بها المدافعة عن الدين القويم أو الدعوة إليه بشروطها، ولا يكن عند الأسر إلا غير مسلمات. ثم يجوز بيعهن وإن كن مسلمات. وأما ما مضى المسلمون على اعتياده من الرق، وجرى عليه عملهم في الأزمان الأخيرة فليس من الدين في شيء فما يشترونه من بنات الجراكسة المسلمين اللاتى يبيعهن آباؤهن وأقاربهن طلبا للرزق، أومن السودانيات اللاتى يتخطفهن الأشقياء السلبة المعروفون «بالأسيرجية» فهو ليس بمشروع ولا معروف في دين الإسلام وإنما هو من عادات الجاهلية، لكن لا جاهلية العرب بل جاهلية السودان والجركس.

وأما جواز إبطال هذه العادة، أى عادة تعدد الزوجات فلا ريب فيه.

أولاً: لأن شرط التعدد هو التحقق من العدل، وهذا الشرط مفقود حتماً، فإن وجد في واحد من المليون فلا يصح أن يتخذ قاعدة، ومتى غلب الفساد على النفوس، وصار من المرجح ألا يعدل الرجال في زوجاتهم جاز للحاكم أن يمنع التعدد أو للعالم أن يمنع التعدد مطلقا مراعاة للأغلب.

وثانيًا: قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد، وحرمانهن من حقوقهن في النفقة والراحة، ولهذا يجوز للحاكم وللقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعًا للفساد الغالب.

وثالثًا: قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم، فإن كل واحد منهم يتربى على بغض الآخر وكراهته، فلا يبلغ الأولاد أشدهم إلا وقد صار كل منهم من أشد الأعداء للآخر، ويستمر النزاع بينهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى الظالمين. ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجوارى صيانة للبيوت عن الفساد.

نعم.. ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتى منها بذرية، فإن الغرض من الزواج التناسل، فإذا كانت الزوجة عاقرا فليس من الحق أن يمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى.

وبالجملة.. فيجوز الحجر على الأزواج عموما أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضى، ولا مانع من ذلك فى الدين البتة، وإنما يمنع ذلك هو العادة فقط.

فوائد المصاهرة (٤٣)

لا يخفى أن أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا إلى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة، تلتحم به العائلات المتباعدة في النسب، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد. فقد حرم الله على الشخص أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصولها وفروعها، كما حرم عليه أن يتزوج بأخته أو أنثى من أصول نفسه وفروعه، وكذل حرم على زوجته أن تقترن بشيء من أصوله أو فروعه، فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة نفس الآخر حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه، فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهانا واضحا على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة ومساو لنفس القرابة النسبية في الأحكام والحقوق والاحترام، وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الإنساني، ولازم لرابطة القرابة النسبية بالطبع.

فإننا قد ذكرنا في جملنا السابقة أن حكمة الزواج كما نص عليه علماؤنا إنما هي حفظ النوع ووقاية الوجود البشري من خطر الفناء والزوال، وبيّنا أن هذا إنما يكون باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر، وتوجههما معًا إلى غاية واحدة وهي حفظ أنفسهما وحفظ نسلهما، وإعداد جميع ما يلزم لوقايته ونمائه وإبلاغه الحد الذي يستقل عنده بالسعي في حفظ وجوده، ويطلب من أسباب بقاء النوع ما طلبه والداه. فمن كانت له ابنة، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده، وقضت سنة الله في خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات، ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة.

وحيث إن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به، فمن الواجب عليه أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسها، ويكون عونا له على سعادته، لتتصل بها سعادة ابنته، وهكذا كل من ينسب إليها بنوع من القرابة، فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها مثل ما هم عليه بالنسبة إليها. فلو سعى أحد منهم فى تكدير خاطر الزوج، الذى هو مرتبط بها ارتباط الروح بالجسد، فقد سعى فى تكديرها لا محالة.

وهكذا يجب على نفس الزوج وأقربائه لنفس الزوجة وأقربائها مثل تلك الواجبات، فيلزم أن تكون المصاهرة سببا حقيقيا فى ارتباط العائلات، توجب على كل من العائلتين للأخرى مثل ما توجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للآخر.

وعلى هذا جرت عوائد الأمم التى كنا نسميها وحشية فى الأزمنة السابقة، ولا عوائدها على ذلك إلى هذا الوقت فى الأقطار التى لم يشرفها اسم التمدن، فلا تصاهر قبيلة قبيلة أخرى إلا إذا أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد تكون به كل منهما عونا للثانية على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات. ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين، وعداوة تمكنت فى نفوس جميع أفرادها أزمنة طوالاً، ثم ملوا مفارقة الحروب، وكلوا من مقارعة القتال، وطلبوا الراحة الدائمة والسلم المستمر، لم يجدوا وسيلة تقطع عرق العداوة وتستبدل به رباط المحبة إلا أن تتصاهر القبيلتان، فتصيران كذى نسب واحد، ويتناسى بذلك ما كان من أمر العداوة.

وهكذا كانت السنة فى البلاد المتمدنة، ولم تزل عليها إلى اليوم، يعدون المصاهرة علاقة تامة من علائق القرابة، حتى إن الملوك تتخذها واسطة سياسية، لاستمالة كل من الدولتين إلى الأخرى، فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها حتى عدت رابطة بين الأمم المتنافرة، كما تقتضيه الطبيعة وتشير إليه الشريعة.

غير أن جميع هذه الفوائد الجليلة التى وضعها الله سبحانه وتعالى، فى عقد الزواج والمصاهرة إنما تتوافر للإنسان ويتمتع بها إذا روعى فيه حكمته الأصيلة، واتبعت فيه الأصول الشرعية، وعلم كل من الزوجين علم اليقين أنه لم ينضم إلى

الآخر إلا ليكون ركنا من أركان سعادته وعونا له على القيام بتلك الوظيفة الإنسانية، وهي وظيفة حفظ النسل والبلوغ به حد الكمال. وهذا إنما يكون إذا حسنت تربية كل من الذكر والأنثى، وتحلت نفوسهما بالفضائل، وعقولهما بالمعرفة الحقة، حتى عدوا لذة الاجتماع وسيلة وطريقة إلى ذلك الخير الكلي، أعني التعاون والتعاضد على حفظ الذات الشخصية والنوع الكلي، أعني حفظ الذرية. فإن هذا التصور يستدعي نظراً عاماً وتطلعا لغاية كلية تفنى عندها كل الغايات الجزئية فتتوجه همة كل من المزدوجين إلى جلب المصالح ودرء المفاسد. وعلى ذلك تاكون عزائم الأنسباء والأقرباء لكل منهما، ومراعاة لغاية المحبة الرحمية عينها، كما بيناه أولاً.

لكن إذا كانت أهالي البلاد منصرفة العقول عن رعاية الحكم الإلهية، قاصرة الأذهان فلا تنظر إلا إلي اللذائذ الوقتية الآنية، رأيت أسباب المودة تنقلب عندها إلى أسباب عداوة ونفور. ألا ترى أن المصاهرة التي وضعها الله من أقوى أسباب الارتباط، وأنزلها منزلة النسب، كيف صارت عند غالب الناس في بلادنا سببا للعداوة والتقاطع الشديد؟!.. والسبب في ذلك قصور التربية ونقص العقول. فقد يتزوج الرجل من عائلة فتكون عند الزواج وقبله وعلاقات المحبة أكيدة وصلات الوداد نامية، حتى إذا مضى بعد الزواج أمد غير بعيد رأيت نوعا من المناقشات يبدو ويظهر غالبا بين أهل الزوج وزوجته، فتأخذ تلك المناقشات مأخذاً من قلب الزوجة، إما لجهلها وإما لسوء معاملة أهل الزوج حقيقة. فإن كان الأول، فهو من قصور تربيتها ونقص فطرتها. وإن كان الثاني، فه، من حماقة الأهل وفساد نظرهم. وعلى كلا الحالين، فمتى وصل الخبر آذان أهل الزوجة أخذ من قلوبهم ما أخذ من قبلها، وهكذا يتزايد النفور حتى تنقلب تلك المودة الأولى بعداوة وتقضي على كل من العائلتين المتصاهرتين بالسعي في كيد الأخرى ونكبتها.

وهكذا لو سرت في أطراف بلادنا، خصوصا في الجهات الريفية، لا فرق فيها بين الأوساط وذوي الشرف، لرأيت هذه الحالة غالبة. فكأن من يريد المصاهرة يطلب أن يتخذ لنفسه أعداء ومباغضين!!.. وإننا لا نتأسف في ذلك على ما يكون بين العائلات أو الأشخاص من العداوات والمنافسات إذا بقي ضرره قاصراً على

ما بينهما من المصالح الجزئية ولكن الضرر الكلى هو أن روح العداوة متى نفث فى روع الأشخاص وفشا فى نفوس العائلات تعدى شرره إلى المصالح العمومية، وتوجهت نفوس الأفراد إلى حب الاختصاص بالمنافع، وانصرفت الهمم عن وجهة حب الخير الإنسانى، فتكون أعضاء الهيئة الاجتماعية مختلفة النظام بما بين أعضائها من الفساد. فتلك المنازعات الجزئية يظهر تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية الكلية، حتي إذا عرض أمر من الخير أو الشر، واحتاج إلى التروى والتشاور فيه لتقرير ما يدفع الشر أو يجلب الخير رأيت تلك المنافساتت الشخصية تحول بين الآراء والصواب، وظهر ذلك النفور الذى ابتدأته المصاهرة يقوم مقام النفور الذى توجبه المباينة فى الجنس أو المخالفة فى المشرب.

فما لنا لا نتخذ الأسباب الطبيعة الاعتيادية التي وضعت لجمع الكلمة والتئام المتفرق وسيلة لما وضعت له، معتبرين فى ذلك بما يرشد إليه الشرع القويم، وبأحوال الأمم المتمدنة، أو آثار القبائل المتوحشة، وما بالنا ضربنا صفحا عن مراعاة وسائل الألفة والوئام، مع أننا أشد الناس احتياجا إليها؟!

نعم.. هناك سبب واحد هو الذى أوجب هذا، بل وغيره من الأمور غير المرضية. وهو نقص التربية العمومية، وعدم جريانها على طريقة شرعية كاملة. وإن موضوع التربية لميدان أوسع تتسابق الأقلام فيه، وإننا - إن شاء الله - نعود إليه، فهو هو الذى يليق أن تصرف إليه الأفكار وتستجلب إليه الأنظار.

عوائد الأفراح (٤٤)

نذكر قراء هذه الصحيفة بما وعدنا به في أحد أعدادها السابقة من التكلم على بعض العوائد في الأفراح والمآتم، وتبيين ما هو مخالف منها لنواميس الآداب وقواعد الشرع الشريف. ولعله يصادف آذانا واعية ونفوسًا زكية تقوى على مقاومة العادات المنافرة للأذواق السليمة، وتتوق إلى التخلق بخلق أهل الفضل والتشبه بذوى البصيرة والنقد، وما ذلك على الله بعزيز.

إن حرص الإنسان على منافعه الذاتية، العاجلة منها والآجلة، حمله على أن يستبشر لخير أعوانه ونصرائه، وينقبض إذا نالهم أو مسهم سوء. فعلى هذا يكون سرور الإنسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمرًا طبيعيًا لا خيار له فيه، فلا مجال للتنديد أو الثناء على ما يختلج في الفؤاد ويظهر على الجوارح في السراء أو الضراء. إذ لا يعاب على الإنسان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الاختيار والإرادة. ولأجل هذا نجعل كلامنا الآن متعلقا باختيارياته في هذين البابين، ليصادف النهى والترغيب موضعًا، فنقول:

ترى الناس على اختلاف مواقعهم في المديريات والأقاليم متعودين في الأفراح أمورًا كثيرة بعيدة عن الآداب، ومخالفة ما جاء من أحكام الشريعة. ولنأت على بعض ما في حافظتنا الآن منها، معترفين بأنه قليل من كثير في جانب مرتكباتهم التي يضيق صدر الصحيفة عن سردها، لأننا إذا تتبعنا ما يفعل قبيل زفاف العروسين إلى ما بعد الدخول نجد أمورا كثيرة نجهل بالحقيقة مبدأ ظهورها وعلة تداولها (كالبلصة، وحل الدكة، وإزالة البكارة بالأصبع، وصلاة ركعتين وقتئذ على قميص العروس وإن بغير وضوء) وبيان ذلك ببعض التفاصيل:

إن أبوى البعل هما اللذان يختاران زوجة لولدهما. غير ملاحظين في شروط انتقائها غالبا إلا أن تكون من عشيرة تعادلهم في الثروة والصيت أو تزيد عنهم فيهما، فإن ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية، وأكرهوا الولد على قبولها، إن لم يتحد معهما مقصداً. ولا يخفى ما في ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معا. ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها، ولو حملهما دينا باهظا وكلفهما حملاً ثقيلاً.

وإذا أتى وقت الدخول بها، توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة إلى منزل الزوج، وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف. وبعد ذلك إذا أراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوبته تبعتهم جموع كثيرة، فئة تضرب بالسلاح، وقوم يلعبون الحطب، وجماعة تتسابق على ظهور الخيل: (نبهت الوقائع على مضرات هاته العادات الثلاث فيما سلف، فلا حاجة بنا إلى إعادة ذلك الآن). ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع أنها منبعثة عن متوحشات إفريقيا الجنوبية، وهذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار.

حتى إذا جاءوا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها، كان دون فتح القاعة التى هى فيها صعوبات أخفها تمنع أخيها أو خادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود، وكذا يرضى جميع خدم أبيها وحاشيته، وهذا هو المسمى عندهم (بلصة).

وأما والدة الزوجة فإن كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر، على شرط أن تكوم مضارعة لكسوة عروسه وإلا ردت إليه وطولب بأثمن منها.

هذا وقبل أن نخرج بالعروس إلى هودج الزفاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها من صبيحة اليوم الذى تزف فى مسائه إلى وقت الزفاف فنقول:

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتى الماشطة وتخضب قدمى العروس وكفيها

بالحناء على شكل خطوط متقاطعة، ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضر مكشوفة الأطراف، وليس عليها إلا قميص رقيق، محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقت في الترنمات واللعب. فإذا حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينة والزفاف. وفي هذا الوقت، تخرج نسوة عديدات من أقاربها وتمر بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها ترنما، وكلما مررن بباب منزل وقفن به قليلاً، فتخرج من فيه من النساء ويقابلنهن بالزغاريط. وعند اجتيازه، يخترن من النساء اللاتى في المنزل أجملهن ذاتا ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء، فتتقاطر المدعوات أفواجا إلى بيتها. وكلما دخلت منهن واحدة وضعت على صدر العروس بين ثدييها ما أتت به من النقود، وهذا هو المسمى (نقوط). ثم ينصرفن إلى منازلهن بعد العشاء، ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس.

(عود).. حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة النارية، ويعلو صوت المغنيات، ويشتد رعد الطبول، وتنتشر الغوغاء، ويعلو العثَيْر[٤٥] المنبعث عن حوافر أفراس السباق وجوه المارة بالموكب وثيابهم، ويزيد صراخ الأطفال الساقطين تحت أرجل الناس من الازدحام، إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج، فيعرج سائق الجمل المقل العروس عن الطريق الموصل إلى البيت، وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة، فيرجع عن جموحه وتدخل العروس وأثاثها إلى منزل الزوج.

وبعد ذلك، يؤخذ في زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه، خلا أنه لا يحمل على جمل، بل يمشي راجلاً وأمامه المدفقون والزامرون. ولكن بعض الناس الآن (وهم وجهاء البلاد) اتخذوا الذكيرين (أبناء الطرق) بدلاً عن الزامرين والمدففين، فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيرا من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلد على غير خشوع وأدب. وهذا فضلاً عن كون كثير من النسوة والأطفال يقطعن صفوفهم لشدة الازدحام.

حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها، فيجد عندها والدتها واثنتين معها فى الأقل غير «القابلة» فيفترش قميصها ويصلى عليه ركعتين،

والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء. وإذا نهض إلى فض البكارة، مانعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا قبل أن يحل رباط سراويل العروس. هذا ما يدعى (حل الدكة). وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة، ويصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات، وترتفع أصوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول، يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص وتواثب عنيف، كأنهم يحثونه على السرعة في تنجيز فض البكارة ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك. وإن تراخى ولو قليلاً كنوا بالتنديد عليه، فيفض بكارتها بأصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات. وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفا فتنوب القابلة عنه في ذلك (شيء قبيح لا ترتضيه الشريعة ولا يقبله الذوق).

وبمجرد خروج الزوج من القاعة تتدفق النار من أفواه البنادق والقربانات، ثم تدخل النساء العديدات عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة، ويحملنه بين أيديهن ويمررن حول البلد مرة أو مرتين فرحات راقصات فيعرضنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن في طريقهن هذه العبارة متتابعة بصوت مرتفع: (يبضتى الشاش يا عروسة) ومعناها (حبذا بك من عروس لم تدنسي عرض أبويك، فإن هذا الدم الذى نحمله بين أيدينا يدل على أنك مصونة العرض طاهرة الذيل، وكفى أبويك شرفا بهذا). وبعد ذلك يحفظن هذا القميص في منزل أبويها ولا يسمحن بغسله إلا بعد شهر في الأقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها.

وأما الزوج فإنه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة إليها ثانية إلا قبيل الفجر، ثم مع ذلك يلزمه أن يبكر في القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طوال نهاره، وهكذا ثلاثة أيام. وفي هذه المدة تأتي إليه الأصحاب من البلد وغيرها بالنقود كل على قدر ثروته، أو الأولى يدفع إليه كل واحد قيمة ما أخذ منه في أفراحه السابقة، وبعد هذا ينتهي الفرح ويذهب كل واحد من الناس إلى عمله، حتى العروس.

تلك بعض عاداتنا في الأفراح، حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شوارع المدن والبنادر، وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف ومصاطبها، يقوم بشعارها الصغير والكبير، ولا ينكرها الجاهل والعالم، ولا ترى

من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال، مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور، وكأنهم لم يعلموا أن فض البكارة بالأصبع، وكشف العورة بمحضر جمع من النسوة أمر منكر فى الشرع ومستقبح بالعقل، وأن القابلة تستحق التعزير والتأديب على النظر إلى عورة غيرها، فضلا عن أن تزيل هى غشاء البكارة بنفسها، وكأنهم ذهلوا عما ورد فى الشرع وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة، هذا إذا لم يعتقد حل ذلك، وإلا فيحكم عليه بالكفر، حتى لم ينهوا العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء.

وبالجملة فإن كثيراً من العادات التى شرحناها لك، إن لم نقل كلها، مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو أصل عقلى، بل مصدرها أهواء فاسدة، وأميال سخيفة، شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل وأفل من ربوعهم بدر العلم، فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبح والمضار.

نعم.. إننا نعترف بأن كثيرا من عادات الأفراح السابقة قد درست مراسمها، وأن النبلاء فى القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئا فشيئا وأن البعض منهم قد قدر على إزالة معظمها إذا عمل فرحا فى بيته، ولكن ذلك التقليل وهذا التهذيب لا يكفى بالنسبة لحالتنا الراهنة، فإن قطرنا الآن يحسب فى عداد البلاد المتمدنة، سيما وقد ملأته الأغراب والسائحون من الأمم العريقة فى التمدن، فمن العار أن يرونا مساوين فى العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم حكم شرعية، ولم يشموا رائحة المعارف، ولم تنور بصائرهم أشعة العلم فيرموننا بالجهل وينظروا إلينا مستهزئين ونحن لا نقوى على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معاينة.

وأما تنزه أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنوانا لإقليم يحتوى على زهاء خمسة ملايين نسمة. على أنهم وإن خلعوا بعض هذه العادات، لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم الإسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة فى ما لا يعود بطائل، مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين لكانت رأس مال يضمن لهما حسن المعيشة إن أحسنا فيه التصرف. فهذه العوائد الجديدة ليست أقل فى الفساد من تلك العوائد الوحشية. أصلح الله حالنا، آمين.

المرأة فى صدر الإسلام (٤٦)

قد وجد فى مبدإ الإسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة، فجميع المسلمين يعلمون أن طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية علي اختلاف مواضيعها قد رويت عن «عائشة» و«أم سلمة» وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة، وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر، وأن عائشته تداخلت فى مسألة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لأحد الخلفاء. وإنى أورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام إلى الطائفة التى كانت قد انحازت إليها، وهى الخطبة التى ألقتها عند دخولها البصرة:

«إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين (عثمان) بلا تُرَّة(٤٧) ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا». وقرأت: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ (النساء: ١١٤).. ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى،

فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره»[٤٨].

ويروى عن «أم عطية» أنها قالت: وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، سبع غزوات، وكنت أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى».

والذي يقرأ هذه الأسطر يتخيل له أنه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الإنسانية. والناظر في الأحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والإمامة والشهادة في بعض الأحوال، لا يجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها. وإن الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة إلا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال، وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه إلى الآن التمدن في أوروبا، ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها إلى أعلى مرتبة تستحقها. وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الإسلامية إلى المرأة في جميع الأعمال المدنية - ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل - يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي إلى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق.

حجاب النساء من الجهة الدينية (٤٩)

لو أن فى الشريعة الإسلامية نصوصا تقضى بالحجاب، على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين، لوجب عليّ اجتناب البحث فيه، ولما كتبت حرفا يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرة في ظاهر الأمر، لأن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها بدون بحث ولا مناقشة.

لكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة التى تمكنت فى الناس باسم الدين والدين براء منها. ولذلك لا نرى مانعا من البحث فيها، بل نرى من الواجب أن نلم بها، ونبين حكم الشريعة فى شأنها، وحاجة الناس إلى تغييرها.

جاء فى الكتاب العزيز: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣٠ـ٣١).

أباحت الشريعة فى هذه الآية للمرأة أن تظهر بعض أعضاء من جسمها أمام

الأجنبي عنها، غير أنها لم تسم تلك المواضع. وقد قال العلماء: إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفا في العادة وقت الخطاب. واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية، ووقع الخلاف بينهم في أعضاء أخرى كالذراعين والقدمين.

جاء في «ابن عابدين»: «وعورة الحرة بدنها حتى شعرها النازل جميعه في الأصح، خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد، وصوتها على الراجح، وذراعيها على المرجوح. وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه (لا لأنه عورة) بل لخوف الفتنة، كمسه وإن أمن الشهوة لأنه أغلظ، ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتي في الحظر، ولا يجوز النظر إليه بشهوة كوجه أمرد، فإنه يحرم النظر إلى وجهها ووجه الأمرد إذا شك في الشهوة، أما بدونها فيباح ولو جميلا»(٥٠).

وذكر في كتاب (الروض)، في المذهب الشافعي: «نظر الوجه والكفين عند أمن الفتنة من المرأة للرجل وعكسه جائز، ويجوز نظر وجه المرأة عند المعاملة وعند تحمل الشهادة، وتكلف كشفه عند الأداء»(٥١).

وجاء في (تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لعثمان بن علي الزيلعي): «وبدن الحرة عورة إلا وجهها وكفيها وقدميها، لقوله تعالى: ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها** ﴾ والمراد محل زينتهن وما ظهر منها: الوجه والكفان. قاله ابن عباس وابن عمر. واستثنى في (المختصر) الأعضاء الثلاثة للابتلاء بإبدائها، لأنه عليه الصلاة والسلام نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب. ولو كان الوجه والكفان من العورة لما حرم سترهما بالمخيط. وفي القدم روايتان والأصح أنها ليست بعورة للابتلاء بإبدائها»(٥٢).

وحكم الوجه والكفين، أنها ليست بعورة معروف كذلك عند المالكية والحنابلة. ولا نطيل الكلام بنقل نصوص أهل هذين المذهبين.

ومما يروى عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليها ثياب رقاق، فقال لها: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه».

وورد أيضا فى كتاب (حسن الأسوة) للسيد محمد صديق حسن خان بهادر: «وإنما رخص للمرأةفى هذا القدر لأن المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والزواج، وتضطر إلى المشى فى الطرقات، وظهور قدميها، وخاصة الفقيرات منهن»[٥٣].

خولت الشريعة للمرأة ما للرجال من الحقوق، وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية، فللمرأة الحق فى إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها، فكيف يمكن لرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق شخصيتها؟!

ومن غريب وسائل التحقق أن تحضر المرأة مغلفة من رأسها إلى قدميها، أو تقف من وراء ستار أو باب، ويقال للرجال: ها هى ذى فلانة التى تريد أن تبيعك دارها أو تقيمك وكيلاً فى زواجها مثلاً، فتقول المرأة: بعت، أو: وكلت، ويكتفى بشهادة شاهدين من الأقارب أو الأجانب على أنها هى التى باعت أو وكلت، والحال أنه ليس فى هذه الأعمال ضمانة يطمئن إليها أحد. وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير فى مثل هذه الأحوال، فكم رأينا أن امرأة تزوجت بغير علمها، وأجِّرت أملاكها بدون شعورها، بل تجردت من كل ما تملكه على جهل منها، وذلك كله ناشئ من تحجبها وقيام الرجال دونها يحولون بينها وبين من يعاملها.

كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها إن كانت فقيرة؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة أن تقوم بخدمة بمنزل فيه رجال؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة أن تدير تجارتها بين الرجال؟ كيف يتسنى لزارعة محجوبة أن تفلح أرضها وتحصد زرعها؟ كيف يمكن لعاملة محجوبة أن تباشر عملها إذا أجّرت نفسها للعمل فى بناء بيت أو نحوه؟!

وبالجملة.. فقد خلق الله هذا العالم، ومكن فيه النوع الإنسانى ليتمتع من منافعه بما تسمح له قواه فى الوصول إليه، ووضع للتصرف فيه حدوداً تتبعها حقوق، وسوى فى التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين الرجل والمرأة من هذا النوع، ولم يقسم الكون بينهما قسمة أفزاز[٥٤]، ولم يجعل جانبا من الأرض للنساء يتمتعن بالمنافع فيه وحدهن وجانبا للرجال يعملون فيه فى عزلة عن النساء، بل

جعل متاع الحياة مشتركا بين الصنفين، شائعا تحت سلطة قواهما بلا تمييز. فكيف يمكن مع هذا لامرأة أن تتمتع بما شاء الله أن تتمتع به مما هيأها له، بالحياة ولواحقها من المشاعر والقوى، وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينهما وبين الرجال إذا حظر عليها أن تقع تحت أعين الرجال، إلا من كان من محارمها؟.. لا ريب أن هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل..

لهذا رأينا أن الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند أغلب الطبقات من المسلمين، كما نشاهده في الخادمات والعاملات وسكان القرى، حتى من أهل الطبقة الوسطى، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى، والكل مسلمون، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه في أهل المدن!!

إذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصما أو شاهدا، كيف أنه يسوغ لها ستر وجهها؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم أنفسهم غافلون عما يهم في هذه المسألة، متساهلون في رعاية الواجب فيها، فهم يقبلون أن تحضر المرأة أمامهم مستترة الوجه، وهي مدعية أو مدعى عليها أو شاهدة، وذلك منهم استسلام للعوائد، وليس بخاف ما في هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما أظن. ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المستتر، ولما في ذلك من سهولة الغش.

كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه أن يعرف تلك التي تخاصمه. وله في ذلك فوائد كثيرة، من أهمها صحة التمسك بقولها، ولا أظن أنه يسوغ للقاضي أن يحكم على شخص مستتر الوجه ولا أن يحكم له. ولا أظن أنه يسوغ له أن يسمع شاهدا كذلك. بل أقول: إن أول واجب عليه أن يتعرف وجه الشاهد والخصم، خصوصا في الجنايات، وإلا فأي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده؟. وماذا تفيد معرفة هذه الأمور كلها إذا لم يكن معروفا بشخصه؟!.

والحكمة في أن الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة، كما مر، ظاهرة، وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تظهر عليه، فيقدر الشهادة بذلك قدرها.

لا ريب في أن ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج فى حكمة إباحة الشرع الإسلامى لكشف المرأة وجهها وكفيها، ونحن لا نريد أكثر من ذلك.

واتفق أئمة المذاهب أيضًا على أنه يجوز للخاطب أن ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها، بل قالوا بندبه، عملاً بما روى عن النبى، صلى الله عليه وسلم، حيث قال لأحد الأنصار: وكان قد خطب امرأة - «أنظرت إليها؟» قال: لا، قال: «انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

هذه هى نصوص القرآن وروايات الأحاديث وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية فى أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها، وذلك للحكم التى لا يصعب إدراكها على كل من عقل.

هذا حكم الشريعة الإسلامية، كله يسر لا عسر فيه، لا على النساء ولا على الرجال، ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيه من الحرج عليهما فى المعاملات والمشقة فى أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال، سواء كان تكليفًا شرعيا أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش.

أما دعوى أن ذلك من آداب المرأة فلا إخالها صحيحة، لأنه لا أصل يمكن أن ترجع إليه هذه الدعوى. وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال والنساء؟ وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسألة تقريبًا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقدير، ولا هن مطالبات بمعرفته، وعلى من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره، كما أنه على من يخافها من النساء أن تغض بصرها. والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة إلى كل من الفريقين بغض البصر على السواء، وفى هذا دلالة واضحة على أن المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها.

عجبا! لم يؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء إذا خافوا الفتنة عليهن؟! هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة، واعتبر الرجل أعجز من

المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه؟ واعتبرت المرأة أقوى منه فى كل ذلك، حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعا مطلقا خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأى امرأة تعرضت له مهما بلغت من قبح الصورة وبشاعة الخَلْق؟

إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافا منه بأن المرأة أكمل استعدادا من الرجل، فلم توضع حينئذ تحت رقه فى كل حال؟ فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحا فلم هذا التحكم المعروف؟

على أن البرقع والنقاب مما يزيد من خوف الفتنة، لأن هذا النقاب الأبيض الرقيق الذى تبدو من ورائه المحاسن وتختفى من ورائه العيوب، والبرقع الذى يختفى تحته طرف الأنف والفم والشدقان ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والخدود والأصداغ وصفحات العنق. . هذا الساتر فى الحقيقة من الزينة التى تحث رغبة الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفى بعد الافتتان بكثير ظهر. ولو أن المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان فى مجموع خلقها ما يرد فى الغالب البصر عنها.

ليست أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة، بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات فى أثناء مشيها، وما يبدو من الأفاعيل التى ترشد عما فى نفسها. والنقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول: فلانة أو بنت فلان أو زوجة فلان كانت تفعل كذا؛ فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية ذلك البرقع وهذا النقاب. أما لو كان وجهها مكشوفا فإن نسبتها إلى عائلتها أو شرفها فى نفسها يشعرانها بالحياء والخجل ويمنعانها من إبداء حركة أو عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها فى استلفات النظر إليها.

والحق أن الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الإسلامية لا للتعبد ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده. ويدلنا على ذلك أن هذه العادة ليست معروفة فى كثير من البلاد الإسلامية وأنها لم تزل معروفة عند أغلب الأمم الشرقية التى لم تتدين بدين الإسلام.

وإنما من مشروعات الإسلام ضرب الخمر على الجيوب، كما هو صريح الآية، وليس في ذلك شيء من التبرقع والانتقاب. هذا ما يتعلق بكشف الوجه واليدين. أمّا ما يتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها والحظر عليها أن تخالط الرجال، فالكلام فيه ينقسم إلى قسمين: ما يختص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، وما يتعلق بغيرهن من نساء المسلمين، ولا أثر في الشريعة لغير هذين القسمين.

أما القسم الأول فقد ورد فيه ما يأتي من الآيات:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ . . . ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (سورة الأحزاب ـ الآية: ٥٣).

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ (الأحزاب: ٣٢ و٣٣).

ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من أي مذهب كانت ولا في كتب التفاسير في أن هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء النبي صلى الله عليه وسلم، أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتحجب وبين لنا سبب هذا الحكم وهو أنهن لسن كأحد من النساء. ولما كان الخطاب خاصًا بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانت أسباب التنزيل خاصة بهن لا تنطبق على غيرهن، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على أحد من نساء المسلمين[٥٥].

وأما القسم الثاني، فغاية ما ورد في كتب الفقه عنه حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، نهى فيه عن الخلوة مع الأجنبي وهو: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم». قال «ابن عابدين»: «الخلوة خربة[٥٦] أو كانت عجوزا شوهاء أو بحائل ـ وقيل: الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة تحريم. وعن يوسف ليست

بتحريم»[٥٧] . . وقالوا: إن الخلوة المحرمة تنتفي بالحائل وبوجود محرم أو امرأة ثقة قادرة، وهي تنتفي أيضا بوجود رجل آخر لم تره»[٥٨].

ربما يقال: إن ما فرضه الله على النساء نبيه يستحب اتباعه لنساء المسلمين كافة، فنجيب: إن قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ يشير إلى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم وينبهنا إلى أن في عدم الحجاب حكمًا ينبغي لنا اعتبارها واحترامها، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة. وكما لا يحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف، كذلك لا يجعل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق أو تعطيل لشيء من مصالح الحياة. وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)، قال: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١). . ولو كان اتباع الأسوة مطلوبا في مثل هذه الحالة لما رأينا أحد المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجري في عائلته على ما يخالف الحجاب. واستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية:

بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بواقعة حربية، فلما وصل ذلك الرجل إلى بيت عمر قال: «فاستأذنت وسلمت، فأذن لي، فدخلت عليه، فإذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من أدم[٥٩] محشوتين ليفا، فنبذ إلي بإحداهما، فجلست عليها. وإذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال: يا أم كلثوم، غداءنا. فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق. فقال: ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا؟ قالت: إني أستمع عندك حس رجل. قال: نعم، ولا أراه من أهل البلد. قالت: فذلك حين عرفت أنه لم يعرفني، ولكن لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته. قال: أو ما يكفيك أن يقال: أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر؟! فقال: فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا!!»[٦٠].

الطـــلاق[٦١]

قال «فولتير» الكاتب الفرنساوى الشهير، على طريقته من الفكاهة المعروفة فى كثير من مؤلفاته : «إن الطلاق قد وجد فى العالم مع الزواج فى زمن واحد تقريبا، غير أنى أظن الزواج أقدم ببضعة أسابيع، بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه، ثم ضربها بعد ثلاثة، ثم فارقها بعد ستة أسابيع!!»

وقد أراد بذلك أن يقول : إن الطلاق قديم فى العالم، وإنه يكاد أن يكون من الأعراض الملازمة للزواج. وهو حق لا يرتاب فيه، فقد دل تاريخ الأمم علي أن الطلاق كان مشروعا عند اليهود والفرس والرومان، وأنه لم يمنع إلا فى الديانة المسيحية بعد مضى زمن من نشأتها. ولا يزال أثر ذلك المنع باقيا إلى الآن فى شرائع الأمم الغربية التى وضعت الزواج على قاعدة أنه عقد لا يحل إلا بموت أحد الزوجين، وهذا إفراط فى احترام هذا العقد ومغالاة فيه إلى حد يصعب أن يتفق مع راحة الإنسان.

نعم إن من أمانى الأمم الصالحة أن تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل إلا بالموت، ولكن مما تجب مراعاته أن الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر، ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على مر الأزمان بأن أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضروراتهم. وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس إلى التخلص من ربقة تلك الأحكام فنزع الغربيون إلى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم وما تقتضيه الحاجات. ولقد اشتد هذا الشعور فى الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة، وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير أحكام فى أحوال سمتها «أحوال بطلان

الزواج» ورتبت على ذلك البطلان أحكامـــا لا تخـتلف فى آثارها عن أحكام الطلاق. فقبلت فسخ الزواج إذا أثبت أحد الزوجين أنه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيـار، أو أنه أخطأ فى معرفة الآخر، أو إذا ادعى أحـد الزوجـين أن الآخـر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية.. وأخذت تتوسع فى تأويل الحالة الثانية إلى درجة متناهية حتى أدخلت فيها كل شىء. وفى الحالة الأخيرة قد تكتفى بأن يتفق الزوجان على أن يدعى أحدهما أن الآخر لم يقم أو لم يعد فى إمكانه أن يقوم بأول واجب يوجبه الزواج لينالا بطلانه، محتجة بأن الإخبار بهذا الحق لا تمكن معرفته إلا من قبل الزوجين، فقولهما هو الدليل الذى يصح التعويل عليه.

إلا أن هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم فى هذا الباب. فبعد أن قنعت به مدة من الزمان، انبعثت مرة أخرى إلى المطالبة بتقرير أحكام كافة للراحة، خصوصًا وقد رأت أن هذه الأسباب التى قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تغلب فيها الحيلة، وقل ما تتفق فيها الحقيقة. وإن قيام الشريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه الأذواق السليمة المهذبة. ومن أجل ذلك اضطرت الحكومات إلى تقرير الطلاق والتصريح بجوازه على شروط بينتها وأوسعت لها محلا من قوانينها. وهكذا انحسر سلطان الكنيسة عما كان يتناوله فى هذه المادة، كما بطلت سيطرتها فى كل ما لم تتفق فيه أحكامها مع صالح تلك الأمم. وهذا هو الشأن فى كل شرع أو دين لا يراعى أهله فى أحكامه مقتضيات الزمان والمكان، ويغفلون عن طبيعة الإنسان، ويقفون به فى مكان واحد عندما قرره بعض من سبقهم بدون إنعام نظر فى أسراره وطرق تنفيذه.

دخل الطلاق فى جميع الشرائع الغربية تقريبًا رغمًا عن معارضة الكنيسة وإصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له أن يتزوج، لعدم اعتبارها ذلك الطلاق. ولكنه لم يصل إلى الدرجة التى يستحقها من القبول والاعتبار، ولم يستوف أحكامه إلا عند الأمة الأمريكانية التى فاقت غيرها ببذلها المجهود فى الإقدام على طلب الترقى، ففتحت أبواب شريعتها للطلاق، ولم تقيده بأحكام مخصوصة كما قيده غيرها.

وكل مطلع على أحوال الأمم الغربية يرى الميل عند جميعها إلى التوسع فى

الطلاق، ولابد أن تنتهي يوماً إلى الاعتراف بأن ما أباحته إلى الآن من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على أحد الزوجين أو الحكم عليه بعقوبة في أحوال مخصوصة غير واف بالحاجة، وعند ذلك تقرر إباحة الطلاق متى وجدت أسبابه في نفوس الزوجين وتتركه إلى مشيئتهما.

نعم. إن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر، ولكنه من المضرات التي لا يستغنى عنها. ويكفي لتسويغه أن منافعه تزيد عن مضاره فإن كل نظام لا يخلو من ضرر والكمال التام في هذه الدنيا أمر غير مستطاع.

ونحن لا نريد البحث في هذا الموضوع الواسع لأننا اجتنبنا في هذا المختصر كل بحث نظري، وإنما نقول: إن من أجال النظر في نصوص الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق وأحكامه يشعر بالنعم التي أفاضها الله على المسلمين، ويقتنع بأن كتاب الله قد أتي من الحكمة على منتهاها، وأنه وفى كل شيء حقه.

وأول ما يجب الالتفات إليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع أصلاً عامّاً يجب أن ترد إليه جميع الفروع في أحكام الطلاق، وهو أن الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة. والشواهد على ذلك كثيرة في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما جاء في كتب الأئمة، نورد منها ما يأتي:

قال تعالى: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ١٩) وقال جل شأنه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ (النساء: ٣٥)، وقال تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٨).

وجاء في الحديث: «أبغض الحلال عند الله الطلاق». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تطلقوا النساء إلا من ريبة، إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات». وقال علي كرم الله وجهه: «تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه العرش».

وجاء في حواشي «ابن عابدين»: «أن الأصل في الطلاق الحظر، بمعنى أنه محظور إلا لعارض يبيحه، وهو معنى قولهم: الأصل فيه الحظر. والإباحة للحاجة إلى الخلاص، فإذا كان بلا سبب أصلاً لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص، بل يكون حمقًا وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة، وإخلاص الإيذاء بالمرأة وبأهلها وأولادها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٣٤). أي لا تطلبوا الفراق»[٦٢]. انتهى.

والمطلع على كتب الفقه، وإن كان يجد أن جميع الأئمة قد نظروا على العموم إلى هذا الأصل الجليل، الذى من شأن العمل عليه تضييق دائرة الطلاق بما يصل إليه الإمكان، لكنه لا بد أن يلاحظ أيضا أنهم لم يراعوا فى التفريق تطبيق هذا الأصل على طريقة واحدة متساوية، ويرى أن الفقهاء من أتباع الأئمة قد توسعوا فى أمر الطلاق، ولم تطرد طريقتهم على وتيرة واحدة فى تطبيق الأحكام على الوقائع. وهذا الاختلاف يشاهد على الخصوص فى ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات:

أولها: مسألة وقوع الطلاق الصريح، بدون اشتراط النية. فقد خالف بعض الفقهاء خصوصا من المذهب الحنفى، فى هذه المسألة الأصول العامة التى بنيت عليها معظم أحكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب والسنة، كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل المخطئ، وأخرج الطلاق من مشمول هذا الأصل، فقضى بوقوعه على المكره والمخطئ والهازل والسكران، مع تعريفهم السكران بأنه هو الذى لا يميز السماء من الأرض.

وظاهر أن أهل هذا الرأى لم يعولوا على النية التى هى أساس الدين الإسلامى كما يستفاد من حديث «إنما الأعمال بالنيات»، كما أنهم لم يلتفتوا إلى قصد الشارع فى أن الطلاق محظور فى الأصل وأنه أبغض الحلال عند الله. وقد عللوا إنفاذ الطلاق فى الأحوال التى أشرنا إليها بأسباب أذكرها للقارئ وأترك له مسئولية الحكم عليها.

قرأت فى كتاب «الزيلعى» ما معناه: «إن طلاق الهازل والمخطئ يقع، لأن لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج، وإن طلاق المكره يقع لأنه عرف الشرين واختار

أهونهما، وأما السبب في وقوع طلاق السكران فلأنه ارتكب معصية، فيكون نفاذ الطلاق زجراً له»[٦٣].

ولكنا نحمد الله على أن في المذاهب الإسلامية الأخرى ما يخالف ذلك ويتفق مع أصول الشريعة والمصلحة العامة، ويمكن لمريد الإصلاح أن يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذى يقع في تلك الأحوال.

ثانيها: إن الطلاق الذى نص عليه القرآن هو واحد رجعي دائما، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ (الطلاق: ١). وقال تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾ (البقرة: ٢٢٨).

ولكن.. قسم الفقهاء الطلاق إلى صريح وبالكناية، وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى أكثر من واحدة أو نوى واحدة بائنة. أما بالكناية فيكون الطلاق بائنا لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة إلا بعقد جديد، إلا في بعض ألفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثا إن نوى الثلاث.

إلا أنه يوجد في مذهب آخر كمذهب الشافعي رضي الله عنه أن الكنايات جميعها رجعية. ووجه الحق في هذا المذهب ظاهر، فإنما الطلاق طلاق على كل حال، وهو فصل عصمة المرأة من الرجل. فاختلاف الألفاظ بالنسبة إلى هذا المعنى، إنما هو اختلاف عبارة لا يصح أن يتعلق به اختلاف حكم. ولو سلم اختلاف الأحكام باختلاف الألفاظ في مثل هذا الباب، لكان الأوجه أن يكون حكم الكناية أخف من حكم التصريح.

ثالثها: اتفق أغلب المذاهب على أن الطلاق ثلاثًا متفرقة في حيض واحد، أو في مرة واحدة وبلفظ واحد، يقع ثلاثًا. على أن هذا النوع من الطلاق الذى اعترف الفقهاء أنفسهم بأنه بدعى ـ أى مخالف للكتاب والسنة ـ لا يمكن تصوره على الكيفية

التى قررها الفقهاء. ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم. قال تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة: ٢٢٩).. وجاء فى تفسير هذه الآية في كتاب (حسن الأسوة): «وإنما قال سبحانه: (مرتان) ولم يقل: طلقتان، إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون الطلاق مرة بعد أخرى لا طلقتين دفعة واحدة. كذا قال جماعة من المفسرين». وجاء فيه أيضا: «قد اختلف أهل العلم فى إرسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثا أو واحدة فقط؟ فذهب إلى الأول الجمهور، وذهب إلى الثانى من عداهم، وهو الحق، وقد قرره العلامة الشوكانى فى مؤلفاته تقريرًا بالغًا وأفرده برسالة مستقلة، وكذا الحافظ ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) و«أعلام الموقعين)..»(٦٤).

جاء فى «ابن عابدين»: «... وعن الإمامية: لا يقع بلفظ الثلاث ولا فى حالة الحيض، لأنه بدعة محرمة. وعن ابن عباس: يقع به واحدة، وبه قال ابن إسحاق وطاووس وعكرمة لما فى مسلم عن ابن عباس قال: كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم. فأمضاه عليهم. وذهب جمهور الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلى أنه يقع ثلاثا. قال فى (الفتح)، بعد سوق الأحاديث الدالة عليه: وهذا ما يعارض ما تقدم، وأما إمضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بأنها كانت واحدة فلا يمكن إلا وقد اطلعوا فى الزمان المتأخر على وجود ناسخ أو لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم بإناطته بمعان علموا انتفاءها فى الزمن المتأخر، وقول بعض الحنابلة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن مائة ألف عين رأته فهل صح لكم عنهم أو عن عشر عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث باطل؟ أما أولا فإجماعهم ظاهر لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه خالف عمر حين أمضى الثلاث، ولا يستلزم فى نقل الحكم الإجماعى عن مائة ألف تسمية كل فى مجلد كبير لحكم واحد على أنه إجماع سكوتى»(٦٥).

وقد روى فى هذه المسألة من الأحاديث ما لم يدع شكًا فى أن الطلاق الثلاث فى مجلس واحد لا يقع إلا واحدة جاء فى «الزيلعى»: «وقال ابن عباس أخبر رسول

الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، فقام غضبان، ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم؟!» . . ذكره القرطبى ورواه النسائى»[٦٦]. وجاء فيه أيضًا: «وذهب أهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة إلى أن الطلاق الثلاث جملة لا يقع إلا واحدة، لما روى عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر، رضى الله عنهم، واحدة، فأمضاه عليهم عمر، رضى الله عنه، رواه مسلم والبشارى . . وروى ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثا فى مجلس واحد، فحزن عليها حزنا شديدا، فسأله عليه الصلاة والسلام: كيف طلقتها؟ قال: طلقتها ثلاثا في مجلس واحد. قال: إنما تلك طلقة فارتجعها»[٦٧].

يرى القارئ من هذه العبارات، التي بسطناها ليحصل لنفسه منها رأيًا، أن علماء مذهب عظيم كمذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر، رضى الله عنه، بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبى . ويمكن للأمة إذا أرادت الإصلاح أن تأخذ بقولهم، لأن عمر، رضى الله عنه، قد بين لنا سبب قضائه بقوله: «إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم؟». فكأنه اجتهد فى جعله عقوبة لردعهم عنه، وكلنا نعلم أنه لم ينشأ من اجتهاد عمر إلا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث وتهافتهم عليه فى محاوراتهم وأيمانهم.

بل لمَ لا يأخذ مريد الإصلاح بمذهب الإمامية الذى نقله «ابن عابدين»، وهو مذهبَ الأئمة من آل البيت، فى قولهم، كما مر: «إن الطلاق لا يقع بالطلاق الثلاث ولا فى الحيض لأنه بدعة محرمة»؟.

وإن سمح لى القارئ أن أبدى هنا كل ما أظنه صوابا أقول:

لا يمكننى أن أفهم أن الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . . نعم إن الأعمال لا تستغنى عن الألفاظ، إذ لو حللنا أى عقد لوجدناه مركبًا من ظهور إرادة أو مطابقة إرادتين حصل الاستدلال عليها أو عليهما من ألفاظ صدرت شفاهيا أو بالكتابة. ولذلك، فليس الغرض الاستغناء عن الألفاظ، وإنما مرادنا أن اللفظ لا يجب الالتفات إليه فى الأعمال الشرعية إلا من جهة كونه دليلا على النية.

فينتج عن ذلك أنه يجب أن يفهم أن الطلاق إنما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وإرادة واضحة فى أنه إنما يريد الانفصال من زوجته، لا أن يفهم كما فهمه الفقهاء وصرحوا به فى كتبهم: إن الطلاق هو التلفظ بحروف (ط ل ا ق).

والذى يطلع على كتبهم يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ والتفنن فى فهم معانيها فى ذاتها بقطع النظر عن الأشخاص. وعندهم متى ذكر اللفظ تم الأثر الشرعى، ولهذا قصروا أبحاثهم جميعها على الكلمات والحروف وامتلأت الكتب بالاشتغال بفهم: طلقتك، وأنت طالق، وأنت مطلقة، وعلى الطلاق، وطلقت رجلك أو رأسك أو عرقك وما أشبه ذلك. وصارت المسألة مسألة بحث فى اللفظ والتركيب ربما كان مفيدا للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقا علم الفقة بشىء.

على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثا أخرى غير تأويل الألفاظ. والطلاق لم يخرج عن كونه عملا شرعيا يترتب عليه ضياع حقوق وإنشاء حقوق جديدة، وهو فى حد ذاته لا يقل عن الزواج فى الأهمية، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة والزواج.. فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له إلمام، ولو سطحى، بالوظيفة السامية التى تؤديها الشرائع فى العالم.

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالألفاظ، وبحثوا فى مآخذ الأحكام التى يقررونها، وعرفوا تاريخها وأسبابها، وقارنوا المذاهب بعضها ببعض، وانتقدوها، وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقى لتبين لهم أن الطلاق لا يكون طلاقا إلا إذا كان مصحوبا بنية الانفصال.

ويمكن لناظر أن يجد فى كتب الشريعة الإسلامية ما يفيد عدم صحة الطلاق إذا فقدت نية الانفصال، فقد نقل عن (شرح التعليق): «إن الرجل لو طلق زوجته بكلمة أو كلمات فى حال الغضب أو النزاع لا يقع طلاقه». ورووا فى ذلك أحاديث مثل قول على بن أبى طالب: «من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب واللجاج، فرق الله بينه وبين أحبائه يوم القيامة، كما قال الرسول عليه السلام.».

نعم.. إن ناقل هذا القول اجتهد فى رده وبالغ فى إبطاله، ولكن مريد الإصلاح

له أن يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت، خصوصا إذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاما.

نحن فى زمان ألف رجال فيه الهذر بألفاظ الطلاق، فجعلوا عصم نسائهم كأنها لعب فى أيديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يرعون للشرع حرمة ولا للعشرة حقا. فنرى الرجل منهم يناقش آخر فيقول له: إن لم تفعل كذا فزوجتى طالق، فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانفصمت العصمة بين الحالف وزوجته وهى لا تعلم بشيء ما ولا تبغض زوجها. لا تود فراقه، بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها. وكذلك الرجل ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها، فإذا افترق منها بتلك الكلمة التى صدرت منه لا بقصد الانفصال من زوجته، وإنما بقصد إلزام شخص آخر بالعمل الذى كان يريده كان الطلاق على غير نية منه.

رب رجل يناقش زوجته فى بعض شئون البيت، فيرد على لسانه فى وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد، وعلى غير قصد منه لهدم العصمة، فيقال أيضا: وقع الطلاق، ويعقبه أيضا ما سبق ذكره من البلاء الذى ينزل على الزوجين.

رب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلا فيسأله العمدة أو مأمور المركز عما وقع منه، فينكر، فيستحلفه بالطلاق، فيحلف أنه ما سرق، والحال أنه سرق، فيقال كذلك: وقع الطلاق، وهو لم يقصد بيمينه إلا تبرئة نفسه، ولم يخطر بباله عند الحلف أنه مباغض لزوجته كاره لعشرتها.

فلمَ لا يجوز، مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاة بالمقاَصد، أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط فى صحة الطلاق كما هو شرط صحة الزواج، كما ذكره الطبرى وكما تشير إليه الآية الواردة فى سورة الطلاق حيث جاء فى آخرها: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾؟.

أليس هذا أمراً صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وإمساك وفراق؟ أليس قصد الشارع أن يكون الطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل إثباته؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا، فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذى

يقع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب؟ . . نظن أن في الأخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما نرجع إليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم.

بل إن أرادت الحكومة أن تفعل خيراً للأمة، فعليها أن تضع نظامًا للطلاق على الوجه الآتي:

المادة الأولى: كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضي الشرعي أو المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي بينه وبين زوجته.

المادة الثانية: يجب علي القاضي أو المأذون أن يرشد الزوج إلى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على أن الطلاق ممقوت عند الله وينصحه ويبين له تبعة الأمر الذي سيقدم عليه ويأمره أن يتروى مدة أسبوع.

المادة الثالثة: إذا أصر الزوج، بعد مضي الأسبوع، على نية الطلاق فعلى القاضي أو المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة أو عدلين من الأجانب إن لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما.

المادة الرابعة: إذا لم ينجح الحكمان في الإصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريراً للقاضي أو المأذون، وعند ذلك يأذن القاضي أو المأذون للزوج في الطلاق.

المادة الخامسة: لا يصح الطلاق إلا إذا وقع أمام القاضي أو المأذون، وبحضور شاهدين، ولا يقبل إثباته إلا بوثيقة رسمية.

والذي يتأمل في الآيات التي سبق ذكرها في الاستشهاد والتحكيم يرى أن نظاما مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها في شيء. وليس لمعترض أن يحتج بأن نظاما مثل هذا يسلب الزوج حقه في الطلاق، لأن حق الزوج في الطلاق باق على ما هو عليه الآن، فهو الذي يملك عصمة الزواج. وأسباب الفراق لا تزل متروكة لتقديره. وغاية ما في الأمر أننا اشترطنا أن يسبق الطلاق تحكيم الحكمين ونصيحة القاضي، وليس في هذا تعدّ على حق من حقوق الزوج، وإنما هو وسيلة

للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها، بل ولمصلحة الزوج نفسه، حيث نرى كثيراً من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون إلى استعمال الحيل الدنيئة كالمحلل مثلاً لمداواة طيشهم.

ألا يرى أفاضل الفقهاء أن مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هى تقليل عدد الطلاق، فضلاً عما فيها من اتباع أوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه فى الآية التى ذكرناها واتباع أمر شرعى بقى معطلاً إلى الآن حيث لم نسمع بإجرائه يومًا، خصوصا فى أمة كأمتنا بلغ أمرها من فساد الأخلاق والطيش إلى حد أن الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشى ويضحك ويتشاجر ويسكر، وامرأته جالسة في بيتها لا تعلم شيئا مما جرى فى الخارج بينه وبين غيره.

ومنها يظهر أن كل أربع زوجات تطلق منهن واحدة. وتبقى ثلاث، وهذه النتيجة وإن كانت أحسن من الأولى بسبب أنها تشتمل على سكان الأرياف الذين لا يطلقون مثل أهل مصر إلا أن كليهما من أقوى الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهدم بنائها.

ومن الغنى عن البيان أن المرأة إذا ترقت وشعرت بجميع ما لها من الحقوق، فإنها لا تقبل أن تعامل بطرق القسوة والإهانة التى تعامل بها وهى جاهلة، وعند ذلك يحس الرجال أنفسهم بأنه ليس من اللائق بهم أن يستعملوا حق الطلاق الذى وكله الله بأمانتهم إلا عند الضرورة التى شرع الطلاق لأجلها، فتربية النساء مما يساعد على إصلاح أخلاقنا وتأديب ألسنتنا، فإن الرجل يحتقر المرأة الجاهلة، ولكنه يشعر رغما عن إرادته باحترام المرأة إذا وجد منها عقلاً ومعرفة وعلوا فى الأخلاق فيعف لسانه فى ذكر ما لا يليق بها ويؤدى لها حقوقها.

ولكن لا يجمل بنا أن ننتظر ذلك الزمان الذى يبلغ فيه النساء بالتربية والتهذيب ما يملأ قلوب الرجال من توقيرهن واحترامهن، بل يجب على كل من يهتم بشأن أمته أن ينظر فى الطرق التى تخفف من مضار الطلاق إلى أن يأذن الله بتلك الغاية التى هى منتهى كل غاية، وقد بينا أن مجموع المذاهب الإسلامية قد حوى من الأحكام ما يساعد على وضع حدود تقف عندها العامة وتكون مراعاتها من

الوسائل إلى تقدمنا فى طريق الصلاح . وأقل ما يكون من أثرها ألا تجد المفاسد سبيلا من الشرع إلى ظهورها، فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة فى طمأنينة وراحة بال ولا تكون فى كل آن مهددة بفقد مكانتها من العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا أن نلاحظ أنه مهما ضيقنا حدود الطلاق، فلا يمكن أن تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة إلا إذا منحت حق الطلاق . ومن حسن الحظ أن شريعتنا النفيسة لا تعوقنا فى شىء مما نراه لازما لتقدم المرأة . والوصول إلى منح المرأة حق الطلاق يكون بإحدى طريقتين :

الطريقة الأولى: أن يجرى العمل بمذهب غير مذهب الحنفية الذى حرم المرأة فى كل حال من حق الطلاق، حيث قال الفقهاء من أهله : «إن الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل ونقصان الدين وغلبة الهوى» . مع أن هذه الأسباب باطلة، لأن ذلك إن كان حال المرأة فى الماضى فلا يمكن أن يكون حالها فى المستقبل، ولأن كثيراً من الرجال أحط من النساء فى نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى . . وأستدل على ذلك بملاحظة وردت علىّ عند اطلاعى على احصائية الطلاق فى فرنسا، فقد رأيت أنه فى سنة ١٨٩٠م حكمت المحاكم الفرنساوية بالطلاق فى ٩٧٨٥ قضية، منها سبعة آلاف تقريبا حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت أمام المحاكم أن العيب كان من الرجال .

ولا يصح فى الحق أن شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التى تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه، كأن كان شريرا أو من أرباب الجرائم أو فاسقا أو غير ذلك، مما لا يمكن معه لامرأة سليمة الذوق والأخلاق أن ترضى بعشرته .

وقد وفى مذهب الإمام مالك للمرأة بحقها فى ذلك، وقرر أن لها أن ترفع أمرها إلى القاضى فى كل حالة يصل لها من الرجال ضرر . جاء فى كتاب (البهجة فى شرح التحفة) لأبى الحسن التسولى ما يأتى : «إن الزوجة التى فى العصمة إذا أثبتت ضرر زوجها بها بشىء من (المضار) المتقدمة، والحال أنها لم يكن لها بالضرر شرط فى عقد النكاح، من أنه إن أضر بها فأمرها بيدها، فقيل : لها أن تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر عند الحاكم من غير أن تستأذنه فى إيقاع الطلاق المذكور، أى لا يتوقف

تطليقها نفسها على إذنه لها فيه، وإن كان ثبوت الضرر لا يكون إلا عنده، كما أن الطلاق المشترط فى عقد النكاح، أى المعلق على وجود ضررها، لها أن توقعه بعد ثبوته بغير إذنه وظاهره اتفاقا. وقيل: حيث لم يكن لها شرط به لها أن توقع الطلاق أيضا، لكن بعد رفعها إياه للحاكم، وبعد أن يزجره القاضى بما يقتضيه اجتهاده من ضرب أو سجن أو توبيخ ونحو ذلك ولم يرجع عن إضرارها. ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر. وفهم من قوله: إن الطلاق بيد الحاكم، فهو الذى يتولى إيقاعه إن طلبته الزوجة وامتنع الزوج، وإن شاء الحاكم أمرها أن توقعه، فعلى هذا القول لا بد أن يوقعه الحاكم أو يأمرها به فتوقعه. وإذا أمرها به فهى نائبة عنه فى الحقيقة كما أنه هو نائب عن الزوج شرعا حيث امتنع منه. وروى أبو يزيد عن ابن القاسم: أنها توقع الطلاق دون أمر الإمام. قال بعض الموثقين: والأول أصوب».

الطريقة الثانية: أن يستمر العمل على مذهب أبى حنيفة، ولكن تشترط كل امرأة تتزوج أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها متى شاءت أو تحت شرط من الشروط، وهو شرط مقبول فى جميع المذاهب.

وهذه الطريقة أفضل من الأولى من بعض الوجوه، فإن من المضار الحقيقية التى تتفق كل النساء فى التحفظ منها وبذل المستطاع فى اتقائها ما لا يكون سببا يسمح للقاضى أن يحكم بالطلاق فى مذهب مالك وذلك كتزوج الرجل بامرأة أخرى وزوجته الأولى فى عصمته، فإن الزوجة الأولى لو رفعت شكواها إلى القاضى وطلبت منه أن يطلقها لم يجز للقاضى أن يجيب طلبها، فلو اشترطت أن تطلق نفسها متى شاءت أو عندما يتزوج زوجها عليها كان الأمر بيدها، ولكن العمل على الطريقة الأولى أحكم وأحزم، فإن وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى إلى تضييق دائرته وأدنى إلى المحافظة على نظام الزواج.

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والإنسانية، لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجل لم تتحمل أرواحهم بالوجدانات الإنسانية السليمة كان لى الأمل الشديد فى أن يحرك صوتى الضعيف همة كل رجل محب للحق من أبناء وطنى خصوصا من أولياء الأمور إلى إغاثة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات.

الإنفاق على الزوجة
والتطليق على الزوج (٦٨)

المادة الأولى: إذا امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته، فإن كان له مال ظاهر نفذ الحكم عليه بالنفقة فى ماله، فإن لم يكن له مال ظاهر وأصر على عدم الإنفاق طلق القاضى فى الحال، وإن ادعى العجز فإن لم يثبته طلق عليه حالاً، وإن أثبت الإعسار أمهله مدة لا تزيد على شهر، فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك.

المادة الثانية: إن كان الزوج مريضًا أو مسجونًا، وامتنع عن الإنفاق على زوجته أمهله القاضى مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن، فإن طالت مدة المرض أو السجن بحيث يخشى الضرر أو الفتنة طلق عليه القاضى.

المادة الثالثة: إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة ولم يترك نفقة لزوجته ضرب القاضى له أجلاً، فإن لم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للإنفاق عليها طلق عليه القاضى بعد مضى الأجل، فإن كان بعيد الغيبة أو كان مجهول المحل وثبت أنه لا مال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضى.

المادة الرابعة: إذا كان للزوج الغائب مال أو دين فى ذمة أحد أو وديعة فى يد آخر كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين، ولها أن تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة، ويقضى بطلبها بلا كفيل وذلك بعد أن تحلف أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالاً ولم يقم عنه وكيلاً فى الإنفاق عليها.

المادة الخامسة: تطليق القاضي لعدم الإنفاق يقع رجعيا، وللزوج أن يراجع زوجته إذا أثبت إيساره واستعد للإنفاق فى أثناء العدة، فإن لم يثبت إيساره أو لم يستعد للإنفاق لم تصح الرجعة.

المادة السادسة: من فقد في بلاد المسلمين، وانقطع خبره عن زوجته كان لها أن ترفع الأمر إلى نظارة الحقانية مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار إليها أو يمكن أن يوجد فيها. وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس، وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين، فإذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء قاض، ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره.

المادة السابعة: إذا جاء المفقود أو تبين أنه حى وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثانى بها غير عالم بحياته كانت الزوجة للمفقود ولو بعد العقد مطلقا، أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثانى عالما بحياة المفقود. فإن ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها قبل العقد على الزواج الثانى أو بعده، ورثته ما لم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول. فإن مات بعد تمتعه وهو غير عالم بحياة الزوج الأول لم ترث.

المادة الثامنة: من فقد في معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض وثبت أنه حضر القتال، جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية. وبعد البحث عنه وعدم العثور عليه تعتد الزوجة، ولها أن تتزوج بعد العدة ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره. فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما فى المادتين السابقتين.

المادة التاسعة: لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة، فإذا انقضت اعتدت، وحل لها الزواج بعد العدة، ويورث ماله بعد انقضاء السنة. ومحل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان فى ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة وإلا رفعت الأمر إلى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها.

المادة العاشرة: إذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى، رفع الأمر إلى قاضى المركز، وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب

الزوجة، والأفضل أن يكونا جارين، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب، وأن يبعث بهما إلى الزوجين، فإن أصلحاهما فبها وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه، وعند ذلك عليه أن يقضى بما حكما به، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها.

المادة الإحدى عشرة: للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر، والضرر هو ما لا يجوز شرعًا، كالهجر بغير سبب شرعي والضرب والسب بدون سبب شرعي. وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية.

الحشيش (٦٩)

هو من الجواهر المخدرة، لا يخلو من السميات، وخاصيته التأثيرات المضرة بالأبدان والعقول والملكات.

أما الأول فإنه يحرق الدم ويوقف حركته الطبيعية ويعوقها عن الانتشار فى جميع أجزاء البدن، كما تطلبه شريعة الحياة وتقتضيه نواميس التركيب الحيوانى. وحينئذ يقع الخلل فى توزيع الغذاء على جميع الأجزاء، فتضعف الأعضاء ويفسد نظام البنية، وتستولى العلل والأسقام على عموم البدن، ويئول به الحال إلى الانحلال. ولذلك ترى المعتادين عليه فى حالة سيئة يقاسون من ألم الاختلال ويتحملون مضض الأمراض تعلو وجوههم الصفرة والكدورة، ويتخلل أجسامهم النحول والذبول. يرددون فى شهيقهم أنين الضجر، ويرجعون فى زفيرهم أصوات التوجع والاضطراب. يعقد دخانه وأبخرته على أعينهم سحبا كثيفة، ويغشى نواظرهم بحجاب العماء، فإذا أرادوا النظر إلى شىء حملقوا بحدقاتهم وأداروها بين الجفون لعلها تدرك شيئا مما وجهوها إليه فترجع خاسئة تسكب المدامع على ما أصابها من الضعف، وتهمى العبرات على ما نزل بها من الخيبة والكلال.

وأما الثانى (الضرر بالعقول) فإنه يجفف المخ، وهو مركز الإدراك، وإذا زاد به الجفاف ضعفت قوته الداركة، وتعطلت حركته المعتدلة، وتقوت قوة الخيال والوهم، فتغلب الوساوس والهواجس، وتكثر الخيالات الفاسدة، وتتزايد الأوهام الباطلة حتى تتمكن من النفس، وتنفى الإدراكات الصحيحة، وتظهر الخرافات والهذيانات ثم تنتهى هذه الحالة إلى العته والجنون. ولذلك ترى المعتادين عليه فى نهاية الانحطاط من التعقل، إذا خاطبوا عاقلاً عدلوا عن الصواب، ومنهم (وهم

المدمنون له) من يدور فى الأسواق والأزقة والشوارع مكشوف الرأس أو عارى البدن يصرخ بالسخريات ويصيح بالعويل والبكاء، ويقلد بعض الحيوانات فى الحركات والأصوات، ثم لا يلبث أن يلقى نفسه فى التهلكة، فإما أن يموت ويدفن فى القبر وهو على هذه الحال الشنعاء، وإما أن يقبض عليه ويوارى فى زوايا البامارستان، والعياذ بالله من مثل هذه النكبات.

وأما الثالث (وهو الإضرار بالملكات والأخلاق) فإنه، كما قلنا، يضعف قوة الإدراك، ويزيد فى قوة الوهم والخيال، ويتجسم له الصغير كبيرا، فيجبن عن مقاومة من يريده بسوء وإن كان أضعف منه قوة أو أقل عدداً وعدة، ثم يكبر فيه هذا الداء حتى يخاف من كل شيء ويجبن عن مصادمة أى حادث ولا يجد من نفسه قوة الدفاع عنها إذا نزل بها أدنى مكروه فيتقاعد عن الداعية إلى النهوض خوفا من ملاقاة ما يكرهه إذا قام. فيتولد فيه خلق البطالة والكسل وحب الراحة والسلامة، فلا يسعى على معاشه ولو أجهده الفقر ومضه نصب الاحتياج. ولذلك ترى المتعودين عليه يقطعون النهار نوما والليل جلوسا على هيئة رديئة محاطين بالأقذار والأوساخ يكحون ويعطسون ويهزءون ويسخرون ويضحكون ويبكون، ثم يخيل لهم الوهم أمورا كاذبة فيخافون وينكمشون، وتبرد أجسامهم فيجمدون ويسكتون، ينهشهم ناب الفقر فيتقاعسون وتطالبهم العيال بالسعى فيقعدون فتضطر أولادهم إلى اقتحام عرصات الأسواق وفسحات البيوت يتكففون السؤال وآباؤهم عنهم غافلون.

فهذا حال الحشيش، وهذه أحوال المعتادين عليه، تنتابهم الأمراض فى الأجسام والأبصار وتختل منهم المشاعر والمدارك وتقوى فيهم قوة الوهم والخيال، وتتسلطن عليهم ملكات الخوف والجبن والبطالة والكسل والخيبة والانحطاط، وينتهى أمرهم بالجنون وأمر عائلاتهم بالفقر والاحتياج.

وقد أثبتت قواعد علم الطب، ونطقت التجارب والمشاهدات بأن أمثال هذه العلل والأمراض الجسمانية والعاهات والآفات العقلية والنقائص والمذام الخلقية تنتقل من الآباء إلى الأبناء بالتوارث. وعلى هذا فالمستعملون لهذا الجوهر الخبيث (الحشيش) لم يسيئوا إلى أنفسهم على الخصوص، ولكنهم أساءوا إليها وإلى من يتناسل عنهم فى مستقبل الأزمان.

ثم إنهم بأخلاقهم وأطوارهم وأفكارهم أعدى لمعاشريهم وكل من خالطهم من الجرب، فكانوا وبالا عظيما على بنى النوع الإنسانى وأشد عليه ضرراً من الوباء والطاعون. فإن غاية ما فى الوباء إبادة بعض الأجسام، وأما هؤلاء فإنهم يبيدون الأجسام ويميتون العقول ويشتتون شمل الآداب. والوباء لا يبقى إلا زمانا قليلا ثم يزول بزوال الأسباب، وهؤلاء لا ينقطع ضررهم بفنائهم، بل يمتد ويدوم كثيرا من الأجيال.

ومع كل ذلك، فإنا نرى أن هذا الجوهر المضر قد انتشر فى البلاد، وتناقلته أبناؤها من المدن إلى الأرياف، وسموا استعماله تمدنا مستحسنا، وانتقل بالعدوى من المترفين وذوى النعمة إلى المساكين والفقراء.

ولم يقتصر متناولوه على طريقة واحدة فى (تعاطيه)، بل تفننوا فيه واخترعوا وأوسعوا المجال؛ فمنهم من يأكله غير مخلوط بسواه، ومنهم من يجعله فى أصناف من الحلوى على طرق مختلفة المقادير، ويطلق على كل صنف منها اسما لا يشمل غيره من الأصناف كالمعاجين والمنازيل والبرش والجوارش إلى غير ذلك مما لا نقف عليه من الأسماء. وهؤلاء كثير جدا. ومنهم من يجعله مع الدخان فى السيكارة، وهؤلاء هم الأكثر عددا، والأوفر مددا. ومنهم من يجعله فى حجر الجوزة مع التنباك، وهؤلاء أكثر ما يكونون فى المدن والثغور. وهذه الأقسام كما تختلف فى القلة والكثرة باختلاف المواقع والبلدان، كذلك يختلف كل واحد منها فى الإكثار منه والإقلال.

ولقد كثر عدد متناوليه فى بلادنا فى هذه الأيام حتى راجت بضاعته وربح المتجرون فيه وكثر صانعوه ومحترفوه. فلم توجد طائفة من أهل القطر ولا بلد من الأرياف إلا وفيها من أولئك القوم (الحشاشين) عدد ليس بالقليل، حتى إن الواحد من الفقراء يقدم شراء هذا الجوهر المضر على قوته وقوت عياله ومن تلزمه مئونتهم من الضعفاء، أو بالأقل يضيق على نفسه ومن معه المئونة والكسوة ويوسع على نفسه فى (كيفه)، فلا يبالى شبع وشبعت عائلته معه أو جاع وجاعوا ما دام (مخه عمرانا). وسيان عنده الغنى والفقر والثروة والاحتياج ما دام مراعيا (لمزاجه). فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكثيرا ما صدرت الأوامر والمنشورات من الحكومة قاضية بمنع زراعة هذا الجوهر الخبيث وحظر الاتجار فيه وترتيب الجزاء على المخالفين وتشديد العقاب على متعاطيه، ولكنا لا نزال نرى بائعه وشاريه وآكليه وشاربيه.

وهذه قهاوى المحروسة وسواها من بقية المدن يعبق فيها دخانه، وتتصاعد منها روائحه، فتصدع رءوس المارين. وهذه حوانيت باعة الحلوى ممتلئة بأصنافه ومسمياته. وهذه أكياس كثير من القوم لا تخلو من صنف من أصنافه. وهذه آثاره. وهم الذين يجعجعون في الأسواق ويقلقون المارة ويشوشون الأفكار ويخلون بالآداب وينتهكون حرمة الشريعة المطهرة، ويفسدون أخلاق العامة. وهذه أسواق الأرياف لا تخلو من أن يكون فيها علبة عطار أو جراب دخاخنى. بل إن بعض الأسواق على ما رأيناه وسمعناه، لا يخلو من وجود طابخه علنا على رءوس الأشهاد بدون مبالاة ولا خوف من وعيد.

وغاية ما نقوله فى هذا الباب أن القوم قد كثروا جدا وزادوا عن الحد، ولم يعتبروا بالجزاء ولم يخافوا من الحد، ولا ترى لهم من رادع سوى التعنيف الشديد، لا بالحبس والجلد، ولكن بتغريم الجزاء من النقد.

ومع ذلك، فإن مجلس عموم الصحة لابد أن ينظر فى هذا الأمر ويتلافى أضراره، ويتخذ الوسائط الفعالة فى قطع هذا المرض المعدى، بل الذى هو أشد ضررا على البلاد والعباد من الوباء والأمراض المعدية، فإن من شئون مجلس الصحة حفظ البلاد من عاديات الأمراض. ولا يخفى على نباهة سعادة رئيسه وحضرات أعضائه ما ينجم في البلاد من استعمال هذا الجوهر المبيد المضر بالأنفس والأبدان، الذى لا يقتصر ضرره على آكليه، بل ينتقل إلى أبنائهم ومخالطيهم، وهلم جرا. وعلى الضبطيات والمديريات أن يساعدوا مجلس عموم الصحة فى قطع دابر هذا الداء الذى ألم بالبلاد، فإن الخطب تفاقم وكاد أن يستعصى هذا الداء على المعالجين. وغير خفى على أذكياء المأمورين، سواء كانوا فى المدن أو الأرياف، أن مثل هذا الأمر لا ينبغى التقاعد عنه ولا الإهمال فيه، فإنه إن ترك هؤلاء القوم وشأنهم، ولم يضيق عليهم، توسعوا فى الأمر، واتسع الخرق على الراقعين، وذلك مما يعود على البلاد بالفقر واختلال الهيئة وفساء النظام، إذ يصبح الناس ما

بين مريض ومتقاعد عن العمل ومفضل للراحة والجوع ومختل الإدراك وفاقد الشعور، وكل ذلك وبال على البلاد.

فمن كان فى قلبه مثقال ذرة من محبة الخير والمنفعة وإرادة الوطن، فليبذل ما فى وسعه لخلاص إخوانه من هذا الداء العضال.

وإنا لا نوجه خطابا ولا نعرض نصيحة لهؤلاء القوم العاكفين على تناول هذا الجوهر القتال، فإنا نعلم أن النصيحة معهم فى هذا الشأن تذهب أدراج الرياح، فضلا عما يقولون من أن اللائم لهم لم يحمله على اللوم إلا كونه لم يذق لذة الحشيش، ومن ذاق عرف. وإنما نخاطب رجال الصحة، وموظفى الضبطية حتى لا يهملوا فيما هو من أهم واجباتهم المطلوبة منهم بمقتضى وظائفهم التى يوجب عليهم القانون حفظ واجباتها وإلا اعتدوا من المهملين.

وضع الشئ فى غير محله [٧٠]

هو تصرف مضر يدعو إليه الجهل بالعواقب، وعدم الاكتراث بما يترتب عليه من المضار، وإننا نذكر من أمثاله بعض الأوضاع الإلهية التى ألهمنا الله حكمتها، وأرشدنا بالفطرة إلى فائدتها، ثم أقام لنا من الحوادث برهانا على المضار التى تأتى من سوء التصرف فيها، والعدول بها عن وضعها.

إن الله تعالى يهب للكثير من عباده، أو كلهم، قرائح جيدة، شديدة النفوذ فى الحقائق، وفطنة زائدة سريعة الانتباه إلى الدقائق، ذلك لأن تكون هذه المنحة عدة لصاحبها، وآلة للوقوف على مخبآت الأمور، والوصول من المقدمات إلى النتائج، ومن المشهودات إلى ما وراءها من الخفيات، ليحرز من المنافع ما شاء الله أن يحرز، ويحذر من المضرات ما ربما يكون خبيئا له فى ضمن ما يتصوره نافعا، فيعيش بهذا النور سعيدا، يعلم الخير فيقتنيه، ويبصر الشر فيتقيه.

لكن من الأسف أن كثيرا من أرباب هذه المنح، مع إحساسهم من أنفسهم هذه الصفة الجليلة فيهم ـ (أعنى شدة الإدراك وجودة القريحة) ـ ينحرفون بها عن هذا الوضع الحق، فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول إلى غايات ساقطة حتى من نظرهم أيضا. فترى البعض من أولئك الأذكياء يعمل فكره، ويقلب نظره، ليدبر حيلة فى استمالة غيداء، واستعطاف هيفاء، أو يجد وسيلة للحظوة عند ذات قَدّ يهزأ بالأسَل [٧١]، وأعين غنية من الكُحْل بالكَحَل [٧٢]. ويبذل هذا الجوهر النفيس فى منافسة الأنداد فى ذلك ومغالبتهم، وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين طالبيه، وما شابه ذلك من الأمور الدقيقة التى تحتاج والحق يقال إلى صرف زمن وإعمال فكر، كما يشهد بذلك المجربون. غير أن هذه الأمور مع دقتها لا داعى

إليها، والأتعاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها، وهي معلومة، يخجل الإنسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لها قبل ذلك.

وزيادة عن الأتعاب، التي هي خسارة محضة لا ربح فيها، يفوت صاحب الإدراك وقت غالي الثمن، غالي القيمة؛ يطالبه باغتنام فوائده، وانتهاز فرصه، وهو في غفلة عنه بهذا اللهو، بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه، فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه، فيحول عنها وجهه، فتدبر عنه عازمة على ألا تعود إليه قاطبة.

هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي، يلتفت إلى ماضيه فيجده خاليا من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله، ويعدها العقلاء منفعة أو شرفا حقيقيا، ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرقى وأملك لناصية الدهر منه، فيتقلب على جمر الأسف، خصوصًا إذا طرقه الزمان بمطرقة المصائب، فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه، ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجه قوة أوهنها في أعمال باطلة إلى ما أعدت له من الأعمال الحقيقية. فإذا طلب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة، رأى تلك القريحة قد صدأت، والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة، فيجتهد كل الاجتهاد لاماطتها عنه، ليخلص من ظلماتها المكدرة، وكأنه لا يستطيع أن يعيدها إلى صفاتها الأولى، ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل ما يكفي في تعذيبه وتعنيفه، حتى يتدارك ما فاته، ويملك زمام الأعمال المستقيمة، ويرشد مع الراشدين.

خصوصًا إذا كان من أبناء الذوات أو الأغنياء أو موظفي الحكومة، أوما شابههم من الذين تحكم عليهم مكانتهم بأن يكونوا أسرع الناس إلى الجد، وأقربهم إلى الحق، وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الأول على رفعته، والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته، ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الأنفس من غيرهما. فهذا الوجدان منه يبعثه على أن يكون أعلى وأجل من غيره، فيما به الرفعة والشأن في كل زمن، على اختلاف الأحوال وتقلب الهيآت، وهو الكمال الإدراكي، والفضل الذي ينشأ عن صحة الإدراك، فهذا هو الأمر الثابت الذي يمكن للإنسان أن ينال به جميع مرغوباته، سواء صلحت أحوال

العالم أو فسدت، بخلاف من يفوته هذا الكمال فإن أمره موكول إلى اختلال الأحوال وفسادها. فما دام النظام مختلا والعدل ضائعا والحق مستورا فهو يؤمل التقدم وعلو المنزلة. فإن لمع بارق من الحق، أو استقام أمر النظام، وأخذ فى التصرف بالعدل، أصبح هذا الذكى النبيه فى زاوية من الإهمال، وأهدر شأنه، وعد فى الآحاد السافلة.

هذا كله إذا اقتصر فى تصرفه على استعمال قوة القريحة فى غير موضعها، وبقى حافظا لجرثومة هذه القوة؟ (القريحة والإدراك).

فإن أضاف إلى سوء التصرف سعيا فى إطفاء نورها من أصله، بأن عكف على معاطاة الأرواح المسكرة، والجواهر المخدرة، من أنواع الخمور والحشيش والأفيون والمعاجين والجوارش(٧٣)، ونحو ذلك، فقد أضاع هذا النور الإلهى الذى أودعه الله فيه، وانقطع الأمل من عودته إلى ما كان عليه، فإن مزاج عضو الإدراك يختل بتعاطى هذه المهلكات، فلا يعود للقوة مركز تقوم عليه. فإن ظن أنه يدرك فى بعض الأحيان سراً، أو يفهم خطابا، أو يرد جوابا، فليعلم أن ذلك ما هو إلا بقية تعلق خفيف لتلك القوة الشريفة ببدنه المعتل، وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقى عنده أضعاف ما يجده من نفسه بكثير، وإن الذى منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاءً جزيلاً، فيجعله نزراً قليلاً.

خصوصا وإن الانهماك فى قرع الأكواب، والتهالك على الشراب مما يستدعى زيادة السهر بالليل، ويتبعها فتور البدن واستيلاء الوخامة بالنهار، ويقتضى تماديا فى الملاهى والهذر، ويفتح على الإنسان باب الزهو واللعب، ويستلزم رفع الحجاب عن السر، وكشف ستار الحياء، وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات، ويستوى فيه الضار والنافع، فيختلط به الأمر، ويكتسب صاحبه ذكرا سيئا بما يفعل من الأمور الخسيسة التى لا يشعر بها حال ضياع الفكرة، واستيلاء السكرة.

ثم يزداد الوصف الأول، وهو سوء التصرف، إلى حد يهدم الشرف، ويحط من القدر، حتى عند أدنياء الناس وأخسائهم، وذلك أن يُفْرِغ ما بقى من فطنته فى انتخاب كلمة تضحك الحاضرين، وحركة تطرب الناظرين. وبدل أن يستعمل

مخيلته فى تشخيص الأحوال الواقعية، وتقريب الحقائق إلى الأذهان، وتنوير الأفكار بما يبتدعه من حسن التصور، يستعملها فى ثلم الأعراض الطاهرة. يُخَيِّلُ حالَ عالم أو صفة فاضل ثم يبرزها على صورة بشعة، وحالة مستنكرة فيعجب ذلك جلساءه، لكنه يُغْضِبُ ذمته وسريرته ولا يرضى به ما بقى من عقله.

فإن تمادى به هذا الحال أزمانًا، حتى عرفته العامة ووقف عليه الخاصة، ونظر إليه بعين الازدراء من الفضلاء والعقلاء ـ وإن بقى مبجلاً فى أعين أصحابه فهذا لا ينفعه بشىء ـ ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعًا عنه من نفسه، فهذا هو الذى يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده. فسدت طبيعته، وانقلبت فطرته، وعميت بصيرته، حتى لا يدرك هذا الذى نقول أيضًا. فبئست الحال حاله. فعلى حكومة البلاد أن تقتفى أثره، وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانونًا صعبًا يخيف القلوب، وإن لم تكن واعية، ويزعج الخواطر، وإن لم تكن حاضرة ويؤثر فى العقول، وإن لم تكن سليمة، وإلا فإن هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار، لا سيما إذا بدأت فى الخاصة فإنها لا تلبث أن تسرى فيما بين العامة.

الصياح خلف الجنائز (٧٤)

هى العادة الشنعاء، انتشرت منذ زمن فى الأرياف، ولم تخل منها المدن والبنادر. يعلم الناس ما فيها من القبح والمضرات، ولكن يساقون إليها بعصى التقليد وصوالجة الجهل، فلا يقلعون عنها إلا بواعز يزجرهم عن ارتكابها.

وطالما تمنينا التفات الحكومة إلى هذه العادة الهاتكة لستار الأعراض، المخلة بسياج حرمة النساء، فضلا عما فيها من انزعاج المارة والجالسين بشوارع المدن والبلدان بارتفاع تلك الأصوات الفظيعة والولولات الشديدة، إلى أن رأينا ضبطية العاصمة وجهت اهتمامها إلى ذلك ووضعت جزاءً نقديا على كل من يجترئ على العويل خلف الميت فى الطرق والأزقة، وأخذت تلاحظ ذلك متكاتفة رجالها على تنفيذ ما سنته من القوانين بكل جد ونشاط. حتى من شدة حرصهم على ذلك، كثيرا ما غرموا من لا يستحق التغريم على شبهة المخالفة في الأمر، فاستراح أهل العاصمة من شر تلك المنكرات.

ورجونا أن يعم هذا القانون جميع البنادر والقرى لاستئصال عروق هذه العادة العديدة المضرات. وقد كنا سمعنا أن بعض ضبطيات البنادر أخذت تجارى ضبطية العاصمة فى ذلك، وأن بعض عمد البلاد التمس الرخصة فى منع العويل خلف الجنائز من بلاده، فكدنا أن نجزم بأنه عما قليل تبطل هذه العادة وتلاشيها يد الأحكام من صفحات البلاد إذا استدام العمل على معارضتها.

وبعد قليل من شروع الضبطية فى هذا القانون سنت قانونًا آخر لمنع ما كان يحمل خلف الجنائز تحت عنوان (الكفارة) لكونها عاينت ما ينشأ عن هذه العادة أيضا من

الشقاق والمضاربة بين الأشخاص المعوزين السائلين، وغير ذلك من البلايا العديدة التي نبهت عنها الوقائع عقب صدور ذلك القانون، وبينت ما يستحقه رجال الضبطية من الثناء الجزيل لو اهتموا بتنفيذه. ولا يخفى على المطالعين أن من مقتضى هذا القانون أن لرجال الضبطية الحجر على جميع الكفارات التي تساق خلف الجنائز لو عثروا عليها بعد ثلاثة أشهر من تاريخ صدور القانون، فبتنا مسرورين لمعاينتنا تنفيذ القانون الأول مؤملين أنه إذا حل أجل الثاني تناولته أيدي التنفيذ.

ولكن سمعنا أن بعض النسوة عاد إلى الصياح خلف الجنائز على مرأى من رجال الشرطة والبوليس، وهم لا يأمرونهن بخفض تلك الأصوات المرعدة والولولات الشنيعة، حتى كاد الأمر يعود إلى ما كان عليه بادئ بدء، لولا توهم المغرمات في المدة الأولى أنهن لو عدن يحكم عليهن بالغرامة.. فترددنا في الخبر، ولم نلبث قليلا إلا وتبينا صحة الرواية بالعيان، فعجبنا، وقلنا: إلى متى نبقى عاكفين على هذه العادة من أننا لا نراعي للقوانين حرمة إلا زمنًا يسيراً بعد صدورها، ثم نضعها في زاوية الإغفال، فنحتاج إلى تجديد الأمر بها ثانيًا، وهلم جرا. كأننا لم نشعر بما نعانيه من النتائج المضرة المتسببة عن هذا الخلق.

وأما قانون الكفارات فلم يحظ بالوجود إلا على صفحات القرطاس، إذ لم تتناوله يد التنفيذ يوما ما فبرز بعد تقريره ضافي الفصول، وانتشبته أيدي الحدثان قبل أن يشم ذرة من نسيم الحياة، إذ خرجت الكفارات بعد مضي ثلاثة الأشهر من صدوره، وروتها الجرائد ولم نر أو نسمع من يعارض. ولعل رجال الضبطية يكتفون بهذا التنبيه فنستريح من العود إلى هذا الموضوع بطريقة أجلى وأبين.

عـادات المــآتم[٧٥]

بيّنا فى الرسالة المتعلقة بعوائد الأفراح أن لا تثريب على الإنسان إذ رأى من نفسه فرحًا واستبشارًا عند النعمة، وبؤسًا وانقباضًا عند النقمة، وأنه لا يعاب عليه أيضًا بما يبدو على وجهه وأعضـائه من سمات المسرة والكآبة. فإنه مفقود الاختيار بالنسبة إلى تلك الانفـعـالات وهذه التـأثرات. فـبناء على ذلك لا نتكلم إلا عن عـاداته الصادرة عن اختياره وإرادته فنقول:

وقد جاءتنا الشريعة الغراء ببيان ما يجب أن نفعله بالميت من وقت الاحتضار إلى أن يدفن. فكان من اللازم علينا أن نقف عند الحد الذى رسمته، فإنه جمع ما يجب للمتوفى وحفظ حقوق الورثة والأقرباء. فنعما به من حكم عدل وأدركت حكمته العقلاء واتخذته سنة في مآتمهم (ولو كانوا غير مهتدين بشرعنا) مع أننا أولى الناس باتباعه لو كنا من الراشدين. ولكن تبعنا فى عاداتنا أمورًا غير ما شرعت لنا. فمن ذلك أنه:

قبل أن تصير حالة المريض خطرة، أعنى فى حالة كونه قادرًا على التكلم والقيام من مضجعه بغير معين، وعلى تناول الأغذية، تحدق به النساء والأطفال والرجال، ويخاطبونه بكلمات تدل على اليأس من شفائه، فيرتجف قلب المريض، خصوصًا عندما يرى النساء يبكين ويولولن ويعزين والديه فى حياته على مسمع منه. ولا شك أن ذلك يورث فيه فزعًا شديدا ربما يحدث به مرضًا يكون السبب فى وفاته، خـصـوصًـا إذا بلغـه أنهم أحـضـروا له الكفن وأداروا الطواحين لتـأهيل مـا يلزم للمعزين. وقد رأينا بأن كثيرًا من المرضى يغمى عليه إذ يرى الحاضرين يتكلمون بقرب وفاته فيستمر به الإغماء إلى أن يقضى عليه. وهذه عادة بينة القبح كثيرة

المضرات. فألا قاتل الله الجهل الذى يسوق الإنسان إلى إساءة من هو أحب الناس إليه، وهو يزعم أنه إنما أتي إحسانًا وفعل خيراً.

هذا، ومن الواجب شرعًا على أهل الميت أن يبادروا بدفنه، بحيث لا يجوز لهم تأخيره إلى اليوم التالى للوفاة إذا كان ما قبل الغروب يسع ما يلزم له من الغسل والتكفين، وذلك لئلا تتعفن جثته وتسرى إليها ا لهوام. ولكن قضت علينا العادات السيئة بأن نعد ممتثل هذا الأمر من الأدنياء المنحطين عن درجة المجد، حتى صرنا نرى أن ميت القوم الأغنياء لا يدفن فى الغالب إلا بعد يومين أو ثلاثة، وذلك لأن مثل هؤلاء الناس يرسلون إلى جميع أصحابهم وأقاربهم فى المراكز والمديريات المتنوعة ليشهدوا الجنازة، وفي خلال ذلك يستعدون لما يكفى من يحضرون الجنازة فى المآكل والمشارب أسبوعًا أو أسبوعين حتى صارت مآتمهم تكلفهم نفقات أضعاف ما ينفق فى ولائم الأفراح. ومن العجب أنهم بعد تكبد هذه المصاريف، اصطلحوا علي أنه لا يجوز للمعزين مهما طال جلوسهم فى محلات المآتم أن يشربوا قهوة أو دخانا ولا يتعاطوا شيئا من الأطعمة، ومن يجترئ على ذلك تسلقه الناس بألسنة حداد، وتعده فرحًا بمصاب المتوفى ومحتقراً لأولاده وورثته.

هذا، والسنة أن يكفن الميت بقميص من الكتان أو القطن. . ولكن عد ذلك أيضًا عيبًا ونقيصة، بل لا بد أن يكون الكفن خزاً أو حريراً. وليته يكون على قدر الحاجة، بل يضعون عليه ما يكفى لعشرين أو ثلاثين حيًا. وهذه الأمور، وإن كانت من المحرمات لكونها إسرافًا قبيحًا، ليس فيها شائبة مصلحة يتكبدها الفقير أيضًا. وكثيراً ما رأينا من الفقراء من يقترض النقود بالفوائد الباهظة لينفقها فى تلك البدع المحرمة.

ولا تسل عما تفعله النساء اللاتى يحضرن من البلاد بدعوى التعزية، فإنهن يأتين من الأعمال والأقوال ما يشيب الوليد وينفطر منه قلب الجلمود. وذلك أنهن يستأجرن النادبات (هن نسوة لا مهنة لهن إلا إثارة الحزن بما يلقينه من تعداد مناقب الميت وتهويل المصاب متبعات ذلك بضرب الطبول وتحريك الأرجل والرءوس ويأخذن على ذلك أجوراً لا تنقص عن أجرة أشهر مغنية فى الأفراح). وكلما مررن ببلد وهن متوجهات إلى بلد المتوفى، رفعن الأصوات ودققن الطبول، حتى إذا

بلغن البلدة ضربن الخدود وشققن الجيوب وزعقت النادبات بطبولها وأصواتها وقوبلن بمثل ذلك من داخل البلد . ثم إذا حضرن المآتم وقفن على شكل دائرة، والنادبات تقفن في وسط الحلقة تنشدهن الكلمات المهيجة للحزن المقطعة للكبد على طريقة تؤثر في العقل فساداً وفي الصحة أسقامًا . فإنها تأتي بهذه الجمل على هيئة إنشاء أدوار الغناء بصوت مرتفع، وهي مع ذلك تضرب الطبول وتحرك جميع الأعضاء فتجبنها النسوة بضرب الخدود والصدور والوثب والضرب بالأرجل في الأرض والعنف في الحركات وبترداد تلك الكلمات التي تحرق القلوب . . ولا يقلعن عن ذلك إلا بعد أن تشتعل وجوههن ناراً وقلوبهن احتراقًا من ألم تلك الضربات وهذه الأصوات . وفي أثناء استراحتهن تدفع كل واحدة من الحاضرات نقوداً ـ نقوطًا ـ إلى النادبة لتتشجع في عملها، ثم يعدن بعد ذلك إلى تلك الحالة . وهكذا يبقى الأمر إلى نحو أسبوع بعد دفن الميت . وقد تؤثر هذه العادة الشنعاء أمراضًا كثيرة لهاته النسوة، وكثيراً ما أصبن بالصرع والجنون، وإنها لأشد ضرارا بالنسبة لأهل الميت وأقاربه، حتى رأينا الكثير منهم تعتريه الأمراض من شدة ما تفعله فيه هذه المهيجات فتودي به إلى الهلاك .

هذا ما يلحق آل الميت من هاته المعزيات، فضلاً عما يتكبده من النفقات في مآكلهن ومشاربهن، مع أن سنة التعزية إنما جعلت لكي يتسلى آل الميت بما يسمعونه من المواعظ المفرجة لهمهم والمخففة لمصابهم فإذا بالأمر معكوس، وصارت المعزيات الآن حقيقات بأن تسمى المفزعات المحزنات .

وقد فاتنا أن نبين أن آل الميت وأقاربه وأصحابه تلتزم نسوتهم بتلويث الوجوه والأيدي بصبغ «النيلة»، وبحلق شعر رءوسهن، كأنهن لم يكتفين بتلك الأعمال، وأما ما يفعلنه خلف الجنائز من الصياح والعويل فلا حاجة بنا إلى التكلم عنه، فقد سبق بيان ما فيه من ا لمضرات بمقال مخصوص تحت عنوان (الصياح خلف الجنائز)، وإنما يلزمنا أن نبين ما يصنع بالميت حال تشييع جنازته من الأعمال الخرافية . وذلك أن شرذمة من الجهلة تشترك مع حاملي النعش في الحمل، فمرة ترفعه عن الأكتاف ومرة تخفضه، ومرة تقف به . وكثيرا ما يكون ذلك إذا مروا على منزل أحد أقارب المتوفى أو أصحابه، فتظن العامة أن تلك التغيرات وهذا الوقوف ناشئ عن حركة المتوفى (لا حرج على الجهلة فيما يقولون) وإذ ذاك يتبدل عويل النساء بالزغاريط

المتابعة فرحًا بما أظهره المتوفى من الكرامة (وإن لم يكن من أهلها) . ويزيد ذلك منهن عند «لف القسيمة»، وهي أن يدور النعش مع حامليه من مرتين إلى سبع، وكذا عندما يقسر الحاملين على التوجه إلى جهة ليست موصلة للمقبرة . والغالب أن المحرك للنعش على هذه الصفات يكون من ورثة الميت أو المنتمين إليهم ليوهموا الجهلة أنه من ذوى الكرامات؛ ثم إذا انتهى هذرهم ووصلوا به إلى القبر فرشوا له فرشًا ثمينة ووضعوا معه طعاما وشرابا ودخانا «وشبقا» (هذا هو غاية الجهل ونهاية السفه) .

ومن العادات المصطلح عليها أيضا أن ما تركه الميت من الثياب لا يجوز لبسه لأحد مهما كان، بل لابد أن تحفظ ملابسه حتى تبيد من نفسها، وأن أقاربه لا يقربون النساء ولا يحلقون الرءوس ولا يطهرون الثياب إلا بعد مضى ثلاثة أشهر على الأقل من عهد وفاته . وقبل مضى هذا الوقت لا يجوز لأحد من أهل القرية أن يتظاهر بما هو من علائم السرور، وإن وقع ذلك أورث عداوة بين البيتين لا يمحى أثرها .

فهذه بعض عادات المآتم، وأنت تراها أكثر قبحا مما بيناه فى عوائد الأفراح، فإن ما يفعل فيها وإن كان صادراً عن جهالة ومنبعثا عن توجس وسوء تربية، إلا أن الكثير منه لا يخلو من بعض الأغراض وإن لم تكن شيئا بالنسبة لما يترتب عليها من المضرات والخسران .

وأما ما يفعل فى المآتم من النفقات الجمة، وغير ذلك من العادات التى ذكرناها لك من الحظر على ثياب المتوفى ووضع الأطعمة وغيرها معه فى القبر، فلم نتبين منها أدنى شبهة تحمل على فعلها، فضلاً عما فيها من إتلاف المال وضياع الحقوق .

نعم . . إن التزام ورثة الميت التباعد عن حلق الشعر ونظافة الثياب وإتيان النسوة أمر معهود فى كثير من الأمم المحاطة بالجهل، ولكن نهت عنه شريعتنا لما فيه من إظهار الجزع وعدم الرضا بالقدر، فإذن لا يصح التخلق به بل يلزم التجلد والصبر عند المصيبة، وذلك خير من الاسترسال مع هواجس النفس الأمارة بالسوء .

وهذا الذى بيناه، يصنع فى المآتم، ويكون عند الأغنياء أكثر منه عند الفقراء . وليس الحامل عليه عند الفئتين سوى أنهم رأوا من قبلهم من الآباء والأجداد محافظًا

على هذه العادات، فهم لذلك يقومون بشعارها ويتنافسون في إتقانها، وإن كانوا يحسون بقبحها ويتململون من مضراتها.

وأما ما يفعلونه على أنه من القرب كبذل الصدقات على المقابر، والإتيان بالفقهاء لتلاوة القرآن الشريف وذكر الله ونظائر هذه الأعمال مما هو من أفعال الخير والإحسان، فقد أخرجوها عن مواضعها، وصار الغرض منها الآن الرياء وحب السمعة، وذلك من غير شك محبط للأعمال.

وقد أتينا على ما حضر بمحافظتنا من تلك العادات، وأتبعناه ببيان ما فيها من السرف والتبذير، وفي بعضها من الجهل وسوء التربية، مع اشتراكها أجمع في كونها من المحرمات التي يجب شرعا تجنبها. ولكننا نعلم بأن العدول عنها دفعة واحدة غير ممكن في زمن قريب، لرسوخ قدمها منذ أجيال بين عامة الناس. وإنما الغرض من هذا البيان استنهاض همم أهل العلم وأذكياء العقول في المدن والقرى شيئا فشيئا ببيان ما فيها من القبح والمضرات، وأن يسلكوا في ذلك طريقة تلائم عقولهم، بحيث تكون عظتهم بالأحاديث الشريفة والآثار الصحيحة. وليعلموا أن ذلك من واجباتهم الشرعية، فإنه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خصوصاً مثل هذه المنكرات التي عم انتشارها. فيلزم التضافر على إزالتها بقدر ما يمكن. وفي الأمل أنهم إذا سلكوا ذلك (ولم يقتصروا على علمهم بما فيها من المضرات تاركين العامة وشأنهم، كما هو واقع منهم (الآن) نرى في زمن قريب تناقصها، خصوصا وأن الكثير من نبهاء بلادنا وعمد الأرياف قد شعروا بقبح هذه العادات، فأخذوا في التباعد عنها وإزالتها من عامة بلادهم، فنقصت في هذه الأيام. وأملنا فيهم أن يداوموا على هذا العمل الجميل حتى تنقطع بالكلية فيكون لهم الفضل والثناء. وإن عامة بلادنا أقرب إلى ترك التقاليد القديمة مهما طال عليها المدى فيتوافر على هؤلاء المساكين مبالغ جمة هم في حاجة شديدة إليها، ويخرجون من عهدة الإثم، ويبرءون من علة الخرافات، وفي ذلك ما لا يعد من المنافع والثمرات الدنيوية والأخروية.

التمــــلق (٧٦)

من الناس من تراه هشا بشا عند اللقاء، طلقا بساما وقت المواجهة، يجاملك بين الكلام، ويؤانسك بمستعذبات الأحاديث.. يستحسن ما يصدر عنك من الأفعال، ويستلطف ما يشاهد من الأحوال.. حتى يخيل لك أنه محب خالص وصديق صادق ينفعك وقت الشدة، ويلازمك عند النكبة، ويطلب لك الرفعة وعلو الشأن، ويتمنى بلوغك إلى أقصى درجات العلاء.. ثم إذا تولى عنك وبعدت عنه، عكس الموضوع وقلب المطبوع، فبدل الحسنات سيئات، وأظهر الفضائل في قوالب الدنيئات، وألبس الكمال ثوب النقص، ومثل صورتك في أذهان سامعيه على مثال قبيح الظاهر والباطن.. فعد علمك جهلاً مركبا، وشجاعتك تهورا، ووقارك كبرا، وكرمك إسرافا، واقتصادك شحا، ونباهتك شعبذة، وفصاحتك ثرثرة، وإنسانيتك نفاقا، وأدبك خمودا وخمولاً، وغيرتك حسدا، ومنافستك حقدا، وترفعك عن الدنيئات عتوا، وتواضعك تزلفًا وملقا ونصحك تقريعا وتنديدا، وتوقيك المكاره جبانة، وسترك سقطات الأخيار تدليسا، ودفاعك عن الحق جدالاً، وإنكارك منكرات المألوفات ومألوفات المنكرات زندقة وضلالاً.

وهكذا.. لا يدع فضيلة تحليت بها إلا قلبها إلى ضدها، وتأولها بما يباينها، وأخذ يجهد نفسه في اختراع البراهين والأدلة ليثبت بها قوله ويؤيد مدعاه.. لا تفتر له في ذلك همة، ولا تلحقه في سبيله سأمة أو كلال، ولا يأخذه ندم على زمان أضاعه في الاشتغال بها، وعمر نفيس أفناه في التفرغ لها.. بل يقوم عقب الفراغ منها فرح القلب مسرور الفؤاد، كأنما تحدث بالحكم وتلا جوامع الكلم، وألقى درسًا كشف الستارة عن وجوه الحقائق، وأزال الخفاء عن أسرار الغوامض.. أو

خطب خطابة حركت فى النفوس دم الغيرة على جلب المنافع، واستنهضت الهمم إلى اقتناء الرغائب واختراع الغرائب.

وقد تمكن هذا الخلق من بعضهم فأفرغوا له زوايا قلوبهم، وأخلوا فسحات أفكارهم، وقطعوا له ألسنتهم، وقصروا عليه أبواب محاوراتهم، وسكروا دون غيره أفواههم.. فلم يخوضوا إلا فى أعراض معارفهم، ولم يتحدثوا إلا بمثالب معاشريهم، حتى ترى الواحد منهم إذا جلس فى محفل أو اجتمع بآخر حاول التطرف إلى مقام من يعرفه بأى العلاقات، كمجاورة فى بيت أو اجتماع فى مدرسة أو اتحاد فى طائفة أو اتفاق فى وظيفة، وأتى على ذكر معايبه ومقابحه لأدنى مناسبة تعرض فى خلال الكلام.. ولربما ابتدر إلى ذلك اقتضابا وخاض فيه على غير اقتضاء.. لا يبالى أكان ذلك صدقا أو كذبا وافتراء، وإنما مداره على أن يجد فى كبير المجلس أو محترمه ميلاً لما يقول وارتياحا لما يفتريه فإذا أحس بذلك منه، استرسل فى الذم وتهافت على الهجاء بكل ما تصل إليه قوة وهمه وخياله.

ومع كونهم عكوفًا على هذه الأمور الموجبة لارتفاع الثقة بهم وعدم الاعتماد عليهم يشغلون بها الأوقات ويضيعون فيها الأعمار، فلا نراهم ينالون من ذلك نيلاً، ولا تعود عليهم منه عائدة.. بل لو فتشنا ضمائرهم وقلبنا أفكارهم، لرأيناها خالية من ملاحظة فائدة يرغبون نوالها من ارتكاب هذه الأحوال المشوهة لوجه الإنسانية، وما وجدنا لهم غرضاً صحيحًا نصبوه ليصيبوه من إضاعة الوقت فى الاشتغال بهاتيك الأمور التى لا تورث إلا الشقاق ولا تلد سوى التقاطع والبغضاء. ولذلك ترى كل واحد منهم يزيف الآخر ويعيب عليه هذه الصفة بعينها ويعده من الذين لا غاية حقيقية لأفعالهم. ولو أنهم شعروا لأحوالهم هذه بغايات تعتد بها النفوس، وأحسوا بها بمقاصد تعتبرها الفضلاء، لما رمى بعضهم بعضًا بمثل ذلك المقال.

وإن أغلب هؤلاء من أولى البطالة والكسل - وإن كانوا موظفين فى بعض الأعمال ولا يعرفون كيف يؤدونها ولهم رواتب وافرة - الذين ليس لهم شغل يلوى ألسنتهم عن الخوض فى أعراض معارفهم وخدش ناموس معاشريهم.. فإنهم عندما يرون نفوسهم عطلاً من الأعمال خلواً من الأشغال، وإن غيرهم من أولى

الجد والثبات على العمل نالوا اسما رفيعًا وارتقوا إلى درجة سامية ـ في المجد والشرف وإن كانوا أوساطًا في الرتب الوهمية التي لا أثر لها إلا في اللفظ ـ بنشاطهم واجتهادهم، يتألمون لذلك تألمًا شديدًا وتحترق أفئدتهم حسرة وتذهب نفوسهم ندامة . . فلا يجدون ما يطفئون به هذا اللهب المستعر سوى تزييف تلك المعالي وذم الطرق الموصلة إليها ترويحًا لنفوسهم وتبريدًا لكيدهم، حتى إنهم يتلهفون على أن يروا سقطة يذيعونها أو ذلة يملئون بها الآذان ويرجعون كل أعمال ذويها إليها .

ولا تحسبن ذلك لا يكون منهم إلا للأعداء ومن بينهم وبينه نزاع وخصام، فإنه لا يسلم من لسانهم إنسان وقعت أشعة أبصارهم عليه أو استطالت آذانهم إلى سماع اسمه وشيء من مشخصاته، بل أول ما يخطر ببالهم ويطرحونه مطرح الذم ويجعلونه موضوع القدح هو من يكون بينه وبينهم صلة أو تعارف .

نعم، يسلم من ألسنتهم من علقوا آمالهم بالانتفاع به، أو توجسوا الخيفة من شره، لكن لأجل لا يتجاوز قضاء الوطر، ثم يعودون إلى شر أحوالهم .

ثم إن هذا الخلق المذموم ولد فيهم قوة الانتقاد وتدقيق النظر في حركات من يجتمعون بهم وسكناتهم . فترى الواحد منهم يقلب عينيه ويتمعن في لفتات من وقع بصره عليه وإشاراته وأفعاله تمعن المستكنه المستكشف، عله يعثر من ذلك على ما يدل على نقص فيه أو رذيلة انطوى عليها . فإذا وقف على شيء من ذلك، حرص عليه حرص البخيل على درهمه والجبان على دمه، ولكن لا لأن يتدبر عواقبه وما ينجم عنه من الأضرار فيجتنبه ويتحذر من الوقوع في مثله، بل لأن يكون له مادة في المسامرة وموضوعًا للمحاورة يبحث في لوازمه وعرضياته ونتائجه وذاتياته، أو سلاحًا يشهره على صاحبه عندما يتحرك دولاب غضبه عليه، أو حجة يعتمد عليها في منع خير أحس بوصوله إليه، أو وسيلة يتقرب بها لذى مكانة بينه وبين ذلك الشخص نوع عداوة أو خصام .

ويمكن أن يقال إن مسألة التقرب هذه هي الباعث الأصلي لاعتناق أغلبهم هذه الخلة الشنعاء . وذلك أن غالب الأمراء والكبراء وذوى الجاه والمقامات من ولاة الأمور في الأزمنة الغابرة كانوا لا يقربون إليهم إلا من تدرب لسانه على الذم وتعودت شفتاه قص الأعراض وامتلأ فؤاده من هفوات الناس وسقطاتهم ومعايبهم

ومساويهم، فكان مثل هذا الشخص هو الذى يتقرب منهم ويحظى بنيل الرتب الرفيعة والمناصب السامية، وغيره من أولى الأدب والهمم العالية مهمل الشأن لا يلتفت إليه ولا يعول فى أى أمر عليه. . فأوجب ذلك أن يتخلق به غير ذويه، وينتحله من لم يكن مقتنيه. . وتفنن فى مذاهبه من حصل على شىء من مباديه. . إذ وجدوه بضاعة رائجة يمتلكونها بدون ثمن، ويبيعونها بأغلى القيم وأرفع الأثمان. . فانكبوا عليها، ووجهوا كل قواهم إليه. وسرى من الآباء إلى الأبناء، وأخذته الطبقة الثانية عن الأولى، وقد تنوسى الأصل فيه والباعث عليه، وصار مثل سائر العادات، يحافظون على أوضاعها ورسومها لا لغرض يعود منها كما ترى.

ولا تعجب من ذلك، فإنه لم يكن من سبيل للترقى فى تلك الأزمان سوى هذا الخلق، لا حسن إدارة واستقامة سيرة وتضلع فى فنون عالية وترشح فى علوم نافعة. ولذلك كنت ترى أن المتوظف مثلاً لم يجد من وسيلة يحافظ بها على مركزه ووظيفته عندما يتغير رئيسه الأول سوى مذمته عند الخلف وتعداد مثالبه ومساويه وغلطاته وهفواته. . وبهذا ترتاح نفس الخلف إليه وترضى عنه، فلا يمسه بسوء - إن لم يعل رتبته - ما دام سالكًا هذا السبيل (وإن أخل بوظيفته وأفسد جميع ما عهد إليه وأساء فى سائر أعماله). ولذلك كانت أغلب المصالح، إن لم نقل كلها، مصابة بداء الاختلال، لا ترتيب فيها ولا صلاح ولا انتظام. ومن العجيب أن الرئيس كان يرتاح لذلك ويميل كل الميل إليه، مع علمه أنه سيكون سلفًا لخلف تجتمع لديه الأغراض وتناط به الآمال، ويتقرب الناس إلى بلوغها منه بمثل ما كانوا يتقربون به إليه. ألا قاتل الله الشهوات وأحكامها.

ولسنا نعيب هذه الصفة على أولئك الذين مضوا من قبلنا، فإنهم سيقوا إليها بعصا الاضطرار، وتعودوها على غير اختيار، (وإن كانوا ملومين من جهة تطامنهم لهذا الإجبار وارتياحهم لعوامل القهر والإكراه من جهة الإكثار منها والتطرف فيها إلى الحد الذى لم يطالبوا ببلوغه ولم يقهروا على الوصول إليه).

أما نحن فلا عذر لنا فى الإكثار منها، بل ولا فى التخلق بها بعد أن رفعت عنا أحكام القهر وصار أمرنا بيد الاختيار، وبعد أن علمنا أنها عقبات فى طريق تقدمنا

وحواجز دون بلوغنا المأمول. فإنها تميت الفضائل، وتشتت شمل الكمال، وتولد الشقاق وتودع في النفوس من البغضاء ما يفرق القلوب ويشق عصا الاتحاد ويحمل كل واحد على أن يقطع طريق الخير على أخيه ويسد أبواب النجاح في وجوه معاشريه إذ الأعراض لدى النفوس عزيزة لا تسمح الخواطر بانتهاكها ولا تطيب لهتك ستارها، بل لا شيء أعز عند الإنسان من عرضه، ومن ثم تراه يفضل الموت في صيانته.

ذلك فضلاً عن كون هذا الخلق يقعد بالمتصف به عن المعالي، ويمنعه عن السعي في طرق المنافع، ويصرفه عن النظر في شئون نفسه وتعهدها بما يزيد في تأدبها وكمالها، إذ يحقر جليل الأشياء لديه، ويصغر عظيمها في عينيه، ويودع في طبعه النفرة من كل فضيلة غابت عنه، ويشوه وجه كل وسيلة يجب اتخاذها لنيل المطالب وكسب الرغائب، وينفخ في صدره بأنه من أفضل الناس سيرة وأحسنهم خلقًا وأطيبهم ذكرًا. ويبرز له ذاته وأفعاله في صورة تروق نظره وتسر فؤاده.

وبالجملة، فلم نر إنسانًا حاز مع هذه الصفة كمالاً حقيقيا أو اكتسب محمدة وفخاراً. وما ألفينا من أمة اتصفت بها وأصابت عزا أو صادفت إقبالاً. ولهذا فإن قوم التمدن براء منها، ليس فيهم من نمام أو مغتاب أو منافق أو منتقد يحفظ السيئات ليذيعها، إلا قليلاً لا يعتد بهم، فإن لكل واحد منهم شأنا يغنيه ومصلحة يسعى لاجتلابها وقصداً صحيحًا يجد في الحصول عليه.

كل هذا نعلمه ونتحققه، فكيف بعد ذلك نستمر على ملابسة تلك الصفة الرديئة، ونحن أحوج الناس إلى انتباذها ومعاداة أسبابها والعدول عن الاشتغال بها إلى النظر في أحوال أنفسنا ومصالحها، والتفرغ لجلب كل ما يكسبنا المحامد الحقيقية ويبلغنا إلى محجة الرشاد!

لا شك أننا نلام عليها من كل الجهات، وتذمنا بها ألسنة العقلاء، فلا ينبغي لنا البقاء عليها ولا التقرب منها، فإنه لا يجمل بالعاقل أن يعلم القبيح ويأتيه، ويدرك الضار ولا يتقيه، بل ليس من العقل في شيء البقاء على أمر لا تحسن عقباه، ولا يلد سوى شرور ومضرات. نسأل الله سلامة منها وخلاصاً.

فسحة التمثال

عند مركز ضبطية العاصمة (٧٧)

هي مجمع الأوباش ومحط رحال المشعوذين، ومجال فسيح يتسابق فيه أعوان البطالة ويجتمع في حافتيه ذوو الأخلاق الفاسدة والمدارك المنحطة. . وهذا مع كونها في وسط المدينة، وتحفها أشهر المراكز المهمة منها، كديوان الضبطية والمحكمة المختلطة وشارع الموسكي، أكبر موضع تجاري فيها، وعلى مقربة من مركزي البوستة والتلغراف، وفي طريق الذاهب والآيب من حديقة الأزبكية وغيرها من محلات الاجتماعات العمومية للوطنيين والأجانب.

وكان من اللازم أن تطهر من تلك الأدران الوخيمة وتبعد عنها أقدام الدجالين ذوي الشعوذة والفساد، لا أن نراها من صبيحة كل يوم إلى مسائه غاصة بجماعة الحواة والطبالين وضاربي الرمل والودع وكاشفي ما في الضمير ومستطلعي علوم الغيب، مع رداءة أحوالهم وضيق معيشتهم وقذارة أبدانهم وملابسهم (فأين يكون لهم علم الحاضر فضلاً عن الغائب).

فإن وجود هؤلاء الأراذل بتلك البقعة، فضلاً عما فيه من إخلال النظام قد أغرى كثيرًا من ضعفاء العقول (وهم السواد الأعظم في كل بلد) على ترك أشغالهم والاكتفاء بهذه العصابات ـ عصابات الشر والفساد ـ حتى إن الألوف من الصبيان والفتيان ليمرون بهذه الجموع الخبيثة في ذهابهم إلى المكاتب أو حوانيت الصناعة للتعليم، فتستوقفهم المضحكات والتمويهات، وتستميلهم الهذيانات، فيميلون إليها وينكبون للتفرج عليها، ويتركون ما كانوا يذهبون إليه من المكتب وحانوت

الصنعة، وآباؤهم المساكين يعتقدون أنهم يتعلمون. وهذا فى كل يوم لا ينفكون عنه، بل ويدعون إلى مشاركتهم فيه كثيراً من أندادهم وأترابهم.

ولذلك نرى هؤلاء الأخلاط كل يوم تزداد جموعهم ويكثر المتفرجون عليهم، من رجال ونساء وأطفال وشبان. ولا يخفى ما يلحقهم بذلك من المضرات التى لا تكون قاصرة عليهم، بل تتعدى إلى والدى الأطفال، ولا تسلم منها العامة.

أما المضرات التى تنالهم من الانقطاع عند هؤلاء الدجالين، فلأن الغلام إذا ألفت حواسه الوقوع على النقائص، وتعودت أذناه سماع الأراجيف والأوهام الكاذبة، وكثرت مشاهدته لدنيئات الأعمال، انطبع فى فطرته استحسانها وأثرت فى عقله تأثيراً شديداً، ودعته حاسة التقليد إلى التشبه بفاعليها، وانشغلت أفكاره بحفظ ما يشاهده منها، ويكون ولوعًا بروايتها لأمثاله المجاورين له فى المنزل أو الحانوت أو المكتب.. فيكون ذلك أدعى الوسائل لانتشار الخرافات والخيالات الفاسدة ومضلات العقول. وأى ضرر أكبر من هذا..

وذلك مع ما تتعوده ألسنتهم من الفحش فى القول والتكلم بما يأباه الأدب والشرع، لما يسمعونه من أولئك الدجالين والأسافل الذين يجب قطع دابرهم من الهيئة الاجتماعية، خصوصاً وأن نفوسهم ترتاح إلى ترك العمل وملازمة الملاهى واللعب، فيشبون وهم أدنياء الطباع فاسدو الملكات منحطو الأفكار، ولا يعلمون من الصنائع ما يقوم بحاجاتهم المعاشية. وهذا ما يدعوهم إلى التسول والشحاذة. ومن لم يرض منهم بذلك يكون لصا مختلسًا أو قواداً فاجراً، وقد يكون خلفًا لهؤلاء الأقوام المشعوذين بأن يصير حاويًا محتالاً، أو طبالاً مهذاراً، أو ضماراً كذّابًا(٧٨)، وبئس المصير أيًا كان..

وإذا كثر المتسولون ذوو البطالة وأرباب الحرف السافلة - كهذه - فى أى بلد كان، خصوصًا إذا كانوا صحيحى البنية والأجسام، قلت موارد ثروتها وساءت معيشتها. فإن الأيدى العاملة لا تقدر على استحصال معيشة لصاحبها إلا بعد عناء وجهد، فضلاً عما يحمل على كاهلها من المعوذين والمتسولين ومن لا عمل لهم إلا ما يضر بالعقول ويخل الآداب.

وزيادة عما فى هذه الفسحة من تلك الأقوام، فإن أطرافها مكتنفة بكثير من

الفحش والأرجاس. وقد خصصت على جوانبها بعض القهاوى لأقبح الأعمال، يعلمه الناس، ولكن لا يليق ذكره، إلا أنه يجب التنبيه لإزالته. وإنا نكتفى بهذا التنبيه مؤملين أن رجال الضبطية يسعون فى إزالته بتعنيف كل من يوجد فى تلك المحلات وتغليظ عقابه.. فإن هذه الأمور الشنيعة مما لا يصح التساهل فيها بوجه من الوجوه. ولو أنه وقع فى بلاد قوم متوحشين لا يعلمون شيئا من شعار الأدب وأصول الديانات لما سكتوا عليه ورضوا بانتشاره فيما بينهم، فضلاً عن وقوعه فى مدينة متشرعة بدين نهاهم عن إتيان كل قبيح والبعد عن جميع ما يخالف نواميس الإنسانية كهذا الفعل الشنيع، وانتشرت فى أرجائها المدارس الأميرية والأهلية التى تنور بمعارفها كثير من النجباء والفضلاء، وغصت مراكزها بالأمم المتمدنة التى تشدد النكير علينا لسكوتنا عن تلك الرذائل وتركها تفشو بيننا.

فلا يصح إذن لرجال الضبطية أن يمروا بهؤلاء الأقوام فى الغدوة والمساء، ويتركوهم وشأنهم، لا يبدون نكيراً ولا يظهرون نفرة. بل يجب عليهم أن يسعوا فى إزالته بقدر ما يمكن من الأسباب والوسائل، وألا يدعوا أرباب تلك الحرف المشئومة مسترسلين مع أهوائهم وأميالهم الباطلة. فقد عم بلاؤهم وسرى فساد أحوالهم للألوف من الشبان والفتيان، وغلت أيدى الكثير منهم عن الأعمال، حتى التجئوا إلى المهن المنحطة واندمجوا فى سلك المتسولين والمختلسين.

وقد كثر، لهذه الأسباب وغيرها، عدد المتسولين فى شوارع المدينة، ينغصون على الناس معيشتهم بثيابهم القذرة وهيئاتهم المشوهة، وإلحاحهم العنيف، مع أن نظارة الأوقاف قد أنشأت على نفقتها تكية فى «طرة» ليتعيش فيها ذوو العاهات والأمراض الذين تعودوا الشحاذة، وكتبت إلى الضبطية منذ زمن بأن تقبض على جميع المتسولين المرضى وتبعث بهم إليها ليستريح الناس من عنائهم. فأخذت الضبطية يومئذ باتباع ذلك، وأرسلت كثيراً منهم إلى تكية «طرة»، وحجرت الأشخاص الذين يستطيعون السعى إلى معاشهم حتى تعهدوا بألا يعودوا إلى التسول، ولكن عاد الأمر إلى ما كان عليه قبل، وغصت طرق المدينة بأقدام الشحاذين من المرضى وغيرهم، يكرهون الناس على إعطائهم ما يسألون تفادياً من أذاهم وشناعة صورتهم، ولا يجدون فى طريقهم من معارض أو مدافع،

ولا يعفون من سؤالهم الشرطي أو العامل أو التاجر، حتى تكدرت الخواطر، وانقبضت النفوس من كثرة انتشارها.

وليت رجال الضبطية يعودون إلى عملهم السابق، فيرسلون ذوى الأمراض منهم إلى تكية «طرة» ويقبضون على القادرين على التعيش الذين يسألون الناس إلحافًا، فتستريح العامة من مقاضاتهم التي تستغرق النهار ولا يخلو عنها جزء عظيم من الليل.

وجميع ما طلبنا إزالته فى هذه الجملة لا يحتاج إلى عناء، ولكن يحتاج إلى عناية وتجاف عن مراقد الإهمال والكسل وابتعاد عن التساهل فى أداء الوظائف، فإن نفراً قليلاً من رجال البوليس يكفي لاستئصاله فى أقرب وقت لو نظرت إليه الضبطية بعين الاهتمام وعلمت أنه من الأمور الواجب عليها إزالتها.

وإنا نعلم أن حضرات موظفى قلم المخالفات وجناب مفتش البوليس لا يرضون لأنفسهم أن ينسبوا إلى التقصير فى تأدية وظائفهم والتساهل فيما يجب عليهم. ونحن على يقين من أنهم سيهتمون بإزالة ما بيناه فى هذه الرسالة، ويتداركون إصلاح ما سبق التنبيه إليه، ليتسنى لنا أن نأتى فيما بعد على ما يلزم إزالته مما لم تسمح الفرصة بذكره الآن. وفقهم الله إلى ما فيه تقدم البلد وصلاحها.

انتقاد فى غير موضعه [(٧٩)]

من مدة أخذت نظارة الأشغال العمومية في إنشاء مذبح منتظم بمدينة القاهرة، تحفظ به تلك المدينة من انتشار الأقذار فى نواحيها، تفسد هواءها وتضر بصحة سكانها. وهو أمر طالما نبهت عليه الجرائد وحثت على العناية به بعد شكاية العموم من إغفاله.

على أن الجزارين مكلفون بدفع عوائد تعرف بعوائد الذبيح. فإن لم يكن لهم مذبح منتظم ينقى الأقذار ويخفف الأتعاب فلا حق للحكومة فى أخذ هذه الرسوم منهم.

وقد يعد القوم المتمدنون وجود المذابح المنتظمة من زينة البلاد ودلائل عنايتها بتنظيم شئونها. وأقل ما فى ذلك المحافظة على الصحة العمومية التى هى أجل مقصد تقصده الحكومات المنتظمة.

وبعد هذا.. فمن غريب ما سمعناه متواترًا عن بعض كبار الموظفين فى الحكومة (وفى أذهان الناس أنه الذى قدمه علمه وحسن تربيته، وتنسب إليه بعض التآليف فى بعض الفنون) أنه يندد بين مجالسيه بهذا المشروع الذى يحسب عملاً مهما من أعمال الحكومة، ويزعم أن المصاريف التى تنفق فى إنشاء المذبح من قبيل التالف الذى لا نفع له.. كأنه لا يعلم أن إيراد المذبح السنوى يبلغ أربعة عشر ألف جنيه. فلو صرف على إنشائه عشرون ألفًا مثلاً لرجع إلى الخزينة أضعاف ما صرف عليه فى بضع سنين، مع ما فيه من الفوائد التى قدمنا ذكرها. فيا للأسف إن كانت هذه

أفكار المنسوبين إلى المعارف منا، فبماذا نلوم على العامة وأصحاب الجهالة إذ ينطقون بما لا يعقلون؟!

لكنا نقول: ليس هذا بغريب.. فإن الجمهور الأغلب من العامة والخاصة كان قبل هذه الأوقات بقليل لا يدرى ماذا تصنع الحكومة، ولا يعلم حساب ما كانت تنفق في العمارات التي كانت لا تتم حتى تهدم بدون أدنى فائدة، ولا يوجه لذلك فكر، ولا يبدى أى انتقاد.. فهذا فضل من الله عظيم، إذ تنبهت الأفكار فى عامين والتفتت إلى الأعمال الجارية فى البلاد تنظر فى المفيد منها وغير المفيد، وإن أخطأت فى الحكم وغلطت فى الانتقاد.

على أنا نعلم علم اليقين أن صاحب هذا الانتقاد وأمثاله لو فوضوا إليه أى عمل من الأعمال المهمة لما استطاع أن يؤديه بما دون الكمال، فضلاً عن إبلاغه إليه. وقد سبق تفويض مهام من الأعمال إليه فكانت له اليد الطولى فى نقص الإيراد واختلال العمل.

ويا ليت أمثال هذا المنتقد ممن لا يعلمون قيمة الأعمال وأهميتها يدققون الفكرة ويمعنون النظر فى المصالح الحقيقية بدون قذف بالأقوال على غير فائدة إلا شحن الأذهان بفاسد الأفكار.

وإننا نأمل بعون الله تعالى ومساعدة التهذيب العمومى والاطلاع على أحوال الأمم وتواريخ العالم حاضراً أو ماضيًا أن تنتقل الأفكار من خطة الانتقاد المحض وعدم الدقة فى كونه صحيحًا أو فاسدًا إلى التأمل الصادق والنظر الصحيح المؤدى إلى الوقوف على الحقائق، فيوجد بيننا عقول رزينة ونفوس حكيمة، كما انتقلت من غيهب العماء الصرف إلى غلس الانتقاد المشوب بفساد كما سبق. حقق الله الآمال وأصلح الشئون والأحوال.

الخـــــرافات (٨٠)

إن التخاريف التي تعتقد الأوهام أنها مما جاءت به الشرائع وقررته الأديان لا تخلو منها أمة من الأمم، حتى التي اتصفت بالتنور والتقدم في العلوم والمعارف. فأذهان العامة من كل قطر مشحونة بها. وهم يعتقدونها كأصل ديني وعقيدة شرعية. لا خلاف في ذلك بين عامة الشرق والغرب، بل هي في البلاد الغربية أدخل منها في بعض البلاد الشرقية وأشد تمكنا ورسوخا. بل يوجد في علمائها من يعتقد بها بما هو من هذا القبيل اعتقادا لا تزلزل فيه ولا ارتياب. يدلك على ذلك وجود فريق كبير ممن درسوا العلوم في أوروبا يفرغون الجهد للوقوف على أسرار الأرواح واتصالها بالملإ الأعلى لتكشف أخبار المغيبات عند استعمال التنوير الكهربائي المعروف عندهم (مانيتزم). فهم يسلمون بصحة هذا الاطلاع ويتيقنون بصدقه. غاية ما في الأمر يريدون استكناه علله وموجباته، مع أن الاطلاع على المغيبات بهذه المثابة أمر واضح البطلان. لا يصح في عقل ناطق، فضلا عن قياس عالم درس الفنون ووقف على حقائق الأمور. وكذلك يوجد كثير من أهل العلم في البلاد المتمدنة يذهب إلى صحة علاج الأمراض بمس اليد على المريض وشبه ذلك. وجم غفير من الفلكيين في أوروبا وأمريكا يعتقدون بالتنجيم وتسلط الأرواح العلوية على السفلية وتأثير خواص الأفلاك والنجوم في الحوادث الأرضية، وأن لاقتران الكواكب في المنازل والمطالع واقترابها فعلاً في العناصر والمواليد الثلاث، وغير ذلك مما هو من خرافات القدماء، ولا ينطبق على عقل أو شرع، بل تكذبه البداهة الفطرية. غاية الأمر حكم الوهم أو الجهل أو التوارث في العوائد على الأذهان باعتقاده.

وليس تحقق هذه الخرافات عند عامة قوم أو بعض خاصتهم بمانع من اتصافهم بصفات التنور والاستبصار، فإن المعول عليه في تقدم الأمة ونمو أذهانها وتنور بصائرها إنما هم الأكثر من أوساطها وأعاظمها، ولا أوباشها وعامتها. فإن سلمت فيها أذهان الأوساط فمن فوقهم وصحت تصوراتهم وصفت بالتقدم في مراتب الكمال، وإن كان عامتها على جانب من الجهل ونوع من التخريف فإنهم لا يمنعون تقدما ولا يحجزون تمدنا متى صلحت أحوال من فوقهم من الطبقات. إذ يتقوى الأمل بشمول المعارف جميع الآحاد بواسطة عموم التربية بالتدريج.

ولهذا فإنا لا نرى معنى لإصرار مُكاتب (المحروسة) بالمنصورة على إثبات مسألة الغلام الذي زعم أن أهله بكوه وندبوه لانتظامه في سلك تلامذة المدرسة الأميرية، وتقرير مسألة الدجال الذي زعم أن له بيتا في أحد شوارع البندر تتزاحم الناس على بابه، وقد شاهد كثيرا منهم وقوفا به وفيهم حكيمة البندر، والنساء يدخلن فيه إلى ذلك الدجال ويتركن بالباب أزواجهن وخدمهن، مع ما في عبارته من ظاهر التعميم ومس الأعراض لجماعة محصورين بوجه لا يليق أن يحكى باللسان فضلا عن أن ينشر في الجرائد. فإنه أطال القول في الرد على من كذب هاتين المسألتين ونفى تزاحم الناس على باب ذلك الدجال، خصوصا الوجوه وربات الفضل والمعرفة مثل حكيمة البندر، وكون منزله في أحد الشوارع.

ولم يكتف مُكاتب (المحروسة) بما ذكره أولاً، بل حاول إثبات ما سبق إليه قلمه بعبارات تبين في بعضها عدم الصحة حيث قال: إن المدافع عن شأن بلدته صادقني على مسألة الدجال، وأتعب نفسه في تعيين مكان المصادقة وتشخيصه، مع أن ذلك المدافع كذبها، غاية ما في الأمر اعترف بوجود الدجال في منزل خارج البندر بعد ما نفى اختلاف النبهاء إليه وتزاحم المخدرات على أبوابه، وذلك لا يقال إنه اعتراف بما ذكره من سعي المصونات إليه ووقوف خدمتهن على الباب، حتى يطير به فرحا، ويتخالع في تعيين موضع هذا الاعتراف من رسالة المدافع.

على أنه ما الفائدة وما حسن القصد في إثبات شيء معيب نفاه آخر؟ وما هي الغاية في إظهار أن بذلك البلد خرافات وبين أبنائها دجالاً تجتمع عنده ربات الخدور وغيرهن من ذوات الاعتبار، ومحاولة تحقيق ذلك بالصدق وبغير الصدق؟ نعم..

إنه يحسن التنديد بالأوهام الفاسدة، ولكن أي حسن وأي أدب في تعيين ذويها وتشخيصهم بصفاتهم الخصوصية؟ وأي ثمرة من إقامة الأدلة على صحة وجودها وصدق ثبوتها بعد انقضاء زمن الوقوع وتنبه الأذهان لقبحها من نفس تكذيبها؟! أليس التعيين والتشخيص بالصفات الخصوصية في مقام التنديد والتشوير من قبيل الذم الشخصي الذي لا يسوغ فيه لأي إنسان، فضلاً عن مكاتب جريدة يلق به أن يكون أدوبًا لطيف المقال بعيداً من الذهاب مع الأهواء والمضي وراء الأغراض؟!

وقصدنا من هذا التنبيه أن مثل المشادة فيما لا فائدة فيه ولا عائدة، خصوصاً إذا مس جانب الأعراض وأخل بشأن الأدب لا يليق بمكاتبي الجرائد الاشتغال به، بل لا ينبغي للجرائد الوطنية قبوله ونشره، فإن صحفهم لم توجد للتشوير والتعيير، ولم تنتشر للذم وخدش الأعراض، بل الواجب أن تنبه على العادات والأخلاق وتبين ما فيها من الحسن والقبح بدون تعيين ولا قدح يخدش الشرف ويشين العرض. ونظن أن غير ذلك لا يليق بشأنها إذ ينفر العقول المتنورة منها كما هو غير خاف. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

لجنة إعانة الحجاج (٨١)

في علم الكافة أنه ظهر وباء الكوليرا (الوباء والهواء الأصفر) بأرض الحجاز، والحجاج من كل البلاد الإسلامية نازلون به، فخاف الناس شروره، وتولى أفكارهم الاضطراب. فتقدمت الحكومة المصرية السنية إلى اتخاذ ما يدفع هذه الشرور ويخفف ذلك البلاء عن تلك الأراضي الطاهرة، وسعت إلى هذا القصد بغاية جهدها. وكان من جميل صنعها أن أرسلت للحجاج أطباء وصيادلة وعقاقير أدوية، وسيرت وابوراً يقيم في الوجه والطور لتقطير المياه وتصفيتها لكفاية الحجاج عند إقامتهم بتلك الجهات لقضاء مدة الكورنتينات التي سيحتم إجراؤها على وجه يبعد الداء ويقي من شر الوباء، وبعثت غير ذلك مما وسعته أيديها.

ولكن لم تقف الشفقة والحنانة بالحكومة - أيدها الله - عند هذا الحد، بل أخذت ترتاد من وسائل وقاية حجاج بيت الله الحرام الذين اقتحموا الأخطار وتحملوا مشاق الأسعار في سبيل القيام بما أوجب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام كل ما يدفع عنهم هذه الملمة وغوائلها ويسد حاجاتهم من المآكل والملابس والأدوية التي يفتقرون إليها مدة ضرب الكورنتينات عليهم ومنعهم من التقدم في السير إلى البلاد المصرية قبل التحقق من زوال هذا الداء عنهم، كيلا يأتوا به إليها، فيتسع الشر وتنتشر المضرات. فأصدر جناب خديوينا الأفخم أمراً عالياً بتشكيل لجنة خيرية في مصر وإسكندرية لتجمع من ذوي المروءة والنجدة ما يقي إخوانهم من مواقع هذا الداء وسقطاته، فتقبل أرباب الهمم العالية هذا الأمر بقلوب الامتثال، وشكلوا لجنة عمومية جعلت رئاسة شرفها لحضرة صاحب الدولة شريف باشا رئيس النظار وناظر الداخلية، وجعل رئيس إدارتها سعادة خليل باشا يكن، وكيل نظارة الداخلية

الجليلة. أما أعضاؤها فهم حضرات قاضى أفندى مصر، والأستاذ مفتى الديار المصرية الشيخ عباس المهدى، وأصحاب السعادة إسماعيل باشا أباظة، وسالم باشا رئيس مجلس الصحة العمومية، وأحمد بك نشأت ناظر الدايرة السنية، ومحمد بك مختار من ميرالايات أركان حرب، والسيد أحمد السيوفى من معتبرى تجار مصر ووجوهها. وانتظم فى سلكها من أعاظم الأوروباويين حضرات بلوم باشا وكيل المالية، وليون دورول، والمسيو فتش جرالد مدير الحسابات، وبروللى بك، وقطاوى بك، وموسيو براويلى، أعضاء صندوق الدين، وإمبراوز سنادينوه مدير البنك العمومى المصرى، وموسيو فريدريجى مدير البنك العثمانى.

وقد عقدت هذه اللجنة أولى جلساتها تحت رئاسة سعادة رئيس إدارتها، وقررت وجوب تأليف لجنة إدارية يكون رئيسها الأول سعادة خليل باشا يكن، ورئيسها الثانى سعادة سالم باشا، وأعضاؤها حضرات: إمبراوز سنادينوه، وليون دورول، ومحمد مختار بك، والسيد أحمد السيوفى، وكاتبها الأفرنجى موسيو أمبير رئيس قلم أفرنكى الداخلية، وكاتبها العربى شافعى أفندى من كتبة الداخلية. وتكون وظيفة هذه اللجنة النظر فى جميع ما يلزم إسعاف الحجاج به فى جهة الوجه، وتنفذ جميع ما تراه موافقًا لحالتهم وسادًا لحاجتهم نيابة عن اللجنة العمومية. وتقرر أيضا وجوب الإسراع بأخذ ستة آلاف جنيه من خزينة ديوان الأوقاف باسم سلفة تسددها إليه من وارداتها، وأن يكون بين هذه اللجنة وبين اللجنة المشكلة فى سكندرية تحت رئاسة سعادة محافظها عمر باشا لطفى ارتباط ومبادلات أخبار ووفاق فى الأعمال. وطلب من لجنة سكندرية المذكورة ألا تنظر فى غير ما يتعلق بثغرها، بحيث لا تتعداها إلى غيرها. وقد أخبر سعادة محافظ سكندرية، الذى هو رئيس لجنتها بما قررته لجنة الإدارة تحت مباشرة رئيسها الأول، وطلب منه أن يبعث بجميع ما تيسر له جمعه من ذوى البر والإحسان وبألا يدع اللجنة ترسل قوائم اكتتاب لجهات أخرى خارجة عن الثغر، فإن هذا من خصائص اللجنة العمومية.

وبعد هذا عقدت اللجنة الإدارية جلسات عديدة تحت رئاسة سعادة سالم باشا، رئيسها الثانى، وعينت من يلزم من الصيادلة والخدمة والمأمورين، وقررت بأن ينشأ بالوجه مستشفى يسع خمسين مريضًا، وتكية لإطعام الفقراء تسع خمسمائة فقير،

وأن يودع فى كل منهما ما يلزم له من الأدوية والعقاقير، والفرش والأغطية والمأكل والمشرب، وغير ذلك من الضروريات. وقد أخذ فى شراء هذه اللوازم بمساعدة محمد بك السيوفى من تجار مصر الأعيان بأثمان لائقة وقيمة مناسبة، وطبع ألف قائمة للاكتتاب منمرة من واحد فما بعده إلى الألف، ووزعت على الجهات لجمع الإعانة بها من أهل البر والإحسان.

وقررت هذه اللجنة ضمن جلساتها أن يكون مع المأمور الذى يتعين من لدن اللجنة لمباشرة أحوال الحجاج نقود كافية لاشتراء كل ما تدعو الحاجة إليه من المكان الذى يكون مقيمًا فيه، وأن يكون سفر فقراء الحجاج من أى صنف كانوا إلى بلادهم على نفقات هذه اللجنة من دون فرق بين أن يكون سفرهم برا أو بحرا، فتجمع بذلك كله بين وجوه البر وطرائق الإحسان. ولا غرو فقد تكفلت هذه اللجنة بسعيها عند أهل الخير بحفظ صحة الحجاج ومداواتهم وإطعام فقيرهم وإيواء ضعيفهم وتشييعهم إلى بلادهم بحيث لا يتكلفون شيئًا من النفقات.

فعلى أهل المروءات وأرباب الخيرات أن يسارعوا إلى مساعدة إخوانهم وإنقاذهم من بين مخاليب الاحتياج وأنياب الوباء، ويؤدوا من أموالهم ما تطرز به أسماؤهم على صفحات الجرائد ويخلد لهم الذكر الجميل ويقيم لهم فى الدار الآخرة منزلة عالية بما صنعوا من المبار وما دفعوا عن إخوانهم من المضار. ولا نشك فى تسابقهم إلى قوائم الاكتتاب يكتبون فيها ما يثنى عليهم به لسان الزمان قربا لله ورسوله، واقتداء بجناب خديوينا العزيز ووزيره الشريف وبقية رجاله الكرام، أيد الله توفيقنا وأبقاه قدوة فى كل عمل مبرور وسعى مشكور.

الانتقـــــاد (٨٢)

ما وعظـــك مثـــل لائم　　　وما قَوّمــك مثل مقــاوم

الانتقـاد نفثـة من الروح الإلهي في صـدور البشـر، تظهر في مناطقهم، سـوقًا للناقص إلى الكمال، وتنبيهًا يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به. الانتقاد قاصف من اللائمة تتنفس عنه القلوب، وتنفتق به الألسنة، لتقريع الناقصين في إهمالهم، ودفع طلاب الكمال إلى منتهى ما يمكن لهم.

جعـل الله للحيــاة قوامًا　　　وقـــوام الحيــاة بالإدراك

إنما الإنسـان كـون عـقلي، سلطان وجوده العـقل، فـإن صلح السلطان، ونفـذ حكمـه، صلح ذلك الكون وتم أمره. إن الله لم يهمل العـقل من ناصـرَين عـزيزَيْن حاذقَين، أحدهـما: له، والثاني: له وعليه. أما الأول، فما قرن الله به من غريزة الميل للأفضل، والاصطفاء للأمثل. وأما الثاني، فما ألزمه الصانع من الانقباض عن الدون، والنفور عن منازل الهون. فذاك يحدوه، وهذا يسوقه. وذاك يزين له الطلب، وهذا يزعجه إلى الهرب. وكل منازل العقل صعود إلا أدناها فعجز يقف بأهله على شفير العدم، وكل منزلة بعد الأدنى دنو من الكمال. غير أن ما يسمو إليه العقل، أشبه بما ينبسط إليه الوجود، يمتد إلى غير نهاية، ويرتفع دون الوقوف عند غاية، فليس يصل منتجع الكمال إلى مقام إلا ويرمي بطرفه إلى أبعد منه. ومساقط العجز وبيئة المقام، كثيرة الآلام، تستوكرها[٨٣] أفاعي الهموم، وغائلات الغموم. وقد جعلها الله من وراء العقل كلما التفت إليها راعه هول منظرها، فتحفز عنها، إلى منجاة منها، ولا يزال يزجيه الخوف، وتطير به الرغبة، حتى يدنو من رفرف السعادة الأعلى.

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غَرَّارة، وظواهر خَتَّارة[٨٤]، فتخالها طُلْبتها، وتحسبها منيتها، ولا تدرى أن بها هلكتها، وفيها منيتها، فمثلها مثل الطير ينظر إلى الحَبِّ المنثور، ويغبى عن الفخ المنصوب، فإذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل، أو مثل المفترس يلوح له لائح الفريسة، ولا يشعر بما أعد له صائده، فإذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله، وأعجله عن مأكله.

لهذا وكَلَ الله بالعقل منبهًا لا يغفل، وحسيبًا لا يهمل، وكالئًا[٨٥] لا ينام، يزعج الواقف، ويحث المتريث، ويمسك الواجف. ما سكن ساكن إلى حال، ولا قنع قانع بمنال، إلا هتف به: إن ما تطلب أمامك. ولا أوغل موغل فيما لا ينفعه، ولا أوضع موضع إلى ما يضره، إلا صاح به: تعست الجدود، وأضرعت[٨٦] الخدود، فخفض من سيرك، وقوم من سيرك، وإلا فالذل مقيلك، والهلكة مصيرك. ذلك الواعظ الحكيم، والمؤدب العليم، هو (الانتقاد)، ينبث في الفؤاد، ثم يتجلى في البيان، على أسلة اللسان، فيفقهه العالمون، ولا يهمله العاملون، ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم: ٣٠)، أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره، أشد إحاطة من بصره بشأن نفسه، ومكن كلا من تمييز أحوال الآخر، حسنها من قبيحها، وفاسدها من صحيحها، ثم دفعه للنطق بما ألهمه، والقضاء بما أحكمه، فكان لكل إنسان أبصار بعدد الناظرين إليه، والعارفين بما عليه عمله، كلها كبصره تريه الخير فيطلبه، وتكشف له الشر فيجتنبه، وجعل الله الناقدين أقسامًا، فمنهم ناظر إلى الفضل لا يعدوه فهو يذكر المنقبة، ويغض عن المثلبة، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الأصدقاء. ومنهم رقباء النقائص وجواسيس العيوب. يروون المساءات، ويسكتون عن الحسنات، وفيهم الحساد، وأهل الأحقاد. ومنهم ناظرون بالعينين، عارفون بالوجهين، يذكرون للكمال نبله، ويلزمون النقص ويله، وهؤلاء في أعلى المنازل، وفيهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله. ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون، ويهرفون بما لا يعملون، وهم في أخس المنازل، وليس في الناس إلا من تجتمع هذه الأقسام له وعليه، وما جعل الله بشراً يسلم منها، ويحرم من بعضها، فكأنها التي قال فيها: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١) وكلها صدى صوت الكمال الإلهي الأعلى، ينادي الكاملين أن يستزيدوا، والناقصين أن يستجيدوا.

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه؟ أو لجاهل أن ينكر حكمة الله في تقييضه[٨٧] لنا؟ أو لواهم أن يذهب إلى أنه ليس من نظام الفطرة؟ وإني أحيلك على خواطر نفسك، إذا بلغك - وأنت غربي مثلاً - أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه، أو استصفى أموال رعيته، أو كلفهم ما لا يطيقون احتماله، أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها، أو جبن عن حادث ألم به وكان يستطيع دفعه. ألا ترى من قلبك امتعاضًا عليه؟ ومن نفسك ازدراء بعمله؟ وفي لسانك لهجة بلومه؟ وهو منك على بعد المشرقين. ولئن وصلت إليك روايات عدله، ورعايته حقوق بلاده، وحفظه لذمامه، وجدت إليه من فؤادك ميلاً، ومن رأيك لعمله استحسانًا، ومن لسانك عليه ثناء.

ولو شئتَ حاكمتُك إلى مذاهب ميلك، عندما تنظر في تاريخ لمن سبقك، فإن مَثَّل لك النظرُ فضلا في سيرَة، أو خزية في جَريرَة، ألست تجد من نفسك انبساطًا إلى فواصل الغُرَر؟ وانقباضا عن مخازي العُرَر[٨٨]، ثم انطلاقا إلى نشر ما وجدت ثم رأيت عضداً منك لأحدهما، كأنه قائم يستنصر فأنت تنصره، وتغيظ على الآخر، كأنما يدعوك لعونه فأنت تخذله.

لا جرم أن النقد نائرة[٨٩] غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين، وكل نقد فحشوه لوم، حتى ما كان منه قاصرا عند بث المحمدة، والإقرار بالفضيلة. فإن حمد الكامل عذل للناقص على التقصير، وإزعاج للمحمود وزجر له عن ملابسة الأعياء، فكأني وصاحب الثناء يقول: ألا أيها القاعدون انهضوا، ويأيها المبرزون اركضوا، واحذروا الوقفة فإنها بداية القهقرى. تلك أقلام الحق، في ألسنة الخلق، لا يصم عن ندائها إلا أصم، ولا يغبى عن إنذارها إلا أبهم[٩٠].

على ذلك قام النظام الإنساني، فلولا الانتقاد ما شب علم عن نشأته، ولا امتد ملك عن منبته. أترى لو أغفل العلماء نقد الآراء، وأهملوا البحث في وجوه المزاعم، أكانت تتسع دائرة العلم؟ وتتجلى الحقائق للفهم؟ ويعلم المحق من المبطل؟ أو لو أغمض الأصدقاء والأولياء عن سياسة السائس، وتدبير الحاكم، وهجروا النظر في قوة الملك، ولم يقرعوا كل عمل بمقامع النقد، أكانت تستقيم محجة؟ وتعتد حجة؟ أو تعظم قوة؟ كلا.. بل كان يتحكم الغرور، وتتسلط الغفلة، ويعود

الصــواب خطلا، والنظام خللا، تلك سنة الله فى الأولين، وهى كــذلك فى الآخرين.

فالمغبوط فى حاله من يستمع قول اللائمين، ويستطلع خواطر المعترضين، ويتصفح وجوه المتنكرين، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته، ويتحفظ من آفاته، وليس فيما يملك الحازمون أنفس لديهم، من الإنحاء[٩١] عليهم بما ينبههم إذا غفلوا، ويعلمهم إذا جهلوا، ويهديهم إذا ضلوا، وينعشهم إذا زلوا. وكما توجد نفائس الإرشاد هذه عند الأولياء، توجد عند الأعداء، بل هى عند هؤلاء أجود، فإنهم يرفعون للمعايب أعلامًا بينة حتى لا تعود فيها شبهة لناظر، وأحجى بالعقل ألا يمج من الانتقاد شيئًا، حتى أكاذيب أهل الضغينة، ورجوم ذوى السخيمة[٩٢]، على مخالفتها للحقيقة، فإن أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالح تقام فى الثغور زمن السلم، حذرا مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها، وأقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول: قيل فينا ولم نعمل، فكيف بنا لو عملنا؟! فهى إن لم تهده إلى مطلب ضل عنه، ولم ترد إليه فائتا كان ينفلت منه، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقًا، والباطل حقًا، فمن فسق لسانه، وخالف بيانه جنانه، وجاء بغير الحق فى ثلب غيره، فقد أفسد نفسه لصلاح عدوه. ولله ما يقول بعض الصوفية: جزى الله الأعداء عنا كل خير فلولاهم ما نزلنا منازل القرب، ولا حللنا حظائر القدس.

هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد، فظنوا صنع الله فيه عبثًا ـ نعوذ بالله ـ فوقروا عنه آذانهم، وعطلوا من ناحيته سمعهم، وجعلوا أصابعهم فى صماليخهم[٩٣] من صواعق زجره، وقواصف نهيه وأمره. وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجبًا، وأقاموا دونهم أستاراً، وخيَّل لهم الجهل أن صممهم عنه يقيهم منه، وأن قبوعهم فى أهَب[٩٤] الغفلة يدرأ عنهم سهام اللوائم، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع فى أشد مما خافوا، واندفاع إلى شر مما رهبوا. فمثلهم كمثل بعض الطيور إذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ظنا منه أنه متى أغمض عن طالبه أغمض الطالب عنه، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده، وسهل عليه كيده. ومن ثم نجدهم فى عمى عن شئونهم، وتخبط فى أعمالهم، قد لزموا خطة من الهون لو أبصر عقلهم بعض

أطرافها لماتوا جزعًا من هول ما فيها . كل ذلك وأسلات الألسن وأسنة الأقلام لا تألو في تقريعهم ، بل وصوت الحق الصريح يناديهم من عمائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لأنفسكم لو كنتم تعلمون . وكلهم عاتب ، وعدوهم عائب ، وهم في غفلة عن هذا ، بل لا يشعرون .

أولئك الذين ختم الله على سمعهم وطبع على قلوبهم ، فمرقوا من ناموس الفطرة الإلهية ، فهم أموات الأرواح ، مضطربو الأشباح ، ولا تنشق عنهم قبور الخمول حتى ينشرهم الله في حياة أخرى يخضعون فيها للأحكام الكونية ، ويعملون على السنن الإلهية ، فلينتظروا إنا معهم من المنتظرين .

رحلة فى صقلية

بلـــرم ـ صــقليــة (٩٥)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج : ٤٦).

قضت المقادير أن أغير خطة سفرى عن طريق مرسيليا إلى طريق إيطاليا . وكان لى فى ذلك خطان من السير، أحدهما: يمر «بيالرم»(٩٦)، ثم يصل إلى «نابولى»، ثم تكون الإقامة فى «نابولى» نحو أربعة أيام، ويعدو المركب بنا إلى «ماسينا»(٩٧)، ومنها يذهب إلى «الإسكندرية». والآخر ينتهى عند «بلرم» أو «باليرم»، وتكون الإقامة خمسة أيام، نذهب بعدها إلى «ماسينا» كذلك.

وكان بودي لو ذهبت مع الخط الأول، فكنت رأيت بلدانا كثيرة وآثاراً عظيمة تزيد فى علمى كثيراً مما لم أعلم إلى اليوم، غير أن بعض أصحابى قال لى: «إن «بلرم» هى عاصمة صقلية، ويوجد فيها من الآثار العربية ما يهم العربى أن يراه. وفيها داران للكتب لا تخلو كل منهما من كتب عربية قديمة، ربما يستغرق الاطلاع عليها زمنًا مثل الزمن الذى تقضى الضرورة بصرفه إلى يوم السفر إلى «مسينا». ففضلت النزول إلى «بلرم».

ولا أذكر الآن شيئا مما لاقيت من الحمالين وغيرهم من مستقبلى المسافرين، ولكن أعود إليه.

بعد أن أخذت مكانًا فى «نُزُل سنترال» بشارع «رومه»، خرجت لإيصال بعض رسائل التوصية إلى من أرسلتْ إليهم، فلاقيت منهم ما سرنى. وكان أحدهم

مُوَصىً بأن يسهل لي طريق زيارة «المكتبة العمومية» و«دار المحفوظات الرسمية»، والتمكن من رؤية ما يكون فيها، فوعدني بالمجيء في الغد لمرافقتي إلى المكتبة.

ثم بعد ذلك، بدأت بزيارة قصر الملك. ولا حاجة بي إلى وصفه، فإن ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب إظهار البراعة في حسن الوصف، وسعة العبارة. وغاية ما أقول إنه قصر أو (سراي) واسع، كبير البيوت، باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية، مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب، ولا شيء منها من كد الملك أو الأمير، وإنما هي من أموال الرعية، وكسب الحفاة العراة، الذين لا يجدون ما به يستترون، ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها. ما أنا بذاكر شيئا من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر، ولكن أذكر ما رأيت فيه مما يحب الشرقي أن يطلع عليه، إما لعبرة وإما لفكاهة.

ذهب بي حارس القصر أولاً إلى حيث توجد كنيسة الملك. ولا حاجة إلى وصفها كذلك. إلا لو كان الله يحب أن تزين له معابده، وتنقش لمجده مساجده، كما يحب ذلك ملوك الأرض. فوجدت في الممر الموصل إليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة:

«خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلمية، أَبّدَ الله أيامها، وأيد أعلامها، بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة.

ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة.

والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير)(٩٨) النرمندي، الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب، وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي، واليوناني، أما ميله في البناء والزينة فكان إلى الرسم اليوناني. ولهذا الملك آثار كثيرة في «بلرم». ويوجد كثير من المحررات العربية والصكوك مما كتب في أيامه. ويقال إن العرب كانوا في زمن «النرمنديين» ممتعين بحرية تامة في إقامة شعائر دينهم، وتصرفهم في شئونهم، وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة

لنقل أعمدتها الجميلة إلى الكنائس التى رأى تجديدها فى المدينة . ويظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا النرمندى كان عندما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب فى المدينة، ولم يحتقر ما وجد من آثار العلم، فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية، ويساعد القائمين بعملها .

رأيت فى خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقًا عربيا فى طول نحو ثلثى ذراع، وارتفاع ثلاثة أرباع الذراع، صنع من نحو ثمانمائة سنة، على ما يقول الحارس، وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجمل ما تراه عين الآن. وقيمته عند الدولة خمسمائة ألف فرنك. ورأيت فى أحد بيوت القصر بابا من الحديد مطليًا بطلاء أصفر جميل من أجمل ما يصنع من الأبواب، وهو من صنع أيدى العرب أيام دولتهم .

رأيت بيتا من بيوت القصر فيه صور نواب الملك فى عهد «البربون» بعد «النرمنديين»، ومع كل نائب منهم «كردينال»، كما كان للملوك «كرادلة» يصحبونهم ويشركونهم فى كثير من شئون الملك، لذلك كان النائب عن الملك يصحبه «كردينال» يرجع إليه فى أمور دينه وفى أعماله السياسية، أيام كانت الأحكام المدنية والسياسية مما يدخل فيه رجال الدين، كما نقول عندنا «المفتى» أو «شيخ الإسلام» فى عهد الملوك الذين لا تسمح لهم أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية، فيحتاجون إلى من يرجعون إليه من علماء الدين. غير أن «المفتى» أو «شيخ الإسلام» إنما يجيب عما يسئل عنه، أو يؤدى ما كُلّف به، أما «الكردينال» فكان يبتدئ المشورة، ويقترح المطلب، ويقيم نائب الملك على المذهب، ويكف يده عن العمل الذى لا يرضاه، ويحمله على بسطها فيما يتوخاه، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد، لا فصل فيه بين السلطتين، وهذا الضرب من النظام هو الذى يعمل البابوات وعمالهم من رجال «الكثلكة» على إرجاعه، لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم، وإن كان ينكر وحدة السلطتين الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم .

كان مما قيده بعض أصدقائى فى «جريدة»(٩٩) الأمكنة التى يرغب فى رؤيتها محل يسمى «بالدوم» أو القبب، فذهبت إليه، وإذا هو الكنيسة الكبرى التى تسمى

«كاتيدرال»[١٠٠]، رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس فى المدينة أو الولاية، وهى من عظمة البناء وبهجة الزينة على ما يطول شرحه. وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هو عليه، حتى بابه الخشبى الجميل. غاية ما فى الأمر أنه زيدت فيه الصور والتماثيل، وضروب أخرى من الزينة الكنيسية. ويمكن للناظر أن يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر، لأن رسم البناء على الطريقة العربية فى عامة المساجد.

زرت بعد ذلك ديرا يسمى دير «سانت جوانى»، وهو مما كان قد كتب فى «جريدة» الأماكن. ولم أر فيه شيئا سوى أن أسفل الدير كان مسجداً، فلما جاء «النرمنديون» حولوه إلى كنيسة بناها «رجار»، ونقل إليها هذه الأعمدة من المساجد التى خربها، لما أعجبه من أعمدتها.

ثم أخذنى «السادن»[١٠١] بعد ذلك إلى قبة قريبة من الكنيسة، وقال لى: إنها على شكل عربى. ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها فى أماكن العبادة النصرانية، سألته فى ذلك، فأخبرنى أن «الإسبانيين» عندما غلبوا على «سيسيليا»[١٠٢] سلبوا ما كان فى هذه الكنيسة من الموزاييك. (زينة من أجمل ما تزين به الأماكن والأدوات، تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جميع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور). وحملوا ذلك إلى بلادهم. وقال إنهم لم يقتصروا على ذلك، بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك. فقلت لصاحب كان معى: يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئًا من عمل من سبقه، فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه!!

عرفت قسيسًا «حَلَبِيًا» معلما للعربية بمدرسة دير «الكبوشيين» فى «بلرم». وسنأتى على ذكره. فممَا أرشدنى إليه رؤية بقية من قصر يسمى «العزيزة»، وهو اسمه فى الطليانية، فذهبت معه إليه، وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا «القاعات الحرمية»، حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه. ولم يبق من القصر مكان ينظر إليه السائحون إلا تلك القاعة. أما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة، وقد دخل بتمامه فى ملك بعض الأغنياء. والقصر من بناء الملك «رجار» النرمندى، بناه لابنته «عزيزة».

وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس : إنها مسجد عربى ، فَأَخَذْنا نحوها ، فإذا هى فى بستان كبير قد أغلق بابه . وقيل لنا إن خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب ليناديه ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبتها الجبة . وكلما طردنا فوجا أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، إلى أن جاء رجل قيل إنه هو حارس البستان . وبعد قيل وقال فى فتح الباب ، واحتياجه إلى إذن من صاحب البستان ، رضى بالفتح ، طمعا فى النفح . فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة فى فتح القبة ، فذللناها . . القبة من قباب المشايخ التى يقيمها المسلمون على قبور الأولياء أو الأمراء ، على خلاف ما يأمر به الدين ، وأظن أنها على قبر من هذه القبور ، وليس فيها من أثر عربى سوى شكلها هذا .

كنيسة موريالى، وتساهل العرب، وأين هم اليوم؟

مما رأيته في «بلرم» (صقلية) كنيسة «موريالى»، وجميع سقفها والأغلب من جدرانها مغشى بالموزاييك ألوانا وأشكالاً من أبهى ما يبهج الناظر، وأجمل ما يسرح فيه الخاطر.

وفى ناحية منها، قبة تعرف بمعبد الصليب، فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف. وأهم ما يذكر فى شأنها أنها مبنية فى القرن السادس من التاريخ المسيحى، فيكون لها نحو ألف وثلاث مئة سنة. والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد، لم يجرؤ السوس على قرض شيء منها ببركة العناية والاهتمام بالتنظيف. وأما ما يقول به بعض الحذاق فى معرفة طبائع هذه الهوام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات، وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التى صورت فى تلك الأخشاب، وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية، فلا يباح لها قرض الخشب المسيحى، ثم إن اعتقادها بحرمة القرض، حملها على العمل، فخالفت شهوة الأكل قياما بالفرض(!!)، فلا أظنه فى غاية الصحة بل ولا فى أولها كذلك!! ويقال إن الكنيسة من بناء الملك كيليولمو الثانى وقبره فيها صندوق من حجر فيه جثته.

ومن ذلك تعرف أن العرب، رحمهم الله، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء، مع عظمة سطوتهم، وامتداد ملكهم فى «سيسيليا». وتلمح من هذا أن العرب - وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم - فروح الدين الإسلامى كانت تنوّس فى كثير من

أعمالهم. نهى الدين عن هدم الكنائس إذا لم تكن مربضا لشر يخشى خطره على الدولة، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم، ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم، ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم، فحيا الله أيامهم.

لا جرم أن الإسلام عربي، وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده - بعد فهم حقيقته - هم العرب، فأين هم؟!

يمكن أن يقول قائل: إنهم في جزيرة العرب، أو في الشام، أو في العراق، أو في مصر، أو في تونس والجزائر، أو في المغرب الأقصى. أفلم يكفك كل هذا العدد، في أكثر من ألف بلد، حتى تقول أين هم؟!

ولكن أقول له: إنما يكون أولئك القوم إذا بقيت لهم أخلاقهم، وحياة أرواحهم. فإن كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم، فليسوا بهم..

فلي الحق أن أقول عن العرب: فأين هم؟!!

دير الكبوشيين، ومدرستهم، ومقبرتهم في بلرم

للكبوشيين دير في «بلرم» فيه معبد ومدرسة ومقبرتان .

أما المعبد ، فهو المعبد لا يحتاج إلى الكلام عليه ، ولا يختلف عن غيره من المعابد .

وأما المدرسة ، فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج إليها المُرْسَلون ، الذين يكلفون بالدعوة إلى الدين المسيحي ، والتبشير بالإنجيل ، ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الأقطار النائية ، كبلاد العرب والترك والفرس وغيرها . ومما يُعَلَّم فيها اللغة العربية ، وأستاذها الراهب «جبرائيل ماريا» الكبوشي ، وهو من «حلب» ، وتعلم العربية في بيروت ، وأخبرني أن من أساتذته صديقنا الأستاذ «سعيد الشرتوني» صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقيت ذلك الراهب ، وحادثته في شأنه ، والزمن الذي قضاه في إيطاليا ، والداعي إلى الإقامة فيها ، فتبين لي أنه جاء إليها ليخدم دينه هذه الخدمة - تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلاد العرب مثلاً - وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الإمكان ، فحمدت منه ذلك ، كأنه اعتقد أنه إنما تعلم العربية لينتفع بها في منطقه وإن كان في بلاد إيطاليا ، وعمل بما اعتقد . وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية ، والتونسي بالتونسية ، ولا يبالي أكنت أفهم أم لا أفهم ، كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم .

وفي هذه المدرسة تُعَلَّم العلوم اللاهوتية كذلك ، للغاية التي ذكرناها ، ولا حاجة إلى ذكر ما فيها من العلوم ، فإن ما يحتاج إليه للبراعة في نشر الدين والدعوة إليه

معروف عند من يعرف ما هو الدين، ويتصور معنى الدعوة إليه. أما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفًا واحدًا من هذا الكلام. فإن قال قائل: فلمن تكتب ما تكتب؟ قلت إن فقد الفاهم، فإنني أحفظه لنفسي والسلام.

هل خطر ببالنا ـ وكل منا يدعى الغيرة على دينه ويرى أنه الحق الذى يجب على الناس كافة أن يخلصوا أرواحهم باعتقاده والأخذ بأصوله ـ أن ينشئ فرعا من فروع التعليم لنشر الدين وتقويم أصوله بين أهله، فضلاً عن نشره بين من ليسوا من أهله؟

أريد من أهله: أولئك الذين لبسوا رداءه، واعترفوا أن الدين دينهم، سواء عرفوه حق معرفته، وهم فى غنى عن الدعوة إليه، أو جهلوه وانحرفوا عن طريقه، وهم أحوج الناس إلى الإرشاد، وأشدهم افتقارا إلى من يحول إليه نظرهم، ويعطف عليه اختيارهم. هل مر ببالنا أن نهيئ لهذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون، كما يهيئ هؤلاء من يهيئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم إلى دينهم؟ ما كان أحوجنا إلى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف بإرشاد من يسيء إلى الدين باسم الدين، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه إلى الدين!!

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية إلى أسمى المنازل أن يفكروا فى هذا الأمر، ويقوموا بما يجب عليهم منه، إن لم يكن لمصلحة الدين، فلمصلحة أنفسهم، فإن فى تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم، وفى تبصير العامة بشئون الدين تمكينا لحرمتهم فى نفوس الدهماء، وتسجيلاً لسيادتهم عليها؟ أليس لنا ـ على ضعفنا ـ أن نذكرهم بالأمر الإلهى القارع للقلوب، المزعج للهمم، فى قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) إلخ. فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب، ولا يخشوا أن يكون التَّصَامّ عنه بمنزلة الخروج من مدلول «كاف» الخطاب، ومشعرا بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به؟؟

لنا، بل علينا، أن نطالبهم بذلك وأن نزيد عليه مطالبتهم بالنظر فى إنشاء فرع

لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الأمم . . إن كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق، فإن السكوت عن الدعوة إلى الحق رضاء بالباطل.

أولئك الملوك والأمراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم وإخضاع رعاياهم لسلطانهم مثل فضل الدين!! لم لا يقتطعون شيئا من مالهم، وقطعا من زمانهم، ينفقونها في الاشتغال بإحياء روح الدين؟! ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها، أو جلها، لا يعرفه الدين؟ أفلا يجب عليهم أن يسعوا في زيادة تمكين قوتهم، وتعزيز سلطتهم؟ اللهم إلا إذا ظن هؤلاء وأولئك أن الدين حيوان يمشي على رجلين، يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة إليه، ويغدو إلى مرعاة من النفوس متى اشتد الجوع عليه . . فإذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات، فإنما إثمه على نفسه لا عليهم.

ربما يقول قائل: ولم تستبعد هذا الظن منهم، فتعبر بجانبه بكلمة «اللهم»، وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة؟ وربما طلبوا الدخول في أثواب حماة السنة بهذا الظن الذي تستبعده، وما عليهم في ذلك إلا أن يقولوا: نحن سنيون، لا نقول باستحالة شيء، وفخرنا أن نجوز المحال، ونذهب إلى جواز تجسم المعاني، ونعتقد أن الأعمال والعقائد - وهي معان نفسية وحركات بدنية - يمكن أن تنقلب أشخاصًا حيوانات تمشي وأناسيّ تتكلم . . أليست هذه العقيدة هي مطيتنا إلى الجنة؟ فليكن الدين رجلاً عاقلاً أو ميكروبا متنقلاً، مفيدًا لا قاتلاً، يفعل لنفسه ما كان فاعلاً، ويدعنا نتمتع بالنسبة إليه، وإن لم يكن لنا عطف عليه. فنجيب القائل بأنهم مغرورون، وإن السنة بريئة مما يزعمون، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون.

خرج بنا الكلام عما نحن بصدده. هذا الراهب أستاذ العربية في الدير، وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية - من الصرف والنحو - للإيطاليين. يضع القاعدة العربية ثم يفسرها باللغة الإيطالية، بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الإمكان. وقد رأيت من تلامذة الراهب من يُحْسن قراءة العربية، وإن كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق.

وما أحوج كل عربي إلى تعلم ما يحتاج إليه من لغته، ولكن ما أشق العمل وما أوعر الطريق، وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه!!

يفنى عمره ولا يزال يضرب برجليه في أول الطريق. . أفلا نشعر بالحاجة إلى تقريب المطلب، وتيسير المذهب فى تحصيل ما تدعو إليه الحاجة من لغتنا، حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس، والتعبير بها عما نجد فى أنفسنا ونحب أن نسوقه إلى بنى لغتنا على وجه صحيح؟! وبأسلوب فصيح؟! ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا، فنحيا بما كان قد أحياهم، وترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم؟

أما المقبرتان، فإحداهما فى بناء متسع الأرجاء، تحت الأرض، ينزل إليه بسلم، وفيه نوافذ يأتى إليه منها الضياء، وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى. فمن الجثث ما هو فى صناديق مقفلة من الخشب أو الحجر أو البرنز، ومن ذلك جثة «موسيو كرسبى» رئيس الوزارة الإيطالية السابق، فإنه فى ذلك المحل فى صندوق مغلق. ومنها ما وضع فى صناديق من البلور، بحيث تظهر الجثة للرائى من داخل الصندوق على الهيئة التى كانت عليها عند الموت. وقد يوجد فى الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هياكلهم، ظاهرة وجوههم، على أتم ما يحزن له قلب وتعتبر به نفس. وهذان القسمان من الأموات إنما ينالون حظوة الاستيداع فى هذا المكان إذا كانوا من الأغنياء الذين يتمكنون أن يدفعوا إلى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة. وهناك قسم آخر، وهو جثث محنطة قائمة فى جوانب المكان، عليها ثيابها فى الحالة التى كانت عليها عند موتها، وهى جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون أن يودعوا فى هذا المكان ليسعدوا ببركته، ولهم هيئات تنقبض لها النفس، ويضيق بها الصدر. ولا حاجة بنا إلى تعداد ذلك، ويكفى القارىء أن يتصور ميتا فى أشد ما تكره النفس مما يصوره الموت فى البدن.

وأما المقبرة الأخرى فهى كسائر المقابر، على ظهر الأرض، وإن كان الأموات فى بطنها، وهى من أجمل الأماكن وأنظفها، والقبور فيها نظيفة البناء، بهجة الظاهر. وقد غرس فى المقبرة أشجار السرو بنظام بديع. وقيل لنا إن الذين يدفنون فيها هم الأمراء والأغنياء، أما الفقراء فلهم مقبرة تليق بفقرهم فى مكان آخر، وكأنه قضى عليهم بألا يساووا الأغنياء حتى فى الموت، مع أن الموت قد سوّى بين الأغنياء وبين أدنى طبقة من الأحياء، بل جعلهم طعمة لأقذار الديدان، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان!!

قيل إن الحكومة بعد أن استولت على «رومية»، منعت الدفن فى المقبرة الأولى على تلك الطريقة، وأمرت ألا يدفن الميت إلا فى المقابر المعتادة، كهذه المقبرة الثانية ونحوها. وإنما حفظت الحق فى الاستيداع في المعابد للبابا وللملك دون سائر الناس، فهما وحدهما توضع جثتهما فى صندوق وتودع فى الكنيسة. وقد أحسنت الحكومة فى ذلك، فإن من كان محجبا بعظمته عن الناس فى حياته، يجب أن يكون عبرة لعامتهم بعد مماته.

المكتبة العمومية، ودار المحفوظات

أما المكتبة العمومية فقد جاءنى من أوصى بصحبتى - ويثقل على ذكر اسمه لطوله - فذهبت معه إلى تلك المكتبة وهو أخو مديرها، وله احترام فى نفوس خدمتها. وكان يعرف قليلاً من اللغة الفرنسية، فسألته أن يطلب لى فهرس الكتب العربية، إن كانت، فطلب ذلك، فبدت حركة شديدة فى الخدمة، وكثر الداخل والخارج، والذاهب والآئب، ولغطت الألسن، وارتفعت الأيدى بالإشارات، وطال الزمن نحو ربع ساعة. كل ذلك، وأنا لا أفهم أسباب هذا الاضطراب، وآخر الأمر جيء إلى بدفتر صغير جدا، يحتوى على نحو خمسين صفحة، وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه، وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذى يعرف مقره، والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته.

ولم يرعنى عند تصفحه إلا كثرة ما فيه من كتب الأدعية والصلوات، كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة «الخَلْوَتيَّة»، أو مكتبة السادات «البكرية»، قدس الله أرواحهم جميعًا. وإنما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الإمام مالك رضى الله عنه، وكتابا فى السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، إلا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة لأن خطوطًا قد جرت على السطور بعناية غريبة، حتى عمت الحروف الأصلية، وحجبت حقيقتها عن النظر، مع سلامة الظاهر من التشويه. فعجبت لذلك وسألت عن السبب، فقيل لى إن قسيسا من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتى إلى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه يريد قراءته، وكان يعرف العربية حق المعرفة، فسلم إليه، فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة ما فيه. وقد فعل مثل ذلك بمصحف من

المصاحف، وزور كتبًا كثيرة أفسدها. وقد انكشف للحكومة حاله، فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في رواية، ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى. أما القطعة من شرح ابن رشد فكانت سليمة، وخطها مغربي جيد، تسهل قراءته على طالب العلم.

والكتاب الفرد الكامل الذى رأيته في المكتبة، هو كتاب «النخل» لأبي حاتم السجستاني، وهو صغير، في نحو ستين ورقة، بخط ضيق، مضبوط، صحيح. قرأت منه عدة صفحات، ونقلت منه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥) إلخ. ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله: «ومما كرم الله به الإسلام، وكرم به النخل، أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الإسلام، فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل، وليس في بلاد الشرك منه شيء». فرحم الله أبا حاتم، ما كان أبعده عن صحة الحكم في طبائع العمران، وإن كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة. والكتاب مفيد في اللغة، وهو بخط مشرقي، تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٤هـ وقد بلغنا أنه طبع في ألمانيا، وكان الأجدر به أن يطبع في مصر، ولعل ذلك يكون إن شاء الله متى ساوى المصريون أهل ألمانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها!

ثم زرت دار محفوظات الدولة، وهى مثل «الدفترخانة» عندنا، إلا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فُعل بالدفترخانة المصرية. بل هى محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون، لا يفَرط في ورقة واحدة منها. وقد طبعت الدولة ما في الأوراق التاريخية، المحررة باللسان العربي وغيره من الألسن الشرقية، حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الأوراق، ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها، خصوصًا إذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة. فإذا قابل بين المطبوع والمرقوم، عرف صحة العبارة في النسختين. ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على أوراق البردى، وغيرها مما كتب بالكوفية أو النسخ القديم، أو ما عَفَّى بعضه القدم، لتتم فائدة حفظ هذه الأوراق والانتفاع بها، إن شاء الله.

من العادة فى المكاتب وديار حفظ الأوراق، أن يجعل لها دفاتر يكتب فيها الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة. وهى عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية، والمذكرات التاريخية. أما عمال المكتبة العمومية فى "بلرم" فلم يحفلوا بهذه العادة، واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع إمضائى عليها، كما فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا. لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا أن تجرى تلك العادة مجراها، فطلبوا ذلك الدفتر فلم يجدوه، فجدوا فى البحث والتنقيب، وأخذت الأصوات تتقاذف، والإشارات تنمو وتتزايد، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية، فى اكتشاف فهرس الكتب العربية. وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر، فجلست مدة حتى يسر الله ووجد الدفتر ووضعت إمضائى فيه. وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب فى العثور عليه بعد ضياعه.

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين: إما قلة الزائرين لهذه الأماكن العلمية من الأجانب وطلاب النظر فى الآثار العربية، وقلة الدارسين من أهل البلاد فى تلك الكتب، التى كتبت فى لسان غير لسانهم، اكتفاء بتراجمها، أو لعدم الحاجة إليها، وإما لشدّة الإهمال من موظفى هذه الديار. وقد يتيسر لك الجمع بين الأمرين. ولم أعهد فى مكتبة أوروبية أن وقع لى مثل ما وقع فى مكتبتى "بلرم".

حاجة السائح إلى معرفة اللغات، وأيها أنفع؟

ومن الأمور التي لا أجد بدا من نقدها، أن موظفي هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات إلا الإيطالية. فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم، ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه أن يؤدي بها مراده. وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عندما كان معي في المكتبة العمومية، لكني بعد انصرافه وقعت في وحشة، يزيدها لزوم الصمت، وعدم الفائدة في الكلام، وضيق الصدر عند إرادة الاستفهام عما يراد فهمه ولا يوجد السبيل إليه إلا من طريق الإشارة. ولا يخفى عليك أن الإشارة إنما تصلح للإفادة والاستفادة من الأخرس إذا كنت والدة له، على ما في المثل «أم الأخرس أعرف بلغته»!! فلابد من التعود على ضرب من الإشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والإفهام. ولهذا لم يمكني أن أستفيد شيئا فيما ينبغي أن يُصنَع لاستنساخ شيء من الكتب العربية، كتلك القطعة من شرح ابن رشد مثلاً.

وبعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها، وإيطالية لا أفهمها، انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به، لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقاة من أمكنه فهم ما أقول، وأمكنني فهم ما يقول من أهل المدينة.

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية، يسهل عليه السفر في جميع بلاد أوروبا، ويتيسر له الفهم والإفهام، لأنها لغة عامة، لا تجد نزلاً ولا مكانًا ترغب في زيارته إلا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد. وقد رأيت أن هذا القول اضمحلت صحته في مكاتب «بلرم»، ولم ألق ما يقوي صحته في مكتبة «مسينا». والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الأجنبية، ولا ينبغي أن تخلو منهم لمسيس الحاجة إليهم. وقد بت ليلة في «لوندرا»

ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى «كيرافنور أوتيل»، فيه ما يزيد على ستمائة بيت للنوم، ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية إلا خادمين، أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام. أما خدمة أماكن النوم وغيرهم، فلا يفهمون كلمة واحدة، والحاجة إليهم أشد، فإن المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهن. إذا طلبت ماء أو لبنا أو قهوة، أو تهيئة حمام، أو نقل متاع من مكان إلى مكان، أو تصحيح منكسر أو كسر صحيح، لم تجد من تطالبه إلا أولئك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية. غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس، صاروا أو صرن كوالدة الأخرس يسهل عليهم أو عليهن فهم الإشارات بدون إتعاب شديد لأعضاء المشيرين. (أى الذين يتفاهمون بالإشارة، لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية!!).

لكن لا يخفى عليك أن من المطالب ما لا تعبر عنه الإشارة، فماذا تصنع إذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية وعرض لك مثل هذا الطلب، وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الإنكليزية؟ لا يسعك إلا الإقرار بأن ذلك القول الذى قالوا مبنى على تجربة قاصرة لا تصلح أن تكون مقدمة من مقدمات البرهان المعدودة فى فن المنطق.

أزيدك شيئا فى هذا، وهو أنك إذا كنت لا تعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم، يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت إليهم، فهم يكلفونك من النفقات ما يشاءون، ولا يجدون فى أنفسهم «دانقًا»(١٠٣) من الرأفة بك، أو الرحمة لغربتك. ولا يمكنك أن تبحث مع ناهبك فى موضوع نهبك، لأنه لا يفهم ما تقول، وأنت لا تفهم ما يقول، فينتهى أمرك بدفع ما رقَّم لك رغم أنفك. وغاية ما يمكنك فعله أن تتنفس الصعداء، وتهز رأسك وتلوى عنقك علامة على غضبك، ولكن هذا كله لا يوفر عليك ما نقصه منك الجهل باللسان!!

وفى ظنى أن من أراد أن يسافر إلى بلد لا يعرف لسانه، فأولى له أن يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل، ومدة سنة قبل السفر تكفى لذلك، وأجرة الأستاذ المعلم لا تصل إلى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان!!

أستغفر الله من خطإ فيما قلت. إذا أراد السفر إلى صقلية «سيسيليا» من بلاد إيطاليا، فعليه أن يَجدَّ لمعرفة اللغة الإيطالية، حتى يتكلم بسرعة، ويفهم بسرعة

يسبق بها كلامه وفهمه وكلام الإيطاليين وفهمهم، وإلا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه أو ما يؤخذ منه أجرة على ضياعه.

عند وضع قدمه على ساحل «صقلية»، يجتمع عليه الحمالون والمرشدون المُضلّون، ويتجاذبون متاعه وثيابه، كل يأخذ قطعة. فإن كان لا يعرف اللسان، كان ما كان مما لا يسعه الإمكان. فإذا سَلِم له متاعه من التحطيم أو الضياع، أو أصابه من ذلك ما لم يفد فيه الدفاع، وجَد أمامه جيشا من الطالبين، كل واحد يطالبه بقيمة عمله. وما هو ذلك العمل؟ هو حمل قطعة من المتاع، وكلمة قيلت غير مفهومة في هدايته إلى المحل الذى وصل إليه، مع أنه وصل برجليه، ومن طريق كل الناس يمشون فيه.

ولا تنس أنهم يجاذبونك أعضاءك، حتى إن جميع أجزائك لفى خطر من مجاذبتهم إذا لم تكن حريصا عليها. فإذا كنت فى حاجة إلى السفر إلى هذه البلاد، والإقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء، وترويح النفس بجمال المناظر، خصوصا أيام الربيع، فعليك أن تصرف سنتين فى تعلم اللغة الإيطالية، وما تنفقه فى التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم!!

وجدت أن الذى يعرف الإنكليزية أسعد حظا فى فرنسا ممن يعرف الفرنسية فى إنكلترا. فإنك لا تجد نزلاً فى البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الإنكليزية. سألت عن السبب فى ذلك، فقيل لى إن أهل فرنسا قلما يسيحون فى بلاد الإنكليز، أما الإنكليز والأمريكيون فيملئون سهول فرنسا وجبالها، ويدهشون بالذهب صغارها وكبارها، فاضطر الفرنسى إلى ترويج الإنكليزية فى بلاده لتعجب الزائرين، وليستكثر من الناثرين.

ويل لك إذا أقمت يومًا أو يومين فى نزل «بمسينا» من أكبر ما يقصده السائحون. رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية، يمكنه بها أن يفهمك أن أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات فى الليلة. ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوافر الراحة، وإن كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك، وإنما العمل على ما فهمت أنت منه!!

تنام عند الساعة العاشرة، فلا يمر عليك نصف ساعة إلا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوى حركات تذهب وتجيء خارج منامك، فيضيق صدرك، وتطلب الفرج ولا تجده، فتفتح الباب وتقول كلامًا كثيراً ما يفهم منه أنك فى شدة الضيق مما تسمع، ولا سبيل إلى النوم، فيقال لك ما تفهم منه أن هؤلاء مسافرون جاءوا إلى المحل من جديد، وماذا يصنع معهم؟

فتطلب محلاً آخر للنوم، ويأخذون فراشك من محلك الأول إلى محلك الثانى، فتحمد الله على الهدوء وإقبال الراحة، ثم تلقى جسمك على الفراش، ويقبل النوم على عينيك بثقله. ثم لا يمضى نصف ساعة، إلا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك، واليسرى تحك اليمنى، واليمنى تحك اليسرى. . ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم، حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين، ويصبح ذلك النوم الثقيل أخف من نفس الجميل، فيطير عنك إلى حيث تبحث عنه ولا تجده، ولا يبقى لك إلا الحك والحكة.

وما هذا كله؟ هذا هو البق الذى تروعك حمرته، وتقلقك عضته، بل حركته، بل تطير نومك رؤيته، فتطلب الخلاص. . وماذا تصنع؟! مضت مدة من الليل نام فيها الصائحون فتعود إلى محلك الأول، وقد نام الخادم، فتعود إلى غير فراش، أو تفرش لنفسك. وهذا أفضل لك. .

فإذا أصبحت، حوسبت على شمعتين فى مكانين لم تصرف منهما شيئا، وعلى شيئين آخرين، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين!!

أظرف ما وقع لى مع خادم هذا النزل: طلبت منه ماء باردًا، فلم يفهم. فأشرت إلى فمى ومثلت بيدى صورة إناء الماء، فإذا هو يفتح الباب وينظر إلى كأنه فهم أننى أشرت بيدى إلى أن الباب مغلق، ويفمى إلى فتحه لأنه فتحة من فتحات بدنى. .

وبعد تعب أعضائى من الإشارة، ولسانى من التكلم بالفرنسية، قمت وبحثت عن كوب وأشرت به إليه، ففهم أنى أريد ماء لكن لم يفهم أنى أريده باردًا. وما أشد التعب فى تصوير الجليد له!

فرغ ماء الغسل، فطلبت منه تجديده، فرفع فى وجهى كرسيا طويلاً اشتريته

لأجلس عليه في المركب. ففزعت لذلك، وظننت أنه يريد رميي به ظنا منه أني شتمته. غير أن ذلك سرى عني عند ما رأيته ينظر إلى نظر الاحترام، ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي؟ فاستلقيت من الضحك، وذهبت إلى موضع الغسل وأشرت إليه أن يجدد الماء ففعل.

أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الإيطالي إذا أردت السفر إلى «سيسيليا»؟ وألا تصدق ما يقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوروبا؟

مسـينا ومقبـرتها

نسيت أن أضع فى جانب المقابر مقبرة «مسينا»، وهى مقبرة فى الجنوب الغربى من المدينة. وإنك إذا قلت لصقلى: إنى ذاهب إلى «مسينا»، يقول لك فى الحال: لابد أن ترى المقبرة. وهى جزء من المدينة، تحسب مدينة بنفسها، فيها مدافن للأمراء والأعيان، مبنية على أجمل نظام وأقربه إلى السذاجة. وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم.

وطريقة الدفن فى تلك الأماكن تختلف. فبعضها على الطريقة المعهودة، من وضع صندوق الجثة تحت الأرض. وبعضها بوضعه فى صندوق ضخم كبير، لا تمكن سرقته، على ظهر الأرض. وبعضها فى بيوت تفرض فى عرض الجدر العريضة، وهكذا.

والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الأثل وليس به، ولا أعرف اسمه بالعربية سوى أنه شىء من كبار «الطَّرْفاء»، لكنها نظمت بيد أوروبية تعرف كيف تخضع النبات لإرادتها، فتوجهه إلى الوجهة التى تريد.

والطرق فيها على غاية ما يرام من النظافة والانتظام، وهى أنظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الأحياء «مسينا». ثم إنها تأخذ من أسفل الطريق إلى قمة جبل، إذا صعدت عليه نظرت ـ وأنت فى المقبرة ـ من البحر والساحل أجمل ما تنظر عيناك من اللألاء والنضرة فى المواقع المختلفة، ومن الأشكال الطبيعية، وبدائع الأعمال الصناعية.

يظهر أن المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي في وصفها، كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها، أعوذ بالله.

يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء، قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم، تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة، تقصر وتطول. وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان الجاثمة على بقايا الجثمان.

لا أزال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين من أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة، عن الأدب والكياسة.

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة؟

مدينة جميلة المناظر، بديعة المداخل، بعيدة المخارج. الداخل فيها أكثر من الخارج منها. قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار، لأنه في خضرة دائمة، وحياة مستمرة، كأن أرواح من يموت تنتقل إليه بعد مفارقة الأجساد، فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع.

مدينة زينها الأحياء في حياتهم، ليعدوها لإقامتهم - فيما يزعمون - بعد مماتهم. وهكذا من كان على يقين من الرحيل إلى دار، هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطلب له المقام، ولا يقلق به المكان.

لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقرا لجثتك، وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت، أو تؤخذ عنه إذا مت؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات؟

أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة، لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة إليها إلا ما يخيفك من الموت وينغصك فيه غمر من الغبار، وتلول من التراب، تتذكر بها أنك من التراب وإلى التراب!!

إذا بنيت فيها مسكنا، فلست تبنيه لنفسك يوم تموت.. ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات، وتشاركهم في المسكن وأنت حي.

تقضى فيه الأيام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذى الحجة وبعض أيام من بقية الشهور، تأكل وتشرب وتنام.

ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر إلا فى النوم الثقيل، ولا تستحى من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون، وتضحك وهم ربما يبكون، وتلعب وهم لا يلعبون.. تلهو بالقيل والقال، وملاعبة النساء والأطفال.

وربما أقمت فى المقبرة ما تسميه بالموالد، وجلبت بذلك إليها من المغنين والمطربين والعازفين، ونصبت فيها الخيام، وصنعت من لذيذ الطعام ما تدعو إلى تناوله العلماء الأعلام، والأتقياء الكرام، فيلبون دعوتك زرافات ووحدانًا، مشاة وركبانًا، ويخوضون في غمار اللاعبين، إلى أن يصلوا إلى حيث نصبت خيامك، وهيأت طعامك، على ظهور الأموات، وبجوار تلك الرفات.

وتبيت ليلتك تلهو وتلعب، وتصيح وتصخب، كأن الموت قد فارق ديارك، وكره جوارك، وفر من بين يديك، مشمئزا مما يرى لديك.

أما مقبرة «مسينا»، فلا ترى فيها آكلاً ولا شاربًا.. وإنما ترى الزائرين فى سكينة ووقار، لا يتكلمون إلا همسًا، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرسًا.

صخب الصقليين، وتسولهم، وكسلهم

أهل «مسينا» من أهالي (سيسيليا). و(سيسيليا) هي جزيرة (صقلية) التي ملك فيها العرب نحو مئتي سنة، وكان منها كثير من العلماء، والفقهاء، والمؤرخين، والفلاسفة، والصوفية، وبعض الزنادقة، وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين إليه، كما كان في العراق والشام والأندلس.

وقد ترك العرب آثاراً في البلاد، منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر، ومنها كلمات في لسانهم كثيرة «كالشروق» للريح الشرقية، و«كالقبة» و«الطلعة» و«الشر» ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة إلى أصلها وإلى البلاد التي حملت منها.

ولا أظن أن الصياح والصخب الذي اختص به أهالي (سيسيليا) يكون من ميراث العرب، رحمهم الله، فإن أصوات «السيسيليين» أشد قرعًا، وآلم في الأذن وقعًا. وإني لا أشك في أن حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ - بغير داع - من حناجر أهل «كفر الجاموس»[١٠٤] أو سكان «عرب يسار»[١٠٥]. أما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد، ويسكتون عند الرجوع إلى البلاد. ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب، كما يفعل بحرية «يافا» و«بيروت» من ثغور سوريا.

أما الإهمال والكسل، فلا أدري هل هما من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين؟!

ويل لك إذا عُرفت بأنك غريب، فإنه يتبعك السائلون الملحفون، والمكتدون[١٠٦] المجَدون ويَلْزَمونك حتى تعطي شيئا من النقد.

ولا فرق في حالك بين أن تجلس فى قهوة، أو تكون فى زيارة معبد، أو فى تفقد مكتبة، أو دار آثار.

تجد من ذلك ما لا تجده عند «المتبولى»، ولا عند ضريح الأستاذ «البيومى»[١٠٧]، رضى الله عنهما.

ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون.

وإنما يتقرب إلى الغرباء من يظن القدرة فى نفسه على أن يفترس منهم فريسة. لكن يمكنك ـ إن كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين ـ ألا تعطى شيئًا أو تهرب إذا أردت!!

لعلك تفرست شيئًا من الكسل فى حكاية ما وقع فى فهرس الكتب العربية فى المكتبة العمومية، ودفتر الأسماء في دار المحفوظات. وأزيدك أنك إذا ذهبت عند شركة الملاحة ـ (بكسر الميم وتخفيف اللام، لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام، كما يقول بعض أكابرنا، فإن التشديد يجعل الكلمة موضعًا للملح الذى يوضع فى الطعام، ويُتناول أحيانًا للإسهال. أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة، لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح. وأظن اللفظ يرجع أيضًا إلى رفيقه، فإن فى البحر ملحًا أيضًا، لكنه ليس يكثر كالذى فى تلك الكلمة المشددة) ـ وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلاً، تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينازع بعضًا.

فإذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القَتَّال، أسرع بمد يده إليك لطلب المبلغ. فإذا دفعته إليه، وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها إليك، كادت يده تشل بجانبه، وأنت تنظر إليه، وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف، وهو ينظر إليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده، أو تمل الانتظار ويأخذك الوقت فتتركه له.

وهذا ضرب من الكسل فى أداء الحق، ونوع من البطء فى العمل لا تجده حتى فى مصر، حرسها الله، فإن العمال عندنا ـ حتى فى زمن الصيف ـ لا يسمحون لأعضائهم أن تتعود هذه العادة الرديئة.

رثاثة الصقليين، ووساختهم، ومقابلتهم بالمصريين

أما رثاثة الملبس عند الفقراء، ودنس الثياب، وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشئون، فذلك مما نجد له مثالاً في كثير من الأحياء عندنا.

وإني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النُّزُل الكبير الذي نزلت فيه، رفع الله عماده.

كنت أطالع في جريدة خطاباً ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس، لمناسبة رفع تمثال للكاتب المؤرخ الفرنسي «رنان»، ألقاه في بلدة «رنان» التي ولد فيها. وكنت مستغرباً فيما يقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم، وعن الأحرار أطال الله في ألسنتهم وما يرونه في فلسفتهم.

وإذا بخادم النزل دخل علي، وتحت إبطه ولد صغير في الخامس من سنه تقريباً، وقد علا الوسخ وجه الصبي، وهجم القذر على عينيه يريد أكلها، وأنفه وفمه يسيلان: ذاك بما تعرف، وهذا بما لا يخفى عليك! وبيده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة، وماء كل حبة يسيل من شدقيه.

إذا رأيته، أمكنك أن تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق - إن أمكن - أن هذا من ذرية «الشيخ الدعكي»، رحمه الله، أو أن روح الأستاذ ظهرت في مظهره اللطيف!!

وإذا كنت واحداً من بعض الأعيان، أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين تَعْهَدُهم، أقسمت في الحال أنه ولي من الأولياء، مجذوب من المجاذيب!!

فإذا ذَكَّرك مذكر أنه إيطالى، قلت لا يبعد على الله أن يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها، ورزقه من ذلك فى صغره ما لم ينله «الدعكى» فى كبره. . وإلا فكيف تسيل سعابيبه(١٠٨) إلى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب؟!

هذا خلف. وربما حملك حسن الاعتقاد على أن تذهب إلى «المحمل» الذى تعرفه، وتستخرج من بحر الأنساب ما يصل نسبه بمن لا يصح لأحد أن ينتسب إليه ما دام على مثل هذا الاعتقاد.

فانظر بعينك إلى هذا «الطباق» و«التقابل» بين ما كنت مستغرقًا فيه، وبين ما فاجأنى من هذا المنظر الكريه. هل يمكنك أن تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسى فى هذه الشدة؟!

دفعت فرنكا واحداً رميته على الأرض، فالتقطه الصبى كما يلتقط العصفور حبة الأرز، وكَرَّ راجعًا لا يبالى بتأخر أبيه عنه ليشكرنى على ذلك الإحسان، كأنَّ الصبى كانَ يخاف أن أتبعه لآخذ الفرنك منه!!

لا تظن أنى أبالغ فى كلمة مما قلت. . فما رأيك بهذه الوساخة!

أما الفكاهة الثانية، فقد كنت على مائدة الطعام فى محل نومى من ذلك النُّزُل، لقلة السياح، وسعة قاعة الطعام، بحيث تكبر عن أن يجلس فيها شخص واحد. . فلما جاء صنف من الطعام يحتاج إلى الملح تنبهت إلى الملاحة. (وهذه المرة بتشديد اللام لأن فيها ملحًا). كما سترى.

نظرت إلى الملح. . فإذا فيه النقط السوداء أكثر من نزغات الشيطان فى قلوب أهل الفسق والعصيان، وأغزر من الخطيئات فى بعض المزارات!!

فنظرت إلى الخادم، وأخذت الملاحة، وأنشأت أنكُت ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة، وأصعد نظرى فى وجه الخادم وأقطب وأظهر التقزز. ولم أزل كذلك، حتى فهم أن هذا شيء من الوسخ لا أستطيع تناوله. فعند ذلك تناول منى الملاحة- بغاية الكسل، ثم ذهب وأطال الغيبة. وبعدما كدت أغضب- مع سعة حلمى فى السفر- جاء بملاحة أخرى أوسع من الأولى وأطهر منها ملحًا. فكأنه يفهم أن

الوساخة مما لا يليق، لكن لا يتم له هذا الفهم إلا إذا قال له شخص آخر: إن النظافة خير منها، وإن الوسخ شيء تتقزز منه النفس، وينفر منه الحس.

أما مثال هذه الواقعة الثانية، فمما يكثر في خدمنا، بل في بعض ساداتنا، رفه الله حياتهم.

فإنهم ينظرون بأعينهم إلى الخبيث والخبائث، وربما حكموا فيه بوصفه، لكنهم لا ينزهون المكان عنه، بل ربما لا ينزهون أنفسهم عن التلوث به، إلا إذا أمرهم بذلك آمر.. فعند ذلك يمتثلون الأمر بغيرة المختار، وعزيمة الجبار. ثم يحدثك أحدهم بحسن ما يصنع مما أمر به، كأنه هو الذى اندفع إليه من نفسه، كأن الأمر الصادر إليه هو الذى أكسب الشيء حسنه وَحلاّه بوصفه.

وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب «الأشاعرة»[١٠٩] الذين يقولون إن حسن الفعل: هو الأمر به، وقبحه: هو النهى عنه، وإنه لا حسن ولا قبح للشيء فى ذاته.. فإنى على يقين أنهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات فى أنفسهم.

وما عليك إلا أن تبحث فى رأى الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه أو نفيه، فإنى الآن لا أكتب كتابا في علم الكلام، ولا أكتب أسطرى هذه للأفاضل من أهل الفن، فإنهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة أمثال هذه القصص، أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالى «بلرم» و«مسينا» معا، وما ذلك على الله بعزيز.

الذى يخطر ببالى من أسباب ذلك، إذا أخذنا بالجد، أن هذا شأن العامة من الأمم التى طال فيها زمن الاستبداد، وتصرف الإرادة الواحدة فى جميع الإرادات.. مع ما يطرأ على تلك الإرادة الواحدة من الاختلال وفساد المزاج، فتأمر بالشيء اليوم لأنه من هواها، وتنهى عنه غدا لأنه لم يبق من مشتهاها.. وأمرها واجب الإطاعة، وفى مخالفته إضاعة أى إضاعة. فَتُعَوَّدُ الأنفُس على تعاطى الأعمال، لا لأنها مما تختاره، بل لأنها مما تُؤَمَرُ به، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح، لأن التعود على العمل - مهما كان قبيحا - يزينه للنفس أو يسهل عليه مقارفته. وسهولة المقارفة إنما تنشأ عن عدم الإحساس برائحة القبح، ولو بقى نتنه فى شامة النفس لعافته، ولما أمكنها تعاطيه. وكذلك يخفى وجه الحسن فى الشيء متى خفى وجه القبح فى ضده، كما لا يخفى عليك إن كنت من المدققين، خصوصا فى علم أصول

الفقه الحنفي، وقرأت ما كتبه العلامة «الغزي» والمحقق «الحفيد» وغيرهما على (التلويح) للعلامة الثاني «سعد الدين التفتازاني» (حاشية التوضيح على مختصر البزدوي).

إذا سألتني عن العلامة الأول في مقابلة العلامة الثاني فإني لا أتذكر، الآن، وإن صدق ظني يكون هو «عبد القاهر الجرجاني». ولكن الأفضل لك أن تسأل شخصاً آخر من مدرسي (حاشية التجريد) «للبنائي»، فإن من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين، وتحديد الفرق بين العلامتين - وربما قال لك إن الأول هو «القطب الشيرازي»، لأن سهولة كلام الإمام «عبد القاهر» وسلاسته، تمنعهم من جعله العلامة الأول - وإن شئت ألا تشغل بهذه المسألة، فهو أفضل من ذلك الأفضل، ويكون أفعل التفضيل الأول على غير بابه والسلام.

وإنما المهم فيما نحن بصدده أن الإرادة السليمة، والطبيعة المستقيمة يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ، وتعتني بتقديم النظيف إلى الضيف من أول الأمر بدون احتياج إلى إصدار أمر. وقس على ملح الطعام بقية الأملاح «كالنحو ملح العلم»، و«العلماء ملح العالم». وهكذا كل ما يحتاج إليه في إصلاح الأغذية، بدنية كانت أو روحية، دنيوية كانت أو دينية.

أما إذا كنت لا تميز ولا تفهم إلا بأمر، فتربص حتى يأتي الله بأمره، والله شديد العقاب.

دور الآثار وبساتين النبات

لا تبخس أهل «سيسيليا» (صقلية) حقهم، فإنهم فهموا مسألة لا بأس بفهمها. وأظنهم عرفوا ذلك من إخوانهم أهل شمالى إيطاليا، وبقية الأوروبيين، وهى المحافظة على الآثار القديمة والجديدة. أما القديمة فتحفظ بذواتها، وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها.

بنوا ملعبًا فى «بلرم» فصنعوا له مثالاً من الخشب ووضعوه فى دار الآثار. مدينة «بالرم» لها مثال مجسم رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة مصغرة بألوانها الطبيعية، وألوان الأرض نفسها، وذلك المثال فى دار الآثار. حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمى صقلية، وهو زى يشبه الأزياء الأوروبية. مع ساتر للوجه يدل على أن ستر الوجه كان عاما حتى فى صقلية أيضا، وإن كان ذلك قد يغضب «قاسم بك أمين» فإنه يجد له أضدادًا فى مسلمى أوروبا، فضلاً عن مسلمى آسيا وإفريقيا.

يحفظ القوم فى متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين، من مصنوعات وأشجار وأحجار، ولا يدخرون جهدًا فى حفظ ذلك، حتى إذا وجدت اسم شىء فى كتاب تاريخ مثلاً، أو عرض لك اسم فى علم من العلوم كان يدل على معنى فى الزمن السابق، أمكنك أن تعرف المدلول بالعين والمشاهدة، وتتحقق صحة الوصف والتعريف. فما استعمله الأقدمون من آلات وأدوات، وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك، نجد شيئًا منه فى متحف من المتاحف، أو فى قصر من القصور، أو فى كنيسة من الكنائس، أو فى داهية من الدواهى التى هناك!

وهذا مما يفيد فى تحقيق المعانى التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها إلا من يسمع اسم «اللائمة»[110] و«الدلاص»[111] و«الدرع» «والخوذة» «والعمامة» (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال. ثم يراجعها فى القاموس أو غيره من كتب المعجمات، وبعد ذلك لا تستقر فى خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الألفاظ. وقد يتخيل صورة لا مناسبة بينها وبين الحقيقة، وهو جهل باللغة فاضح.

وكثير منا يأكلون «اللوز» أو «الجوز» وينطقون باسمه فى البيت وعند البائع إذا طلبوا شراء شيء منه، وهم إذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة «الجميز» أو «الفلفل».

أما الجماعة فعندهم فى بساتين النبات جميع هذه الأنواع من الأشجار. وما لا تناسبه درجة الحرارة فى الهواء يحدثون له أجواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش فى جو مثل جوه. ولكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه. ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم، ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة فى تلك الكتب.

أما إذا قال لك صاحب القاموس: الجوز شجرم: أى معروف، فماذا تستفيد من هذا وأنت فى مصر، وليس فى قرب الأزهر شيء من شجر الجوز، بل ولا فى الأزبكية نفسها، فكيف يصير هذا عندك معروفا؟! وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر، إذا كنت كاتبًا أو شاعرًا أو طبيبًا أو عالما أو أديبًا؟!

الصور والتماثيل، وفوائدها، وحكمها

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج. ويوجد في دار الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلاً، يحققون تاريخ رسمها، واليد التي رسمتها، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب، حتى إن القطعة الواحدة من رسم «روفائيل» مثلاً ربما تساوي مئين من الآلاف في بعض المتاحف. ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش، وعدّ ما أتقن منها من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر. وكذلك الحال في التماثيل، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة، وكان القوم عليه أشد حرصاً. هل تدري لماذا؟

إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر، وضبطه في دواوينه، والمبالغة في تحريره، خصوصاً شعر الجاهلية، وما عنى الأوائل، رحمهم الله، بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل. فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى. إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية، يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا، والطمأنينة والتسليم، وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً، يصورونه مثلاً في حالة الجزع والفزع، والخوف والخشية. والجزع والفزع مختلفان في المعنى، ولم أجمعهما هنا طمعا في جمع

عينين فى سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة، ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية. ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع؟ وما الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك؟

أما إذا نظرت إلى الرسم، وهو ذلك الشعر الساكت، فإنك تجد الحقيقة بارزة لك، تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك. إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك: رأيت أسدًا: تريد رجلاً شجاعًا، فانظر إلى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلاً أو الرجل أسدًا، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها.

إن كنت فهمت من هذا شيئا، فذلك بغيتى. أما إذا لم تفهم فليس عندى وقت لتفهيمك بأطول من هذا، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين ليوضح لك ما غمض عليك إذا كان ذلك من ذَرْعه(١١٢).

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية، أو أوضاعهم الجسمانية؟ هل هذا حرام؟ أو جائز؟ أو مكروه؟ أو مندوب؟ أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم، والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحى من الأذهان. فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتى وهو يجيبك مشافهة.

فإذا أوردت عليه حديث: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون»، أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين: الأول: اللهو والثانى: التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين. والأول مما يبغضه الدين، والثانى مما جاء الإسلام لمحوه، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به.

فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير

النبات والشجر فى المصنوعات، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف، وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر.

وأما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعًا فى أن الملكين الكاتبين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صور، كما ورد، فإياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل، فإن الله رقيب عليك وناظر إليك حتى فى البيت الذى فيه صور. ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورًا!!

ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة، فإنى أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضًا مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب؟!

وبالجملة، إنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من وجهة العقيدة ولا من وجهة العمل.

على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليَحْرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء، أو ما سماهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة، ولم يطلع لهم أحد على سريرة؟! ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع؟! وهم يخشونها كخشية الله أو أشد، ويطلبون منها ما يخشون ألا يجيبهم الله فيه، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى.

لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد، ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية، وتمثيل الصور الذهنية.

هل سمعت أننا حفظنا شيئًا حتى غير الصور والرسوم مع شدة حاجتنا إلى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التى كان يُقَدَّر بها نصاب

الزكاة، ولا يزال يقدر بها إلى اليوم، أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنيهات والفرنكات ونحو ذلك، ما دام المثال الأول موجوداً بين أيدينا؟ ولو حفظ «الصاع» و«المد» وغيرهما من المكاييل، أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة ما يصرف فى زكاة الفطر، وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل؟! وما كان علينا إلا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل إلى حقيقة الأمر بدون خلاف.

أظنك توافقنى على أنه لو حفظ «درهم» كل زمان و«ديناره» و«مده» و«صاعه» لما وجد ذلك الخلاف الذى استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفًا عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان «أحمد بيك الحسيني»(١١٣) يخطئ بعضهم، ويوفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه «صاع» ولا «مد» من تلك الأصع» و«الأمداد».. وما أصعب التخطئة والتوفيق، إذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق.

لو نظرت إلى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً لا يحصى عده، ولم نحفظ منه شيئا، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا. ولكن ما نقول فى الكتب وودائع العلم: هل حفظناها كما كان ينبغى أن نحفظها؟ أو أضعناها كما لا ينبغى أن نضيعها؟! ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسُه. فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر أو مصنف جليل أو أثر مفيد، فاذهب إلى خزائن بلاد أوروبا تجد ذلك فيها. أما بلادنا، فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوروبيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية. وقد تجد بعض النسخة من الكتاب فى دار الكتب المصرية مثلاً وبعضها الآخر فى دار الكتب بمدينة «كمبردج» من البلاد الإنكليزية.

ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دفاتر العلم، لكتبت لك فى ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره وتجده بعد مدة فى يد أوروبى فى فرنسا أو غيرها من بلاد أوروبا!!

نحن لا نعنى بحفظ شىء نستبقى نفعه لمن يأتى بعدنا، ولو خطر ببال أحد منا أن يترك لمن بعده شيئا، جاء ذلك الذى بعده أشد الناس كفراً بتلك النعمة، وأخذ فى إضاعة ما عنى السابق بحفظه له. فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا، وإنما الذى

يتوارث هو ملكوت الضغائن والأحقاد تنتقل من الآباء إلى الأولاد حتى تفسد العباد، وتخرب البلاد، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد.

(الرسم)

إن الرسم على الورق والأثواب ونحوها لا يمنع استعماله، وإنما يتجافى عنه بالنظر تزهداً وتورعاً[114].

أميرة وأمير من الأسرة الخديوية

البحر هادىء، والهواء عليل، وقد قرب الغروب، واليوم آخر أيام السفر، وأنا محبوس فى هذا المكان الضيق لتحرير هذه الأحرف إجابة لطلب بعض الناس. وبودى لو أستنشق الهواء، لكن بقيت على قصة أقصها، ولو تركتها اليوم لم يعد إليها القلم فى يوم.

صعدت إلى المركب من «مسينا» وجلست أنتظر مسيره. وبينا أنا كذلك، إذا بأمير من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم إلى السطح، فنهضت للسلام عليه، وتساءلنا عن مراحل أسفارنا، وفهمت منه أن معه حرمه، وهى من أعضاء العائلة الخديوية كذلك.

فقلت أمير جليل، ربى على الطريقة الأوروبية، وتعود السفر إلى بلاد أوروبا مع حرمه، وهى كذلك قد رُبِّيَت على العظمة والحرية، فلا ريب أن ترى الأميرة مع الأمير. ولا يقدح ذلك فى كرامة واحد منهما، فإن الأميرات المصونات قد يَرَيْن الناس من حيث لا يراهن الناس، لا لأنهن من عالم غير عالمهم، ولكن لأن الناس يغضون الطرف احترامًا لهن، ولا حظر عليهن فى رؤية من يراهن.

لكنى مكثت مع الأمير إلى وقت العصر، ثم تركته وذهبت إلى محل الأكل لأتناول شيئًا مما يُتناول فى هذا الوقت، فكان جلوسى مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين فى الإسكندرية، فبدأونى بالكلام، فتكلمت. وامتد بى وبهم الحديث إلى حالة المركب، وازدحامه بالركاب، وضيقه عنهم. فقال قائل أو قالت قائلة: ما أسوأ ما صنعت الشركة مع البرنسيس، فإنها وضعتها فى قمرة ضيقة لا شباك لها، وهى ملازمة لها ليلها ونهارها، ولو كانت ممن يخرجن ويستنشقن

الهـواء لسـهل الأمـر، ولكن الأمـيـرة لا تخـرج قط من يوم ركـبت المركب، ومن القمرات ما هو أفضل من قمرتها وأوسع.

فسـألت هل بهـا شيء تألم له لو خـرجت؟ فقيل لى: لا، الظاهر أنها فى غـاية الصحـة وكمال العافيـة، غير أنهـا لا تحب أن تخرج، والقمـرة مقفلة فى جـميع الأوقات.

أمكننى بعد ذلك أن أسأل حتى يتم سرورى بما فرحت لأوله، فعلمت أن الأميرة كانت في أوروبا تسدل على وجهها نقابا أزرق على نحو ما يسدل نساء الآستانة أو سوريا، بحيث لا يميز الناظر شيئًا من وجهها. ومتى ركبت المركب لزمت قمرتها وأغلقتها عليها إلى أن تصل إلى غاية سفرها. وكل ذلك تفعله حرصًا منها على كرامتها ومحافظة على المعروف من عوائدها، من حيث هى أميرة مسلمة.

فقلت: مثل صالح لا بد من ذكره والثناء عليه، حتى يتعلم أولئك المقلدون أن من أمرائهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده، وأن خيراً لهم أن يقلدوا أميراً مصريا من العائلة الخديوية الكريمة، من أن يقلدوا جماعة من الأوروبيين غير معروفين لهم، ولا يحسون بتقليدهم، ولا يستفيدون من حذوهم إلا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون، واختفاءهم فى غمرة أولئك الأوروبيين لا يتميزون عن عامتهم في شيء، وسريان ما يشكو منه القوم من الفساد إلى أنفسهم أو أنفس نسائهم. فبارك الله فى الأمير وفى الأميرة، وأرشد الله شبابنا إلى التأسى بهما، إن كان لابد لنسائهم أن يذهبن إلى أوروبا لمداواة علة، أو إيناس فى غربة.

لعلك تسأل، من هذا الأمير؟ ومن هذه الأميرة؟ فإنى أقول لك: الأمير هو الأمير عباس باشا حليم والأميرة هي الأميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حلمي. ومما يسرك - إن كنت مثلى تحب العفة ووضع الشيء موضعه - أن الأمير لا ينفق في سفره إن كان وحده أكثر من ثلثمائة وخمسين جنيها، وإذا كان مع الأميرة فلا ينفق أكثر من ستمائة جنيه في مدة شهرين ونصف، وهو يعيش عيشة الأمراء.

تقول: لعله يقتصد ليكتنز، ويوفر ليستكثر. فأقول لك: إنى علمت أنه ينفق من ماله فى تربية تلامذة فى مصر وفى الآستانة وفى إنكلترا يتعلمون العلوم العالية فى المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة، فما قولك فى نفقة مثل هذه بدل

النفقة فى الشهوات وفوائت اللذات؟ ألست توافقنى على أنه من أفضل الأمراء عملاً ومن أنبلهم قصداً، فإنه يربى أناسًا يقومون بشئون بيوتهم، أعْرفُ بعضَهم وأجهل بعضًا؟ ألا يكسب بهذا حسن الأحدوثة وتخليد الذكر، خصوصًا إذا استزاد من هذا الخير؟ فإنه بذلك يقوى عناصر العلم فى البلاد وهو الأصل الذى نحتاج إليه، لا سيما إذا انضم إليه حسن التربية كما هو مقصد الأمير.

ولو اقتدى به الأمراء، لأصبحنا فى ثروة من العلم، ولم يصب حضراتهم بالإفلاس من المال بعد الإفلاس من الكمال.. وفقه الله، وأرشدهم، والسلام.

إعانة منكوبى حريق ميت غمر (١١٥)

عرض لى ما منعنى من قراءة الجرائد نحو أسبوع، كنت أسمع فيه بحادثة «ميت غمر» من بعض الأفواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضى، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبى أكله لجسوم أولئك المساكين سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادى ما يصهره من لحومهم.

أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلاً. وكيف ينام من يبيت يتقلب فى نعم الله وله هذا العدد الجم من أخوة وأخوات، يتقلبون فى الشدة والبأساء؟ أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة، وما أستطيع قليل لا يغنى من الحاجة، ولا يكشف البلاء. ثم رأيت أن أدعو جمعًا من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر، فى أقرب وقت، وكان يوم السبت، فحضر منهم سابقون، وتأخر آخرون، بعضهم يعتذرون، فشكر الله سعى من حضر، وجزى خيرا من اعتذر، وغفر لمن تأخر.

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية. وكنت كتبت من قبل إلى سعادة «السر تشريفاتى»، فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد أن الجناب العالى قبل ذلك.

سبق السابقون من أرباب الجرائد إلى الدعوة، وفتحوا باب الاكتتاب فى الخير، فجزاهم الله أفضل الجزاء.

ولكن الكثير إذا تفرق قليل، والوافر إذا تشتت يسير، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة فى مركز (الجمعية الخيرية الإسلامية) أن يكتب إلى حضرات

المكتتبين الأولين بالانضمام إلى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم إلى لجنة الإدارة العاملة إذا شاءوا.

شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن، ودعى أناس كرماء فى بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل فى نواحيهم، وسيكتب إلى غيرهم من أعيان المديريات الأخرى.

ليس الحادث بذى الخطب اليسير، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئين، منهم الأطفال الذين فقدوا عائليهم، والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورءوس أموالهم، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون إليه، ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة. لهذا رأيت ورأى كل من تفكر فى الأمر أن يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين.

كتبت إلى حضرة مأمور مركز «ميت غمر» ليفيدنى برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزى «ميت غمر» و«زفتى»، هل يكفى لدفع الضرورة الحاضرة، ولغذاء الناس، وستر عوراتهم، ووقايتهم من الموت؟ ثم طلبت إحصاء وقتيا لأصناف المصابين وطبقاتهم، حتى يكون ذلك التوزيع على قاعدة صحيحة. وسنرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه واف بالمقصود، متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة.

سيودع ما يجتمع فى خزينة محافظة العاصمة حسب ما رآه المجتمعون بالاتفاق، وفى ذلك ضمانة من الضياع، وبُعْد عن مرامى الظنون، وما بقى من تفصيل محضر اللجنة فهو على ما تراه بعد.

هذا ما رأيت أن أكتبه عن سبب الاجتماع وخبره، وأختم ذلك بالمنشور الذى أتوجه به إلى أهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة من بذل مال وبذل سعى.

(منشـــور)

لقد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ما عليه أهل «ميت غمر» بعد الحريق الذى أصاب بلدتهم. فهم بلا قوت، ولا ساتر، ولا مأوى. فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته، أفما كان يتمنى أن يكون كل الناس فى معونته؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به ما نزل بهم، ولينفق من ماله وهمته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر، إن شاء الله ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٧). ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨). فكذبوا وعد الشيطان، وثقوا بوعد الله، فكلكم يؤمن بالله، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين، وأقدر القادرين. فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئا من مالكم فى مساعدة إخوانكم وأن تبذلوا ما فى وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم فى هذا العمل، وترسلوا بما تجمعون إلى الداعى.

رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية

محمد عبده

إصـــلاح القضـــاء

تقرير إصلاح المحاكم الشرعية (١١٦)

حقانية ناظرى سعادتلو أفندم حضرتلرى

علمت عقب تعيينى فى وظيفة إفتاء الديار المصرية أن سأكون عضواً فى اللجنة التى عزمت الحكومة الخديوية أن تكل إليها النظر فيما يجب إدخاله على المحاكم الشرعية من الإصلاح الشرعى والنظامى، فرأيت من الواجب على أن أكون على بصيرة من الأمر العظيم الذى سأدعى إلى البحث فيه، وأنه لا يتم لى ذلك إلا بالاطلاع على ما هو جار فى هذه المحاكم والبحث فى العلل التى عم الكلام فيها، وما يجب أن يوضع لها من الدواء، مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله، ومراعاة مصالح العامة والآخذين بأحكام الشريعة المطهرة فى عقائدهم ومعاملاتهم، وإزالة ما عمت منه شكواهم مما ينسب إلى عمال المحكمة أو العوائد المتبعة فى سير أعمالها.

ورأت نظارة الحقانية ما رأيت، فسألتنى أن أمر على المحاكم مدة الصيف الماضى، وأنظر فى أعمالها، وأقدم لها نتيجة ما تيسر لى من البحث فى أحوالها. فطفت على كثير من محاكم الوجه البحرى، واطلعت على ما أمكن الاطلاع عليه من سجلات ومضابط ومرافعات، وسير فى الأعمال. وعرضت ذلك على ما تقرر من أحكام الشريعة الغراء، وما وضع من اللوائح للمحاكم الشرعية، واستخلصت مجموع آراء أقدمها بين يدى سعادتكم، وأرجو أن تكون موضوع نظر يأتى بالفائدة إن شاء الله.

وسألم فى تقريرى هذا بأهم ما يجب النظر فيه الآن، وأدع ما دون ذلك إلى المستقبل. وأبدأ مما أقصد بمقدمة قصيرة فى بيان موضع المحاكم الشرعية من بناء الحكومة المصرية، ومنزلتها من مصالح الأمة الإسلامية.

مقـــدمة

الحاجة إلى المحاكم الشرعية

تدخل المحاكم الشرعية بين الرجل وزوجته، والوالد وولده، والأخ وأخيه، والوصي ومحجوره. وما من حق من حقوق القرابة القريبة والبعيدة إلا ولها سلطان السيطرة عليه والقضاء فيه. وإنها لتنظر من ذلك في أدق الشئون وأخفاها، ويسمع قاضيها ما لا يسمح لأحد سواه أن يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته أو الزوجة لزوجها. فكما أنها هياكل عدل، هي كذلك مستودع سر، وأي سر. فمنزلتها من نظام الأسر (العائلات) تلي منزلة المحبة وروابط القرابة؛ فإذا تراخت تلك الروابط ومرضت المروآت تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعية.

وللشريعة الإسلامية في ذلك دقائق لا يسهل الالتفات إليها إلا على من أحاط علمًا بكليات أحكامها، ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها ووصل إلى أدق معانيها، وكان من العلم بلغتها في منزلة يعرفها أربابها. ولن يكون الرجل كذلك حتى يأخذ الشرع من أهله، وتكون تربيته على السنة الدينية الصحيحة، ثم لا يكون القاضي حافظًا نظام الأسر والبيوت بعد الإحاطة بأحكام الشرع حتى يكون للشرع وأحكامه سلطان أي سلطان على نفسه.

ترى أن أغلب أهل الطبقة الدنيا وعدداً غير قليل من أهل الطبقتين الوسطى والعليا قد ودعوا عواطف الصهر والقرابة، ولجئوا في علائقهم البيتية إلى المحاكم الشرعية. فمن النفقة والسكنى وراحة الزوجة من منازعة أهل الزوج، ومن مئونة وقيام بشئون الأولاد وتربيتهم إلى سن معلوم، وما يلزم لذلك، كله مرجعه الآن

إلى المحاكم الشرعية عند من ذكرنا. ولا يخفى أن الشعب إنما هو مؤلف من البيوت التى تسمى عائلات، وأساس كل أمة عائلاتها، لضرورة أن الكل إنما يقوم بأجزائه.

ولما تعلقت مصالح البيوت فى أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم، تبين مقدار حاجة الأمة فى صلاحها إلى صلاح هذه المحاكم، وظهر أن منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذى لو ضعف ظهر أثر ضعفه فى البنية بتمامها.

إذا ظهرت هذه المحاكم في مظهرها الديني، وسارت سيرتها الشرعية القويمة، أدخلت أصول النظام فى أصغر البيوت، فضلاً عن أعلاها، وأعادت بالعدالة الأبوية ما فقده الناس من نظام الألفة. وقد رأينا أن الرجل يدخل المحاكم الأهلية مخاصمًا فيخرج منها محاميا، فأحرى بمن يقوم بين يدى قاضٍ ينطق بالعدل الإلهى أن ينقلب وفي نفسه أثر من خشيته.

للمحاكم الشرعية، بعدما تقدم، نظر في حقوق الميراث وأصول الأوقاف والاستحقاق فيها. وإليها وحدها الفصل فى ذلك. والمخاصمات فى هذه الطائفة من الشئون ليس عددها بقليل. وكم رأينا من قضايا أوقف النظر فيها أمام المحاكم الأهلية حتى يقضي الحاكم الشرعي فيما بنى عليه الحق المتنازع فيه. هذا إلى ما عهد إلى تلك المحاكم من تحرير العقود الرسمية فى كل باب من أبواب المعاملات، ولا تزال ثقة الناس بها أشد من ثقتهم بالمحاكم المختلطة، ويعدون التسجيل فى أقلام كتاب المختلطة ضربًا من التساهل يأتيه من لا يريد بناء أمره على أساس متين.

مهما هم قوم بتضييق دائرة اختصاص هذه المحاكم، وجدوا عقبات في طريقهم، وصعب عليهم المنال. ولئن نجحوا، فلن يستطيعوا أن يضعفوا من حاجة الناس إليها. فمن الحق أن يشتكى الناس من الاعتلال الذى عرض لها، ومن الحق أن ارتفعت أصواتهم بطلب الإصلاح، ومن العدل، بل من الواجب الذى لا تبرأ الذمة إلا بأدائه أن تسمع الحكومة شكوى الكافة، وأن تنهض لتخفيف آلام الشاكين وتدخل إلى الإصلاح من أبوابه. وجزى الله من اهتم بشأن هذه المحاكم خيراً.

وشكوى الناس تنحصر فى صعوبة المعاملة مع الكتاب، وطول الزمن على

القضايا، خصوصًا إن كانت مهمة، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة، فضلاً عن سائر العامة، وهوى القاضي أو ضعف يقظته.

وشكوى القضاة تنحصر في رداءة مقامهم، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التى لابد منها. والنظام يشكو من التساهل في المحافظة عليه. وسيأتي الكلام على جميع ذلك، ولكن على ترتيب آخر، فإني سأبدأ في عرض ما ينبغي أن يكون بما بدا لي على ترتيب ما يلاقي الذاهب إلى المحكمة لشأن من شئونه.

أماكن المحاكم

إذا ذهبت إلى ديوان مديرية وأردت أن تعرف محل المحكمة الشرعية في ذلك الديوان، فابحث عن أردإ محل فيه تجده هو مكان المحكمة الشرعية!! فإن كانت المحكمة منفصلة عن المديرية، فقلما تجدها إلا في محل لا يسع عمالها ودفاترها، وذلك حرصًا على تخفيف الأجرة بقدر الإمكان. ومن محاكم المراكز ما تراه في بيت خرب، ومحل القاضي والكتبة يثور التراب من أرضه، فإذا رشوه بالماء انقلب وحلاً!! وترى، فيما ترى، محكمة مديرية تهدم بعض بنائها، وظهر وهن في سقف السلم، والطريق الموصل إلى بعض مرافقها يمر الذاهب منه على جذع نخلة غير آمن خطر السقوط.

وترى في أكبر محكمة في البلاد أن أربعة عشر كاتبًا مع مكاتبهم من الخشب أمامهم في محلين، سعة كل منهما لا تزيد عن أربعة أمتار في ستة، فيكون الكاتب ومكتبه في أقل من متر مربع. ومما يروى من المهانة أن أحد مأموري المراكز طرد قاضيًا من محل محكمته. أما الفرش والأثاث، فقلما تدخل محكمة، خصوصًا من محاكم المراكز، إلا وتشمئز نفسك لرثاثة الأثاث ووساخته. والكراسي التي توجد في هذه المحاكم هي من الصنف المعروف بالأخضر الذي لا يوجد له أثر في ما نعرف من دواوين الحكومة، عاليها ودانيها، إلا في هذه المحاكم الشرعية، وإذا وجدت عشرة كراسي مثلاً فست منها لا تخلو من كسر وانتقاض فتل.

وحدثنا بعض القضاة أنه دخل محكمة مركز فوجد فيها كرسيا واحدًا يجلس عليه القاضي، ورأى الكتبة يجلسون على مقاعد من صناديق الغاز. وكيف لا تتألم

النفس ويطول الأسف، عندما ترى حالة المحل الذى يستريح فيه سماحة قاضى محكمة مصر الكبرى من تمزق الفرش ورثاثته، وكذلك حالة بقية أماكن الكتبة والقضاة فيها؟!

ثم يتبع هذا التقتير في جميع المواد، حتى إنك لترى بعض المضابط فى محاكم المراكز قد طمست سطورها من رداءة الحبر. فإذا سألت عن ذلك، قيل لك إن الحبر يشتريه الكتبة من مالهم الخاص عند نفاد الحبر الذى تصرفه لهم المديرية وإبائها صرف غيره. ولا تسل عن المكاتب ورثاثتها وحالتها من القدم وقبح التركيب وما عليها من طبقات الوسخ.

أليس لعمال هذه المحاكم حق أن يسقطوا من نظر أنفسهم، وأن يظنوا أنهم ليسوا بواقعين تحت نظر الحكومة، وإلا لما سهل عليها تركهم على هذه الحالة؟!.. ولا شيء يضر بعمل الإنسان مثل اعتقاده فى نفسه الهوان والضعة. أليس هذا يسقط مقام العدالة من نفس المتقاضين، ويقلل من احترامهم لما تصدره هذه المحاكم من الأحكام، كما هو جارٍ الآن؟!

يجب علينا ألا ننسى أن لحالة المكان أثرًا فى أنفس الداخلين فيه، وأن الحكومات المتمدنة نفسها تغالى فى إقامة هياكل العدل على قواعد المهابة والإجلال علمًا منها أن الملك ملك بعرشه وأن العرش برياشه وفرشه.

فالواجب إذن على الحكومة أن تدخل المحاكم الشرعية فى كل رسم ترسمه لبناء مسكن من مساكن الإدارة. ففى المديريات تفرض للمحاكم الشرعية موضعا فيه من الأماكن ما يكفى للجلسات وعمل القضاة منفردين بعد الجلسات وقبلها، وللكتبة والدفترخانة والمخازن ونحو ذلك مما يلزم للمحكمة. وكذلك يكون الأمر فى المراكز. وما بنى بدون أن يراعى فيه ذلك يجب أن يتمم، مع الإسراع بقدر الإمكان. ثم ينظر فى تلك المحاكم جميعها، وتوفى ما يليق بشأنها من حيث هى جزء من بنية حكومة عظيمة جديرة بالاحترام فى جميع شئونها، حتى يرتفع شأن الموظفين عند أنفسهم وعند الناس، ويقتنع المتقاضون أن القضاء الشرعى ليس فى نظر القوة المنفذة بأحط شأنا من غيره، فيخضعوا لأحكامه. وفى ذلك كرامة الحكومة ونظامها.

ويتبع الكلام فى المساكن الكلام فى الكتبة، لأنهم أظهر عضو فى جسم المحكمة . وعلاقاتهم بالمتخاصمين والمتعاقدين وطلاب الصور وغيرهم تتقدم على صلة الناس بالقاضى، كما هو معلوم .

ليس من السهل أن يقف الإنسان فى زمن قليل على سيرة كل كاتب . وغاية ما يقال : إن الشاكين منهم أكثر من الراضين عنهم . والذى يتبين للناظر فى أمرهم هو أن أكثرهم لا يعرف كيف تعلم صناعة الكتابة، ولا أين كانت تربيته، وليس لانتخابهم قاعدة معروفة، وكثير منهم كانوا تلامذة عند سلفهم ثم عين فى الوظيفة لأنه تمرن على عملها . ومنهم من يكون السبب فى تعيينه فقره لا غيره، ومنهم من يكون له مزية سوى الفقر، ولكنها ليست مما يزيد فى معرفته ولا حسن سيرته!! أما معرفتهم فناقصة، وقليل بينهم الكفء لعمله . وإنما يحفظون ألفاظًا وعبارات رديئة التركيب مشوشة التأليف يظنون أنها ملك موروث ولا يمكن أن يقوم مقامها ما يؤدى معناها .

والناظر فى العقود والمرافعات يعرف مقدار ما عليه هؤلاء العمال من القصور، على تفاوت بينهم . ويكفى فى هذا الباب أن أحد كبراء الحكومة لم يستطع أن يفهم عقداً عقده لنفسه إلا بواسطة أحد مفتشى الحقانية حيث فسره له وأوضح معناه!! فما ظنك بحال غير المتعاقدين؟!

ولكنك ترى فى مرتباتهم ما يلتمس لهم معه العذر . . فالكاتب الذى يقيم ثمانى وعشرين سنة أو أكثر يتردد بين مائتى قرش وثلثمائة وخمسين وهو كاتب أول المحكمة، ولا يطلب لنفسه معيشة أرقى من هذه، لا يمكن أن تكون معارفه أرقى مما هو عليه إلا أن يكون زاهداً من الزهاد . نعم . . لا يوجد فى مرتبات الكثير من الكتبة ما ينتهى إلى ألف قرش إلا فى محكمتى مصر والإسكندرية . وفى محكمة مصر مرتبات أرقى من ذلك للكتبة ما بين العشرة والأربعين، ولكن لا توجد قاعدة للترقى بحيث يتناوب هذه الوظائف ذات المرتبات العالية رؤساء الكتاب فى المديريات والمحافظات، بل حفظت الوظائف لأشخاص معينين متى دخلوها خلدوا فيها، وكذلك حال الوظائف التى تربو على خمسمائة قرش فى

المديريات والمحافظات . . أما فى المراكز فقليلاً ما يزيد مرتب الكاتب عن ثلثمائة وخمسين قرشاً .

وأضف إلى ذلك اختلاط أرباب الحاجات بالكتاب ، وما تجده من الفوضى فى كثير من المحاكم ، فصغار الكتبة لا يخضعون لرؤسائهم ، وضعف القاضى فى المعارف الكتابية يعين على ذلك ، وفى هذا من الخلل ما لا يخفى .

أما عدد الكتبة فربما كان دون ما يفى بحاجات المحاكم فى الجملة ، وإن كان يوجد فى بعض المحاكم ما يزيد عما يكفيها .

الكتبـــة

أرى أولا : أنه يجب وضع قاعدة لانتخاب الكتاب وتعيينهم، وأن يشترط في تعيينهم معرفة اللغة العربية علما وعملاً، وشيء من فقه الشريعة الإسلامية . . فليس من المعقول أن محكمة تحافظ على لفظ «هذا» و«هذه» و«هؤلاء» ولا تحافظ على جودة أساليب الكلام الذى يتوقف عليها فهم المعانى .

وهذا الشرط إن لم يمكن تحقيقه الآن فى كثير من الناس لكن يمكن تحديد أجل له، وتوضع قاعدة الامتحان من اليوم، وينتخب الأعرف فالأعرف، وبعد الأجل الذى يضرب، وغايته أربع سنوات، لا يقبل فى وظيفة الكتابة بالمحاكم الشرعية إلا من نظر بالامتحان معرفته للغة العربية، خصوصًا فى التحرير الصحيح، وللحساب، وشيء من نظام المحاكم الشرعية وطرق التحرير فيها، ويمكن أن يزاد على ما اعتبر فى شهادة الأهلية على حسب نظام الجامع الأزهر أن يمتحن الطالب فى الإنشاء والكتابة وحسن الخط والحساب وآداب الدين ونظام المحاكم الشرعية، وبذلك تكون شهادة الأهلية كافية وحدها لانتخاب حاملها كاتبًا فى المحاكم الشرعية بدون امتحان، ويكون الجامع الأزهر أو ما يلحق به منبتا لخدمة الشريعة كتبة وقضاة، وهو أفضل ما يرجى من هذا المكان الشريف .

ثم توضع قاعدة لترقيهم، ينتقل الأكفاء خلف الأكفاء، لا يثب أدناهم فوق رءوس أعلاهم، ويرتبون على حسب كفاءتهم على وجه لا ينقض إلا بأسباب معروفة، ثم يوضع لهم نظام كالمعروف «بالكادر» . . ويفرض لهم زيادة فى المرتبات وتحدد لهم درجات لها مبدأ ووسط ونهاية كما هو الجارى فى جميع وظائف الحكومة من هذا القبيل، وهو أمر يستدعى أن تسخو نظارة المالية بشيء من

إيراد هذه المحاكم لها. فإن كان ذلك لا يمكن في العام القابل، فلتوضع القاعدة وليكن تنفيذها بالتدريج حسبما يستطاع إلى أن يتم الأمر على وجهه.

ثم تصنع في محل الكتاب نافذة يخاطبهم منها طالب الصورة أو الإعلان أو الإعلام الشرعي، ويناوله الكاتب منها ما يريده، على ما هو معروف في قلم محضري المحاكم الأهلية، حتى يقل الاختلاط بين الناس وبين الكتاب.

أما العقود والإشهادات فيحضر المتعاقدان فيها أمام القاضي، ويأخذ الكاتب منهما جميع ما يحتاج إليه من أسماء وألقاب ومحال إقامة وحدود وشهود ونحو ذلك، ثم ينصرف الكاتب ويحرر العقد ويقيده في مضبطته بدون حضور المتعاقدين، ثم يأتي المتعاقدون ويتلى العقد عليهم أمام القاضي فيوقعون عليه ثم يضرب لهم أجل لأخذ الصورة. وهذا لا عسر فيه ولا مانع منه إلا كسل القاضي وتحكم الكاتب.

وعلى النظارة أيضًا أن تحدد علاقة الكتاب برئيسهم وهو الباشكاتب أو الكاتب الأول، وأن تحدد وظيفة رئيس الكتاب وما يناط به من العمل وما يدخل في عهدته من المواد حتى يعرف كل عمله فيسأل عنه. أما تخصيص أفراد الكتاب بأنواع الأعمال فذلك يكون إلى الباشكاتب باتحاده مع القاضي، ثم ينظر فيه كل سنة، وينقل الكاتب من عمل إلى عمل حسب استعداده حتى لا يشتهر كاتب بين الناس بأنه صاحب عمل كذا دون سواه.

وهنا أذكر أمرًا لاحظته في توطن الكتبة، وهو أن بعض محاكم المراكز يتفق أن الكاتب يسكن في بلدته التي فيها زراعته، وربما يغيب عن المحكمة في أوقات العمل، أو يغيب اليوم كله، كما وجدنا في محكمتي «زفتى» و«ميت غمر»، فيجب أن يراعى ذلك.

القضـــاة

قبل أن أقول كلمة فى ما عليه الأغلب من هؤلاء القضاة، أقول: ليست المحاكم الشرعية وحدها هى التى ابتليت بضم الضعفاء وغير الأكفاء فى جوانبها، فكثير من القضاة فى المحاكم الأهلية لا يزيدون فى معارفهم عمن كثر الكلام فيهم من قضاة المحاكم الشرعية، وما يتحدث به من الأحكام المخالفة للشريعة صادراً عن هذه المحاكم يتحدث به مخالفًا للقانون والعقل صادراً من محكمة أهلية أو مختلطة، وقد رأينا ذلك وشاهدناه، والحكومة تعرف كثيراً منه، والكمال غاية يسار إليها، ولكن يحول دونها ضعف الإنسان وعجزه.

وجدت كثيراً من قضاة المحاكم الشرعية، خصوصاً فى المراكز، لا تسر معارفهم الشرعية والنظامية، ولا يُرضى العدل سيرُهم فى أعمالهم، ولذلك وجدت الحاذق منهم يحول جميع القضايا، تقريبا، إلى محاضر صلح، تجنبا للحكم، ولا يلبث المتصالحان بين يديه أن يختلفا، لأن الصلح غير حقيقى. ووجدت فيما يوجد من الأحكام خطأ كثيراً، وأكثر ما يعولون فى تطبيق اللوائح على الكتبة، ومنزلتهم من العلم ما وصفنا فى الباب السابق.

تكرر من نظارة الحقانية وضع قواعد لانتخاب القضاة، وكان فيها أن يمتحن الطالبون فى النظارة، ثم اكتفى بما وضع فى اللائحة الجديدة. ولجنة الانتخاب التى نيط بها تعيين القضاة وترقيهم ليس لها إلا تخير الأشخاص من بين حاملى شهادة العالمية أو القضاة أو المفتين، ولا بحث لها فى سيرهم الشخصية وقت الانتخاب، كما عرفته من رواية الأجلاء من أعضائها.

وأرى من الواجب أن تبقى شهادة العالمية معتبرة كما هي في اللائحة، لكن يجب أن يزاد على ما تقرر في نيل هذه الشهادة أن يتلقى الطالب كتابا من كتب الفقه على الطريقة العملية في أبواب القضاء والمعاملات، وأن يمتحن في الفقه بهذا الاعتبار، وأن تكون له معرفة بالحساب وبالكتابة والتحرير وبنظام المحاكم الشرعية، وعلم كاف بالآداب الدينية، وشيء من التاريخ، وتقويم البلدان، مما يزيد الرجل بصيرة في الناس وأحوالهم، وأن يكون من حسن الخط بحيث يمكن قراءة ما يكتبه، وهذا أمر ميسور متى فرض ذلك على كل من يطلب وظائف القضاء والإفتاء من طلبة الجامع الأزهر وما ألحق به. فإن لم يمكن في هذا اليوم، فليضرب له أجل أربع سنوات لا يقبل بعده في هذه الوظائف إلا من عرف تحصيله لهذه المعارف، ثم يبحث من مشيخة الأزهر ومجلس إدارته إن كان لم يوظف في جهة أخرى، ويسأل من شيخ علماء جهة إن كان من طلبة غير الجامع الأزهر ولكنه داخل تحت نظامه. وبعد هذا وذاك يعين، ويرجى منه الخير لعمله إن شاء الله. أما اليوم فيقدم من هو على شيء من هذه المعارف على غيره.

وإلا فالعمل جار على أن يعين أحد المشايخ، وقد كان على بعد تام من العالم وشئونه أيام إقامته في الجامع أو المدرسة، ولا يعرف من القضاء إلا ما قرأه في عبارات كتب الفقه، ولم يشهد مجلسًا من مجالسه ولم يعرف شيئا من نظامه الشرعي المعمول به في بلده، ولا يمكنه تحرير رقيم حسن الأسلوب مفهوم المضمون في أدنى شئونه، وربما لا يعرف أرقام الأعداد الحسابية، ثم يفوض إليه الحكم وهو على هذه الحالة فيلتجئ إلى الكاتب الذي يجده في المحكمة، فإن كان ذكيا أمكنه أن يتعلم في سنة أو ما يزيد عليها، وإن كان دون ذلك بقي تلميذا للكاتب إلى ما شاء الله. فمن كانت بدايته أن يكون تلميذا للكاتب فكيف تكون نهايته؟!.. وإني لا أنكر أن بعض القضاة صار بعد التمرن من أحسن رجال القضاء، ولكن لا يصح أن تكون الآحاد قواعد يبنى عليها العمل لمن يريد إحكامه.

وإني أحب أن أصرح بأمر ربما يغضب له بعض أهل الأثرة من أهل العلم الحنفية، وهو أننا مسلمون، وهيهات أن يتيسر لنا بعد فشو ما فشا من البدع في

الدين أن نحافظ على قوام الإسلام من حيث هو، وليس الزمن زمن تعصب لمذهب دون مذهب، ومن درس فقه الشافعية أو المالكية لا يعسر عليه فهم فقه أبي حنيفة، فإن الأصول متقاربة، والاختلاف في الفروع مذكور في أغلب كتب الفريقين. وحصر التعيين في الحنفية يضيق دائرة الانتخاب ويلجئ إلى تعيين الضعفاء في العلم والعزيمة، فلم لا يطلق الانتخاب من هذا القيد، فتتسع دائرته وينتفع من أهل الاستقامة والدراية عدد ليس بقليل ممن قضى في تحصيل فقه الشافعي أو مالك أو ابنّ حنبل اثنتى عشرة سنة فأكثر إلى عشرين أو ثلاثين، وجل ما حصله إنما هو في المعاملات؟!.. أرجو أن يصادف ما أتمناه قبولاً لدى العلماء والحكومة، فنجد العدد الكافي من الأكفاء.

لكن إذا توافرت هذه الشرائط في القاضي، وكان من المعارف على ما ذكرنا، أفلا يمكنه أن يحصل معيشته بأسعد مما يناله في خدمة المحاكم الشرعية؟! وهل تجد عدداً كثيراً يقضي حياته بمرتب ستمائة قرش؟ وإذا ترقى فلن يصل إلى ألفى قرش إلا بعد أن يفوق الأقران ويجوز كثيرا من العقبات؟ أما ما زاد من المرتبات على ذلك فهو وظيفة واحدة بثلاثة آلاف قرش، وأخرى بأربعة آلاف قرش في محكمة الإسكندرية، ثم تأتي وظائف المحكمة العليا والواصلون إلى هذه المراكز قليلون جدا كما لا يخفى.

فأرى أن الحكومة التي تسعى إلى تكميل المحاكم الشرعية وتقويم حالها، لابد أن تزيد في المرتبات ما يفي بحاجة القضاة على حسب درجاتهم، وأن تضع نظاما لترقيهم في الدرجات يكفل نيل كل منهم حقه على نحو ما هو معروف في القضاء الأهلي. ولا أسأل الحكومة أن تجعل المقادير كالمقادير ولكن ألح في مراعاة النسبة بين العمل ومكانة الشخص وبين مرتبه، وبهذا يضمن النجاح إن شاء الله. وأرجو أن يكون ذلك من بدايات أعمال لجنة الإصلاح. فإنه من الغريب في حكومة يكون رئيس حجاب محكمة فيها بمرتب أحد عشر جنيها ووكيله بثمانية وأفراد الحجاب بستة وفراشو المحكمة بما بين ثلاثة ونصف إلى ثمانية، أن يكون المفتي، وهو أحد أعضاء المحكمة، بسبعة، أي أقل من رئيس الفراشين في محكمة من المحاكم في

القطر المصرى، ثم نطالبه بالمعارف الواسعة والاستقامة الكاملة، وجمهور القضاة فيها يترددون بين الستة والثمانية. وليلاحظ أني أطلب التدريج فى تنفيذ ما يتقرر بحسب ما تسمح به ميزانية الحكومة، ولا أكلف الأمة بغير المستطاع.

أما عدد القضاة والمفتين فأراه زائدا على قدر الكفاية فى كثير من المحاكم، وأرى تقليل عددهم واحالة من يستغنى عنه على من يبقى، وأن يزاد فى مرتبات الباقين ما يتوافر من الاستغناء عمن لا عمل لهم ولا يرجى منهم أن يعملوا.

وبعد الاطلاع على جميع أعمال المحاكم فى الوجه القبلى والبحرى بما يرد منها من جداول الأعمال يمكننى أن أضع لذلك مشروعا وافيا إن شاء الله.

بقيت أمور لابد من التنبيه عليها: منها عدم الاستقلال فى الرأى عند القضاة، وأهم سبب قريب له هو اشتداد علاقتهم بالنظارة فى الشئون القضائية، فتراهم يحسون أنهم مقيدون برأى النظارة فى أدنى الشئون فضلاً عن أعلاها، ويكفى أن أذكر أن محكمة رأت عدم اختصاصها بالنظر فى قضية هى من أولى ما تنظر فيه قياسا على رأى النظارة فى مسألة أخرى تشبهها.

ومن غرائب التضييق على القاضى فى غير الأمور القضائية ألا يؤذن له بصرف قرش فى ثمن مكنسة إلا بعد استئذان النظارة. وإذا انتقل لا يصرف له مصاريف انتقاله إلا بعد ورود إذن من النظارة. ولهذا التشديد وإن كان فى أمر غير قضائى إلا أنه يوجد فى النفس شعور الذلة والعبودية وضعف الثقة، وهو أخبث شعور يظهر أثره فى عمل الموظف.

ـ (وأرى أن تكون علاقة القضاة بواسطة قلم التفتيش الذى يرأسه المفتي على ما سنبينه).

ومنها أن كثيراً من القضاة يتحاشى سؤال الخصم فى ما يهم السؤال عنه خشية التهمة، ولكنه يستبيح لنفسه أن ينصح أحد الخصوم بأن يطلب شطب القضية وإلا حكم ببطلانها، أو أن يقدم القضية بطريقة أخرى غير التى عرضها، أو بأن يستأنف قرارا صادرا من قاض لأن محكمة الدفع التى هو عضو فيها تحكم ببطلانه، ونحو

ذلك . مع أن هذا ممنوع شرعا ونظاما لأنه إعانة لأحد الخصمين على الآخر . فأرى أن يشدد على أمثال هؤلاء القضاة فى حظر أمثال هذه المعونات وتنقية المحاكم مما لا ينجح فيه الإنذار والإعذار .

ثم لا يخفى أن أقوى ما يحفظ على القاضى استقامته واستقلاله فى الرأى هو أمنه على وظيفته . ولهذا أرى أن توضع قاعدة لعزل القضاة بحيث لا يعزل القاضى إلا بعجز عن العمل يظهر ظهورا بينا ، أو تعمد لمخالفة العدل والشرع أو النظام لغاية غير محمودة يثبت عليه ثبوتا كافيا فى إيقاع العقوبة به . . اللهم إلا إذا استغنى عنه بأفضل منه عند تنقيص العدد إذا استقر الرأى عليه .

الحُجّـــاب

ينبغي أن يعين للمحاكم الشرعية حجاب يقرءون ويكتبون ويستطيعون أن يحفظوا النظام إذا دعت الحاجة إلى ذلك في الجلسات، على ما هو معروف في الدوائر القضائية الأخرى. وهذا مما يطلبه القضاة ويلحون فيه.

الأعمال الكتابية

نبتدئ منها بالعقود والإشهادات وما يتبعها، لأن الكلام عليها لا يطول، على أنها من أهم أعمال هذه المحاكم، خصوصاً إذا رأت الحكومة فيما بعد أن تضع في قوانينها أنه لا يقبل سند على من لا يعرف القراءة والكتابة إلا إذا كان السند محرراً بحضرة مأمور قضائي. والمحاكم الشرعية هي الأقرب والأوثق عند الناس في مثل هذه الشهادات. على أن هذا النوع ليس بقليل الآن في دوائرها.

حفظ كتاب هذه المحاكم ألفاظا معينة يضعونها في أساليب معتلة مع تكرار بارد يعسر معه الفهم ويسأم منه الذهن. وقد عمت شكوى جميع القضاة من ذلك حتى إن سماحة قاضي مصر ذكر فيما طلب إدخاله من الإصلاح وتفضل بإرساله إليّ «الاختصار في الاستشهادات والمرافعات إلى الحد الذي لا يخل بالمطلوب شرعا». كأن ذلك أمر يحتاج إلى وضع قانون، وذلك ناشئ من جهل الكتبة وظنهم أن تلك الألفاظ في تلك الأساليب السمجة لابد منها شرعا ولا يصح العقد بدونها. وكان يوافقهم على هذا الزعم بعض القضاة، وربما لا نعدم من بقاياهم اليوم من يكون على رأيهم.

لهؤلاء الكتاب عناية بتعريف الأشخاص من متعاقدين وشهود وجيران فى الحدود يضيق لها الصدر ويضل فيها الفهم، ويحملون المشهد على ذكر جد جاره. وقد يكون ذلك الجار ممن لا يعرف أباه فضلاً عن جده، ويضطرونه إلى الكذب، مع أن المقصد من تعريف الشخص تمييزه، ويكفى فيه ذكر اللقب المشتهر به المعروف به فى بلده أو محلته بحيث لا يشركه غيره فى مجموع الاسم واللقب والصنعة ومحل الإقامة. ومع أن الشهرة تغنى عن ذكر النسب، فإنهم يعرفون الجناب الخديوى بذكر نسبه إلى جده، ويعرفون مدير الجهة أو محافظها بأبيه وجده، مع أنه سبق من المديرين من ربما لا يكون جده معروفا لأحد من الناس فى هذه البلاد ولا له نفسه!! وعندنا كثير من أبناء الجراكسة والأحباش الذين جىء بهم وهم صغار لا يعرفون آباءهم فضلاً عن أجدادهم، فذلك الجد أو الأب المجهول كيف يكون مميزا لهذا الرجل المعروف. على أن الناس يضطرون فى كثير من الأحيان إلى أن يخترعوا أسماء ليرضوا جهل الكاتب ويتخلصوا من حمقه.

يستشهدون على وكالة ناظر المالية عن الجناب الخديوى، ووكالة المدير عن ناظر المالية فى بيع أطيان الميرى الحرة بشاهدين، أحدهما معاون فى المديرية والآخر كاتب فيها، كأن هذين الشاهدين حضرا عقدى الوكالتين، ولا يكتفون بالأوامر الصادرة فى ذلك، ويعدونها من المؤكدات فقط!! وقد يتكرر عقدان فى صحيفة واحدة أو صحيفتين متواليتين ويذكر فى كل منهما تفصيل التعريف والشهادة على هذا الوكيل، ونحو ذلك.

فى بيع العقار وفى الوقف يأتون فى تفصيل المساحات والحدود بما لا يمكن معه فهم العقد، ويأتون فى شرائط الوقف وفى صيغته بأمور ألفوها يرتبك فى فهمها كل من قرأها، ومن هذا الهذيان يتولد أغلب المشاكل التى تحدث فى الأوقاف ودعاوى الاستحقاق.

من السخافات التى ألفوها أن يذكروا فى حجج إنشاء العمارة قولهم: «بعد أن ملك فلان أرض كذا عنَّ له فعل ما يأتى ذكره، وهو أنه أحضر المون المتقنة والآلات المحكمة من طين وجير وجبس وأخشاب وما يلزم لذلك من البنائين والفعلة والنجارين وغير ذلك مما يحتاج إليه ويتوقف أمر العمارة وتمامها عليه».. مع أن

المنشئ ربما لا يكون أتى بشيء من ذلك، وقد يكون هو البانى بيده، إن كان بناءً؛ وجاء من لوازم البناء بغير الجبس والجير مثلاً، وبنى بالطين والرمل، فلو نازعه منازع بأن هذا البناء ليس هو المذكور فى الحجة واستدل بأن مونته ليست متقنة وليس فيها جبس ولا جير لرجح عليه فى المخاصمة وضاعت العمارة من يده بحماقة الكاتب.

وقد رأيت إشهاداً بإقامة الجناب الخديوى ناظرا على وقف فى دمياط استغرق سبع صفحات بالخط الدقيق، ولو كتب بالخطوط المعتادة استغرق عشرين صفحة أو ما يزيد على ذلك، ومعظمه من اللغو الذى لا فائدة فيه، ويضر بفهم الكلام.

جاءنى رقيم بطريق البوسطة من أحد الأدباء يستغيث بى من تكرار لفظ «المذكور» و«المذكورة» فى عقود المحاكم ومرافعاتها، وعرض لى أن عددت هذين اللفظين فى شهادتين صغيرتين فوجدتهما تكررا سبعا وعشرين مرة، ربما يحتاج الكلام إلى أربع مرات منها والباقى لغو لا معنى له.

ورأى أن إصدار الأوامر بالاختصار لا يفيد فى تطهير المحاكم من هذه السخافة التى يتبرأ منها الشرع ولغته، بل لابد من تشكيل لجنة من أهل الشرع العارفين بطريق التوثيق وأذكياء الكتاب لتنظر فى هذا النوع من التحرير وتضع رسما لكل نوع من أنواع العقود وتوزعه النظارة على المحاكم ليحذو الكتاب عليه، وتوعد من خالفه بالتأديب إلى أن يوجد فى المحاكم أناس يعرفون اللغة العربية وما تدل عليه أساليبها الصحيحة مع الإلمام بالشريعة.

ما يكفل السرعة فى العمل

وضعت النظارة قواعد وأنشأت لها قسائم لو اتبعت لم يشك شاك فى تأخر العمل فيما يطلبه من المحاكم الشرعية، ولكن كثيرا من المحاكم يغفلها فتستمر الشكوى؛ وذلك إما لجهل الكاتب بفائدتها أو تعمد إغفالها لسبب من الأسباب ولا تحتاج فى الإلزام بها إلا إلى تشديد المراقبة ومداومة التفتيش.

الدفـــاتـر

دفاتر المحاكم كثيرة جدا، ورأيت أن بعضها لا يحتاج إليه، كيومية الملخص مع وجود دفتر الفهرست، وكدفتر مواعيد القضايا إن لم يجعل بمنزلة الرول الذى يوضع أمام القاضى فى الجلسة. وأرى أن يعاد النظر فى هذه الدفاتر لتقرير ما يبقى وإلغاء ما يلغى تخفيفا للعمل واقتصادا فى الورق والجلد والزمن. وإنما أخص بالذكر هنا دفترا أطلب محوه فى أقرب وقت وهو دفتر مضابط القضايا الذى تثبت فيه محاضر الجلسات ويجب أن يستبدل بمحاضر وملفات على نحو ما هو جار فى الدوائر القضائية الأخرى، وذلك أن هذا الدفتر يحتوى على الدعاوى وما يحصل فيها من تأجيل أو شطب أو مرافعة وشهادات وحكم ولكن على ضرب من التشويش لا يستطاع احتماله.

يأتى المدعى مثلا فيذكر فى أول صفحة من الدفتر أنه جاء وأجلت الدعوى لإعذار خصمه. ثم يتلو هذه الدعوى دعاوى أخر. وفى الصفحة الخامسة يذكر أن الخصمين حضرا ولم يكن معهما شهود معرفة فأجلت القضية. وبعد عشر صفحات يذكر شىء من المرافعة، وبعد خمس أخرى يذكر بقيتها، وبعد ست أو سبع تذكر الشهادات، وهكذا.

وربما تفرقت أجزاء القضية فى أربعة دفاتر أو أكثر، وبقى النظر فيها من سنة إلى سنة أخرى. فإذا صدر فيها حكم ابتدائى ودفع المحكوم عليه احتيج إلى نسخ هذه الأجزاء وجمعها من صفحات الدفاتر لترسل إلى محكمة الدفع. وإذا احتاج أحد الخصمين لأخذ صورة المرافعة، تجشم الكاتب مشقة التقاط هذه الأبعاد من وجوه الصحائف فى جميع تلك الدفاتر، خصوصا ولا فهرست للقضايا حتى يسهل

الاهتداء إليها. وإذا أريد التفتيش والبحث فى قضية ضاع الوقت فى تقليب الأوراق.

وما رأيت قاضيا من قضاة المديريات والمراكز إلا وهو يشكو من تحرير المحاضر بهذه الطريقة، فأعيد طلبى لمحو مضبطة الدعاوى وإبدالها بملفات تحتوى على جميع المحاضر أو الأوراق جملة، لكل قضية على حدتها ملف. فإذا انتهت القضية حفظت مع أمثالها من قضايا السنة فى محافظ وأودعت الدفاتر خانة، على ما هو معروف. فإذا استؤنفت القضية أرسل ملف الدعوى بجميع ما فيه من الأوراق إلى محكمة الدفع، ولابد أن يكون لمحاكم الدفع محاضر على هذا النحو.

ثم دفتر السجل يوجد فيه نوع من تقسيم الأنواع وتمييزها، وإن كانت تحتاج إلى فضل تمييز، أما مضابط الإشهادات فتثبت فيها الأنواع مختلطة كأنها كشكول. ومن اللازم تمييز الأنواع فيها على نحو ما فى السجل، ثم وضع فهرست فى أول كل دفتر يحتوى على بيان ما فيه.

ما يتعلق بالعقود الواردة من المحاكم المختلطة إلى المحاكم الشرعية

من دفاتر المحاكم الشرعية ما هو مختص بتسجيل العقود التى ترد إليها من المحاكم المختلطة، ومنها ما هو معد لذكر ملخصات تلك العقود، وهو عمل من الأعمال الشاقة التى تستغرق زمنا طويلاً لعدد من الكتاب فى محاكم مصر والإسكندرية والمنصورة، وقد خصص له فى محكمة مصر ستة منهم، وهو يفسد على كتاب المراكز وسائر المديريات أوقاتهم التى يجب أن يخصصوها لأعمال نافعة. وما من محكمة من المحاكم إلا تشكو منه.

ألزمت الحكومة نفسها بهذا العمل الشاق بما فرضته فى لائحة المحاكم الشرعية الصادرة فى سنة ١٨٨٠ فى المواد ٩٠ و٩١ و٩٢. وربما كان له فائدة فيما مضى حيث كان يجوز أن تؤخذ صور تلك العقود من سجلات المحاكم الشرعية، أو كان يتوقف نقل التكليف على ما يرد من هذه المحاكم إلى المديريات فى شأنها، فكان فى تسجيل تلك العقود تيسير على الناس فى أخذ الصور والشهادات. لكن صدرت بعد ذلك منشورات تمنع إعطاء الصور والشهادات إلا من المحكمة المختلطة التى سجل فيها العقد، وأذن بنقل التكليف بناءً على ما تبعث به المحاكم المختلطة نفسها بدون حاجة إلى توسيط المحاكم الشرعية. فما معنى بقاء هذا العمل الآن والحكومة تميل إلى الاقتصاد فى الأشخاص والمواد؟

ظن كثير من الناس أن القانون المختلط يحتم ذلك، فحسبت ذلك شيئا. وعولت على أن أسأل. عرض الأمر على نواب الدول فى ما يعرض عليهم لمحوه من

القانون، لكن بعد مراجعة القانون لم أجد فيه نصا يحدد العلاقة بين المحاكم الشرعية وأقلام كتاب المحاكم المختلطة إلا ما ورد في مادتي ٣١ و٣٢ من لائحة ترتيب المحاكم المختلطة ونصهما:

٣١: يعين لكل محكمة من المحاكم الابتدائية مأمور من طرف الشرع الشريف يشترك مع رئيس كتاب المحكمة في تحرير العقود الناقلة لملكية العقار والعقود الموجبة لحق امتياز على العقار، ويكتب المأمور بذلك كتابة يرسلها إلى محكمة الشرع الشريف.

٣٢: يترتب بمحاكم الشرع الشريف كتبة مندوبون من طرف رؤساء كتاب المحاكم الابتدائية ليرسلوا إليهم صورة ما يقع بالمحاكم الشرعية من العقود المشتملة على انتقال ملكية العقار أو رهنه لتسجيلها بدفاتر الرهونات بالمحاكم الابتدائية بدون توقف على طلب ذلك من أحد. فإن لم ترسل الصورة المذكورة، وجبت التضمينات اللازمة على ذلك، فضلاً عن الجزاء التأديبي، إنما لا يترتب على عدم إرسالها بطلان العقود.

فهاتان المادتان، كما لا يخفى على الغبي والذكي، إنما أوجبتا على المأمور الشرعي لدى المحاكم المختلطة أن يبعث بكتابة للمحاكم الشرعية بما يحصل من العقود فيها، وذلك ليحفظ في مجلد خاص بالضرورة لتعرف المحكمة الشرعية ما حصل من التصرف في العقار لتلاحظه لو جاءها من يريد التصرف فيه، أما أنها تسجله فهذا لا دليل عليه، وأن ما جاء في المادة ٣٢ يوجب على قلم الرهونات في المحاكم المختلطة أن يسجل ما يرد إليه من المحاكم الشرعية ويبين العقوبة والعواقب التي تعقب الإهمال في إرسالها الصور من المحاكم الشرعية إلى المحاكم المختلطة. فعدم ذكر ذلك في المادة السابقة دليل على أن واضع القانون قصد ألا يسجل شيء مما يرد من المحاكم المختلطة إلى المحاكم الشرعية في سجلاتها، وغاية ما يمكن أن يحتمه إنما هو المحافظة على هذه العقود في نمر مسلسلة مع فهرست يمكن من الرجوع إليها عند الحاجة. ويمكن للمحاكم الشرعية أن تصنع ذلك وتضعها في محافظ تنتهي في آخر السنة إلى أن تكون مجلدات تودع الدفتر خانة مع السجلات.

وما كان لواضع القانون المختلط أن يريد غير ذلك، فإن التسجيل إنما وجب لما يلحقه من الأحكام المفصلة في القانون المدنى. فالذى يرد إلى المحاكم المختلطة هو الذى يجب أن يسجل فيها ليمكن الاحتجاج به على غير المتعاقدين عندها، بل ذهب بعض مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية إلى أن ذلك شرط مطلقا وأن العقود لا يعتد بها بالنسبة إلى غير المتعاقدين إلا إذا سجلت فى قلم كتاب المحكمة المختلطة حتى بين الوطنيين، وصدر حكم على هذا المذهب بالأغلبية بعدم اعتبار حجة صدرت من المحكمة وسها المأمور عن إرسالها إلى قلم كتاب المحكمة المختلطة أو أرسلها ولم تسجل فيه، وهو حكم غير صحيح ولكنه مبنى على هذا الاعتبار. ثم إننى راجعت ما كتبه «وبروللى بك» فى القوانين المصرية، فلم أجد أثرا لهذا الإلزام، فلم يبق إلا ما ألزمت به الحكومة نفسها، ومن السهل عليها أن تتخلص منه بإلغاء المواد المتعلقة بذلك من اللائحة الشرعية القديمة.

وأذكر لبيان ثقل هذا العمل، الذى يعد الآن من قبيل اللغو، ما ورد على محكمة مصر الكبرى وحدها فى سنة ٩٨ وهو خمسة وأربعون ألف عقد أخذ ملخصها، ثم أرسل ما يختص بالعقارات التى فى دوائر المحاكم التابعة لها فى التوزيع إليها لتلخص منه ما يرسل إلى المراكز وتسجل ما يكون من العقار فى دائرتها نفسها، وما سجل من ذلك بالحرف الواحد فى محكمة مصر آلاف من هذا، وما ورد عليها من أول هذه السنة إلى آخر شهر مايو اثنان وعشرون ألفًا وثلثمائة وسبعة وتسعون، وربما الآن على ثلاثة وثلاثين ألفًا، وورد على محكمة الإسكندرية من أول يناير هذه السنة لغاية يونيو اثنا عشر ألفا ومائتان وأربعة وستون عقدا.

ولا حاجة لأن أطيل الكلام فى بيان الأعداد، وأكتفى بأن أقول: إن بعض محاكم المراكز، وليس فيها إلا كاتبان: الأول والثانى، يسجل بالحرف الواحد نحو ألفين وثمانمائة عقد فى السنة، ويسهل على النظارة علم ذلك.

فكيف يمكن القيام بهذا العمل من هذه الأيدى القليلة مع بقية أعمال المحكمة؟! ثم إذا لم تفصل الحكومة قلم التسجيل وتجعله مصلحة قائمة بنفسها، فعليها أن تعجل بإباحة تسجيل العقود العرفية فى المحاكم الشرعية على نحو ما هو جار فى المحاكم المختلطة، والقانون المختلط لا يمنع ذلك، وإنما على قلم الرهونات أن

يسجل ما يرد إليه من المحاكم الشرعية، ولذلك يكون العقد حجة على غير المتعاقدين لديها ولدى المحاكم الأهلية كما نصت عليه المادة «٣٢» من لائحة ترتيب المحاكم المختلطة التي سبق نصها. ولو أبيح ذلك، لكان فيه تيسير على الناس عظيم، سواء فى التسجيل لقرب المحاكم الشرعية منهم لانتشارها في جميع المراكز ولسهولة أخذ الصور والشهادات. ولو فرض فصل قلم التسجيل واستقلاله عن المحاكم، فأرى أن تكون المحاكم الشرعية من فروعه فى المراكز للسبب الذى ذكرته، وإلا احتاج إلى نفقات كثيرة لا داعى إليها، أو بقيت المشقة على الناس كما هى الآن.

الدفتر خانات

وجدت فى أغلب دفتر خانات محاكم المديريات التى مررت عليها خللاً عظيما، وكثير منها لا يوجد فيه دفتر حاصر لما هو فيها. فلو ضاع شيء منها، لا تعلم على من تلقى المسئولية، ويصعب الوصول إلى معرفة الضائع. ومنها ما هو «دشت» لا يعرف لأى السنين هو. وإن ما أنكره جناب المستشار القضائى فى دفتر خانة محكمة مصر، يوجد مثله أو ما يقرب منه فى غيرها. فقد رأيت فى بعض المحاكم أن دفاترها «مدشتة» فى صناديق يعلوها التراب، وبعضها على الأرض والغبار من فوقها ورطوبة الثرى من تحتها.

وقد اهتمت النظارة بإصلاح الدفتر خانات ووضعها على حالة تمكن من حفظ ما فيها وتسهل طرق مراجعتها، وكلفت المحاكم بالعمل فى ذلك، لكن لم يلبث الأمر أن حصل فيه فتور وتباطؤ لظهور الحاجة إلى أماكن وخزائن وعمال، واقتضاء ذلك لنفقات لم يكن فى ميزانية النظارة ما يفى بها. ولكنها حاجة من حاجات الحكومة يجب سدها بما يمكن من السرعة، فإلى تلك الدفاتر والأوراق مرجع الناس فى تحقيق الملكية والأنساب والعصم ونحو ذلك، وهى مصلحة من مصالح العامة لا تنقص فى درجتها عن أهم المصالح العليا.

الأعمال الحسابية

يوجد فى تعريفة الرسوم بعض الالتباس، وظهر ذلك فى العمل، لكثير من القضاة عليها انتقادات تحتاج إلى النظر، كما جاء في المادة «٢٣» من تلك التعريفة من أن الإبراء من الدين أو من الدعوى بمعلوم يؤخذ عليه الرسم باعتبار واحد فى المائة، ثم صدر منشور النظارة بأن الإبراء من مؤخر الصداق يؤخذ عليه خمسة قروش، ثم تلاه منشور آخر بأن الخمسة القروش تؤخذ فيما إذا زاد المبلغ الذى حصل فيه الإبراء عن ألف قرش وإلا فيؤخذ ثلث الخمسة القروش، ثم صدر منشور ثالث يقضى بأنه إذا حصل خُلْع رسم الخُلْع الخمسة القروش ولم يؤخذ على الإبراء شيء.

ومما لاحظه القضاة أن المادة «٦» قضت بأخذ رسم الأيلولة، فلو جاءت الأيلولة غير مقصودة، كما لو حصلت فى ضمن عقد بيع مثلاً لعقارات موروثة، فإنه يؤخذ رسم الأيلولة ورسم البيع معا، وهو خلاف ما عليه العمل فى المحاكم المختلطة.

وفى المادة الرابعة ما يفيد أن الرسم يؤخذ على كل حجة أو سند يطلب تحريره، فمقتضاه أنه لو لم يطلب لا يؤخذ عليه رسم، مع أن أوامر النظارة تقضى بأن يؤخذ الرسم فى مبدإ الأمر، حتى رسم التحرير.

ومما لوحظ أن جميع المواد التى ذكر فيها للرسم بداية ونهاية، وكل تحديد ذلك للكاتب، يفتح بالضرورة بابا للفساد يجب سده. وعلى كل حال، فيجب النظر فى التعريفة، والمنشورات، ووضع اللائحة على وجه يكفل العدل من جهة ويرفع الالتباس ويسد أبواب الفساد من جهة أخرى، ولن تعدم النظارة وسيلة للتعجيل فى أقرب وقت ممكن.

تقييد القاضي في كل ما يرد إليه

رأيت في بعض المحاكم أن القاضي يرد إليه طلب أو تقدم إليه شكوى. وربما كان من خصائصه أن ينظر فيها، ولكنه يجد في ذلك مشقة عليه، فيدفع الطالب أو المشتكي بقوله: «اذهب إلى جهة كذا» أو «إن هذا لا يعنيني».. ويكثر تردد صاحب الحاجة، لأن الأمر مما يعني القاضي.

فالذي أراه أن كل ورقة تقدم إلى القاضي في أي شأن من الشئون يقيد ملخصها في دفتر ينشأ لذلك، ويكتب فيه ما رآه القاضي، حتى لو اشتكى الطالب إلى مقام أعلى أمكن أن يعرف خطأ القاضي من صوابه.

تشكيل المحكمة

بعد ما شرط فى القاضى أن يكون كفؤا لعمله، لم يكن من معنى لبقاء لقب المفتى. ثم إذا رأينا أن القاضى لابد له من مستشار يرجع إليه فى المشكلات، وجب أن يكون ذلك المستشار أرقى علما ومكانة ومرتبا من القاضى، فيكوم مفتى المديرية أسمى موظف شرعى فيها. ثم إن كان هذا شأنه، وأطلق له إبداء الرأى فى ما يرفع إليه من الأسئلة وجب إلا يفوض إليه النظر فى القضايا التى سبق له إبداء الرأى فيها. لكن لا شىء من ذلك بواقع، فإن المفتى قد يكون أنزل درجة فى العلم من قاضى المديرية أو المحافظة. ثم إن كان يفوقه فى العلم، فهو أقل منه مرتبا لا محالة. ثم إن اللائحة الجديدة قد جعلت له حق الحكم ولم تمنعه إلا من الإفتاء فى ما هو منظور أمام المحاكم بالفعل، ولم تنص على ما أفتى فيه قبل نظره. ثم هو عضو من أعضاء المحكمة الكلية فى المديريات أو المحافظات، فإن كانت صفة الإفتاء تجعل لرأيه امتيازا على رأى غيره عدّ وجود غيره معه لغوا، وإلا فما بقاء هذه الصفة؟! ثم إذا حكم مفردا فى قضية، كيف يصح استئنافها، والحاكم هو صاحب الرأى الأعلى فى بيان الأحكام الشرعية.

أما فى ما يتعلق بغير المتقاضين أمام المحاكم الشرعية إذا احتاجوا إلى فهم حكم شرعى فى نازلة، فهم لا يرضون بما دون إفتاء مفتى الديار المصرية، كما هو مشاهد. فلم يبق من وظيفة المفتى فى المديرية أو المحافظة إلا إبداء رأيه فى القضايا الجنائية عندما تريد أن تحكم بالإعدام، وهى وقائع يصح أن تعد لها مادة فى قانون تحقيق الجنايات بأن يقال: «بعد أخذ رأى أكبر موظف شرعى فى المديرية أو المحافظة، أو يحول ذلك على إفتاء الديار المصرية».

وغاية ما يلاحظ فيه أن إرسال القضايا من محكمة قنا وردها يحتاج إلى أن يزاد

في الزمن المحدد للحكم بالإعدام أسبوع وإبقاء الجانى أسبوعا فى عالم الأحياء، ولا ينشأ عنه ضرر ما.

فالذى أراه حذف هذا اللقب من المديريات والمحافظات، وعد الجميع قضاة وأعضاء محكمة. فإن كان لابد من بقاء وظيفة الإفتاء في الأطراف فليقلل العدد، وليكن للإسكندرية والبحيرة مفت يقيم بالإسكندرية، وآخر للمنوفية والغربية يقيم بطنطا، وثالث للدقهلية والشرقية والقليوبية يقيم بالزقازيق، ورابع للجيزة والفيوم وبنى سويف يقيم بالفيوم، وخامس للمنيا وأسيوط يقيم بها، وسادس لما بقى من الوجه القبلى يقيم بقنا. ولينط بهؤلاء المفتين إبداء الرأى في ما يرفع إليهم عند إرادة الصلح وعدم التخاصم أمام المحاكم، وما تستفتيهم فيه الحكومة. وللقضاة أن يستشيروهم فى ما يشكل من الأحكام. وعلى هذا يجب أن يكونوا من مشاهير العلماء، ومنهم ينتخب قضاة المديريات والمحافظات الذين يسمون رؤساء المحاكم إذا أرادوا الدخول في سلك القضاة.

ثم ألاحظ ما لاحظه سماحة قاضى مصر من أنه إذا غاب عضو من أعضاء المحكمة العليا، فلرئيس المحكمة أو من يقوم مقامه أن ينتدب من يتم به عددهم من أعضاء محكمة مصر الكبرى ممن لم يسبق له نظر فى القضية، فإن لم يتيسر ذلك انتدبته نظارة الحقانية بعد أخذ رأى القاضى، إلى آخر ما نص عليه فى المادة التاسعة من اللائحة. ولا حاجة لجعل الانتداب لسعادة ناظر الحقانية من أول الأمر، تسهيلاً للعمل، وقد يحتاج للانتداب يوم الجلسة، والخصوم حضور، والتأخير يضر بمصلحتهم، فمن الواجب ألا يلجأ لرأى النظارة إلا عند الضرورة وحيث يقتضى الانتداب انتقالاً من محكمة أخرى.

ثم لابد أن يباح لرئيس المجلس إذا حصل له مانع من الحضور أن ينتدب أحد العضوين بدون إذن الحقانية للسبب الذى ذكرناه، وكذلك يجب أن يباح له أن ينتدب أحد العضوين للقيام بعمل أحد قضاة المراكز عند تغيبه إذا دعت الحاجة إلى ذلك الجواز ألا يتيسر أحد قضاة المراكز للقيام بعمل مركز آخر ويتيسر انتداب عضو من أعضاء المحكمة.

هذا ما ألاحظه الآن على طريقة تشكيل المحكمة، إلى أن ينظر فى عدد القضاة والأعضاء ويستقر الرأى على توزيع الأعمال، فتتغير طريقة التشكيل فى المديريات على وجه يوافق ذلك التعديل.

اختصاص المحاكم الشرعية مادة ومكانا

رأيت أن بعض القضاة يلتبس عليهم الأمر عند التخاصم، فيحكمون بعدم الاختصاص فيما هو متعلق بالمواد الشرعية، كما وقع أن رجلاً ادعى نشوز زوجته ليسقط نفقتها وأجرة سكناها، وطلب إلزامها بأجرة المسكن الذى كان أعده لها بمقتضى حكم سابق مدة شهرين، فحكم القاضي بعدم اختصاصه بالنظر فى الإيجار ظنا منه أنه حق مدني محض مع أنه مرتبط بالنشوز وسقوط النفقة. وكما وقع لآخر فى دعوى زوجته على أبيها بجهازها، وأنه أخذه منها بعد أن تسلمته، فإنه حكم بعدم الاختصاص، مع أنه كان يمكنه النظر فى الأولى، والحكم في الدعوى بعد ما حضر لديه الخصمان، وهما والد وبنته، وأفضل حكم بين مثلهما هو القاضى الشرعي الذى يتولى النظر فى حقوق القرابة أيا كانت، وهو أيسر ما كان على المتقاضين.

فأرى أن يطلق النظر للقضاء في الأمور المذكورة في المادة «١٦» من اللائحة، وفيما لا يتجاوز مبلغه خمسة وعشرين جنيها في أى مادة شرعية.

ثم ألاحظ ما لاحظه سماحة قاضي محكمة مصر الكبرى من أنه يجب أن يضاف على الأمور المذكورة فى المادة «١٦» بعد التوكيل بين الزوجين ألفاظ: «وغيرها مما يتعلق بما ذكر». .

وفى مقام الاهتمام بإصلاح هذه المحاكم لا ينبغي توجه الفكر إلى تضييق اختصاصها، بل يجب أن يفسح الأمل فى توسيعه حتى تغنى الحكومة عن كثير من الوسائل التى تحاولها من زمن بعيد فى تيسير التقاضى على الناس وتخفيف الحمل

عن قضاة المواد الجزئية في المحاكم الأهلية، وقلما تصادف فيه نجاحا حقيقيا. ثم يجب أن يترك أمر الاختصاص على ما هو عليه في القوانين المصرية بدون تعرض لتفصيله، مع إصلاح ما جاء في مواد التنفيذ من اللائحة الجديدة مما يوهم أن بعض أحكام المحاكم الشرعية فيما هو مختص بها بمقتضى الشريعة لا ينفذ، فإن أمر الاختصاص بيّن، والناس معه عارفون ومقتنعون بأن ما منعت المحاكم الأهلية من النظر فيه بمقتضى المادة «١٦» من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية يختص النظر فيه بالمحاكم الشرعية، ويصعب جدا تحديده بغير ما حددته لائحتا ترتيب المحاكم الأهلية والشرعية، والإتيان بهذه الإشارات في اللوائح مما يوجب الارتباك في العمل ويضر به.

ولنفرض أن رجلاً مات وترك دينا على آخر، ويريد وارثه أن يثبت وراثته له بحكم شرعي، وقد حتمت اللائحة ألا تقام الدعوى إلا على خصم حقيقي، كما هو الواجب شرعا، وليس للتركة خصم حقيقي إلا هذا المدين، أفلا يضطر الوارث لإقامة الدعوى على المدين ليصدر الحكم بالدين وفي ضمنه الحكم بالوراثة حسبما تقتضيه القواعد الشرعية؟ فإذا صدر هذا الحكم، وهو من محكمة مختصة بحكم الضرورة التي لا مندوحة عنها، فكيف لا ينفذ لأنه ليس حكما في أحوال شخصية؟ مع أنه مرتبط بالأحوال الشخصية غاية الارتباط؟! وكيف يلزم من حكم له بالدين أن يرفع دعوى جديدة بدينه هذا أمام المحكمة الأهلية ليمكنه التنفيذ؟!

فإن ضعفت الثقة بحكم القاضي في هذا الدين وفي غيره من التركة التي قد تبلغ قيمتها آلافا من الجنيهات. فالرأي عندي إبقاء الاختصاص على ما كان عليه، واعتبار أحكام المحاكم الشرعية في جميع ما أبيح لها أن تنظر فيه من المواد بمقتضى الشريعة الإسلامية، وإنما يجوز للحكومة أن تقيد الحكم في بعض المسائل التي تحتاج إلى التوثيق بالكتابة بأن يكون للدعوى مستند مكتوب مثلا على الصفة التي تحددها كما صنعت مثل ذلك في الوقف والزواج ونحوهما، وبهذا تنتفي كل المصاعب التي تحس بها الحكومة والناس معا.

وأما الاختصاص من جهة المكان، فقد حددته المواد: ٢١ و٢٢ و٢٣ من اللائحة الجديدة، وذكر فيها لفظ: «توطن» المدعى عليه مثلاً، وقد أظهر العمل أن من

المتخاصمين من لا وطن له كالرحالة من العربان وغيرهم، كالمسجونين والمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فإنهم ليسوا متوطنين شرعا حيث هم، ويصعب جلبهم من سجونهم ومشاغلهم إلى المحاكم المختصة بالنظر فى الدعوى عليهم باعتبارهم فى دائرتها، وكذلك الموظفون إذا لم يسكنوا بعائلاتهم حيث يعملون فى وظائفهم وفى أزمان الانتداب لمدد طويلة ونحو ذلك مما يطول شرحه.

ثم اختلف النظر فى الزوجة يعقد عليها زوجها فى بلد أهلها، ثم تقيم معه مدة طويلة فى بلد آخر ثم ترجع إلى بلد العقد، هل تقام الدعوى على زوجها فى محل العقد أو فى بلد الزوج؟ فإذا كان العقد فى بلد الزوج ولم يدخل بها، وأقامت الزوجة فى بلد آخر هو بلد أهلها، وأراد الزوج أن يدعوها إلى الدخول فى طاعته والبناء بها، فهل يدعى عليها فى بلده حيث كان العقد أو فى بلدها؟

والذى أراه، وطلبه جميع القضاة، أن يبدل لفظ «توطن» فى مادتى ٢١ و٢٣ «بإقامة»، وأن يبقى فى مادة ٢٢ على حاله، وقد كان لفظ «الإقامة» بدل «التوطن» فى اللائحة القديمة.

وهنا أعجل بذكر مسألة كان العمل فيها قبل اللائحة أيسر منه بعدها، وهى دعوى زوجة على زوجها بأنه تركها بلا نفقة، وهى فى «أسوان» وهو فى «الإسكندرية» مثلاً معروف المقام، فكان ينظر فيها على مذهب زفر فى المحكمة التى تقيم الزوجة فى دائرتها، ويصدر لها الحكم بدون إعلان الزوج ولا إعذاره، متى استوفيت الشروط المسوغة للحكم، ويبقى حق المعارضة للزوج عند التنفيذ لا محالة. وكان فى ذلك تيسير على الزوجات الفقيرات، ولكن حظر هذا النوع من التيسير بعد اللائحة، وأرى أن يبقى الأمر على ما كان عليه قبلها.

المرافعـــات

الإعلان، أو الطلب والإعذار، وما يتبع ذلك.

كانت المحاكم جارية من قبل على ألا تحكم إلا بحضور الخصمين، وكان المدعى عليه يجبر بالقوة على الحضور أمام القاضي. وما كان أقوم تلك الطريقة لو سمح الحال والزمان باستمرارها، قطعا للمنازعات في أقرب الأوقات. ولكن تحول الأحوال من جهة، وطريقة المرافعات واقتضاءها لتردد الخصم مرة بعد أخرى على المحكمة بناء علي طلب المدعى أو على رأى المحكمة، كل ذلك أظهر مصاعب جمة، وكاد يفضي بالحقوق إلى الضياع، ويحرم الشريعة من العدل الذى ألصقه الله بها.

إذا ملّ المدعى عليه من الحضور لم يجد بدًا من الهرب، فتقف الدعوى، وقد سقطت من نفوس الناس رعاية الحرمات. فإذا جاء البوليس أو شيخ الحارة لطلب أحدهم أنكره من معه فى البيت. فإذا اتفق أن لاقاه فأخذه طاوعه إلى باب المحكمة ثم استغفله وانصرف، وربما دخل فى موقف المخاصمة وانتهز فرصة ما وخرج. وقد يكون الخصم صاحب مقام سام فيصعب إكراهه على الحضور أو التوكيل. كل ذلك كان يعطل سير الدعاوى ويقف فى وجه العدالة.

اضطرت الحكومة لذلك أن تطلب إلى أهل الشريعة أن يميلوا إلى تقوية ما ضعف من القول بالحكم على الغائب فى مذهب أبى حنيفة، وصدر الأمر به. لكن وضعت طريقة إعذار الغائب على حد من التشديد والتضييق أوجب شكوى جميع القضاة والمتخاصمين، فإن المادة «٧٠» من اللائحة لم تكتف بما اكتفت به مجلة

الأحكام العثمانية من الكتابة إلى الغائب ثلاث مرات، مع إفهامه بأنه إن لم يحضر أو لم يوكل أقام القاضي عنه وكيلا وحكم عليه. بل زادت على ذلك الإعذار، وفسر الإعذار في العمل بالمناداة على باب المدعى عليه ثلاثة أيام بحضور شاهدين، ثم بعد المناداة وتكرار الكتابة يحضر المنادي وشهوده أمام المحكمة ليقول: إنه نادى وأعذر، وتسمع شهوده على ذلك. . وقد حضرت في جلسة صرف القاضي فيها عشرين دقيقة في سؤال المنادي وشهوده على المناداة، وتعريف الزوج الغائب والزوجة الحاضرة وتركته قبل الدخول في الدعوى.

أما نفقات الإعذارات والكتابات المتكررة فهي على المدعين، وقد يكن نساء فقيرات لا يملكن القوت. فإذا لم يكن مع إحداهن ثمن الطلب أو أجرة المنادي لم تطلب الإعذار بحكم الضرورة فتقف دعواها، فإذا أنفقت لم يحكم لها بشيء مما أنفقته. ولا يخفى أن العدد الغالب من المدعيات هن الفقيرات اللاتي يلجأن إلى المحكمة لطلب القوت اليومي.

اختلفت المحاكم: هل الكتابة المصاحبة للإعذار ترسل من طريق الإدارة كالإعلان؟ أو مع أمين القاضي، وهو المنادي؟ وربما كان المدعى عليه مقيما في دائرة محكمة أخرى في دعوى ميراث مثلا موطن المورث فيها في دائرة غير الدائرة التي يتوطن فيها المدعى عليه فتكلف المحكمة التي تنظر الدعوى تلك المحكمة الأخرى بالإعذار وإبلاغ الطلبات، فيتم ذلك وترسل الأوراق إلى محكمة الدعوى. هناك يردها القاضي إلى المحكمة الواسطة لأنها لم تسمع شهود محضر المناداة، ويطول زمن المخابرات في ذلك.

هذا إلى ما ركن إليه المدعى عليهم من عدم المبالاة بشيء من ذلك إلا بعد المرة الثالثة، وذلك لإعنات المدعين وتكليفهم نفقات لا يحكم على أولئك المتعنتين بشيء منها.

فلم تزل الحقق معطلة، والمصاعب دون الوصول إليها غير مذللة، مع أن دين الله يسر ولا عسر فيه. وهذا كله إنما نشأ من التمسك ببعض الأقوال في مذهب أبي حنيفة، والأخذ بظاهرها، بدون إنعام نظر في مقاصد قائليها. أما لو دقق النظر في أغراضهم من تصريحاتهم، ونزهناهم عن العبث فيما عللوا به تلك الأحكام،

وأقررنا أنهم أهل شرع قويم يحافظ على العدل ويرعى حرمته، كما هو اللائق بمقامهم، رضى الله عنهم أجمعين، لسهل الصعب وأبدل بالعسر اليسر.

على أن من علماء المذهب من وكل الأمر فى شأن الغائب إلى القاضى، على حسب ما تدعو إليه الضرورات، فتتبع أحكام الضرورة بقدرها. فإذا ضممنا إلى هذا وذاك أن الظاهر من خلاف الفقهاء فى الحكم على الغائب إنما هو فى الحكم الملزم بصدوره، وأما ما حتم فيه حق المعارضة فليس داخلاً فى موضع اختلافهم وإنما هو فى الحقيقة وسيلة من وسائل إجبار المتعنت على الحضور أمام القاضى وطاعة أوامر الشرع، كان الأمر أظهر وأبين، والتيسير أقرب وأضمن.

فإذا رجعنا، مع كل هذا، إلى أننا مسلمون تجب علينا المحافظة على الشريعة وصونها عن العبث، واعتبرنا المذاهب الأربعة مذاهب إسلامية لا حرج على من يأخذ بواحد منها، كما هو اعتقادنا الذى ننادي به، زال هذا الاضطراب كله، وعوفى الناس من هذا البلاء الذى لم يتجرعوا غصصه إلا بجمود أولئك الذين يظنون أن الشرع فى المعاملات ألفاظ تحفظ ولا يراعى ما أودعته من المعانى والمقاصد، ولا ينظر فيها إلى مصالح الناس وإقامة العدل بينهم، ويعتقدون أن الحكومة على كل شىء قدير، فتستطيع أن تحوّل من أخلاق الناس ومعارفهم ولغاتهم حتى تنطبق شئونهم فى أعمالهم ومعاملاتهم على ما حفظ وإن لم يفهم.

وإنا نحمد الله على أن عدد هذا الصنف ليس بكثير بين أهل العلم وحفظة الشريعة. فإن الجمهور الأعظم يعتقدون أن أحكام الشريعة الإسلامية وافية بسد حاجات طلاب العدل فى كل زمان ومكان، مع اليسر ورفع الحرج الذى تكفل الله برفعه عن هذه الأمة إلى أن تنقضى الدنيا.

يتبع مسألة إعذار الغائب والحكم عليه قضية إقامة القاضى وكيلاً عنه، وهى من لواحق التشديد والتدقيق فى أمر الغائب. أوجبت اللائحة علي القاضى أن ينصب عن الغائب بعد إعذاره وكيلاً عنه يحافظ على حقوقه، فهذا الحكم سقط معناه فى جميع المحاكم، وتعذرت المحافظة على صورته فى أغلبها، ففى محاكم المراكز لا يوجد محامون شرعيون، لأن قضايا المراكز لا تفى بحاجاتهم فى المعيشة، فإذا تم الإعذار والطلب ولم يجد القاضى من ينصبه عن الغائب، وقلت لأحدهم:

فلتنصب مأذون البلد الذى فيه المركز مثلاً، فأجابنى : أنه يمتنع عن القبول خشية أن يتلف الغائب زرعه بالقلع أو الحرق أو التغريق، فإذا دعا القاضى لذلك محاميا من المقيمين فى المديريات اقتضى ذلك نفقة السفر على الأقل، فكيف يجبر المحامى على الإنفاق من جيبه وتعطيل عمله ليدافع عن شخص لا يعرفه؟ ثم إن الحكم لا يقضى له بحق الرجوع على أحد الخصمين بما أنفقه؛ لهذا لا يجد القاضى من ينتصب وكيلاً إلا بعض من لا خلاق لهم من المارة أو الذين لا عمل لهم بعد عدة جلسات. ووكالة هؤلاء لا فائدة فيها، لجهلهم وعدم مبالاتهم بما انتصبوا له. وربما لا يجد بالمرة، فتقف الدعوى.

أما سقوط معناه: فإن من ينتصب وكيلاً أمام محاكم المديريات أو بعض المراكز لا يزيد على أن ينكر ما قاله المدعى، وربما أقر عليه، كما حصل ذلك، وهو لا يعلم من الدعوى ولا من أدلتها شيئًا.. فأين المحافظة على حق الغائب المقصودة من التوكيل؟!

استفتى بعض القضاة نظارة الحقانية فى النفقات التى تصرف فى نصب الوكيل عن الغائب، فأفتته بأنها على المدعى!! فكيف يراعى الوكيل مصلحة غير مصلحة الذى ينفق عليه، وهو المدعى؟! وكيف ينفق المدعى على من يقوم خصما له، يطعن فى أدلته ويفسد عليه دعواه؟!

القاضى يعلم حق العلم أن الغائب متمرد عليه مستهين بطلبه لديه، وأن الوكيل لا يعلم شيئا من وسائل الدفاع عنه، فهو إنما يرسم صورة ويقيم أمامه نصبا لا تضر ولا تنفع.

فإذا نظرنا إلى جميع ما قدمته فى الكلام على الإعذار والطلب، ورأينا أن من علماء الحنفية، من صرح بأن نصب الوكيل من قبيل الاحتياط أو الأحوط، وأن مالكًا، رحمه الله، يقول بالحكم على الغائب بدون إعذار ولا طلب، وبدون نصب وكيل، وإنما يعذر إلى الغائب بعد الحكم، وهذا هو بعينه إعطاؤه حق المعارضة.. إذا لاحظنا ذلك كله، وجدنا شريعتنا هى الشريعة السمحة فى كل زمان ومكان.

ولو فرض بقاء الأمر على ما هو عليه الآن، فلم لا يحكم بالنفقات التى تصرف فى سبيل دعوة الغائب أو نصب الوكيل عنه على ذلك الغائب المتعنت؟ وقد جاء فى

أقوال العلماء ما يصرح بأن مصاريف من يبعث إلى الغائب ثاني مرة فما بعدها تكون على المدعي عليه تأديبًا له وزجراً، وإن أهل زماننا أشد حاجة إلى الزجر والتأديب بالتغريم من أهل زمان «السرخسي» و«مجد الأئمة الترجماني» اللذين صرحا بذلك.

وقبل الانتقال من الكلام علي الإعذارات ونحوها، أذكر مسألة وقعت وكثيرا ما تقع، وهي: إن امرأة سمعت من زوجها لفظًا يدل على أنه طلقها، ولا بينة لها على ذلك، وأنكر الزوج، ويريد أن يعاشرها معاشرة الأزواج، واعتقادها بدينها لا يسمح لها بذلك، فطلبته إلى القاضي ليقر أو ينكر ويحلفه اليمين. فيحكم القاضي فتبرأ ذمتها علي أرجح الأقوال عند الحنفية. فلم يحضر الزوج، وليس من دليل على الدعوى حتى ينظر فيه القاضي ويحكم عليه وهو غائب. فما الذى يصنعه القاضي؟!

أرى أن أحكام الشريعة تقضي بأن يجبر الزوج على الحضور ليقر أو ينكر ويحلف اليمين. ولا مفر من ذلك بحال، وروح نظام الحكومة لا يأباه، لأن الرجل يريد أن يرتكب مع المرأة أقبح المنكرات، بل يرتكبه بالفعل. فلم لا يجبر كما يجبر مرتكب جنحة صغيرة؟

الزوجة تقول: إنه يعاشرها، وليس بزوج لها، ولا يمكنها مفارقته إلا بحكم، لأنها لو فارقته لجأ إلى القاضي وطلب ردها إليه قهرا، فإن لم يجئ إليه خوف دعواها الطلاق تركها بلا نفقة، وبقيت معلقة لا تستطيع الزواج ولا تجد من ينفق عليها، ولا يمكنها أن تطلب النفقة لدى القاضي وهي في غير بيت زوجها اعتقادا منها بأنها مطلقة، فإن للزوج أن يقول: إنها ناشز. لا نفقة لها. فأى عدل لا يقضي بجلبه إلى المحكمة قهرا عند دعواها الطلاق؟!..

التوكيل فى المخاصمات

جرت العادة أن يدعى المدعى أو وكيله أن فلانا هذا وكيل المدعى عليه، فيطالبه القاضى ببينة تشهد على أن المدعى عليه أقام فلانًا هذا وكيلاً عنه، ويسمع البينة، ويحكم بالتوكيل. أما فى توكيل المدعى فيأتى المدعى ووكيله مع شهود معرفتهما، ويثبت القاضى وكالة الوكيل، كل هذا وحضرة القاضى فى أغلب الأحيان يعلم أنه إنما يصنع صورة لا يجد لها فى نفسه معنى فى العلم بالوكالة. فإن الوكلاء يحضرون عنده وبأيديهم عقود توكيلات رسمية صادرة من المحكمة الشرعية، وكثيرا ما تكون صادرة من نفس المحكمة التى تجرى عندها المرافقة، فلا ريب عنده فى التوكيل، ولكنه يتعبد بما يفعل، لا لغاية. ومن الغلو فى هذا العمل خروجا عن حدود الشريعة المطهرة أن قاضيا نصب وكيلا عن غائب ثم حكم بصحة ذلك التوكيل الذى صنعه بنفسه. ومن غرائب ما وقع من ذلك أن قاضى المديرية أثبت توكيل المدعية لوكيلها فى الدعوى، ثم أحال القضية على مفتى المديرية لينظر ويقضى فيها، فأنكر المدعى عليه وكالة ذلك الوكيل عن المدعية إعناتا لها، فقرر المفتى تأجيل الدعوى واستحضار المدعية بنفسها، ولم يعتبر ما ثبت بين يدى قاضى المحكمة الجالس فى محل لا يفصله عن محل المرافعة أكثر من ستة أمتار. ومنها أن التوكيل ثبت أمام قاضى المحكمة، فعند غيبته بالإجازة جاء المنتدب ولم يعتبر التوكيل الذى ثبت أمام القاضى!!

جاء إعلام شرعى من محكمة «أصوان» إلى شخص يقيم فى «بور سعيد» بأنه وكيل عن المقيم فى «أصوان»، وطلب منه أن يخاصم عنه أمام محكمة «بور سعيد»، فسأله القاضى المنتدب: ألك بينة؟ فقال: لا، فمنعه من دعوى

التوكيـل منعا كليا، مع أنه كان يجوز للرجل أن يأتى بشهود على التوكيل بعد شهر أو شهرين مثلاً.

هذا كله مخاطرة بالعدل والشرع، وإلجاء إلى الكذب والزور. وجميع القضاة الذين رأيتهم، بلا استثناء، يصرحون بذلك، وإذا سألتهم: لم يخالفون عقائده؟ قالوا: إن اللائحة قيدتنا بالمادة الرابعة والعشرين منها، حيث حصرت الحجج الشرعية فى الإقرار والبينة والنكول عن اليمين، ولم تعتبر منها الأوراق الرسمية ولا الإعلامات الشرعية الخالية من شبهة التزوير.

وهى تعلة يتعللون بها، وإلا فالمادة الخامسة والعشرون صرحت بأن الإقرار بالكتابة كالإقرار باللسان، فلم لا يعتبرون الموكل مقرا بين أيديهم بالتوكيل؟! غير أنه حملوا ما جاء فى هذه المادة على الإقرار بالحقوق، والمقر بالكتابة حاضر عندهم. وللقضاة العذر فيا يتعللون به، فإن لائحتنا فيها إيهام وإجمال، ولم يسع واضعيها ما وسع العلماء الذين ألفوا مجلة الأحكام العدلية وصدر عليها الأمر السلطانى وجرى بها العمل فى الممالك العثمانية من خمس وعشرين سنة. فقد حرصت المجلة فى باب القضاء بأن الإعلام الشرعى الخالى من شبهة التزوير المستوفى الشرائط يجب الحكم والعمل به بدون حاجة إلى بينة.

على أنى وجدت الحامل لقضاتنا على عدم اعتبار الأوراق الرسمية إنما هو العادة التى ألفوها وظنوها شريعة، وما هى منها فى شىء، فإنهم يغفلون النظر إلى الأوراق حتى فيما صرحت اللائحة باعتبارها فيه. وإن كل قاض يجد من نفسه أن نبأ يأتيه فى ورقة رسمية من قبل معاون البوليس أوثق عنده من شهادة عشرين شاهدا مجهولين له. لكنه يظن أن طرق العلم الشرعية هى غير الطرق التى يعدها البشر طرقا له، وإلا فما قيمة الشهود فى هذه الأيام بالنسبة إلى ما يثبت فى الأوراق الرسمية الخالية من شبهة التزوير؟

وقد سمعت من سماحة قاضى أفندى مصر أن رجلا جاء إلى المحكمة، وهو معروف بشهادة الزور، فغضب سماحة القاضى لرؤيته هناك، وقد سبق له إبعاده عن المحكمة. فاحتج بأنه يحمل ورقة من ديوان الأوقاف ليوصلها إلى وكيله أمام المحكم، وأبرز الورقة، فأمره القاضى بالخروج بعد تسليمها. فصاح رجل آخر من

جانب آخر قائلا: كيف تخرجون شاهدى؟ فإنما جاء الرجل ليشهد لى فى دعواى، فأصر سماحته على إخراجه، فانطلق المدعى وهو يقول: «إذا لم يسمع إلا الشهود الصادقون، فمن أين نأتى بشهود على ما ندعى؟!».

هذا هو الشعور العام عند الكافة، فكيف تطرح الأوراق الرسمية، خصوصًا ما صدر منها من قاض شرعى، ويحتج بمفتريات هؤلاء الكذبة؟!

فالذى أراه أن يصدر الأمر عاجلاً باعتبار الأوراق الرسمية الخالية من شبهة التزوير من الأدلة الشرعية بلا استثناء. فإننا نعمل عليها فى أهم أركان ديننا، كما هو معلوم. بل إن حضرة القاضى نفسه لم يعتمد فى العلم بوظيفة القضاء التى عهد بها إليه إلا على ورقة رسمية، ولم يشهد له شاهدان بتوليته. فما الذى سوغ له أن يجلس للقضاء قبل أن يسمع من جناب الخديو لفظ وليتك، أو يشهد له شاهدان بذلك؟! ولكنها عوائد نفرت الناس من الشريعة وألصقت بها ما هى بريئة منه، وإلا فهذه أصول الشريعة لا تزال محفوظة ظاهرة نقية لمن أراد أن يفهمها متى شاء.

الجلســـات

لا نظام لجلسات المحاكم الشرعية. وكأن النظارة سمحت بتركها على هذه الحالة، فإنه لا يوجد في المحاكم الشرعية أماكن خاصة بالجلسات، وليس للقاضى أو أعضاء المجلس مكان مخصوص فى محل الجلسة أعد لجلوسهم عند المرافعة، بل يجلسون أنى شاءوا. وقد شهدت فى إحدى المحاكم جلسة كلية كان الرئيس فى طرف المجلس والعضوان فى الطرف الآخر، يبعد أحدهما عن الآخر نحو مترين، وفى يد آخرهما جريدة والدعوى قائمة. وكلما بدا له أن يتكلم مع خصم أو شاهد فعل بدون استئذان الرئيس وقبل تمام الكلام. أما الناس فلا يفصلهم عن القاضى إلا مكتبه، ولو رفع هذا الحائل، كما يقع عندما تكون الجلسة جزئية، ويجلس القاضى بعيدا عن المكتب، وهو ما شاهدته أيضا، أحاط الخصوم والشهود بالقاضى، ولم يكن دون ملامستهم له إلا وقار القاضى إن كان. فإن كان متفرجون أو حواش للمتخاصمين كانوا فى قاعة الجلسة وقوفًا أو قعوداً على جانب الفرش الذى يجلس عليه القضاة أنفسهم إن كانوا أهلاً لذلك، وصبية المتخاصمات من النساء يلعبون فى أطراف المكان، وليس فى المجلس ما يمنع متكلمًا أن يتكلم ولا مشوشًا أن يشوش، فإذا دخل على القضاة محترم قاموا له وحيوه والمرافعة جارية.

هذا، والكاتب هو الذى يأمر بنداء الخصوم، وهو الذى يسألهم عن أسمائهم وأنسابهم، وإذا نقص قيد فى الكلام زاده أو سأل عنه الخصم أو الشاهد. . وقد شاهدت بإحدى الجلسات كاتبا يقطع على القاضى الكلام فى سؤال الشاهد ويسأله بنفسه مرات متكررة، ورأيت من سلطة الكاتب فى هذه الحالة ما لا يحتمله

إلا هؤلاء القضاة وأمثالهم. علي أن هذا جميعه مما لا يليق بحرمة القضاء الإسلامى الذى كان يعد مجلسه أوقر المجالس وأعظمها هيبة فى النفوس، حيث كان يجلس الخليفة فمن دونه بين يدى قاضيه، ولو أن نفوس القضاة استشعرت حقا واحدا من حقوق دينهم ما نزلوا به إلى هذه الدرجة التى وصل إليها بهم.

فأرى من الواجب إصلاح جميع ذلك، ورفع هذه العادات المنحطة، وطرق ذلك معروفة للنظارة لا أطيل بيانها.

حضــور الخصــوم

لا يكاد يكون لجلسات المحاكم الشرعية مواعيد معروفة، لا من الأيام ولا من الساعات، فالقاضي يحدد من الأيام ما يشاء، ويجلس للمرافعة متى شاء. أما الأول: ففيه من الخلل ما يظهر أيام الانتدابات في فصل الإجازات حيث لا يعرف المنتدب أيام جلسات الغائب، ثم لا يعرف مريد التفتيش متى تكون الجلسة التي يريد أن يحضرها. ونظام ذلك لا يحتاج إلا إلى عناية النظارة به، وطرقه معروفة لها.

وأما الثاني فجميع القضاة متفقون على أن السبب فيه أن الخصوم لا يجيئون في المواعيد المحددة في طلب الحضور وتحتيم النظارة عليهم أن ينظروا في دعوى من جاء ولو بعد الجلسة في يومها متى حضر قبل انصراف القاضي من المحكمة، ولكن تهاون الخصوم بمواعيد الجلسات وإن كان لإلزام النظارة هذا دخل فيه إلا أن أعظم السبب إنما هو عدم رعاية القضاة أنفسهم لتلك المواعيد.

وأرى أنه يلزم القضاة بالمحافظة على المواعيد التي يضربونها في الطلب، وأن تقرر النظارة مواعيد افتتاح الجلسات على حسب فصول السنة، كما هو جار في غير هذه المحاكم، وألا يقبل القاضي إعادة القضية في الجدول ولا يسمعها بعد انتهاء الجلسة إلا إذا كانت المدعية امرأة وبينت عذرا ظاهرا قضى عليها بالتأخر عن الميعاد يثبت في محضر الجلسة. ومتى عرف الناس ذلك بادروا إلى المحاكم قبل المواعيد المضروبة، وإلا فما بالهم لا يتأخرون عن مواقيت الجلسات في الدوائر القضائية الأخرى؟ وليس من الجائز أن يكون القاضي في عمله أسير الخصوم في إهمالهم وتوانيهم.

وهنا ألاحظ أن كثيراً من المحاكم تكثر من تأجيل القضايا حتى يسأم المدعون فيتركوها، فتشطب، أو يلحوا في الحضور فتنظر بعد زمن طويل.

المرافعة

متى حضر الخصوم سألهم القاضي عن أسمائهم وأسماء آبائهم وأجدادهم، فيأخذون في بيان ذلك. ويستشهدون عليه بشهود يسمون شهود المعرفة. فإن لم يكن معهم هؤلاء الشهود أجلت القضية، وهكذا. حتى يحضر شهود المعرفة بأية طريقة وإن كانت طريقة التزوير. فإذا حضروا ذكروا أنسابهم كذلك، وبعد هذا يأخذ المدعي في إملاء دعواه على الكاتب من ورقة ضمنها جميع الألفاظ التي عهد اعتبارها في الدعوى نحو: «الحاضر هذا. وأشار إليه بيده»، ومن نحو: «فلان المذكور. وفلانة المذكورة»، ولو تكرر الاسم ألف مرة. وإذا كانت المطالبة بمهر قيل في مبلغه: «نقدا وعدا، وقرش مصرية رائجة غير مغشوشة، ضرب مصر. أو جنيهات إنكليزية ذهب ضرب لوندرا، أو بلاد الإنكليز». وشبه ذلك مما تعودوا. فإذا أخل المملي بشيء من هذه الألفاظ أضاف الكاتب من عند نفسه تتميما للدعوى. وقد يكون الإملاء بدون ورقة، والمدعي أميًا، فيكون القاضي في الحقيقة هو المملي، متى قصد أن تكون الدعوى صحيحة، أو كتب الكاتب معنى ما يقول المدعي على الوجه المعروف إذا شاء صحة الدعوى، وإلا كتب ما قال المدعي على نقصه وخلوه من تلك الألفاظ، ويكون الويل لدعواه.

وبعد الفراغ من الإملاء والتحرير، يأخذ القاضي دفتر المضبطة وينظر فيه ليتحقق صحة الدعوى أو بطلانها، فإن وجد النسب خاليا من ذكر الجد مثلاً في تعريف أحد الخصمين أو تحديد العقار بجيرانه، سأل القاضي عن ذلك إن كان ذكيا أو كان يريد تصحيح الدعوى، ثم يقرر صحة الدعوى، ويسأل المدعى عليه عن الجواب، فيأخذ في إملائه على تلك الطريقة، وقد يستغرق إملاء دعوى صغيرة في

موضوع حقير زمنا غير قصير . . وإن إملاء بقية من دعوى فى جلسة حضرتها شغل المحكمة ثلثى ساعة . فإن لم يكن فى الوقت سعة بعد الفراغ من إملاء الدعوى لو كانت محتاجة إلى فضل تأمل أجل جواب الخصم إلى جلسة أخرى .

أما الشهادات ، فتملى كذلك على الكاتب كلمة كلمة ، وهى فى الغالب محفوظة ، وإن لم تكن ورقتها ظاهرة ، لاحتوائها على نوع من الألفاظ لا يصدر من الشاهد مرة أخرى فى حياته إلا فى شهادة مثل شهادته أمام المحكمة .

ربما يحكم القاضى ببطلان الدعوى بعد التأمل فيها ، وقبل أن يسأل المدعى عليه لخلوها من ذكر اسم الجد فى نسب بعض الخصوم أو بلده ، لا لأن القاضى سأله عنه فظن جهل المدعى به ، بل قد يكون المدعى نسيه .

ومن عجيب ما رأيته أن قاضيا عد من أسباب بطلان الدعوى أن المدعى لم يذكر نسب الوكيل الذى نصبه القاضى عن خصمه الغائب ، مع أن هذا الوكيل مندوب القاضى ، وعلى القاضى وحده أن يعرفه ، لأن المدعى لا يعرف إلا من قبل القاضى . ولكن العادة قضت بمحو العقل والشرع فى كثير من الأمور عند من يزعم القيام على الدين . ومن الغلو فى اعتبار التعريف أن القاضى بعد أن عرّف الخصوم وسمع طرفا من المخاصمة قرر أن ينتقل إلى محل المنقول المدعى به ليشير إليه ، وبعد الوصول أخذ فى تعريف الخصمين كأنها دعوى مفتتحة ! !

قال رجل بالوكالة عن أخته فى دعوى : إننى فلان ابن فلان ، أدعى عن أختى شقيقتى فلانة ، ولم يذكر نسبها اكتفاء بذكر نسبه ، فعد ذلك من أسباب بطلان الدعوى لإهمال نسبها . وعد من أسباب بطلان الدعوى أن نسب الزوجة لم يذكر فيها ، مع أنها حبشية مشتراة ، وذكرت منسوبة إلى زوجها ، وهو كاف فى التعريف شرعا . . ومنها أن المدعى لم يذكر وطن المورث ، مع أن عيب ذلك على القاضى الذى لم يسأله عنه حتى يعرف هل هو مختص بنظر القضية أو غير مختص . على أن أوراق تلك القضية والتحريات الإدارية كانت حاوية لبيان محل المورث وتعريف الزوجة وكل ما يحتاج إليه فى العلم بأشخاص من ذكروا فى الدعوى ومواطنهم ، لكن القضاة يعدون ذكر هذه الأسماء فى الدعوى لازما لنفسه لا لعلم القاضى .

أما تعريف الخصمين بآبائهم وأجدادهم ، خصوصا وإن كانوا حاضرين بين يدى

القاضي، فلا يعرف له أصل شرعي، فقد أغفل في أمهات الكتب، وجرت مجلة الأحكام العثمانية على إغفاله، لأن كلا منهما معين معروف بالحضور عند القاضي، والإشارة إليه. وإنما نصوا على ذلك في حدود العقار، واختلف فيه، وقال أبو حنيفة: لا بد من ذكر الجد لأن به تمام التمييز. وتعليله هذا دليل على سبب الحاجة إليه في التمييز، وذلك أيام كان اسم الجد هو لقب البيت في الحقيقة، ولم يكن للأشخاص مميز تام غيره، ولهذا يكتفي بشهرة العقار عن تحديده، وبشهرة الشخص عن نسبه، كما صرحوا به. وها نحن أولاء في زمان يعرف فيه الشخص بشهرته ولقبه ومسكنه وصنعته، وتلك أمور تبلغ به من الاشتهار حداً لا يخالطه فيه غيره. وكثير من الناس لا يعرفون جدودهم، كما قلنا. وإنني من بلد لا يشتبه على أحد ممن فيها، ولا أعرف إلا قليلاً من أجدادهم، فهل أجبر عند الشهادة على أحدهم أن أذكر جدا له لا أعرف نسبه إليه؟! وماذا تصنع في الأدعياء ومجهولي النسب إذا انتهى أحد حدود العقار إلى ملك واحد منهم، وهو معروف باسم أو لقب مميز في بلد العقار؟؟.. لا ريب أن ما نراه من التزام ذلك تطويل بغير طائل وحرج على الناس يلجئهم إلى الاختراع والتزوير، وهو ما تأباه الشريعة المطهرة. فمن الواجب الإسراع بتقرير ما تقضي به الشريعة من ذلك لا غير.

وأما شهود المعرفة، فقد غالى القضاء في اعتبارها، وأضروا بالمتخاصمين. فإذا سئلوا: هل ألزمكم الشرع بها؟ قالوا: لا نعرف لالتزامها أصلاً شرعيًا، ولكنها عادة.. وأخبرني بعض القضاة أنه سمع مرة شهود معرفة من بلد غير بلد المشهود بمعرفته، فلامه على ذلك أحد المسيطرين عليه من نظارة الحقانية، وأفهمه أن الواجب كان ألا تسمع الشهادة إلا من أهل بلده، مع أن الذي ذكر في بعض اللوائح هو أن شهادة المعرفة تسمع عند الحاجة، والذي ذكره الفقهاء أنه يجب أن يكون المدعى عليه معلوما، حتى لو قال: أدعي على واحد من أهل القرية لا تسمع دعواه. وخوف التواطؤ بين اثنين في دعوى لا يحمل على مثل هذا الحرج، فإن التواطؤ من الأحوال النادرة التي لا اعتبار لها في نظر الشريعة. ثم القاضي إذا اشتبه لم يمنعه مانع من التحقيق. وها نحن أولاء في بلد تعددت فيه دوائر القضاء ولم يسمع في الزمن الطويل بوضع شخص مكان شخص إلا في قليل من القضايا الجنائية. على أن مثل هذا التزوير تردع عنه العقوبات الجنائية الشديدة التي فرضت في التعازير المصرية.

فالذى أراه: الإسراع بمحو هذا الحرج الشديد المعطل لسير القضايا، الحامل للمتقاضين على التقاط الشهود من الأزقة والشوارع ليشهدوا زورا بأنسابهم أو بأشخاصهم وهم لا يعرفونهم، فإن فى بقاء ذلك إغراء بأقبح الكبائر فى نظر الشريعة الإسلامية، وهى شهادة الزور.

وأما طريقة إملاء الدعوى والشهادة، على ما هو جار الآن، فهو قتل للوقت بلا فائدة. والذى أراه: أن دعاوى النفقات ونحوها يلقبها أربابها بعبارتهم العامية، فيكتب الكاتب ما هو فى جوهر الدعوى بغير تكرير ولا إخلال. فإذا أهمل المدعى شيئا من لوازم دعواه، ككون المدعى عليه مقترا أو تاركا للمدعى بلا نفقة، سأل القاضى صاحب الدعوى عما يريد من طلب النفقة؟ وهل ينفق عليه المدعى عليه أم لا؟ حتى يتبين القاضى جميع ما يريده المدعى ولا يبقى مجهولا له إلا ما لا يمكن علمه من قبل ذلك المدعى. ثم يسمع دفع الخصم على هذا الوجه. وبهذا لا تجد دعوى تبطل إلا بخلل فى جوهر موضوعها أو بجهالة عظيمة فى أحد أركان الدعوى لا يتصور معها الحكم.

أما الدعاوى الطويلة، كدعاوى الوقف والاستحقاق فيه، وخيانة النظار، ودعاوى الميراث إذا كان فيها ارتباك، وبالجملة: جل القضايا الكلية أو جميعها وقليل من القضايا الجزئية، فأرى: أن يقدم الطالب يوم سعيه فى طلب خصمه للحضور أمام المحكمة دعواه مكتوبة مستوفاة جميع ما يلزم لصحتها على عدة نسخ، تحفظ إحداها فى المحكمة وترسل واحدة منها إلى المدعى عليه مع الطلب، وعلى المدعى عليه أن يجيب عنها إن كان يريد الحضور يوم الجلسة، ويرسل نسخة من الجواب إلى المحكمة وأخرى إلى المدعى، وذلك قبل الجلسة بيوم على الأقل. وعلى القاضى أن ينظر فى الدعوى وجوابها قبل المرافعة، فإذا جاء دورها فى جلستها سمع من المدعى ما يقول. فإن أصلح شيئا فى دعواه أثبته فى المحضر، وإن احتيج إلى سؤال فيما أهمله سئل وأثبت الجواب فى المحضر، وكتب: إن بقية الدعوى على ما هو مذكور فى نسختها المقدمة للمحكمة، وكذلك يكون الحال فى جواب المدعى عليه..

أما الشهادات، فيأتى الكلام عليها فى باب على حدة.. ولا يذكر فى جميع

ذلك إلا ما هو ضرورى لفهم المطلع على المحضر إن كان من أهل العربية، وما يكفى لفهم ترجمته إن كان غير عربى، ولا تحتاج إلى تكرير: المذكورة والمذكورة، فإن الخصوم لم يتغيروا، ببداهة العقل، ولا إلى تكرير لفظ: «هذا، وأشار بيده»، للسبب نفسه. بل لا حاجة إليه بالمرة ما دام الخصوم حضورا، فإن خرج أحد منهم أثبت خروجه من المحضر، وإلا فهذه الألفاظ من اللغو الذى لا أثر له فى اللغة ولا فى أصول الشرع، اللهم إلا فى أزمان تقتضيه.

وللفقهاء طرق فى التحرير والتوثيق أيسرها ما يمكن للمتقاضين فهمه، وهو ما ذكرناه، ونسبة هذه القيود إلى الشريعة الإسلامية ولغتها العربية نسبة ظالمة تنكرها الشريعة واللغة معا. وإنما المدار على ما يفهم ويكشف المراد، وهو ما أراده سماحة قاضى مصر فى طلبه الاختصار فى المرافعات والاقتصار على ما يكون وافيا بإفهام الموضوع ومستوفيا ما يقتضيه شرعا. وكل من أطلع على المضابط بما هى عليه الآن يحكم بأنها عسرة الفهم غامضة المراد غير وافية بالمطلوب، لما فيها من الحشو والتزام ما لا يعرفه الخاصة فضلا عن العامة مما لا يفيد شيئًا فى روح المخاصمات.

ما تبطل به الدعوى بدون سؤال الخصم

وجدت من القضاة غلوا في التحرج من سؤال المدعي عما يجب أن يعرفه القاضي من دعواه. ثم إذا قصر في ذكر شيء يرى القاضي وجوب ذكره حكم ببطلان الدعوى بدون سؤال الخصم. مثلاً: ادعى رجل على أخته بمقدم صداق مبلغه خمسون جنيها إفرنجيا، فكان من أسباب بطلان الدعوى أن في المدعي به جهالة لأنه لم يقل: «إنكليزيا ضرب إنكلترا، عبرة سبعة وتسعين قرشا ونصف قرش مصرية». . مع أن الشريعة إنما تلزم ببيان نوع السكة إذا تعددت وعسر التمييز بينها. أما الجنيه الإفرنجي، فهو معروف عند الكافة، وهو الإنكليزي، وقيمته لا تخفى علي أحد من أهالي هذه البلاد، على أنه كان يسهل على القاضي أن يسأله ماذا يريد؟

وأبطلت دعوى في جهاز، لأن المدعية بعد أن ذكرت أصنافه، قالت: «يساوي من تسعة بنتو إلى اثني عشر»، والمدعي عليه حاضر لو سئل لربما أقر بجميع ما ذكرته، ثم يوجد عسر شديد في الدعوى بالمنقول، ويشكو منه جميع القضاة، وسببه التزام ما اعتيد عليه، وما لم تلتزمه مجلة الأحكام العدلية العثمانية. وقد صرح بأنه إن كان يحتاج نقله إلى مئونه فلا يلزم المدعي إلا تعريفه وذكر قيمته، ومن النادر أن يدعى في منقول لا يحتاج نقله إلى نفقة. . ثم ماذا يصنع واضع اليد عليه، المنكر له، إذا لم يمكنه من نقله، بل ولا من الإشارة إليه لو انتقل القاضي، بأن أخفاه في مكان آخر؟ ألا يدخل بذلك في باب الغصب، سواء ذكر لفظه أم لم يذكر؟ . . ولا عبرة إلا بالمعنى في مثل هذا الباب.

وفي دعوى العقار، والحاجة إلى الاستشهاد على وضع يد المدعي عليه على

العقار المدعى به من العسر ما يشكو منه القضاة، فقد يكون بيد المدعى عليه سند رسمي يثبت وضع يده على العقار أو يثبت وضع يد غيره عليه، ومع ذلك يكلف القاضي المدعي بإحضار شهود يشهدون بوضع يد المدعى عليه، ثم لا يكتفى فى الشهادة بما دون ذكر الحدود وجيرانها وأنسابهم، ولا يكتفون بما في السند الرسمي، مع أن مجلة الأحكام العدلية لم تشترط شيئا من ذلك.

ولصعوبة الأمر في الدعوى وتعسر الوفاء بما اعتيد عليه يضطر الناس إلى التلفيق والاختلاق، ويضطر القضاة عند الحكم ببطلان الدعاوى وذكر شيء مما بدا لهم في أسبابه أن يقولوا: «وغير ذلك» ليحيلوا القارئ على ما عساه خفى عليهم فلم يتنبهوا إليه. وأغلب القضاة يحولون القضايا إلى صلح تخلصا من عناء النظر فى الدعوى، مع أن الشريعة الإسلامية شريعة أمة أمية لا يجوز إيهاظها بما لا تستطيع تحمله، كما هو معلوم.

يدعى المدعى بمائة، ويقيم الدليل على خمسين، فيحكم ببطلان دعواه كلها، ويلجأ إلى رفعها ثانيا بالخمسين، مع أن الحكم يصح فيما ثبت، ثم يمنع المدعى فيما زاد.

ولا أطيل الكلام فى هذا الباب فإن الخلط فيه كثير، والأحكام التى تصدر فيه وتحتاج إلى النظر يطول عدها. وغاية ما أطلبه الآن أن يستخلص من كتب الشريعة الإسلامية قواعد فى الدعوى يعرفها الخصوم والقضاة خالصة من التعقيد والحرج تراعي فيها مقاصد الشرع الشريف فى أحكامه وما يرمى إليه علماؤه فى بيانهم لتلك الأحكام العادلة مع النظر إلى حال المتخاصمين فى عباراتهم وعاداتهم ويصدر الأمر بالعمل عليها كما حصل فى مجلة الأحكام العدلية. ولو أبيح سؤال المدعى عليه على كل حال مراعاة لحال الناس فى هذا الزمان، لم يضر ذلك بأصل من أصول الشرع ولا بمصلحة من مصالح العامة ورفع قسما عظيما من العسر الحاضر، ويستثنى منه دعوى ما يستحيل عقلاً أو عادة على ضرب من التحديد فى الثاني.

الشهادات والأدلة

رأينا أن الشاهد على خيانة في وقف يكلف بذكر جميع أعيان الوقف وحدودها، وسلسلة المستحقين، بل والشهادة على أن الواقف وقف كذا. وهو تكليف بالتزوير قطعا، لأن الواقف كان في زمن لا يصل إليه سن الشاهد، وهذا مما لا يجوز. ولا حاجة إلى تكليف الناس بما ليس في طوقهم، فإن الشهادة بالخيانة لا تحتاج إلا إلى العلم بأن هذا أوقف، ولو بالاطلاع على حجته، ثم بموضوع الخيانة لا غير. أما المستحقون فلا معنى لذكرهم بالمرة.

وحين يكون للعقار حدود معروفة في سند رسمي، لا يكتفى من الشاهد بأن يقول: أشهد بأن العقار المحدود بالحدود المبينة في السند هو تحت يد فلان، مع أن مجلة الأحكام اكتفت بذلك، والشريعة لا تأبى الاكتفاء به.

تبطل الشهادة بمجرد خلاف خفيف بينها وبين الدعوى، أو اختلاف فيها مع شهادة أخرى، ربما كان منشؤه سوء تعبير الشاهد، وهي عادة راسخة في أذهان أهالي البلاد، خاصتهم وعامتهم، يزيدون أو ينقصون أو يخالفون في التعبير، والمراد واحد.

للقضاة في الشهادات على الطلاق حلف كثير تأباه الشريعة ويخشى منه على ما أوجبت الشريعة شدة في الاحتياط فيه.

سماع الشهادات لم يزل على ما كان عليه قبل اللائحة الجديدة، وقلما يوجد للقضاة بحث حقيقي في الشهادة لتبين صدقها من كذبها، مع أن حالة الناس وولعهم بالتزوير يقضي بذلك، وهي أحق بالنظر والتدقيق من التمسك بشهود

المعرفة ونحوه مما ذكرناه، فإن الوقوف على صحة شهادة فى هذه الأيام يحتاج إلى عناء وبحث وحذق تام من القاضي.

نعم، حفظ رسم التزكية على ما كان عليه، وما رأيت قاضيا ذكر لي أنه عرف بها صدق شاهد أو كذبه. فمنهم من يكلف المدعى نفسه بإحضار مزكين لشهوده، فيأتي بهم على ما يحب. ومنهم من يكلف مأذون البلاد بذلك. ومنهم من يعتمد على شهادة العمدة ونحو هذا مما لا يثق به طفل في البلاد فضلاً عن رجل. والقاضى يعلم أن التزكية على هذه الصورة لم تفده ثقة بشهادة الشاهد، فالكل مجهول لديه، وغاية ما تؤثره فى القضية إنما تمد فى زمنها. فإن أراد القاضى اختصار الزمن، أعد المزكين من قبل الشهادة وذكر أسماءهم واستراح من القضية.

وقد كلفت اللائحة الجديدة قضاة المحاكم بالتحرى عن درجة الوثوق بالشهادة. ولكن لو سأل سائل: ما هذا التحري؟ وما طريقه؟ لم يجد جوابا واضحا. والنظارة لم تعتبر طريق التزكية كافية فى معرفة درجة الثقة، وكتبت لبعض القضاة تلومهم على عدم التحرى والبحث عن حال الشهود، ولكن لم تبين لهم ما هو طريق هذا البحث.

والحق أن حال الشهود فى بلادنا معلوم، وأن الشهادة باب من أبواب الكسب أو وسيلة من وسائل المجاملة أو طريقة من طرق الانتقام. فعلى القاضي أن يدقق فى جميع ذلك، وأن يطلق لكل من الخصمين أن يذكر ما فى شهادة الشاهد لخصمه مما يدور بين الأهالى، وعليه أن يميز الصحيح من الباطل بفطنته، وأن يثبت ما يرى من أسباب الصحة والبطلان فى حكمه أو قراره.

أما التزكية على وجهها السابق، أو على وجه آخر، فهي موضع للكلام وليست محل اتفاق بين العلماء. وقد صرح صاحب (البحر) بأن تزكية المجهول للمجهول لا تفيد، واستصوب استبدال تحليف الشهود بها، وجعل الأمر للقاضى على حسب الأحوال والضرورات.

يوجد فى بعض كتب الفقه أمور عدت مسقطات للشهادة، كحلق اللحية، والعمل فى بعض الوظائف لمعونة الحكام ونحو ذلك. وقد علل الفقهاء ذلك بأن حلق اللحية مسقط للمروءة، وأن معاونة الظلمة فسق.

وحكم أحد المفتين برد شهادة رجلين لحلق لحيتهما، ولم يراع في ذلك أن الأمر الأول قد ذهب زمنه، لأن المدير ووكيل المديرية ومأمور مركزها، وهو معدود من أهل الصلاح والمروءة، جميعهم في تلك المديرية محلوقو اللحية، ولا أرتفع إلى أعلى من ذلك.

وأما الثاني فقد صرحت أمهات الكتب بقبول شهادة الفاسق، وبعضهم قيده بذي المروءة، وبعضهم أطلق. وبنوا على هذا الحكم جواز تولية القاضي الفاسق، خصوصا من كان فسقه بعمل لا يتعلق بالشهادة كالشرب والقذف ونحوهما.

فلو أخذنا بما ألفه المقصرون في فهم الشريعة حصرنا قبول الشهادة فيما يصدر من رعاع الناس ومجهولي الحال الذين لا تعرف أهليتهم للثقة بمقالهم. وكثير من طويلي اللحى الظاهرين بلباس الصلاح إنما يقتاتون بالكذب، وكثير من غيرهم يتنزهون أن يكذبوا مرة في حياتهم.

تعود الناس ألا يحضروا إلى المحاكم إذا دعوا للشهادة إلا إذا دعتهم المحكمة. والمحاكم الشرعية تأبى دعوة الشاهد لأن دينه ينهاه عن كتم الشهادة وإلا أثم، والآثم فاسق لا تقبل شهادته!! ولكن من يبالي اليوم بهذا الإثم؟ وأمر الشهود على ما بينا وما نعهد؟! وما الذي يمنع القاضي من تنبيه الشاهد إلى ما يجب عليه فيكون آمرا بمعروف ناهيا عن منكر. وقد قال الفقهاء: إن ذلك شأن القاضي.

وبالجملة، فإني أرى: أن تستخلص أحكام للشهادات في جميع الأبواب من كتب الشريعة الغراء، وتودع في كتاب يضم إلى ما يستخلص في الدعوى ليكون العمل به.

أما بقية الأدلة فلا يزال القضاة يتخبطون في أحكام الإقرار وقبول الشهادة عليه إذا حصل قبل الدعوى وعدم قبولها. والأدلة الخطية مهملة بالمرة، لا يعدها القضاة إلا مؤيدة للشهادات. والمعول عليه هي الشهادة لا غير، اللهم إلا في قليل من حجج المبايعات وإعلامات الأحكام.

وعار على قوم يأخذون الأحكام من الكتب، ويجلسون للحكم بدلائل الخط

لا سواها، أن يأبوا اعتبار الخط دليلاً متى كان بإمضاء من عليه الحق أو خطه ولم توجد فيه شبهة التزوير.

فمن الواجب أن تبين أحكام الخطوط بإيضاح أتم مما هو فى اللائحة، وتؤخذ من كتب الشريعة كسائر الأحكام.

ثم من الأدلة أيضًا كتاب القاضى إلى القاضى، وقد يقع الاجتماع به ولا دليل سواه، ويقف القاضى فى الدعوى لعدم استيفاء بعض الشرائط عنده وهو يعلم علم اليقين من حالة الكتاب وطريق إرساله أنه كتاب ذلك القاضى، فأرى: أن ينص على شيء فيه أيضا.

وهنا أذكر أنه ينبغى أن تفصل أعمال المرافعات أيضًا إلى قسمين: قسم نظامى، يتعلق بطرق استحضار الخصوم وتقديم الدعاوى وضبط الخصومات والدفع ونحو ذلك مما لا يأباه الشرع ويفيد فى إصلاح العمل. وهذا القسم يجرى فى تقريره ما هو معروف فى تقرير نظامات الحكومة.

وأما القسم الثانى، فهو شرعى محض، يختص بالدعوى والأدلة بتفصيل تام يرفع الالتباس عن جميع الناس. وهذا تنظر فيه لجنة من علماء الشريعة تبين أعضاؤها عندما يستقر الرأى على تشكيلها، على أن يكون فيهم من أعضاء المذاهب الأربعة عدد يعين كذلك فيما بعد، ويكون همهم استخلاص الأحكام على وجه يرفع الحرج عن المتقاضين إلى محاكم الشرع الإسلامى المنيف، ثم يعرض ما يستخلصونه على الجناب العالى فيصدر أمره بالعمل به.

الدفع وما يتبعه من المعارضة
فى الحكم على الغائب

تقرر جواز الدفع فى المواد: ١٧ و١٨ و١٩ من اللائحة الجديدة. وذكر فى المادة ١٧ أنه يجوز الدفع فى كل حكم يصدر على الوجه المسطور أمام المجلس، إلى آخره. والحكم المسطور هو المذكور فى النكاح والمهر ونحوهما مما ذكر فى المادة ١٦. وفى المادة ١٨ أن المجالس الشرعية تنظر فى الدفع المرفوع إليها، الذى يصدر على الوجه المبين فى المادة السابقة. والمادة ١٩ تصرح بجواز الدفع فى كل حكم يصدر من المجالس الشرعية أمام المحكمة العليا، إلى آخره.

فالذى يظهر من هذه العبارات، أن الدفع إنما يكون فى حكم يصدر فى موضوع مما نص عليه فى المادتين ١٦ و١٨، لأن الحكم المسطور هو الحكم فى تلك الشئون، لكن المحامين والخصوم والقضاة توسعوا فى ذلك، وعدوا كل قرار يصدر من المحكمة حكما قابلا للدفع، حتى سؤال المدعى عليه عن دعوى المدعى.. ومنشأ هذا التوسع أن دعوة المدعى عليه للجواب حكم بصحة شكل الدعوى، وإن لم يسمع من المدعى عليه ولا كلمة، فيجوز للمدعى عليه أن يرفع طلبه للإجابة أمام محكمة الدفع.

تعطل بذلك سير الدعاوى وجرت مماحكات المحامين إلى ضياع كثير من الحقوق. والواجب أن يصرح بأن منطوق اللائحة يأبى ما توهموه، وأن ما يصدر من القرارات التمهيدية كصحة الدعوى وطلب الشهود ونحو ذلك لا يجوز فيه الدفع، إلا إذا كان سماع الشهادة مثلاً مخالفا لنص شرعى. فإن كان للمدعى عليه

كلام في شكل الدعوى فعليه أن يبديه للقاضي، فإذا قرر أن يسأل الجواب عنها كان ذلك ضما للمسألة الفرعية إلى الموضوع فيستمر السير في الدعوى ويستأنف الحكم برمته بعد صدوره.

وأما ما جاء في المادة ٨٧ من اللائحة من الفرق بين الحكم في الموضوع والحكم في غير الموضوع، فذلك يجري فيما لو حكم القاضي ببطلان الدعوى قبل أن يسمع إجابة المدعى عليه أو حكم بعدم الاختصاص أو ما أشبه ذلك.

المادة ٨٢ بينت طريقة رفع الدفع إلى محكمته، وفيها من النقص أن قاضي المركز ربما لا يقبل تقييد الدفع، ويماطل من يوم إلى آخر حتى يمضي الأجل، فاللازم أن يخير الدافع بين تقديم الدفع إلى المحكمة التي أصدرت الحكم المطعون فيه وبين أن يقدمه إلى محكمة الدفع نفسها. وفي هذه الصورة يجب على محكمة الدفع طلب الأوراق ثم تحديد جلسة النظر في الدفع.

المادتان ٨٧ و٨٨ بينتا ما تعمل المحكمة في نظر الدفع، وهو أن تنظر المحكمة فيه بدون حضور الخصوم. فإن ظهر لها عدم صحة الحكم، وكان في الموضوع، قررت ذلك، وكلفت الخصوم بالحضور أمامها، وأعادت النظر في القضية، وحكمت. وإن كان في غير الموضوع، ردت القضية إلى من حكم فيها ليعيد النظر. فإن ظهر لها صحة الحكم وبطلان الدفع، أيدت الحكم وصار نافذا. أما إن ظهر لها مع صحة الحكم صحة الدفع، كلفت الخصوم بالحضور أمامها، وحكمت في الدفع، وصار حكمها نافذا.

رأيت أن الدفع يقدم في قسيمة صغيرة لا تسع بيان وجوهه. وقد تغفل محكمة الدفع عن الوجوه التي يراها الدافع مفيدة في دفاعه ولا يستطيع بيانها في قسيمة الدفع. وقد حكمت بعض المحاكم بإلغاء حكم للاشتباه في معنى لفظ ذكر في عقد كفالة، مع أنه كان يمكن سؤال كاتب العقد أو المتعاقدين عما أراد من اللفظ. سألت القاضي كيف حكم لمثل هذا الاشتباه مع تيسر كشفه؟ فأجابني، وله الحق: أنه لا يمكنه أن يسأل الخصوم ولا كاتب السند إلا في مرافعة، ولا سبيل لإحضار الخصوم بين يديه إلا إلغاء الحكم وإعادة نظر القضية حتى يتيسر السؤال. والسبب في تكرار

العمل على هذه الصورة وتطويل الزمن وإرجاع المتخاصمين إلى أصل الدعوى، إنما هو تتميم النظر فى الدفع بدون مرافعة.

ثم اضطراب القضاة فى صفات الخصوم عند الدفع، وعند إعادة النظر فى القضية. فمنهم من اعتبر الدافع مدعيا مطلقا، فلو صدر حكم ابتدائى على شخص بإلزامه بدفع شيء لآخر، فدفع المحكوم عليه ذلك الحكم، وحكمت محكمة الدفع ببطلانه، وقررت إعادة النظر فى القضية، وبقى الدافع مدعيا ـ والمدعى: من إذا ترك تُرك ـ فلو لم يحضر الدافع إلى محكمة الدفع فى الميعاد الذى حددته للنظر فيها تشطبَ القضية ويذهب حق من كان حكم له فى المحكمة الابتدائية، بحيث لا يعود، لأنه لا سبيل إلى إحضار الدافع ما دام قد اعتبر مدعيا، ولا يمكن تنفيذ الحكم الابتدائى لصدور حكم محكمة الدفع ببطلانه. أما إن كان الحكم والدفع صحيحين وحددت للنظر فى الدفع موعدا ولم يحضر الدافع فالقضية تشطب وينفذ الحكم بلا إشكال.

ومنهم من اعتبر أن القضية عادت إلى ما كانت عليه. فالمدعى أمام المحكمة الابتدائية هو المدعى أمام محكمة الدفع. وهذا الاعتبار يرفع الإشكال فيما لو حكمت محكمة الدفع ببطلان الحكم الأول. فالمدعى الحقيقى يعود صاحب الشأن فى التمسك بالدعوى وتركها كما كان أمام المحكمة الابتدائية. أما لو صح الدفع والحكم معا، فالإشكال باق، لأن من مصلحة المدعى الأصلى ألا يحضر، فلو شطبت القضية لعدم حضوره نفذ الحكم وسقط حق الدافع، وهو ظلم ظاهر. وذلك كما لو حكم لزوجة بنفقة زائدة عما يجب لها، فدفع الزوج، وظهرت صحة الحكم فى نفسه، وأن الدفع يستحق النظر، فلو بقيت الزوجة مدعية تشطب القضية لعدم حضورها، وبطل معنى الدفع، ولم يبق للزوج طريق للدفاع، ولهذا كان ينبغى أن يكون الدافع فى هذه الحالة مدعيا، فهو الذى إذا لم يحضر تشطب الدعوى ويكون الحكم نافذا.

فالذى أراه أن محكمة الدفع لا تنظر إلا بعد مرافعة من الخصوم، يبين فيها كل حجته على خصمه كتابة أو شفاها، وأن الحكم لا يصدر إلا بحضور الخصمين أو وكيليهما إن كان الحكم بغير الشطب، كما هو الشأن فى جميع القضايا على الطرق

المقررة . فإن دفع المدعى عليه حكما يلزم بتسليم عين مثلاً، فعلى محكمة الدفع أن تحدد يومًا للمرافعة فيه، فإن لم يحضر الدافع شطبت الدعوى وصار الحكم نافذاً، إما بمجرد الشطب وإما بعد مدة تقرر في اللائحة لتجديد الدفع متى مضت نفذ الحكم ولم يقبل تجديد الدفع . وإن حضر الدافع ولم يحضر خصمه، نظرت المحكمة في الدفع، فإن رأت بطلان الحكم الأول حكمت به وحددت موعدا لإعادة نظر القضية، على أن يكون المدعى أمام المحكمة الابتدائية هو المدعى أمامها وخصمه خصمه . وإن كان الحكم صحيحًا والدفع يستحق النظر فيه، فإن كان المحكوم له حاضرا فصل في الدفع حالاً إن توافرت شرائط الحكم، وإلا كلف الدافع بإثبات وجوه دفعه واعتبر مدعيا، فتشطب القضية بغيبته، وصار المدعى أمام المحكمة الابتدائية مدعى عليه أمام محكمة الدفع . أما لو كان الحكم الابتدائي يمنع المدعى من دعواه أو ببطلانها، فدفع، فهو مدع في جميع الأحوال، ولابد أن يبين ذلك في اللائحة بنص صريح وإلا فالمنشورات قلما تفيد .

وأرى كذلك في المعارضة ألا ينظر فيها إلا بمرافعة يحدد لها جلسة، فإن لم يحضر المعارض شطبت معارضته، ولم يبق إلا الدفع، وإن حضر بعد إعلان خصمه، ولم يحضر، سمعت المعارضة . فإن رأى القاضي صحة الحكم الأول أيده بلا حاجة لطلب المحكوم له، ولم يبق له إلا الدفع أمام محكمته . أما إن كان الحكم صحيحا في نفسه لكن المعارضة صحيحة من جهة أن الحكم كان بأزيد مما يجب مثلاً، انقلب المعارض مدعيا وجرى في المحكوم له أحكام الحضور والغيبة إلى أن يفصل في المعارضة، فيجب إيضاح ذلك كله .

ثم إن قضايا الدفع لم تعرف لها إلى اليوم رسوم، ولم يعرف دخول المعارضة في أي نوع من أنواع الدعاوى، والواجب تحديد كل نوع منهما، ووضع رسوم لها أو إعفاؤها من الرسوم بالمرة إذا رأت النظارة ذلك، كما يجب تقرير نحو ذلك في المحكمة العليا .

الأحـــكـام

ما عليه العمل من أقوال العلماء فى الأحكام الشرعية مذكور فى الكتب مخلوطا بالخلاف والبحث وطرق الترجيح. ومن رفعت إليه واقعة شرعية قد يصعب عليه الحكم فيها إلا بعد مراجعته بعض المؤلفات الطويلة، وربما احتاج إلى مراجعة عدة منها فى أبواب مختلفة. وكثير من القضاة لا طاقة لهم باستخراج الأحكام من هذه المطولات. وفى الحق، أن ذلك غير ميسور إلا للقليل ممن يصح توليته القضاء، اللهم إلا بعد إصلاح طريقة تعليم الفقه فى الجامع الأزهر وإعادتها إلى ما كان عليه السلف الصالح، وذلك أمر بعيد المنال الآن.

نعم.. يجب أن يكون القاضى مقتدرا على البحث والمراجعة فى المشكلات. أما فى كل حكم، فذلك من العسر بمكان. وقد كثر الخطأ فى أحكام الأوقاف والطلاق والمهور والوصايا، ونحو ذلك لهذا السبب. ثم إنه توجد شئون للمسلمين تقضى الضرورة بالنظر فيها وبيان الأحكام التى ترفع الضرر وتقرر العدل ولا تخالف الشرع، بل هى من قوامه. كأحكام الغائب والمفقود الذى ترك مالاً، وهل يمكن إقامة وصىّ يخاصم له ويحفظ ماله ويدفع الخصوم عنه، وتنفيذ الأحكام عليه بالنيابة عنه؟ وهى من المسائل الخلافية فى المذاهب، والوقائع فيها كثيرة، ورجال المحاكم فيها مضطربون.. وكالزوجة يتركها زوجها بلا منفق أو يغيب عنها الغيبة الطويلة وتنقطع أخباره، أو يكون معروف المقر ولا أمل فى الوصول إليه لو حكم عليه بالنفقة، أو كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أو السجن لمدة طويلة، وتخشى على نفسها الفتنة، أو لا تجد ما تنفق منه ولا من تستدين منه على حساب الزوج.. ومثلها التى يكون زوجها حاضرا ولكنه لا ينفق عليها، وهى مضطرة لما

تنفق منه . وكذلك التى يضارها زوجها فى العشرة . فجميع ذلك ما عمت به البلوى وكثرت فيه الشكوى من جميع أنحاء البلاد . وكثير من النساء يبحن أنفسهن افتتانا أو اضطرارا للقوت ، لأنهن لم يجدن السبيل إلى دفع الضرورة أو المخلص من الفتنة فى المحاكم الشرعية على حالتها التى هى عليها الآن . .

أليس من الواجب أن نفزع إلى الشريعة الإسلامية المطهرة لنجد فيها الوسيلة إلى وقاية الأعراض والأنفس؟ مع أن المحافظة عليهما من أهم مقاصد الدين الإسلامى والشريعة السمحة ، ولا نعدم في نصوصها وسيلة إلى أهم ما جاءت له . .

كل ذلك يجب أن يوضع بين يدى لجنة من العلماء ليستخرجوا من الأحكام الشرعية ما فيه شفاء لعلل الأمة فى جميع أبواب المعاملات ، خصوصا ما لا يمكن النظر فيه لغير المحاكم الشرعية من الأحوال الشخصية والأوقاف ، ويكون ما يستخرجونه كتابا شاملاً لكل ما تمس إليه الحاجة فى تلك الأبواب ، ويضم إلى ما يستخلص من أبواب المرافعات الشرعية ، ويصدر الأمر بأن يكون عمل القضاة عليه ، فإذا غمض عليهم أمر راجعوا فيه من يكون فى وظيفة إفتاء الحقانية أو الديار المصرية ، وعليه أن ينظر فيه بنفسه أو مع لجنة العلماء على حسب الحاجة .

ما لا تسمع فيه الدعوى إما بمنع القاضى من الحكم فيه أو بمضى المدة

منعت اللائحة الجديدة من سماع الدعوى فى النكاح والطلاق بعد الموت، وفى الوقف في أحوال خاصة، ولكن أغفلت فيها قيود كان يجب وضعها. . وبلغنى أن النظارة أصدرت منشورات بملاحظة تلك القيود بعد أن ظهر الضرر فى إهمالها، ولكن أرى أن توضح فى نفس اللائحة.

ومن وسائل الوقف فى هذا الباب: مسألة الاستحقاق، ومضى المدة عليها، وهل أصل الاستحقاق يلحق بعين الوقف، على ما هو ظاهر من الأوامر الصادرة عن نائب السلطان عندنا فى اللوائح القديمة والجديدة، أو الاستحقاق من الملك المطلق كما ذكر فى بعض كتب الفقه بناء على أن الأوامر السلطانية فى بلد صاحب الكتاب قيدت مدة سقوط الدعوى فى الوقف بعين الوقف، بخلاف ما صار عندنا فإنه لم يذكر إلا الوقف. على أن من ذكر ذلك من الفقهاء قد استدل عليه بما لا ينطبق على دعواه، بل اختلط عليه الاستحقاق الذى هو حق متعلق بالعين مع الاستحقاق الذى هو بمعنى المستحق - بفتح الحاء - أى الريع، وهى من المسائل المهمة فى الباب. فأرى أن يكون ذلك من موضوع بحث العلماء أيضا حتى يتقرر فيه حكم شرعى يقطع النزاع.

التنفيـــذ

هذا أهم ما ينبغى لنظارة الحقانية أن تشتغل به عند طلبها لإصلاح المحاكم الشرعية، فإن الحكم مهما كان عدلاً إذا لم ينفذ كعدمه، وذهبت المتاعب فى الدعوى ولواحقها هباء وضاعت حقوق المتخاصمين، وفسد شأن الناس فى معاملاتهم التى اختص النظر فيها بالمحاكم الشرعية.

قضت اللائحة الجديدة أن يكون التنفيذ بواسطة السلطة الإدارية. وكان ذلك رعاية للتسهيل وخفة النفقات، لكن فيه معنى يعد وصمة لاحقة بالقضاء الشرعى، لا ينبغى للحكومة أن تقره بعد أن اعتبرته عملاً قضائيا محضا، ويجب أن يكون تنفيذ ما يصدر منه بصبغة قضائية كمصدره.

والمضار التى نشأت من هذه الطريقة تفوق حد الحصر، ويجمعها أن الأحكام لا نفاذ لها، ولا ينفذ منها أكثر من عشرة فى المائة. وما نفذ منها لم يخلص من المفاسد الذائعة بين الناس. فمعاونو الإدارة فى الأغلب لا معرفة لهم بطرق التنفيذ، ولهم العذر لأنه ليس من عملهم، ولم يستعدوا له لا بأنفسهم ولا بإعداد الحكومة إياهم لمثله عند قبولهم فى الوظائف. فمتى عرض لواحد منهم معارضة من المحكوم عليه: فإما أن يقف العمل، وإما أن يكتب إلى القاضى الذى أصدر الحكم. وللقضاة فى ذلك طريقان فيما يرد إليهم: الأول، وهو الأغلب: أن يقولوا: قد أصدرنا الحكم، والمعارضات فى التنفيذ لاحقة به، فمن شأن الإدارة أن تنظر فيه لا من شأننا. فيقف التنفيذ كذلك، مع أن منشأ المعارضة قد يكون أمرًا شرعيا صرفا كاحتجاج الزوج فى عدم تنفيذ الحكم بالنفقة بأن زوجته نشزت مثلاً، فتسقط

نفقتها. والطريق الآخر: أن يتصرفوا فيه تصرفًا إداريًا لا ينطبق على الشرع لظنهم أن الأمر بعد الحكم انقلب إداريا.

ومن معاوني الإدارة من لا يراعي الواجب عليه، سواء كان عارفا أو غير عارف به، بل يوسط شهوته في عمله، ولا يهتم إلا بتنفيذ ما يجب أن ينفذه، خصوصا وهو يرى أن ذلك ليس من عمله، إنما هو زيادة ضمت إليه لا دخل لها في وظيفته.

أما المدير أو المحافظ، فأوقاته مستغرقة بأعماله الإدارية الأخرى التي يراها من قوام وظيفته، ولا يخطر بباله أن تنفيذ الأحكام الشرعية من جملتها، ولو أن شكوى رفعت إليه فيما يتعلق بالتنفيذ لم يزد على أن يقول للمعاون: «سوف المسألة».

وقد رأيت أن أمر تنفيذ الأحكام الشرعية أشبه بغير المعروف عند المديرين والمحافظين. وربما كان الحق في ذلك من جانبهم. وكيف يمكن للمدير أن يتفرغ للنظر في شكاوى المئين أو الآلاف الذين لا تنفذ الأحكام الصادرة لهم؟! هذا ضرب من المحال.. أذكر دليلاً واحدًا على ما أقول، وهو أنه لا يوجد عند أحد من المعاونين الذي نيط بهم التنفيذ دفتر يقيد فيه ما يرد إليه من الأحكام، وما نفذ وما لم ينفذ، وأسباب عدم التنفيذ، ولو سئل أحدهم عن عدد ما ورد عليه في أسبوع واحد لا يعرفه.

ثم من الإشكال في التنفيذ ما يكون لأسباب شرعية، أو يجر إلى منازعات قضائية، فكيف يتيسر لمعاون الإدارة معرفة ذلك أو التمكن من السير فيه؟

وضعت الوزارة مشروعًا للتنفيذ، مطاوعة لما رسمته لائحة المحاكم الشرعية الجديدة، وأودعت هذا المشروع كثيراً من الأعمال القضائية في تحرير المحاضر والتنبيهات عند إدارة الحجز، وما يجب أن يجرى في البيع ونحو ذلك، ولكنها ناطت ذلك كله بمندوبي الإدارة، مع أن الأعمال التي رسمها المشروع لا يمكن أن يضبطها إلا عمال قضائيون يعدون لذلك. فلو صدر المشروع على قاعدة أن التنفيذ يكون بواسطة مندوبي الإدارة، سقط من يوم صدوره وأصبح حبرا على ورق.

فأرى من اللازم أن ينشأ قلم محضرين لتنفيذ الأحكام الشرعية، وإعلان طلبات

الحضور والإعذارات إن بقيت. وبالجملة: يكون من عمل ذلك القلم ما هو من عمل محضرى المحاكم الأخرى، ويوضع له نظام يضبط جميع ما هو من خصائصه، وبذلك يتم مشروع نظارة الحقانية فى قواعد التنفيذ.. أما الإدارة فيكون من وظائفها المساعدة كما هو شأنها فى تنفيذ أحكام سائر المحاكم.

نعم.. إن هذا يستدعى شيئًا من النفقات، ولكنى لا أطلب إقامة الهيكل فى يوم واحد، وإنما أرجو الآن أن يبدأ فيه، وأن يستمر السير على طريق لتكميله. ويجوز أن يبدأ بمحكمتى مصر والإسكندرية، فينشأ لهما قلم محضرين تؤخذ لهم نفقات مما عساه يتوافر فيهما معا أو فى إحداهما من مرتبات بعض من لا يحتاج إليه من العمال.

ثم هناك أمر آخر أيسر وأسهل، وهو فصل معاونى الإدارة الذين كانوا مختصين بالتنفيذ فى المديريات والمحافظات من وظائفهم الإدارية، فإنهم كانوا غير عاملين فيها، وتعيينهم مأمورى تنفيذ قضائيين، أى محضرين، وتكليفهم بدرس ما يلزم لذلك، وتقرير ما يسمى بالمسئولية عليهم فى أعمالهم بحيث يتحملون تبعات أغلاطهم أو ما يقع من الخلل فى إجراءاتهم. والله الكفيل بأن يصيروا من أحسن المحضرين كما كانوا من حذاق المعاونين، إن صح لهم ما وصفوا به!! وهذا هو رأى محافظ ومدير تكلمت معه فى شأن التنفيذ، ورأى قاض، ورأى الناس أجمعين.

وأقل ما يجب على النظارة أن تسرع به، هو إحالة التنفيذ على محضرى المحاكم الأهلية مؤقتا، حتى يتسنى لها طريق آخر، ولها الشأن فى زيادة عددهم أو بقائه على ما هو عليه.

ثم هناك مضار أخرى غير التى نشأت من طريقة التنفيذ، وهى أشد من تلك وأنكى. تلك المضار التى تنشأ من عسر التنفيذ على المحكوم عليه، لأن طبيعة الحكم تقتضيه، وإما لأن دناءة المحكوم عليه وخبثه تستدعيه.

أما الأول: فمثل تنفيذ الحكم الصادر بتخلية المطلق بين المطلقة وبين ولدها فى زمن معين لتتمكن من رؤيته واستعراف أحواله. ومثل الحكم على الزوجة بلزوم

طاعتها لزوجها. فلو أن المطلق منع الوالدة من رؤية ولدها أول مرة، فاستعانت بقوة الشرطة على إنالتها حقها أول مرة، فماذا تصنع فى الثانية والثالثة إذا استمر المطلق على عناده في حرمانها من رؤية ولدها؟! ولو أن الزوجة كانت غنية وتركت زوجها ثانى يوم التنفيذ، فما الذى يلجئها إلى القرار فى بيت الزوج. فلو اشتغل المنفذون بالإكراه والإلجاء لم يجدوا وقتا لعمل آخر. فلابد من وضع جزاء على من يخالف الحكم بعد تنفيذه أول مرة.

وأما الثانى: فهو الداء العضال والمرض القتال، ولا يستطاع احتماله بوجه من الوجوه. وذلك أن المحكوم عليهم بالنفقات للزوجات والأولاد يكونون فى الأغلب من الفَعَلَة وأرباب المكاسب اليومية، ومن أحكام اللائحة أن يحجز على أجرهم، فإذا صدر الحكم على أحدهم ادعى أنه ترك العمل، واتفق مع من يستخدمه على ذلك. وليس عنده شيء آخر يمكن الحجز عليه، فيقف التنفيذ، ويموت الأولاد والنساء جوعا، أو يضطرون للتكفف فى الطرق العمومية.

ومنهم من يكون مع والده أو أخيه الأكبر فى معيشة واحدة، وهو العامل معه فى وسائل الارتزاق. ولكن متى صدر الحكم عليه بنفقة لزوجته أو ولده، ادعى الوالد أو الأخ أنه طرده، وأنه ليس له مال يحجز عليه، مع أنه لا يزال معه، فيسقط الحكم، وتبوء الزوجة والأولاد بسوء المصير. وربما زوجه الوالد بزوجة جديدة على عين المحتاجة الأولى.

ومنهم من يضم ثروته التجارية إلى ثروة شخص آخر، ويكون الاسم فى العمل لهذا الآخر، فإذا أريد الحجز على المحكوم عليه لم يوجد عنده شيء، مع علم الناس كافة أنه شريك التاجر.

وهكذا من أنواع الحيل التى يتوسل بها المحكوم عليهم للتخلص من تنفيذ الأحكام ولا مرحمة لهم بأولادهم ولا غيرة على نسائهم.

ومنهم موظفون فى الحكومة برواتب قليلة، إلا أن أولادهم كثيرون. فإذا حجزوا من مرتبة، فإنما يحجز ما سمحت الأوامر بحجزه وهو دون كفاية الأولاد وفوق كفاية الزوج وحده.

هذا، وإنى أرفع صوتى بالشكوى من كثرة ما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة. فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاث أو اثنتان وهو لا يستطيع الإنفاق عليهن، ولا يزال معهن فى نزاع على النفقات وسائر حقوق الزوجية. ثم إنه لا يطلقهن، ولا واحدة منهن. ولا يزال الفساد يتغلغل فيهن وفى أولادهن، ولا يمكن له ولا لهن أن يقيموا حدود الله. وضرر ذلك بالدين والأمة غير خاف على أحد.

أما الموظفون الذين لا يفى ما يحجز من مرتباتهم بنفقات أولادهم وزوجاتهم، ولكن ما يبقى منها يزيد عن كفايتهم، فينبغى أن يصدر فى شأنهم أوامر بجواز أن يحجز ما يصدر به الحكم النهائى عليهم، وهو لا يصدر بأكثر مما تقتضيه النسبة بين ما يكفى لنفس الموظف وما يكفى لأولاده، كما هى القاعدة الشرعية.

وأما الضرر الذى ينشأ من كثرة الزواج التى ولع بها الفقراء من سكان القرى - وهى من المضرات المعطلة لأعمالهم، المفسدة لشئونهم وشئون أعقابهم، رغما عما يتعلل به الجهلة فى إباحة ذلك له - فأرى لعلاجها أن يلزم كل مأذون أن يسأل قبل عقد زواج أى شخص غير معروف بالثروة: هل له زوجة أخرى؟ فإن كان له، فما هى الطريقة فى الإنفاق على زوجاته وأولاده؟ ويثبت جميع ذلك فى ورقة العقد. ثم يجب أن يحدد حد معين من الثروة لمن يتزوج أكثر من واحدة متى كان غير معروف بأنه من أهلها. على أنه لو ذكر فى كل عقد من عقود الزواج وسائل معيشة الزوج، من كونه صاحب ملك أو تاجرا أو صانعا فى كذا أو عاملا، كان ذلك أدعى إلى تضييق دائرة الضرر. ولا شىء من أصول الشريعة يأبى ذلك، بل هو من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ولا أحق به من القادر عليه، والحاكم هو أقدر الناس عليه.

ومن المعلوم فى أحكام الشريعة أنه متى تحقق أن الزوج لا يستطيع الإنفاق على زوجته، وأن الزواج يفسد أمر معيشته ويلجئه للخروج عن الحدود التى حدها الله له، حرم عليه الزواج بلا خلاف. فإذا وضعت لذلك قواعد وجب أن يراعى فيها جميع ما قضت به الشريعة المطهرة وما يقر عليه رأى علمائها.

بقى علينا أولئك المحتالون لتعطيل الأحكام من المزارعين والصناع والعملة

والداخلين فى معايش آبائهم وذوى قرابتهم، وهم فى الحقيقة من أهل اليسار، ولكنهم يضارون زوجاتهم ويعرضون أولادهم للهلاك ونساءهم لارتكاب الموبقات، ويعودون بسيئات أعمالهم هذه على آداب البلاد بالفساد. . ذاكرت جميع من رأيت من المحافظين والمديرين والقضاة وأعيان البلاد فاتفقت كلمتهم عامة على أن لا دواء لهذا الداء إلا ما لاحظته الشريعة فى أمثالهم وفرضته جزاء لهم، وهو الحبس.

الحبـــس

العمل فى المحاكم الشرعية إنما هو بأحكام الشريعة الإسلامية، فهى قانونها. وقد نص فى الشريعة على إلزام من يحتال بدعوى الإعسار بتحمل عقوبة الحبس حتى يظهر إعساره تحت قيود مبينة فى مواضعها من الشريعة، وهى لا يزال معمولاً بأحكامها فى تلك المحاكم، ولم يعرض لحكم من الأحكام المختصة بها نسخ ولا إلغاء، معاذ الله.. فقد جاء حكم الشرع، الذى عليه العمل، مطابقا لحاجة الناس وما يطلبه جميعهم، فيجب أن يحكم به على كل من يحتال لتعطيل حكم من الأحكام الشرعية بوسيلة من تلك الوسائل، مع مراعاة الحدود الشرعية. فإن عهد لموظف، أى موظف كان، أن يعارض فى تنفيذ الحبس، واستعمل لذلك سلطته، عوقب بمقتضى المادة ١١٥ من قانون العقوبات المصرى.

كيف لا يعاقب بالحبس شخص فقد وجدان الرأفة بزوجته وولده، وقسا قلبه فى معاملتهما، وهو يحتال لإهلاكهما وإفساد أخلاقهما؟! أولئك أشخاص يفوقون الحصر كثرة فى هذه الأمة المسكينة خصوصا بعد ما فارقتها روح دينها وسر الإخلاص فيه، وليس لها تربية صالحة تعم الجمهور من أفرادها.

إن الحبس فى نظر الشريعة الإسلامية من العقوبات التى يجب الاحتياط التام لإحلالها بمن يستحقها، ولكنه اليوم هو الدواء الشافى من مرض الاختلال الحاضر، ويجب مطاوعة الشريعة فيه متى استوفيت شرائطه.

وإنى لا أدرى كيف أهمله القضاة والمنفذون تبعا لبعض الأوهام التى لا قيمة لها فى اعتبار الشرع والقانون والآداب العامة، مع أنهم يشهدون ضررها يفتك فى النفوس والأعراض.

هل يسوغ أن يقضي بالحبس على من يحرض على الفسق بكلمة، ولا يقضى على من يلجأ إليه إلجاء؟! هل يسوغ أن يعاقب من يترك ولده فى الطرق والشوارع ويعرضه بذلك للخطر، ولا يعاقب من يتركه بلا قوت حتى يهلك جوعا؟!

أكرر قولي: إن حقوق القرابة التى قررتها الشريعة ليست كبقية الحقوق المدنية، ولا مناسبة بين الفريقين من الحقوق. فلا يليق أن يستنكف فى تلك مما لا يستنكف منه في هذه. والحكومة المصرية قد وضعت عقوبات فى مخالفات كثيرة لم يكن يخطر بالبال أن يعاقب عليها، كمخالفات الري ونحوها، فلا يمكن أن أتصور أنها تمتنع من إجراء حكم أوجبته الشريعة الإسلامية للمحافظة على أهم ما تجب المحافظة عليه، وهو النفس والعرض والأدب. ولا أرى الإهمال في إجراء حكم الحبس على المحتال إلا ضربا من تساهل القضاة والمأمورين، ولا أسمح لنفسى أن أصدق أن الحكومة تمنعه بعدما رأت الضرورة إليه، وبعدما سلمت أنه من لوازم أحكام الشرع في محاكم لا يفارقها ولا تفارقه.

رأيت قاضيًا واحدًا يأمر بالحبس، وتسمع كلمته عند رجال الإدارة ممن عنده. ونعم ما كان يصنع وما يصنع لو استمر عليه. وقد أخبرني بأنه لم يحبس ولا واحد ممن أمر بحبسهم، فإن مجرد الأمر كان كافيا في دفع الحق والخضوع للحكم. وهكذا كان يقول جميع من لاقيت من الموظفين: إنه لو أمر بالحبس لم يحبس في المائة واحد، بل يدفع كل ما عليه لمجرد علمه أنه إن لم يدفع يحبس. ولو فرض أنهم حبسوا جميعا فما الضرر الذى ينشأ عن حبسهم؟ أما الأعمال فهم يدعون أن لا عمل لهم، وأما السجون فتسع منهم ما تسع من غيرهم، ولتعد قسوة الرجل على أهله من قبيل الآلاف المؤلفة من المخالفات.

لا أزال أطلب التنفيذ على هؤلاء القساة القلوب العارين من أخص الصفات الإنسانية بعقوبة الحبس، كما قضت به أحكام الشرع والعقل معا.

التفتيـــش

يوجد ذكر التفتيش في كل نظام وضع للمحاكم الشرعية. فاللائحة التي وضعت تحت نظر المرحوم الأستاذ الشيخ المهدي تفرضه وتبين طرقه. واللائحة الجديدة لم تخل من ذكره. ولكن لا يرى له أثر في المحاكم، إلا عندما يراد تحقيق شكوى أو تلاحظ مخالفة في بعض أعمال الحساب. وهذا هو السبب في تخالف الأعمال واختلاف القضاة والكتبة في تطبيق أعمالهم على اللوائح والمنشورات، والكل فيما هم عليه من الحال التي يرثى لها، من الضيق والضعف كأنهم منفصلون عن جسم الحكومة مستقلون عنها غاية الاستقلال. فهم مقيدون في كل شيء إلا ما يجب تقييدهم فيه، ويراقبون في كل عمل إلا ما يجب مراقبتهم لأجله؟!

وأرى من الواجب أن يبدأ من الإصلاح بتشكيل قلم التفتيش من بعض ذوي المهارة في الأعمال الكتابية وأهل الاستقامة والذكاء، مع الإلمام بشيء من أحكام الشريعة الإسلامية، وبعض العلماء المتدربين على الأعمال القضائية. وأن ينقسم أعضاء هذا القلم إلى قسمين: قسم يبحث في العمل الكتابي وانطباقه على النظام، وآخر ينظر في العمل القضائي الشرعي وانطباقه على الشرع. وطبيعة هذا القلم بأجمعه تقتضي أن يكون مرتبطًا بمفتي الحقانية أو من يقوم مقامه.

ولست الآن بصدد وضع نظام لهذا القلم، ولكن أهم ما يجب التنبيه عليه، هو أن محكمة من محاكم القطر المصري، ما عدا التي في الأطراف المتباعدة، يلزم أن ترى عضوا من أعضائها في السنة مرتين على الأقل. أما ما بعد من تلك المحاكم، كمحكمة «سيوا» و«العريش» فينظر بعد ذلك في طريقة التفتيش عما فيها من الأعمال.

ولا أريد أن أقيم الدليل على أن حياة المحاكم كحياة كل عمل إنما هى فى المراقبة والتفتيش، فذلك مما لا يخفى على أحد. ولكنى أشير إلى أمر قد يقع الاشتباه فيه، وهو أنه يجب أن يكون هذا القلم هو الرابطة بين النظارة وبين المحاكم، وأن جميع ما يصدر لها من منشورات وتعاليم لابد أن يكون بتوسطه. أما عدد أعضائه فلابد أن يكون خمسة على الأقل.

ربما يصادف هذا الطلب فى طريقه ما يصادف كثيراً من غيره، أعنى ما يلزم لتشكيله من النقود، وما يتبع ذلك من حالة الميزانية. فأكرر ما قلته إن الواجب هو الإخلاص فى طلب الإصلاح، وما لا يسهل بطريقة قد يسهل بأخرى، ومتى قررت القاعدة اتخذت أقرب الطرق لتنفيذها على حسب ما تسمح به الاستطاعة.

المحامون أمام المحاكم الشرعية

الخير في هذه الطائفة قليل، وأساس المرافعات عند أغلبهم الحيل والمشاغبات. ويفترون على الشرع، فيسمون باطلهم بالحيل الشرعية. وسبب غلبة الفساد فيهم أنهم يجدون آذانا تسمع، ولا يسمعون ممن يقضي في محاكاتهم إلا ثناء على أشدهم لددا وأدقهم احتيالاً.. حتى إن أشهر رجل بالكذب وخيانة موكليه قيل في سبب الإبقاء عليه: «إنه وإن كان محتالاً كذابا، إلا أن حيله شرعية»!!.. نسأل الله العافية مما يظنون.

ثم إن بعض العوائد التي ألصقت بالشرع قضت على القاضي بأن يحمل الخصوم على زيادة في القول لم تقع أو على تعليم الشاهد ألفاظًا لم يعهدها، وإنما يصنع ذلك ويتقنه المحامي. ومتى انخرق حجاب التصوّن، واستهين بالحق والصدق مرة لم يلبث الحجاب أن يتمزق، وسقطت قيمة الحق من نفس الكاذب، وارتفعت مكانها قيمة الكذب والحيلة. وإني أرجو لهذا أن يصلح حال هؤلاء المحامين متى صلحت طرق المرافعات الشرعية، وعول القضاة على احترام الصدق، واجتهدوا في الوصول إلى الحق والعدل، لا في التوفيق بين لفظ ولفظ.

اطلعت على قضية وكلت المدعى عليها فيها اثنين من مشاهير المحامين أمام المحاكم الشرعية، فخسرت الموكلة بعض الدعوى ولم يبق بينها وبين خسارة ما بقي إلا اليسير. ومن يطلع على المرافعات لا يشك في أن الوكيلين مشاغبان، وأن موكلتهما مبطلة في دفاعها. ولكني اطلعت بعد ذلك على سندات كتابية لا يرتاب فيها تدل على أن الحق من جهتها، والأوراق كانت في محافظ الوكيلين، ولم يذكرا شيئا منها، لأنهما رأيا أن طريقة المماحكة هي الرابحة، وأن السندات الخطية

مما لا قيمة له، فدرجا على العادة. وقد كادا ينجحان في دفع الدعوى بطريقتهم المعهودة، مع الاستغناء عن الأدلة الصحيحة لولا خصوصية فى القضية.

وعلى كل حال، فلابد من وضع نظام لهم تحدد فيه شرائط قبولهم، وما يجب عليهم فى تأدية أعمالهم، وتأديبهم إذا أخلوا بما يجب، أو جاءوا بما يحط بالشرف أو يخالف الشرع مخالفة صريحة.

وقد وضعت نظارة الحقانية مشروعًا لذلك، وهو مشروع حسن.. ! إنما ينبغى أن ينظر فى انطباق بعض مواده على الأصول الشرعية.

مأذونو العقود، أي عقود الزواج

هذا فريق يؤدى عملاً من أعمال الحكومة، ولكن على أنه شريك الحكومة . . فقد حدد رسم العقد، وجعل للمأذون نصيب شائع فيه وللحكومة الباقى . ولا أتذكر مثالاً آخر لهذه الشركة فى الحكومة المصرية . وأغلب هؤلاء العمال ممن يسمون بالفقهاء، أى حفظة ألفاظ القرآن، أو شيء منه، مع أنهم جهلة بكل ما فيه، ولا يكادون يعرفون من الدين إلا ما ليس منه .

على أن هذا اللقب ـ «مأذون» ـ يلبس صاحبه فى نظر أهل القرية لباس الدين، ويصوره إمامًا لهم يرجعون إليه فى أهم شئونهم العائلية مع أهليهم . وكثير من أهالى القرى يلقبونه بلقب القاضى .

عمت الشكوى منهم فى المدن والقرى . ولم يلحق الحكومة من شرهم أقل مما لحق بالعامة . ووقائعهم معروفة عند النظارة، وعند كثير من القضاة الشرعيين الذين دققوا النظر فى أحوالهم، وأخص منهم حضرة الشيخ محمد بخيت، أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا، فقد كشف كثيرا من أحوالهم عندما كان قاضيا بمحكمة الإسكندرية، وبعد تعيينه فى محكمة مصر أيضا .

أما وظيفتهم، فلا يمكن الاستغناء عنها، لأن أهل القرى والعامة من أهل المدن لابد لهم ممن يتولى عقد الزواج ويقيده فى دفتر العقود، ويسمع الإشهاد على الطلاق ويقيده فى دفتره . لو صلح حالهم، لصح أن يفوض إليهم كثير من الأعمال تيسيرا على الناس .

وضعت الحكومة قاعدة لانتخاب هذا الصنف من الموظفين فى المواد ١٥٩ و١٦٠

و١٦١ من لائحة المحاكم الشرعية القديمة، وشرطت فيهم أن يكونوا: «من أهل العلم، العارفين بأحكام النكاح الشرعية بحسب ما يقتضيه الحال في كل جهة من اللزوم والأهمية».

ويفهم من اللائحة أنه يشترط في مأذوني القاهرة مثلاً أن يكونوا أوسع علما من مأذوني قرية صغيرة، لأنها ناطت تعيين مأذوني القاهرة بحضرة شيخ الأزهر، وتعيين مأذوني الإسكندرية وما يماثلها من الثغور بالمحافظة ومن تختاره من العلماء. وهي، وإن لم تصرح بالامتحان، إلا أنها أشارت إليه.. أما مأذونو القرى فقد ناطت انتخابهم بمشايخ البلاد وعمد الأهالي، يحرر محضر منهم بهذا الانتخاب ويقدم لديوان المديرية فيحالون إلى المحكمة التي تتبعها بلد المنتخب، ويتعين المأذون بمقتضى المحضر، إن ظهرت لباقته لدى قاضي تلك المحكمة.

أما الذي أعلمه في اختيار المأذونين في القاهرة، فهو أن يمتحن الطالبون في لجنة يعينها لذلك حضرة شيخ الجامع، ويخص الامتحان بأحكام الأنكحة، ولا يمتحنون في معارف أخرى، لا كتابية ولا علمية. ويكتفى منهم بما قل، وإن لم يفد. ولا يبحث في سيرهم، ولا يستقصى في معرفة أحوالهم. أما في القرى فيسعى الطالب عند العمدة والأهالي، وهو الذي يعينه في الحقيقة، وظهور لباقته عند القاضي يتعلق بميل ذلك القاضي، وإلا فقد يعين حضرته من لم تحسن فيه شهادة الأهالي لهوى منه مع من يريد تعيينه. وإذا اشتد جدال العمدة مع القاضي، عين اثنان: واحد لأجل العمدة وآخر لأجل القاضي!! وفي الأغلب ينتخب من ينتخبه العمدة، ودرجة العمدة من العلم لا تخفى على النظارة.

ثم إن الحاجة إلى العلم في القرى أشد منها في المدن، فإن الناس يسهل عليهم الوصول إلى العلماء في المدن ليستفتوهم في أمور دينهم، ولا يتيسر لهم ذلك في القرى. فكان الواجب أن يشترط في مأذون القرية من درجة العلم أعلى مما يشترط في مأذون القاهرة.

وعلى كل حال، فالخلل في هذه الطريقة ظاهر. فيجب أن يشترط في المأذونين بعض معلومات خاصة تزيد عما أشير إليه في اللائحة، وأن يكون بأيديهم شهادات صحيحة تدل على طلبهم العلم في بعض الجهات التي عهدت دراسة العلم فيها.

فإن كانت شهادة أهلية من الجامع الأزهر وما ألحق به لم يحتج معها إلى الامتحان في تلك المعلومات. ورضاء الأهالى إنما يكون فيما يتعلق بسيرة الشخص فقط. وامتحان مأذونى القرى لابد أن يكون فى محكمة المديرية بحضرة أعضاء الجلسة الكلية وكاتب المحكمة الأول.

يقال: إذا وضعت هذه الشروط، فربما لا يوجد العدد الكافي لما يحتاج إليه الناس.. فأقول: توضع الشروط ويضرب لها أجل لتنفيذها، ويقدم من يستوفيها على من لم يستوفها. والناس طلاب منفعة، متى رأوا سبيلاً إليها سلكوه، ولا يمضى أربع سنوات أو خمس حتى نجد من العدد ما يكفى فى كل بلدة. على أنه لا ضرورة لأن يكون فى كل قرية صغيرة مأذون، وربما يجب أن يكون لكل عدة بلاد متجاورة مأذون واحد له علم وفيه استقامة.

وأرى أن تفض تلك الشركة بين الحكومة والمأذونين، وأن يعين لكل مأذون مرتب مخصوص يقبضه من الحكومة فى كل شهر، يزيد وينقص على حسب كثرة الأعمال ووفرة الإيراد. ويلزم لذلك أن تزيد الحكومة في مبلغ رسوم الزواج وترفعه إلى ما بين العشرة قروش والثلاثين قرشًا، ولا ضرر على الأهالى فى ذلك، لأنهم يدفعون الآن أكثر من هذا المبلغ. ولا يوجد مأذون يرضى بما دون الريال.

وقد رأى سماحة قاضى مصر طريقة لتخفيف ضرر هذه الطبقة من الموظفين وتوفير منفعتهم أن يعين عدد قليل فى مدينة القاهرة يقومون بحاجة المدينة فى عقود الزواج والإشهاد بالطلاق والصلح على النفقات، وأن يعينوا من القضاة المرفوتين وكتاب المحاكم الشرعية وأهل العلم المعروفين، وأن يفرض لكل منهم مرتب واف بمعيشته، وبينّ العدد والمرتبات بما لا انتقاد عليه، وطلب زيادة الرسوم، على نحو ما قلنا، وعينت النظارة لجنة للنظر فى هذه الطريقة. وإلى الآن لم يظهر من عملها شيء، ومن الواجب أن تشتغل بما عهد إليها. ولا بأس أن يحول عليها النظر فى وضع مشروع يعم جميع المأذونين، ثم ينفذ بالتدريج، فيبتدئ بالقاهرة ثم الإسكندرية، وهكذا.

اللائحة أو اللوائح

لوائح المحاكم الشرعية تنشأ دائما مختلطة، تمتزج فيها الأحكام الفقهية المحضة التي لا ينظر فيها إلا علماء الشريعة بما هو نظام إدارى ينظر فيه أهل الشرع ولكن تقريره يناط بالحاكم وحده، على ألا يصادم حكما شرعيا. وليس هذا الخلط من الصواب في شيء.

وأرى أن تجمع اللوائح التي سموها: لوائح ترتيب المحاكم الشرعية، وينظر فيها جملة، فما يختص منها بالنظام مما يتعلق بالكتبة وكيفية إيصال الإعلانات وطرق رفع الدعوى والمعارضة والدفع ونحو ذلك يودع لائحة خاصة. وما يتعلق منها بكيفية تشكيل المحاكم وشرائط تعيين القضاة وعددهم في كل محكمة وتحديد الاختصاص وأسباب العزل وطريقة التفتيش وخصائصه العامة، ونحو ذلك يودع لائحة خاصة تسمى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية. وفي كل ذلك يبدل ما يبدل إن كان غير صالح، ويعدل ما يعدل، ويبقى ما يبقى، ثم تصدر الأوامر بما يتقرر من جميع ذلك على الطرق المعتادة كما أشرنا إليه فيما سبق.

أما ما بقى من أحكام المرافعات الشرعية مما هو فقه محض، كالكلام في الأدلة بأنواعها، وما يسمع وما لا يسمع من الدعاوى، وما تبطل به الدعوى، وبقية الأحكام الفقهية التي لا يرجع فيها إلا إلى أقوال العلماء ونصوص الشريعة، فإنما يناط النظر فيه بعلماء الشريعة وما يقررونه، يرفع إلى الجناب العالى ليصدر أمره بالعمل به بدون حاجة إلى شيء وراء ذلك.

هذا وإنى أستغنى بهذا الطلب عن ذكر ما لم أذكره مما يجب تعديله أو حذفه أو

الزيادة عليه من مواد لائحة المحاكم الشرعية وذكر آراء القضاة فى ذلك. وسأذكر هذا كله متى تقرر النظر فى اللوائح على الجملة، وأن ينظر فيها مادة مادة. وأرجو أن يتم ذلك على ما فيه الخير والمصلحة إن شاء الله.

هذا ما رأيت إيرادة الآن، فيما يتعلق بإصلاح المحاكم الشرعية، على سبيل الإجمال. أما التفصيل، فسيكون بالتدريج أثناء المذاكرة.

وأرجو ألا يثقل على سعادتكم طول الكلام وكثرة الأوراق، فإن الضرورة قد قضت بالتطويل، لأن المطلوب عظيم، والوهم فى التوسل إليه قديم. وأسأل الله أن ينجح أعمالكم، ويوفقكم إلى ما فيه الخير لعامة المسلمين وخاصتهم.

«تم التقرير» **فى نوفمبر سنة ١٨٩٩**

فى إصلاح القضاء الشرعى(١١٧)

. . أما كون الشرع نفسه لا يحتاج إلى إصلاح فمُسَلَّم، لكنه فى كتبه التى فى أيدى الناس بعيد عن أفهام الخصوم، فهو فى أشد الحاجة إلى التقريب من الأفهام، فيجب النظر فى ذلك. ولا نطلب فيه إلا عملاً سبقتنا إلى مثله الدولة العثمانية فى (كتاب المجلة) التى عليها العمل فى محاكمها المسماة (بالعدلية)، وفى المحاكم الشرعية فى أبواب المرافعات جميعها، ولم يقل أحد إن الدولة فى عملها ذلك قد خرجت عن الدين.

. . وأما مسألة امتحان القضاة فى لجنة من علماء الأزهر وانتخابهم بلجنة فيها كبار العلماء، فيجب بيان ما فيها لهيئة المجلس لأننى من اللجنتين ـ لجنة الامتحان ولجنة الانتخاب.

أما الامتحان فيجرى فى موضوعات خاصة من عدة فنون يُبْتَدأ فيها بالأصول فالمعانى فالبيان وهكذا، ولا يأتى الفقه إلا فى آخر الدروس عندما يكون الممتحن قد مل السؤال، والطالب قد مل الجواب، فيكتفى الأساتذة من الطالب ببعض كلمات، ثم ينقلونه إلى فن آخر. على أن الامتحان فى الفقه كان ولا يزال فى أبواب العبادات مثل التيمم ونحوه، وقد ألح فى المدة الأخيرة على لجنة الامتحان لتعين مواضع الامتحان فى المعاملات، فحصل ذلك، لكن كثيرا ما يرجع عنه. فهل مثل هذا الامتحان له علاقة بالقضاء الشرعى؟ وهل تعرف به درجة القاضى إن كان أهلاً للقضاء أو غير أهل؟ . .

. . أنا عضو فى اللجنتين كما قلت لكم، وربما كنت أعْرَف الناس بمن يُنْتَخَبون

للقضاء، ولكن أقول لكم إننا نعمل فى الانتخاب على قاعدة ارتكاب أخف الشرين، فنختار أخف القاصرين قصوراً، وكثيراً ما تكون الأغلبية على انتخاب المتقدم فى الزمان، وإن كان متأخراً فى العلم والاستعداد.

.. وأما لوائح المحاكم التى يتوهم من لم يعرف تاريخها أن الحكومة وضعتها من عندها، فهى بعيدة عن الشرع ومذاهبه، فأنا أذكر لكم حقيقة أمرها:

كانت الحكومة فى عهد أمراء مصر السابقين تاركة للمحاكم الشرعية تمام الاستقلال. وكان الناس يستغيثون من خللها وظلمها، وشيوع الرشوة فيها. فلما قَلَقُوا الحكومة، أمر سعيد باشا بوضع لائحة لسير هذه المحاكم. وقد كان ذلك بإقرار لجنة من علماء الأزهر مؤلفة من علماء المذاهب الأربعة. فاللائحة الأولى كان متفقا عليها من علماء الشرع..

طال الزمان وظهر أن اللائحة لم تأت بالمطلوب، واستمرت الشكوى من أعمال المحاكم، فوضعت اللائحة الثانية بمعرفة الشيخ العباسى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية لذلك العهد.

وأما اللائحة الأخيرة، فقد عرضت كذلك على شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية، وأقرها كما أقرها قاضى مصر السابق.

فاللوائح لا تعاب إذن بمخالفة الشرع، ولكننى أقول مع هذا إنها قاصرة وفى حاجة إلى الإصلاح.

فتعين أن المحاكم الشرعية فى حاجة إلى الإصلاح من كل جهة. وهذا الإصلاح ينحصر عندى فى خمسة أمور، وهى:

(أولها) تقوم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة، وإضافة ما تحتاج إليه وظائف القضاء الشرعى وما يتعلق بها من المعلومات إلى ما يتعلمون الآن، وذلك يكون بإنشاء فرقة خاصة بهذا الغرض من طلبة الجامع الأزهر بالجامع الأزهر ثم تكميل قاعدة انتخابهم بما يكفل التحقق من كفاءتهم.

(ثانيها) تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها، وسرعة الفصل فى قضاياها، وإزالة كل ما يشتكى منه بشرط المحافظة على الشرع.

(ثالثها) الاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية على إيجاد طريقة لتقريب فهم الأحكام الشرعية التي يتقاضى الناس على حسبها، حتى يمكن للخصوم أن يعرفوا إلى أية قاعدة شرعية يرجع الحكم فيما يتخاصمون فيه، ويسهل على القضاة أنفسهم خصوصا في بدء أمرهم للرجوع إلى ما يحكمون بمقتضاه، ويكون ذلك شاملاً لجميع أبواب المعاملات من الفقه.

(رابعها) وضع قاعدة لتنفيذ الأحكام الشرعية تكفل انتفاع المحكوم له بالحكم ضد أى شخص كان بما لا يخالف الشرع.

(خامسها) ترقية مرتبات عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقى موظفى الحكومة.

حديث

بين اللورد كرومر والأستاذ الإمام

(سأل اللورد كرومر الأستاذ الإمام عن قراره إلغاء النيابة العامة من المحاكم الأهلية، وإحالة عمل النائب العمومي ورؤساء النيابة ووكلائها على القضاة).

الأستاذ الإمام: إن هذا خطأ لا يحتمل الصواب، وضرر عظيم على الحكومة والبلاد . . . «فسيعجز» القضاة عن النهوض بعمل النيابة . . . وإن رجال النيابة الذين يلغى عملهم هم من أرقى رجال البلاد علما وعقلاً ولسانا وقلما. وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته، ولا يجد غيرها في درجتها، إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسئولين عن النظام تعبا كبيرا.

اللورد كرومر: إن هذا كلام وجيه، ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والإدارة، فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات، بل وافقونا. وإن مجلس النظار سيجتمع الآن في سراى عابدين برياسة الجناب الخديوى لتقرير هذه المسألة. ولابد لإيقاف ذلك، من ذهابى بنفسى إلى عابدين بعد إيذانهم بذلك بالتلفون.

حـــوار
بين الخديو والأستاذ الإمام حول طلب الإنكليز
استبدال قاض مصري بالقاضي التركي (١١٨)

الخـــديو عباس : إنني وقعت في مشكلة ، أو أزمة ليس لها غيرك يا أستاذ . . وأنا ليس من مصلحتي ولا من مصلحة مصر قطع هذه الصلة الدينية بالسلطان ، والعداوة النهائية للدولة العثمانية .

الأستاذ الإمــام : الأمر سهل يا أفندينا .

الخـــديو عباس : سهل ، سهل ، هيه ، هيه .

الأستـاذ الإمـام : إن الإنكليز أشد شعوب الأرض احترامًا لحرية الضمير والوجدان الديني ، ولا سيما الطبقات الراقية منهم . وقد بلغ من احترامهم له أنهم لما سنوا قانون التلقيح بمادة الجدري للوقاية منه ، وضعوا فيه مادة خلاصتها : أنه يجب على كل إنكليزي أن يقبل عملية التلقيح إلا من يقول إن وجدانه الديني لا يسمح له بذلك . فهذا استثناء لم يعهد له نظير في شيء من قوانين الدول ، وسببه أن بعض رجال الدين كان يرى أن هذا التلقيح حرام .

فإذا جاء «لورد كرومر» الآن ، وبَلَّغَ أفندينا ما ذكر ، وكان هذا اعتقاده ، فقال له : إن وجداني الديني لا يسمح لي بأن أعين القاضي ورئيس الأمور الشرعية ، لأنني

أعتقد أن هذا حق السلطان بما له من صفة الخلافة، فإننى لا أشك فى أن اللورد ـ بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية، ومن أصولها احترام الوجدان ـ يقبل من أفندينا هذا الجواب، ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله الآخر، ويكون هذا فصل الخطاب.

الخديو عباس : كده، كده.

الأستاذ الإمام : هكذا أعتقد.

إصــــلاح الأوقـــاف

مشروع ترتيب المساجد(١١٩)

عرض للمجلس مشروع ترتيب المساجد، وبعد المداولة تقرر ما يأتي:

(المادة الأولى): إن هذا الترتيب لا يترتب عليه رفت أحد من وظيفته إلا بوفاته أو وقوع أمر يستوجب رفته حسب الجاري، كما أنه لا يقتضي الإخلال بشيء من اختصاصاته الحالية.

الباب الأول فى ترتيب الخدَمَة

(المادة الثانية): توحد الإمامة فى جميع المساجد، ما عدا الجامع الأزهر والمساجد التى فيها عدة أماكن يمكن اعتبار كل منها مسجدا مستقلا، ويجب فى هذه الحالة أن يؤدي الصلاة أحد الأئمة بعد الآخر. ولا يجتمع إمامان للصلاة فى آن واحد إلا إذا اختلفت الأماكن بحيث لا يشوش أحدهما على الآخر. ومع ذلك فتعدد الأمكنة لا يستلزم تعدد الأئمة، بل لا يكون ذلك إلا للضرورة.

الإمام: هو رئيس المسجد فى جميع شئونه، ما عدا المساجد التى فيها دروس منتظمة مثل الأزهر وما يلحق به مما يكون له شيخ خاص يديره من حيث هو مدرسة.

(المادة الثالثة): يقوم الإمام بوظيفة الخطبة. والمساجد التى تتعدد فيها الأئمة - وهى المذكورة فى المادة الثانية - يقوم بالخطبة أوفر الأئمة راتبا، فإن تساووا فى الراتب قدم أقدمهم فى وظيفة الإمامة.

(المادة الرابعة): توحد وظيفة المؤذنين فى كل مسجد إلا عند تعدد المآذن فيكون لكل مئذنة مؤذن واحد لجميع الأوقات.

(المادة الخامسة): يعين ملاحظ فى المساجد التى يرى لزوم وجود ملاحظ فيها. وهذا الملاحظ يكون رئيس الخَدَمَة، وعليه القيام بمراقبتهم فى جميع أعمالهم تحت رياسة إمام المسجد.

(المادة السادسة): أعمال الميقاتية تضاف إلى المؤذنين.

(المادة السابعة): يضاف عمل المبلغين إلى المؤذنين. وفى مساجد القسم الرابع التى لا منارة فيها تكون قراءة السورة على المؤذن.

(المادة الثامنة): العمل الذى يؤديه المرقى الآن وفى المستقبل يعوض بما يعبر عنه شرعا بالأذان الثانى ويحول على المؤذنين.

(المادة التاسعة): تالى القرآن فى المسجد يعطى ما يرتب له على سبيل الصلة.

(المادة العاشرة): ملاحظو المساجد هم عهدتها، ويستثنى من ذلك بعض المساجد التى لها خزنة مخصوصون فى جدول الترتيب، ويدخل فى وظائف الملاحظين ما كان للنقيب.

(المادة الحادية عشرة): يدخل تحت لفظ الخَدَمَة أرباب الوظائف الآتية ولا يقيدون بتسمية: الفراشون. والوقادون. والملاءون. والسقاءون. والبوابون. والسعاة، وخدمة الأسبلة فى المساجد، وما أشبه ذلك.

(المادة الثانية عشرة): الوظائف الآتية لا علاقة لها بترتيب الخدمة وليس النظر فيها من عمل المجلس الآن: خدمة الأسبلة المستقلة عن المساجد. والفقهاء والدلايلية والساعاتية ومتعهدو السواقى، وخفراء القبور والتربية والخدمة المختصون بالأضرحة من جهة كونها أضرحة بأنواعهم وشيخ الليثية وقراء الربعة وكتبة النذور.

(المادة الثالثة عشرة): وظيفة المبخر (البخورجى) تكون من أعمال أحد الخدمة والمبالغ المرتبة لها تكون من ضمن مرتبه.

(المادة الرابعة عشرة): وظيفة الداعى (الدعجى) لا تكون مستقلة وإنما تضاف إلى عمل أحد موظفى المسجد ومرتبها يحسب فى مرتبه .

الباب الثانى فى المرتبات

(المادة الخامسة عشرة): أئمة الجوامع بجميع أنحاء القطر يجعلون أربع درجات : الأولى بثمانية جنيهات ، والثانية بخمسة ، والثالثة بأربعة ، والرابعة بثلاثة .

الملاحظون يكونون بجنيهين . الخزنة يكونون كذلك بجنيهين .

المؤذنون ينقسمون إلى أربع درجات : الأولى ١٥٠ قرشًا لمصر والإسكندرية . والثانية ١٢٥ قرشًا لعواصم المديريات ومحافظات بور سعيد ودمياط والسويس . والثالثة ١٠٠ قرش لعواصم المراكز والبلاد التى عدد سكانها عشرة آلاف نسمة فما فوق ، وإن لم تكن عواصم مراكز . والرابعة ٧٥ قرشا لبقية القرى .

سائر الخدمة يكونون كالمؤذنين ما عدا المستثنين مثل خدمة الجامع الأزهر ونحوه .

قراء القرآن فى الجامع يكونون أربع درجات : الأولى ٥٠ قرشا ، والثانية ٤٠ قرشا ، والثالثة ٣٠ قرشا ، والرابعة ٢٠ قرشا ، على حسب درجات الجوامع .

الباب الثالث فى شروط التوظف

(المادة السادسة عشرة): الإمام يشترط أن يكون عالما حائزا لشهادة العالمية ، فإن لم يوجد مرشح حائز لشهادة العالمية يكتفى بشهادة الأهلية ، فإن لم يوجد أيضا مرشح حائز لشهادة الأهلية ينتخب اللائق بالامتحان ، على حسب القواعد المتبعة الآن .

(المادة السابعة عشرة): الملاحظون يشترط فيهم أن يكونوا أقوياء البنية ، ويفضل أولاً من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن ، ثم من يقرأ ويكتب فقط .

(المادة الثامنة عشرة): الخازن يشترط فيه أن يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب .

(**المادة التاسعة عشرة**): المؤذنون يشترط فيهم مثل الملاحظين، ولا يمنع فقد البصر من التوظف بوظيفة المؤذنين.

(**المادة العشرون**): يشترط في الخدمة أن يكونوا سليمى البنية، وأوجه التفضيل تسرى عليهم، وهى المذكورة فى الملاحظين.

أحكام عمومية

(**المادة الحادية والعشرون**): عدد الموظفين ومرتباتهم في كل مسجد يكون على حسب الجدول الذى قرره المجلس وأرفق بهذا.

(**المادة الثانية والعشرون**): إذا وجد فى شروط الواقفين زيادة فى عدد الموظفين عما هو وارد فى الجدول، فيعطى الزائد ما هو مقرر له بشرط الواقف فقط. كذلك إذا وجد فى شروط الواقفين زيادة فى مرتب أية وظيفة عما هو وارد فى الجدول فتعطى الزيادة حسب شروط الواقف.

باب توزيع العلاوات

(**المادة الثالثة والعشرون**): يلاحظ فى إعطاء العلاوات على حسب الترتيب الجديد فى كل مسجد ألا يتجاوز مجموعها على ما هو جار صرفه الآن مجموع ما يخصه على حسب هذا الترتيب: يبدأ في التوزيع لكل وظيفة على الوجه الآتى:

(**أولاً**): الأئمة الحائزون لدرجة العالمية والشهادة الأهلية أو الذين يحصلون على إحدى هاتين الشهادتين بعد الآن.

(**ثانيًا**): من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن من الملاحظين والمؤذنين والخدمة ثم من يقرأ ويكتب فقط منهم.

(**ثالثًا**): الخازن الذى يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب.

وحيث إن مبلغ الأحد عشر ألف جنيه لم يكن مقررا فقط لمساجد القاهرة بل

لمساجد عموم القطر فيشترط ألا يزيد مجموع هذه العلاوات هذه السنة فى مدينة القاهرة على سبعة آلاف جنيه، فإن زاد يقطع من كل وظيفة بنسبة الناقص.

إذا بقى شيء من مبلغ السبعة آلاف الجنيه بعد التوزيع على الوجه المشروح فيما سبق، فهذا الباقى يوزع على من يتلوهم ممن هم حائزون لشروط هذا الترتيب.

ومع ذلك، إذا خلت في مسجد وظيفة زائدة عن المقرر فى هذا الترتيب يوزع مرتبها لتكملة مرتبات موظفى ذلك المسجد الذين تنطبق عليهم قواعد هذا الترتيب من جهة العدد والمرتب وشروط التوظف.

مذكرة مرفوعة إلى مجلس الأوقاف الأعلى

يعلم حضرات أعضاء المجلس حالة خدمة المساجد وفقرهم وقلة المرتبات المقررة لهم مقابل خدمة هذه المحلات الطاهرة. وقد ترتب على اهتمام الديوان بشدة المراقبة فى نظافة المساجد وترتيب إنارتها وأدواتها أن صار أولئك الخدمة مسئولين عن أعمال كثيرة ربما كانت سببا للتضييق عليهم عن السعى فى الكسب والارتزاق من الخارج. وقد كثرت شكاويهم لجانب «المعية السنية» وللديوان وعلى لسان الجرائد المحلية من عدم كفاية مرتباتهم خصوصا مع غلاء الأسعار فى الوقت الحاضر. والتمسوا زيادتها لمساعدتهم فى معايشهم. وبالبحث فى مرتبات هؤلاء الخدمة تبين أن عددهم فى مساجد مصر وبولاق بلغ ١٦٢٧ منهم ١٣٦٠ رواتبهم تنحصر بين الخمسين والخمسة وسبعين قرشًا فأقل، وهذه «ماهية» لا تنفع فردا واحدا فى أمور معيشية، فكيف بهم وهم ذوو عائلات؟!

وحيث إن ميزانية الديوان وارد فيها مبلغ أحد عشر ألف جنيه لزيادة ماهيات خدمة المساجد، ومخصص منه مبلغ سبعة آلاف جنيه لتوزيعه على مساجد مصر على الطريقة المذكورة فى قرار المجلس الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ عن ترتيب المساجد.

وحيث إن هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بإيقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من طرف جناب «ولى النعم الأفخم»، وحيث إن ترك هؤلاء

الخدمة بتلك المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون مما لا يليق بمصلحة خيرية تجود بالكثير من أموالها في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين، وأجدر بها أن تفيض بشيء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة تلك المحال الطاهرة.

فبناء على كل ذلك رأينا أن نضع مشروعا لعلاوة تلك المرتبات، حتى إذا وافق عليه المجلس أنفذ وارتفع الضرر نوعا عن أولئك المساكين وها هو ذا:

الأئمة والخطباء

حيث إن الأئمة والخطباء بالمساجد تختلف حالتهم بعضهم عن بعض فقد رؤى تقسيم مرتباتهم إلى ثلاث درجات:

(الأولى): الأئمة والخطباء الحائزون لدرجة العالمية، وماهية كل منهم أقل من جنيهين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر، بشرط أن الموجود منهم ولم يكن مكلفا بإعطاء دروس لتعليم العوام يكلف به مثل غيره، لانتفاع العامة بالأمور الدينية.

(الثانية): الأئمة والخطباء الحائزون لشهادة الأهلية، وماهية كل منهم أقل من جنيه وخمسمائة مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر، بالشرط المقدم ذكره.

(الثالثة): الأئمة والخطباء غير الحائزين لدرجة العالمية ولا لشهادة الأهلية وماهية كل منهم أقل من جنيه واحد شهريا تكمل إلى هذا القدر.

المدرســون

المدرسون الموجودون في بعض المساجد، من كان منهم ماهيته أقل من جنيهين اثنين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر.

مشايخ الخدمة

هؤلاء من كان منهم مرتبه أقل من جنيه ونصف يكمل إلى هذا القدر .

المؤذنـــون

من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر ، ما عدا المؤذنين فى المساجد الشهيرة وهى الجامع الأزهر ومسجد سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكينة والإمام الشافعي والسلطان أبو العلا فتكون ماهية الواحد منهم جنيها شهريا .

قــراء الســورة

هؤلاء من كان منهم ماهيته أقل من مائتين وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر .

وظائف الخدمة

الخدمة مثل الوقاد والكناس والبواب والملاء وغيرهم من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليما شهريا تكمل إلى هذا القدر .

متعهدو إقامة الشعائر

المتعهدون المكلفون بالصرف على بعض المساجد من جميع اللوازم من كان مرتبه أقل من جنيهين اثنين يكمل إلى هذا القدر .

وبناء على ذلك فالزيادة الممكن إضافتها على مرتبات هؤلاء الخدمة جميعهم بمساجد مصر وبولاق بحسب هذا الترتيب هى ما يأتى :

المشـــــروع

قيمة الزيادة المطلوبة		الجارى صرفه الآن	المقتضى ربطه بحسب القيمة الشهرية				الذين لم يصبهم شىء من هذه الزيادة بحسب القاعدة	
جملة	مفردات	جنيه	جنيه	عدد	مليم	جـ		عدد
٨٩		١٠٩	١٩٨	١١	٥٠٠	١	مشايخ، خدم، مدرسون	١٠
	٢٨٩	٢٨١	٥٧٠	١٩	٥٠٠	٢	حائزون لشهادة العالمية	٥
	٢٧	٩٣	١٢٠	٤	٥٠٠	٢	غير حائزين لشهادات	
٣١٦	—						أئمة وخطباء	
	٨٩١	٤٨٩	١٣٨٠	٤٦	٥٠٠	٢	حائزون لشهادة العالمية	١
	٩٦٣	٧٢٩	١٦٩٢	٩٤	٥٠٠	١	حائزون لشهادة الأهلية	٨
	٨١٤	٩٦٢	١٧٧٦	١٤٨	٠٠٠	١	غير حائزين لشهادات	٢٠
	١٥٥	٣٢٥	٤٨٠	٤٠	٠٠٠	١	مؤذنون وميقاتية بالمساجد	
٢٦٦٨	١٠٣٩	١٦٠٧	٢٦٤٦	٢٩٤	٧٥٠		الشهيرة بباقي المساجد	١٣
١١٩٤	—							
١٧٨		٣٠٨	٤٨٦	١٦٢	٢٥٠		قراء السورة والمرقون	٢٥
١٧٧٥		٣٤٧٢	٥٢٤٧	٥٨٣	٧٥٠		خدمة	١١٤
٤٦٣		٢٣٣	٦٩٦	٢٩	٠٠٠	٢	متعهدو إقامة الشعائر	١
جنيه		جنيه	جنيه	عدد				عدد
٦٦٨٣		٨٦٠٨	١٥٢٩١	١٤٣٠				١٩٧

فمبلغ ستة الآلاف وستمائة وثلاثة وثمانين جنيها هو اللازم زيادته على «ماهيات» خدمة المساجد بمصر على الكيفية التى توضحت. ونؤمل التصريح لنا بمبلغ ٣١٧ جنيها لتوزيعه بمعرفتنا على بعض الوظائف التى لم ينلها شىء من هذه القاعدة بحسب ما نراه من الضرورة والأهمية، فيكون المقتضى التصريح به من المجلس مبلغ سبعة آلاف جنيه وهو المخصص لمساجد مصر فى القرار السابق.

بناء عليه قد تحررت هذه المذكرة للنظر وتقرير ما يتراءى.

تراجم

سيرتى (١٢٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقدمة)

الحمد لله ولى الضعفاء إذا رجعوا إليه، ونصيرهم إذا اعتمدوا فى أعمالهم عليه، وأخلصوا له العمل، ومحصوه من شوائب الحيل، ولم ييأسوا من رحمته، ولم يبطروا بنعمته. والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله، الهادى إلى الحق وسبله، الداعى إليه بقوله وفعله، المؤثر على نفسه وأهله، المعرض عن نعيم الدنيا لأجْله، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه، وعلى الصراط المستقيم والنهج الواضح تابعوه.

وبعد.. فما أنا ممن تكتب سيرته، ولا ممن تترك للأجيال طريقته، فإنى لم آت لأمَّتى عملاً يذكر، ولم يكن لى فيها إلى اليوم أثر يؤثر، حتى أكون لأحد منها قدوة، أو يكون لأحد فيَّ أسوة. وهذا الذى أجد من استصغار أمرى، وخفاء أثرى، وظهور عجزى عن بلوغ ما يرمى إليه فكرى ويطمح إليه نظرى، كان يمنعنى من أن أكتب شيئا يتعلق بحياتى، وتعرض فيه بداياتى، وشىء من أعمالى بعدها وصفاتى، حتى أكون به باقيا عند من يطالعه بعد مماتى، وكنت أقول: وقتٌ أصرفه فى حكمة أستفيدها خير من زمن أنفقه فى قصة أستعيدها. وما الذى عساه يبقى منى، وأنا فى قومى لم أترك ما يُؤثر عنى؟!

ولكن عرض لى أن زرت يوما بعض معارفى من الغربيين ممن نظروا فى الآفاق، وبحثوا فى العادات والأخلاق، وجابوا لذلك الأقطار، وركبوا الأخطار، وتجشموا

مشاق الأسفار، وحققوا في ذلك ونقبوا، وكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوا. فدار الحديث بيننا على شئون بعض الأمم الحاضرة، وما يجرى فيها مما أدت إليه حوادثها الماضية، فذكرت لهم ما عندى فى ذلك، وما أقيم عليه رأيى من مشاهدات، فى أيامى الخاليات. فرأوا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر، ولا ينبغى أن يهمل ويهدر، وزادوا على ذلك أن قالوا:

إنهم يتمنون أن يروه منقولاً إلى لغتهم، مقروءا فى قومهم بلسانهم. ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا فى سيرتى، معروضا فى تضاعيف وصفى لمعيشتى، وما تنقلت فيه من أدوار، وما تدرجت إليه من آراء وأفكار، مع إسناد كل شىء إلى سببه، ورد كل أمر إلى أصله.

وسألونى مع ذلك أن أكتب ما أعرف من نسبى، وما كان عليه بيتى، ومنزلة أهلى من قومى. فقلت: سبحان الله، لو كانوا من المسلمين لقلت إنهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن من المعروف شيئا».

أولئك قوم يعرفون الأقدار، ويقدرون الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه. يطلبون المنفعة فى كل شىء، حتى فيما لا قيمة له فى نظرنا، وفيما نعده من الضائعات فيما بيننا.

هذا الذى ألفتهم إلى دعوتى لتحرير سيرتى، نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتى، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاه بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه ورتبته، ومعجب بسنه وشيخوخته.

وما استحثنى على إثبات شىء مما غشينى إلا رجل واحد يشاركنى فى الملة، ولكنه يفارقنى فى الأصل والمنشأ(١٢١)، وكان من كلامه فى استنهاضى لذلك:

«إنه إن لم ينفع أهل عصرنا انتفع به من يأتى بعدنا».

غير أن المرء ولوع بما بين يديه، غير واثق بما غاب عنه، فكنت أدافعه بما قدمت من الأعاليل. ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده فى طلبه العرفاء، وبالغوا فى الإلحاح علي، حتى قال لى أحدهم ثانى يوم: «لعل الفصل الأول قد تم»، يريد بذلك: لعلى بدأت فى العمل عقب مفارقته، وأتممت الفصل الأول من الكتاب،

مع أنى لم أكن شرعت فيه. وفى يوم سفره قال «أرجو أن أقرأ الكتاب بلغتنا فى مثل هذه الأيام فى العام القابل».

لما تكرر الطلب فى هذه الصورة المختلفة، رأيت أن الإضراب عن الإجابة إغراق فى الخمول، وتقصير فى احترام رأى لم يشبه رياء، ولم يحمل عليه إلا قوة الظن بالفائدة فى المطلوب.

ثم نظرت نظرة فى نفسى، وما كانت بدايتى، وما لا قيت فى تربيتى، وما نزعت إليه أثناء الطريق فى سيرى، وما انتهيت إليه فيما تأخر من أيام عمرى، قست جميع ذلك إلى ما عليه الناس حولى، فوجدت اختلافا قد يسهو عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل.

غاية في ثلاثة أهداف

وجدت أنني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر، ودخلت فيما فيه يدخلون. ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن أن سئمت الاستمرار على ما يألفون، واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون. فعثرت على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديت بأحسن ما وجدت ودعوت إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى. وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل. كل هذا أعده أمراً واحداً. وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم.

أما الأمر الثانى: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير، سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة مُنشأ أو مترجما من لغات أخرى، أو فى المراسلات بين الناس. وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب:

الأول: ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات، رث خبيث غير مفهوم، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم، لا في صورته ولا في مادته، ولا يزال شيء من بقاياه إلى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم، غير أنه والحمد لله قليل.

والنوع الثاني: ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون في الجامع الأزهر، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان باردًا، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئا في الذوق، بعيدا عن الفهم، ثقيلاً على السمع، غير مؤد للمعنى المقصود، ولا منطبق على آداب اللغة العربية. وهو وإن كان يمكن رده إلى أصول اللغة العربية في صورته، لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها. ولا يزال هذا النوع موجودا في عبارات المشايخ خاصة.

ثم ورد علينا في أخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا في بابه، وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي «الجنة» و«الجنان» المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني. وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب، وبه أنشئت جريدة «الأهرام» في مصر، وقد محي أثره والحمد لله.

وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعا في عمى عنه، وبعد عن تعقله. ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه. وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة. نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا[١٢٢]، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته، وهو من البشر الذين يخطئون، وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل.

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظلم من حديد، والناس كلهم عبيد له أي عبيد..

نعم.. إنني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع، ولا الرئيس المطاع. غير أني كنت روح الدعوة، وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي

فى الدين، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة، وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال. فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن والله المستعان.

أصبت نجاحًا فى كثير مما عنيت به، وأخفقت في كثير مما وجهت عزيمتى إليه. ولكل ذلك أسباب، بعضها مما غُرز فى طبعى، وشىء منها مما احتف حولى، وطائفة منها من أصالتى فى الرأى أو خطلى. ومن الذى يستطيع أن يُفَصِّل ذلك غيرى، حتى يكون إن شاء الله، عبرة لمن يأتى من بعدى؟!

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ما صادفت من لدن عقلت، منبها على ما فىَّ من معايب، وعلى إحسان الله إلىَّ فى بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التى مررت بها أو مرت بى فى أطوار حياتى. غير أننى أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما فى بيتى، وهو ما لا أعرفه إلا بالسماع من أهله كما لا يخفى.

الفصل الأول - أهـــلى

أول مـا عقلت من أنا، ومن والدى، ومن والـدتى، ومن هم أقـاربى، وجيـران بيـتى، عـرفت أنى ابن «عـبـده خيـر الله» من سكان قـرية «محلة نصـر» بمركـز «شبراخيت» من مديرية «البحيرة». ووقر فى نفسى احترام والدى، ونظرت إليه أجل الناس في عيني، وسكن من هيبته في قلبي ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندى.

أما عوامل هذا الاحترام وذلك الإجلال فأتذكر منها: قلة الكلام أمامى، ووقار كـان فى الحركـات والأعـمال والهيئة، والتنزه عن مخـالطة الصـغـار من الناس، ومشاهدتى أهل بلده يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم إياه، وانفراده بالطعام دون والدتى وأخواتى، فإن ذلك كان آية العظم عندنا؛ فإنه ما كـان يؤاكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات إلا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجـدت والدى يقرى الضيف، ويؤوى الغريب، ويفـتـخر بإكـرام النزيل. وذلك كـان يزيد منزلته من نفسى علوا، وأنا لا أفهـم من هـذا إلا أنه شيء يُفْتَخَرُ به بدون أن أعقل له علة.

وبالجملة، كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية، وكل من فيها دونه، وهو بذلك كـان أعظم رجل فى الدنيـا. فـإن الدنيـا عندى لم تكن أوسع من قـرية «محلة نصر». وكـان يمدنى فى اعتقادى هذا رؤيتى لبعض الحكام كناظر القسم «مأمور المركز» وحـاكم الخط «معاون المركز» ينزلون عندنا، ولا ينزلون فى بيت العمدة، مع أنه كان أوسع رزقا من والدى، وأكثر دورا وأرضين. وفشا فىَّ بذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا، وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته، وشدته فى المعاملة، وقسوته على من يعاديه. وقد أخذت عنه ذلك ما عدا القسوة، وأحمد الله ولا أحصى ثناء عليه.

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى. وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا. ولم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم.

عرفت لى عَمّا يسمى «بهنسى»، ولا أعرف من أحواله شيئا لأنه مات قبل أن أحفظ عنه. وكان لوالدى ابن عم يسمى «إبراهيم»، ولم يكن له بين الناس ما يذكر به، وكان يساكننا فى بيت واحد، ولا يزال ولده يسكن فى قسم من منزلنا إلى اليوم. ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء، وبيوتهم من خير البيوت فى القرية.

هذا ما عرفته من حاضر بيتى فى أول أمرى، وما طرأ عليه سيأتى ذكره فى سيرتى. أما ماضيه، فإنما أذكره حديثا عن أبى، ورواية عن بعض من عرف شيئا منه ممن أثق به من ذوى قرابتى وغيرهم.

جدى لأبى كان يسمى «حسن خير الله» توفى عن أبى وعمى «بالهواء الأصفر» الذى فتك بسكان القطر المصرى فى أواسط القرن الماضى (١٢٣). ويقال إنه كان له قبل موته من بنى عمه وذوى عصمته نحو اثنى عشر رجلاً، وشى بهم واش من بيت آخر جاء البلدة وسكن فيها، وحسد أهل الحسب من سكانها، فسعى بأهل هذا البيت ـ «بيت خير الله» ـ عند الحكام، بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف فى وجه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم، فأخذوا جميعا، وزجوا فى السجون واحدا بعد واحد. ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا، وكان جدى «حسن» شيخا بالبلدة، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم الذى سبق ذكره.

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح، بمساعدة أعوان الحكومة، إلى سلب ما كان فى البيت من تراث، حيث لم تكن قوة تدافعه، فإنه لم يكن بقى إلا والدى فى سن الرابعة عشرة، وعمى فى سن السادسة عشرة، وإبراهيم فى سن الثامنة عشرة، والنساء، فأخذ جميع ما كان فى البيت حتى الأبواب وبعض أخشاب السقوف.

فهاجر والدى وعمى ومن معهما من البلدة، ولجئوا إلى خال والدى الحاج «محمد خضر»، وكان عمدة في قرية صغيرة تعرف بـ«كُنَيِّسة أورين» من مركز «شبراخيت». ولكنه لم يستطع إيواءهم عنده خوف الاضطهاد، لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلت أحقاد الظلمة من الحكام والوشاة. فأخذهم خفية وسار بهم إلى مديرية الغربية عند أحد أقاربه في قرية يقال لها «منية طوخ» بمركز «السنطة». ثم انتقلوا إلى قرية بجانبها تسمى «شتراء». وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون فى زراعتها، إما بأنفسهم وإما بشركاء يعملون بأيديهم ويقتسمون الريع معهم.

واشتهر والدى بالفتوة والبراعة في الصيد بالسلاح، وأحبه لذلك «مصطفى أفندى المنشاوى» و«محمد» أخوه. وكانا موظفين فى دائرة المرحوم «إسماعيل باشا» الخديوى الأول فى وظيفة مفتش زراعة، والثانى بوظيفة ناظر، وطابت له صحبتهما، وعدوه كأنه واحد من أهلهما، ودام ذلك مدة سنتين.

ولما اشتد الظلم علي أهل قرية «محلة نصر» وضاقت بهم السبل، لما كان يسومهم ذلك الواشى من الخسف والذل، أخذوا يتسللون بيتا بعد بيت، يهجرون القرية ويذهبون ليقيموا فى جوار من سبقهم من أهلى.

فأحس الشقى بإشراف القرية على الخراب، وفى ذلك انتقاص منافعه وخسار كبير فى مصالحه. فجدد الوشاية بوالدى ومن معه، ورفع شكوى إلى مدير «البحيرة» - وكان فى «شبراخيت» - يذكر فيها أن والدى مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية. وكان قد صدر أمر المرحوم «عباس باشا الأول» بتجريد الأهالى من السلاح، وحظر حمله عليهم.

فكتب مدير «البحيرة» بذلك إلى مدير «الغربية»، واتهم مع ذلك «مصطفى أفندى المنشاوى» بإيوائه بعض الفارين من العسكرية، فأخذ الجميع على غرة، وقبض عليهم فى بيوتهم، وسيقوا إلى مديرية الغربية.

أما «مصطفى المنشاوى»، فأرسل إلى ليمان الإسكندرية. وأما والدى ومن معه، فأرسلوا إلى مديرية «البحيرة» ليحبسوا هناك إلى أن يصدر الأمر فى شأنهم. ولم يزالوا فى السجن إلى أن توفى «عباس باشا». فأفرج عنهم وعن غيرهم.

وبعد ذلك عاد والدى إلى مسقط رأسه فى أول ولاية المرحوم «سعيد باشا»، ولم يجد شيئا مما كان يملكه أسلافه إلا جدران البيت مهدمة.

تقدم أنه طالت إقامته فى مديرية «الغربية»، ويقال إن مدتها بلغت نحو خمس عشرة سنة، وفى أثنائها عرف كثيراً من سكان البلاد المجاورة «الشتراء»، وعرف فيمن عرف بيت والدتى، وهو بيت كبير فى بلدة تسمى «حصة شبشير»، يعرف ببيت «عثمان»، كان كبيره إذ ذاك جدى «إبراهيم عثمان» الكبير، فتزوج والدتى، وأخذها إلى «شتراء»، وفيها وُلدتُ فى أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والألف من الهجرة، ولم يولد له منها غيرى إلا بنتان، إحداهما تسمى «زمزم» وهى بكْره، وتوفيت قبل ولادتى، والأخرى تسمى «مريم» وهى لم تمت حتى تزوجَتْ وأنا فى آخر سنى طلب العلم.

كنت أسمع المداحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا ببيت التركمان، فسألت والدى عن ذلك، فأخبرنى أن نسبنا ينتهى إلى جد تركمانى جاء من بلاد التركمان فى جماعة من أهله وسكنوا فى الخيام بمديرية «البحيرة» مدة من الزمن. ثم اتفق أن اتصل بهم شيخ يسمى «عبدالملك»، لا يعرف نسبه، ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب إليه، واتخذ له خلوة فى المحل الذى أسست فيه قرية «محلة نصر». فلما توفى رأى جدنا، ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت «الفرنوانى» أن يبنوا له قبة، ثم يقيموا لهم بيوتًا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها. ثم انضم إليهم بيوت كثيرة تكوّن من مجموعها قرية «محلة نصر»، وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداؤه. ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه إلى اليوم. أما تسميتها «بمحلة نصر»، فذلك لأن مزارع البلدة كانت أعطيت إقطاعا لشخص يسمى «نصرا» فسميت باسمه، وذلك فى زمن لا نعرفه أيضا.

وقد أخبرنى المرحوم «على باشا مبارك» أنه اطلع على رحلة «العبد اللطيف البغدادى»(١٢٤)، الشهير تعرف «بالرحلة الكبرى» ورأى فيها اسم «محلة نصر» و«مسروق»، وأنه نزل ضيفا فى بيت خير الله التركمانى. وقال إن البيوت الكبيرة فى البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ، وبيت خير الله، وبيت الفرنوانى.

أما بيت والدتى فيقال إنه عربى قرشى، وإنه يتصل فى النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها.

الأنساب فى الإسلام

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الأنساب فى الإسلام، وكيف وصل الأمر بالمسلمين إلى ألا يعرف الواحد منهم من آبائه أكثر من ثلاثة، ومنهم من لا يعرف غير والده.

جاء الإسلام والعرب أشد الناس محافظة على أنسابهم، وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لأسلافهم من مجد وحسب. وكانوا يبالغون فى الاعتزاز بشرف الأحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوى شرف النسب. وهيهات أن يرتفع ذو أدب بأدبه إلى رتبة شريف بنسبه، وإن كان خاملاً فى نفسه، غير شىء فى عمله.

ولا يخفى ما كان فى ذلك من بخس الحق، والاستهانة بالكرم الذاتى، والشرف العصامى، والاتكال فى نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لا على ما يكسبه المرء بجده واجتهاده. نعم كان فى الافتخار بالآباء والأجداد، ومعرفة ما أتوا به من جليل الأعمال، وما كانوا عليه من كريم الخصال، تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورَّثوهم من علو ورفعة. لكن الكسل الملازم لطبيعة الإنسان كان يُغَلِّب جانب الاتكال على جانب الأسوة.

فجاء الدين الإسلامى ينكر الإفراط والغلو فى اعتبار الأنساب، كما أنكر ذلك فى كل شىء حتى فى الدين نفسه. وقال التنزيل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال صلى الله عليه وسلم: «أئتونى بأعمالكم ولا تأتونى بأنسابكم»، ليدل على أن النسب وحده ليس بالشىء، يرفع ويخفض. ولكن المعول عليه، وما يصح أن يرجع الكرم إليه، إنما هو ما يكون عليه المرء نفسه، فإن

وافق ذلك نسبا عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ فى الشرف وأعرف فى الكرم، وإلا فلن يبخس العامل عمله، ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الإلهى فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم، فجعلهم بذاتهم أصولاً للكرم، وأدواحًا للمجد، بما أودع فيهم من الغرائز الفاضلة، ووفقهم للأعمال الصالحة، فمنهم يبتدئ الحسب، وإليهم فى القرون المستقبلية يرجع النسب.

هذا ما أراده الإسلام، وما دعا إليه. ولكنه مع ذلك أمر برعاية النسبة إلى الآباء، ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبنى والالتحام بالأدعياء، وفرض على المؤمنين أن يدعوهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم. وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر عن بلوغه رواحل الآمال. وأوصى على بن أبى طالب أن يعهد بجلائل الأعمال إلى أهل البيوتات الصالحة، وذوى القدم السابقة.. وجاءت سنة السلف شاهدة بأن للأنساب وتوارث الأحساب مظاهر فى أعمال الأشخاص، وآثارا فى خصالهم ينبغى النظر إليها. فلم يهمل الإسلام شأن النسب، ولم يضع من شأن الأدب المكتسب، بل طلب العدل فى الأمرين، وجمع لأهله بين النظرين الصادقين.

ولكن ماذا يصنع الإسلام فى المسلمين وقد مهروا فى تحريفه، وقلب مقاصده العالية إلى أضدادها، كأنما هم مغرون بذلك من أعدائه؟! رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالى والملصقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الأحساب، وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم وفضيلة. وبلغ من أمر بعض الموالى الذين لا يعرف آباؤهم فضلاً عن أجدادهم فى الدولة العباسية أن استبدوا على الخلفاء من نسل العباس بن عبدالمطلب، واغتصبوا الملك منهم، وسادوا على كل ذى حسب ونسب فى أيامهم. بل قد فعل كثير منهم الأفاعيل بأشرف الناس نسبا من آل بيت النبوة. فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين، وعاندوا سنَّة من أعظم سنن الله فى خلقه، وهى سنة توارث الأخلاق والغرائز.

وإن ما يكون فى الآباء من أصول الملكات يهيئ الأبناء لكسب مثلها، وما جاء مخالفة لذلك فهو من مبتدعات القدرة الإلهية، وأما التربية فإن كانت حسنة مهدت السبيل وأسرعت بتكوين الملكة الصالحة فى النفس المستعدة، حتى يكون الشاب من

أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياضة على مكارم الأخلاق وليس له سلف فيها. وإن كانت رديئة أماتت الاستعداد للخير ومحته من طبيعة النفس، وجاءت بدله بضده.

وشأن التربية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه. فإن كانت صالحة أماتت ذلك الاستعداد، ولكن بعد عناء يستغرق السنين الطوال. وإن كانت غير صالحة أسرعت بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشىء، حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم، يرميه القدر من أول نشأته من قسيّ الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ما ليس في استعدادها، ويحملها على معاطاة ما لا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلاً، وهو ليس من أهلها.

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنَّة في أنفسهم، مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمير، وماشيتهم من البقر والغنم والإبل ونحوها. فيطلبون نتاج الجياد من الجياد، ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين. بل ولعوا بالجواري والإماء ممن لا تعرف أصولهن، ولم تعرض على الاختيار خلالهن في بيوت آبائهن. وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء ومن يليهم من علية الناس. فكان خيرا للابن أن ينسى خئولته بعد أن كان يفتخر بها. وولع الملوك بالمماليك، وظنُّهم فيهم الإخلاص في الولاء، وثقتهم بأمانتهم ذهب بهم إلى رفعهم على رءوس من سواهم، فتوجهت إليهم النفوس بالرعاية والاحترام، وما كان لأحد من أولئك العبيد المحترمين أن يذكر له أبا، أو يتذكر لنفسه نسبا. فصار الجهل بالأنساب عادة، وبئست العادة، وأصبح البيت القديم المؤسس علي مئين من السنين لا يعرف من أسلافه إلا واحدا أو اثنين ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره، ومحا جهل خَلَفه أثره.

ولذلك أقول إن ما أسمعه عن بيت والدي ووالدتي، إنما هو روايات من أفواه الأهل والأقارب ومن يعرفهم من الناس، قد يكون لها طريق إلى الصحة وقد تكون مما يخترعه الناس للتزيد في الفضل. غير أن ذلك يأتي في الانتساب إلى قريش وعمر بن الخطاب. أما في الانتساب إلى أصل تركماني فلا أظن ذلك يأتي، ولهذا يترجح عندي جانب صحة الخبر، ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي لا يشاركهم فيها من يجاورهم في مساكنهم(١٢٥).

الفصل الثانى

النشأة والتربية وطلب العلم (١٢٦)

«تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن، قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة، ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين، أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرءوا القرآن عند هذا الحافظ، ظنا منهم أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ. بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا حيث كان أخى لأمى الشيخ «مجاهد» - رحمه الله - لأجَوِّد القرآن فى المسجد الأحمدى، لشهرة قرائه بفنون التجويد، وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ هجرية (١٢٧).

«ثم فى سنة إحدى وثمانين جلست فى دروس العلم، وبدأت بتلقى (شرح الكفراوى على الأجرومية) فى المسجد الأحمدى بطنطا، وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم. فإن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها، ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لا يعرفها، فأدركنى اليأس من النجاح، وهربت من الدرس، واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر.

ثم عثر علىّ أخى فأخذنى إلى المسجد الأحمدى، وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت، وقلت له: قد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم، ولم يبق علىَّ إلا أن أعود إلى بلدى وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربى. وانتهى الجدال بتغلبى عليه، فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى «محلة نصر» على نية ألا أعود إلى طلب العلم، وتزوجت فى سنة ١٢٨٢ على هذه النية.

«فهذا أول أثر وجدت فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا، وهى بعينها طريقته فى الأزهر. وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم - سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم - غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون تغشهم أنفسهم، فيظنون أنهم فهموا شيئًا، فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال، وهم فى أحلام الأطفال، ثم يبتلى بهم الناس، وتصاب بهم العامة، فتعظم بهم الرزية، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة، ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد، ويؤذون بدعاويهم من يكون على شىء من العلم، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه.

«بعد أن تزوجت بأربعين يوما، جاءني والدى ضحوة نهار، وألزمنى بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم. وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر، ووجدت فرسا أحضر فركبته، وأصحبنى والدى بأحد أقاربى - وكان قوى البنية شديد البأس - ليشيعنى إلى محطة «إيتاى البارود» التى أركب منها قطار السكة الحديدية إلى طنطا.

كان اليوم شديد الحر، والريح عاصفة ملتهبة سافياء[١٢٨]، تحجب الوجه بشبه الرمضاء[١٢٩]، فلم أستطع الاستمرار فى السير، فقلت لصاحبى أما مداوية المسير فلا طاقة لى بها مع هذه الحرارة، ولابد من التعريج على قرية أنتظر فيها أن يخف الحر، فأبي عليّ ذلك فتركته، وأجريت الفرس هاربا من مشادته، وقلت: إنى ذاهب إلى «كنيسة أورين» - بلدة غالب سكانها من خئولة أبى - وقد فرح بى شبان القرية لأننى كنت معروفًا بالفروسية واللعب بالسلاح، وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه.

أدركنى صاحبى، وبقى معى إلى العصر، وأرادنى على السفر، فقلت له: خذ الفرس وارجع، وسأذهب صباح الغد، وإن شئت قلت لوالدى إننى سافرت إلى طنطا. فانصرف وأخبر بما أخبر. وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتى، وبدلت فيها رغبة غير رغبتى.

ذلك أن أحد أخوال أبى واسمه الشيخ «درويش» سبقت له أسفار إلى صحراء

ليبيا، ووصل فى أسفاره إلى «طرابلس الغرب»، وجلس إلى السيد «محمد المدنى»، والد الشيخ «ظافر» المشهور، الذى كان قد سكن «الآستانة» وتوفى بها، وتعلم عنده شيئا من العلم، وأخذ عنه الطريقة «الشاذلية». وكان يحفظ (الموطأ) وبعض كتب الحديث، ويجيد حفظ القرآن وفهمه. ثم رجع من أسفاره إلى قريته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الأرض وكسب الرزق بالزراعة.

«وإن هذا الشيخ جاءنى صبيحة الليلة التى بتُّها فى «الكنيسة» وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد «محمد المدنى» إلى بعض مريديه بالأطراف، بخط مغربى دقيق، وسألنى أن أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره. فدفعت طلبه بشدة، ولعنت القراءة ومن يشتغل بها، ونفرت منه أشد النفور. ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد.

ولكن الشيخ تبسم، وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم. ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر. فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبارة واضحة تغالب إعراضى فتغلبه وتسبق إلى نفسى.

وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم.

بعد العصر، جاءنى الشيخ بكتابه، وألحَّ علىَّ فى قراءة شىء منه، فقرأت وفسَّر. ثم تركته إلى اللعب. وفعل فى اليوم الثانى كما فعل فى الأول.

أما اليوم الثالث، فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها. فقال لى: إنه فى حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها. فطلبت منه إبقاء الكتاب معى، فتركه ومضيت أقرؤه. وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها، إلى أن جاء وقت الظهر. وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبة فى اللعب وهوى ينازعنى إلى البطالة. وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم.

«كانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم

فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.

لم يأت علىّ اليوم الخامس، إلا وقد صار أبغض شىء إلى ما كنت أحبه من لعب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شىء إلى ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم. وكرهت صور أولئك الشبان الذى كانوا يدعوننى إلى ما كنت أحب، يزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله، فكنت لا أحتمل أن أرى واحداً منهم، بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب.

فى اليوم السابع، سألت الشيخ ما هى طريقتكم؟ فقال: طريقتنا الإسلام. فقلت: أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب.

هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون، وإن كنا فى غمرة ساهين.

سألته: ما وِرْدكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا وِرْد لنا سوى القرآن، نَقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر. قلت: أنَّى لِى أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئًا؟ قال: أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة، وببركتها يفيض الله عليك التفصيل، وإذا خلوت فاذكر الله ـ على طريقة بيَّنها.

وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن، فلم تمض علىَّ بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد، واتسع لى ما كان ضيقًا، وصغر عندى من الدنيا ما كان كبيرا، وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق لى إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس. ولم أجد إمامًا يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيامٍ من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد.

هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبه أحد أقاربى وهو الشيخ «درويش خضر» من أهل «كنيسة أورين» من مديرية «البحيرة». وهو مفتاح سعادتى، إن كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى.

«وفى اليوم الخامس عشر مر بى أحد سكان بلدتنا - «محلة نصر» - فأخبرنى أن والدتى ذهبت إلى طنطا لتـرانى. فعلمت أن سيـقـول لوالدى إننى لا أزال فى «الكنيسة»، فأصبحت مبكرا إلى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده فى اللوم، لأننى لو كنت أقمت له ألف دليل على أننى وجدت فى مهربى مطلبه ومطلبى لما اقتنع.

«ذهبت إلى طنطا، وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية، فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية. لكن اتفق أن بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن إتمام (شرح الزرقانى على العزية). وآخر عرض له عارض منعه عن إتمام (شرح الشيخ خالد على الأجرومية)، فأدركت كلا منهما فى أوائل الكتاب الذى كان يدرس. وجلست فى الدرسين، فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله. وعرف ذلك منى بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولى لأطالع معهم قبل الدروس ما سنتلقاه.

وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة، كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معانى (شرح الزرقانى)، فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذى يسمونهم «بالمجاذيب». فلما رفعت رأسى إليه، قال ما معناه: ما أحلى حلوى مصر البيضاء!! فقلت له: وأين الحلوى معك؟ فقال: سبحان الله! من جد وجد!! ثم انصرف. فعددت ذلك القول منه إلهامًا ساقه الله إلى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا.

«وفى منتصف شوال من تلك السنة، ذهبت إلى الأزهر، وداومت على طلب العلم على شيوخه، مع محافظتى على العزلة والبعد عن الناس، حتى كنت أستغفر الله إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة.

وفى أواخر كل سنة دراسية، كنت أذهب إلى «محلة نصر» لأقيم بها شهرين - من منتصف شعبان إلى منتصف شوال - وكنت عند وصولى إلى البلد أجد خال والدي الشيخ «درويشا» قد سبقني إليه، فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم إلى يوم سفري. وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت؟ فأذكر له ما درست، فيقول: ما درست المنطق؟ ما درست الحساب؟ ما درست شيئا من مبادئ الهندسة؟ وهكذا. وكنت أقول له: بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر، فيقول: طالب العلم لا يعجز عن تحصيله فى أى مكان.

فكنت إذا رجعت إلى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها، فتارةً كنت أخطئ فى الطلب. وأخرى أصيب، إلى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦[١٣٠].

وقد صاحبته من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧[١٣١] وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية، وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك. وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل، ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة، وقد يهوى بالنفس فى ضلالات تحرمها خيرى الدنيا والآخرة. فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ «درويش»، فكان يقول لى: إن الله هو العليم الحكيم، ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل، وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شيء من العلم بممقوت عند الله، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه، إلا ما يسميه بعض الناس علما وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس»[١٣٢]. «. . إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها «على» و«محروس»، والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى، والأولياء والقديسين. . ».

قلت[١٣٣]: إننى كنت فى أوائل مدة طلب العلم، بعد مجيئى إلى الأزهر، فى عزلة عن الناس إلا من أستفيد منه علمًا أو نصيحة. لكن بعد مضى سبع سنين على ذلك، والشيخ[١٣٤] يقودنى فى سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم

تارةً ويلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارةً أخرى. قال لى عندما رجعت إلى «محلة نصر» فى سنة ١٢٨٨ :

إلى متى هذه العزلة؟ وما الفائدة فى العلم وتحصيله إذا لم يكن لك نوراً تهتدى به ويهتدى به الناس؟ إن من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك . وإن من لم ينفع بما تعلم ، فقد أضاع أهم ثمرة تُقصد من غراس المعرفة . فعليك أن تخالط الناس وتعظهم وترشدهم إلى الطريق القويمة والسنة الصالحة .

فذكرت لى اشمئزازى من الناس وزهادتى فى معاشرتهم وثقلهم على نفسى إذا لقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم ، فقال لى :

هذا من أقوى الدواعى إلى ما حثثتك عليه . فلو كانوا جميعهم هداة مهدين لما كانوا فى حاجة إليك .

ثم أخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ، ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ، ويوجه إلى الخطاب لأتكلم ، فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق فى القول على وجل فى أول الأمر . ومازال بى حتى وجد عندى شيئاً من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم . وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاءً شديداً ، ومات فى السنة الثانية ، رحمه الله تعالى .

الامتحـــان فى الأزهـــر

عـرضت نفسي على مـجلس الامـتحـان فى ١٣ جـمـادى سنة ١٢٩٤ هجـرية، وابتليت فى الامـتحـان أشـد الابتـلاء، لتـعـصب الأكـثـر من أعـضـائه مع المرحـوم «عليش»، وكـان يعـاديني على الغـيب اتبـاعـًا لآراء من لا رشـد عندهم من بلداء الطلبة. وكـانوا قد أجمعوا أمرهم على ألا يمنحوني درجة ما فى العلم، وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها.

ولكن كان أمر الله أغلب، فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية، وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر، وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية...

تعلمى الفرنسية

بدأتُ بتعلم اللغة الفرنساوية عندما كانت سنى أربعا وأربعين سنة، ولكن ميلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتدأ فى أثناء الحوادث العرابية، فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريبًا.

وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة، أقمت هناك عشرة أشهر، كنت أحرر فيها جريدة (العروة الوثقى)، ولم أتعلم شيئًا من الفرنساوية، لأن اجتماعى كان بالسيد جمال الدين، وبرفاق من العرب، واشتغالى بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لى بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة، فذهب عَلَيَّ ذلك الزمن بدون فائدة فى اللغة لا كثيرة ولا قليلة.

أما بعد عودتى من النفى إلى مصر، واشتغالى بالقضاء فى المحاكم الأهلية والحكم بها، خصوصًا فى الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية، وجلوسى بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين فى لغتها، فقد قوى عندى ا لميل إلى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون فى معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء.

وبعد مجيئى إلى القاهرة واشتغالى بالقضاء فى إحدى محاكمها، وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء فى العمل، فبحثت عن معلم، فوجدت أستاذًا لا بأس به، فدعوته فجاءنى حاملاً كتاب نحو فى يده - «كرامير» فسألته: ما هذا؟ فقال: كتاب نحو. فقلت له: «لا وقت عندى لأن أبتدى؛ وإنما عندى زمن لأن أنتهى. ثم ناولته قصة من تأليف «ألكسندر دوماس» وقلت له: أنا أقرأ وأنت تصلح لى النطق وتفسر لى الكلم، وما عدا ذلك فهو عَلَيَّ، والنحو يأتى فى أثناء العلم.

وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثًا عقبه. وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا. فتعلمت مبادئ اللغة الفرنساوية، وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم. لكن ما كنت أستطيع الكلام.

سافرت بعد ذلك إلى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية، وكنت أحضر دروس العطلة في كلية «جنيف». وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف.

ثم إن الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوروبية هو أني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية. كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين في جميع أقطار الأرض، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم؟ أو للخلاص من شر الشرار منهم؟!

وداع (١٣٥)

ولست أبالي أن يقال محمد أبلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجّون نيلها إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رُجعى قريبة إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلما وحكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم
ويخرج وحي الله للناس عاريا عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم

الشريف الرضى[136]

ولنقدم للمطالع موجزاً من القول فى نسب الشريف الرضى، جامع الكتاب، وطرفا من خبره:

فهو أبو الحسن محمد بن أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه.

وأمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر صاحب «الديلم»، ابن على بن الحسن بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، وكرم الله وجهه.

ولد الشريف الرضى فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، واشتغل بالعلم ففاق فى الفقه والفرائض، وبذّ أهل زمانه فى العلم والأدب.

قال صاحب اليتيمة[137]: هو اليوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادات العراق. يتحلى ـ مع محتده الشريف، ومفخره المنيف ـ بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظ من جميع المحامد وافر. تولى نقابة الطالبيين بعد أبيه فى حياته سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وضمت إليه، مع النقابة، سائر الأعمال التى كان يليها أبوه: وهى النظر فى المظالم، والحج بالناس. وكان من سمو المقام بحيث يكتب إلى الخليفة «القادر بالله العباسى أحمد بن المقتدر» من قصيدة طويلة:

عطفًا أميــر المؤمنين فإننــا　　　فى دوحة العليـاء لا نتفــرق

ما بيننا يوم الفخـــار تفاوت　　　أبدا، كلانا في المعالى مُعْـرِق
إلا الخلافة ميزتـــك فإننـــى　　　أنا عاطل منها، وأنت مُطَوَّق

ويروى أن «القادر» قال له، عند سماع هذا البيت: على رغم أنفك الشريف!! ومن غرر شعره فيما يقرب من هذا قوله:

رُمْتُ المعالى فامتنعن ولم يزل　　　أبـدًا ينـازع عاشـــقًا معشـــوقُ
وصبرت حتى نلتهن ولم أقل　　　ضجرًا: دواء الفارك[١٣٨] التطليق

وابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل.

قال صاحب اليتيمة: وهو أشعر الطالبيين، من مضى منهم ومن غبر، على كثرة شعرائهم المفلقين. ولو قلت: إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق.

وقال بعض واصفيه، رحمه الله: كان شاعرًا مفلقًا، فصيح النظم، ضخم الألفاظ، قادرًا على القريض، متصرفا في فنونه: إن قصد الرقة في النسيب أتى بالعجب العجاب، وإن أراد الفخامة وجزالة الألفاظ في المدح وغيره أتى بما لا يشق له فيه غبار، وإن قصد المراثى جاء سابقا والشعراء منقطعة الأنفاس. وكان مع هذا مترسلاً، كاتبًا، بليغًا، متين العبارات، سامى المعانى.

وقد اعتنى بجمع شعره في ديوان جماعة، وأجود ما جمع منه مجموع أبى حكيم الخيرى، وهو ديوان كبير يدخل في أربعة مجلدات، كما ذكره صاحب اليتيمة. وصنف كتابا في معانى القرآن العظيم، قالوا: يتعذر وجود مثله، وهو يدل على سعة اطلاعه في النحو واللغة وأصول الدين. وله كتاب في مجازات القرآن. وكان عَلِيَّ الهمة، تسمو به عزيمته إلى أمور عظام، لم يجد من الأيام عليها معينا، فوقفت به دونها حتى قضى، وكان عفيفا، متشددا في العفة، بالغا فيها إلى النهاية. لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة، حتى إنه رد صلات أبيه. وقد اجتهد «بنو بويه» في قبوله صلاتهم فلم يقبل. وكان يرضى بالإكرام، وصيانة الجانب، وإعزاز الأتباع والأصحاب.

حكى أبو حامد محمد بن محمد الإسفراييني الفقيه الشافعي، قال: كنت يوما عند فخر الملك أبي غالب محمد بن خلف، وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة، فدخل عليه الرضي (صاحب كلامنا الآن) أبو الحسن فأعظمه وأجل مكانه، ورفع من منزلته وخلى ما كان بيده من القصص والرقاع، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف. ثم دخل بعد ذلك المرتَضَى أبو قاسم (أخو الشريف الرضي) فلم يعظمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكرام. وتشاغل منه برقاع يقرؤها، فجلس قليلاً، ثم سأله أمرا فقضاه ثم انصرف.

قال أبو حامد، فقلت: أصلح الله الوزير، هذا المرتَضَى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون، وهو الأمثل والأفضل منهما، وإنما أبو الحسن شاعر؟ قال: فقال لي: إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة. قال: وكنت مُجْمِعًا على الانصراف، فعرض من الأمر ما لم يكن في الحساب، فدعت الضرورة إلى ملازمة المجلس حتى تقوض الناس.

وبعد أن انصرف عنه أكثر غلمانه ولم يبق عنده غيري، قال لخادم له: هات الكتابين اللذين دفعتهما إليك منذ أيام وأمرتك بوضعهما في السفط[١٣٩] الفلاني. فأحضرهما، فقال: هذا كتاب الرضي، اتصل بي أنه قد ولد له ولد فأنفذت إليه ألف دينار، وقلت: هذا للقابلة. فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى ذوي مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال، فردها وكتب إلى هذا الكتاب، فاقرأه. فقرأته، فإذا هو اعتذار عن الرد، وفي جملته: «إننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا، ولسن ممن يأخذن أجرة، ولا يقبلن صلة». قال فهذا هذا.

وأما المرتَضَى، فإنا كنا وزعنا وقسطنا على الأملاك، ببعض النواحي تقسيطًا نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى، فأصاب ملكًا للشريف المرتَضَى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهمًا ثمنها دينار واحد. وقد كتب منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه، وهو أكثر من مائة سطر، يتضمن من الخشوع والخضوع والاستمالة والهز والطلب والسؤال في إسقاط هذه الدراهم المذكورة ما يطول شرحه.

قال فخر الملك: فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل؟ هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد، ونفسه هذه النفس؟ أم ذلك الذى لم يُشْهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس؟!

فقلت: وفق الله سيدنا الوزير، والله ما وضع الأمر إلا فى موضعه، ولا أحله إلا فى محله.

وتوفى الرَّضى فى المحرم سنة ست وأربعمائة، ودفن في داره بمسجد الأنباريين بالكرخ. ومضى أخوه المرتَضَى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام، لأنه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه. وصلى عليه الوزير فخر الملك أبو غالب ومضى بنفسه آخر النهار إلى المشهد الشريف الكاظمى فألزمه بالعود إلى داره:

ومما رثاه به أخوه المرتَضى الأبيات المشهورة التي من جملتها:

يا للرجال لفجعة جذمت يدى ... ووددت لو ذهبت على براسى

ما زلت أحذر وردها حتى أتت ... فحسوتها فى بعض ما أنا حاسى

ومطلتها زمنا، فلما صممت ... لم يثنها مطلى وطول مِكاسى[١٤٠]

لله عمرك من قصير طاهر ... ولرب عمر طال بالأدناس

وحكى ابن خلكان عن بعض الفضلاء أنه رأى فى مجموع أن بعض الأدباء اجتاز بدار الشريف الرَّضى (صاحب الترجمة) «بسر من رأى» وهو لا يعرفها، وقد أخنى عليها الزمان وذهبت بهجتها، وأخلقت ديباجتها، وبقايا رسومها تشهد لها بالنضارة وحسن الشارة، فوقف عليها متعجبا من صروف الزمان وطوارق الحدثان، وتمثل بقول الشريف الرضى:

ولقد بكيت على ربوعهم ... وطلولها بيد البلى نهب

فبكيت حتى ضج من لَغَب[١٤١] ... نِضْوى[١٤٢]، ولج بعذلى الركب

وتلفتت عينى، فمذ خفيت ... عنى الطلول تلفَّت القلب

فمر به شخص، وهو ينشد الأبيات، فقال له: هل تعرف هذه الدار لمن هى؟

فقال لا ، فقال : هذه الدار لصاحب هذه الأبيات الشريف الرضي ! فعجب كلاهما من حسن الإتفاق .

وفي رواية العلماء من مناقب الشريف الرضي ما لو تقصيناه لطال الكلام ، وإنما غرضنا أن يلم القارىء بسيرته بعض الإلمام ، والله أعلم .

قرابة عثمان وأبي بكر وعمر من النبي (١٤٣)

. . . وإنما كان عثمان أقرب وشيجة لرسول الله ، لأنه من بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف رابع أجداد النبي صلى الله عليه وآله . وأما أبو بكر فهو من بني تيم بن مرة سابع أجداد النبي ، وعمر من بني عدي بن كعب ثامن أجداده صلى الله عليه وسلم . وأما أفضليته عليهما في الصهر فلأنه تزوج ببنتي رسول الله : رقية ، وأم كلثوم . توفيت الأولى ، فزوجه النبي بالثانية ، ولذا سمي ذا النورين ، وغاية ما نال الخليفتان أن النبي تزوج من بنتيهما .

نوف بن فضالة وجعدة بن هبيرة (١٤٤)

نوف بن فضالة التابعي البكالي ، نسبة إلى بني بكال ، بطن من حمير ، وضبطه بعضهم بتشديد الكاف كشداد . وجعدة بن هبيرة : هو ابن أخت أمير المؤمنين ، وأمه أم هانىء بنت أبي طالب ، كان فارسا ، مقداما ، فقيها .

ترجمة جمال الدين الأفغانى[١٤٥]

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس فى أمره، وتباعد ما بينهم فى معرفة حاله، وتباين صوره فى مخيلات اللاقفين لخبره، حتى كأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله. والرجل فى صفاء جوهره وذكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسه حزر الخراصين. وإنا نذكر مجملاً من خبره، نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة.

هذا هو السيد محمد جمال الدين، ابن السيد صفتر، من بيت عظيم من بلاد الأفغان، ينمى نسبه إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه. وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد فى خطة «كنر» من أعمال «كابل» تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام. ولهذه العشيرة منزلة علية فى قلوب الأفغانيين، يجلونها لحرمة نسبها الشريف. وكانت لها سيادة على جزء من الأراضى الأفغانية تستقل بالحكم فيه، وإنما سلب الإمارة من أيديها «دوست محمد خان» جد الأمير الحالى، وأمر بنقل أبى السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة «كابل».

ولد السيد جمال الدين فى قرية «أسعد أباد» من قرى «كنر» سنة ١٢٥٤ هجرية[١٤٦]، وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة «كابل». وفى السنة الثامنة من عمره، أجلس للتعليم، وعنى والده بتربيته، فأيد العناية به قوة فى فطرته وإشراق فى قريحته وذكاء فى مدركته، فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهايتها.

تلقى علوما جمة برع فى جميعها . . فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص . ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف . ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وإلهية، ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك . ومنها نظريات الطب والتشريح .

أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين ، على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد، وعلى ما فى الكتب الإسلامية المشهودة . واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه . ثم عرض له سفر إلى البلاد الهندية ، فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوروبية الجديدة . وأتى بعد ذلك إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج ، وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ ، فوقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته . واكتنه أخلاقهم، وأصاب من ذلك فوائد غزيرة . ثم رجع بعد أداء الفريضة إلى بلاده، ودخل فى سلك رجال الحكومة على عهد الأمير «دوست محمد خان» .

ولما زحف الأمير إلى «هراة» ليفتحها ، ويملكها على سلطان أحمد شاه ، صهره وابن عمه ، سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ، ولازمه مدة الحصار ، إلى أن توفى الأمير ، وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلاً .

وتقلد الإمارة ولى عهدها «شير على خان» سنة ١٢٨٠ [١٤٧] وأشار عليه وزيره «محمد رفيق خان» أن يقبض على إخوته ، خصوصا من هو أكبر سنا منه ، ويعتقلهم ، فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة ، وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالإمارة .

وكان فى جيش هراة من إخوة الأمير ثلاثة : محمد أعظم ، ومحمد أسلم ، ومحمد أمين . وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم . فلما أحسوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير ، أسرعوا إلى الفرار ، وتفرقوا إلى الولايات ، كل منهم ذهب إلى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها . وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية .

وبعد مجالدات عنيفة، عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن ـ (الأمير السابق) ـ وتغلبا على عاصمة المملكة، وأنقذا محمد أفضل، والد عبد الرحمن، من سجن «قزنة»، وسمياه أميرا على أفغانستان. ثم أدركه الموت بعد سنة، وقام على الإمارة بعد شقيقه محمد أعظم خان، وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده، فأحله محل الوزير الأول، وعظمت ثقته به، فكان يلجأ لرأيه في العظائم وما دونها ـ (على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم).

وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين، لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوي قرابته، حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث، وهم خلو من التجربة، عراة من الحنكة، فساق الطيش أحدهم، وكان حاكما في «قندهار» على منازلة عمه «شير علي» في «هرات»، ولم يكن له من الملك سواها. وظن الفتى أنه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر إخوته. فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه، فكر عليه وأخذه أسيرا، فتشتت جند «قندهار»، وقوي الأمل عند «شير علي» فحمل على «قندهار» واستولى عليها، وعادت الحرب إلى شبابها.

وعضد الإنكليز «شير علي»، وبذلوا له قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم، فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات. وبعد حروب هائلة تغلب «شير علي»، وانهزم «محمد أعظم» وابن أخيه «عبد الرحمن»، فذهب «عبد الرحمن» إلى «بخارى» ـ (وعاد إلى بلاده، رحمه الله) ـ وذهب «محمد أعظم» إلى بلاد إيران، ومات بعد أشهر في مدينة «نيسابور». وبقي السيد جمال الدين في «كابل» لم يمسه الأمير بسوء احتراما لعشيرته وخوف انقياد العامة عليه حمية لآل البيت النبوي. إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله، ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الأفغان.

فاستأذن للحج، فأذن له، على شرط ألا يمر ببلاد إيران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم، وكان لم يمت، فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ [١٤٨]، بعد هزيمة

«محمد أعظم» بثلاثة أشهر. فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة فى إجلال، إلا أنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها، ولم تأذن للعلماء فى الاجتماع عليه إلا على عين من رجالها، فلم يقم أكثر من شهر. ثم سيرته من سواحل الهند فى أحد مراكبها على نفقتها إلى السويس، فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يوما تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين، ومالوا إليه كل الميل، وسألوه أن يقرأ لهم (شرح الإظهار) فقرأ لهم بعضاً منه فى بيته. ثم تحول عن الحجاز عزمه، وتعجل بالسفر إلى الآستانة.

وصل الآستانة.. وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاة الصدر الأعظم على باشا، ونزل منه منزلة الكرامة، وعرف له الصدر فضله، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الأفغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء. وحومت عليه، لفضله، قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم.

وبعد ستة أشهر، سمى عضواً فى مجلس المعارف، فأدى حق الاستقامة فى آرائه، وأشار إلى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب إليها رفقاؤه.. ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الإسلام لتلك الأوقات حسن فهمى أفندى، لأنها كانت تمس شيئا من رزقه، فأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧[١٤٩] فرغب إليه مدير دار الفنون تحسين أفندى أن يلقى فيها خطابا للحث على الصناعات، فاعتذر إليه بضعفه فى اللغة التركية، فألح عليه تحسين أفندى، فأنشأ خطابا طويلاً كتبه قبل إلقائه وعرضه على وزير المعارف، وكان صفوت باشا، وعلى شروانى زاده، وكان مشير الضابطية، وعلى دولتلو منيف باشا ناظر المعارف، وكان عضواً فى مجلس المعارف، واستحسنه كل منهم وأطنب فى مدحته.

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب، تسارع الناس إلى دار الفنون، واحتفل له جمع غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأرباب الجرائد، وحضر فى الجمع معظم الوزراء. وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده.. وأرسل حسين فهمى أفندى أشعة نظره فى تضاعيف الكلام ليصيب منه

حجة للتمثيل به، وما كان يجدها لو طلب حقا. . ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الإنسانية ببدن حي، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن، تؤدى من المنفعة فى المعيشة ما يؤديه العضو فى البدن. . فشبه الملك بالمخ الذى هو مركز التدبير والإرادة، والحدادة بالعضد، والزراعة بالكبد، والملاحة بالرجلين، ومضى فى سائر الصناعات والأعضاء حتى أتى على جميعها ببيان ضاف واف. . ثم قال:

هذا ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية، ولا حياة لجسم إلا بروح، وروح هذا الجسم إما النبوة وإما الحكمة، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب، يختص الله بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته. أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات. . وبأن النبى معصوم من الخطأ، والحكيم يجوز عليه الخطأ، بل يقع فيه. . وأن أحكام النبوات آتية على ما فى علم الله، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالأخذ بها من فروض الإيمان. أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها إلا من باب ما هو الأولى والأفضل، على شريطة ألا تخالف الشرع الإلهى.

هذا ما ذكره متعلقًا بالنبوة، وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية. . إلا أن حسن فهمى أفندى أقام من الحق باطلاً، ليصيب غرضه من الانتقام، فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صنعة، واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة فى خطاب يتعلق بالصناعة. (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) - ثم أوعز إلى الوعاظ فى المساجد أن يذكروا ذلك، محفوفا بالتفنيد والتنديد.

فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه، وإثبات براءته مما رمى به، ورأى أن ذلك لا يكون إلا بمحاكمة شيخ الإسلام. (وكيف يكون ذلك) - واشتد فى طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها، وأكثرت الجرائد من القول فى المسألة، فمنها نصراء للشيخ جمال الدين، ومنها أعوان لشيخ الإسلام.

فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون ويغضى عن الكريهة، وطول الزمان يتكفل باضمحلال الإشاعات وضعف أثرها، فلم يقبل، ولج فى طلب المخاصمة، فعظم الأمر، وآل إلى صدور أمر الصدارة إليه بالجلاء عن الآستانة

بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء. ففارق الآستانة مظلوما فى حقه مغلوبا لحدته. وحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر فجاء إليها فى أول محرم سنة ١٢٨٨ (١٥٠). . هذا مجمل أمره في الآستانة.

مال السيد جمال الدين إلى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها. ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها، حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا، فاستمالته مساعيه إلى المقام، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصرى كل شهر، ونزلاً أكرمته به لا فى مقابلة عمل. واهتدى إليه كثير من طلبة العلم، واستوروا زنده فأورى، واستفاضوا بحره ففاض دراً، وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية، طبيعية وعقلية، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الإسلامى.

وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم، ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا ولا يومًا واحدًا. نعم كان يذهب إليه زائرًا، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة.

عظم أمر الرجل فى نفوس طلاب العلوم، واستجزلوا فوائد الأخذ عنه، وأعجبوا بدينه وأدبه، وانطلقت الألسن بالثناء عليه، وانتشر صيته فى الديار المصرية.

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول، فنشطت لذلك ألباب، واستضاءت بصائر، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية، فاشتغلوا على نظره، وبرعوا، وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه. وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى، وخيرى باشا، ومحمد باشا سيد أحمد، على ضعف فيه، ومصطفى باشا وهبى، على اختصاص فيه. ومن عدا هؤلاء فإما ساجعون فى المراسلات الخاصة وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها.

ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصرى لا يشق غبارهم، ولا يوطأ

مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة. وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به، ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر.

هذا ما حسده عليه أقوام، واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها. على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه، بل قيدوه بضعفاء العقول، قصار النظر، خشية على عقائدهم من الزيغ، أما الثابتون فى إيمانهم فلهم النظر فى علوم الأولين والآخرين، من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين، فلا يزيدهم ذلك إلا بصيرة فى دينهم وقوة فى يقينهم. ولنا فى أئمة الملة الإسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول.

ولكن.. تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأي هذا الرجل، وأذاعوا ذلك بين العامة، ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة، كانوا يطوقون مجلسه فيسمعون ما لا يفهمون، ثم يحرفون فى النقل عنه ولا يشعرون.

غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله، ولم يزل شأنه فى ارتفاع، والقلوب عليه فى اجتماع.. إلى أن تولى خديوية مصر حضرة خديويها المغفور له توفيق باشا. وكان السيد من المؤيدين لمقاصده، الناشرين لمحامده، إلا أن بعض المفسدين، ومنهم «مستر فيفيان» قنصل إنكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوى، ونقل المفسد عنه ما الله يعلم أنه برىء منه، حتى غير قلب الخديوى عليه، فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب. ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦[١٥١]، وأقام بحيدر أباد الدكن، وفيها كتب هذه الرسالة فى نفى مذهب الدهريين[١٥٢].

ولما كانت الفتنة الأخيرة بمصر، دُعِىَ من حيدر آباد إلى كلكتة، وألزمته حكومة الهند بالإقامة فيها حتى انقضى أمر مصر، وفتأت[١٥٣] الحرب الإنجليزية، ثم أبيح له الذهاب إلى أى بلد، فاختار الذهاب إلى أوروبا. وأول مدينة أصعد إليها لوندره، أقام بها أياما قلائل ثم انتقل عنها إلى باريز وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه فى أثنائها.

ولما كلفته جمعية العروة الوثقى أن ينشئ جريدة تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة الإسلامية، أيدها الله، سألنى أن أقوم على تحريرها، فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عددا، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا، ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه، وذلك لخلوص النية فى تحريرها وصحة المقصد فى تحبيرها. ثم قامت الموانع دون الاستمرار فى إصدارها، حيث أقفلت أبواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الإنكليزية فى إعنات من تصل إليهم فيه. ثم بقى بعد ذلك مقيما فى أوروبا أشهرا فى باريز وأخرى فى لوندره إلى أوائل جمادى سنة ١٣٠٣، وفيه رجع إلى البلاد الإيرانية.

أما مذهب الرجل، فحنيفيٌّ حنفيٌّ، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية، رضى الله عنهم. وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه. أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله.

أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه أفكاره وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته، وكل ما أصابه فى سبيله، فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة والدولة بالدول القوية. فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفىّ مجده. ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنكليز شئون يطول شرحها.

أما منزلته فى العلم وغزارة المعارف، فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها. لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتى على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف سر الغموض عنه، فيظهر المستور منه. وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها. ثم له فى

باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع. وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه. وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ولا جادله عالم إلا جَدَلَه. وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون.

وبالجملة، فإني لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم.

أما أخلاقه، فسلامة القلب سائدة فى صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع. إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب. فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثّاب. وهو كريم يبذل ما بيده، قوى الاعتماد على الله، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر. عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسى الذى قدمناه، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان. وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه. إلا أنه حديد المزاج، وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة. إلا أنه صار اليوم رسو الأطواد وثبات الأقناد. فخور بنسبه إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر. وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده.

أما خَلْقُه، فهو يمثل لناظره عربيا محضا من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين سكنة الحجاز، حماه الله. ربعة فى طوله، وسط فى بنيته، قمحى فى لونه، عصبى دموى فى مزاجه، عظيم الرأس فى اعتدال، عريض الجبهة فى تناسب. واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل فى النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفاه الله من كمال خَلْقه ما ينطبق على كمال خُلُقه.

بقى علينا أن نذكر له وصفًا لو سكتنا عنه سألنا عن إغفاله، وهو أنه كان فى

مصر يتوسع فى إتيان المباحات كالجلوس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين، لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار. وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدا من اللغو منزهًا عن اللهو. وكان يوافيه فيها كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم. وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وأى غضاضة على المرء فى أن يفرج بعض همه بما أباح الله له(١٥٤).

محمود سامى البارودى[١٥٥]

هو محمود سامى بن حسن حسنى بك البارودى، ينتهى نسبه إلى المقام العالى المولوى الأميرى الكبيرى السيدى المالكى المخدومى العضدى الذخرى المجاهدى السيفى نوروز الأتابكى الملكى الأشرفى.

والبارودى: نسبة إلى «إيتاى البارود»، بلدة من مديرية البحيرة بمصر، كان أحد أجداده ملتزما لها، فنسب إليها على عادة تلك الأيام.

ولد المترجم له لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥[١٥٦] وبعد أن تلقى المبادئ التعليمية دخل المدارس الحربية فى سنة ١٢٦٧[١٥٧] فى مبادئ حكومة عباس باشا الأول وخرج منها فى أواخر سنة ١٢٧١[١٥٨]، فى أوائل حكومة سعيد باشا.

وكان فى طبعه ميل غريزى إلى الآداب العربية وفنون الإنشاء والنظم، فاشتغل بها حتى بلغ درجة عالية فى النظم والنثر. وفى شعره من السلاسة والمتانة وحسن التخيل ولطف الأداء وبهجة الديباجة ما لا ترى نظيره إلا فى شعر فحول المخضرمين.

ثم جنحت نفسه إلى تحصيل فنون الآداب التركية، فرحل إلى القسطنطينية وأقام هناك بقلم كتابة السر بنظارة الخارجية فى الباب العالى، فأتقن اللغة التركية قراءة وكتابة، وله فيها من الأشعار والرسائل ما يعترف أدباء الترك ببلاغته، وتعلم هناك أيضا اللغة الفارسية.

ولما انتهت إمارة مصر إلى إسماعيل باشا، وسافر إلى الآستانة لأجل القيام بالشكر للحضرة السلطانية على ولاية مصر، عاد بصاحب الترجمة فى حاشيته،

وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٧٩[١٥٩]. ورقي إلى رتبة البكباشي العسكرية في سبع بقين من المحرم سنة ١٢٨٠[١٦٠]، وفيها سافر مع جماعة من ضباط العسكر المصرى إلى فرنسا لمشاهدة التمرينات العسكرية التي تكون هناك كل عام في المعسكر المعروف باسم «فان دو سالون». وسافر بعد أن قضى لبانته من ذلك إلى «لندره» عاصمة إنكلترا لاختبار الأعمال العسكرية والآلات الحربية فيها.

ثم عاد إلى مصر، فارتقى إلى رتبة القائمقام في الألاى الثالث من الفرسان المعروف بلقب «الفارديا» وكان ذلك في ١١ج[١٦١] سنة ١٢٨١[١٦٢]. وفي غاية ذى القعدة من هذه السنة، ارتقى إلى رتبة أمير ألاى، فكان على الألاى الرابع من عسكر الحرس المعروف «بالفارديا».

ولما خرج أهل جزيرة «كريد» عن طاعة الدولة في ربيع الأول سنة ١٢٨٣[١٦٣]، وأرسلت الإمارة المصرية جيشًا ليساعد الدولة على تأديبهم، أرسل المترجم مع الجيش المصرى بوظيفة رئيس الياورية. وبعد إخماد نار الفتنة في ٣ جمادى الثانية سنة ١٢٨٤[١٦٤]، أنعم السلطان عبد العزيز عليه بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة. وعاد إلى مصر فكان من حجاب الخديو (ياور).

ولما صدر الفرمان السلطاني بحصر الخديوية المصرية في ذرية إسماعيل باشا في ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٩٠[١٦٥]، وصار محمد توفيق باشا ولى العهد، صار صاحب الترجمة رئيس الحجاب (الياوران). وبعد ثلاث سنين جعله الخديو كاتب السر الخاص له (مكتوبجى أو سكرتير). وبعد سنتين عاد إلى العسكرية.

ولما خرجت بلاد «الصرب» على الدولة عقيب فتنة «الهرسك»، وأرسلت الحكومة المصرية جيشا لمساعدة الدولة على تدويخها، أرسل هو إلى الآستانة برسالة خاصة بذلك، فأقام فيها ثلاثة أشهر وعاد إلى مصر. ثم أرسل إليها برسالة أخرى تختص بفتنة «البلغار» وخروج «الجبل الأسود» على الدولة. ولما اشتعلت نار الحرب بين الدولة وروسيا سافر بعسكره مع الجيش المصرى الذى أرسل لمساعدة الدولة إلى «وارنه» ولم يعد إلا بعد عقد الهدنة الأخيرة. وفي خلال ذلك رقى إلى رتبة أمير لواء، ومنح الوسام المجيدى الثالث والمداليا.

وفي شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٥[١٦٦]، عين مديرا للشرقية، ثم عين رئيسا

للشحنة (الضبطية) فى مصر سنة كاملة، اهتم فيها بحفظ الأمن، وكانت المخاوف تتناوش الناس من كل مكان لما كان فيها من الأصابع الخفية التى تتلاعب بإثارة الخواطر فى ذلك الوقت، أى أواخر حكم إسماعيل باشا بما كان من المنافسة بين الأمراء والكبراء، ومن توجه كثير من الأفكار لإثارة الشرور وإيقاف حركة الإدارة. حتى إذا ما تم أمر الله بعزل إسماعيل باشا، وأقيم ولى عهده توفيق باشا أميرا لمصر، جعل صاحب الترجمة عضوا فى مجلس الوزارة، وقلده نظارة عموم الأوقاف المصرية، وكانت مختلة معتلة فأصلح خللها وداوى عللها بما وضعه لها من القواعد والترتيب.

ولما تم أمر التصفية المصرية على ما يرام، رقي المترجم إلى رتبة فريق وأعطى الوسام المجيدى من الدرجة الثانية وذلك فى ٩ شعبان سنة ١٢٩٧[١٦٧].

الحوادث العرابية

في غرة شهر ربيع الأول من سنة ١٢٩٨[١٦٨]، كانت واقعة تألب الضباط المصريين على ناظر الجهادية، لأسباب أحفظتهم عليه. فاجتمعوا على طلب عزله من النظارة، فأجيب طلبهم، وعين الخديو صاحب الترجمة ناظرا للجهادية، جامعا بينها وبين نظارة الأوقاف، فاجتهد في إثلاج صدور الضباط واتخاذ الوسائل التي تكفل حفظ الأمن، فتم له ذلك. ولكن ظهر له أن إدارة العسكرية أشد اختلالاً من نظاروة الأوقاف وأنها في حاجة إلى إصلاح عظيم لابد فيه من الروية وطلبه من أسبابه بالتدريج، فوجه عناية لذلك، واثقا بحسن نيته ومضاء عزيمته وثقة الأمير والأمة به.. وفي هذه المدة القصيرة تيسر له إصلاح كثير من شئونها وتحويل بعض أحوالها إلى ما هو أحسن. ومن المأمول أن يساعده التوفيق الإلهي على إتمام مقاصده فيها إن شاء الله تعالى[١٦٩].

الشيخ على الليثى(١٧٠)

(١٢٣٦-١٣١٢هـ)

لم يزل المترجم محترما عند المرحوم إسماعيل باشا الخديو الأسبق، إلى أن انقضت مدته وانتهت ولايته. وبعده كانت له الحظوة عند نجله المرحوم توفيق باشا، الذى تولى الخديوية بعده. وكانت له منزلة رفيعة عند أعيان المصريين وأكابرهم، وله حنو وعطف مشهوران على ضعفائهم وصغارهم.

ولما حدث من الفتن ما حدث على عهد المرحوم توفيق باشا، كان المترجم وسطًا يرجع إليه المختلفون، ويتلاقى عنده المتنازعون؛ فلم تنحط مكانته عند الخديو، ولم تسقط منزلته فى نفوس الثائرين، لأنه لم يكن يقول إلا خيرًا، ولا ينطق فى أحد الفريقين إلا بما هو فى مصلحته وفائدته.

وفى نهاية هذه الحوادث، تلقاه الخديو بما يليق به.. ثم لم يخدعه هذا الإقبال، ولم يستهوه ذلك الإجلال، ولم يستنزله شىء من ذلك عن كرم الأخلاق، واستقامة الطباع ولم يهله ما كان فيه الناس من الهرج والمرج، ولا ما كان فيه الخديو من شدة الغضب والنزوع إلى الانتقام ممن قيل عنه إنه شايع العرابيين، أو مدهم بمعونة قول أو عمل. ولم يأخذ مأخذ الناس فى الدفاع عن أنفسهم، من سكوت عن الحق، وموافقة على الباطل، أو تزلف بالنمائم، وتقرب بالطعن فى الأصدقاء، وإظهار العداوة للأولياء، بل صغر كل ذلك فى عينه، وجاء بما لم يستطع غيره أن يقاربه، أو يوجه وجهه جهته.

وأول قول قاله للخديو أن نصحه وقال له: «إن القوم خدمك، والرعية حولك،

وقد دفعتهم الأوهام إلى ما لم يكونوا يقدرونه، وسار بهم القدر إلى ما لم يكونوا ينتظرونه، وقد انكشفت غشاوة الغرور عن أعينهم، وأيقنوا اليوم أن لا ملجأ منك إلا إليك. ونفوسهم اليوم تطمع فى عفوك، وإن كانت تتوقع بطشك، وتخشى نزول نقمتك، واشتداد أخذك. وأنت ملك قادر، قد مكنك الله من رقابهم، وأجدر بك أن تعفو عنهم، فتملك أفئدتهم بالمرحمة، وتستعبد أحرارهم بالإحسان. ذلك خير من أن تدمى قلوبهم بالعقوبة، وتورث العداوة أعقابهم». ثم أنشأ تلك القصيدة التي مطلعها:

كل حال لضده يتحول   فالزم الصبر إذ عليه المعول

وكلها نصيحة بالعفو ودعوة إلى الإحسان.

نطق المرحوم حيث كان غاية الخير والفضل عند غيره أن يسكت، وصب الماء على نيران الغضب المتقدة يوم كان هم أعظم الناس شأنا إنما هو البعد عن مواقع شررها.

مكانة من الشجاعة لم يصعد إليها أحد غيره، ومنزلة من الفضل وحب الخير لم تسع معه سواه.

شعر بعض محبي الانتقام من الوزراء في ذلك الوقت بإلحاح المترجم على الخديو فى استعطافه على رعيته، فساءه ذلك، وخشى أن تسمع كلمة المرحوم، ويجاب التماسه. فأرسل إليه يطلب منه أن يذهب إلى أملاكه، فى ناحية الصيف، ليقيم بها. ورأى من الخديو رغبة فى ذلك، فانطلق مغاضباً، ولزم بيته ينظر فى شئونه نحو سنة من الزمان.

وأفاق الخديو توفيق مما كان غشيه، فطلب من الشيخ، رحمه الله، أن يأتى إلى حضرته، ويعود إلى سابق خدمته، فأبى أن يجيب طلبه، وترفع عن أن يبادر إلى أمر كان غيره يتخذ إليه الوسائل ويستشفع فى نيله بالحق وبالباطل، واستمر يتحصن بعزة نفسه، إلى أن وافاه الخديو فى عزبته بالصف، مصحوباً بحرمه وحاشيته وحشمه، فأكرم الشيخ لقاءه، وعاد بعد ذلك إلى الإخلاص فى ولائه.

رسائل فكرية وإخوانية

رسالة إلى القس إسحق طيلر[١٧١]

كتابي إلى الملهم بالحق، الناطق بالصدق، حضرة القس المحترم إسحق طيلر، أيده الله في مقصده، ووفاه المذخور من موعده.

وصل إلينا من خطابتك ما ألقيته في المحفل الديني بمدينة «لوندره» متعلقا بالدين الإسلامي؛ فإذا للحق نور يلمع من خلال كلامك، تعرفه البصائر الباصرة، وتشيمه[١٧٢] أعين العقول النيرة، رفعتك هداية الله إلى مقام الإنصاف، فرأيت الإسلام في طبيعته السليمة، ووقفت عليه في مزاجه الصحيح، فأدركت أثره في النفوس البشرية، وعلمت أنه أفضل ما يعد الروح الإنسانية إلى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الإيمان. ودافعت عنه دفاع العارف به، وجليته للغافلين في أجمل صورة يمكن أن يلمحوها بأبصارهم، ويتصفحوا دقائقها بأنظارهم. ثم دعوت أبناء ملتك إلى كلمة السواء بينهم وبين المسلمين، وصدقتهم النصيحة ألا يحتقروا المسلمين بتكذيب نبيهم، ولا تكفيرهم في الاعتقاد بدينهم. ووعدتهم إن قبلوا نصحك بإصابة المسيحية في الإسلام، ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذا بعضد المسيح، بإعلاء كلمة دينه الصحيح؛ فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك، وآيات حق ساقه الله إليك.

وأنا لنهنئك على هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك، ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل، فتهزم له ظلمات الغفلة، فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والإسلام، وقد تعرفت كل منهما إلى الأخرى، وتصافحتا مصافحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة، فتغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين.

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته. وإنك لتجد لك مؤيدين، وإن كثيراً من ذوي الألباب ليجدون في قولك مواقع للصواب. وإن هذا الأمر الذي قمت به لعظيم الفوائد، جم العوائد، نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين إلى الملاقاة على صراط الوحدة الحقيقية.

وإنك إن كنت واحدا، فكل شيء مبدؤه بالواحد، ثم يكثر حتى لا يحصر. وإن كان هذا الغرس الطيب قد أخرج اليوم شطأه(١٧٣) فسيؤازره السعي حتى يغلظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع.

وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبا متوافقة، وصحفاً متصادقة، يدرسها أبناء الملتين، ويوقرها أرباب الدينين، فيتم نور الله في أرضه، ويظهر دينه الحق على الدين كله.

وإني لا أشك في أن لك الرغبة التامة في نشر مذهبك هذا وترويجه بين الأمم الشرقية والغربية. وقد سعينا في ترجمة خطابك(١٧٤) ونشره في الجرائد العربية(١٧٥)، فإن كان عندك مقالات أخرى فنرجو إرسالها، لنعمل على ترجمتها ونشرها بين أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم. ولكن تمام العمل إنما يكون بإرسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشئوا مدارس في البلاد المشرقية، خصوصاً بلاد سوريا، وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة، فتنمو بركته، وتجزل ثمرته.

وإنني - على عجزي - مستعد لمساعدتك فيما تقصد من تقريب ما بين الملتين بكل ما يمكنني. والسلام على من اتبع الهدى.

رسالة ثانية إلى القس إسحق طيلر[١٧٦]

عزيزى حضرة خطيب السلام القس إسحق طيلر . .

كنت فى القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التى أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة . وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هى الدين الحق تفرعت عنها أغصان متعددة، لا يضر بوحدة نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى فى اختلاف أوراقها وفرج أنشعابها، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة، ووحدة لونها وطعمها، قد انحصر فى الدين الإسلامى، الذى يستقى من جميع عروقها وجذورها، فهو فذلكتها، والغاية التى قد انتهى إليها سيرها، لأنه يصدق الكل، ويعظم الجميع، ويدعو إلى التوحيد المحض، والفردانية الصرفة، التى إليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى ما يفوت الحصر ويتجاوز حدود النهايات .

وبعد رجوعى من بيروت رأيت من جنابكم مكتوبا بعث بواسطة صديقى جمال الدين بك، ووجدتكم تذكرون أمورا كالطلاق، وتعدد الزوجات، والرق، وتظنون أنها أهم ما عليه اختلاف أهل الدينين، مع أن أمثال هذه المسائل لا يعدها المسلمون من أصول الدين . ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ما تحبون من ذلك بدون حاجة إلى فتوى شيخ الإسلام، وللمسلمين فيما دون فى كتبهم ما ليس لهم فى فتوى شيخ الإسلام، فهذا أمر لا مقام له فى موضوع بحثنا وبحثكم .

أما أصول الدين الإسلامى فهى : الإيمان بالله، وأن محمدا رسول الله، وإن القرآن كلام الله . فأعظم شىء تتشوق إليه نفوس المسلمين الصادقين أن يسمعوا التصريح من حضرتكم بقبول ذلك، والتصديق به ـ كما أشرتم إليه فى خطابكم

المتعلق بمسلمي إفريقيا ـ وأن يروا علامات التصديق في الأقوال والأفعال ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (الروم: ٤، ٥)، وكل ما تظنه من المصاعب يذلل، وما تتصوره من الموانع يزول.

ولا أظن يوماً مر أو يمر على الإنكليز يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد، إذ يصبح العالم خادمًا لهم، وجند الله الأعظم ناصراً لأهله منهم، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد(١٧٧)، وإرضاء قلوب النساء(١٧٨)، وهما مما يدعو إليهما الدين الإسلامي على أتم الوجوه وأكملها.

فهلم بنا يا عزيزي إلى الاتفاق على الأصول ليتيسر لنا الوفاق على الفروع، والاتحاد في الأب ليتسنى لنا الاتحاد في الابن، فإنما تؤتى النتائج من مقدماتها، ولا تؤتى المقدمات من نتائجها. وقد سرني كل السرور ما بلغني من أنكم استحسنتم ما وصل إليكم من صديقنا «مرزا باقر»، وإن شاء الله تجدون ما يسركم إذا داومتم مكاتبته، إن شاء الله، والسلام على أهل السلام.

رسالة إلى تولستوى (١٧٩)

عين شمس بضواحى القاهرة، فى ١٨ إبريل سنة ١٩٠٤ .

أيها الحكيم الجليل، موسيو تولستوى . .

لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكنا لم نحرم التعارف بروحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها، ووفقك على الغاية التى هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه، وسعيا يبقى به ويرقى به جنسه، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، واستعملوا قواهم ـ التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ـ فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم.

نظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنت بقولك هاديا للعقول، كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون، كان مثالك فى العمل إماما يقتدى به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء، كان مددا من عنايته للفقراء.

وإن أرفع مجد بلغته، وأعظم جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد، هو هذا الذى سموه «بالحرمان» و«الإبعاد»، فليس ما كان إليك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين. فاحمد الله على أن فارقوك بأقوالهم، كما كنت فارقتهم فى عقائدهم وأعمالهم.

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم ما تقول، ويسوق النفوس إلى الاقتداء بك فيما تعمل، والسلام.

مفتي الديار المصرية

محمد عبده

إذا تفضل الحكيم بالجواب فليكن باللغة الفرنسوية، فإني لا أعرف من اللغات الأوروبية سواها. محمد.

رسالة ثانية إلى تولستوي

أيها الروح الذكى، صدرت من المقام العلى إلى العالم الأرضى، وتجسدت فيما سموه بتولستوى، قوى فيك اتصال روحك بمبدئه، فلم تشغلك حاجات جسدك عما تسمو إليه نفسك، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من الناس من نسيان ما فصلوا عنه من عالم النور، فكنت لا تزال تنظر إليه النظرة بعد النظرة، وترجع إليه البصر الكرة تلو الكرة فوقفت بذلك على سر الفطرة، وأدركت أن الإنسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل، ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل.

رسالة إلى سلطان المغرب [١٨٠]

وصل إلى أسماعنا، ونحن فى ديارنا، أنباء ما وجه المولى إليه همه، وشحذ لبلوغه عزمه، من النهوض ببلاده إلى الإصلاح، والسير بها فى منهج الفوز والفلاح، وتَلَوْنا ما نشر من أوامره الكريمة، ووعينا ما تضمنته من القواعد القويمة، فتجددت فى سلامة تلك البلاد آمالنا، واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا.

ولما كان الإسلام الذى يقصده المولى إنما يتم برعاية الدين، والرجوع إليه فى كتابه المبين، وسنة صاحبه الأمين، ثم النظر فى أقوال وأعمال السلف الصالحين، لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين، تعلقت الآمال بأن يكون لمولانا لفتة إلى العلوم الدينية، وإحياء ما مات منها، ونشر ما طوى من كتبها، لتتأدب النفوس بأدبها، وتحيى القلوب إذا اتصلت أسبابها بسببها.

فثقة بهذه المقاصد الجليلة، ألهمنى الله أن أعرض على حضرتكم العلية، أنه قد تألفت فى مصر (جمعية لإحياء العلوم العربية)[١٨١]، وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف، وتصحح نسخه، وتطبعه، حتى يحيا بذلك ما أندرس من علوم الأولين، واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين. وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب «على بن سيده» الأندلسى، فى اللغة المسمى «بالمخصص»، وسيتم عن قريب. وهى الآن تبحث عن نسخ «مدونة» الإمام «مالك»، حتى تحصل لها نسخة صحيحة، ثم تطبع هذا الكتاب الجليل. وقد وجدت من هذا الكتاب قطع فى مصر، وقطع أخرى فى تونس وصارت هذه القطع فى أيدى الجمعية، ولكن لم توجد إلى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها. وقد تأكد للفقير أن

نسخة كاملة من الكتاب توجد فى «جامع القرويين» ، ويسهل على فضل مولانا السلطان ـ أيده الله وأيد به الدين ـ أن يمدنا فى عملنا ، ويعيننا على ما نبتغى من الخير ، بإصدار أمره الكريم أن ترسل إلينا هذه النسخة . إما بتمامها لنقابل عليها ما عندنا ، ونتم منها ما ينقص نسخنا ، ونعيدها إليه ، ونهدى الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه ، إن شاء الله تعالى . وإما مفرقة جزءا بعد جزء ، فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل إلى مقره . وفى كلا الحالين سنقوم لمقامكم السلطانى بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامى ، الذى سنراه كأن الله حققه ، ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته ، وينصر بعزمكم شريعته .

رسالة إلى قاضى قضاة فاس (١٨٢)

بسم الله، والحمد لله وحده . .

حضرة الأستاذ الفاضل، العلامة العامل الكامل، مولاى إدريس بن مولاى عبد الهادى، قاضى القضاة، حفظه الله .

بلغنا من كمالكم، وكرم أخلاقكم، وميلكم إلى نفع العامة من المسلمين، وايصال الفوائد إلى خاصتهم، ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة، والتوسل بكم فى الوصول إلى ما يرجى ثواب السعى فيه، إن شاء الله .

نبشركم أن فى مصر من أهل الفضل من وفقهم الله لنشر ما أماته الإهمال من آثار سلف الأمة ودواوين علومهم. وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب «المخصص» فى اللغة للإمام الجليل «على بن سيده» النحوى، لشدة الحاجة إليه، ولإشراف نسخه على العدم والانمحاء من الوجود. وبعد أن بلغ الطبع معظم الكتاب، رأى أولئك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم، فرأوا من أفضل الأمهات وأحقها بالعناية، وأشدها تعرضا للضياع والاختفاء من الديار الإسلامية، «مدونة» الإمام «مالك»، فأخذوا يبحثون عن نسخها، فتحقق ظنهم فى تعرضها للضياع، لأنهم لم يجدوا نسخة كاملة فى الديار المصرية، ولا فى الديار التونسية. وحملهم ذلك على الجد فى الطلب، والبحث فى زوايا المساجد، لعلهم يعثرون على ما يتمم لهم نسخة صحيحة. فهم كذلك إذ بلغهم أن فى «مسجد القرويين» بمدينة «فاس» نسخة من الكتاب كاملة، فحملنى الحرص على الوصول إلى تلك النسخة على أن رفعت عريضة رجاء إلى مولانا السلطان المعظم مولاى عبد العزيز، ليأمر بإرسال النسخة إما جملة وإما جزءا جزءا، وعلينا بعد طبع الكتاب أن نرسل منه عشر نسخ إلى «جامع القرويين» .

بعد أن أرسلت العريضة حضر عندى من تفضل على بذكر صفاتكم الجميلة، وسجاياكم الفاضلة، وأكد لى أن حضرتكم تكون عونا لى على ما أطلب. لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم إليكم، راجيا من همتكم أن تساعدونى إلى تلك النسخة، أو غيرها من نسخ «المدونة». ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها، ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة. إما لجامع القرويين، وإما لمن يتفضل بإرسال نسخة إلينا، مع الشكر الخالص، والدعاء الدائم، إن شاء الله.

رسالة إلى أحد العلماء(١٨٣)

حضرة الهمام الفاضل، بقية الأفاضل، وتذكرة الأوائل، العالم الفاضل، مولوى محمد واصل.

لم يسبق لى شرف معرفتك، ولا فضل مكاتبتك، ولكن تجلت لى أوصافك العلية، وفضائلك القدسية، فى قول أصدق الناس لسانا وأثبتهم بيانا حضرة أستاذى السيد جمال الدين، أيده الله بعنايته. فكنت بذلك أشد الناس تعلقا بمزاياك. وأشوقهم لنيل الحظ من مرآك. وقد كنت - حفظك الله - كتبت إلى «عارف أفندى أبى تراب»(١٨٤) تسأله عن اختيارى فى زيارة البلاد الهندية، وأظنه كتب إليك بميلى إلى ذلك، وترقب الفرصة للمسير إليه.. ورجائى أن يسعدنى التوفيق الإلهى ببلوغ الغاية لما أرتقب. ولو لم يكن لى فى بلاد الهند سوى رؤية مثلك، والأخذ بالنصيب من معرفتك، لكان ذلك أقوى باعث على السعى إليها، وأحث داع للإقبال عليها.

وقد يلوح بخاطرى أن أهيئ نفسى لذلك فى الخريف الآتى من هذه السنة. فمتى عقدت العزيمة بعثت إليك بالخبر، إن شاء الله.

إن ما دعوتنى إليه فى كتابك «لعارف أفندى» من كتابة رسائل فى تنبيه الأمة الإسلامية إلى تلافى أمرها، ومبادرتها إلى جمع كلمتها، صونا لنفسها عن التهلكة، وحفظا لما بقى لها من غول الفناء، فذلك عملى إن شاء الله. وقد رأيت أن أتقدم لك برسالة تبين حال العرب فى الجاهلية، على وجه الإجمال، ثم ما ساق الله إليها زمن فيض الخير ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم. ثم أتقدم بعد ذلك إلى ذكر سيرة النبى وخلفائه الأربعة. ثم أختم الكلام. وبعد هذا، نأخذ فى نشر رسائل

ندعو بها إلى الألفة، ونزعج بها عن الخلفة، ورجاؤنا في كل ذلك نجاح أعمالنا، وصلاح أحوالنا، إن شاء الله.

ورسالة «النيشرية»(١٨٥) قد نقلناها إلى اللغة العربية، وبدأنا في طبعها. وقد ترجمنا كتابكم إلى السيد، وكتاب السيد إليكم، وقدمناهما في صدر الرسالة. ومتى تمت نبعث بها إليكم، إن شاء الله.

«ونهج البلاغة»(١٨٦) قد تم والحمد لله طبعه، وسيرسل إليكم مائة نسخة على حسب طلبكم. نبعث بها إلى «بومباى»، ثم ترسل من «بومباى» إلى «حيدر آباد» وثمنها يرسل إلينا، مائتان وخمسون روبية ورق «بنك نوط» هندى، حيث إنه لا يتيسر الإرسال بطريقة أخرى. ثم ليكن في علم حضرتكم أن أثمان هذا الكتاب مخصصة للإنفاق في طريق خيري، والإعانة على أمر عام إسلامي، لا نريد منها ربحا، ولا نطلب كسبا. والله الموفق. ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة، بتواتر المراسلة، والله يتولى رعايتكم، والسلام.

رسالة إلى أحد علماء الشام [١٨٧]

أنصفني قومك إذ سروا بتناولي منصب الإفتاء. ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله، وأحراهم بالدفاع عن حماه، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها، وأحذقهم في انتهازها، لإبلاغ الحق أمله، أو يبلغ الكتاب أجله. على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحدس، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد. وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحث إليه عزيمتي، وأخلص في العمل لتحقيقه نيتي، خصوصا أن كفي فيه القتال، ولم يكلف بشد رحال، ولا بذل أموال.

أما قومي، فأبعدهم عني أشدهم قربا مني.. وما أبعد الإنصاف منهم! يظنون بي الظنون، بل يتربصون بي ريب المنون، تسرعا منهم في الأحكام، وذهابا مع الأوهام، وولعًا بكثرة الكلام وتلذذًا بلوك الملام، أقول فلا يسمعون، وأدعو فلا يستجيبون وأعمل فلا يهتدون، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون، وأضع أيديهم عليها فلا يحسون، بل يفرون إلى حيث يهلكون.. شأنهم الصياح والعويل، والصخب والتهويل، حتى إذا جاء حين العمل، صدق فيهم قول القائل في مثلهم:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

وأقول ولا من الخير [١٨٨].

وإنما مثلي فيهم مثل أخ جهله أخوته، أو أب عقته ذريته، أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته، مع حاجة الجميع إليه، وقيام عمدهم عليه. يهدمون منافعهم بإيذائه، ولو شاءوا لا ستبقوها باستبقائه، وهو يسعى ويدأب، ليطعم من يلهو ويلعب.

على أني أحمد الله على الصبر، وسعة الصدر إذا ضاق الأمر، وقوة العزم،

وثبات الحلم. وإن كنت فى خوف من حلول الأجل، قبل بلوغ الأمل، خصوصاً عندما أرى أن العمل في أرض ميتة، لو ذابت عليها السماء مطرا لما أنبتت زرعا، ولا أطلعت شجرا. أفزع لذكرى ذلك وأجزع، ويكاد قلبى يتقطع، ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين، وأنه لا يضيع أجر العاملين، فيثلج صدرى، وأمضى في جهادى الدائم، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

ممن أشتكى؟ لو أن ما ألقى كان من لغط العامة، ولقلقة (١٨٩) الجاهلين، لهان الأمر، وتيسر المخرج. ولكن البلاء كل البلاء. أن أشد الناس عداوة لأنفسهم هم أولئك المعممون، الذين يبعدون عن الدين مدعين أنهم دعاته، ويمزقون أحشاءه زاعمين أنهم حماته.. وما منهم إلا أحد شخصين: شخص ركب هواه فأعماه، فهو يرى الحق باطلاً، والصواب خطأ. وآخر غرته دنياه، وأضله جشعه، فران على قلبه ما يكسب، وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة ما يكذب، ولم يعد للحق إلى قلبه سبيل.

ليتنى كنت أشكو إلى الله جهل العالمين وحمق المعممين فى مثل الجاهلية التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها، وإزالة أيامها. تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيدا، ولكن كان فهم القوم حديدا، لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعى أجابوه.. كان القرآن يصدع أفئدتهم فَيُلَيِّن من شدتهم، ويفل من شرتهم، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة. وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً. عرفوا الحق فأنكروه، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه، ولو سمعوا لفهموا، ثم لم يجدوا بدا من أن ينصروه. وإن الجحود مع الفهم كاليقين فى العلم، كلاهما قليل فى بنى آدم.

أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم، وضعف العقل، واختلال نظام الإدراك، وفساد الشعور عند الخاصة، فلا تجذبهم فصاحة، ولا تبلغ منهم بلاغة. وغاية ما يطلبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا، وأن تقضى حاجاتهم إذا سألوا، وأن ترفع مكاناتهم وإن تنزلوا. وإن استعداد السامع للفهم يستدر المقال، ويسدد الفكر للنضال فى الجدال، أما عيشك فيمن لا يفهم، فإنه ينضب منك ينبوع الكلام، ويطمس عين الفكر، ويزهق روح العقل.

جعلني الشيخ «عبد الرزاق البيطار» ثالث الرجلين، وما أنا في شيء من أمرهما، إلا نزر من الهمة، وكثير من معرفة قدرهما.

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه، وأشكره وأشكر نعمه مرجعها إليه، وأذكر من نعمه أكثر نعمة أمدني بها، وأكرمني بأسبابها، إحسانه إلى بعطف قلب الأستاذ علي، وتقريبي من فؤاده، وإحلالي مكانا من وداده. كرمت نفس الأستاذ فكرم فيها مثالي، وكملت سجاياه فتخيل منها كمالي، نسب إلى الشيخ الجليل شؤونا كلها من سرائره، وألبسني من الأوصاف ثوباً نسجته مظاهره، جعل لي السيد من حسن ظنه معينا؛ وأفادني بثقته ركنا ركينا، وسندا أمينا. فأسأل الله تحقيق ظنونه، وأن يمدني دائما بدقائق فنونه، وأن ينصرني بولائه، وأن يسلكني في عقد أوليائه، والسلام.

رسالة إلى مناضل سورى(*)

ولدنا الفاضل . .

تمنيت لو تمتعت بقربك، كما قدر لى المتاع بأدبك، ولكن أحمد الله الذى يرينا ما نختار، فى غير ما يقع عليه الاختيار، فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك، تجعل لهم حظا من عمل يومك، تزحزح عن أبصارهم حجب الغفلة، وتعظهم بما أوتيت من الحكمة، وتهيئ نفوسهم لقبول الحق إذا أقبل، وتعدها لمدافعة الباطل إذا أظل. وأسأل الله أن يشد أزرك، ويخفف من ذلك وزرك، ويرفع بعملك قدرك. وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال، وهى خير صلة وأوفقها عند الرجال، بارك الله لك فى أيامك، ورزقك الخير والسعادة فى أعوامك، والسلام.

كلمـــات

- هلاك العامة فيما ألفت.
- إنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه.
- من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما.
- لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا
- الذل يميت الإرادة.
- من لا صديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس.
- الشباب يحمل ما حمل.

(*) كتبها الأستاذ الإمام من مصر إلى الأستاذ عبد الحميد الزهراوى، فى حمص بسوريا، وهو أحد المناضلين العرب الذين أعدمهم الأتراك العثمانيون سنة ١٩١٦م. لنضالهم القومى العربى.

رسالة إلى حافظ إبراهيم [190]

لو كان بى أن أشكرك لظن بالغت فى تحسينه، أو أحمدك لرأى لك فينا أبدعت فى تزيينه، لكان لقلمى مطمع أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حقك، ويجرى فى الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك. لكنك لم تقف بعرفك [191] عندنا، بل عممت به من حولنا، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا.

زففت إلى أهل اللغة العربية، عذراء من بنات الحكمة الغربية، سحرت قومها، وملكت فيهم يومها، ولا تزال تنبه منهم خامدا، وتهز فيهم جاسدا. بل لا تنفك تحيى من قلوبهم ما أماتته القسوة، وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيها الأسوة. حكمة أفاضها الله على رجل منهم، فهدى إلى التقاطها رجلاً منا، فجردها من ثوبها الغريب، وكساها حلة من نسج الأديب، وجلاها للناظر، وحلاها للطالب، بعدما أصلح من خلقها، وزان من معارفها، حتى ظهرت محببة إلى القلوب، شيقة إلى مؤانسة البصائر. تهش للفهم، وتبش للطف الذوق، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم، فلا يكاد يلحظها الوهم، إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام.

حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك، فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدإ الطريق، ووصل منهم فريق إلى ما يحب من مقصده، ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها، ويرد إليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف، وحسن الصياغة، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه. أما أنت فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعد، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده. ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح «ابن المقفع» كانت من طيبات الأرواح، فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع، ومعنى أنفع. ولعلك قد سننت

بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك، ويحملها الزمان إلى أبناء ما يُستقبل منه، فتكون قد أحسنت إلى الأبناء، كما أجملت فى الصنع مع الآباء، وحكمت للغة العربية ألا يدخلها بعد من معجمة سوى ما هو فى الأسماء - أسماء الأماكن والأشخاص، لا أسماء المعانى والأجناس - ومثلى من يعرف قدر الإحسان إذا عم، ويعلى مكان المعروف إذا شمل، ويتمثل فى رأيه بقول الحكيم العربى:

ولو أنى حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علىَّ ولا بأرضى   سحائب ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلبى عن الشكر لك، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء.

تقول إن الذى وصل سببك بسر صاحب الكتاب، ووقف بك على دقائق من معانيه، اشتراكك معه فى البؤس، ونزولك منزلته من سوء الحال. وربما كان فيما تقول شىء من الحقيقة. فإن كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة، ثم كان سببا فى امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة، سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتدأ، وأن يجعلك فى بؤسك أغنى من أهل الثراء فى نعيمهم، والسلام.

كلمات

«لا يمكن لشخص مستقيم السير أن يجد عملاً أو يصيب خيرا فى الآستانة، وعلى كل ذى دين أن يفر منها بدينه وبقية نفسه. تعلمت فى الآستانة ما لم يعلم إلا بالمشاهدة» (١٩٢).

رسالة إلى البستانى[١٩٣]

عزيزى الفاضل، سليمان أفندى البستانى . .

دعانى أصدقاؤك وأصدقائى إلى الأنس بك ساعة لنهنئك بالنجاح فى ذلك العمل الأدبى الذى كلفت بإبداعه عدة من السنين . دعونى إلى الاشتراك معهم فى شكرك لما دأبت فى السعى، وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء فى اختيار مسالك النظم، لتهدى إلى أبناء لغتك العربية من أحاسن الصناعة الأدبية ما يعد زينة للناظرين .

وكنت أكون أسرع الناس إلى إجابة الدعوة لولا مانع ذنبه إلى ذنب العاذل إلى عاشق الحسان، منعنى الأنس بهم وبك، ولكنه لم يمنعنى أن أشاركهم فى شكرك .

تمت لك ترجمة الالياذة لنابغة شعراء اليونان «هميروس» المشهور، نسجت قريحتك ديباجة ذلك الكتاب، كتاب الترجمة، فإذا هو ميدان غزت فيه لغتنا العربية ضريعتها[١٩٤] اليونانية، فسبت خرائدها، وغنمت فرائدها، وعادت إلينا فى حلل من آدابها، تحمل إلى الألباب قوتا من لبابها . وما أجمل ذلك الغلب، فى زمن ضعف فيه العرب، حتى عن الرغب فى نيل الأدب، ما ينال منه عن كثب، فضلاً عما يكسب بالتعب، فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وفقت لإكماله من العمل، فقد سددت به ثلمة كانت فى بنية العلم العربى .

من عشرة قرون أغار قومنا على دفائن الفنون اليونانية، فى القرن الثالث من الهجرة وما بعده، فنثروا منها ما كان مخزونا، ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن فى حسبانها، فقد صارت لسان العلم والصنعة، كما كانت لسان الدين والحكمة .

لكن . . كأن أولئك الأساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق عليهم في جانب العلم، الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب، ولا يتخالف على حقائقه الأعجم والمعرب. وظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم، لبعد ما بين أنساب أولئك وأنسابهم، فلم يمدوا نظرهم إلى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء، وما صاغته قرائح البلغاء، فلم تنل اليونانية من عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية. وكان مؤمل اللغة منهم ألا يحرموها نفائس ما اخترع اليونانيون، كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون. وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر، حتى أتيت ترفع عنه الستر، وجئت تقول للناس إنني أتمم في دولة عباس [١٩٥]، ما نقص ملك بني العباس، مما أقر عين العربية بنيل طلبتها، وظهور ما كان منتظرا لشيعتها. أرجو أن ينال كتابك من الإقبال عليه، والانتفاع به، ما يكافئ تعبك، ويبعث همم العاملين على أن تتبعك، والسلام.

رسالة إلى الشيخ
مصطفى عبد الرزاق(١٩٦)

ولدنا الأديب . .

خير الكلام ما وافق حالا ، وحوى من النفس مثالا . تلك أبياتك العشرة رأيتنى ـ والحمد لله ـ متربعا فى سبعة منها ، كأنها الكواكب تسكنها الملائكة ، وما بقى كأنه الشهب ، نور للأحباء ، رجوم للأشقياء .

ما سررت بشيء سرورى بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك . فلله أنت! والله أبوك! ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح ، لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء . ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء ، أن يمتعنى الله من نهايتك ، بما تفرسته فى بدايتك ، وأن يخلص للحق سرك ، ويقدرك على الهداية إليه ، وينشط بنفسك لجمع قومك عليه ، والسلام .

رسالة إلى حفني ناصف

عزيزي (197) . .

تسجع لي في كتابك، وتطمع أن أسجع لك في جوابك، كأنك لم تسمع أني تبت عن السجع، حتى لو ساق إليه الطبع، فماذا أصنع بك، وقد نقضت توبتي بأدبك؟

أعاد إلى كتابك وجداناً طالما وجدته في نفسي أيام الصوم، والقضايا كوم على كوم، مع لدد القوم وسماحة إلى النوم، كأن تعبك صُبَّ عليّ، وكأنما انتقل ظمؤك إليّ لكن لما تذكرت قصر النهار، وقرب وقت الإفطار، والنجاة إلى الدار من مقاضاة أهل النار وحملة الذنوب والأوزار، قلت لقلقي قرقار، بالماء وقد حضر، والطعام يتبعه على الأثر. فابتلت العروق، ونقعت الحلوق، وامتلأت البطون، وقرت العيون، وثاب السكون، فحمدت الله لك على الشبع، وسألته أن يجنبك البدع في إطالة السهر وقتل الليل بالسمر إلى وقت السحر، فذلك تهلكة للبدن، مجلبة للوهن، مضيعة لنفيس الزمن، مطفيء لنور الفطن، وقاك الله هذه المحن.

ثم قد وصل التحويل، وقبض مبلغ الثلاثمائة قرش، وسيرسل إليك سند الاستلام. وسلامي عليك وعلى السيد أحمد رافع والسلام.

ليلة ٩ رمضان ١٣١٥ (198)

محمــد عبــده

كلمـــات

«رأس البر لا عقل فيه، ولا عمل، وذلك لا يمنع من إرسال ملازم التفسير، فكلام الله يرد الفارّ من العقول ويعمر الخرب منها.

ما رأيت مكاناً يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لا أشتهى فيه أن أمد يدى إلى قلم، وإنما أطالع فى أوراق متنوعة، فى أوقات متقطعة، ولذلك أراه أفضل مكان للراحة، وتبديل الهواء، بعد شدة التعب وطول العناء.

كنت أنتظر أن يصل إلى (المنار) هنا ليكون مما ألقى عليه نظرى إذا أرجعته عن أمواج البحر الأبيض، ولم أطلقه إلى بساط النيل الأحمر، فأنا جالس طوال يومى بين البحرين»(١٩٩).

رسالة إلى كاتب(٢٠٠)

حضرة الفاضل المحترم . . .

أبطأت فى إجابتك ، وقصرت فى الإسراع بشكرك ، لما أتحفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب ، الذى تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك فى أحسن صورة ، لم تفتك فيه فضيلة الإبداع ، ولم تحرم من حسن الاتباع . اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأى ، واحترام مقام العقل ، فلم يهبط بك التقليد إلى ما يحط بالعمل ، ويسقط من قيمة الكد فى الجد . ثم أبدعت فى ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم ، وأدنى إلى التقريب من حقيقة العلم ، وكأنى بك وقد وقفت على ذلك السر الذى خفى عن الجمهور الأعظم ممن سبقك ، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقاً للتعبير ، ومهد لهم سبلاً جديدة لصوغ الأساليب ، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه ، ويبعد بهم عن تكلف كانوا رئموه (٢٠١) ، ولهذا قوى عندك كل ما بنى عليه ، وضعف لديك كل ما لم يستند إليه ، جزاك الله عن نفسك خير ما يجزى به عامل من عمله ، وجزاك عن أهل لغتك خير ما يجزى به محسن عن إحسانه ، والسلام .

كلمـــات

«الناس فى عماية عن النافع ، وفى انكباب على الضار ، فلا تعجب إذا لم يسرعوا بالاشتراك فى (المنار) ، فإن الرغبة فى (المنار) تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر بما هو أصلح للآجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر . ولا يزال ذلك الميل فى الأغنياء ، قليلا ، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا . ولكن ذلك لا يضعف الأمل فى نجاح العمل»(٢٠٢) .

رسائل إلى الشيخ
إبراهيــم اليازجى(٢٠٣)

- ١ -

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله، ويرتاد من الرضا مبذوله. ولقد كنت تعلم أنى ما أردتك إلا لنفسك، فالحمد لله إذ أرجعك إليها، وله الشكر على ما عطفك عليها، وما أنا بالمقصر بك عما سألت، ولا الذاهب بك إلىَ خلاف ما طلبت، وغاية قولى لا تثريب عليك اليوم يغفر الله لك، وهو أرحم الراحمين. حياتنا شبح روحها المحبة، والمحبة شبح الإخلاص، فما أسعد وقتا نرى فيه حياتك متعشة بروحها، زاهرة بسر الإخلاص فيها. وليس بذاهب عنك أنك كما تكون يكون الناس لك. وأسأل الله أن ينفى عنك خواطر السوء. ويزيح عن روحك الطيبة وساوس الغرور، ويمن على برؤيتك عند الغاية التى أحب لك، وسلامى عليك وحدك من بين أهلك. ولتكن مواصلتك دائمة، والسلام.

- ٢ -

عزيزى، صفوة البلغاء ونخبة الأدباء، حفظه الله..

تماديت فى التقصير، حتى عجز العذر عن التعبير، وخجل القلم من التحرير. ولكن فى علمكم بحال متنقل إلى بلاد قد أنكره هواؤها، وتعرفت إليه أدواؤها، ما لا أحتاج معه إلى بسط عذر يشفع إليكم، ويقبل لديكم. ليت يوماً بعدت فيه عنكم، كان يوما قربت فيه منكم. فلولا مثال من أدبكم يؤنسنى إذا استوحشت، ويشفعنى إذا انفردت، لكان سهمى أقصد ما يصيب المحرومين(٢٠٤).

- ٣ -

هامة الفضل(٢٠٥)، وجبهة الأدب، حفظه الله . .

أكرمني الشيخ بإيفاد كتابه، يمثل لي ما لم أنس من آدابه، ويبشرني بتوفر النعمة على سلامته، ويزيدني يقيناً باتصالها في مودته، وسرني استقرار الشيخ على رخاء البال، وإن كدرني ذكر ما هب لديه من عاصفة البلبال، لا ترك الله لها مهبا . ولا أدام لها مربا، وأبلغ الله حضرة الأخ(٢٠٦) غاية الشفاء، ووقاكم الله وآلكم من الأسواء .

لا أبرئ نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده، وإجالة الأقداح فيما عسى أن يكون سبباً في تأخر وفوده، واستكانتي في ذلك لسلطان الوحشة، وانهزامي لغارة جيش الدهشة، حتى كان الكتاب فيصلا لحربنا، وناصرا بل منقذا لحزبنا، ولا يوفي حق شكره، إلا شغل بذكره .

عجبت لمصير ذلك العقد، وانحلاله قبل أن يشتد(٢٠٧)، وتغيظ المفسدين عليه، والتفاتهم بالسوء إليه، وهو في مهده، وعلى قرب عهده، كأنما حم على هذه البلاد أن تكون حطبا لنيران الفساد، وأن يذل فيها العلم، ويضل في أبنائها الحلم، ولا ينجح الفضل في مسعاه، ولا يخيب الجهل في مبتغاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، ويبدل من هذا العسر يسرا .

- ٤ -

جناب الشيخ الأروع(٢٠٨) والبليغ الأبرع، أيده الله . .

لو كانت بالدهر ثقة لكانت لأبنائه، ولو حفظ له جوار لصح لحلفائه، ممن درجوا على سننه، وله فيهم كل يوم غدرة، ولجيشه عليهم كل آن كرة . فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم وخالفت أوضاعه أوضاعهم؟ فهو يتقلب، وأرواحهم في الفضل ثابتة، ويتغشمر(٢٠٩)، ونفوسهم للحق مخبته(٢١٠) . فالفضلاء - وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة، والعرفاء - وأنت هامتهم - في مقارعات معه متفاقمة، لكنهم يرون له أنكى من نكاياته، التذرع بالصبر في ملاقاته، ورد وثباته،

بسكون الجنان وثباته. ولست أذكِّر الشيخ بمثل ما قال أرسطو «ما أشد ظلم الناس، يستقبلون القادم إلى الدنيا بالفرح والسرور، ويتبعون الراحل عنها بدعاء الويل والبثور، ولو أنصفوا في أمرهم لعكسوا في حكمهم». وإن مصيبة الراحل عنها عظيمة، ورزيئة اليأس من لقائه جسيمة، وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حسرات، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات. ولكن سئم العناء وداره، وكره الباطل وجواره، فاستقبل وجه البقاء وخلص إلى ما إليه التجاء، فما الحيلة؟ التصبر أجمل من التحسر، والجلد أجدر بنا من الكمد. وإني. وإن وجهت الخطاب إليك، لم أقصر الوصية عليك، فلي نفس تشارك نفسك، وحس يشاطر حسك، وهذا حديث نفسي أنثه [٢١١]، وما يخالج صدري أبثه. وإن العناية بالراحل عنا في تربية ولده، خير لدية وأوفى بحقه، من مطاوعة الأسف لفقده، وأنتم موضع الرجاء لخلفه، كما كنتم منتهى المجد لسلفه. وأسأل الله لكم حسن العزاء، وصرف البأساء، وإقبال النعماء.

-٥-

عزيزي الفاضل [٢١٢]، أيده الله..

لمثل أدب الشيخ الفاضل تغني الإشارة عن طويل العبارة. وصلت مصر ومثال الشيخ آخذ بجناني، وذكره مالك للساني، ورجائي أن تدوم مواصلته، وتحيي النفس مراسلته، والسلام على من يحب من ذوي اللب.

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠ هـ [٢١٣].

رسالتان إلى الشيخ عبد المجيد الخانى

ـ ١ ـ

لك الحمد والشكر[٢١٤] . .

وفد على كتاب السيد الأستاذ، والموئل الملاذ، ينبئ عن سعادة حاله، وسعود إقباله، فحمدت الله أن خطرت بباله، وإن لم أكن من ذوى باله. ودهشت من مفاجأة هذه النعمة، لقصر الهمة، عن شكر يستزيدها، وحمد يستعيدها. وإن سرورى من السيد بتوجيه عنايته، إلى أخلص الناس فى محبته، بل أثبتهم قدما على أبواب خدمته، لأرقى من لذة الوصال، لمحبوب بعيد المنال، بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال، والظفر بالإقبال.

يشير الأستاذ فى خطابه إلى لطيف عتابه، وليس سرورى بما أحسن به الأستاذ من مكاتبته، بأوفر من سرورى بما تحققته من كمال صحته. أدام الله سرورى بتوارد أخباره، وشهود آثاره فى أنصاره. وشهد الله أن غيبته عن ناظرى، لم تحجب مثاله الشريف عن خاطرى، وأن تسليماتى متوالية فى خلواتى، وجلواتى، وخواتيم صلواتى، لا يحيط بها لحظ اللاحظ، ولا حفظ الحافظ، ولا يأتى على وصفها الشيخ حسين الحافظ[٢١٥]، وإن بلغ فى الفصاحة ما بلغ الجاحظ، أهديها مع الرائح والغادى، والحاضر والبادى، وما على سوى أن أقول، وعلى الله الوصول.

يعلم مولاى أنى من تبعة القارئين، وخدمة الكاتبين، وأظن ـ إن حسن الظن ـ أنى من مواقع إحسانه، ومواضع امتنانه، وما كنت أجحد شيئا من رعايته، ولا آلو جهدا فى شكر منته. ومع هذا لم يتفضل على بلامعة من درره، ولا بارقة من

غرره، واختص السادة الفضلاء بالمراسلة، واكتفى لى بسلام المجاملة. فالتمست من حضراتهم أن يحيوه أحسن تحية، أو يردوها على أى كيفية، ولا أدرى بعدُ ما كان منهم، رضى الله عنهم. ورأيت من المخاطرة، والجرأة الجائرة، أن ابتدر الأستاذ بالكلام، وهو الإمام ابن الإمام، فوقفت عند الحد، وقمت مقام العبد، إن سئل أجاب، أخطأ أو أصاب. أليس لمثلى العذر، أن يقصر به الفكر، عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر، وبديع الزمان في النظم والنثر؟ بل ولولا ثقتي بسعة كرمه، ما تمكن قلمي من إجابة قلمه. فليعف جناب السيد عما يراه فيما حرر على عجل، من سلطان الخوف والوجل.

شكرنا لمولانا سروره بما رأى فى جريدة (الثمرات) (٢١٦)، غير أن ما ذكر فيها إنما هو كلمات، قذفتها بمصر أغراض، فانقضت واستعقبت بالإعراض. على أننا إذا حسن التفاتكم إلينا فى آل خير من آلنا، وأوطان أرحب من أوطاننا، فلا غرابة مع وجود الأحبة، ونسأل الله تخليد بقاكم، ودوام رضاكم.

نوهتم بما حظى به الشيخ أسعد إلا . . (٢١٧) من كتاب الصادق الأصدق، الناطق بالحق فيما دق ورق، ذكر السيد أن الشيخ لم يدر ـ عافاه الله ـ من أين أتى، وأرى له عذراً فى هذه الفعلة التى . . (٢١٨) فقد أتى من وراء حجاب، واحتيل بغير احتطاب، ودمر عليه من غير باب، فلا غرو إن غاب عنه الصواب، وخرم وانخرم معه الحساب. إبراهيم أفندى جظه، بعد المماحظة، ودلظه بلا معاكظة، لكن الشيخ جواظ، حجب بكماله عن . . . فضلاً عن اللحاظ، وإن كان فى طبعه لظلاظا، وفي هداه جلماظا، فتح سر الشيخ على القلم باب الظأظأة، ولولا أن تدراكه لطف الله لجذبه للبأبأة والفأفأة. فلا تؤاخذ مجذوبا، ولا تعنت مغلوبا، ثم إن القصيدة حائية لا جيمية، وكأن غموض معناها أعجم مبناها. سبحان الله العظيم، وفوق كل ذى علم عليم، كر كر كر كر، إنها لإحدى الكبر (٢١٩).

أرجو تقبيل أيدى حضرة والدكم. ثم إن حسن لديكم فبلغوا سلامى إلى حضرات أصحاب السعادة: محمد باشا، ومحيي الدين باشا، نجلى سعادة المرحوم الأمير عبد القادر (٢٢٠)، أكرم الله جواره، وقدس أسراره. ويهدى حضرتكم التحيات المدهشات، والتسليمات المرعشات، حضرات الأساتذة الأفاضل: الشيخ

محمد والشيخ أحمد عبد الجواد، وحضرة الحاج محيى الدين أفندى حمادة، وإبراهيم أفندى اللقانى، والسيد محمود أفندى الخوجة ومحمد على أفندى. ومن ظنى أنى سأحضر إلى دمشق يوم الخميس ١٦ من شعبان، لأرفع إلى الأستاذ ما أستطيع من شكره، على مبادأة (عبده). بالإحسان، رفع الله قدركم، وأعلى ذكركم، والسلام.

-٢-

سبحانك اللهم وبحمدك (٢٢١)..

يا مجيد علمنى ما أخاطب به عبدك المجيد، جلببته مجدك، وأشعرته ودك، وأغزرت عليه فى البيان نعمتك، وأنبعت من جنانه حكمتك، فبذ القائلين بفصاحته، وملك مشاعرنا ببلاغته. ثم يصفنى وصف الأصفياء، ويومى إلى بإشارة الأولياء، ولست مما قال فى رطب ولا عنب، ولا كعوب ولا ركب. فاجزه اللهم عن حسن ظنه نورا يواصل السعى بين يديه، وأثبه عن صدق ولائه صفاء يكشف من سبحات وجهك عليه.

أخى: الحمد لله، ما أظن أن اثنين تواصلا على ما تواصلنا، تواصلنا على لحمة روحانية لم تخالطها أهواء حيوانية، وحكم الأرواح يتبعها فى الدوام، لا تؤثر عليه عوارض الأجسام، اللهم إلا أن الحواس الظاهرة، يوحشها البعد عن طلعتكم الزاهرة، ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة. فروحى من روحك فى نعيم مقيم، وسرور بلذة الصفو مستديم، وحسى من حسك ما بين وحشة تكدره، ودهشة إن شاء الله تغمره. وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد، ولنا فى كل سماع على صحتكم سرور جديد.

رسالة إلى أحد العلماء (٢٢٢)

حضرة الأستاذ . .

كأن القدر يريد أن يكون ما بيني وبينك سرا مكتوما، ومضمرا يأبى أن يكون مرقوما، فقد حاولت مئين من المرات أن أكتب إليك، وكانت العوائق تأتي تحول دون ذلك، كأنني كنت أحاول فتح قلعة، أو محو بدعة، وها أنا ذا اليوم «الجمعة»، عقدت العزم على ألا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب إليك، أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور، بما تعلم من كثرة الشواغل، وأرجوك ألا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به، وألا تجعل لفضل في ذلك نهاية، والسلام.

رسالة إلى أحد الكرماء(٢٢٣)

لو كان فى الثناء، وملازمة الدعاء، وحفظ الجميل، والقيام بالخدمة جهد المستطيع، ما يفى بشكر من يفتتح باب المحبة، ويبدأ بصنائع المعروف، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه، ولكن أنىّ يكون فى ذلك وفاء والمحبة سر نظام الأكوان، والإحسان قوام عالم الإمكان، والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض، والمفتتحون لأبواب الغرف على هذه النسبة الجليلة منه، فليس لى إلا أن ألجأ إلى الله فى مكافأة فضيلتكم على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم، ثم أسلّى نفسى عن عجزى بما أخيل أن كرمكم سيروى.

سيكفى الكريم إخاء الكريم ويقنــع بالـود منه نــوالا

وبعد هذا، أرجو عفوكم عن التقصير فى المبادرة إلى المكاتبة، لأنى شغلت بما شغلنى عن نفسى، ولكن زالت العوارض والحمد لله، وفاتنى لهذا العذر تهنئتكم بالعيد، وإنما للمؤمن كل يوم بربه عيد، فنهنئكم برضاء الله عنكم، وتقبل صالح الأعمال منكم، وسلامى على نجلكم ومن ينتمى إليكم، والله يحفظكم.

رسالة إلى أحد الأصدقاء (٢٢٤)

سيدى العزيز . .

وافانى كتاب سيد الأحباب، وصفوة الأنجاب، مبتسما عن الدر النظيم، وراويا الذوق السليم، متهللا بسناء منسيه، معجبا ببهاء ممليه، جاء بعد ما حل منازل الجلال، ودار دورة الإقبال، ولولا رسل من شوقى إليه، تزاحمت أقدامها لديه، فساقته يد الأقدار، وقادته قود الأوطار، لطال به التسيار «وبرح بى» الانتظار . وصل إلىّ بعد اثنى عشر يوما من تاريخ كتابته، وإنى أقسم به لو زاد فى غيبته، وجاء زاهيا بحليته، تائها فى جلالته، متقلدا حسام حجته، مستشهدا بعدول من حاشيته، على ما نسبت من المطل إلى مودته، لما أقنعنى دليله، ولا ألزمنى تعليله، لقابلته بحسابه، وسكنت من ضبابه، ولحاكمته محاكمة الود، بين يدى حبى المستبد، ولجازيته جزاء نافر أتعب فى الطلب، وشارد أوغل فى الهرب، ثم عنى بحكم الغلب، أو معشوق بديع الجمال، بالغ فى الدلال، حتى أعيا المحتال، ثم ابتلى بغرام العشاق، فابتغى - وهو البغية - وصل المشتاق، ولعملت له من أشعة البصر حبالا، أوسعه بها احتبالا، فيعز عليه الخلاص، ويمتنع المناص، فلا يبرح عن ناظرى، ما دام ناظرى، ولأبرمت له مبارم العقل عقالا، أوثقه به اعتقالا، وأزيد فى قيوده سلاسل من الفكر خفافا وثقالا، حتى لا يغيب عن الذهن انتقالا، ولا عن الخيال زوالا، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه، فيخشى من توانيه .

علمنى كتابك كيف تناجى الأرواح أشباحها، والجراثيم أدواحها، أو كيف تحادث العقول أفكارها، والقلوب أسرارها، تباينت أجسامنا فى عالم الكون

والفساد، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد، وترفعت نفوسنا عن معارك الأضداد، فتعالينا في جوهر الوداد عن الأنداد، فاتحدنا وليس بعد اختلاف، وامتزجنا ولا عن افتراق، وكان واحدنا من صاحبه في مكان الشرف من الفتوة، والكرم من المروة، والقوة من العدل، والكرامة من الفضل، والعلم من الرشاد، والحكمة من السداد، وأستغفر الله أن أكون منك في مقام الأستاذ، فتفاوت النسب نوع من الجذاذ [٢٢٥]، لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك، وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك، ولم يذكر ناسيا لسابق ودك، ولم ينبه غافلا عن ذكرك، ولكن كان نورا على نور، وفصلا من كتاب عملك المبرور، وسعيك المشكور، ونعمة تشتهي النفس دوامها، ونغمة يلذ للسمع تكرارها.

سرني ما دل عليه كتابك من كمال صحة والدك الماجد، وإخوتك الأماجد، وأعضاء عائلتك الكريمة، وأنجالك بضعة كمالك.

رسائل إلى بعض الأصدقاء

ـ ١ ـ

مولانا (٢٢٦) الأستاذ العلامة، نفعنا الله بمحبته . .

وصل إليّ كتابك، تسطع فيه آدابك، ويفيض منه العقل، ويضيء منه الإخلاص والصدق، وما أعظم فضل الله على، فى توجه عنايتك إلى، تعين إظهار الحق بعد خفائه، وهدم الباطل بعد شموخ بنائه، ولقد أوسع مولانا فى التفضل على العاجز عن شكره، المقيم على نشر فضله، وإعلاء ذكره، وأسأل الله أن يتكفل بإثابة مولانا الأستاذ على ما يغمرنا به من نعمة الخطور بباله، وجريان ذكرنا فيما يخط قلمه أو ينطق لسانه .

ـ ٢ ـ

تناولت (٢٢٧) كتابك، ولم يذكر منى ناسيا، ولم ينبه لذكرك لاهيا، فإنى من يوم عرفتك لم يغب عنى مثالك، ولا تزال تتمثل لى خلالك .

لو كشف لك من نفسك ما كشف لى منها لفتنت بها، ولحق لك أن تتيه بها على الناس أجمعين، ولكن ستر الله عنك منها خير ما أودع لك فيها، لتزينها بالتواضع، وتجملها بالوداعة، ولتسعى إلى ما لم يبلغه ساع، فتكون قدوة لإخوانك فى علو الهمة، وبذل ما يعز على النفس فى نفع الأمة، زادك الله من نعمه، وأوسع

لك من فضله وكرمه، ومتعنى بصدق ولائك، وجعلك لى عوناً على الحق الذى أدعو إليه، ولا أحيا إلا به، وله، والسلام.

-٢-

لو (٢٢٨) عرضت علي نعم الله، وفيها عزة الأمراء، وبزة الأغنياء، ووفاء الأولياء، لما اخترت منها غير الوفاء، ولعددت نفسي به أسعد السعداء، هذه خلتي - تقبلها الله - وفيها لمهجتي إحياء، بهذا تعلم ما أدخلت من السرور على، فيما كتبت إلي. ولو جعل الله للمحبة شكرا أوفي بحقها منها لبذلته، ولو قدر لها أجرا أجزل عائدة منها نفسها لا لتمسته وقدمته... نعم كنت وجهت كتابى إلى شيطانك، فلاقى الكتاب أكرم نفس فيك، فانصرف والحمد لله عنك إلى حيث لا أراه، فاهنأ بكرم محتدك، وزكاء منماك، والسلام.

رسالة فى الشكر إلى صديق [٢٢٩]

لك فى قلوبنا من المودة ما يزكيه سناؤك، وفى مناطقنا من الحمد ما يوجبه كمالك، وفى صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهاؤك، وما بيننا من المودة لا تحده مدة، ولا تخلق له جدة، نعيذه من حاجة للتجديد، واستدعاء للمزيد، فلا المواصلة تربيه، ولا المجاهلة توهيه.

نعم، إن ما يحفظ لك فى الأنفس هو تجلى فضلك، ومثال علائك ونبلك، وذلك الخالد بخلود الأرواح، الباقى فى تفانى الأشباح.

وبعد، فقد تلقيت منك كتابا يبوح بسر المحبة، وينشر طى الصداقة فيه تبيان وجدانك مما وجدنا، وتأثرك على ما فقدنا، فكان نبأ عما نعلم، وقضاء بما نحكم. ولكن شكرنا لك فضل المراسلة، وأريحية المجاملة، والله يتولى إيفاءك مثوبة تكافئ وفاءك.

رسالة جوابية

ولدنا الفاضل[٢٣٠] . . .

أشكرك لما كتبت إلى أولا ، ولما كتبت وأهديت ثانياً ، وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك ، وفضله العظيم في إخلاص مودتك ، وأسأله أن يجعل ذلك كله في سبيله ، وأن يجعل ثمرته خيرا للإسلام والمسلمين ، والسلام .

تهنئة بالترقية

ولدى النجيب[٢٣١] . . .

أنت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك ، وليس عندى من عبارة تفى بما تعلم من ذلك ، وهذا ـ إن شاء الله ـ أول سلم ترقى به إلى غاية ما يسرى إليه استعدادك ، والسلام .

سنة ١٨٩٣

رسائل فى التعزية

- ١ -

أعلام[٢٣٢]. السيادة، وأصحاب السعادة، حضرة سعادتلو الأمير محمد باشا، وحضرة سعادتلو الأمير محيي الدين باشا.

هذا ما وعد به الرحمن وصدق المرسلون، ألا إلى الله تصير الأمور، «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

اليوم غشيتني غاشية الغم، ودهتني داهية الهم. اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين، ولم يخص الأقربين حتى عم جميع الموحدين، ولم يمس ذوى الأرحام حتى زعزع مجد الإسلام. اليوم شاع على الألسن، وتحدث الكافة أن جناب الأمير الشهير صرف نظره العالى عن مظاهر الحياة الدنيا، واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى، وسار بروحه الشريفة عن عالم الفناء، إلى ما أعد له من منازل الكرامة فى دار البقاء. قد اختار لنفسه ما اختاره الله له، من الاختصاص بجواره الكريم، والاتصال بنور وجهه العظيم. نظر الله إلينا بعين الجبروت، ليصعد بجناب الأمير إلى أعلى الملكوت. سار الأمير إلى ربه، وترك المؤمنين بلا قيم عليهم، ولا وصى يعيد مجدهم إليهم. ولولا اليقين بأنكم أشباله، ولم تفتكم مزاياه وخلاله، لما تعزت الأنفس فى البقاء بعده، وللحقنا به اختيارا لما عنده. كل قول يقال فهو دون محيط الفكر والنظر، ومقام الأمير أجل من أن تصل إلى سرادقاته أشعة البصائر والفكر. وليس من كلمة أجمع لكلماته، ولا قول أوفى بفضائله، سوى أنه الأمير عبد القادر الجزائرى، فهى منتهى وصف

الواصفين، وغاية مدح المادحين، وكفى فى مصيبة أهل الإيمان أن يقال: أصبحوا بلا أمير، وحسبهم تعزية عن مصابهم أنكم بنوه، وورثة فضله ومعززوه.

ـ ٢ ـ

إن[٢٣٣] كان للحادثات غالب من الهمة، ودافع من العزيمة، ففى همتكم ما يعرك أذن الدهر، ويضرب ناصية الزمان. وإنما أنتم بمكان من منعة النفس، تمر الملمات، دون أدناه، تتهيب النظر إليه، فضلاً عن الوثبة عليه، فلا يفزعكم جائشها، ولا يستفزكم طائشها. هذا الذى يعزينى بعض التعزية، إذا طاف على طائف الكدر مما ألم بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم.

على أن يقينكم بالله، وتسليمكم لقدره، هو أعلى وأكمل من أن يخالطه جزع من الفراق، وإن كان مر المذاق. فإن من سار عنكم، أقبل على رحمة من الله ورضوان، فهو فى جوار ربه متمتع بلذة قربه، وإن له لفخرا بين السابقين، ورفعة بين المقربين، بما أسستم من مجد شامخ، وشرف باذخ، فضاعف له النعمة فى حياته الأبدية جنة بالصالحات، وبهجة بالباقيات، واختار الله له داراً لو خير بين ساعة فيها والتخليد فى هذه الدار الفانية لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير. نعم يأسف لما أسفتم، ويألم بما ألمتم، فعزوا أنفسكم تسروه وطيبوا بالقضاء نفسا تفرحوه، واذكروا منزلته فى الصديقين تغبطوه.

هذا ما أقدمه إليكم، وهو نزر مما تطويه معارفكم، غير أنه مما أناجى به نفسى تصبرا وأحدثها به تجلدا، والله أعلم بما شعر به وجدانى عندما بلغ إلى الخبر. ولقد كان من الفرض أن أبادر بعرض إحساسى قبل هذا الوقت، إلا أن عقابيل[٢٣٤] العلة كانت تمنعنى النظر فى الأخبار، حتى انقشع عنى حجابها من مدة قريبة، وما أنا بالناسى وإن أنست الحوادث ذكرى، وما أنا بالقاطع وإن زينت الأيام هجرى، فصبر جميل، وما العفو عن تقصيرى عليكم بعزيز. ومأمولى عرض تحياتى على مقام دولة الباشا، والله يحفظكم للمحبة ويبقيكم للشرف.

ـ ٣ ـ

بسم(٢٣٥) الله المحمود في السراء والضراء . .

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون. لا حيلة في القضاء ولا أنجع في تلطيفه من الرضاء. وإن في قوة إيمانك، وسطوع يقينك، وكمال عقلك لكفاية في الإنابة إلى الله تعالى، والرغبة فيما لديه من عظيم الأجر، وجزيل الثواب، والتطامن لأحكامه، بقلب شاكر، ولسان ذاكر. وإن مصيبة الفقد وإن جل خطبها، وعظم على النفس خطرها، إلا أن الله تعالى أعد عنده للصابرين أكرم المنازل وأرقى مراتب القرب لديه، وكفى بالصبر فضلاً أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون، يقول الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧)، والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون:

وما الدهر والأيام إلا كما ترى ... رزية حر أو فراق حبيب

ولقد كان، حضرتكم في غنى عن تعزية الأحباء، وتسلية الأصدقاء بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الأيام، وثبات يهزم غوائل الزمان. وكان يمنعنا الحياء أن نذكر سيادتكم بما أنتم أعلم، وأن نقدم إليكم ما هو لديكم أعلى وأرفع، ولكن هذه كلمات نسلي بها خواطرنا على ما ألم بها، من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم، وابتلى به إيماننا وإيمانكم، ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (هود: آية ٧)، ونسأل الله تعالى أن يجعل لكم من مثوبته عوضا على ما أخذ منكم وأن يفرغ عليكم الصبر، وأن يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة، وأن يرفع مقامها أعلى عليين، وأن يطيل بقاءكم، ويديم عزكم ومجدكم. وعليكم مني مزيد السلام، وإلى جنابكم الرفيع فائق الاحترام.

رسـالة جـوابية[٢٣٦]

لم يلاقنا الدهر إلا بما ألفناه، وما أنكرنا عليه شيئا عرفناه. وقد جبل الله هذه الحياة من الشوب، وأقام حوباءها من الحوب، فلا تخلص لها منفعة من مضرة، ولا تخلو لها مبرة من معرة. سيطت[٢٣٧] فيها الحسنات بالسيئات، ومزجت الطيبات بالخبيثات، وإن الزمان عركنى وعركته، وضرسنى وضرسته؛ فلئن ضعفت عن كسر شوكته، فلا والله ما فلنى بقوته. ولئن صدعنى[٢٣٨]، فما صدعنى[٢٣٩]. وماذا يصنع بمن ينزل أرزاءه حيث ينزل الناس نعماءه، لا يلاقى الرضا عندى إلا ما يرضيه، ولا ينال الجزع منى إلا ما يريده. أعطيت من اليقين مذبة أطرد بها ذباب الهموم، ومن العزيمة جنة لا تخترقها الغموم. هذا إذا لم أجد من المصيبة خلفا، ولم أملك لها من العوض طرفا، فكيف وقد وفر الله علىَّ النعمة فى بنوتك، وأجزل لى الخلف فى أخوتك؟ وأسأل الله أن يطمس عين السوء أن تصل إليك.

رسالة إلى الشيخ على الليثى (٢٤٠)

سيدى الأستاذ الأكمل . متع الله الفضل ببقائه .

السلام على المولى ورحمة الله وبركاته . وبعد . .

فقد تناولت الكتاب الكريم من المولى العظيم والأب البر الرحيم ، وكان حظى من المسرة بنبأ صحته يماثل نصيبى من فضله ومنته .

وليس من وسع القلم أن يصف ما يفيضه المولى من هوامى الكرم ، ونوامى العوارف والنعم . وكفى نعمة أن يثق المولى بحسيبه ، ويجعل حسن ظنه به من أجزل نصيبه ، ولهذا لا أطيل الكلام ، فيما تعجز عنه الأقلام ، وتقصر عن بلوغه الأحلام . وإن لمولاى أن يمن على بدوام الالتفات إلى ، على ما فى من تقصير ، وباع فى الكلام قصير .

وكتاب الأمير شكيب أبعث به إليه اليوم ، وليس فى تأخيره على لوم ، فإن البوسطة لا تقوم إلا فى يوم واحد فى كل أسبوع . وقد وصلنى اليوم كتاب منه يسألنى فيه تقبيل أيديكم ، ومن لى بذلك اليوم وأن أكون فى ناديكم ؟! وقد أجد فى كلام ذلك الأمير طلاوة بعد لقاكم ، وأذوق من حلاوة كأنها من جناكم ، فيظهر أنه نال من الأستاذ على قصر الإقامة معه فوق ما نال منى ، وكرع من دنه فوق ما ارتشف من دنى ، فانتقل احتسابه فى الأدب عليه ، وتحول انتماؤه فى الفضل إليه ، فكان بذلك أرقى حسبا ، وأشرف نسبا ، شاء مولاى أو أبى .

والشيخ عبد الكريم سلمان وسعد أفندى زغلول يهديانكم من السلام ألوانا ، ويسوقان من التحيات إلى سيادتكم زرافات ووحدانا ، ويذكران لكرمكم فضلاً

وامتناناً، ويسألان من تحاياكم عطفا وحنانا، وأن تجعلوا لهما من نظركم مكانا، ومن عنايتكم أركانا.

والمسئول من المولى أن يواصل من مننه بما يتحفنا به من لطائف كتبه، والله يطيل بقاءه، ويحفظ للمجد علاءه. ولعل تشريف الجناب العالى يسمح لنا بلقاء مولانا فى أوائل شهر أكتوبر، كما وردت به الأنباء، وسرت به ألباب الألباء. والسلام.

٩ صفر سنة ١٣٠٨

محمـــد عبـده

مقدمات وتعليقات

مقدمة رسالة الواردات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواجب وجوده، العام جوده، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم، ومن هو لأساطين الإلهيين خاتم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

أما بعد، فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله، الناشئ بإقليم مصر بخطة البحيرة، بقرية تسمى محلة نصر، خادم خدمة الحكمة، المعرض عن نحو الكلام والكلمة، المتخلى عن قيد لباس الطوائف، إلى فضاء اقتناص صيد المعارف. إنى كنت مشتغلاً بطلب العلوم، فبينما أنا حول الرياض أحوم، إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية. فشغفت بها حبا ولكن لم أجد من هى له طوية؛ فحرت فى أمرى، وأخذت أجيل فكرى. وكلما سألت أجابونى بأن الاشتغال بها حرام، أو قد نهى عنها علماء الكلام، فتعجبت شدة العجب، وغفلة الناقلين أعجب. وتفكرت فى سبب ذلك، فرأيته أن من جهل شيئا عاداه، ومن أخلد عن العلا يأباه، فوجدتهم كمن علك بلسانه ورق العناب فلا يدرى مرارة الحنظل، ولا حلاوة العسل. وبينما أنا كذلك، إذ أشرقت شمس الحقائق، فوضح لنا بها رقائق الدقائق، بوفود حضرة الحكيم الكامل، والحق القائم، أستاذنا السيد جمال الدين الأفغانى، لا زال لثمار العلوم جانيا، فرجوناه فى شىء من ذلك، فأجاب والحمد لله على ذلك، وكان ذلك فى سنة ١٢٩٠هـ فنلنا بذلك طرائف التحف، فأومأ إلينا بكليات هذه جزئياتها، وآيات هذه بيناتها، وذلك على فترة من الحكمة، فكأنه غيث أرسل لإحياء تلك النعمة، وسميتها الواردات، فى سر التجليات، فأقول وبالله التوفيق(*):

(*) ما بعد ذلك من أمالى الأفغانى على تلميذه الأستاذ الإمام، حققنا نسبتها إليه، وأشرنا إلى ذلك فى تقديم هذه الأعمال، انظره فى الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى.

مقدمة شرح مقامات الهمذانى (٢٤١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال محمد عبده بن عبده بن خير الله المصرى : الحمد لله على ما أنعم . وصلى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلم . وبعد . . فقد عرف الناظرون فى كلام العرب، وشهد السالكون على مناهج الأدب، أن الشيخ أبا الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى المعروف ببديع الزمان، قد طبق الآفاق ذكره، وسار مثلاً بين الناس نظمه ونثره. فله الرسائل الرائعة، والمقامات الفائقة، والقصائد المؤنقة . وله المعانى العالية، فى العبارات الحالية، والأساليب الساحرة، فى الألفاظ الباهرة . وما أجدره بقول نفسه فى وصف زهير : «يذيب الشعر والشعر يذيبه، ويدعو القول والسحر يجيبه» . ولا حاجة للإطالة فيما ظهر حتى بهر، وبلغ شهرة الشمس والقمر .

ومن أشرف ما امتاز به كلامه، أنه يباهى كلام أهل الوبر رصانة ورفعة، ويمتزج بطباع أهل الحضر رقة ورواء صنعة . فبينما يخيل لسامعه أنه بين الأخبية والخيام، إذ يتراءى له أنه بين الأبنية والآطام .

وقد قالوا : إنه أنشأ من المقامات زهاء أربعمائة مقامة، لكن لم يظفر الناس منها اليوم بغير عدد قليل ينيف على الخمسين، طبع مجموعه فى الأستانة العلية . وهو على نزارته غزير الفوائد، كثير الفرائد، جم الفنون، متصرف فى شتى الشئون، يستفيد منه، ويهتدى به الناشئ فى التعليم . غير أن الانتفاع به كان عسيرا لسببين :

الأول : ما عاث به النساخ فى ألفاظه من تحريف يفسد المبنى، ويغير المعنى، وزيادة تضر بالأصول، وتذهب بالذهن عن المعقول، ونقص يهزع الأساليب،

وينقض بنيان التراكيب؛ فالناظر فيه إن كان ضعيفا ضل أو حار، وإن كان عريفاً لم يأمن العثار.

والوجه الثاني: غرابة بعض كلماته، وخفاء كثير من إشاراته، وغموض في تأليف بعض عباراته؛ فالمبتدئون بمعزل عن فهمه، وأهل التحصيل في عناء من تفهمه. فمست الحاجة في الاستفادة منه: أولا إلى تصحيحه، ورد لفظه إلى صريحه، وثانيا إلى تفسير غريبه، وتبيين خفيه، وتوضيح غامضه.

ولما كان على قصره، أنفع لطلاب الفصيح من غيره، وفي قلة ألفاظه، أبعث للأنفس على استحفاظه، عنى بعض حفدة العربية من سكان سوريا بطلب ما تتم به الفائدة من ذلك، فحملني إذ كنت في تلك الديار على النظر فيه، ووضع تعليق عليه يكشف عن خوافيه، ويسهل على طلاب معانيه أمر تعاطيه. فأجبت طلبه، وشكرت أدبه، واستعنت الله تعالى على العمل، وسألته الوقاية من الزلل، وزلة الخطل. وأقدمت على ذلك بلا سابق أقتفيه، ولا ذي مثال أحتذيه، ولا مادة لي إلا طبع عربي، وذوق أدبي، وأمهات اللغة الحاضرة، وأمثال للعرب سائرة، ومقالات لهم على الألسن دائرة. وعولت فيه على الاختصار، خوف السآمة من الإكثار، ولم أعد الغرض من تسهيل فهم الكتاب، لحديث العهد بالآداب. أما الآخذون في العلم رشدهم، والبالغون في المعرفة أشدهم، فأولئك لهم من نافذ الفهم ما يسبق التفسير، ويبلغ كنه المراد قبل التعبير، إلا أنهم، فيما أظن، سيحمدون قصدنا عند المطالعة إذا عرض الحرف الغريب والمعنى البعيد، فيغنيهم ما يجدون عن طول المراجعة، ويكفيهم البحث في معجمات اللغة، ويسرع إليهم بما عساه يبطئ عليهم من أنفسهم، ويثير ما ربما كان كامنا في مداركهم، بل قد يكون في الخطأ إن حققوه، هداية لصواب لو طلبوه، فالرجاء أن يحملوني من إنصافهم، على الفضل من محاسن أوصافهم.

وههنا ما ينبغي التنبيه عليه: وهو أن في هذا المؤلف من مقامات البديع، رحمه الله، افتنانا في أنواع الكلام كثيرة، ربما كان منها ما يستحي الأديب من قراءته، ويخجل مثلي من شرح عبارته، ولا يجمل بالسذج أن يستشعروا معناه، أو تنساق أذهانهم إلى مغزاه. وأعوذ بالله أن أرمي صاحب المقامات بلائمة تنقص من قدره،

أو أعيبه بما يحط من أمره، ولكن لكل زمان مقال، ولكل خيال مجال. وهذا عذرنا في ترك المقامة الشامية، وإغفال بعض جمل من المقامة الرصافية، وكلمات من مقامة أخرى، مع التنبيه على ذلك في مواضعه، والإشارة إلى السبب في مواقعه. وليس هذا العمل بدعاً، ولا من الممنوع شرعاً، فقد جرت سنة العلماء بالتهذيب والتمحيص، والتنقيح والتلخيص، وليس من منكر عليهم في شيء من ذلك. وإنما الممنوع أن يؤتى ببعض ذلك أو كله مع السكوت عنه فيكون تغريرا للناظر، وضلة للقاصر، ونسبة قول لغير قائله، وحمل أمر على غير حاملة. وهذا من الظاهر الجلي عند العارفين، وإنما يبعث على بيانه سوء ملكة المتمشدقين.

وأما تصحيح متن الكتاب، فقد وفق الله له بتعدد النسخ لدينا، وإن عظمت مشقة الاختيار علينا، لتباين الروايات، واتفاق الكثير منها على ما لا يصح معناه، ولا يستجاد مبناه، فكان الوضع اللغوى أصلاً نرجع إليه، والاستعمال العرفي مرشدا نعول عليه، ومكان المصنف بين أهل اللسان ميزانا للترجيح، ومقياسا نعتد به في التصحيح. فإن تعددت الروايات على معان صحيحة، أثبتنا في الأصل أولاها بالوضع، إما لتأيده بالاتفاق مع أكثر الروايات، وإما لتميزه بقرب معناه إلى ما احتف به من أجزاء القول، ثم أشرنا إلى الروايات الأخرى في التعليق. وإن كانت في حاجة إلى التفسير، جئنا به على طريقتنا من الاختصار، فجاء الكتاب والحمد لله صافيا. وأرجو أن يكون التفسير بتيسير الله وافيا. وأسأل الله ألا يحرمني مثوبة العمل عنده، وأن يكفيني من الأمر ما يكفي الرب عبده، وهو ولي الإجابة، وإليه الإيابة.

تقديم نهج البلاغة

حَمْدُ الله سياج النعم، والصلاة على النبى وفاء الذم، واستمطار الرحمة على آله الأولياء، وأصحابه الأصفياء، عرفان الجميل، وتذكار الدليل.

وبعد، فقد أوفى لى حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) مصادفة بلا تعمل، أصبته على تغير حال وتبلبل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية، وحيلة للتخلية، فتصفحت بعض صفحاته، وتأملت جملا من عباراته، من مواضع مختلفات، ومواضيع متفرقات، فكان يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شبت، وغارات شنت، وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة[٢٤٢] وللريب دعارة[٢٤٣]، وأن جحافل الخطابة، وكتائب الذرابة[٢٤٤] فى عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج[٢٤٥]، والقويم الأملج[٢٤٦]، وتمتلج[٢٤٧] المهج، برواضع الحجج، فتفل من دعارة الوساوس، وتصيب مقاتل الخوانس[٢٤٨]. فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر، ومرج[٢٤٩] الشك فى خمود، وهرج[٢٥٠] الريب فى ركود. وإن مدبر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين على ابن أبى طالب.

بل كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع، أحس بتغير المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدنى فى عالم يعمره من المعانى أرواح عالية، فى حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية، توحى إليها رشادها، وتقوم منها مرادها، وتنفر بها عن مداحض المزال، إلى جواد الفضل والكمال.

وطورا كانت تنكشف لى الجمل عن وجوه باسرة[٢٥١]، وأنياب كاشرة وأرواح فى أشباح النمور، ومخالب النسور. قد تحفزت للوثاب، ثم انقضت للاختلاب، فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها، واغتالت فاسد الأهواء، وباطل الآراء.

وأحيانا كنت أشهد أن عقلاً نورانيا، لا يشبه خلقا جسدانيا، فصل عن الموكب الألهى، واتصل بالروح الإنسانى، فخلعه عن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النور الأجلى، وسكن به إلى عمار جانب التقديس، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس.

وآنات كأنى أسمع خطيب الحكمة، ينادى بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمة، يعرفهم مواقع الصواب، ويبصرهم مواضع الارتياب، ويحذرهم مزالق الاضطراب، ويرشدهم إلى دقائق السياسة، ويهديهم طرق الكياسة، ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة، ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير.

ذلك الكتاب الجليل، هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضى رحمه الله، من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه. جمع متفرقه وسماه بهذا الاسم (نهج البلاغة)، ولا أعلم اسما أليق بالدلالة على معناه من هذا الاسم، وليس فى وسعى أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دل عليه اسمه، ولا أن آتى بشيء فى بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار، كما ستراه فى مقدمة الكتاب، ولولا أن غرائز الجبلة، وقواضى الذمة، تفرض علينا عرفان الجميل لصاحبه، وشكر المحسن على إحسانه، لما احتجنا إلى التنبيه على ما أودع (نهج البلاغة) من فنون الفصاحة، وما خص به من وجوه البلاغة، خصوصاً وهو لم يترك غرضاً من أغراض الكلام إلا أصابه، ولم يدع للفكر ممرا إلا جابه.

إلا أن عبارات الكتاب لبعد عهدها منا، وانقطاع أهل جيلنا عن أصل لساننا، قد نجد فيها غرائب ألفاظ فى غير وحشية، وجزالة تركيب فى غير تعقيد، فربما وقف فهم المطالع دون الوصول إلى مفهومات بعض المفردات أو مضمونات بعض الجمل، وليس ذلك ضعفا فى اللفظ، أو هنا فى المعنى، وإنما هو قصور فى ذهن المتناول.

ومن ثم همّت بي الرغبة أن أصحب المطالعة بالمراجعة، والمشارفة بالمكاشفة، وأعلق على بعض مفرداته شرحا، وبعض جمله تفسيراً، وشيء من إشاراته تعيينا، واقفا عند حد الحاجة مما قصدت، موجزا في البيان ما استطعت، معتمدا في ذلك على المشهور من كتب اللغة، والمعروف من صحيح الأخبار. ولم أتعرض لتعديل ما روى عن الإمام في مسألة الإمامة أو تجريحه، بل تركت للمطالع الحكم فيه، بعد الالتفات إلى أصول المذاهب المعلومة فيها، والأخبار المأثورة الشاهدة عليها، غير أني لم أتحاش تفسير العبارة، وتوضيح الإشارة، لا أريد في وجهي هذا إلا حفظ ما أذكر، وذكر ما أحفظ، تصوُّنا من النسيان، وتحرزا من الحيدان، ولم أطلب من وجه الكتاب إلا ما تعلق منه بسبك المعاني العالية في العبارات الرفيعة، في كل ضرب من ضروب الكلام، وحسبي هذه الغاية فيما أريد لنفسي، ولمن يطلع عليه من أهل اللسان العربي.

وقد عني جماعة من أجلة العلماء بشرح الكتاب، وأطال كل منهم في بيان ما انطوى عليه من الأسرار، وكل يقصد تأييد مذهب، وتعضيد مشرب. غير أنه لم يتيسر لي ولا واحد من شروحهم إلا شذرات وجدتها مقولة عنهم في بطون الكتب. فإن وافقت أحدهم فيما رأى، فذلك حكم الاتفاق، وإن كنت خالفتهم فإلى صواب فيما أظن. على أني لا أعد تعليقي هذا شرحا في عداد الشروح، ولا أذكره كتابا بين الكتب، وإنما هو طراز لنهج البلاغة، وعلم توشى به أطرافه.

وأرجو أن يكون فيما وضعت من وجيز البيان، فائدة للشبان، من أهل هذا الزمان، فقد رأيتهم قياماً على طريق الطلب، يتدافعون إلى نيل الأرب، من لسان العرب، يبتغون لأنفسهم سلائق عربية، وملكات لغوية، وكل يطلب لسانا خاطبا، وقلما كاتبا، لكنهم يتوخون وسائل ما يطلبون في مطالعة المقامات، وكتب المراسلات، مما كتبه المولدون، أو قلدهم فيه المتأخرون، ولم يراعوا في تحريره إلا رقة الكلمات، وتوافق الجناسات، وانسجام السجعات، وما يشبه ذلك من المحسنات اللفظية، التي وسموها بالفنون البديعة، وإن كانت العبارات خلوا من المعاني الجليلة، أو فاقدة الأساليب الرفيعة.

على أن هذا النوع من الكلام بعض ما في اللسان العربي، وليس كل ما فيه. بل

هذا النوع إذا انفرد يعد من أدنى طبقات القول، وليس فى حلاه المنوطة بأواخر ألفاظه ما يرفعه إلى درجة الوسط. فلو أنهم عدلوا إلى مدارسة ما جاء عن أهل اللسان خصوصا أهل الطبقة العليا منهم، لأحرزوا من بغيتهم ما امتدت إليه أعناقهم، واستعدت لقبوله أعراقهم. وليس فى أهل هذه اللغة إلا قائل بأن كلام الإمام على بن أبى طالب هو أشرف الكلام وأبلغه بعد كلام الله تعالى وكلام نبيه ـ وأغزره مادة، وأرفعه أسلوبا، وأجمعه لجلائل المعانى.

فأجدر بالطالبين لنفائس اللغة، والطامعين فى التدرج لمراقيها، أن يجعلوا هذا الكتاب أهم محفوظهم، وأفضل مأثورهم، مع تفهم معانيه فى الأغراض التى جاءت لأجلها، وتأمل ألفاظه فى المعانى التى صيغت للدلالة عليها ليصيبوا بذلك أفضل غاية، وينتهوا إلى خير نهاية، وأسأل الله نجاح عملى وأعمالهم، وتحقيق أملى وآمالهم.

كتب المغازي.. وأحاديث القصاصين(٢٥٢)

سألني سائل عن الرأي فيما يوجد بأيدي الناس من كتب الغزوات الإسلامية وأخبار الفتوح الأولى، وعما حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى كبار أصحابه، رضي الله عنهم، وهل يصح الاعتماد على شيء منها؟؟ . . ثم خص في السؤال كتاب الشيخ الواقدي الموضوع في فتوح الشام، وذكر لي أن بعضا من معربدة هذه الأيام المعتدين على مقام التصنيف، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم، ومثابة يرجعون إليها في روايتهم، ليتخذوا منه حجة على ما يرجونه من تشويه سيرة المسلمين الأولين، وليسلكوا منه سبيلا إلى إذاعة المثالب ونشر المعايب. وأن بعضا آخر من ضعفة العقول من المسلمين ظنوا أن هذا الكتاب من أنفس ما ذخر الأولون للآخرين، وأنه جدير أن يحرز في خزائن الكتب السياسية، وحقيق أن ينقل من اللغة العربية إلى غيرها من اللغات. .

فأجبت السائل بجواب أحببت لو ينشر، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر.

لم يرزأ الإسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون إليه، وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين. وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الأولى، حتى عرف ذلك في عهد الصحابة، رضي الله عنهم، بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، في حياته، حتى خطب في الناس قائلاً: «أيها الناس قد كثرت علي الكذابة. ألا من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . . أو كما قال.

إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الأمويين، فكثر

الناقلون، وقل الصادقون، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون حفظه، خوفا من التحريف فيما يؤخذ عنهم، حتى سئل عبد الله بن عباس، رضى الله عنه: لم لا تُحَدِّث؟ فقال: لكثرة المحدثين. وروى عنه الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال: ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث.

ثم اتسع شر الافتراء، وتفاقم خطب الاختلاق، وامتد بامتداد الزمان، إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين، والعلماء العاملين، ووضعوا للحديث أصولا، وشرطوا فى صحة الرواية شروطا، وبينوا درجات الرواة وأوصافهم، ومن يوثق به ومن لا يوثق به منهم. وصار ذلك فنا من أهم الفنون سموه فن الإسناد، وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد، وامتاز الحق من الباطل، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها، وثبت علم ذلك عند كل ذى إلمام بالديانة الإسلامية.

ولقد روى عن الإمام مالك، رضى الله عنه، أنه كان قد كتب كتابه (الموطأ) حاويا أربعة عشر ألف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، فلما سمع حديث: «قد كثرت على الكذابة، فطابقوا بين كلامى والقرآن، فإن وافقه وإلا فاطرحوه». عاد إلى تحرير كتابه، فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف. ومن راجع مقدمة الإمام مسلم، علم ما لحقه من التعب والعناء فى تصنيف صحيحه، واطلع على ما أدخله الدخلاء فى الدين وليس منه فى شيء.

لم يخف على أهل النظر فى التاريخ أن الدين الإسلامى غشى أبصار العالم بلامع القوة، وعلا رءوس الأمم بسلطان السطوة، وفاض فى الناس فيضان السيول المتحدة، ولاحت لهم فيه رغبات، وتمثلت لهم منه مرهبات، وقامت لأولى الألباب عليه آيات بينات. فكان الداخلون فى الدين على هذه الأقسام: قوم اعتقدوا به إذعانا لحجته واستضاءة بنوره، وأولئك هم الصادقون. وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه، واتسموا بسمته، إما لرغبة فى مغانمه، أو لرهبة من سطوات أهله، أو لتعزز بالانتساب إليه، فتدثروا بدثاره، لكنهم لم يستشعروا بشعاره[٢٥٣]. لبسوا الإسلام على ظواهر أحوالهم، إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم، فهم كانوا على أديانهم فى بواطنهم، ويضارعون المسلمين فى ظواهرهم.

وقد قال الله فى قوم من أشباههم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: آية ١٤).. فمن هؤلاء من كان يبالغ فى الرياء، حتى يظن الناس أنه من الأتقياء؛ فإذا أحس من قوم ثقة بقوله، أخذ يروى لهم أحاديث دينه القديم، مسندا لها إلى النبى صلى الله عليه وسلم، أو بعض أصحابه. ولهذا نرى جميع الإسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الإسلامية، على أنه أحاديث نبوية؛ إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها، ونهوا عن النظر فيها.

ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التى لو رسخت معانيها فى العقول أفسدت الأخلاق، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية، وفترت الهمم عن الانتصار للحق، كالأحاديث الدالة على انقضاء عمر الإسلام (والعياذ بالله). أو المطمعة فى عفو الله مع الانحراف عن شرعه، أو الحاملة على التسليم للقدر بترك العمل فيما يصلح الدين والدنيا. كل ذلك يضعه الواضعون قصدا لإفساد المسلمين، وتحويلهم عن أصول دينهم، ليختل نظامهم، ويضعف حولهم.

ومن الكاذبين قوم ظنوا أن التزيد فى الأخبار والإكثار من القول يرفع من شأن الدين، فهذروا بما شاءوا، يبتغون بذلك الأجر والثواب، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب. وهم الذين قال فيهم ابن عباس: ما رأيت أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث. ويريد بأهل الخير أولئك الذى يطيلون سبالهم (٢٥٤)، ويوسعون سربالهم (٢٥٥)، ويطأطئون رءوسهم، ويخفتون من أصواتهم، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم؛ يحركون بالذكر شفاههم، ويلحقون بها فى الحركة سبحهم، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب: منقادون لحملة الحق، لا بصيرة لهم فى أحنائه، ينقدح الشك فى قلوبهم لأول عارض من شبهة، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل، فهم أغرار محرومون، يسيئون ويحسبون أنهم يحسنون. اهـ.

فهؤلاء قد يخيل لهم الظلم عدلا، والغدر فضلا، فيرون أن نسبة ما يظنون إلى أصحاب النبى مما يزيد من فضلهم، ويعلى فى النفوس منزلتهم، فيصح فيهم ما قيل: عدو عاقل، خير من محب جاهل. ومن هؤلاء وضاع كتب المغازى والفتوح وما شاكلها.

أما الشيخ الواقدى، فكان من علماء الدولة العباسية، ولاه المأمون القضاء فى عسكر المهدى، وكان تولى القضاء فى شرقى بغداد. قال ابن خلكان: وضعفوه فى الحديث، وتكلموا فيه. اهـ. أى عدوه ضعيف الرواية، ليس من أهل الثقة. ولذا نص الإمام الرملى، من علماء الشافعية: على أنه لا يؤخذ بروايته فى المغازى.

فإن كان هذا الكتاب المطبوع فى أيدى الناس من تصنيفه، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين. على أنى لو حكمت بأنه مكذوب عليه، مخترع النسبة إليه، لم أكن مخطئاً.

وذلك لأن الواقدى كان من أهل المائة الثانية من الهجرة، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هارون الرشيد، ويواصله ويكاتبه. وصاحب هذه المنزلة فى تلك القرون، إذا نطق فى العربية فإنما ينطق بلغتها، وقد كانت اللغة لتلك الأجيال على المعهود فيها من متانة التأليف، وجزالة اللفظ، وبداوة التعبير. والناظر فى كتاب الواقدى ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين فى أساليبها، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبى عبيدة وغيرهم، رضى الله عنهم، لا ينطبق على مذاهبهم فى النطق، بل كلما دقق المطالع فى أحناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين فى الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة، ولا يرى عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين، والرجل كان مدنى المنبت عراقى المقام. ولولا خوف التطويل لأتيت بكثير من عباراته، وبينت وجه المخالفة بينها وبين مناهج أبناء القرون الأولى فى التعبير. على أن ذلك لا يحتاج إلى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية.

فهذا الكتاب لا تصح الثقة به، إما لأنه مكذوب النسبة على الواقدى، وهو الأظهر، وإما لضعف الواقدى نفسه فى رواية المغازى، كما صرح العلماء. فلا تقوم به حجة للمتحذلقين، ولا يصلح ذخرا للسياسيين. ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الأنبياء المنسوب لأبى منصور الثعالبى، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة، أو بدء العالم، أو بعض حقائق المخلوقات المنسوبة إلى الشيخ السيوطى، وقصص روايات تنسب إلى كعب الأحبار أو الأصمعى، ومن شاكلهما ممن عرفوا بالرواية، فأولع الناس بالنسبة إليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء، ولا ثقة بما يندرج فيه.

والعمدة في النقل التاريخي كتب الحديث، كصحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفداء وأمثالهم.

وعلى أي حال، فلا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه.

هذا ما أردنا اليوم إجماله، فإن دعا إلى التفصيل داع عدنا إليه. والله الموفق للصواب.

مقدمة البصائر النصيرية(٢٥٦)

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن اتبعه فوالاه. (وبعد)، فقد رأيت وأنا فى «بيروت» مدة إقامتى بها سنة ١٣٠٤ من الهجرة(٢٥٧) كتابا فى المنطق يسمى «البصائر النصيرية» للإمام القاضى الزاهد زين الدين عمر بن سهلان الساوى، فنظرت إليه فإذا هو حاو مع اختصاره لما لم تحوه المطولات التى بأيدينا من المباحث المنطقية الحقيقية، وخال مع كثرة مسائله من المناقشات الوهمية التى لا تليق بالمنطق، وهو معيار العلوم، من مثل ما تجده فى «المطالع» وشروحها و «سلم العلوم» وما كتب عليه. ووجدته على ترتيب حسن لم أعهده فيما وقفت عليه من كتب المتأخرين من بعد الشيخ الرئيس ابن سينا ومن فى طبقته من علماء هذا العلم، فاستنسخت نسخة منه، وبقيت عندى كغيرها من الكتب، إلى أن حملنى النظر فيما يحتاج إليه طلبة العلم فى الجامع الأزهر من الكتب التى تليق بالمتوسطين منهم على إعادة النظر فى الكتاب، فقرأته كلمة كلمة، فزادت قيمته في نفسي، وعلت منزلته من رأيي، فعرضته على حضرة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومن حضر من أعضاء مجلس الإدارة، فأعجبوا به، ورأوا أنه من أفضل ما يهدى إلى الجامع الأزهر الشريف ليكون من الكتب التى تقرر دراستها فيه. على أن الكاتب وإن كان جزل العبارة صحيح البيان، إلا أن فيه ألفاظا وعبارات ومسائل اعتمد فى الإتيان بها على ما كان عليه أهل زمانه من درجة العرفان، وهى اليوم تحتاج إلى شىء من الشرح والإيضاح، فاستخرت الله تعالى فى وضع بعض تعاليق على ما رأيته محتاجا إلى ذلك، وأسأل الله أن ينفع به الطلاب ويجزل فيه الثواب.

كتاب أسرار البلاغة (٢٥٨)

اطلعت على كتاب أسرار البلاغة من تأليف الإمام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجانى، وسعيت فى طبعه، وقرأته درسا فى الجامع الأزهر.

وقد وضعه مؤلفه فى علم البيان والاستعارة والمجاز، وسلك المسلك الذى يوافق العقل البشرى سلوكه فى تصوير المعانى وتشخيصها على وجه تتأثر منه العقول بالأثر المطلوب من إبرازها لها.

ولم أر كتابا فى هذا الفن، لا بقلم متأخر ولا بقلم متقدم، يقرب من هذا الكتاب فى حسن الأسلوب وحياة المعنى ورونقه. ولقد كان كنزا مخفيا لا تصل إليه يد الباحث، حتى يسر الله لنا نسخة بعث بها إلينا أحد أهل العلم من طرابلس الشام. وكان فيها نقص وتحريف، فأرسلت أحد طلبة العلم إلى الآستانة العلية ليقابلها على نسخة هناك، ثم كمل تصحيحها أثناء التدريس، فكان ظهور هذا الكتاب من نعم الله على المشتغلين بهذا الفن الجليل. وهو جدير بأن ينتفع به الأستاذ ويقتطف منه التلميذ وتزين به كل مكتبة فى مشارق الأرض ومغاربها.

مفتى الديار المصرية

محمد عبده

بماذا صار الحيوان إنسانا(٢٥٩)

ومعنى كون المادة مستعدة للحيوانية: أنها قابلة للحياة، كالمواد العضوية التي يتكون منها الإنسان وغيره من الحيوانات. فهذه المادة بعد أن تكون بالحياة حيوانا لا تكون إنسانا بعوارض عليها بعد حيوانيتها، فتكون بتلك العوارض ذلك النوع الذي هو الإنسان، بل إنها تكون إنسانا بما كانت به حيوانا، لا فاصل بين الكونين ولا في التعقل الفعلي الحقيقي، بل هما كون واحد حقيقي. ويكفيك لإيضاح ذلك أن تعرف أن للإنسان مثلاً نفسا واحدة، وهو بهذه النفس حيوان وإنسان معا وبكون واحد.

الجنس والنوع والفصل(٢٦٠)

وبعض القوم صرح: بأن الفصل(٢٦١) علة فاعلية لحصة النوع(٢٦٢) من الجنس(٢٦٣)، فالناطق مثلا علة فاعلة للحيوانية التى فى الإنسان. وزعموا أنهم فهموا ذلك من كلام الشيخ ابن سينا، وهو وهم غير صحيح، وخبط فى فهم ما رأوه من عبارات الشيخ وغيره فى بيان مذهب أفلاطون وأرسطو فى وجود الجنس والنوع والفصل. وليس موضع تفصيله فى المنطق، وإنما هو باب واسع من أبواب الحكمة الأولى يبين فيه: هل للمعقولات الكلية وجود عقلى حقيقى مستقل عن الوجود الحسى، وليس دونه فى التحقيق الوجودى؟ وأن ذلك الوجود العقلى الحقيقى ينزل إلى الوجود الحسى فى أفراد كل نوع؟ وهو ما ذهب إليه أفلاطون، أو أن ذلك الوجود الحقيقى للكليات ليس إلا وجوداً واحدا، وهو موجود الحصص فى الأشخاص أو حصص الأجناس فى الأنواع؟ فكما تقول إن النوع ـ وهو الحقيقة ـ إذا وجد فى الخارج فتشخصه هو ذلك الوجود الخاص لا أمر آخر جعلها شخصاً وبقية العوارض تلحقها بعد اعتبارها موجودة بذلك الوجود دون أن يكون الوجود جزءا منها، كذلك تقول إن الناطق مثلا هو الوجود الخاص للحيوان فى الإنسان وبه صار نوعا بدون أن يكون جزءا من الحيوان؛ فوجود النوع والجنس والفصول وجود واحد وهو مذهب أرسطو.

الماهيات: حقيقية... واعتبارية[٢٦٤]

من المعروف أن ابن سينا ومن سبقه من أهل المنطق كانوا يراعون دائما فى تقرير قواعد المنطق أنها موازين للعلوم الحقيقية ودرك الحقائق المتقررة. وعندهم أن الماهيات الحقيقية المركبة فى الخارج لا تخلو من عام بمنزلة القابل وخاص مقوم له وهو الصورة النوعية. أما ماهية ليس لها عام يدخل فى أجزائها وهى مركبة، فلم يعرف عندهم.

والماهيات الاعتبارية لا اعتبار لها فى نظر طالب العلوم الحقيقية، والعدالة لم تخرج عن أنها كيف من الكيفيات يتركب فى وجوده الخارجى من عدة أمور تدخل فيه كما يدخل الحس وقوة الحركة وقوة الإرادة فى تركيب الحيوان، ثم ينتزع منها فصول تحمل عليه، فيمكن أن يقال: العدالة كيف أو خلق جامع للعفة وأخواتها.

التعريف باللوازم[٢٦٥]

إن البسائط لا يمكن أن يكون لها حد بالمعنى السابق، وهو المركب من مقومات الشيء، إذ البسيط لا مقوم له. ولكن البسائط تُعَرَّف أيضا كما أن المركبات تُعَرَّف، فيكون تعريف البسائط بالرسوم، وهو التعريف باللوازم، وتقوم الرسوم لها مقام الحدود للمركبات إذا كانت اللوازم بينة، فإن اللوازم البينة ما لا تحتاج إلى وسط فهي لازمة عن الذات، فتمثلها للذهن على وجه أشبه بتمثيل الحد للماهية المركبة. أما إن لم تكن بينة، بأن كانت محتاجة إلى وسط، فقد علمت أن ما ليس بينا لا يصح أن يكون معرفا لملزومه، كمساواة زوايا المثلث لقائمتين. فلو قصد باللوازم غير البينة شرح الحقيقة وتعريفها، لم يكن ذلك رسما لها، كما عرفت. أما إذا قصد بذكر اللوازم غير البينة تمييز الشيء بكونه بحيث يلزم عنه هذه اللوازم، أى ما حاله أن تعرض له هذه العوارض، أى تعريفه بأنه هو الشيء الذى تعرض له تلك العوارض، كان التعريف بتلك اللوازم غير البينة رسما يقوم مقام الحد أيضاً، لأن كون الذات هى الذات التى تعرض لها العوارض، أمر أعرف من الذات نفسها، إذ لم ينظر فيه إلا إلى كونها هى معروض العارض، وهذا أمر قد يعرف بالمشاهدة أو بغيرها، مع أن العارض غير بين اللزوم، كتعريفك النفس الناطقة فى الإنسان بأنها: قوه التى هى مناط اتصافه بالحكمة، فإن عروض الحكمة للإنسان لقوة فيه تزيد عن مجرد الحيوانية أمر معلوم لكل من ميز بين الإنسان وغيره، لكن كون ذلك لازماً من لوازم النفس الناطقة يحتاج إلى بيان طويل عريض.

سُبُل الحد (٢٦٦)

زعموا أن لا طريق للحد إلا التركيب، وقد علمت بيانه مما ذكره المصنف. وأنت تراه لا يتيسر لك إلا بعد معرفة أجزاء الماهية، وأنها أجزاء لها، وأنه لا جزء لها سواها، وأن منها العام والخاص، حتى يمكن لك التركيب على الوجه الذى يعتبر به التعريف حدا عندهم. ولا يخفاك أن طالب الحد لماهية ما كالإنسان مثلا لا بد أن يبتدئ بتمييز المحمولات التى تحمل عليها حملا عرضيا مما يحمل عليها حملا ذاتيا. فأول ما يبتدئ ينظر في الجوهر هل هو ذاتى أو غير ذاتى، وربما يحتاج ذلك إلى الدليل على نفى أنه عرضى، ثم ينتقل إلى الامتداد هل هو جوهر، حتى يصح أن يكون جزءا من الإنسان الذى هو جوهر، وحاجة ذلك إلى البرهان لا تخفى. وهكذا يستقرئ جميع ما يصح أن يكون فى الإنسان مبدأ لآثار تصدر عنه، حتى يأتى على آخر ذلك بالاستقراء الحاصر، وهو فى جميع ذلك يستعمل البرهان بضروبه لإثبات الجوهرية وجزئية الجزء للماهية، ويستعمل القسمة حتى يمحص الذاتى من العرضى والعام من الخاص، إلى أن تكمل لديه الجزاء ويصل إلى اليقين بأن لا جزء وراء ما وجد. وبعد هذا كله، يأخذ فى الترتيب، ولا يستغنى فيه عن القسمة، كما صرحوا به، وهذا من البديهيات التى لا تخفى على طلاب العلوم وهم يعترفون بها. فالموصل إلى الحد فى الحقيقة هو البرهان والقسمة والاستقراء، تتضافر الطرق الثلاثة فى كسبه. ولكنهم قالوا: إن الحد مفيد للتصور والبرهان، والقسمة والاستقراء مفيدان للتصديق، فكيف يتيسر التوفيق لو كان البرهان كاسبا للحد. لهذا حرصوا على أن ينفوا توسط البرهان وما معه فى تحصيل الحد، وأخذوا يضربون فى عماية أضلت عن الغاية المطلوبة للطالب من تحصل المنطق، ولو شاءوا لرجعوا إلى ما قرروه من أن الحد الحقيقى يتوقف على التصديق بوجود المحدود،

وما بينوا به ذلك من أن الحد علم ، ولن يكون علما حتى يكون حكاية لمعلوم ، ولا يكون الشيء معلوما حتى يكون حقيقة ثابتة ينعكس مثالها إلى الذهن ، ثم بعد ذلك كانوا ينتقلون إلى أن الوصول إلى كنه الحقيقة ، حتى يكون ما فى الذهن مثالا لذاتها لا لعرضها ، يحتاج إلى التمحيص بالدليل ، فإذا حصلت عندنا عدة تصديقات نشأ عنها فى الذهن عدة تصورات للماهية ، متى رتبت وجمعت على النسق المعروف مثلت الماهية واكتسبنا صورتها الحقيقية ، فتوقف التصور على التصديق لا شناعه فيه ، وكأنهم راعوا فى الكاسب أنه هو الممثل الأخير للماهية بعد تحصيل جميع ما يجب تحصيله ، ولا ينازعهم أحد فى أن طريقة الفرد هى ترتيب الأجزاء بعضها مع بعض . والله أعلم .

العـــدم [٢٦٧]

العدم لا ماهية له، وإنما يريد أنه لا يمكن فهم العدم حتى يضاف إلى الوجود، فيكون الوجود محددا لمفهومه، بمعنى أنه يكون المعقول منه في الذهن، ويحدد ما يكون له من صورة فيه، ويميزها إن كانت له صورة، وحقيقة ما يمكن تصوره من العدم: هو تصور الموجود عاريا عن أمر كان يفرض عروضه له أو كونه فيه أو نسبته إليه. فتصور عدم البياض هو تصور الجسم بلون آخر ليس البياض، وتصور عدم ابن زيد هو تصور زيد على حالته هذه لا ينسب إليه ابن وهكذا. فما يسمى إعداما هو في الحقيقة من صور الموجودات.

مـــادة القضيـــة (٢٦٨)

لأن المادة فى كلام أرسطو هى فى القضايا على نحوها فى الموجودات الخارجية، فكما أن الصور الخارجية تعرض لموادها وتتحد معها كذلك القضايا تعرض لموادها وتنطبق عليها. فمادة القضية هو ما تعبر عنه القضية بتمامها مستوفية جميع ما يلزم فى الحكم. ولما كانت الأحكام لا تعتبر تامة، خصوصاً فى العلوم الحقيقية، إلا إذا روعى فى الحكم كيفية اتحاد الموضوع بالمحمول مثلا فى الواقع إذ بدون ذلك يكون الحكم مبهما غير متجل للنفس على ما هو عليه فى نفس الأمر، لهذا لم يعتبر فى تسمية ما تعبر عنه القضية مادة إلا عند تكييف حالة المحمول بالنسبة إلى الموضوع بإحدى تلك الكيفيات، إذ بذلك تتم المادة التى تنطبق عليها الصورة الحقيقية للقضية. أما نفس الوجوب أو الإمكان، فلا معنى لتسميته مادة بل تكون التسمية من قبيل الاصطلاح المحض وهو لم يكن معروفا فى لسان أرسطو.

الدائم والقضايا (٢٦٩)

إن الدوام لا بد من ذكره في لازم نقيضي المطلقة العامة والوجودية، غير أن بين ذكره في كل من النقيضين فرقا، ففي المطلقة العامة الكلية نحو: كل حيوان متحرك بالإرادة، تقول، إذا أردت أن تناقضها: ليس كل حيوان بمتحرك بالإرادة دائما، ويكون الدوام فيه للسلب أو تقدم الدوام على النفي للتنصيص. فهذه القضية السالبة هي نفس نقيض تلك الكلية الموجبة، وهي قضية جزئية مسورة بسور جزئي مصطلح عليه كما ترى؛ فإن من أسوار الجزئية: «ليس كل»، أيضا. ويمكنك الاكتفاء بذكر الدوام في النقيض نفسه كما رأيت بدون ذكر لازم النقيض. ويجوز لك أن تأتي بدل «ليس كل» الذي هو النقيض بلازمه وهو «بعض الحيوان ليس بمتحرك بالإرادة دائما»، وهو لازم غير مردد، فتلحق الدوام بالقضية التي تخالف الموجبة في الكيف. وأما في الوجودية فالتصرف يختلف، فإنك لو قلت: كل حيوان متنفس بالوجود، فالنقيض هو قولك: ليس بالوجود كل حيوان بمتنفس، ولا يسوغ لك أن تقيد هذا السلب نفسه بالدوام فحسب، لأن مجرد التقييد به لا يكفي في التنصيص على جهات المناقضة لأن من جملتها ضرورة الإيجاب، ولا يمكن استفادتها من قيد الدوام الملحق بالسلب في النقيض، فلا يكون الدوام هو النقيض نفسه بل هو لازم من لوازم النقيض يذكر مع الضرورة، فلا بد حينئذ من ذكر لازم النقيض مع الترديد، ولا يمكن الاكتفاء بتقييد السلب بالدوام.

فى الحكم الكلى [٢٧٠]

إن من يحكم حكما كليا دائما لا يفارق الذات لا في ماض ولا حال ولا مستقبل، لا بد أن يكون قد بنى حكمه على الحكم باللزوم، وإلا فيكف يحكم بالدوام فى المستقبل وهو غير حاكم بلزوم المحكوم به، وإنما يتصور ذلك فى علم واحد وهو علام الغيوب، وهو لا يدخل فى موضوع علم المنطق، ثم إن الدوام لا يكون إلا لشيء اقتضاه في ذات الموضوع أو خارج عنه فيستلزم الضرورة حتما.

الخلق والغريزة (٢٧١)

مثال ذلك أن تستدل على أن الخلق ليس بغريزى، وإن كان الاستعداد له غريزيا، بأن تقول: لو كان الخلق غريزيا لما صدر عن صاحبه ما يخالف أثره باختيار البتة، فإنك تبحث فى صاحب الخلق وأحواله وفيما يصدر عنه من فعاله حتى تلاقى البخيل والجبان والشره ونحوهم، وتنسب تلك الفعال إلى ملكاتهم على أنها آثارها، فإذا رأيت أن من أعمالهم ما يخالف أثر ملكاتهم، ولو فى جزء من أجزاء زمنهم، بل ولو فى لحظة واحدة، بأن رأيت البخيل أعطى والجبان خاطر بنفسه والشره عف مهما كان السبب، وعلمت أن ما بالغريزة لا يفارق، ولا تصدر الأعمال على خلاف مقتضاه، حكمت بموجب المشاهدة أن صاحب الخلق يصدر عنه ما يخالف أثر خلقه، فيكون اللازم فى اللزومية قد بطل، فيبطل الملزوم، وهو أن يكون الخلق طبيعيا، وإنما وصلت إلى ذلك بقياس نظمه البخلاء والجبناء أرباب ملكات، وهم بعضهم تخالف فعالهم الاختيارية آثار ملكاتهم، فبعض ذوى الملكات تخالف فعالهم آثار ملكاتهم.

القياس المركب(٢٧٢)

القياس المركب هو ما ذكرت فيه مقدمات كثيرة بعضها ينتج بعضا، وهو تارة يكون موصول النتائج بأن يصرح عقب كل مقدمتين بنتيجتهما ثم تضم هى إلى أخرى ثم يصرح بنتيجتهما، وهكذا إلى أن ينتج المطلوب، وتارة يكون مفصول النتائج أى لا يصرح فيه بها لفصلها عن مقدماتها فى الذكر أى لعدم ذكرها معها، وإن كانت مرادة، وإنما استغنى عن ذكرها للعلم بها من مقدماتها، والموصول منه مثل قولك فى الاستدلال على كل إنسان جسم: كل إنسان حيوان، وكل حيوان نام، فكل إنسان نام، وكل نام ففيه امتداد فى الأقطار الثلاثة، فكل إنسان فيه امتداد فى الأقطار الثلاثة، وكل ما كان كذلك فهو جسم، فكل إنسان جسم. أما المفصول منه فأن تقول والمطلوب بعينه كل إنسان حيوان، وكل حيوان نام، وكل نام فيه امتداد فى الأقطار الثلاثة، وكل ما كان كذلك فهو جسم، فكل إنسان جسم.

قياس يخجل الخصم [٢٧٣]

إنك قد تؤلف من مقدمتين متنافيتين تثبت في إحداهما ما نفيته في الأخرى لتخجل خصمك، ويكون ذلك عندما تجده مسلما بكل منهما، وطريقة استغفاله أن تغير له أسماء الحدود ليظن الاختلاف فيسلم النفي والإثبات في شيء واحد، ثم تكشف له الأمر فيسقط في نفي الشيء عن نفسه في الحقيقة. وذلك كأن تريد إسقاطه في تسليم أن الإنسان ليس بإنسان، فتقول له: أنت مسلم بأن الإنسان آدمي. ثم لجهله بمرادفة البشر للإنسان والآدمي تقول له: وتسلم أن لا شيء من الآدمي ببشر، فيقبل ذلك، فتلزمه نتيجة: لا شيء من الإنسان ببشر، ثم تكشف له: أن البشر هو الإنسان، فيقع في الخزي لالتزامه ـ بجهله ـ أن ليس الإنسان بإنسان، وفي هذا القياس من الشكل الأول قد ترادفت الألفاظ الثلاثة كما ترى.

ولو سلم الخصم: أن الإنسان متحرك بالإرادة، وسلم أيضا: أن لا شيء من الحيوان يتحرك بالإرادة، لأنك استغفلته فأوهمته أن الإرادة هي الانبعاث بفكر، لزمه تسليم: لا شيء من الإنسان بحيوان، من الشكل الثاني، فإذا كشفت له: أن الإنسان من الحيوان، وقع في: أن بعض الحيوان ليس بحيوان، والتقابل في المقدمتين من جهة أن الإنسان مما شمله الحيوان في الثانية وسلبت عنه الحركة بالإرادة في ضمن الكلية مع أنه قد ثبتت له الحركة بالإرادة في الصغرى، وقد أبدلت الحد بكلية. فإن كان الخصم يجهل معنى البشر، ووضعت البشر موضع الحيوان، كان اللفظان مترادفين وقد سلب عنهما شيء واحد وهو الحركة بالإرادة بمعناها الحقيقي. ولو أردت أن تبدل الحد بجزئية جعلت الحيوان في المقدمة الأولى والإنسان في الثانية، كما فعل المصنف، فإذا سلم: أن كل آدمي بشر ولا شيء من الآدمي بإنسان، لجهله بمعنى الآدمي، فقد لزمه: بعض البشر ليس بإنسان، مع

أنهما واحد فيخزى بسقوطه فى التزام: أن بعض الإنسان ليس بإنسان، فقد وجدت ثلاثة أسماء مترادفة حمل اثنان منها على الثالث، ولو قلت بدل الآدمى: الضاحك، كان لك مترادفان حملا على ثالث غير مرادف لهما.

هذا كله مراد المصنف مما قاله فى أول الفصل وآخره بدون التفات إلى تصويره الذى ذكره فى قوله: «بأن تسلم من خصم مقدمة ثم ينتج من مقدمات أخرى مسلمة نقيض تلك المسلمة الأولى إلخ». أما على هذا التصوير فلا حاجة إلى الترافد ولا الاستغفال بإبدال الحدود، فإن ذلك قد يكون بدون هذا، ثم إن القياس المركب من المتقابلتين لا يكون إلا من الشكل الثانى والثالث ولا يتصور من الأول بحال. ودونك البيان:

أما أنه لا يلزم الترادف ولا الإبدال، فلأن المدار على وجود مسلمات عند الخصم يستنتج منها نقيض المسلمة الأولى تخالفت الحدود فى المعنى واللفظ أو توافقت. وأما أن القياس المركب من المتقابلتين على هذا التصوير لا يكون إلا من الثانى والثالث، فلأن النقيضين لا يكونان نقيضين إلا إذا اتحدا فى الموضوع والمحمول، فالمقدمتان أى المسلمة الأولى ونقيضها لابد أن تكونا كذلك، فموضوعهما واحد ومحمولهما واحد، فلك أن تأخذ نتيجة سلب الشىء عن نفسه من الثانى إن اعتبرت الوسط هو المحمول، أو من الأول إن اعتبرت الوسط هو الموضوع.

واعتبر لذلك مثلاً فيما لو سلم خصمك: أن تزوج أكثر من أربعة سُنَّة، لأن النبى صلى الله عليه وسلم فعله، ثم هو مع ذلك يسلم: أنه خصوصية، ويسلم بأن: لا شىء من الخصوصية بسنة، فإنه تلزمه نتيجة: لا شىء من تزوج الأربعة بسُنَّة، وهى ضد المسلمة الأولى إن أخذت الأولى كلية، ونقيضها إن أخذت جزئية، وعلى كل حال فالمسلمة الأولى مع نقيضها تنتج: أن الشىء ليس هو بالكل أو بالجزء من الثانى أو الثالث، فإن شئت قلت لا شىء من تزوج أكثر من الأربعة بتزوج أكثر من الأربعة، أو بعض ما هو سنة ليس بسنة، ويكون تسليم الخصم بالمقدمة الأولى المسلمة آتيا من غفلته عن المُسلَّمتين الأخريين لا من الغفلة عن معانى الألفاظ، وهو كثير الوقوع.

نعم إذا اكتفى بالتناقض فى المعنى ولم يعتبر اللفظ فى اتحاد أطرافه، صح ما قاله

المصنف حتى على تصوير ذلك. ومثاله من الشكل الأول أن يسلم خصمك أن كل إنسان بشر، ويسلم أن كل بشر ضاحك ولا شيء من الضاحك بآدمي، فينتج من هاتين القضيتين لا شيء من البشر بآدمي وهو يضاد كل إنسان بشر إذا لوحظ المعنى. وإذا كانت الصغرى: بعض البشر ضاحك، كانت النتيجة نقيضا لها في المعنى أيضا لكنها لا تصلح كبرى في الأول فإذا ضممت النتيجة إلى المسلمة الأولى هكذا: كل إنسان بشر ولا شيء من البشر بآدمي فلا شيء من الإنسان بآدمي مع أن الآدمي هو الإنسان، فإذا كشفت ذلك لخصمك فقد وصلت إلى تبكيته بجهله في فهم الألفاظ وتسليمه للأحكام عليها بلا تعقل. ويمكنك أن تمثل من الشكل الثالث فيما لو سلم خصمك: أن الخلق غريزة، ثم سلم أن الخلق خصلة وكل خصلة فليست بفطرة فلا شيء من الخلق بفطرة، وهو يضاد المسلمة الأولى، لأن الفطرة والغريزة واحد، ثم تقول: كل خلق غريزة ولا شيء من الخلق بفطرة فبعض الغريزة ليس بفطرة، وهو سلب الشيء عن نفسه لاتحاد الغريزة والفطرة في المعنى.

ولا يخفاك أن هذا الضرب من القياس ضرب من اللهو الذي يعبث به بعض من لاهم له في تمحيص الحقائق، وإنما همه المشاغبات والتفنن في طرق المنازعات، وما ذكره المصنف إلا ليحتاط في السلامة من شيء بالتدقيق في فهم معاني الألفاظ ومعرفة خاص المفهومات من عامها وما يعرض لكل فيكون المحصل في حرز من عبث العابثين.

مكان القسمة من القياس(٢٧٤)

ظن بعض القوم أن القسمة وحدها قياس لإثبات أحكام الأقسام للمقسم فى كل شىء، وكل شىء له أقسام تختلف أحكامه باختلافها، فطريق معرفة هذه الأحكام إنما هو قسمته إلى تلك الأقسام. فمن عرف الكلب بحقيقته، قد يضطر بذهنه عند رؤية الجارح منه وما فيه من غريزة الافتراس فيكاد يظنه غير ما عرفه. فإذا قسمت الكلب إلى الجارح وغير الجارح هدأ الخاطر واطمأن إلى ما أصاب من الحقيقة. فقد كان بعض الأحكام غير معروف فعرف بالقسمة، فهى القياس الذى أدى إلى هذا العرفان، وعند بعضهم أنها من أقسام البرهان، وهى من بين أقسامه يكتسب بها الحد، فإن طالب الحد ينظر بعد تصور الشىء ببعض وجوهه إلى ما يحمل على ذلك الشىء، ويقسم تلك المحمولات ويفصل بعضها عن بعض حتى يتبين له من بينها الأعم والأخص والذاتى والعرضى، ثم يرتب بعد ذلك أجزاء الحد ويذهب منها إلى تصور الحقيقة به.

ولندع ما ابتذلوه من الإنسان والحيوان، ولنطلب ما لا يبعد منه وهو النفس الإنسانية. فإذا أردنا تحديدها، وقد كنا عرفنا أن جميع الممكنات لا تخرج عن الأجناس العشرة، فأول نظرة تلقى على النفس تضم صفاتها مختلطة غير متميزة بشىء سوى أن مجموعها إنما يحمل على النفس الإنسانية ولا يحمل على ما سواها من الأنفس الحيوانية وغيرها إن كانت. فيحمل على النفس الإنسانية أوصاف النامية الحساسة العاقلة أو الناطقة معا، ولا تحمل هذه الأوصاف معا على غيرها. ثم يحمل عليها المتحركة بذاتها، الطالبة لما يحفظ شخصها ويبقى نوعها، الدافعة لما يبيدهما، القابلة لإبداع كل صنعة بلا قيد ولا نهاية. كل ذلك يحمل عليها معا ولا يحمل مجموعه على غيرها. ثم قد يحمل عليها صفات أخرى يطول تعديدها.

فأول شيء يخطر ببال طالب الحد بعد هذا العلم الإجمالي، هو أن يقسم هذه المحمولات أو الصفات إلى: ما تشترك فيه مع غيرها وما تنفصل به عنه، ثم يقسم كلا منها إلى: ما هو متصل بذاتها بحيث يصح أن يؤخذ منه اسم لها أو لجزء من أجزائها إن كان لها جزء وما هو تابع لذلك يتصل بها بواسطته. ولا يخفى عليك ما حصله الطالب من العلوم بالقسمتين، ولم يكن من عمل فكره سوى تمييز الطوائف وفصل الأقسام. وبهذا العمل وحده، قد تميزت الصور في ذهنه على وجوه لم تكن، وهو ضرب من التصور بل ومن التصديق أيضا لم يكن أولا ثم كان.

بعد هذا ينتقل على طلب علم آخر إن لم يكن بديهيا كما هو الشأن في مثالنا، وهو علم أنها جوهر أو عرض. فإن كانت عرضا، فمن أي أجناسه هي؟ فإن ذلك غير بين بنفسه، فيسلك طريقا آخر من التقسيم، وهو أنها إما جوهر وإما عرض، وللأول في صفاتها ما يدل عليه كتعقلها لنفسها بدون التفات إلى شيء سواها، وللثاني ما قد يسوق الذهن إليه ككون أثرها لا يظهر إلا في الأجسام، فإذا ترجح عنده أحد القسمين، وليكن أنها جوهر، رجع إلى طلب أي الجواهر هي، هل هي جسم؟ أو جوهر مجرد؟ وذلك لا يعرف إلا بالاستدلال أيضا، لأنه ليس ببديهي. فإذا انتهى إلى غاية هذا الطالب، انصرف إلى البحث في أنها بسيطة أو مركبة، وأمر الخلاف في جميع ذلك معروف. فإذا أصاب حاجته من ذلك، رجع إلى ما كان ميزه بالتحليل، فإن وجده جميعا من اللوازم بعضه للذات وبعضه بالواسطة وذلك إن كانت بسيطة فلا يكون له إلا ما يشبه الحد فيعرفها بالرسم، فإن كانت في رأيه مركبة حسبما أرشده الدليل ميز الجنس من الفصول المنوعة والفصول من الخواص، كل ذلك بضروب من التقسيم، ثم بعد هذا يضع كل وصف في مرتبته على الوجه الذي بين في القول الشارح فيكون له من ذلك حد الحقيقة.

وقد يذهب طالب الحد إلى تقديم العلم بأن الشيء جوهر أو عرض، وأنه بسيط أو مركب على التقسيم المميز لطوائف الأوصاف عامها أو خاصها ما اتصل بالذات منها مباشرة، وما كان لها بالواسطة، وليس يضره من ذلك شيء. ولا يخفى أن القسمة كانت من الأعمال الفكرية السابقة إما بيانا بنفسها وكسبا للمعلوم، وإما جزءا من بيان ومقدمة من كسب، فإن امتياز الطوائف في المحمولات علم وإنما كاسبه القسمة وحدها، والعلم بأن الحقيقة من مقول الجوهر أو العرض وأنها بسيطة

أو مركبة إنما كسب بالقسمة واختيار أحد الأقسام، فهي تارة قياس لأنا لا نعني من القياس إلا المركب من عدة أحكام مقصودة ألف بينها عمل فكرى لتحصيل معلوم لم يكن، وذلك ثابت فى التقسيم لتمييز المحمولات بعضها عن بعض، وتارة جزء قياس وهو ظاهر ولم يمنعه المصنف، وهذا النحو من العمل الذهنى لكسب الحد هو الذى عناه بعض القوم فى قوله: إن الحد يكتسب بالبرهان، وإنما يكتسب بالقسمة من أنواع البرهان.

أما ما سيأتى للمصنف فى باب أفرده لبيان: أن الحد لا يكتسب بالبرهان، فهو تقليد لجمهور من سبقه، لم ينظر فيه إلا إلى صور وأشكال يغر ظاهرها ولا قيمة لحقيقتها، وزعمه كغيره أن لا طريق لاكتساب الحد إلا التركيب، نسيان لأهم الأعمال فى الكسب، ونظر إلى آخر ما ينتهى إليه العمل، فإن مجرد التركيب وتقديم بعض الأجزاء على بعض إنما يتيسر لمن علم الأوصاف وميز خاصها من عامها وعرف نسبتها للماهية بكونها مقوما أو عارضا ولم يبق عليه إلا الضم وجودة الوضع لا غير، وهذا طرف من كسب الحد لا كله. فإن أراد المصنف أو غيره أن يصطلح على أنه لا يسمى كاسبا للحد إلا هذا الضم والترتيب الذى سماه بالتركيب، لم ننازعه فى الاصطلاح، لكن ينقلب النزاع إلى نزاع فى استعمال الألفاظ لا فى بيان الحقائق.

أما ظن أن القسمة قياس على كل شىء، فلا يبعد عن الحقيقة إذا كانت وجهته ما قدمناه من أن الأحكام التى تثبت لشىء واحد بواسطة أقسامه لا سبيل إلى إثباتها له إلا تقسيمه إليها لتستقر له أحكامها، وكثيرا ما يكفى مجرد التقسيم فى ظهور وثبوت الحكم ويبقى التقسيم ملحوظا لا ينصرف الذهن عنه بعد ظهور المطلوب، وعند ذلك يكون التقسيم وحده هو الطريق، وقد يحذف كما يحذف الحد الوسط فى كل قياس فيكون جزءا من الدليل، وتسميته قياسا لأنه الواسطة الحقيقية إلى المطلوب، وهذا الثانى هو ما يسمى عندهم بالقياس المقسم أو الاستقراء التام كما فى قولهم الجسم إما جماد أو نبات أو حيوان، وكل جماد متحيز وكل حيوان متحيز، فكل جسم متحيز، ومن ذلك تقسيم الكهرباء إلى موجبة وسالبة، وإثبات أحكام كل منهما له ليثبت الحكم للكهرباء.

والاستقراء الناقص باب من أبواب القسمة من هذا القبيل الثاني، لأنه تقسيم الكلي إلى جزئيات ثم إثبات أحكامها لها لتثبت بالضرورة. وإنما أفردوه نوعا من أنواع القياس على حدة لأنهم لا يستعملون فيه صورة التقسيم بإما وإما. أما ما هو من القبيل الأول فلا يكاد ينحصر. فمعرفة العام والخاص إنما تكتسب بالنظر إلى الوصف مع ما يشمله وإليه بالنسبة إلى ما لا يدخل تحته، فبعد ظهور القسمة يتبين أن الوصف خاص بموصوفه دون سواه، بل معرفة الأعم من كل عام كالمذكور مثلاً إنما تحصل بعد جولان النظر العقلي في جميع أقسام المعلومات ليعلم أنها لا تخرج عنه، بل عندي أن جميع أعمال العقل في انتزاع الكليات من الجزئيات إنما هي ضروب من التقسيم بين ما تختلف فيه الأفراد وما تشترك فيه ينتقل منها الذهن إلى الكلي بعد طرح ما افترقت فيه من المشخصات عنه مع بقاء التقسيم ملحوظا حتى يتحقق الحمل على مختلفين.

ولا يزال التقسيم من هذا القبيل بابا من أبواب البلاغة يتنافس البلغاء في استجادته ويتفاضلون في وجوه حسنه. والبلاغة منتهى الكمال في إصابة الحق بالدليل مع شيء من حسن الأسلوب وجودة التأليف في اللفظ.

قالوا ومن أحسنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الرعد: آية ١٢). فإنه قسم أثر رؤية البرق في الأنفس إلى قسمين الخوف والطمع، ولا يخلو الكون الإنساني منهما عند رؤيته، ولا ثالث لهما، وهو كاف في بيان حكمة الله فيه، وكثيرا ما غفل عنها الغافلون وخلت عنها أفكار من لم يستلفتهم مثل هذا التقسيم إلى ما يتردد في خواطرهم وما يدب في بواطن نفوسهم وهم عنه لا هون.

ومن لطيفه وصحيحه، قول أعرابي لبعضهم «النعم ثلاث: نعمة في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة غير محتسبة، فأبقى الله عليك ما أنت فيه وحقق لك ما ترجيه وتفضل عليك بما لم تحتسبه». ووقف أعرابي على مجلس «الحسن» (٢٧٥)، فقال: «رحم الله عبدا أعطى من سعة أو واسى من كفاف أو آثر من قلة». فقال «الحسن»: ما ترك الرجل لأحد عذرا، فانصرف الأعرابي بخير كثير.

وكم يزال بالتقسيم من الجهالات ما لا يزال بغيره. فمن التبس عليه معنى الفقه

فى قوله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» ، فظن أن الفقه هو حشر القضايا الشرعية إلى الذهن من أقوال أهل التفريع ، سواء كان على بصيرة فيه أو على عمى فى التقليد ، يمكنك أن تزيل الغموض عن مثل هذا المغرور وترفع جهالته بقولك : «العلم بحدود الشريعة قسمان : قسم منه البصر بمقاصد الشارع فى كل حكم وفهم أسرار حكمه فى كل حد ونفوذ البصيرة إلى ما أراد الله لعباده فى تشريع الشرائع لهم من سعادة الدارين ، لا يختلف فى ذلك وقت عن وقت ، ولا يتقيد بشرط دون شرط ، فتنطبق عند الأصول على جميع ما يعرض من الشئون مهما تبدلت أطوار الإنسان ما دام إنسانا ولا يتوافر ذلك إلا للمؤمن الحكيم الذى سمع نداء الله فلباه بعقله ولبه لا بريائه وعجبه . والقسم الثانى أخذ صور الأحكام من تضاعيف الكلام وحشدها إلى الأوهام فى ناحية عن معترك الأفهام ، لا يعرف من أمرها إلا أنها جاءت على لسان فلان بدون نظر إلى ما أحاط القول والقائل من زمان ومكان ، وهذا القسم يستوى فى تحصيله المؤمن وغير المؤمن يبلغ الغاية منه الخير والشرير والمعطل للشرع المحتال به والعامل عليه الواقف عند حده» .

فإذا تمايزت الأقسام زال الالتباس ، وتجلى المعنى حتى للبله من الناس . وكذلك يقال فى العلم الذى قال فيه إمام البيان «عبد القاهر الجرجانى» فى مفتتح كتابه (دلائل الإعجاز) : «إذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها فى الشرف ، ونتبين مواقعها فى العظم ، ونعلم أى أحق منها بالتقديم ، وأسبق فى استيجاب التعظيم ، وجدنا العلم أولاها بذلك وأولها هناك ، إذ لا شرف إلا وهو السبيل إليه ، ولا خير إلا وهو الدليل عليه ، ولا منقبة إلا وهو ذروتها وسنامها ، ولا مفخرة إلا وبه صحتها وتمامها ، ولا حسنة إلا وهو مفتاحها ، ولا محمدة إلا ومنه يتقد مصباحها ، هو الوفى إذا خان كل صاحب والثقة إذا لم يوثق بناصح إلخ» .

وأشار القرآن الكريم إلى ظهور فضل أهله إلى حد لا يمارى فيه فقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر : آية ٩) . ونص على أن قلوبهم هى مستقر خشية الله دون قلوب سواهم فقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر : آية ٢٨) . ويقال فيه اليوم : «إنه للأمم مصدر قوتها ومحضاء حميتها ، وجامع كلمتها ، والصاعد بها إلى ذرى مدنيتها . وهو الذى يمهد لها

المسالك، ويفتح لها الممالك، ويمنحها السيادة على المملوك والمالك. وهو مقوم نظامها، وقوام أحكامها، وحفاظ قوامها. وبالجملة، هو حياتها كما أن الجهل مماتها» . العلم الذى يوصف بهذه الصفات ولن يبلغ أحد أن يؤدى حقه مما يستحق من مثلها حمله كل على ما يشتهى واتخذ الجهل مرشدا إلى العلم ولم يستشر العلم نفسه فى القصد إلى العلم فأنفق الكثير عمره فى التحصيل والتركيب والتحليل والتفسير والتأويل والتعديل والتحويل ولكن كل ذلك لا يخرج عن قال وقيل، ومع هذا التعب يأخذك العجب إذ تراهم وأممهم قد التقوا فى مهلكة واحدة مع القوم الجاهلين، وحل بهم من النكال ما عمهم أجمعين، فيضطرب الذهن فى معنى العلم بل يضل فيه ضلالاً بعيدا.

فإذا قسمت العلم إلى: ما هو معرفة حقائق الكون من طرقها التى سنها الله وهدى إليها بالفطرة السليمة، والإشراف بالعقل على اسرار الشرائع ولطائف حكمها، ونسبة كل ما يصل إليه العقل والفهم من ذلك إلى شئون العارف واستعراف علاقة ما أدرك بحاجاته التى يشعر بها شعورا فطريا صحيحا لا التى يتوهمها وهما مجعولا فاسدا، سواء كانت حاجاته فى نفسه أو أهله أو أمته أو الناس أجمعين، وإلى ما هو خزن صور فى الحافظة، يسوقها إليه ناقش أحرف أو مدبج عبارات لا يعرف لها غاية إلا إياها، ولا يبالى أكان لها مدخل فى صلاح حياته أو لم يكن يظنها هى الكمال لا هادية إليه وهى الفضل لا الدال عليه، ومبلغ العلم عنده أن يعرف أن هذا قول «زيد» وقد رجحه «حميد» عن قول «أبى عبيد» ورجح الآخر «أبو عمر» وهكذا إلى آخر الزمر، لا يقر له قرار، ولا يقف فى مدار، فهو يخسر بمثل هذا ولا يكسب، ويشقى بالتحصيل ولا يسعد. فعند هذا التقسيم يستنير المطلب، ويضيء المذهب، بلا حاجة إلى ضم ضميمة إليه.

فأنت ترى أن هذا الباب من التقسيم أفضل ما يطرق فى البيان، وإن خلا من الصور الجافة التى اصطلح عليها المنطقيون، لكن عهدنا بالمصنف أنه خالفهم فى صور كثيرة، ونبه على استعراف الصواب فى تضاعيف الأساليب، ولم يبال بتلك الأشكال، إلا فى حركة العقل لا فى تصوير الدليل، فكان من الحق على طريقته ألا يعيب قول من قال: إن القسمة بنفسها قياس وإن كانت قد تكون جزءا منه إذا احتاجت فى التأدى إلى ما قصد منها إلى ضميمة أخرى. والله أعلم.

الفضـــــاء [٢٧٦]

وأستفيد من كلامه أن الفضاء مخلوق، وهو مذهب قوم، كما أستفيد منه أن الله خلق فى الفضاء ماء حمله على متن ريح فاستقل عليها حتى صارت مكانا له، ثم خلق فوق ذلك الماء ريحا أخرى سلطها عليه فموجته تمويجا شديدا حتى ارتفع فخلق منه الأجرام العليا. وإلى هذا يذهب قوم من الفلاسفة منهم «تاليس الإسكندرى» [٢٧٧]. يقولون: إن الماء ـ أى: الجوهر السائل ـ أصل كل الأجسام كثيفها من متكاثفه، ولطيفها من شفافه.

الاستقراء.. والتجربة (٢٧٨)

هو ملاحظة الأثر في الجزئيات المتعددة في الأحوال المختلفة والأزمان والأمكنة المتباينة، فإن هذا يُحَصِّل اليقين بثبوت الحكم للكلي، كثبوت تخفيض الحمى لملح الكينا. وعلى هذا النحو من الاستقراء، بنى أغلب العلوم والفنون الصحيحة كالطب والكيمياء وقسم عظيم من علم الطبيعة والتاريخ الطبيعي. ولا أدل على صحتها من ظهور أثرها في الأعمال العظيمة التي قلبت ما كان معروفا من حال المسكونة وسكانها. وقد أجاد المصنف في التنبيه على فوائد الاستقراء بجميع وجوهه في تحصيل العلوم اليقينية مخالفاً في ذلك لما اشتهر عند القوم سابقهم ولا حقهم.

حركة فك التمساح(279)

مثال درج فى كتب المنطق وغيرها، أخذه الممثلون عن بعض من كتب فى الحيوان من غير بحث صحيح. وقد أخطأ من زعم أن التمساح يخالف سائر الحيوان في تحريك الفك الأسفل عند الأكل، كما أخطأ من ظن أنه لا مخرج لفضلاته وإنما يأتى «القطقاط» فيأكل ما فى جوفه. ومنشأ هذا الظن الثانى أن هذا الحيوان قد تفسد المواد التى فى بطنه فيوجد فيها حيوانات صغيرة، فيفتح فاه فيأتى بعض الطيور ويلتقطها وهو لا يؤذيها. «والدميرى»(280) يذكر فى (حياة الحيوان) كلا من الزعمين، ويثبته، وهو خطأ كما حققه الباحثون المدققون. فالثابت بالتحقيق، أن الفك العلوى عند أنواع التماسيح ثابت متصل بعظام الجمجمة بدون مفصل متحرك، وأما الفك السفلى فهو المتحرك وله اتصال بالجمجمة مفصلى بواسطة عظم يسمى العظم المربع. ثم إن لهذه الحيوانات فتحة فى انتهاء الأمعاء تخرج منها الفضلات من بول وغيره، وفيها يولج التمساح الذكر عند المسافدة. ومن ظريف ما جاء على لسان بعض طلبة العلم، عندما كنت أذكر هذا الخطأ العام فى قضية تحريك التمساح فكه الأسفل، قوله: لعل من افتتح هذا الخطأ رأى التمساح مقلوباً يحرك فكه الأسفل فظنه الأعلى، فذهب يحكى وينقل عنه!!

موضوع علم الموسيقى(٢٨١)

لا يخفى أن النغم هي موضوع علم الموسيقى. فإذا نسبتها إلى موضوع العلم الطبيعي، وهو الجسم من حيث يتحرك ويسكن ويمتزج ويفترق، وجدتها عرضا من أعراض بعض أنواعه وهي الأوتار وأعضاء الصوت؛ فإن الأوتار وأعضاء الصوت تؤخذ في حد معروضها وهو الصوت، ولكن الجسم الذي هو موضوع الطبيعي لا يحمل عليها، وهي بهذا الاعتبار تكون مما يبحث عنه في الطبيعي لو كان البحث عنها من جهة كيف تنشأ والأسباب التي عنها تحدث. ولكنها في الموسيقى موضوع لا من هذه الجهة بل من جهة أمر غريب عنها وعن جنسها الذي هو كيفية الصوت، وذلك الأمر الغريب هو العدد، لأن الاختلاف والاتفاق المطلوبين للنغم في الموسيقى ودرجاتهما إنما تعرض للنغم من حيث أعداد الحركات والاهتزازات التي تعرض للصوت أو لموضوعه. ولما كان البحث عنها من جهة ذلك الأمر الغريب، لاق أن يوضع العلم الذي يتكفل بذلك البحث تحت العلم الذي يبحث عن جنس ذلك الغريب وهو علم العدد، فيكون الموسيقى تحت علم الحساب وهو العلم الذي موضوعه العدد، فإن جهة بحث الموسيقى تتعلق بنوع من أنواع العدد وهو النوع العارض للنغم، ولا يصح أن يوضع الموسيقى تحت الطبيعي لأن الجهة التي هو بها علم مخصص ليست تلك الجهة التي روعيت في البحث في موضوع الطبيعي فيكون بمنزلة المبين له، فإن الطبيعي والحساب متباينان قطعاً، وما كان النظر فيه من حيث ما يختص أحدهما يباين ما كان النظر فيه من حيث ما يختص بالآخر.

مغالطــــات(٢٨٢)

من صور المغالطات أن يكون المحال غير لازم لنقيض المطلوب بل له ولشيء آخر، فيكون لازما للمجموع لا للنقيض وحده، كقول بعض المتكلمين في الاستدلال على الوحدانية؛ لو لم يكن الإله واحدا وكان إلهان وأراد أحدهما حركة زيد والآخر سكونه لزم إما عجز أحدهما أو سكون زيد وحركته معا وكل منهما محال. وهذا المحال لم يلزم من نقيض المطلوب وهو أن يكون هناك إلهان بل جاء منه ومن ضم شيء آخر إليه، ولا يلزم من استحالة المجموعه استحالة أحد أجزائه. ومنها أخذ العدم المقابل للوجود مكان الضد، كما يقول قائل: الخير والشر ضدان ولا شيء من الضدين بصادر من مبدإ واحد فالشر والخير من مبدأين مختلفين، مع أن الشر في الحقيقة عدم يقابل الوجود فلا ينافي أن يكون مع الخير من مبدإ واحد لأنه لا يحتاج إلا إلى عدم الفعل. ومنها أن تؤخذ المسلمات أو الموهومات أو المشهورات مكان الضروريات وذلك كثير شائع في الملل وكتب أهل النظر، وعلى الطالب أن يزن عمله العقلي بجميع ما تقدم من القواعد. والله أعلم.

حقيقة التوحيد[٢٨٣]

أساس الدين معرفة الله، وهو قد يعرف بأنه صانع العالم، وليس منه، بدون تنزيه، وهي معرفة ناقصة، وكمالها التصديق به ذاته، بصفته الخاصة التي لا يشركه فيها غيره، وهي وجوب الوجود. ولا يكمل هذا التصديق حتى يكون معه لازمه وهو التوحيد، لأن الواجب لا يتعدد كما عرف في الإلهيات والكلام، ولا يكمل التوحيد إلا بتمحيض السر له دون ملامحة لشيء من شئون الحوادث في التوجه إليه واستشراق نوره. ولا يكون هذا الإخلاص كاملاً حتى يكون معه نفي الصفات الظاهرة في التعيُّنات المشهودة في المشخصات، لأن معرفة الذات الأقدس في نحو تلك الصفات اعتبار للذات ولشيء آخر مغاير لها معها، فيكون قد عرف مسمى الله مؤلفا لا متوحدا، فالصفات المنفية بالإخلاص صفات المصنوعين، وإلا فللإمام على كلام قد ملئ بصفاته سبحانه، بل هو في هذا الكلام يصفه أكمل الوصف.

جهله[٢٨٤]: أي: جهل أنه منزه عن مشابهة الماديات، مقدس عن مضارعة المركبات، وهذا الجهل يستلزم القول بالشخص الجسماني، وهو يستلزم صحة الإشارة إليه، تعالى الله عن ذلك.

نفى الجهة عن الله (٢٨٥)

إنما تشير إلى شيء إذا كان منك في جهة، فأنت تتوجه إليها بإشارتك، وما كان في جهة فهو منقطع عن غيرها: فيكون محدوداً، أي: له طرف ينتهي إليه، فمن أشار إليه فقد حده، ومن حد فقد عد ـ أي: أحصى وأحاط بذلك المحدود ـ لأن الحد حاصر لمحدوده. وإذا قلت لشيء «فيم هو» فقد جعلته في ضمن شيء، ثم تسأل عن تعيين ذلك الذى تضمنه. وإذا قلت «على أي شيء» فأنت ترى أنه مستعل على شيء بعينه، وما عداه خال منه.

صفات الله مثل ذاته (٢٨٦)

كل صفة لله هي كذاته، تجب بوجوبها، فكما أن ذاته ـ سبحانه ـ لا يدنو منها التغير والتبدل، فكذلك أوصافه هي ثابتة له معا، لا يسبق منها وصف وصفا، وإن كان مفهومها قد يشعر بالتعاقب ـ إذا أضيفت إلى غيره. فهو أول وآخر أزلا وأبدا، أي: هو السابق بوجوده لكل موجود، وهو بذلك السبق باق لا يزول. وكل وجود سواه فعلى أصل الزوال مبناه، ثم هو فى ظهوره بأدلة وجوده باطن بكنهه، لا تدركه العقول، ولا تحوم عليه الأوهام.

أقسام الملائكة(٢٨٧)

جعل الملائكة أربعة أقسام: الأول: أرباب العبادة ومنهم الراكع، والساجد، والصاف، والمسبح. وقوله «صافون» أي: قائمون صفوفا. لا يتزايلون أي: لا يتفارقون. والقسم الثاني: الأمناء على وحي الله لأنبيائه، والألسنة الناطقة في أفواه رسله، والمختلفون بالأقضية إلى العباد، بهم يقضي الله على من شاء بما شاء. والقسم الثالث: حفظة العباد، كأنهم قوى مودعة في أبدان البشر ونفوسهم، يحفظ الله الموصولين بها من المهالك والمعاطب، ولولا ذلك لكان العطب ألصق بالإنسان من السلامة، ومنهم سدنة الجنان، جمع سادن: وهو الخادم، والخادم يحفظ ما عهد إليه وأقيم على خدمته. والقسم الرابع: حملة العرش، كأنهم القوة العامة التي أفاضها الله في العالم الكلي، فهي الماسكة له، الحافظة لكل جزء منه: مركزه، وحدود مسيره في مداره، فهي المخترقة له، النافذة فيه، الآخذة من أعلاه إلى أسفله، ومن أسفله إلى أعلاه.

الوحدة بين الله وغيره (٢٨٨)

الواحد: أقل العدد، ومن كان واحدا منفردا عن الشريك محروما من المعين، كان محتقرا بضعفه، ساقطا لقلة أنصاره. أما الوحدة فى جانب الله، فهى علو الذات عن التركيب المشعر بلزوم الانحلال، وتفردها بالعظمة والسلطان، وفناء كل ذات سواها إذا اعتبرت منقطعة النسبة إليها، فوصف غير الله بالوحدة تقليل، والكمال فى عالمه أن يكون كثيرا، إلا الله، فوصفه بالوحدة تقديس وتنزيه.

الملائكة والجن (٢٨٩)

إن أحدا من الناس لم يرهما، وليس في الإمكان أن يعرف شيئا عنهما، وكذلك يستحيل أن يُعرف شيء عن الله عز وجل أيضا.

الرسالات.. والفطرة (٢٩٠)

كأن الله تعالى ـ بما أودع في الإنسان من الغرائز والقوى، وبما أقام له من الشواهد وأدلة الهدى ـ قد أخذ عليه ميثاقا بأن يصرف ما أوتى من ذلك فيما خلق له، وقد كان يعمل على ذلك الميثاق ولا ينقضه، لولا ما اعترضه من وساوس الشهوات، فبعث إليه النبيين ليطلبوا من الناس أداء ذلك الميثاق، أي: ليطالبوهم بما تقتضيه فطرتهم، وما ينبغي أن تسوقهم إليه غرائزهم.

الهبوط.. والتكليف والاختيار (٢٩١)

أهبطه من مقام كان مرشده فيه الإلهام الإلهي، لا نسياق قواه إلى مقتضى الفطرة السليمة الأولى، إلى مقر خلط له فيه الخير والشر، واختلط له فيه الطريقان، ووُكل إلى نظره العقلي، وابتلى بالتمييز بين النجدين، واختيار أي الطريقين، وهو العناد الذي تكدر به صفو هذه الحياة على الآدميين.

الحياة الآخرة (٢٩٢)

في الحياة الأخرى حالة سعيدة وأخرى شقية، ولكن على أي صورة تكون السعادة ويكون الشقاء؟ فهذا ما لا علم لي به. على أني لا أعتقد بالعذاب الأبدي.

اللـــه والمكـــان(٢٩٣)

الملامسة والمباينة، على معنى البعد المكانى، من خواص المواد، وذات الله مبرأة من المادة وخواصها، فنسبة الأشياء إليها سواء، وهى فى تعاليها، فهى مع كل شىء، وهى أعلى من كل شىء.

تأثير الكواكب(٢٩٤)

العواصف: الرياح الشديدة. . . والأنواء: جمع نوء، وهو أحد منازل القمر، يعدها العرب ثمانية وعشرين، يغيب منها عن الأفق فى كل ثلاث عشرة ليلة منزلة، ويظهر عليه أخرى، والمغيب والظهور عند طلوع الفجر، وكانوا ينسبون المطر لهذه الأنواء فيقولون: مطرنا بنوء كذا، لمصادفة هبوب الرياح وهطول الأمطار فى أوقات ظهور بعضها، حتى جاء الإسلام فأبطل الاعتقاد بتأثير الكواكب فى الحوادث الأرضية تأثيرا روحانيا.

المَشْعَر (٢٩٥)

المشعر : محل الشعور ، أى : الإحساس ، فهو الحاسة ، وتشعيرها : إعدادها للانفعال المخصوص الذى يعرض لها من المواد ، وهو ما يسمى بالإحساس . فالمشعر من حيث هو مشعر منفعل دائما ، ولو كان الله يشعر لكان منفعلاً ، والمنفعل لا يكون فاعلاً . وقد قلنا إنه هو الفاعل بتشعير المشاعر ، وهذا بمنزلة أن يقال : إن الله فاعل فى خلقه ، فلا يكون منفعلاً عنهم . وإنما خص باب الشعور بالذكر ردا على من زعم أن لله مشاعر .

وعقده التضاد بين الأشياء دليل على استواء نسبتها إليه ، فلا ضد له ، إذ لو كانت له طبيعة تضاد شيئا لاختص إيجاده بما يلائمها لا ما يضادها ، فلم تكن أضدادا .

والمقارنة بين الأشياء فى نظام الخلقة دليل على أن صانعها واحد ، إذ لو كان له شريك لخالفه فى النظام الإيجادى فلم تكن مقارنة ، والمقارنة هنا : المشابهة .

كـلام اللـه (٢٩٦)

أي الألفاظ والحروف التي يطلق عليها كلام الله، باعتبار ما دلت عليه. وهي حادثة عند عموم الفرق، ما خلا جماعة من الحنابلة.

مزية العقل (٢٩٧)

... أما قوله عليه السلام (٢٩٨): «فلأنا بطريق السماء أعلم مني بطرق الأرض» فالقصد به أنه في العلوم الملكوتية والمعارف الإلهية أوسع إحاطة منه بالعلوم الصناعية. وفي تلك تظهر مزية العقول العالية والنفوس الرفيعة، وبها ينال الرشد، ويستضيء الفكر.

سلطة الأنبياء (٢٩٩)

لو كان الأنبياء بهذه السلطة (٣٠٠) لخضع لهم الناس كافة بحكم الاضطرار، فسقط البلاء، أي: ما به يتميز الخبيث من الطيب، ولم يبق محل للجزاء على خير أو شر، فإن الفعل اضطراري. وبذلك تضمحل أخبار السماء بالوعد والوعيد، لعدم الحاجة ثم لا يكون للقابلين دعوة الأنبياء أجور المبتلين ـ أي: الممتحنين بالشدائد ـ الصابرين على المكاره، لاستوائهم مع من قَبِل بالسطوة.

شكل الأرض (٣٠١)

داحي المدحوات: أي باسط المبسوطات، وأراد منها الأرضين، وبسطها أن تكون كل قطعة منها صالحة لأن تكون مستقرا ومجالا للبشر وسائر الحيوان، تتصرف عليها هذه المخلوقات في الأعمال التي وجهت إليها، بهادي الغريزة كما هو المشهود لنظر الناظر، وإن كانت الأرض في جملتها كروية الشكل.

تراثنا فى العقائد

إننا إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلا، فلا يوجد فى تواريخنا مادة تفى بالغرض.

يذكرون أن «واصل بن عطاء» (٣٠٢) أول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة، واعتزل مجلس «الحسن البصرى» (٣٠٣)، لكن.. ما سبب ذلك؟ من أين جاء هذا الفكر الجديد؟ وكيف انتشر هذا المذهب؟ وما الذى حدا بالشيخ «أبى الحسن الأشعرى» (٣٠٤) للقول بأن الوجود غير الموجود؟ و... ومتى دخلت الفلسفة في كتب العقائد؟ وماذا كان غرض العلماء فى إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد فى وقت واحد؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا، ويمكننا أن نعرف كثيرا من شئون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية، فإن فيها ما لا نجده فى كتبنا.

الفلك والتنجيم (٣٠٥)

يدعو (الإمام على) لتعلم علم الهيئة الفلكية وسير النجوم وحركاتها، للاهتداء بها، وإنما ينهى عما يسمى علم التنجيم، وهو: العلم المبنى على الاعتقاد بروحانية الكواكب، وإن لتلك الروحانية العلوية سلطانا معنويا على العوالم العنصرية، وأن من يتصل بأرواحها - بنوع من الاستعداد ومعاونة من الرياضة - تكاشفه بما غيب من أسرار الحال والاستقبال... وكلام أمير المؤمنين حجة حاسمة لدحض خيالات المعتقدين بالرمل، والجفر، والتنجيم، وما شاكلها، ودليل واضح على عدم صحتها، ومنافاتها للأصول الشرعية والعقلية.

القضاء والقدر(٣٠٦)

القضاء: علم الله السابق بحصول الأشياء على أحوالها في أوضاعها. والقدر: إيجاده لها عند وجود أسبابها. ولا شيء منهما يضطر العبد لفعل من أفعاله؛ فالعبد وما يجده من نفسه من باعث على الخير والشر ولا يجد شخص إلا أن اختياره دافعه إلى ما يعمل، والله يعلمه فاعلا باختياره: إما شقيا به وإما سعيدا.

عالم التصوف وعالم الواقع

مازج أحد نفسه في عالم الخيال، ثم قدر على الخروج منه، إلا أن يجذبه جاذب آخر ويخرجه منه، وذلك قليل.

إن كتاب الفتوحات المكية عندى كتاريخ ابن الأثير، لا يقف فهمي في شيء منه.

الأكل فى الطريق العام (٣٠٧)

الشيخ رشيد: أمفتي الديار المصرية يأكل فى الطريق؟!

الأستاذ الإمام: أما قرأت أنه قيل «لديوجين» الفيلسوف: لماذا تأكل فى الطريق؟

فقال: لأننى أجوع فى الطريق.

ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن، فنكتفى بهذا!!

الفيلسوف

الفيلسوف هو الذى له رأى ومذهب فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه.

النظام والائتلاف (٣٠٨)

من يحافظ على نظام الألفة والاجتماع ـ وإن ثقل عليه أداء بعض حقوق الجماعة وشق عليه ما تكلفه به من الحق ـ فذلك الجدير بالسعادة، دون من يسعى للشقاق وهدم نظام الجماعة، وإن نال بذلك حظا باطلاً وشهرة وقتية، فقد يكون فى حظه الوقتى شقاؤه الأبدى، ومتى كانت الفرقة عم الشقاق، وأحاطت العداوات وأصبح كل واحد عرضة لشرور سواه، فمحيت الراحة وفسدت حال المعيشة.

الفقير والغنى (٣٠٩)

حيث يكون الخير فى الفقراء، ويعم الشر جميع الأغنياء، فيعطى الغنى سرفا وتبذيرا، وينفق الفقير ما يأخذ من مال الغنى فى وجهه الشرعى.

الهجرة من دار الحرب (٣١٠)

فلا يجوز لمسلم أن يقيم فى بلاد حرب على المسلمين، ولا يقبل سلطان غير المسلم، بل تجب عليه الهجرة إلا إذا تعذر عليه لمرض أو عدم نفقة، فيكون من المستضعفين المعفو عنهم. وقول النبى صلى الله عليه وسلم: «لا هجرة بعد الفتح» محمول على الهجرة من مكة.

على.. والفتنة (٣١١)

إن الأطماع كانت قد تنبهت فى كثير من الناس، على عهد عثمان رضى الله عنه، بما نالوا من تفضيلهم بالعطاء، فلا يسهل عليهم ـ فيما بعد ـ أن يكونوا فى مساواة مع غيرهم، فلو تناولهم العدل انفلتوا منه، وطلبوا طائشة الفتنة، طمعا فى نيل رغباتهم. وأولئك هم أغلب الرؤساء فى القوم، فإن أقرهم الإمام على ما كانوا عليه من الامتياز فقد أتى ظلما، وخالف شرعا. والناقمون على عثمان قائمون على المطالبة بالنصفة، إن لم ينالوا تحرشوا للفتنة، فأين المحجة للوصول إلى الحق على أمن من الفتن؟!! وقد كان بعد بيعته ما تفرس به قبلها.

صاحب الزنج (٣١٢)

هو على بن محمد بن عبد الرحيم، من بنى عبد القيس. ادعى أنه علوى من أبناء محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين، وجمع الزنوج الذين كانوا يسكنون السباخ فى نواحى البصرة، وخرج بهم على المهتدى العباسى فى سنة خمس وخمسين ومائتين، واستفحل أمره، وانتشرت أصحابه فى أطراف البلاد للسلب والنهب، وملك «أبله» عنوة، وفتك بأهلها، واستولى على «عبادان» و«الأهواز»، ثم كانت بينه وبين «الموفق» فى زمن «المعتمد» حروب انجلى فيها عن «الأهواز» وسلم عاصمة ملكه، وكان سماها «المختارة» بعد محاصرة شديدة، وقتله «الموفق» أخو الخليفة «المعتمد» سنة سبعين ومائتين، وفرح الناس بقتله وانكشاف رزئه عنهم.

نهاية الحجاج بن يوسف (٣١٣)

قالوا: إن الحجاج رأى خنفساء تدب إلى مصلاه، فطردها، فعادت، ثم طردها فعادت، فأخذها بيده فلسعته، فورمت يده، وأخذته حمى من اللسعة فأهلكته. قتله الله بأضعف مخلوقاته وأهونها.

خلق الإمام على(٣١٤)

موضع العجب أن أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة يكونون فى العادة ذوى قلوب قاسية، فتاكا متمردين، جبارين. والغالب على أهل الزهد وأعداء الدنيا وهاجرى ملاذها، المشتغلين بالوعظ والنصيحة والتذكير أن يكونوا ذوى رقة ولين، وضعف قلوب، وخور طباع. وهاتان حالتان متضادتان، فاجتماعهما فى أمير المؤمنين على ـ كرم الله وجهه ـ مما يوجب العجب، فكان كرم الله وجهه أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم، وأزهدهم وأبعدهم عن ملاذ الدنيا، وأكثرهم وعظا وتذكيرا، وأشدهم اجتهادا فى العبادة. وكان أكرم الناس أخلاقا، وأسفرهم وجها. وأوفاهم هشاشة وبشاشة حتى عيب بالدعابة.

شرح بيت لبشار
أنشده حافظ إبراهيم

حافظ إبراهيم: إننى أنشد منذ سنتين قول بشار .

إذا ما غضبنا غضبة مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وأنا لم أفهمه ، وسألت عنه غير واحد من الأدباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح إليه النفس . . .

الأستاذ الإمام: إن معناه ظاهر ، فإنه يريد : أنهم إذا غضبوا سلوا سيوفهم ، وأشرعوا رماحهم ، فكان بريقها ولمعانها كالهتك لحجاب الشمس الذى يظهر به نورها ويتألق شعاعها ، إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم ، فتخرج وهى تقطر دما وتسيل منها ، هنالك يخفى ذلك البريق واللمعان بستر الدم له ورينه عليه . فالضمير فى قوله : «قطرت دما» عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهى معلومة بالقرينة .

الشورى بعد عمر [٣١٥]

إجمالي القصة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دنا أجله وقرب مسيره إلى ربه، استشار فيمن يوليه الخلافة من بعده، فأشير عليه بابنه «عبد الله» بن عمر فقال: لا يليها اثنان من ولد الخطاب، حسب عمر ما حمل! ثم رأى أن يكل الأمر إلى رأى ستة، قال: إن النبى صلى الله عليه وسلم مات وهو راض عنهم، وإليهم بعد التشاور أن يعينوا واحدا منهم يقوم بأمر المسلمين، والستة رجال الشورى هم: على بن أبى طالب. وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، رضى الله عنهم. وكان سعد من بنى عم عبد الرحمن، كلاهما من بنى زهرة، وكان فى نفسه شىء من على كرم الله وجهه، من قبل أخواله، لأن أمه «حمنة» بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، ولعلى فى قتل صناديدهم ما هو معروف مشهور. وعبد الرحمن كان صهرا لعثمان. لأن زوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط كانت أختا لعثمان من أمه. وكان طلحة ميالاً لعثمان لصلات بينهما، على ما ذكره بعض رواة الأثر.

وقد يكفى فى ميله إلى عثمان انحرافه عن على لأنه تيمى وقد كان بين بنى هاشم وبنى تيم مواجد، لمكان الخلافة فى أبى بكر. وبعد موت عمر بن الخطاب رضى الله عنه اجتمعوا وتشاوروا فاختلفوا، وانضم طلحة فى الرأى إلى عثمان، والزبير إلى على، وسعد إلى عبد الرحمن. وكان عمر قد أوصى بألا تطول مدة الشورى فوق ثلاثة أيام وألا يأتى الرابع إلا ولهم أمير، وقال: إذا كان خلاف فكونوا مع الفريق الذى فيه عبد الرحمن. فأقبل عبد الرحمن على علىّ وقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده. فقال على: أرجو أن أفعل وأعمل على مبلغ علمى وطاقتى. ثم دعا عثمان وقال له مثل ذلك، فأجابه

بنعم، فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد حيث كانت المشورة وقال: اللهم اسمع واشهد. اللهم إني جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، وصفق بيده في يد عثمان. وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه. قالوا: وخرج الإمام علي واجدا، فقال المقداد بن الأسود لعبد الرحمن: والله لقد تركت عليا وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون. فقال: يا مقداد لقد تقصيت الجهد للمسلمين. فقال المقداد: والله إني لأعجب من قريش، إنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن رجلاً أقضى بالحق ولا أعلم به منه. فقال عبد الرحمن: يا مقداد، إني أخشى عليك الفتنة، فاتق الله. ثم لما حدث في عهد عثمان ما حدث من قيام الأحداث من أقاربه على ولاية الأمصار ووجد عليه كبار الصحابة، روى أنه قيل لعبد الرحمن: هذا عمل يديك، فقال: ما كنت أظن هذا به.. ولكن لله علي ألا أكلمه أبدا. ثم مات عبد الرحمن وهو مهاجر لعثمان، حتى قيل: إن عثمان دخل عليه في مرضه يعوده فتحول إلى الحائط لا يكلمه. والله أعلم، والحكم لله يفعل ما يشاء.

موقعة الجمل[316]

ومجمل القصة أن طلحة والزبير بعدما بايعا أمير المؤمنين فارقاه بالمدينة وأتيا مكة مغاضبين، فالتقيا بعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فسألتهما الأخبار، فقالا: إنا تحملنا هربا من غوغاء العرب بالمدينة، وفارقنا قومنا حيارى لا يعرفون حقا، ولا ينكرون باطلاً، ولا يمنعون أنفسهم. فقالت: ننهض إلى هذه الغوغاء أو نأتي الشام؟ فقال أحد الحاضرين: لا حاجة لكم في الشام قد كفاكم أمرها معاوية، فلنأت البصرة، فإن لأهلها هوى مع طلحة. فعزموا على المسير، وجهزهم يعلى بن منبه، وكان واليا لعثمان على اليمن وعزله علي كرم الله وجهه. وأعطى للسيدة عائشة جملاً اسمه عسكر، ونادى مناديها في الناس بطلب ثأر عثمان، فاجتمع نحو ثلاثة آلاف، فسارت فيهم إلى البصرة، وبلغ الخبر عليا فأوسع لهم النصيحة وحذرهم الفتنة، فلم ينجح النصح، فتجهز لهم وأدركهم بالبصرة. وبعد محاولات كثيرة منه يبغي بها حقن الدماء، شبت الحرب بين الفريقين، واشتد القتال، وكان الجمل يعسوب[317] البصريين، قتل دونه خلق كثير من الفئتين، وأخذ خطامه سبعون قرشيا ما نجا منهم أحد. وانتهت الموقعة بنصر علي كرم الله وجهه بعد عقر الجمل، وفيها قتل طلحة والزبير، وقتل سبعة عشر ألفاً من أصحاب الجمل، وكانوا ثلاثين ألفاً، وقتل من أصحاب علي ألف وسبعون.

الإمـــارة [٣١٨]

إن البداهة قاضية أن الناس لا بد لهم من أمير بر أو فاجر، حتى تستقيم أمورهم. وولاية الفاجر لا تمنع المؤمن من عمله لإحراز دينه ودنياه، وفيها يستمتع الكافر حتى يوافيه الأجل ويبلغ الله فيها الأمور آجالها المحدودة لها بنظام الخلقة، وتجرى سائر المصالح المذكورة.

عليّ يرجو دفع الحرب [٣١٩]

روى أن أمير المؤمنين بعدما ملك الماء على أصحاب معاوية ساهمهم فيه، رجاء أن يعطفوا إليه، ولزوما للمعدلة وحسن السيرة، ومكث أياماً لا يرسل إلى معاوية ولا يأتيه منه شيء، واستبطأ الناس إذنه فى قتال أهل الشام واختلفوا فى سبب التريث، فقال بعضهم: كراهة الموت، وذهب بعضهم إلى الشك فى جواز قتال أهل الشام، فأجابهم؛ أما الموت فلم يكن ليبالى به، وأما الشك فلا موضع له، وإنما يرجو بدفع الحرب أن ينحازوا إليه بلا قتال، فإن ذلك أحب إليه من القتال على الضلال، وإن كان الإثم عليهم.

التحكيم والخروج (٣٢٠)

الحكومة: حكومة الحكمين: عمرو بن العاص، وأبى موسى الأشعرى، وذلك بعدما وقف القتال بين على أمير المؤمنين ومعاوية بن أبى سفيان في حرب «صفين» سنة سبع وثلاثين من الهجرة. فإن جيش معاوية لما رأى أن الدبرة(٣٢١) تكون عليه، رفعوا المصاحف على الرماح، يطلبون رد الحكم إلى كتاب الله، وكانت الحرب أكلت من الفريقين، فانخدع القراء (حفظة القرآن) وهم الذين صاروا خوارج فيما بعد، وجماعة تتبعوهم من جيش على، وقالوا: دعينا إلى كتاب الله ونحن أحق بالإجابة إليه. فقال لهم أمير المؤمنين: «إنها كلمة حق يراد بها باطل. إنهم ما رفعوها ليرجعوا إلى حكمها. إنهم يعرفونها ولا يعملون بها. ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة! أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا». فخالفوا واختلفوا، فوضعت الحرب أوزارها، وتكلم الناس فى الصلح وتحكيم حكمين يحكمان بما فى كتاب الله. فاختار معاوية عمرو بن العاص، واختار بعض أصحاب أمير المؤمنين أبا موسى الأشعرى، فلم يرض أمير المؤمنين واختار عبد الله بن عباس، فلم يرضوا، ثم اختار الأشتر النخعى فلم يطيعوا، فوافقهم على أبى موسى مكرها بعد أن أعذر فى النصيحة لهم فلم يذعنوا. ثم انتهى أمر التحكيم بانخداع أبى موسى لعمرو بن العاص وخلعه أمير المؤمنين ومعاوية، ثم صعود عمرو بعده وإثباته معاوية وخلعه أمير المؤمنين، وأعقب ذلك ضعف أمير المؤمنين وأصحابه.

وكان الذين خرجوا على أمير المؤمنين وخطئوه فى التحكيم قد نقضوا بيعته، وجهروا بعداوته وصاروا له حربا، واجتمع معظمهم عند ذلك الموضع (النهروان)،

وهؤلاء يلقبون بالحرورية نسبة إلى حروراء. وكان رئيس هذه الفئة الضالة حرقوص بن زهير السعدى، ويلقب بذى الثدية «تصغير ثدى».

خرج إليهم أمير المؤمنين يعظهم فى الرجوع عن مقالتهم، والعودة إلى بيعتهم، فأجابوا النصيحة برمى السهام وقتال أصحابه كرم الله وجهه، فأمر بقتالهم.

الخريت بن راشد (٣٢٢)

كان الخريت بن راشد الناجى ـ أحد بنى ناجية ـ مع أمير المؤمنين فى صفين، ثم نقض عهده بعد صفين، ونقم عليه فى التحكيم، وخرج يفسد الناس، ويدعوهم للخلاف. فبعث إليه أمير المؤمنين كتيبة مع معقل بن قيس الرياحى، لقتاله هو ومن انضم إليه، فأدركته الكتيبة بسيف البحر بفارس. وبعد دعوته إلى التوبة وإبائه قبولها، شدت عليه، فقتل وقتل معه كثير من قومه، وسبى من أدرك فى رحالهم من الرجال والنساء والصبيان، فكانوا خمسمائة أسير. ولما رحل معقل بالسبى مر على مصقلة بن هبيرة الشيبانى، وكان عاملاً لعلى على أردشير خرة، من كور فارس، خرج فبكى إليه النساء والصبيان، وتصايح الرجال يستغيثون فى فكاكهم، فاشتراهم من معقل بخمسمائة ألف درهم، ثم امتنع من أداء المبلغ. ولما ثقلت عليه المطالبة بالحق لحق بمعاوية فرارا تحت أستار الليل.

الخوارج بعد علي[٣٢٣]

الخوارج من بعده، وإن كانوا قد ضلوا بسوء عقيدتهم فيه، إلا أن ضلالهم لشبهة تمكنت من نفوسهم. فاعتقدوا أن الخروج عن طاعة الإمام مما يوجبه الدين عليهم، فقد طلبوا حقا وأرادوا تقريره شرعا فأخطئوا الصواب فيه. لكنهم بعد أمير المؤمنين يخرجون بزعمهم هذا من غلب على الإمرة بغير حق، وهم الملوك الذين طلبوا الخلافة باطلاً فأدركوها وليسوا من أهلها؛ فالخوارج على ما بهم أحسن حالا منهم.

الأشعث بن قيس [٣٢٤]

أسر مرتين: مرة وهو كافر في بعض حروب الجاهلية، وذلك أن قبيلة «مراد» قتلت قيسا الأشج أبا الأشعث، فخرج الأشعث طالبا بثأر أبيه، فخرجت «كندة» متساندين إلى ثلاثة ألوية على أحدها كبش بن هانئ. وعلى أحدها القشعم بن الأرقم، وعلى أحدها الأشعث فأخطئوا مرادا ووقعوا على بني الحارث بن كعب «فقتل كبش والقشعم وأسر الأشعث». وفدى بثلاثة آلاف بعير لم يفد بها عربي قبله ولا بعده.

وأما أسر الإسلام له، فذلك أن بني وليعة لما ارتدوا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وقاتلهم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري لجئوا إلى الأشعث مستنصرين به فقال: لا أنصركم حتى تملكوني، فتوجوه كما يتوج الملك من قحطان، فخرج معهم مرتدا يقاتل المسلمين وأمد أبو بكر زياداً بالمهاجر بن أبي أمية، فالتقوا بالأشعث، فتحصن منهم، فحاصروه أياما ثم نزل إليهم على أن يؤمنوه وعشرة من أقاربه حتى يأتي أبا بكر فيرى فيه رأيه: وفتح لهم الحصن فقتلوا كل من فيه من قوم الأشعث إلا العشرة الذين عزلهم، وكان المقتولون ثمانمائة، ثم حملوه أسيرا مغلولا إلى أبي بكر، فعفا عنه وعمن كان معه، وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة.

بسر بن أبي أرطأة (٣٢٥)

يقال: بسر بن أبي أرطأة وبسر بن أرطأة وهو عامري، من بني عامر بن لؤي بن غالب، سيره معاوية إلى الحجاز بعسكر كثيف فأراق دماء غزيرة، واستكره الناس على البيعة لمعاوية. وفر من بين يديه والي المدينة أبو أيوب الأنصاري. ثم توجه واليا على اليمن فتغلب عليها، وانتزعها من عبيد الله بن العباس، وفر عبيد الله ناجيا من شره، فأتى «بسر» بيته فوجد له ولدين صبيين فذبحهما، وباء بإثمهما، قبح الله القسوة وما تفعل. ويروى أنهما ذبحا في بني كنانة أخوالهما، وكان أبوهما تركهما هناك، وفي ذلك تقول زوجة عبيد الله:

ها من أحس بني اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

ها من أحس بني اللذين هما ... قلبي وسمعي، فقلبي اليوم مختطف

من دل والهة حرى مولهة ... على صبيين ضلا، إذ مضى السلف

خبرت بسراً وما صدقت ما زعموا ... من إفكهم ومن القول الذي اقترفوا

وتروى هذه الأبيات بروايات شتى فيها تغيير وزيادة ونقص.

الضحاك بن قيس [٣٢٦]

إن معاوية لما بلغه فساد الجند على أمير المؤمنين دعا الضحاك بن قيس وقال له : سر حتى تمر بناحية الكوفة، وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدت من الأعراب في طاعة على فأغر عليه، وإن وجدت له خيلا أو مسلحة فأغر عليها. وإذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى. ولا تقيمن لخيل بلغك أنها قد سرحت إليك لتلقاها فتقاتلها. وسرحه في ثلاثة آلاف، فأقبل الضحاك فنهب الأموال وقتل من لقى من الأعراب، ثم لقى عمرو بن قيس بن مسعود الذهلى فقتله - وهو ابن أخى عبيد الله بن مسعود - ونهب الحاج، وقتل منهم وهم على طريقهم عند القطقطانة[٣٢٧] فساء ذلك أمير المؤمنين وأخذ يستنهض الناس إلى الدفاع عن ديارهم، وهم يتخاذلون، فوبخهم بما تراه في هذه الخطبة، ثم دعا بحجر بن عدى فسيره إلى الضحاك في أربعة آلاف، فقاتله، فانهزم فارا إلى الشام يفتخر بأنه قتل ونهب.

محمد بن أبى بكر (٣٢٨)

أسماء بنت عميس: كانت تحت جعفر بن أبى طالب، فلما قتل تزوجها أبو بكر فولدت منه محمدا، ثم تزوجها على بعده. وتربى محمد فى حجره، وكان جاريا مجرى أولاده، حتى قال على كرم الله وجهه: محمد ابنى من صلب أبى بكر.

علقة بن فراس (٣٢٩)

بنو فراس بن غنم بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، أو هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة: حى مشهور بالشجاعة، ومنهم علقة بن فراس، وهو جذل الطعان، ومنهم ربيعة بن مكدم، حامى الظعن (٣٣٠) حيا وميتا، ولم يحم الحريم أحد وهو ميت غيره. عرض له فرسان من بنى سليم ومعه ظعائن من أهله يحميهن وحده، فرماه أحد الفرسان بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه فى الأرض واعتمد عليه، وأشار إليهن بالمسير، فسرن حتى بلغن بيوت الحى، وبنو سليم قيام ينظرون إليه، لا يتقدم أحد منهم نحوه خوفا منه، حتى رموا فرسه بسهم فوثبت من تحته فسقط.

أخو غامد [٣٣١]

هو سفيان بن عوف، من بنى غامد، قبيلة باليمن من أزدشنوءة. بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق تهويلا على أهله.

كلمات

من أعجب العجائب الذى لم ير له مثيل أن ينام طالب الجنة فى عظمها واستكمال أسباب السعادة فيها، وأن ينام الهارب من النار فى هولها واستجماعها أسباب الشقاء.

ملحق الفتاوى

تمهيـــــد

فى ٣ يونيـو سنة ١٨٩٩م (٢٤ محرم سنة ١٣١٧هـ) ـ أى منذ خمسة وسبعين عاما ـ صدر مرسوم خديوى وقعه الخديو عباس حلمى بتعيين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية . . أما كلمات المرسوم فإنها تقول :

«صدر أمر عال من المعية السنية بتاريخ ٣ يونيه سنة ١٨٩٩م ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ هـ نمرة/ ٢ سايره، صورته :

(فضيلتلو حضرة الشيخ محمد عبده، مفتى الديار المصرية .

بناء على ما هو معهود فى حضرتكم من العالمية وكمال الدراية، قد وجهنا لعهدتكم وظيفة إفتاء الديار المصرية . وأصدرنا أمرنا هذا لفضيلتكم للمعلومية، والقيام بمهام هذه الوظيفة .

وقد أخطرنا عطوفتلو الباشا رئيس مجلس النظار بذلك) (٣٣٢) .

الختم

عباس حلمى

ولقد كانت لكلمات هذا المرسوم القصير، فى حياة مصر، دلالات كبيرة، ومعان ربما لا يدركها القارئ والباحث المعاصر، مباشرة، من كلمات هذا المرسوم .

ذلك أن منصب المفتى ووظيفة الإفتاء، مثلها كمثل غيرها وأشباهها من «الوظائف الدينية» كانت ـ لعدة قرون ـ وقفا على العلماء الأتراك العثمانيين الذى

يعينون في هذه المناصب من قبل سلاطين آل عثمان، وكان ذلك التقليد مظهرا ودليلاً على تبعية مصر للآستانة. واتخاذها وضع الولاية المحرومة من الاستقلال. ثم أصبحت وظيفة الإفتاء تضاف، غالبا، لمن يشغل وظيفة شيخ الجامع الأزهر.

ومن هنا، كان صدور ذلك المرسوم، الذي عين به الخديو الإمام محمد عبده مفتيا للديار المصرية، علامة بارزة على درب استقلال منصب الإفتاء.

ذلك أن منصب الإفتاء المصرى قد شغل، بصدور هذا المرسوم، للمرة الأولى، بعالم مصرى ذى مكانة عالمية، وكان من قبل ذلك يمر بمرحلة تحال فيها أسئلة المستفتين على شيخ الجامع الأزهر الشيخ حسونة النواوى (١٨٤٠ - ١٩٢٥م)(٣٣٣).

هذا عن دلالة هذا المرسوم فيما يتعلق بهذا الجانب من جوانب استقلال الشخصية المعنوية لمنصب المفتى ومؤسسة دار الإفتاء.

فإذا أضفنا إلى ذلك، أن مكانة الأستاذ الإمام، كمصلح دينى ومجدد فى الإسلام، كانت قد استقرت واستوت يومئذ، واعترف بها العالم الإسلامى بأسره، علمنا أن هذا التاريخ لا يمثل علامة بارزة فى حياة مصر فقط، ولا نقطة البدء الحقيقية لنشأة دار الإفتاء المصرية فحسب، وإنما كان اعترافا رسميا من قبل الدولة بأن الشيخ محمد عبده هو أبرز علماء العصر فى ذلك التاريخ.

أما الفتاوى التى نقدمها الآن، من مصدرها الأصلى - سجلات مضبطة دار الإفتاء - فإننا نود أن نقدم بين يديها عددا من الإيضاحات والبيانات وأهمها:

أولا: إن هذه هى المرة الأولى التى يكشف فيها الستار عن هذه الصفحة من صفحات فكر الأستاذ الإمام، والمرة الأولى التى تتكشف فيها للباحثين والقراء أبعاد الجهد الفكرى الذى أنجزه الرجل بوصفه مفتيا للديار المصرية، ومرجعا للعالم الإسلامى فى شئونه الدينية.

فحتى الشيخ رشيد رضا - الذى كان أوثق علماء ذلك العصر صلة بالأستاذ الإمام - لم تتح له فرصة الاطلاع على فتاوى الأستاذ الإمام فى دار الإفتاء، ولم يشر إليها فى كل ما كتب عنه، بل لقد ألمح إلى أنه لم يطلع عليها(٣٣٤).

وإذا كانت بعض الفتاوى التى تضمنتها مضبطة دار الإفتاء للأستاذ الإمام قد نشرت فى صحافة ذلك العصر، فإنها لا تمثل إلا صفحات لا تذكر إذا ما قيست بحجم الفتاوى التى ظلت حبيسة سجلات دار الإفتاء حتى قيامنا بهذا الجهد الذى نقدم له بهذه الصفحات.

وعلى وجه التحديد، فإن ما نشر منها لا يتعدى:

١ـ الفتوى الهندية: التى تتحدث عن التعامل بين المسلمين وغير المسلمين، وهى التى جاءت فى ص ٤٤ ـ ٤٧ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء (٣٣٥).

٢ـ فتوى طوفان نوح: وهى التى جاءت فى ص ٤٤ من السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء (٣٣٦).

٣ـ الفتوى الترنسفالية: وهى التى جاءت فى ص ٣١ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء (٣٣٧).

٤ـ الفتوى التى كتبها الإمام فى صورة مشروع قانون لتنظيم الإنفاق على الزوجة والتطليق على الزوج، وهى التى جاءت فى ص ٢١ من السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء(٣٣٨).

أما غير هذه الفتاوى الأربعة، فلقد ظل بعيدا عن متناول القراء والدارسين والباحثين. فإذا علمنا أن مجموع الفتاوى التى أصدرها الأستاذ الإمام، والتى دونت فى مضبطة دار الإفتاء، قد بلغ عددها ٩٤٤ فتوى، استغرقت السجل الثانى من سجلات مضبطة دار الإفتاء بأكمله، وصفحاته ١٩٨ صفحة، كما استغرقت ١٥٩ صفحة من صفحات السجل الثالث (٣٣٩)، أدركنا إلى أى حد نفتح نحن الآن بابا جديدا يفضى بنا إلى عالم بكر وصفحة من صفحات فكر الأستاذ الإمام وجهده، ظللنا بعيدين عنه، وجاهلين به طوال هذه السنوات التى زادت على السبعين.

ثانيا: إن الأستاذ الإمام قد استمر ينهض بمهمة الإفتاء ست سنوات كاملة (من٣ يونيو سنة ١٨٩٩م ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ هـ حتى وفاته فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م ٧ جماد الأولى سنة ١٣٢٣هـ). وأول فتوى أصدرها كان تاريخها ٢ صفر سنة

١٣١٧ هـ ـ أي بعد أسبوع من توليه هذا المنصب ـ وفيها رد حكم محكمة الاستئناف الأهلية بمصر الذى حكمت فيه بالإعدام على متهم بالقتل، فوضع تقليدا جديدا، وقرر سلطانا لم يعهد من قبل لصاحب هذا المنصب، بناء على دراسته القانونية والفقهية لقضايا القصاص وتشريعاتها والفقه المتعلق بها[٣٤٠]. أما نص هذه الفتوى الأولى فهو:

١ ـ (السؤال)

سئل [٣٤١] بإفادة من محكمة الاستئناف الأهلية، بمصر، مؤرخة فى ٢٩ محرم سنة ١٣١٧ نمرة ٢٩١ مرسل معها سبع وخمسون ورقة مضمونها: أن محكمة الاستئناف قررت يوم ٧ يونية سنة ١٨٩٩ إرسال أوراق قضية النيابة نمرة ٤٥١ المقيدة بالجدول العمومى نمرة ٨٦٧ ضد محمد حميد، المتهم بقتل عبد الوارث السيد، عمدا مع سبق الإصرار، إلى فضيلتكم لأخذ رأيكم فيها، وحددت جلسة يوم الخميس ١٥ يونية سنة ١٨٩٩ لصدور الحكم، وبناء عليه نرجو، بعد إعطاء الرأى فيها، تعاد الأوراق بالإفادة.

(الجواب)

اطلعت على قضية تهمة محمد على حميد، بقتل عبد الوراث السيد، عمدا مع سبق الإصرار والترصد، فوجدنا عليه كثيرا من القرائن التى تدل على ارتكابه جريمة القتل، لكنها مع كثرتها لا تكفى فى الحكم عليه بعقوبة الإعدام، لأن اليقين لا يبلغ بها إلى الحد الذى يسوغ الحكم بعقوبة لا يمكن تدارك الخطأ فيها لو ظهر بعد ذلك لسبب ما من الأسباب، خصوصا ودلائل سبق الإصرار غير متوافرة، لجواز أن يكون خاطر الجناية ورد بذهن القاتل عند امتناع المقتول عن إعطائه النقود التى طلبها منه، ولا يسهل القطع بأنه كان عازماً على قتله عند الامتناع.

والأمـر لوليـه [٣٤٢]، والأوراق طيه عدد ٥٧.

أما آخر فتاوى الأستاذ الإمام فتاريخها ٤ ربيع الآخر سنة ١٣٢٣ هـ ـ أى قبل

وفاته في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ هـ بشهر وثلاثة أيام، هي مدة اشتداد مرضه الذي مات فيه، رحمه الله - وكان موضوعها عن (الحلوان) ونصها:

٢ - (السؤال)

ويعطيه بعض المستأجرين للملك «مُفْتَحْجِيَّة» - وهي المسماة في عرف أهل مصر «بالحلوان» - فهل هذه «المفتحجية» التي يأخذها الوكيل تكون له؟ أو تضم للأجرة؟؟ أفيدوا.

(الجواب)

حيث كان من عرف الناس أن ما يدفع على سبيل «الحلوان» لا مدخل له في الأجرة التي وقع عليها عقد الإجارة، فيكون هذا «الحلوان» لذلك الوكيل أخذه، لاعتباره تبرعا من المستأجر، فلا يضم - والحالة هذه - إلى الأجرة التي حصل التأجير بها. والله أعلم[٣٤٣].

ثالثا: إن هذه الفتاوى، التي يقرب عددها من الألف، تعتبر بحق وثيق هامة، بل من أهم وثائق ذلك العصر، لمن يريد دراسة حياة المجتمع في ذلك الحين. فهي مرآة تعكس مشاكل الحياة وهموم الناس، وتحكي عن الثغرات التي كانت قد اتسعت يومئذ في النظام الاجتماعي والاقتصادي، وحالة الأسرة المصرية والشرقية وأمراضها، ودرجة الظلم الاجتماعي الذي كان قد أطبق على المجتمع في ذلك الزمان.. ومن ثم فإن دراسة علمية وجادة للمجتمع المصري أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين لا يمكن أن تتم في صورتها المثلى ما لم يبصر صاحبها مشاكل المجتمع وقضاياه مستعينا بالضوء الذي تسلطه هذه الفتاوى التي تحكي مشاكل العصر وهموم الناس ومعضلات المجتمع الذي عاشوا فيه..

(أ) فنحن، مثلا، نستطيع أن نبصر الوزن والحجم والأهمية التي كانت لنظام «الوقف» - الخيري منه والأهلي - كشكل من أشكال الاستغلال للأرض الزراعية، وكنوع من أنواع العلاقات التي كانت قائمة في الريف والمدينة على حد سواء.. وكذلك نستطيع أن نبصر أسماء وجنسيات وألوان أولئك الذين كانت «توقف»

عليهم ولحسابهم أهم وأغنى وأوسع الأراضي الزراعية والعقارات في مصر يومئذ . . وستقودنا هذه الفتاوى إلى حقائق على جانب كبير من الأهمية والخطورة . . فسنجد أن أرض مصر وعقاراتها وخيراتها كانت لأسماء من مثل :

* بنبه قادن، معتوقة الحاج «ألماس» . . وهذه الـ «بنبه قادن» هى أم الخديو عباس باشا الأول!! و«المصونة» كلفدان!! و«المصونة» كلبياظ البيضة الجركسية الجنس!! . . و«المصونة» تشريف الحبشية!! . . و«الأسته» زهرة . . و«الأسته» زينب . . و«الأسته» «سمود» و«الأسته» فكشة السمراء . . وهن من الجوارى الحبشيات المغنيات في قصور الأمراء!! وسرور أغا، ، وقاسم أغا، الأسمر . . وفروج . . وحبيب الحبشي!! . . والست زهرة، السمرة، معتوقة حضرة المرحوم محمد سعيد باشا، المعروفة الآن ـ أي وقتها ـ بزوجة المكرم على أغا الملاطيدلي؟! . .

على مثل هذه الأسماء كانت أرض مصر «موقوفة» وخيراتها «مرصودة» . . وكذلك على أولادهم وأولاد أولادهم وعلى جواريهم وعتقائهم، طبقة بعد طبقة، «سودا وبيضا وحبوشا» . . كما تقول نصوص الأسئلة والنصوص التي تضمها سجلات دار الإفتاء!! .

(ب) ولا أعتقد أن هناك من السجلات والوثائق ما يمكن أن يضع يد الباحث على حقائق الفقر والفاقة التي عاشها شعبنا يومئذ، والتي بلغت الحد الذي جعل الناس ـ كثيرا من الناس ـ عندما يولد لهم ولد أو بنت يذهبون بالمولود إلى المستشفى ويتركون الطفل به تخلصا من مهمة تربيته التي هم عن القيام بها عاجزون!! فالقرآن يحكي أن أعراب الجاهلية كانوا يتخلصون من البنات ـ أحيانا ـ خشية الإملاق، أما مصر الإقطاع والاستعمار فلقد كان فيها من يتخلص من البنات والبنين لشدة الإملاق . . وفتاوى الأستاذ الإمام تضع يدنا على أن هذا الأمر قد تفشى، وأصبح حالة تستفتى بشأنها «مصلحة الصحة» عن حكم الشرع فى إعطاء هؤلاء الأطفال لمن يتولى تبنيهم ورعايتهم دون إذن من آبائهم «أسوة بالأطفال اللقطاء» ، وذلك «لأنه بعد تسليم الطفل «للأسبيتالية» ، لعدم القدرة على تلك التربية، يصعب معرفة أبويه لأخذ قولهما فى الرضاء بالتسليم للغير[٣٤٤] . . » !!

(جـ) كما ستضع هذه الوثائق يدنا على صفحة من صفحات الوحدة الوطنية لهذه الأمة نعتقد أن الوقوف أمامها في تأمل، والاقتداء بها هو أمر واجب، بل واجب مقدس، اليوم وغدا، وعلى مر الأيام والعصور.

فنحن ندهش عندما نرى أن محمد عبده لم يكن مفتيا لمسلمي مصر فقط، وإنما كان مفتيا لكل الشعب المصرى، بمختلف طوائفه وأديانه!! . . فالأقباط يسألونه فى مشاكلهم المادية والأسرية، فيفتيهم، وأبناء الجاليات الأوروبية يستفتونه فيفتيهم، و«بطر كخانة» الروم تصنع نفس الشيء، بل وحاخامات اليهود، لا فى مصر فقط بل وفى عكا مثلا!! . . وعلى يدى هذا الإمام كانت الشريعة الإسلامية تشريع أمة وتراث شعب، وليس فكرا طائفيا خاصا بدين من الأديان. . وفى كثير من صفحات مضبطة دار الإفتاء التى تضم فتاواه نطالع الكثير من هذه الفتاوى التى تؤكد أن هذا الأمر كان ظاهرة عامة، كما تؤكد سعة أفقه واستنارته وموضوعيته عندما يفتى ـ مثلاً ـ بأن للأم المسيحية حضانة أولادها من زوجها الذى اعتنق الإسلام!! وأن للبطر كخانة أن ترعى ميراث البنات المسيحيات الغائبات اللاتى عهدن بذلك قبل غيابهن. . الخ.

وهذه الصفحة من تاريخ مصر وتاريخ محمد عبده تضاف إلى ما كتبناه عنه فى مقدمة الجزء الأول عند حديثنا عن فكره السياسى، وإلى نصوصه وجهوده فى التقريب بين الأديان. . لتؤلف قسمة من أكثر القسمات أصالة فى حياة هذه الأمة على مر التاريخ.

(د) ونحن سنجد فى هذه الفتاوى كيف أبصر الأستاذ الإمام أن طريق التقدم والتطور للمجتمع يومئذ كان يتطلب فتح الطريق أمام النمو البورجوازى فى ميدان الاقتصاد، ومن هنا كان اجتهاده فى ميدان إباحة «ربح» التأمين على الحياة، قياسا على «شركات المضاربة» ، أى فتح الطريق أمام إنشاء الشركات المساهمة، و«تشغيل» الأموال فى السوق الرأسمالية، وتقاضى الأرباح عن المساهمة بها فى الشركات.

كما نستطيع أن نبصر مدى تقدم فكر الرجل إزاء هذا الموضوع إذا نحن علمنا أن كثيرين من علماء الدين فى زماننا لا يزالون يرفضون ذلك، بل ويشككون فى أن

يكون للأستاذ الإمام فتوى تبيح ذلك . . ولحسن حظ الحقيقة فإن مضبطة دار الإفتاء تقدم لنا أكثر من فتوى أصدرها الرجل فى هذا الموضوع(٣٤٥)!!

(هـ) ونحن نستطيع أن نقرأ تلك الفتوى الهامة التى قرر فيها الإمام ـ فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول الإسلامية ـ ما يمكن أن نسميه «الأممية الإسلامية» ، التى جاءت صياغة تطبيقية فى العلاقات الدولية لما عرف يومئذ بحركة «الجامعة الإسلامية» (٣٤٦) . .

(و) وكذلك موقفه المحدد، بل والثوري، إزاء البدع والخرافات التى تراكمت على معتقدات الناس وسلوكهم، فحسبوها ـ جهلا ـ من الإسلام . . مثل ما اعتادوه فى المساجد يوم الجمعة من قراءة سورة الكهف، والترقية والدعاء بصوت مسموع تعقيبا على بعض كلمات الخطيب، وبناء القبور في المساجد، وبناء القباب على هذه القبور، والمصاريف التى ينفقونها فى الجنازات والمآتم إلخ . . وهى الأمور التى لا صلة لها بالإسلام(٣٤٧) .

(ز) كما تضع تلك الفتوى، التى عرفت بالفتوى الهندية، يدنا على فكر الأستاذ الإمام عندما دعا إلى إنهاء غربة المسلمين وعزلتهم عن الحضارة الإنسانية، وقرر أن الإسلام يدعو المسلم إلى التعاون والتفاعل مع أبناء الأديان والملل والنحل والأهواء المغايرة والمخالفة والمناقضة للإسلام والمسلمين(٣٤٨) .

(ح) كما تقدم لنا هذه الفتاوى رأى الإسلام الذى يحفظ للمرأة حقها فى الاستقلال المالى والاقتصادي، وهو الرأى الذى عجزت عن الوصول إليه قوانين فرنسا وغيرها من الأمم الأوروبية حتى ذلك الحين(٣٤٩) .

(ط) وفى قضية ما زالت محل خلاف حتى اليوم بين علماء الحساب والفلك وبين علماء الدين، وهى التى تتعلق بسبل تحديد أوائل الشهور القمرية، إذ يرى العلماء الفلكيون ضرورة الاعتماد على الفلك والحساب والعلوم، بينما يصر بعض علماء الدين على أن نظل معتمدين على «رؤية الهلال» بالعين . . فللأستاذ الإمام فتوى يرجح فيها الاعتماد على «رؤية الهلال» بدلا من الاعتماد على «الحساب» ـ مع اعترافه بأن هذا الأمر موضع خلاف بين الفقهاء ـ ولكن المهم هو التعليل الذى يقدمه لرأيه هو . . فهو يحبذ «الرؤية» «لأن أحكام الدين الإسلامى مبنية على

الأسهل والأيسر للناس» . . فإذا علمنا أن «الأسهل والأيسر» لنا اليوم ـ بعد التقدم العلمي الذى بلغ حد غزو الفضاء ـ هو الاعتماد على «الحساب» أدركنا أن «الحكمة والفلسفة» التى قدمها الأستاذ الإمام فى هذه الفتوى إنما هى فى صف العلم والعلماء وضد الجمود على الأوضاع والسبل والوسائل التى كانت متبعة عند الأقدمين الذين لم تكن باستطاعتهم وسائل سواها أو أسهل منها(٣٥٠).

(ى) كما تضع هذه الفتاوى يد الباحث على أسلوب العصر وطرائقه فى الكتابة الديوانية ـ وعلى صناعة الإنشاء ـ وهى قسمة هامة من قسمات العصر وضرورية لأى باحث فيه.

(ك) ثم هى تنبئ عن المكانة التى بلغها الأستاذ الإمام فى منصب الإفتاء، لا فى مصر وحدها بل فى عالم الإسلام والمسلمين . . فمنها نعرف أن الأسئلة كانت تأتيه من مختلف أنحاء العالم الإسلامى . . وأنهم كانوا يطلبون منه مراجعة فتاوى الذين يتولون مناصب الإفتاء فى عدد من البلاد والأقطار الأخرى . . وأنه كان يراجع ويرد الكثير من الأحكام التى يصدرها القضاء الشرعى والأهلى فى مصر وفى غيرها من البلاد . . إلخ . . إلخ.

رابعا : هذا عن أهمية هذه الفتاوى، كوثيقة من أهم وثائق عصرها، ومرآة تعكس مشاكل المجتمع وهموم الذين عاشوا فيه.

أما موضوعاتها الرئيسة وقضاياها التى دارت من حولها الأسئلة والإجابات، فلقد أحصيناها وصنفناها فجاءت على هذا النحو :

(أ) عن الوقف وقضاياه . . والميراث ومشكلاته . . . والمعاملات ذات الطابع المالى والآثار الاقتصادية . . مثل : البيع والشراء، والإجارة، والرهن، والإيداع، والوصاية، والشفعة، والولاية على القصر، والحكر، والحجر، والشركة، وإبراء الذمة، ووضع اليد، والديون، والهبة، والإرصاد، والوصية، والاستبدال، والمكافأة، والمعاش، واستقلال المرأة المالى والاقتصادى، والدوطة . . إلخ . . إلخ . .

وعدد فتاوى الأستاذ الإمام فى هذه الموضوعات يبلغ نحوا من ٧٢٨ فتوى.

(ب) عن مشاكل الأسرة وقضاياها . . . من : الزواج، والطلاق، والنفقة، والرضاع، والحضانة، وولاية النكاح، والإقرار بالغلام المجهول . . إلخ . . إلخ .

وعدد فتاوى الأستاذ الإمام فى هذه الموضوعات يبلغ نحوا من ١٠٠ فتوى .

(جـ) عن القود والقتل والقصاص .

وعدد فتاوى الأستاذ الإمام فى هذا المجال ٢٩ فتوى .

أى أن نحوا من ٨٠٪ من الفتاوى إنما تجيب عن أسئلة تتعلق بمشكلات خاصة بالحياة المالية والاقتصادية وقضاياها .

خامساً: وانطلاقا من إدراكنا لأهمية هذه الفتاوى ـ تلك الأهمية التى أشرنا إلى طرف منها فى هذا التقديم ـ فنحن نعتقد بضرورة نشرها وبعثها، سواء منها تلك الفتاوى التى حوت آراء فقهية، أو أتت بشىء يدخل فى باب التجديد الدينى والإصلاح الاجتماعى، أو تلك التى تدخل فى إطار «الفتاوى التقليدية» التى من الممكن أن يجيب عنها أى متفقه ـ غير الأستاذ الإمام ـ مثل كثير من فتاواه فى الوقف والميراث وغيرهما من المسائل الفقهية التى أجاب عنها بحكم منصبه فى دار الإفتاء . ولكن كثرة هذه الفتاوى «التقليدية» التى تخلو من «التجديد» و«الرأى الفقهى» و«الطابع الاجتهادى» ، وكون أغلب هذه الفتاوى مما يدخل فى إطار «الإنجاز الذى قام به الإمام بحكم وظيفته» ، لا بحكم علمه المتميز والمتفرد، قد حدد خطة نشرنا لها وفق المنهج الذى قررناه والذى تحدده هذه النقاط :

١ ـ أن ننشر كل الفتاوى التى جاءت بهذه السجلات، والتى تمثل إضافات لفكر الإمام فى الإصلاح الاجتماعى والتجديد الدينى، والتى ينطبق عليها بالفعل صفة (الأعمال الفكرية) ـ وهى التى نختص بنشرها ـ إذ نحن لا ننشر إلا ما يمثل عملا فكريا للأستاذ الإمام .

٢ ـ أن ننشر من الفتاوى «التقليدية» ـ إن جاز التعبير ـ التى من الممكن أن يجيب عنها أى متفقه غير الأستاذ الإمام، لا تكون له مثل مكانته وقدراته . . ننشر من هذه الفتاوى قدرا مناسبا يعطى القارئ والباحث صورة واضحة وشاملة ودقيقة عن العصر ومشكلاته، وعن الجهود التى كان الإمام ينجزها من خلال منصب مفتى الديار المصرية .

٣ـ أن ننشر عددا كبيرا من الفتاوى «التقليدية» التى تنم عن جهد فقهى بذله الأستاذ الإمام فى إجابة السائلين عنها.

ذلك أنه فى إجابة الأستاذ الإمام عن العديد من هذه الفتاوى «التقليدية» تتضح لنا آفاقه الواسعة التى استوعبت الكثير من نواحى الفقه الإسلامى وأبوابه وقضاياه، وتتجلى لنا غزارة معلوماته فى المسائل التفصيلية والدقيقة التى استوعبتها بطون المجلدات التى كتبها أئمة الفقه، وهى المجلدات التى لم تكن أغلبيتها الساحقة قد طبعت بعد يومئذ. ومن هنا نعلم كيف كان الأستاذ الإمام ـ وأضرابه من أسلافنا العظام ـ يبذلون الجهد فى استيعاب المعارف والعلوم من بطون المخطوطات، على ما فى ذلك من الجهد المضاعف، بالقياس إلى ما قدمته لنا المطبعة من تيسيرات.

ففى هذا القدر من الفتاوى، ما يضع يد القارئ والباحث على المادة الضرورية التى تفى بحاجته من «فكر» الإمام، وعلى «الصورة الكاملة» للعصر الذى عاش فيه والمجتمع الذى عبرت عن مشاكله هذه الفتاوى، وعلى «الجهد الفقهى» الذى بذله فى هذا الميدان.

إن آمالنا لطموحة فى بعث كل الآثار الفكرية للأستاذ الإمام.. بل إننا نفكر فى تذليل العقبات التى تحول بيننا وبين نشر «أعماله القضائية» و«حيثيات الأحكام» التى أصدرها مدة عمله فى القضاء من سنة ١٨٨٩ حتى توليه منصب المفتى سنة ١٨٩٩، عندما عمل قاضيا بمحكمة «بنها»، ثم «الزقازيق»، ثم «عابدين»، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف سنة ١٨٩١م..

ونحن نعتقد أن التوفيق، إذا حالفنا، فى نشر هذه «الأعمال القضائية»، فلربما وضعنا بين يدى هذه الأمة تراثاً فى التشريع والقضاء يعينها على حسم الكثير من مواقف الحيرة التى يقفها كثير من المفكرين والباحثين والمشرعين ورجال القانون وعلماء الدين..

وهكذا.. فإننا ونحن نقدم للباحثين والقراء هذه الصفحة الجديدة من فكر الأستاذ الإمام وجهده، نعد بمزيد من الصفحات لا فى حجم هذا «الملحق» الذى نذيل به هذا الجزء الثانى، وإنما فى حجم «عدة مجلدات» أخرى نأمل أن تضمها الطبعة القادمة من هذه الأعمال..

وليس التوفيق فى تحقيق هذا «الوعد ـ الأمل» على الله ببعيد.

وليس ذلك على مكانة الأستاذ الإمام الفكرية بغريب.

ألم يكن أهم ظاهرة فكرية شهدها عالمنا العربى والإسلامى فى مطلع هذا القرن الذى نعيش فيه؟!

نسأل الله أن ييسر لنا سبل الوصول إلى حيث تقبع هذه الكنوز الفكرية والوثائق القومية فى ظلمات المخازن المعرضة للتآكل والتحلل والضياع والفناء!!

القاهرة ـ إبريل سنة ١٩٧٤م　　　　محمد عمارة

تنبيـــــه

في فتاوي الأستاذ الإمام نلتقي بإشارات إلى أسماء الكتب الفقهية والمصادر التى كتبت فى مذهب أبى حنيفة . . وهو يذكرها مختصرة دون ذكر المؤلف، أو يذكر اسم المؤلف دون ذكر مرجعه . . ونحن نقدم للقارئ هنا البيانات المساعدة والضرورية عن هذه المصادر .

١ ـ (الأشباه) : هو كتاب (الأشباه والنظائر) لابن نجيم المصرى (زين العابدين بن إبراهيم بن محمد) (٩٧٠ هـ) . . ولقد طبع الكتاب فى كلكتة، بالهند، سنة ١٢٤١ هـ وفي مصر بمطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨هـ .

٢ ـ (البحر) : وهو كتاب (البحر الرائق شرح كنز الدقائق) لابن نجيم المصرى . وهو مطبوع بالمطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١١هـ .

٣ ـ (رد المحتار) : وهو كتاب (رد المحتار على الدر المختار) لابن عابدين (محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن أحمد) (١١٩٨ ـ ١٢٥٢هـ) . ولقد طبعته مطبعة بولاق فى سنوات ١٢٧٢ ، ١٢٨٦ ، ١٢٩٩ هـ . كما طبعته المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٧هـ .

٤ ـ (الإسعاف) : وهو كتاب (الإسعاف لأحكام الأوقاف) لبرهان الدين إبراهيم بن أبى بكر بن الشيخ على الطرابلسى (٨٤٣هـ) . . وهو مختصر جمع فيه وقفى الهلال والخصاف . طبعته مطبعة بولاق سنة ١٢٩٢هـ .

٥ ـ (البزازية) : وهو كتاب (الفتاوى البزازية، أو البزازية فى الفتاوى، أو الجامع

الوجيز) للبزازي (محمد بن محمد بن شهاب الدين بن يوسف الكردي (٨٢٧هـ). وهو مطبوع في قازان سنة ١٣٠٨ هـ وفي بولاق سنة ١٣١١هـ.

٦ ـ (التنوير): وهو كتاب (تنوير الأبصار وجامع البحار) لمحمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب (١٠٠٤هـ).

٧ ـ (الأنقروية): وهو كتاب (الفتاوى الأنقروية) للأنقروي (محمد بن الحسين) (١٠٩٨هـ). طبعته مطبعة بولاق سنة ١٢٨١هـ.

٨ ـ (العقود): وهو كتاب (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية) لابن عابدين. وضعها على (الفتاوى الحامدية) لحامد أفندي بن محمد القونوي. وطبعته بولاق سنة ١٣٠٠ هـ والميمنية سنة ١٣١٠ هـ[٣٥١].

٩ ـ (الفتح): وهو كتاب (فتح الله المعين على شرح الكنز للعلامة ملامسكين) للشيخ محمد أبو السعود بن علي الحسيني (من علماء القرن الثاني عشر الهجري). طبعته مطبعة المويلحي بمصر سنة ١٢٨٧هـ.

١٠ ـ (الملتقى): وهو كتاب (ملتقى الأبحر في فروع الحنفية) لإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبي (٩٥٦هـ). طبعته بولاق سنة ١٢٦٣هـ.

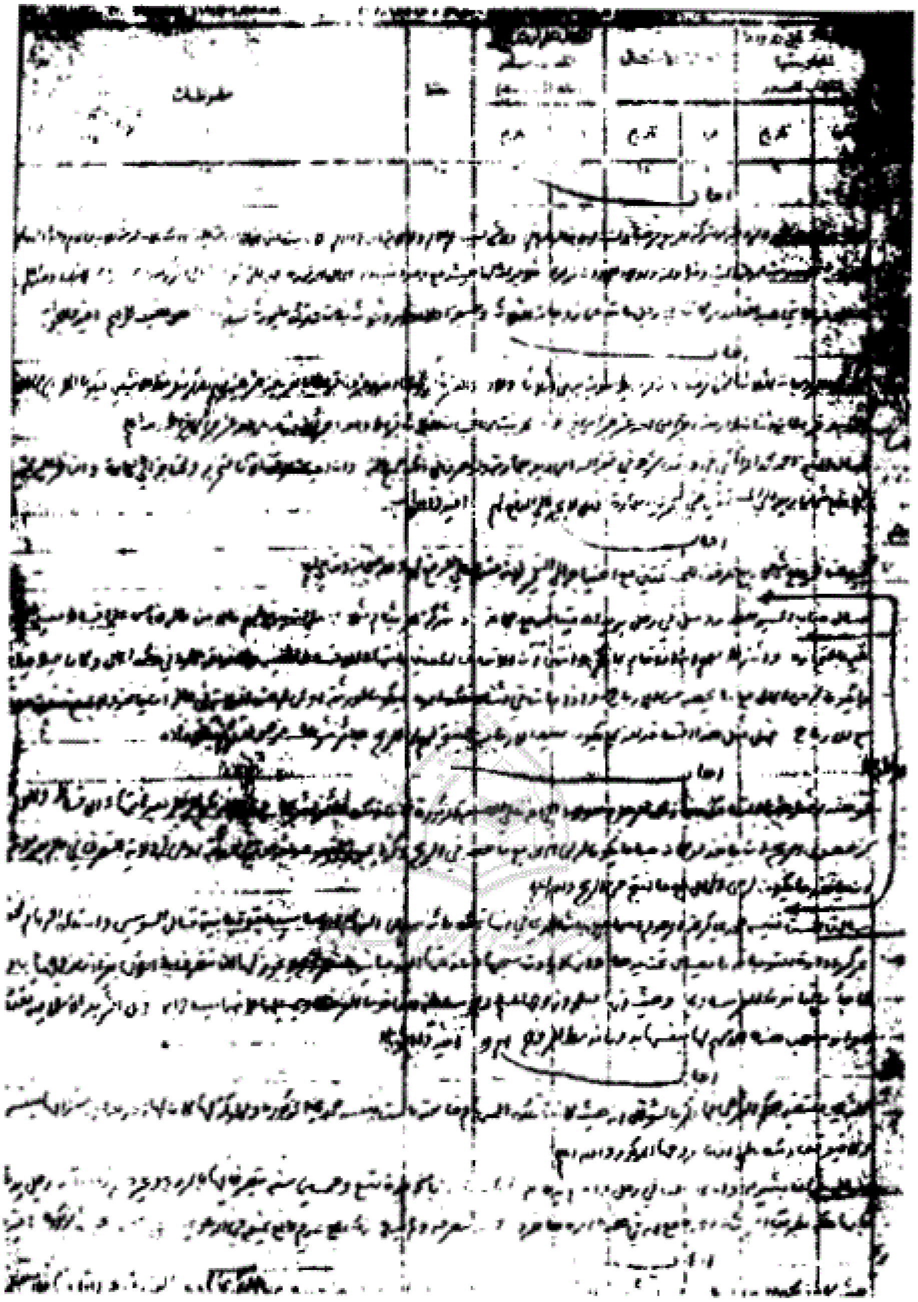
١١ ـ (حاوي الزاهدي): وهو كتاب (حاوي مسائل الواقعات والمنية وما تركه في تدوينه من مسائل القنية وزاد فيه من الفتاوى لتتميم الغنية) لأبي الرجا نجم الدين الإمام مختار بن محمود الزاهدي (٦٥٨هـ).

١٢ ـ (القهستاني): وهو كتاب (جامع الرموز وحواشي البحرين على مختصر الوقاية) لشمس الدين محمد القهستاني (٩٥٠هـ) وهو شرح على (النقاية مختصر الوقاية) لعبد الله بن مسعود. طبع في كلكتة سنة ١٢٨٤هـ، ولكنا سنة ١٣٠٩ هـ وقازان سنة ١٨٨٠، سنة ١٨٩٤، سنة ١٨٩٨، سنة ١٩٠٢م.

١٣ ـ (الكرماني): إشارة إلى: ابن أميرويه الكرماني (عبد الرحمن بن محمد) (٤٥٧ ـ ٥٤٣هـ) صاحب (الفتاوى) و(تجريد الركني في الفروع) و(إشارات

الأسرار في شرح الجامع الكبير) للشيباني و (الجامع الكبير في الفروع) و(الإيضاح في شرح التجريد).

١٤ ـ (صاحب فتح القدير): إشارة إلى الشيخ الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، المعروف بابن الهمام، الحنفي، المتوفى سنة ٨٦١هـ، واسم كتابه (فتح القدير للعاجز الفقير) وهو شرح على كتاب (الهداية) لشيخ الإسلام برهان الدين علي أبي بكر المرغيناني، الحنفي، المتوفى سنة ٩٥٣ هـ[٣٥٢].



صورة زنكغرافية لصفحة من صفحات مضبطة دار الإفتاء، ومن بين الفتاوى المسجلة بها فتوى الأستاذ الإمام الخاصة بحكم الشرع في أرباح أقساط التأمين . . (فتوى شركة جريشام للتأمين).

صورة زنكغرافية لصفحة من صفحات مضبطة دار الإفتاء، ومن بين الفتاوى المسجلة بها فتوى الأستاذ الإمام الخاصة بحكم الشرع فى أرباح أقساط التأمين . . (فتوى شركة جريشام للتأمين).

فتاوى فى التجديد
والإصلاح الدينى

فى التأمين والأرباح

٢ ـ (السـؤال)

سأل جناب مدير شركة «قمبانية» (متوال ليف) الأمريكانية، في: رجل اتفق مع جماعة (قومبانية) على أن يعطيهم مبلغا معلوما، فى مدة معلومة، على أقساط معينة، للاتجار به فيما يبدو لهم فيه الحظ والمصلحة، وأنه إذا مضت المدة المذكورة، وكان حيا، يأخذ هذا المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة. وإن مات فى خلالها تأخذ ورثته، أو من يطلق له حال حياته ولاية الأخذ، المبلغ المذكور مع الربح الذى نتج مما دفعه. فهل ذلك يوافق شرعا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر، يكون من قبيل شركة المضاربة، وهي جائزة. ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة، وإذا مات الرجل فى أثناء المدة، وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه، وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ كله لورثته أو لمن يكون له حق التصرف بدل المتوفى بعد موته، جاز للورثة أو من يكون له حق التصرف في المال أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور. والله أعلم[٣٥٣].

٤ ـ (السؤال)

سأل جناب الموسيو «هوصار» التاجر بمصر فى رجل تعاقد مع جماعة شركة على أن يدفع لهم مالا معينا من ماله، فى زمان معين، على أقساط معينة، ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر، وانتهى آن الاتفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة، وكانوا قد عملوا فى ذلك المال، وكان حيا، يأخذ ما يكون له من المال مع ما خصه فى الربح. وإنه إذا مات فى أثناء ذلك الأمد، وكان هؤلاء الجماعة قد عملوا فى ذلك المال الذى دفعه، كان لورثته أو لمن له ولاية ماله أخذ ما يكون له من المال مع ما خصه فى الربح.

فهل ليس فى ذلك ما يخالف الشرع، لكونه من قبيل شركة المضاربة؟ وهل إذا سمى هؤلاء الجماعة هذا التعاقد باسم آخر لا يضر ذلك الموضوع؟

(الجواب)

تعاقد هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ لهم من ماله للعمل فيه بالتجارة، على وجه ما ذكر، من قبيل المضاربة، وهى جائزة شرعا. ويجوز له أخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح بسبب العمل فيه بالتجارة، ولو انتهى زمن ذلك الدفع، وكذا يجوز لوارثه أو لمن له ولاية التصرف فى ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما خصه من الربح لو مات فى أثناء ذلك الزمان، وكان هؤلاء الجماعة قد عملوا فيه. ثم إن تسمية ذلك التعاقد باسم آخر غير شركة المضاربة لا يضر بذلك الموضوع. والله أعلم(٣٥٤).

٥ ـ (السؤال)

سأل المسيو «هور روسل» فى رجل يريد أن يتعاقد مع جماعة(شركة الجريشام مثلا) على أن يدفع لهم مالا من ماله الخاص، على أقساط معينة، ليعملوا فيه بالتجارة، واشترط معهم أنه إذا قام بما ذكر، وانتهى آن الاتفاق المعين بانتهاء الأقساط المعينة، وكانوا قد عملوا فى ذلك المال، وكان حيا، فيأخذ ما يكون له من

المال مع ما يخصه من الأرباح. وإذا مات في أثناء تلك المدة فيكون لورثته أو لمن له حق الولاية في ماله أن يأخذوا المبلغ تعلق مورثهم، مع الأرباح. فهل مثل هذا التعاقد، الذي يكون مفيدا لأربابه بما ينتجه لهم من الربح، جائز شرعا؟ نرجو التكرم بالإفادة.

(الجواب)

لو صدر مثل هذا التعاقد بين ذلك الرجل وهؤلاء الجماعة، على الصيغة المذكورة، كان ذلك جائزا شرعا. ويجوز لذلك الرجل، بعد انتهاء الأقساط والعمل في المال وحصول الربح، أن يأخذ ـ لو كان حيا ـ ما يكون له من المال، مع ما خصه في الربح، وكذا يجوز لمن يوجد بعد موته من ورثته أو من له ولاية التصرف في ماله بعد موته أن يأخذ ما يكون له من المال مع ما أنتجه من الربح. والله أعلم(٣٥٥).

في الجنسية والقومية

٦ ـ (السؤال)

سأل الشيخ عبد الحكيم المزوغي: في المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يعد من رعيتها؟ له ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عموما وخصوصا؟ وما هي الجنسية عندنا؟ وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها عند غير المسلمين «بالكبيتولاسيون» موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضا؟ أفيدونا مأجورين.

(الجواب)

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية قامت على أصل واحد، وهو وجوب الانقياد لها على كل مسلم، في أي محل حل وإلى أي بلد ارتحل. فإذا نزل ببلد إسلامي جرت عليه أحكام الشريعة الإسلامية في ذلك البلد، وصار له من الحق ما لأهله،

وعليه من الحق ما عليهم، لا يميزه عنهم مميز. ولا أثر لاختلاف البلاد فى اختلاف الأحكام.

نعم، قد يكون الحكم فى بعض الأقطار حنفيا وفى بعضها مالكيًا، مثلا، ولكن هذا لا أثر له فى الحق، للشخص أو عليه، فمتى قضى له أو عليه فله ما قضى له به، وعليه أداء ما قضي به عليه، على أي مذهب كان، متى كان القاضى مولى من طرف الحاكم العام، إذ حكم الحاكم يرفع الخلاف.

ولا ذكر لاختلاف الأوطان في الشريعة الإسلامية، إلا فيما يتعلق بأحكام العبادات، من قصر الصلاة للمسافر، وجواز الفطر في رمضان، وقد يتبع ذلك شيء فى اختصاص المحاكم، من حيث تعيين الجهة التى يكون لقاضيها الحق فى أن يحكم فى الدعوى التى ترفع إليه من شخص على آخر، هل هى محل المدعى؟ أو محل المدعى عليه؟ غير أن شيئا من ذلك لا يغير من حق للمدعى أو المدعى عليه؛ فالشريعة واحدة والحقوق واحدة، يستوى فيها الجميع فى أى مكان كانوا من البلاد الإسلامية. فوطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذى ينوى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويقر فيه مع أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذى نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه فى الأحكام والمعاملات. وإنما بلده ووطنه الذى يجرى عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذى انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذى يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شيء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية، فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام تجرى عليهم، لا فى خاصتهم ولا عامتهم. وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه. وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس فى الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر فى الحقوق ولا فى الأحكام. فالجنسية لا أثر لها

عند المسلمين قاطبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله أذهب عنكم عبية»[٣٥٦] الجاهلية - (عظمتها) - وفخرها بالآباء، إنما هو: مؤمن تقى وفاجر شقى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب». وروى كذلك عنه: «ليس منا من دعا إلى عصبية».

وبالجملة، فالاختلاف فى الأصناف البشرية، كالعربى، والهندى، والرومى، والشامى، والمصرى، والتونسى، والمراكشى، مما لا دخل له فى اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه. ومن كان مصريا وسكن فى بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصرى بوجه من الوجوه.

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتو لاسيون»، فلا يوجد شىء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة، فهذه بلاد مراكش وبلاد أفغانستان، لكل من البلدين حكومة مستقلة عن الأخرى، وكلتا الحكومتين مستقل عن الدولة العثمانية، ولا يوجد شىء من حقوق الامتيازات بين حكومة من هذه الحكومات وأخرى منها. وما تراه من الوكلاء لحكومة مراكش مثلا فى[٣٥٧] الممالك العثمانية لا يعتبرون سفراء مثل سفراء الدول الأجنبية، وإنما هم وكلاء لشخص الحاكم ورجال دولته لقضاء بعض المصالح الخاصة ولمساعدة مواطنيهم فيما يعرض لهم من الحاجات، ولا أثر لهم فيما يدخل فى الشرائع والأحكام.

وما يوجد من أثر الامتياز فى الحقوق لرعية شاه العجم وسلطان مراكش فى بعض الممالك الإسلامية، كمصر، فإن الإيرانيين والمغاربة قد نالوا ضربا من الامتياز بالتقاضى إلى المحاكم المختلطة من عدة سنوات، ذلك الذى تراه من أثر الامتياز يناقض أصول الشريعة الإسلامية كافة، فلا أهل السنة يجيزونه، ولا مجتهدو الشيعة يسمحون به، وإنما هو شىء جر إليه فسوق بعض الرعايا وميل المحاكم المختلطة إلى التوسع فى الاختصاص.

وما قضت به بعض القوانين المصرية من أن سائر العثمانيين لا ينالون حق التوظيف فى مصالح الحكومة المصرية، ولا حق الانتخاب فى مجالس شوراها، إلا بقيود مخصوصة، يشبه تقرير الحقوق فى انتخاب مجالس البلدية. فمجلس بلدية الإسكندرية مثلا، لا يدخل فى انتخاب أعضائه المقيم بالقاهرة، فهو من باب

تفضيل سكان المكان على سكان غيرهم، وإيثارهم أولئك بالنظر فى المنافع على هؤلاء لقربهم، مع استواء الكل فى الانتساب إلى شريعة واحدة، واشتراكهم فى الحقوق التى قررتها تلك الشريعة، بلا امتياز.

هذا ما تقضى به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها؛ لا جنسية فى الإسلام، ولا امتياز فى الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذى يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره. والله أعلم(٣٥٨).

زى الكتابيين وذبائحهم

٧ـ (السؤال)

سأل الحاج مصطفى الترنسفالى، فى: أنه يوجد أفراد فى بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم، هل يجوز ذلك؟

هذا أولا.

وثانيا: إن ذبحهم مخالف، لأنهم يضربون البقر بالبلط، وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية، والغنم يذبحونها من غير تسمية، هل يجوز ذلك؟

وثالثا: إن الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية، ويصلون خلفهم العيدين، ومن المعلوم أن هناك خلافا بين الشافعية والحنفية فى فرضية التسمية وفى تكبيرات العيدين.. فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر؟

أفتونا فى ذلك..

(الجواب)

أما لبس البرنيطة، إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول فى دين غيره، فلا يعد مكفرا. وإذا كان اللبس لحاجة، من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك، لزوال معنى التشبه بالمرة.

وأما الذبائح: فالذى أراه أن يأخذ المسلمون فى تلك الأطراف بنص كتاب الله تعالى فى قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ (المائدة: آية ٥)، وأن يعولوا على ما قاله الإمام الجليل أبو بكر بن العربى، المالكى، من أن المدار على أن يكون ما يذبح مأكول أهل الكتاب، قسيسهم وعامتهم، ويعد طعاما لهم كافة. فمتى كانت العادة عندهم إزهاق روح الحيوان بأى طريقة كانت، وكان يأكل منه، بعد الذبح، رؤساء دينهم، ساغ للمسلم أكله، لأنه يقال له طعام أهل الكتاب، متى كان الذبح جاريا على عادتهم المسلمة عند رؤساء دينهم، ومجىء الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ إلخ بعد آية تحريم الميتة وما أهل لغير الله به بمنزلة دفع ما يتوهم من تحريم طعام أهل الكتاب، لأنهم يعتقدون بألوهية عيسى، وكانوا كذلك كافة فى عهده عليه الصلاة والسلام، إلا من أسلم منهم. ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر، فإذن تكون الآية كالصريحة فى حل طعامهم مطلقا، متى كان يعتقدونه حلا فى دينهم، دفعا للحرج فى معاشرتهم ومعاملتهم.

وأما صلاة الشافعى خلف الحنفى فلا ريب عندى فى صحتها، ما دامت صلاة الحنفى صحيحة على مذهبه، فإن دين الإسلام واحد، وعلى الشافعى المأموم أن يعرف أن إمامه مسلم صحيح الصلاة، بدون تعصب منه لإمام. ومن طلب غير ذلك، فقد عد الإسلام أديانا لا دينا واحدا، وهو مما لا يسوغ لعاقل أن يرمى إليه بين مسلمين قليلى العدد فى أرض كل أهلها من غير المسلمين إلا أولئك المساكين. والله أعلم[٣٥٩].

٨ ـ (السؤال)

سأل مخلوف الداودى، حاخام سى لواء عكا، فى: ذبيحة الإسرائيليين الموسويين الذين يذكرون اسم الله تعالى قبل الذبح، هل يحل فى الديانة الإسلامية الأكل منها؟ أم لا؟

(الجواب)

ذبيحة الإسرائيليين يحل الأكل منها بنص الكتاب العزيز، كما قال الله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ (المائدة: آية ٥) ولا أظن أحدا يؤمن بكتاب الله تعالى ويعقل منه ما أراد الله أن يفهم يخطر بباله تحريم ذبيحة الإسرائيليين الذى يؤمنون برسالة موسى عليه السلام(٣٦٠).

الاعتراض على قانون ظالم

٩- (السؤال)

وردت إفادة من نظارة الحربية لمشيخة الجامع الأزهر، مؤرخة فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠٠ نمرة ٥٢٩ مضمونها: أن المادة الثانية من الأمر العالى الصادر فى ١٧ مايو سنة ١٨٨٧ بأن من يفر من العساكر يصير إشعار ضامنه، الذى هو رئيس العائلة، بالبحث عنه فى ميعاد ثلاثة شهور من تاريخ وصول الإشعار إليه بذلك، وإن لم يستحضره فيها فيؤخذ «نفر» بدله من عائلته الذين فى سن القرعة، بمراعاة أولوية أخذ الأقرب فالأقرب.

وحيث إنه قد يتفق عدم وجود أقارب للهاربين إلا بدرجة بعيدة جدا، ولم تعلم الدرجة النهائية للقرابة من العصب ومن ذوى الأرحام الممكن الأخذ منها، فالأمل توضيحها بحسب درجاتها من الأقرب فما بعد.

وصارت إحالة هذه المكاتبة من المشيخة بإشارة منها فى ٥ شعبان سنة ١٣١٨ على إفتاء الديار المصرية ليتوضح منها عما ترغبه بالمكاتبة المذكورة نظارة الحربية، وتحرر من الإفتاء للمشيخة الإجابة الآتية:

(الجواب)

أقرب قرابات الشخص عصبته: ابنه، ثم ابن أخيه، وإن نزل، ثم أبوه، ثم جده، أب أبيه، وإن علا، ثم بعد الأب والجد المذكور: الأخ لأب وأم، وهو الأخ الشقيق،

ثم الأخ لأب، ثم بنو الأخ الشقيق، ثم بنو الأخ لأب، ثم بعد الأخ الشقيق والأخ لأب وأبنائهما: عمه أخ أبيه الشقيق، ثم عمه لأب، ثم أبناء العم الشقيق، ثم أبناء العم لأب وإن نزل كل من أبناء العمين، ثم عم أبيه الشقيق، ثم عم أبيه لأب، ثم بنو عم أبيه لأبوين، ثم بنو عم لأب، وإن نزل كل من أبناء العمين، ثم عم جده الصحيح لأب وأم، ثم عم جده لأب، ثم أبناء عم الجد لأب وأم، ثم أبناء عم الجد لأب، وإن نزل كل منهما، وهؤلاء مقدمون على ذوى الأرحام.

ثم أقرب القرابات إلى الشخص من ذوى الأرحام أبناء بناته، وإن نزلوا، ثم أبناء بنات أبنائه، وإن نزلوا، ثم أب أمه، ثم أب أب أمه، ثم أبناء الأخوات لأبوين، ثم لأب، ثم بنو الإخوة لأم، وإن نزلوا.

هذا ما قالوه فى الأقارب من العصابات وذوى الأرحام وترتيبهم، وهو ترتيب ما يدخل تحت اسم القريب عندما يتعلق به حكم من الأحكام الشرعية كالميراث والوقف ونحوهما.

ولا يخفى أنه لا يمكن تطبيق ما جاء فى الأمر العالى على هذا، لأنه لا يعقل أن يؤخذ أب الهارب أو جده بدله إن لم يوجد له ابن مثلا. ثم إن الأمر العالى ينص على أن يؤخذ نفر بدله من عائلته الذين فى سن القرعة، ومن المعلوم أن اسم العائلة له معنى غير معنى القريب، فلا يدخل فى اسم العائلة كل ما يدخل فى اسم القريب، بل العائلة خاصة بطبقة من الأقارب مخصوصة، وهم الذين يعول بعضهم بعضا عادة أو الذين من شأنهم ذلك، وذلك هو الابن فابن الابن ثم الأب فالجد ثم الأخ الشقيق فالأخ لأب ثم ابن الأخ الشقيق فابن الأخ لأب ثم العم الشقيق فالعم لأب ثم ابن العم الشقيق فابن العم الأب، أما الباقون من الطبقات فلا يدخلون مطلقا مهما كانت درجة قربهم للهارب.

والغرض من «الدكريتو» هو حث من لهم صلة قريبة بالهارب على أن يبحثوا عنه حتى يجدوه، فإن لم يجدوه عوقبوا بذلك العقاب، وهو أن يؤخذ واحد منهم بدله، فهو فى الحقيقة عقاب على الإهمال المتوهم. وهذه التبعة إنما تكون على الأقارب الذين ذكرناهم، لأن القرابة متى بعدت عن درجتين ضعفت صلتها، ولا يحمل أربابها تبعة ما يحصل من بعضهم فى مثل هذه المسألة.

على أن شأن العائلات قد تغير فى هذه السنين الأخيرة، فأصبح القريب أشد مقاطعة لقريبه من البعيد، وأصبحت روابط الأخوة لا قيمة لها فى الأغلب، بل الأبناء قد خرجوا عن سلطة آبائهم. والهارب من العسكرية لا يبالى بأبيه ولا بأخيه ولا يدلهما على مكانه. فالأليق بالعدالة فى مثل هذه الأيام، أن يعدل الأمر العالى المذكور وتلغى المادة الثانية، فإن ضمانة رئيس العائلة أصبحت فى هذا المعنى كعدمها، وتحمل الأقارب لتبعة من يفر منهم صارت لا معنى لها. وسلطة الحكومة أقوى من كل ذلك، فلا يليق بها أن تعاقب شخصا بذنب آخر. فإن كان لابد من بقاء المادة على حالها، فدرجة القرابة فى العائلة لا تعتبر إلا فى الدرجات التى ذكرناها فيما يدخل تحت اسم العائلة فقط، ولا ينظر إلى ما يدخل فى اسم القريب الذى يستعمل فى الشئون الشرعية، فإن الفرق ظاهر بين العائلة وبين الأقارب مطلقا (٣٦١).

تحديد أوائل الشهور العربية

١٠ ـ (السؤال)

سئل (٣٦٢) بإفادة من جناب مدير عموم المساحة، مؤرخة فى ١٧ يونية سنة ١٩٠٢م نمرة ٦٨٠٨ مضمونها:

أن هذه المصلحة أخذت من عهد قريب فى حساب النتيجة الميرية السنوية، ويهمها أن تكون هذه النتيجة غاية فى الضبط، ليصح التعويل عليها فى الأعمال الدينية والمدنية. وترغب المصلحة فى الإفادة عما إذا كان المعول عليه فى تعيين أوائل الشهور العربية بحسب الشرع الإسلامى هو الرؤية، كما فى رمضان؟ أو الحساب؟ وهل تنفرد بعض الشهور بالرؤية، ويتحتم فيها ذلك كما يتحتم فى تعيين أول شهر الصوم؟ وعما إذا كانت، والحالة هذه، النتيجة الدينية المبنية على الرؤية تنطبق على النتيجة المدنية المبنية على الحساب؟ أو بينهما فرق؟ مع الإشارة إلى المؤلفات العربية التى تفى العام حقه ويمكن التعويل عليها فى هذا الموضوع.

(الجواب)

المقرر شرعا أن أول الشهر إنما يعرف برؤية الهلال، ويثبت ذلك بالشهادة المعروفة عند أهل الشرع، لا فرق فى ذلك بين رمضان وشوال وغيرهما. أما العمل بالحساب ففيه خلاف بين علماء بعض المذاهب. والمعول عليه أنه لا يلتفت إلى الحساب، لأن أحكام الدين الإسلامى مبنية على الأسهل والأيسر للناس فى أى قطر كانوا وأى بقعة وجدوا.

وأما نطاق وجود هذا الحكم فهى أبواب الصوم فى جميع كتب الفقه المعتبرة. والله أعلم[٣٦٣].

بدع طرأت على الإسلام

١١ - (السؤال)

سئل[٣٦٤] بإفادة من مديرية المنوفية مؤرخة فى ٢٤ مايو سنة ١٩٠٤ نمرة ٧٦٥ مضمونها: أنه مرسل معها عريضة مقدمة للمديرية من مصطفى عبد الوهاب ورفقائه من ناحية «أبو سنيطة»، المسجلة تحت نمرة ٩٣٧، والورقتان معها، بأمل الاطلاع والإفادة بما يرى نحو ما اشتملت عليه.

والذى اشتملت عليه ست مسائل، وهى المرغوب الاستفهام عما يرى فيها:

الأولى: ما اعتيد من قراءة فقيه سورة الكهف جهرا يوم الجمعة، لأجل عدم غوغاء الفلاحين بالكلام الدنيوى.

الثانية: ما اشتهر من الترقية قبل الخطبة، مع مراعاة الأدب فى الإلقاء، وحديث: «إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب.. الخ».

الثالثة: ما يحصل من الأذان قبل الوقت يوم الجمعة بما يشتمل على الاستغاثات وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم، لتنبيه الفلاحين الموجودين بالغيطان الغافلين عن مكان الجمعة.

الرابعة: الأذان داخل المسجد بين يدى الخطيب.

الخامسة: ما اشتهر من الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم عقب الأذان فى الأوقات الخمس، إلا المغرب.

السادسة: الذكر جهرا أمام الجنازة، بكيفية معتدلة، خالية عن التلحين.

هل ذلك كله جار على السنن القويم؟ أو فيه إخلال بالدين؟

(الجواب)

اطلعت على رقيم سعادتكم المؤرخ ٢٤ مايو الماضى، نمرة ٧٦٥، وعلى ما معه من الأوراق. وأفيد سعادتكم:

إن كل عبادة لم يرد بها نص عن النبى صلى الله عليه وسلم، ولم تأت فى عمله صلى الله عليه وسلم، ولا فى عمل أصحابه، اقتداء به، وإن لم نعرف وجه الاقتداء، فهى بدعة. وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فهى ممقوتة للشارع، يجب منعها.

وهذه الأمور، التى جاءت فى العرائض المقدمة لسعادتكم، جميعها، ما عدا الأذان بين يدى الخطيب، صور عبادات مستحدثة، لم تكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه، ولا التابعين ولا تابعيهم. ولا يعرف بالتحقيق من أحداثها. وما ينقل عن بعض العلماء فى الترقية، مثلا، من أنها بدعة مستحسنة، لا يصح التعويل عليه، لأنه لم يفرق بين ما يستحدث فى العادات، كالأكل والشرب واللباس والمسكن، وما يستحدث فى العبادات، فكل ما يحدث فى النوع الأول، مما لا ضرر فيه بالدين ولا بالبدن، وكان مما يخفف مشقة أو يدفع أذى أو يفيد منفعة فهو مستحسن، ولا مانع منه إذا لم يكن ممنوعا بالنص، كاستعمال الذهب والفضة والحرير للرجال، ونحو ذلك.

وأما ما يحدث من القسم الثانى، أعنى قسم العبادات، فالحديث فيه على عمومه، أعنى: كل ما حدث منه بدعة، والبدعة ضلالة، والضلالة فى النار، بلا شبهة.

وقد ذكر في (البحر) ـ من كتب الحنفية ـ أن ما تعورف من أن المرقى للخطيب يقرأ الحديث النبوى، وأن المؤذنين يؤمنون عند الدعاء، ويدعون للصحابة بالرضاء ونحو ذلك، فكله حرام، على مذهب أبى حنيفة، رحمه الله.

وما قاله بعضهم: من حمل الترقية على الكلام بأخروى، عند محمد[٣٦٥]، لا يصح الالتفات إليه، لأن الترقية عمل وقت بوقت مخصوص، يؤدى على نحو مخصوص، فهو ليس من قبيل الكلام الذى يعرض لقائله فى أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله، خصوصا والترقية من التلحين والتغنى، ولو زعم السائلون أنه لا يلحن فيها، لأنها لم تخترع إلا للتلحين، فإذا ذهب منها لم تعد تسمى ترقية، ولم يبق لهم بها حاجة فالصواب منعها على كل حال، لأنها بدعة سيئة.

أما الأذان فقد جاء فى (الخانية) أنه ليس يقر المكتوبات، وأنه خمس عشرة كلمة، وآخره عندنا: (لا إله إلا الله)، وما يذكر بعده وقبله كله من المحدثات المبتدعة، ابتدعت للتلحين، لا لشيء آخر. ولا يقول أحد بجواز هذا التلحين، ولا عبرة بقول من قال: إن شيئا من ذلك بدعة حسنة، لأن كل بدعة فى العبادات، على هذا النحو، فهى سيئة، ومن ادعى أن ذلك ليس فيه تلحين فهو كاذب.

وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة، جاء فى عبارة (الأشباه) عند تعداد المكروهات ما نصه: ويكره إفراده بالصوم، وإفراد ليلته بالقيام، وقراءة الكهف فيه، خصوصا وهى لا تقرأ إلا بالتلحين، وأهل المسجد يلغون ويتحدثون، ولا ينصتون. ثم إن القارئ كثيرا ما يشوش على المصلين بصوته وتلحينه. فقراءتها، على هذا الوجه، محظورة.

أما الذكر، جهرا، أمام الجنازة، ففى (الفتح) و (الأنقروية) من باب الجنائز: يكره للماشى أمام الجنازة رفع الصوت بالذكر، فإن أراد أن يذكر الله فليذكره فى نفسه.

وعلى ذلك، فجميع الأشياء التى سألتم عنها مما يلزم منعه، ما عدا الأذان الثانى وحده، وهو الأذان بين يدى الخطيب، فإنه هو الباقى من سنة النبى صلى الله عليه وسلم من بين السنن، وما عداه، مما ذكر، لا يصح الإبقاء عليه، لأن جميعه من

مخترعات العامة، ولا يتمسك به إلا جهالهم. وليس من الجائز أن يؤخذ فى الدين بشىء لم تتقدم فيه أسوة حسنة معروفة ولا سنة مقررة منقولة، وكيف يجوز اتباع مخترعين مجهولين لا تمكن الثقة بهم فى غير عبادة الله، فضلا عن شىء فى دين الله؟! . . والله أعلم[٣٦٦]. معه أربع ورقات.

١٢ ـ (السؤال)

سأل محمد محمد حسن، التاجر فى الغلال، بمصر، فى: أهل بلدة بنوا مسجدا، وأذن بإقامة الجمعة فيه، ثم تخرب ولم يوجد من يصلحه، فقام رجل وأنفق عليه من ماله وأصلحه، فهل يجوز له أن يتخذ فيه قبورا؟!

أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث كان هذا المسجد قد بنى فى أول أمره مسجدا، فحكمه حكم المسجد، لا يجوز اتخاذ القبور فيه. فلا حق لمن أصلح ما تخرب منه، تبرعا من جهته، أن يتخذ فيه تلك القبور، لبقاء حكم المسجدية المانع من ذلك. والله أعلم[٣٦٧].

١٣ ـ (السؤال)

وردت إفادة من مدير عموم الحسابات المالية مؤرخة فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٠ نمرة ١٨١، ومعها سؤال يتضمن فى أن فاطمة أمينة هانم، زوجة حضرة رشيد بك زهدى كانت ناظرة ومستحقة فى وقف المرحوم حسن كاشف نور الدين، وسبق وفاتها عن زوجها المذكور وجهة الحكومة، وما كانت تترك كليا سوى ملبوس بدنها البالغ ثمنه ستة (٦) جنيه ومؤخر صداقها خمسة جنيه وقيمة استحقاقها فى ريع الوقف المذكور البالغ قدره (١٢٣٣) جنيه وكسور، منه مبلغ (١٠٩٤) جنيه وكسور طرف الزوج، ومدعى بأنه صرف منه مبلغ (٧٥٣) جنيه قال إن بعضه استلمه نقدية

فى حال حياتها بغير سندات وبعضه مصروفات أخرى، ومنظور لذلك قضية بالمحكمة الأهلية ومحالة على التحقيق، ولكن من ضمن المصروفات المذكورة مبلغ (١٥٧) جنيه يقول إنه صرفه فى ميتم المتوفية المذكورة، ولضرورة العلم بما يقتضيه النص الشرعى فى قدر ما يجوز شرعا احتسابه على الميتم المذكور بحسب حالة المتوفية وتركتها، وعلى من يكون احتسابه، والرجا من حضرة مفتى الديار المصرية الإفتاء بما يقتضى لذلك شرعا.

وتوضح بتلك الإفادة طلب الاطلاع على هذا السؤال والفتوى عليه بما يقتضيه الوجه الشرعى.

(الجواب)

المصرح به فى كتب المذهب أن أحد الورثة إذا أنفق للمأتم وشراء الشمع ونحوه بلا وصية ولا إذن من باقى الورثة فإنه يحسب من نصيبه. ولو كان ذلك من مال نفسه يكون متبرعا فيه. وعلى ذلك فما أنفقه هذا الزوج للمأتم، إن كان بغير وصية من زوجته، وبدون إذن من بيت المال، يحسب من نصيبه من التركة، حيث كان ما أنفقه منها، ولا يحسب منه على بيت المال شىء. والله أعلم[٣٦٨].

١٤ - (السؤال)

سأل محمد بيك نافع، مأمور قسم أول أوقاف، بمصر، فى: ضريح قديم عليه قبة فى شارع مطروق ليلا ونهارا، معرضة للبول والأقذار، وبجوار هذا الضريح مسجد منسوب لصاحبه، وفى هذا المسجد باب لذلك الضريح، فهل يجوز هدم القبة ونقل الضريح إلى داخل المسجد أو يبقى فى محله؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المروى عن الإمام أبى حنيفة أن بناء بيت أو قبة على القبر مكروه، وهو يدل على

أن لا بأس بهدم القبة المذكورة، بل إنه الأولى. فإذا كانت تجتمع حولها القاذورات، واعترضت فى الطريق تأكدت الأولوية. أما موضع القبة، وهو الضريح، فيسوى بأرض الشارع، لأنه لو فرض أن تحته ميت مدفون فقد بلى، فيجوز استعمال أرضه فى غير الدفن. والله أعلم[٣٦٩].

١٥ ـ (السؤال)

سئل [٣٧٠] بإفادة من عموم الأوقاف، مؤرخة فى ١٥ محرم سنة ١٣٢٠ نمرة ١١٧٧، مضمونها: أن الأوراق المرفقة بهذا، وقدرها عدد ١١ بحافظة، تتعلق بطلب مدير الفيوم نقل ضريح الشيخ سالم، بالفيوم، نظارة ديوان الأوقاف، من محله الحالى إلى زاوية أخرى أو تصغيره فى محله إذا كان لا يمكن نقله إلى تلك الزاوية ما زال هذا المدير يبدى رغبته واهتمامه بتنجيز هذه المسألة، ولذلك رأينا استفتاء فضيلتكم فيها، فالمرجو الإفادة بما يقتضيه الحكم الشرعى.

(الجواب)

المعروف فى كتب الفقه كراهة البناء على القبر. وهو يدل على أن لا بأس بإزالة بناء الضريح المذكور، والميت الذى تحته تسوى عليه الأرض، ويجعل عليها علامة تدل على وجوده حفظا له من أن يداس عليه، مع تحويطها بما يمنع من إلقاء القاذورات حوله. والله أعلم[٣٧١]. وطيه الأوراق عدد ١١ أفندم.

١٦ ـ (السؤال)

سأل محمود يوسف، المحضر بالمحاكم الأهلية، فى: رجل مات عن زوجة وابن أخ، ثم إن الزوجة ادعت أنها صرفت على مأتمه مصاريف مثل أجرة فراش وطباخ وفقهاء عتاقة وإسقاط صلاة وغير ذلك، مع أن المتوفى لم تصدر منه وصية بعمل شىء مما ذكر، ولم يأذنها ابن الأخ المذكور بشىء من ذلك، فهل لها الرجوع عليه بما يخصه فيما ادعت صرفه؟ أو لا ترجع إلا بما يخصه فى التكفين؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المعروف فى كتب الفقه أنه إذا أنفق أحد الورثة للمأتم وشراء الشمع ونحوه، بلا وصية، ولا إذن من باقي الورثة، فإنه يحسب من نصيبه، ولو كان ذلك من مال نفسه يكون متبرعا فيه، كما فى (العقود) نقلا عن (حاوى الزاهدى).

وعلى هذا يحسب ما صرفته هذه الزوجة فى لوازم المأتم وإسقاط الصلاة وغير ذلك من نصيبها، إن كان ما صرفته من التركة. أما لو كان من مال نفسها، فإنها تعد متبرعة فيه، حيث كان ذلك بلا وصية ولا إذن من ذلك الوارث الآخر، ولا حق لها فى الرجوع بشىء من ذلك. نعم، لها أن ترجع فى التركة بما أنفقته من مالها فى تكفين المورث كفن المثل، ولو كان بغير إذن ذلك الوارث. والله أعلم[٣٧٢].

١٧ - (السؤال)

سأل أحمد أفندى الكريدى، مدير مجلة التركية شرق مصور، بمصر، فى: مدينة وقعت تحت حكم المسيحيين، ولم يكن فيها مأذون من قبل الخليفة، فهل يسوغ شرعا لمن ينتخبه الأهلون من عند أنفسهم أن يقوم عنهم بوظيفة الإمامة فى مثل صلاة الجمعة والعيدين وعقد الأنكحة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، إذا انتخب المسلمون من بينهم من يقوم بوظيفة الإمامة فيهم ويخطب بهم فى الجمعة والعيدين ويعقد لهم الأنكحة، وبالجملة يؤدى من الأعمال ما يؤديه القاضى، جاز ذلك ونفذت جميع تصرفاته فيما من شأنه أن يتصرف فيه. والله أعلم[٣٧٣].

١٨ - (السؤال)

سئل[٣٧٤] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ١١ صفر سنة ١٣٢٠ نمرة ١٤

مضمونها: أن مكاتبة الصحة رقيمة ٦ مايو الجارى نمرة ٤٦ والسبع عشرة ورقة طيه مختصة بطلب الست فاطمة بنت يعقوب نقل جثة بنتها من جبانة تلبانة إلى دمنهور، ومعارضة أخ المتوفاة وزوجها فى ذلك، ويراد الإفادة عما يرى فى هذه المسألة، وعليه نرجو النظر والإفادة بما يرى.

(الجواب)

قد أطلعت على الأوراق - المختصة بطلب الست فاطمة بنت يعقوب نقل جثة بنتها ستوتة بنت الحاج محمد الحبشى من مقبرة تلبانة التى دفنت بها فى مايو سنة ١٩٠٠ إلى مقبرة دمنهور، ومعارضة أخ المتوفاة وزوجها فى ذلك - المرسلة تلك الأوراق مع هذا الرقيم بقصد الإفادة منا عن الحكم فى ذلك. وأفيد سعادتكم بأن أقوال علمائنا صريحة فى منع نقل الميت بعد دفنه، فقد قال فى (الفتح) ما نصه: «واتفقت كلمة المشايخ فى امرأة دفن ابنها وهى غائبة فى غير بلدها، وأرادت نقله، على أنه لا يسعها ذلك». وهذا صريح فى المنع، كما قلنا. والله أعلم(٣٧٥).

استقلال المرأة الاقتصادى

١٩ - (السؤال)

سألت الست نفيسة حمدى، كريمة المرحوم إسماعيل باشا حمدى، فى أنها تملك مائة سهم من السهام الأساسية بـ«قومبانية» قنال السويس، وأن تلك السهام محفوظة بمركز إدارة «القومبانية»، بإيصال تحت يدها، وأنها أرادت سحبها، ونازعتها «القومبانية» بأن الزوجة لا يجوز لها أن تتصرف فى أملاكها إلا بعد إذن زوجها، بالنظر لما جاء بالقانون الفرنساوى، وحيث إنها مسلمة، وزوجها مسلم، ولا سلطة للقانون الفرنساوى عليهما، لأنهما ليسا حماية، فهل الشريعة الإسلامية تقتضى جواز سحب هذه الأسهم لها بنفسها، بدون توسط الزوج، أم لا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الذى يقتضيه الحكم الشرعى فيما ذكر بالسؤال: أنه حيث كانت تلك السهام خاصة بالست نفيسة حمدى، المذكورة، ومملوكة لها، كان لها أخذها واستلامها بنفسها، ولا يتوقف ذلك على إذن زوجها المذكور. والله أعلم[٣٧٦].

ولاية المرأة الأم

٢٠ ـ (السؤال)

سأل محمود جمعة، فى: بنات قاصرات مشمولات بوصاية أمهن، فهل لها ولاية عقد زواج إحداهن متى شاءت، مع وجود أخ عاصب فقط لهن ذى سمعة؟ أو تكون الولاية له؟ أو للقاضى؟ أو نائبه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن الولى فى النكاح هو البالغ العاقل الوارث، ولو فاسقا، على المذهب، ما لم يكن متهتكا أو سيئ الاختيار، فسقا أو مجانة. قال فى الفتح: وما فى (البزازية) من أن الأب أو الجد إذا كان فاسقا فللقاضى أن يزوج من الكفء. غير معروف فى المذهب. وفى (القهستانى) نقلا عن الكرمانى: لو عرف سوء اختيار الأب فسقا أو مجانة لم يجز عند الإمام، وهو الصحيح. وحملوا كلام البزازى على كلام الكرمانى بأن يراد بالفاسق سيئ الاختيار، وحملوا المذهب على ما إذا كان الفاسق غير سيئ الاختيار ولا متهتكا، فأما سيئ الاختيار فتزويجه من غير كفء أو بنقص مهر باطل إجماعا. وأما الفاسق المتهتك، غير سيئ الاختيار، إذا زوج من غير كفء أو بنقص مهر، فلا ينفذ تزويجه. كذا قال علماؤنا.

ومنه يعلم أنه متى كان سوء سمعة الأخ العاصب، المذكور فى السؤال، بتهتكه أو سوء اختياره، فسقاً أو مجانة، لا يجوز له أن يزوج واحدة من أخواته البنات المذكورات، وحيث إن الولى فى النكاح العصبة، على ترتيب الإرث، فإن لم

يوجد عصبة فالولاية للأم، وليس لهذا الأخ العاصب التزويج، كما ذكر، ولم يوجد غيره من العصبة المقدمة على الأم فيكون للأم ولاية تزويج بنتها القاصرة من كفء بمهر المثل. والله أعلم[٣٧٧].

سقوط ولاية الأب الماجن

٢١ ـ (السؤال)

سأل إسماعيل محمد دوير، عم الزوج المذكور بعد، في بنت صغيرة زوجها أبوها وهو سيئ الاختيار، مجانة وفسقا، لصغير يبلغ من السن سبع سنين، وقبل النكاح له أبوه، والبنت قد بلغت، وعند بلوغها أعلنت بفساد العقد، والولد فقير لا يقدر على المهر والنفقة، فهل هذا النكاح صحيح؟ أو غير صحيح؟ وإن كان غير صحيح يحتاج في الفرقة بينهما إلى مرافعة شرعية؟ أم كيف؟

(الجواب)

سوء اختيار الأب ومجانته تجعلانه بمنزلة غير الأب، فإن سوء الاختيار والمجانة مما يضعف الرأي، وقد صرحوا في تزويج الأم بأنه صحيح، ويجوز للزوج أو الزوجة أن يختار الفسخ عند البلوغ، وعللوا ذلك بأن الشفقة وإن توافرت فالرأي غير كامل، فضعف الرأي فيها سوغ جواز الفسخ للصغيرة إذا بلغت. والوالد الماجن السيئ الاختيار قد يفقد الشفقة مع الرأي، خصوصا من أهل زماننا الذين فشا فيهم فساد الرأي وغلب على وجدانهم، حتى إن الرجل لأدنى شهوة له لا يبالي بما يكون من شأن بنته في مستقبل قريب فضلاً عن بعيد، وليس من الفقه أن يسوي بين كامل الرأي حسن الاختيار وبين الماجن سيئ الاختيار في لزوم العقد.

على أن الذي يظهر من كلام عم الزوج في هذه الحادثة أن أباه مات ولا مال له، فالولد فقير لا يملك نفقة ولا مهرا، ولو بقيت البنت في عصمته أصابها من الضرر ما هو معلوم، فالزوج في هذه الحالة غير كفء، لشدة فقره، وفقر البنت لا مدخل له في الكفاءة عند العجز عن النفقة، فالفقير غير كفء، وإن كانت الزوجة فقيرة

بنت فقير، كما صرحوا به، لأن لزوم النكاح يقضى بالنفقة، فالعاجز عنها عاجز عن توفية حق الزوجة، فهو غير كفء لها على كل حال، فللبنت بعد أن اختارت فسخ النكاح أن ترفع الأمر إلى القاضى ليقضى به متى صح عنده جميع ما ذكر فى السؤال. والله أعلم[٣٧٨].

شق بطن الميتة حاملا

٢٢ـ (السؤال)

سئل[٣٧٩] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٤ الحجة سنة ١٣٢٠ نمرة ٢ مضمونها:

أن خطاب مصلحة الصحة طيها نمرة ١٢ الوارد للحقانية بشأن الأجنة الحية التى توجد فى بطون بعض النساء الحوامل اللاتى يتوفين، ومرغوب بها الإفادة عما إذا يمكن فسخ البطن بعد الوفاة لإخراج الجنين؟ سواء كان برضا الأهل أو بغير رضاهم؟؟

وعليه نرجو الإفادة. وطيه ورقتان.

(الجواب)

صرحوا بجواز شق بطن الميتة لإخراج الولد إذا كانت ترجى حياته كما فى (الأشباه). وعليه: يجوز شق بطون من يموت من النسوة لإخراج الجنين منها متى كانت ترجى حياته، ولا يتوقف ذلك على رضا الأهل. وطيه ورقتان[٣٨٠].

أهل الكتاب يستفتون الإمام

سئل[٣٨١] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٢٣ محرم سنة ١٣٢١ مضمونها أنه بعد الإحاطة بما تضمنته مكاتبة الداخلية نمرة ٣٨ والورقة المرفقة بها، بشأن طلب بطريرك الأقباط بتسليم أولاد عبد الله إبراهيم، صراف ناحية أبى كبير، الذى

ضمهم إليه بعد إسلامه، لوالدتهم مريم بنت حنا، تفاد الحقانية عما يجب شرعا فى ذلك. ومضمون ذلك أن عبد الله إبراهيم، المسيحى، زوج مريم بنت حنا، المسيحية، له أولاد منها ثلاثة، أكبرهم بنت عمرها خمس سنوات تقريبا. والثانى ولد عمره سنتان، والثالث طفلة رضيعة عمرها ستة شهور، وقد أسلم هذا الزوج، ومنع هؤلاء الأولاد عن أمهم، وهى تريد أخذهم وضمهم إليها. ومرغوب معرفة الحكم الشرعى فى ذلك، حيث إنها لم تتزوج.

(الجواب)

من المقرر شرعا أن حضانة الولد الصغير تثبت للأم، ولو كتابية، أو بعد الفرقة، لأن الشفقة لا تختلف باختلاف الدين، ويستمر عندها إلى أن يخشى عليه أن يألف دينا غير الإسلام، وذلك باعتبار السن إلى سبع سنين فى الذكر والأنثى، فإذا بلغ واحد من أولئك الأولاد السابعة من سنه وجب نزعه من والدته وضمه إلى أبيه. فإذا خشى عليه أن يشرب غير دين الإسلام بوسائل أخرى قبل بلوغه ذلك السن، وجب أخذه من والدته وضمه إلى أبيه كذلك. وكل ذلك ما لم تتزوج الأم، وإلا نزع منها الأولاد مطلقا. وعلى ذلك، فحق حضانة هؤلاء الأولاد هم لأمهم الآن، إذا توفرت فيها شروط الحضانة، ولم يخش على الأولاد شيء مما ذكر. والله أعلم(٣٨٢).

٢٤ ـ (السؤال)

سأل الخواجة «كيورك ابكاوشى» فى: مسيحى توفى بمصر عن زوجته وأولاده ثلاثة ذكور وأنثى، وترك لهم أطيانا وعقارات ونقدية، فما هى حصة كل منهم؟

(الجواب)

يخص الزوجة المذكورة فى جميع تركة زوجها المذكور الثمن فرضا، ثلاثة قراريط، ويخص كل ابن من الأبناء الثلاثة المذكورين ستة قراريط، ويخص البنت

المذكورة ثلاثة قراريط . وهذا حيث لا وارث للمتوفى المذكور سوى هؤلاء الورثة . والله أعلم(٣٨٣) .

٢٥ ـ (السؤال)

سأل ميخائيل قسطندى بشارة، في : امرأة اسمها مرومه، ماتت عن أخوالها، إخوة أمها لأبيها، وهم ديمترى و ميخائيل وكترينة، وعن أولاد خالها وخالتها أخوى أمها من الأب والأم، وهم إسكندر وحنه ويوسف وحبيب ونقولا وهيلانة، لا وارث لها سواهم، وتركت ما يورث عنها، فمن يرث من هؤلاء؟ وما يخصه؟ ومن لا يرث؟ أفيدونا، ولكم الثواب .

(الجواب)

تركة هذه المرأة المتوفاة تكون موروثة عنها لأخوالها، إخوة أمها لأبيها، الذين هم ديمترى وميخائيل وكترينة، لاتحادهم فى حيز القرابة، فتقسم التركة على أبدانهم اتفاقا، لاتفاق الأصول حينئذ. ويعطى للذكر ضعف الأنثى، فيطعى لديمترى من هذه التركة تسعة قراريط وثلاثة أخماس قيراط، ويعطى منها كذلك لميخائيل تسعة قراريط وثلاثة أخماس قيراط، وباقيها، وهو أربعة قراريط وأربعة أخماس قيراط، يعطى لكترينة .

أما أولاد خالها وخالتها، أخوى أمها من الأب والأم، المذكورون فلا حظ لهم من هذه التركة، لبعدهم في الدرجة عن الخالين والخالة المذكورين . والله أعلم(٣٨٤) .

٢٦ ـ (السؤال)

سأل مسيحة أفندى سعد مسيحة، الموظف بعموم هندسة السكة الحديد، فى أن شقيقه مات عنه وعن والدتهما وزوجته وبناته الثلاث القصر، وماتت الزوجة بطنطا

عن بناتها الثلاث المذكورات، وعن أبويها فقط، وأن البنتين: الأولى والثانية انتهت مدة حضانتهما، والثالثة مولودة سنة ١٨٩٧ أفرنجية، ووالدة الأب موجودة، وغير متزوجة، ولم يكن لها أولاد صغار، ولا صناعة لها، وقادرة على الحضانة، ووالدة الأم متزوجة، ولا يمكنها القيام بالحضانة، لأن لها أولادا صغارا مشغولة بهم، ويخشى على البنات الضياع عندها، لاشتغالها عنهن بأولادها، وبالخروج من منزلها للسفر في غالب الأوقات إلى أهلها في البلاد المقيمين بها وتركها لهن، وأنه يخاف عليهن من العدوى بداء السل، لأن أمهن وخالهن وعم أمهن ماتوا جميعا به في المنزل القاطنات به مع أم أمهن، واستفهم عن الأحق بهن: هو، لكونه مأمونا عليهن؟ أو والدته القادرة على حضانتهن؟ أو جدتهن أو أمهن؟ ورغب الجواب.

(الجواب)

لا حق لأم الأم في ضم البنتين اللتين انتهت مدة حضانتهما ببلوغ سنهما تسع سنين، وإنما الحق لعمهما العاصب المذكور في ضمهما لنفسه. أما البنت الثالثة التي لم تبلغ تسع سنين فمتى كان يخشى عليها الضرر والضياع عند جدتها أم أمها يكون الحق في حضانتها لجدتها أم أبيها المذكورة. والله أعلم[٣٨٥].

٢٧ ـ (السؤال)

سأل الخواجا حبيب عاذر في رجل يطالب تركة آخر بدين فيه ربا، قبل حلول أجله المضروب بسند الدين، فهل يعتبر هذا الدين شرعيا، وتلزم التركة بأدائه قبل حلول أجله؟ وإذا حكم بأدائه ورباه قبل حلول أجله هل يكون الحكم نافذا؟ أو باطلا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت المدين حل الأجل، وللدائن طلب الدين في تركته، وهو شرعي فيما عدا

الربا. فعلى التركة دفع أصل الدين دون رباه، وإذا حكم بذلك الدين ورباه لا ينفذ الحكم إلا في أصل الدين فقط. والله أعلم(٣٨٦).

٢٨ ـ (السؤال)

سأل الخواجا حبيب جاماتي، بمصر، في: رجل مات عن أبيه يوسف وزوجته مرتا وأولاده منها ديب وماريا وفيكتوريا، ثم مات ديب عن جده يوسف، أب أبيه، وأمه مرتا، وشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، ثم مات يوسف، الجد، عن زوجته وردة وأولاده منها إبراهيم وأمين وميريم وفيلومينا وليل، وبنتيه من غيرها وردة وصابات، ثم ماتت بنتها فريدة، وشقيقتها وردة، وإخوتها لأبيها، ثم ماتت مريم عن أمها وردة وأشقائها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى، وأختها لأبيها وردة، لا وارث لكل منهم سوى من ذكر، وخلف المتوفى الأول تركة، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟ وما نصيب كل وارث؟ وما الحكم في نصيب وردة بنت يوسف وفريدة بنت صابات الغائبتين اللتين لا يدرى مكانهما؟ هل يبقى تحت يد البطركخانة كما كان من قبل؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت هذا الرجل عن أبيه يوسف وزوجته مرتا وأولاده منها ديب وماريا وفيكتوريا، يكون لزوجته من تركته الثمن، فرضا، ثلاثة قراريط، ولأبيه السدس، فرضا، أربعة قراريط، ولأولاده المذكورين الباقي، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وبموت ديب، الابن، عن جده يوسف، أب أبيه المذكور، وأمه مرتا وشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، يقسم نصيبه من تركة أبيه المذكور، وهو ثمانية قراريط ونصف قيراط، بين جده يوسف وأمه مرتا، لأمه سدسه، قيراط واحد وسدسان اثنان من قيراط ونصف سدس قيراط، وباقيه لجده، وهو سبعة قراريط ونصف سدس قيراط، فيكمل بذلك ليوسف، المذكور، لشقيقتيه ماريا وفيكتوريا، لحجبهما بالجد المذكور، على ما عليه الفتوى.

وبموت يوسف، الجد المذكور، عن زوجته وردة وأولاده منها إبراهيم وأمين ومريم وفيلومينا وليلى، وبنتيه من غيرها: وردة وصابات، يقسم نصيبه المذكور بينهم، لزوجته وردة ثمنه، قيراط واحد وسدسان اثنان من قيراط وربع سدس قيراط وثمنان اثنان من ربع سدس قيراط، ولأولاده المذكورين باقيه، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، فيكون لكل واحد من ابنيه إبراهيم وأمين قيراطان اثنان وثلاثة أرباع سدس قيراط وخمسة أثمان ربع سدس قيراط وسبعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط، ولكل واحدة من بناته مريم وفيلومينا وليلى ووردة وصابات قيراط واحد وربع سدس قيراط وستة أثمان ربع سدس قيراط وثمانية أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

وبموت صابات، المذكورة، عن بنتها فريدة وشقيقتها وردة يكون نصف نصيبها المذكور لبنتها، فرضاً، ونصفه الثاني لشقيقتها، تعصيباً مع البنت، ولا شيء لإخوتها لأبيها المذكورين، لحجبهم بتلك الشقيقة.

وبموت مريم المذكورة عن أمها وردة وأشقائها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليل يقسم نصيبها المذكور بينهم، لأمها وردة سدسه، فرضا، سدس قيراط وثمنان اثنان من ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وسدسان اثنان من تسع ثمن ربع سدس قيراط، ولأشقائها المذكورين باقيه، وهو خمسة أسداس قيراط وربع سدس قيراط وأربعة أثمان ربع سدس قيراط وثلاثة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وأربعة أسداس تسع ثمن ربع سدس قيراط، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا شيء لأختها لأبيها وردة، لحجبها بهؤلاء الأشقاء.

ومن هذا يتبين أن هذه التركة قد انحصرت في: زوجة الميت الأول مرتا، وبنتيه منها ماريا وفيكتوريا، وفريدة بنت صابات، وشقيقتها وردة، وفي: وردة، زوجة يوسف، وأولادها: إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى.

وما هو لزوجة الميت الأول مرتا ميراثا من زوجها المذكور وابنها ديب: أربعة قراريط وسدسان اثنان من قيراط ونصف سدس قيراط.

وما هو لماريا وفيكتوريا، بنتى الميت الأول المذكور، ثمانية قراريط ونصف قيراط، مناصفة بينهما.

وما هو لفريدة، ميراثا من أمها صابات، نصف قيراط وسبعة أثمان ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لوردة، ميراثا من شقيقتها صابات ومن أبيها يوسف، قيراط واحد ونصف قيراط ونصف سدس قيراط وستة أثمان ربع سدس قيراط وثلاثة أتساع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لوردة زوجة يوسف، ميراثا من زوجها المذكور ومن بنتها مريم، قيراط واحد ونصف قيراط وربع سدس قيراط وأربعة أثمان ربع سدس قيراط وأربعة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وسدسان اثنان من تسع ثمن ربع سدس قيراط.

وما هو لأولادها إبراهيم وأمين وفيلومينا وليلى، ميراثا من أبيهم يوسف وشقيقتهم مريم، سبعة قراريط وسدسان اثنان من قيراط وخمسة أثمان ربع سدس قيراط وستة أتساع ثمن ربع سدس قيراط وأربعة أسداس تسع ثمن ربع سدس قيراط، باقي التركة المذكورة، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين.

وحيث كانت وردة بنت يوسف، وفريدة بنت صابات غائبتين، لم يدر موضعهما ولا حياتهما ولا موتهما، وكانت قد أمنتا على نصيبهما، قبل غيبتهما البطركخانة، فلا ينزع من يدها. والله أعلم[٣٨٧].

٢٩ ـ (السؤال)

سئل[٣٨٨] بإفادة من محافظة مصر مؤرخة في ٢١ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٦٥٨، مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة جناب وكيل بطريكخانة الروم المتعلقة بالإجابة على السؤال طيه.

إجابة طلبه والإفادة.

(الجواب)

السؤال المرفق بهذا يتضمن أن امرأة ماتت عن زوج وأم وبنتين وأختين وثلاثة إخوة لأبوين، وقد استفهم به عما يخص كلا منهم على حسب الشريعة الغراء.

ونفيد عزتكم أن التركة الموروثة عن هذه المرأة تجعل على حسب قواعد الميراث المعروفة في تلك الشريعة الغراء من اثني عشر سهما، ويزاد عليها واحد يسمى بالعول به، أي بالزيادة، فيخص الزوج منها ثلاثة، فرضا، وهو الربع عائلا، ويخص الأم منها اثنان فرضاً، وهما السدس عائلا، ويخص البنتين باقيها ثمانية، فرضا، وهي الثلثان عائلاً، وبذلك استغرق أرباب الفروض التركة مع ما زيد عليها، وهو الواحد، ولا شيء للأختين، لأنهما عصبة مع البنتين، ولا للإخوة، لأنهم عصبة لأنفسهم، والكل يسقطون باستغراق الفروض التركة، والله سبحانه أعلم(٣٨٩).

العودة للدين الحق

٣٠ ـ (السؤال)

سأل باشكاتب محكمة شرعية لواء نابلس: الشيخ عبده بكر التميمى، فى رجل أقر أنه من طائفة الدروز، ويريد الآن أن يترك ما كان عليه من الاعتقادات الدرزية، ويعتنق الدين الإسلامى الحنيفى المبين، فهل، والحالة هذه، إذا أتى بالشهادتين، مع عبارة التبرى من جميع ما يخالف دين الإسلام، يعتبر بنظر الشرع مسلماً ويعامل معاملة المسلمين فورا؟ ولا يعد منافقا؟ وإذا صح إسلامه بتلك الصيغة فما حكم من لم يقبل إسلامه من المسلمين؟ وهل يشترط لقبول إسلامه أن يكون رسميا؟

أرجو الجواب.

(الجواب)

الذى قالوه: إنه متى جاء الدرزى ونحوه طائعا معلنا بأنه كان على عقيدته، وأنه رجع عنها، متبرئا من كل دين يخالف دين الإسلام. وجب قبول قوله، واعتبر مسلما. وقالوا، كذلك: إن من لم يقبل رجوع من يريد الأوبة إلى الإسلام يكون راضيا ببقائه على الكفر. وقالوا: إن أقل ما فى ذلك أن يكون آثما سيئا.

ثم إنه ليست لنا سنة نتبعها فى اعتبار المتحول إلى الإسلام مسلما منا، له ما لنا وعليه ما علينا فى أخوة الدين إلا سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان عليه السلام يقبل الرجعة إلى الإسلام بعد الردة، والإخلاص بعد النفاق، ولم يكن ينظر إلى من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن القرآن حق، والآخرة حق، وأن جميع ما فرض الله فى كتابه واجب الأداء، وما منعه يجب عنه الانتهاء، إلا نظرة المسلم للمسلم، ولم يكن يفرق بين المسلمين فى الإسلام، إلا أن يطلعه الله على ما كن شخص من نفاق، أو قامت له على ذلك شواهد قاطعة. وكتب السنة شاهدة بذلك. فكيف لا نقنع من الناس بما قنع صلى الله عليه وسلم منهم؟ وكيف نطالبهم بأكثر مما طالبهم به؟ وهو صاحب الشريعة، وإليه المرد عند النزاع؟

فهذا الدرزى الذى اعترف بما كان عليه، وجاء الآن طائعا من نفسه يشهد أنه على الدين الحق، وأنه ينبذ كل دين يخالفه، يعد مسلما حقا. ومن لم يقبل منه ذلك يخشى أن يبوء بها، نعوذ بالله! فليتق الله المسلمون، وليرجعوا إلى حكم الله وحكم رسوله، ولا يكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، والله ينقذهم مما صاروا إليه، وهو يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

أما اعتبار الراجع إلى العقيدة الصحيحة مسلما فلا يحتاج إلى أن يكون ذلك من طريق رسمية، بل يكفى أن يعلم الله عنه ذلك. ثم فى جريان أحكام المسلمين عليه لا يحتاج إلا إلى أن يعرف الناس منه ذلك ويشتهر أمره بين من يعرفونه. والله أعلم(٣٩٠).

التبنى وفقر الآباء والأمهات

٣١ - (السؤال)

سئل (٣٩١) بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٣ ذى القعدة سنة ١٣١٩ نمرة٣، مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة مصلحة الصحة رقمية أول يناير الماضى، نمرة ١ المختصة بالاستفهام عما إذا كان يجوز شرعا تسليم الطفلة سيدة

بنت سارة التى وجدت بالمستشفى لعدم قدرة والدتها على تربيتها وطلاقها من زوجها، هى ومن يماثلها، لمن يرغبون استلامهم لتربيتهم بطرفهم أسوة بالأطفال اللقطاء؟ تفاد النظارة بما يقتضيه الحكم الشرعى فى ذلك. وطيه سبع ورقات.

(الجواب)

واقعة السؤال ليست مما يختص بباب الحضانة وحده، بل هى واقعة تشتمل مع ذلك على المحافظة على حياة الطفل، لعدم الوسائل للإنفاق عليه. فلينظر فى حال الأم، فإن كانت قادرة على حضانة بنتها والإنفاق عليها، والأب عاجز عن ذلك، وجب على الأم أن تحضن بنتها، ولا يجوز تسليمها لغيرها. وإن كانت الأم عاجزة عن التفرغ للحضانة والإنفاق، ألزم الأب بأن ينفق عليها، وأن يكل حضانتها لمن يلى الأم فى استحقاق الحضانة إن أبت الأم أن تحضنها. وإن كان الأب عاجزا عن الانفاق وإعطاء أجر الحضانة، ولا فائدة من إجباره على ذلك، ووجد من يكفل تربيتها، وكان أبواها راضيين بتسليمها إليه، جاز ذلك حفظا لحياتها. والله أعلم[٣٩٢]. طيه الأوراق عدد ٧.

٣٢ - (السؤال)

سئل[٣٩٣] بإفادة من نظارة الحقانية، مؤرخة فى ١٧ الحجة سنة ١٣١٩ نمرة ٩ مضمونها: أن حضرة مدير الصحة العمومية رام بإفادته نمرة ٢٩، ضمن عشر الورقات طيه، معرفة ما إذا كان يجوز شرعا تسليم الأطفال الذين ليس لأهاليهم مقدرة على تربيتهم لمن يرغبون استلامهم لتربيتهم بطرفهم، بصرف النظر عن قبول أبويهم، للسبب الذى أوضحه حضرته؟ فالأمل الإفادة بما يرى.

(الجواب)

قد اطلعت على هذا الرقيم، وعلى ما جاء فى إفادة حضرة مدير الصحة،

المرفقة بهذا، من الاستفهام عما إذا كان يجوز تسليم الأطفال الذين ليس لأهاليهم قدرة على تربيتهم لمن يرغبون استلامهم، بصرف النظر عن قبول أبويهم، نظرا لما أوراه حضرته من أنه بعد تسليم الطفل «للإسبيتالية» لعدم القدرة على تلك التربية، يصعب معرفة أبويه لأخذ قولهما في الرضاء بالتسليم للغير. فرأيت أن لا مانع في هذه الحالة من تسليمه لثقة قادر على حفظه. والله أعلم. وطيه الأوراق عدد ١٠.

حاشية: ويراعى في الثقة القادر أن يكون مسلما. والله أعلم(٣٩٤).

فتـــاوى فى الأوقاف والميراث والمشكلات المالية

٣٣ـ (السؤال)

سأل الشيخ أمين أبو يوسف، من الزقازيق، فى: امرأة تدعى أنها مستحقة فى أوقاف أهلية، وتستند فى ثبوت نسبها للواقف واستحقاقها فى جزء من ريع تلك الأوقاف على ما جاء فى تقرير النظر الصادر من إحدى المحاكم الشرعية من قول نظار الوقف المشتركين فى النظر أن المعروف أن هذه المرأة من المستحقين.

فهل يجوز القضاء لها على المنكرين من المستحقين بمجرد ما جاء فى ذلك التقرير؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لا يجوز القضاء باستحقاق هذه المرأة حال إنكاره بناء على ما جاء فى ذلك التقرير، بل لابد من إثباته بالطريق الشرعى. والله أعلم[٣٩٥].

٣٤ـ (السؤال)

سأل عبد العزيز أفندى العطار، بمصر، فى: مستحقين لريع وقف وناظرة عليه مستحقة فيه، تصادقوا جميعا على أن ناظرة الوقف وشقيقها يستحقان فى هذا الريع تسعة قراريط، وبنات أخيها الأربعة أحد عشر قيراطا بالسوية، وابن ابن أخيها أربعة قراريط. ومضى على هذا التصادق مدة. والآن تريد هذه الناظرة محاسبتهم على حساب شرط الواقف، وهم يريدون العمل بهذه المصادقة. فهل تكون هذه المصادقة صحيحة، ويعمل بها، ما دام هؤلاء المتصادقون موجودين، ولو خالفت كتاب الواقف، وعلى الناظرة العمل بها؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، هذه المصادقة صحيحة، ويعمل بها في استحقاق ريع هذا الوقف في حق هؤلاء المتصادقين، إذ هي إقرار، وهو حجة قاصرة عليهم فيؤاخذون بها في حق أنفسهم ما داموا أحياء، ولو خالفت كتاب الواقف. وعلى الناظرة العمل في قسمة ذلك الريع بينهم على حساب تلك المصادقة. والله أعلم[٣٩٦].

٣٥ ـ (السؤال)

سأل سعيد الطيب الرافعي، في: واقف أنشأ وقفه على نفسه مدة حياته، ثم من بعده فعلى بنتيه: فلانة وفلانة، وعلى من سيحدثه الله تعالى له من الأولاد، ذكورا وإناثا، بينهم جميعا على الفريضة الشرعية، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، ثم من بعدهم فعلى أولادهم كذلك، ثم على أولاد أولادهم مثل ذلك، ثم على أولاد أولادهم كما هنالك، ثم على أنسالهم وأعقابهم كذلك، للذكر مثل حظ الأنثيين. على أن من مات منهم جميعا عن ولد أو ولد ولد أو نسل أو عقب، عاد نصيبه لأصل غلة الوقف، ويقسم على مستحقي الوقف المتناولين لها. ومن مات منهم قبل أن يستحق شيئا في هذا الوقف وترك ولدا أو ولد ولد أو نسلاً أو عقبا، قام ولده أو ولد ولده أو نسله أو عقبه مقامه في الدرجة والاستحقاق، واستحق ما كان أصله يستحقه لو كان حيا.. إلى آخر ما شرط.

ثم انقرض جميع أولاد الواقف أهل الطبقة الأولى، فهل ـ والحال ما ذكر ـ تنقض القسمة، وتوزع غلة الوقف على أولادهم على الفريضة الشرعية؟ أو تعود حصة كل من أولاد الواقف على أولاده؟ وهل من مات من أهل الطبقة الثانية قبل أن يستحق شيئا من هذا الوقف يقوم ولده مقامه، ويستحق ما كان يستحقه أصله لو كان حيا، عملاً بشرط الواقف؟ وهل من مات من أهل الطبقة الثانية بعد الاستحقاق قبل انقراض الطبقة الأولى وعاد نصيبه لأولاده، يحرم أولاده بعد انقراض الطبقة الأولى ونقض القسمة؟ أو يبقون يتناولون نصيب أبيهم كما كانوا؟ عملاً بالظاهر من غرض الواقف، أو كيف الحكم الشرعي في جميع ذلك كله؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، تنقض قسمة ريع هذا الوقف بانقراض آخر طبقة أولاد الواقف موتا، ويقسم الريع على أهل الطبقة التى تلى طبقتهم أحياء أو أمواتا، بالفريضة الشرعية، حسب شرط الواقف، فما خص الحى منهم أخذه، وما خص الميت وله أولاد أو أولاد أولاد أخذه أولاده أو أولاد أولاده، بالتفاضل. ثم إذا قسم الريع على أهل الطبقة الثانية التى تلى طبقة أولاده المذكورين على هذا الوجه، انتقل نصيب من مات منهم عن ولد أو ولد ولد إلى ولده أو ولد ولده. . الخ. إلى أن تنقرض الطبقة الثانية فتنقض القسمة أيضا، وهكذا يعمل فى باقى الطبقات.

ومن مات من أهل الطبقة الثانية أو التى تليها قبل الاستحقاق وترك فرعا وارثا أو أكثر، قام فرعه الوارث مقامه في الاستحقاق، واستحق ما كان أصله يستحقه لو كان حيا حسب ما شرط أيضا. وبعد نقض القسمة لريع الوقف يقسم على من فى الطبقة التى تلى طبقة أولاد الواقف، أحياءً وأمواتا، ويشارك أولاد من مات قبل الاستحقاق أولاد من مات بعد الاستحقاق قبل نقض القسمة، عملا بغرض الواقف وشرطه من أن صلة الفرع صلة لأصله. وشرط الواقف استحقاق ولد من مات قبل الاستحقاق وقيامه مقام أصله، إنما هو لدفع توهم حرمان ولد من مات قبل الاستحقاق، فالنص عليه لا يقصد به الواقف حرمان ولد من مات بعد الاستحقاق قبل نقض القسمة، لدخولهم فى أول كلام الواقف نصا ولعقده صلتهم بصلة أصولهم. وحينئذ، فلا يعول على ما فى هامش (الحامدية) لما علمت من مخالفته لغرض الواقف وقصده. والله أعلم[٣٩٧].

٣٦ ـ (السؤال)

سئل [٣٩٨] بإفادة من عموم الأوقاف مؤرخة فى ١٢ رجب سنة ١٣١٨ هـ نمرة ٣٨١٨ مضمونها: إنه لوفاة من يدعي عرفان بك أحمد، نجل المرحوم كلنان هانم، كريمة المرحوم أحمد طاهر باشا، وأحد مستحقي وقف الباشا المشار إليه، بتاريخ ٤ يوليه سنة ١٩٠٠م، عقيما، كما وردت بذلك مكاتبة محافظة مصر المؤرخة ٢٦ شهره، نمرة ٢٠٩، وتطلب مستحقي الوقف توزيع استحقاق المتوفى على مستحقيه

حسب شرط الإيقاف، قد أفتى من حضرة مفتى أفندى الديوان بأن نصيب المتوفى المذكور يئول لمن فى طبقته من الأحياء حال وفاته، بما فيهم أربعة أنفار أولاد الأحياء من الطبقة الأولى بالسوية بينهم، ذكوراً وإناثا، عملا بقول الواقف: (فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم).

وحيث إن حضرة كرم بك طاهر أحد مستحقى الوقف أورى[٣٩٩]، ضمن مكاتبته، بعدم أحقية الأربعة المذكورين، وهم أولاد كل من حضرات حسين بك طاهر والستات ربيعة هانم وحميدة هانم من أهل الطبقة الأولى فى نصيب المتوفى المذكور، لعدم سبق دخولهم فى هذا الوقف، كما جاءت بذلك مكاتبة قسم أول أوقاف مرفوق رقيم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠ نمرة ١٦٨٦، فبناء عليه اقتضى ترقيمه لفضيلتكم بأمل أنه بعد الاطلاع على الأوراق مرفوقة وقدرها عدد ١٢ بحافظة بما فيها الشجرة المعمولة ببيان مستحقى الوقف المرقوم ودرجاتهم وصورة وقفيته والفتيا المعطية من مفتى الديوان، نفاذ عما يئول إليهم هذا النصيب.

(الجواب)

قد اطلعت على رقيم عزتكم هذا المؤرخ فى ١٢ رجب سنة ١٣١٨ وعلى ما معه من الأوراق، فرأيت أن الواقف رتب فى الموقوف عليهم، وقال: طبقة بعد طبقة، الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. وشرط أن من مات منهم عن غير ذرية ولا إخوة ولا أخوات ينتقل نصيبه لأقرب الطبقات إلى هذا المتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم. وحيث إن عرفان بك أحد المستحقين فى هذا الوقف مات عقيما، وليس له إخوة ولا أخوات، فينتقل نصيبه من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم عملا بذلك الشرط، بما فى ذلك أولاد الأحياء الأربعة المذكورون، لأنهم من أقرب طبقة الميت أيضا وإن كانوا محجوبين الآن عن الاستحقاق بسبب الترتيب فى عبارة الواقف بين الأصل وفرعه. فهم وإن كانوا محجوبين عن أنصباء أصولهم بهم. إلا أنهم من أهل الوقف الموقوف عليهم، فيستحقون فى هذا النصيب، وتكون قسمته عليهم وعلى باقى أهل طبقتهم، ذكورا وإناثا، بالسوية، لعدم اشتراط التفاضل فى جانبهم. والله أعلم. والأوراق عدد ١٢ بحافظة طيه[٤٠٠].

٣٧ ـ (السؤال)

سأل الشيخ أحمد محمد المراكشى، فى: واقف شرط فى وقفه البدء من ريعه بعمارته، ولو صرف فى ذلك جميع غلته. وإن أعيان الوقف الآن متخربة ومحتاجة إلى العمارة، والناظر عليه ممتنع من دفع شىء من ريعه إلى المستحقين حتى يجرى العمارة، فهل لا يجبر على الدفع لهم؟

(الجواب)

ليس للناظر دفع شىء من ريع الوقف للمستحقين مع احتياجه إلى التعمير، لأنه مقدم على الدفع لهم. والله سبحانه وتعالى أعلم[٤٠١].

٣٨ ـ (السؤال)

سأل الشيخ محمد عز العرب، فى: ناظر مؤقت على وقف يستحق فيه، أقام وكيلا عنه حال ذلك النظر، ثم صادقه المستحقون على أنه أرشدهم ويستحق النظر بالشرط، وفصلت جهة الاختصاص باستحقاقه للنظر وحده طبقاً لشروط الواقف. وبعد ذلك اجر وكيله الذى وكله عنه أيام نظره المؤقت عينا من أعيان الوقف وأجاز هو عمله ورضى به، فهل تصرف الوكيل فى ذلك نافذ؟ أو يحتاج إلى توكيل جديد لا تكفى الإجازة؟

أفيدوا الجواب.

(الجواب)

هذه الإجارة نافذة، لأن الناظر أجازها بعد أن انتهى النظر إليه شرعا، ولا يحتاج نفاذها إلى توكيل جديد. والله أعلم[٤٠٢].

٣٩ ـ (السؤال)

سأل محمد موسى، من الإبراهيمية، بأنه رهن أطيانا لآخر، ثم بعد الرهن وقفها، وقد حل الآن أجل مبلغ الرهن، وصاحبه يطالب به، فهل يجوز بيع تلك الأطيان لأجل سداد الدين الذى صار رهنا عليه؟

أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرح فى (الإسعاف) وغيره بأنه لو وقف المرهون بعد تسليمه صح، وأجبره القاضي على دفع ما عليه إن كان موسرا، وإن كان معسرا أبطل الوقف، وباعه فيما عليه، كما نقله فى (رد المحتار). وعليه، فإن كان الواقف فى هذه الحادثة معسرا، باع القاضي من الأعيان الموقوفة ما يفى بدين المرتهن، فإن بقى شيء منها فهو على وقفه، والله أعلم[٤٠٣].

٤٠ ـ (السؤال)

سئل[٤٠٤] بإفادة من حضرة قاضى مديرية الشرقية، مؤرخة فى ٢٩ رجب سنة ١٣١٨هـ، نمرة ٧١٤ مضمونها: أن المرحوم السيد باشا أباظة وقف حال حياته جملة أطيان بمديرية الشرقية على نفسه أيام حياته، ثم من بعده على أولاده، الذين عينهم بكتاب وقفه، وخص كلا بجهة مخصوصة، ثم من بعد كل منهم على ذريته ونسله وعقبه، ذكروا وإناثا، بالفريضة الشرعية. وشرط النظر على ذلك لنفسه أيام حياته، ثم من بعده يكون كل واحد من أولاده الموقوف عليهم ناظرا على وقفه، ثم بعد كل منهم يكون النظر للأرشد فالأرشد من ذريته ونسله وعقبه. وشرط لنفسه ولأولاده الموقوف عليهم والأرشد فالأرشد من ذريتهم ممن يكون ناظرا بعد أصله: الإدخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان متى شاء يفعل ذلك، ويكرره كلما بدا له فعله شرعا.

وقد فهم بعض من زعم أنه ناظر أن الشروط المذكورة تبيح له إخراج المستحقين، وضم حقوقهم إليه، وفعلا أخرجهم وأخذ استحقاقهم لنفسه سنين عديدة.

وقد فهم القاضي المذكور أنه ليس للناظر إخراج المستحقين وأخذ استحقاقهم لنفسه شرعا. وعرض القاضي المذكور ذلك على حضرة الأستاذ المفتي شفاها، وأقره على عدم الجواز، وفهم من سيادته أن سماحة قاضي مصر استفتاه عن حادثة كهذه للست بهية هانم، وأفتاه بعدم الجواز. ولكون من زعم أنه ناظر وأخرج المستحقين وجعل استحقاقهم لنفسه تحصل على فتاوى من بعض العلماء تساعده على ما فعله، كإخباره للقاضي المذكور لم يزل مترددا على المحكمة لإقامته ناظرا الآن بسبب صلحه مع من أخرجهم، وأنهم سيصادقونه على أرشديته واستحقاقه للنظر، وأورى ذلك القاضي أن هناك قصرا من المستحقين، ويخشى أنه لو قرره ناظرا يخرجهم ويجعل استحقاقهم لنفسه كما فعل عليه بإفادته منه عما إذا كان ذلك يمنع من إقامته ناظرا ولو صادقه البلغ من المستحقين على أرشديته واستحقاق النظر أم لا؟ ورغب إرسال صورة الفتيا المذكورة للعمل بمقتضاها في الحال والاستقبال.

(الجواب)

متى ثبتت الأرشدية، وتحقق استحقاقه للنظر بالشرط، فلا مانع من تقريره فيه وتمكينه منه، على أنه لا يخرج المستحقين أو جماعة منهم ويعطي نفسه ما هو لهم، لأنه لا يملك ذلك. فيمكنكم أن تمكنوه من النظر وتضعوا في صيغة التمكين شرط أن لا يخرج أحدا من المستحقين ليجعل نصيبه لنفسه. والله أعلم[٤٠٥].

٤١ ـ (السؤال)

سأل عبد العظيم أفندي سليم، في: رجل وقف أوقافا على نفسه مدة حياته، ثم على من عينه في كتاب وقفه، وشرط شروطا منها: أن النظر على ذلك لنفسه مدة حياته، ثم من بعده لزوجته، ثم من بعدها لإحدى بنتيه، ثم من بعدها لابنته الأخرى، ثم من بعدها للأرشد من المستحقين. ومنها أنه شرط الشروط العشرة

لنفسه مدة حياته، وشرطها أيضا من بعده لزوجته مدة حياتها، ثم من بعدها لابنته الكبيرة، وسماها، وأختها، وسماها، مدة حياتهما. فهل بعد وفاة الواقف وزوجته الكبيرة، لا يكون لابنته الصغيرة الإدخال والإخراج والاستبدال وغير ذلك من باقي الشروط؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث شرط الواقف الشروط العشرة لابنته وأختها، اللتين سماهما مدة حياتهما، فقد اشتركتا معا فيما شرطه لهما الواقف من الشروط المذكورة. وحيث ماتت إحدى البنتين ولم يجعل الواقف ذلك لغيرها بعد موتها، فلا تملك البنت الثانية العمل بتلك الشروط على سبيل الانفراد. وإن كان الواقف قد أباح النظر لكل منهما مستقلة، فقد يكون من غرضه ألا تكون الشروط العشرة لما فيها من الخطارة إلا لهما معا مدة حياتهما. والله أعلم (٤٠٦).

٤٢ ـ (السؤال)

سأل حضرة يعقوب بيك جسري، في: ناظر وقف آجر عينا من أعيانه مدة ثلاث سنوات، وقبل انتهائها أجر تلك العين مدة ثانية قدرها ثلاث سنوات أيضاً، والحال أن الواقف شرط في وقفه ألا يؤجر وقفه أكثر من سنة، وهاتان الإجارتان بدون إذن القاضي. وقد تنازل الناظر عن مبلغ أجرة المدة الثانية لصاحب دين عليه، وكل من الإجارتين لغير ضرورة، فهل لا يكون كل منهما صحيحا، لمخالفته لشرط الواقف، وعدم إذن القاضي، وعدم الضرورة؟ وهل للمستحقين الرجوع على الناظر بما يخصهم في مبلغ أجرة المدة الثانية التي تنازل عنها، ويكون ضامنا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

يراعى شرط الواقف في إجارة وقفه، فإن عين مدة الإجارة اتبع شرطه، وليس للناظر مخالفته، وإن كانت الإجارة أكثر من تلك المدة أنفع للوقف وأهله يرفع

الناظر الأمر إلى القاضي ليؤجره المدة التي يراها أصلح للوقف. وقالوا: لا يجوز لغير حاجة إجارة دار الوقف أو أرضه إجارة طويلة ولو بعقود. فالإجارة في حادثتنا غير صحيحة، لمخالفتها لشرط الواقف، ولم يأذن بها القاضي، ولم تقض بها ضرورة. أما التنازل عن الأجرة للدائن فلا يصح بحال، لأن الناظر ليس له أن يفي دينه من ريع الوقف، وإنما ريع الوقف يقسم بين المستحقين على حساب شرط الواقف. فللمستحقين في كل حال مطالبة الناظر بما يستحقونه من مبلغ أجرة أعيان الوقف، ويرجعون به على الناظر لو فرض صحة الإجارة، لأن الناظر ضامن في هذه الحالة حتما. والله أعلم[٤٠٧].

٤٣ ـ (السؤال)

سئل [٤٠٨] بإفادة من حضرة إبراهيم بيك مختار، مؤرخة في ٥ شعبان سنة ١٣١٨ هـ مضمونها: أن واقفا وقف وقفا قال فيه: وأما الثلثان، الستة عشر قيراطاً، باقي ذلك تصرف لعتقاء حضرة المشهد الواقف المومى إليه الموجودين الآن، هم: المصونة كلفدان، والمصونة كلبياظ البيضة الجركسية الجنس كلتاهما، والمصونة زينب، والمصونة فاطمة والمصونة تشريف الحبشية كل منهن، والأستى زهرة، والأستى زينب، والأستى سمود، والأستى فكشة السمراء كل منهن، وسرور آغا، وفروج، وحبيب الحبشي كل منهم، وقاسم آغا الأسمر، ومن سيحدثه الله سبحانه وتعالى لحضرة المشهد الواقف المومى إليه من العتقاء، ذكورا وإناثا، سودا وبيضًا وحبوشا، والست زهرة السمرة معتوقة حضرة المرحوم محمد سعيد باشا المشار إليه المعروفة الآن بزوجة المكرم على آغا الملاطيدلي، والمكرم الأستى عبد المتعال منصور، المعروف بتابع حضرة المشهد الواقف المومى إليه، ابن المرحوم الحاج منصور بن المرحوم الحاج سليمان، والمكرم محمد حسن جدارة الفراش بطرف حضرة المشهد الواقف المومى إليه، ابن المرحوم حسن جدارة ابن المرحوم محمد جدارة.

بحيث إن لكل نفر من عتقائه البيض والحبوش، ذكورا وإناثا، والأستى عبد المتعال ومحمد حسن جدارة والست زهرة السمرة، المعروفة بزوجة المكرم على

آغا، المذكورين، ما عدا فرج وحبيب المذكورين، نصيبين اثنين، ولكل من عتقائه السمر وفرج وحبيب المذكورين نصيب واحد، ينتفعون بذلك جميعا على الوجه المسطور. ثم من بعد كل من سرور آغا وقاسم آغا، معتوقي الواقف المومى إليه المذكورين، تكون حصتهم من ذلك لعتقائه، بيضا وسودا وحبوشا، ذكورا وإناثا بالسوية بينهم. ومن بعد كل من باقي عتقائه سرور آغا وقاسم آغا المذكورين فلأولادهم ثم لأولاد أولاد أولادهم ثم لذريتهم ثم لنسلهم ثم لعقبهم، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، طبقة بعد طبقة، ونسلا بعد نسل، وجيلا بعد جيل، الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره، يستقل به الواحد منهم إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم وترك ولدا أو ولد ولد[٤٠٩] أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل. فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا أسفل من ذلك، ينتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له فى الدرجة والاستحقاق مضافا لما يستحقونه فى ذلك. فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات، فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم، وعلى من مات الموقوف عليهم قبل دخوله فى هذا الوقف واستحقاقه لشىء منه وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل من ذلك قام ولده أو ولد ولده وإن سفل مقامه فى الدرجة والاستحقاق منه واستحق ما كان أصله يستحقه أن لو كان الأصل المتوفى حيا باقيا لا ستحق ذلك، يتداولون ذلك بينهم كذلك إلى حين انقراضهم أجمعين. فإذا انقرضوا جميعا بأثرهم وأبادهم الموت عن آخرهم وخلت بقاع الأرض منهم أجمعين، يصرف ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا، يجرى الحال (فى ذلك)[٤١٠] كذلك (وجودا)[٤١١] وعدما، تعذرا وإمكانا، أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وأورى بذلك الإفادة أن ما ذكر هو صورة الشرط المدون بكتاب وقف أبعادية المرحوم خليل آغا باستحقاق عتقاه وغيرهم وما يلزم اتباعه فيمن يتوفى منهم على مقتضى ما ذكر فيه.

وحيث إنه قد توفى واحد من الطبقة الثانية وقد يوجد اثنان من الطبقة الأولى

وإناث من الطبقة الثانية والثالثة والرابعة، فماذا يكون فى تقسيم حصة المتوفى والحالة هذه؟ نرجو الجواب ولكم الثواب.

(الجواب)

قد اطلعت على هذه الصورة، فرأيت أن الواقف بعد أن ذكر الترتيب بين الأصل وفرعه بقوله: «الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره»، شرط أن من يموت من عتقى قاسم آغا وغيرهم ممن ذكرهم لا عن ولد ولا ولد ولد ولا أسفل ولا إخوة ولا أخوات ينتقل نصيبه من ذلك لأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم.

وعلى ذلك، يكون نصيب من مات من أهل الطبقة الثانية التى هى طبقة عتقى قاسم آغا المذكور وغيرهم لا عن ولد ولا ولد ولد ولا أسفل ولا إخوة ولا أخوات لمن فى طبقته من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم وهم أهل الطبقة الثانية جميعا بالسوية عملاً بشرط الواقف، لأن من طبقته من الموقوف عليهم أقرب الطبقات إليه، وإن كان فيهم من هو محجوب الآن عن الاستحقاق بسبب ما ذكره الواقف أولا من الترتيب بين الأصل وفرعه، لأنه وإن كان محجوبا عن نصيب أصله به إلا أنه من أهل الوقف الموقوف عليهم، فيستحق فى ذلك النصيب، أما من فى الطبقة الأولى والثالثة والرابعة فلا يستحقون شيئا فيه.

وهكذا الحكم فى كل ما يماثل ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم(٤١٢).

٤٤ ـ (السؤال)

سأل عبد الفتاح إبراهيم، من نامول، قليوبية، فى: رجل أنشأ وقفه على زوجته، ثم من بعدها على أولادها، ذكورا وإناثا، بالسوية، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، ثم على ذريتهم ونسلهم وعقبهم، طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلاً بعد جيل. الطبقة العليا

تحجب الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. ويستقل به الواحد منهم إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع.. إلى أن قال: إلى حين انقراضهم أجمعين يكون ذلك وقفا على كل من أولاده من غير زوجته المذكورة وأقارب زوجته، الأقرب فالأقرب، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم مدة حياتهم، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، وذريتهم ونسلهم وعقبهم، على النص والترتيب المشروحين أعلاه إلى حين انقراضهم أجمعين يكون ذلك وقفا على كل من.. الخ.

فماتت الزوجة الموقوف عليها عن ابنتها من الواقف، فاستحقت ريع الوقف المشروط لها من بعد أمها، ثم ماتت تلك البنت، من غير عقب، عن أخي أمها شقيقها، أي أخي زوجة الواقف، وعن ولدى أخيها من أبيها فقط، أي ولدى ابن الواقف من غير زوجته. فهل، والحالة ما ذكر، يقسم ريع الوقف بينهم أثلاثا، الثلث لأخي الزوجة، والثلثان لولدى ابن الواقف، بدليل قول الواقف بالسوية بينهم؟ أم كيف الجواب؟

(الجواب)

يقسم ريع هذا الوقف على أخ زوجة الواقف، الذى هو خال البنت المذكورة، وولدى أخيها من أبيها المذكورين سوية بينهم، أثلاثا، لقول الواقف، بعد قوله: إلى حين انقراضهم أجمعين: (ويكون ذلك وقفا على كل من أولاده من غير زوجته وأقارب زوجته، الأقرب فالأقرب، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده.. الخ).

وولدا أخ البنت من أبيها معتبران من أولاد أولاد الواقف، وخال البنت من أقارب زوجته، فينتقل الوقف إليهم بعد موت البنت بلا عقب. ويعد جميعهم فى طبقة واحدة بالنسبة للاستحقاق بعد الانتقال، فيقسم الريع عليهم بالسوية أثلاثا، ثم تجرى سائر الشروط على أعقاب كل منهم والحال ما ذكر فى السؤال. والله سبحانه وتعالى أعلم(٤١٣).

٤٥ ـ (السؤال)

سأل حسين بك رمزى، من الفيوم، فى: واقفة وقفت وقفها على نفسها أيام حياتها، ثم من بعدها على زوجها وعلى ذريته، إن رزقه الله منها شيئا، وذرية أخيه، على السوية بينهم، ذكرهم كأنثاهم، ثم من بعدهم على أولادهم، وأولاد أولادهم، ونسلهم، وعقبهم، إلى آخر ما بينته فى كتاب وقفها من الموقوف عليهم. وشرطت شروطاً منها: أن النظر لنفسها فى حياتها، ثم من بعدها لزوجها، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من ذريته وذرية أخيه، ثم من بعدهم لمن بينته فى كتاب وقفها. وشرطت أن يكون لها فى كتاب وقفها الشروط العشرة فى الإدخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والبدل والاستبدال والإسقاط لمن شاءت، تفعل ذلك وتكرره، ثم من بعد وفاتها تكون الشروط المذكورة لزوجها دون غيره من أهل وقفها. ثم أخرجت فى حياتها من وقفها ذرية أخ زوجها وأولادهم وأولاد أولادهم، ثم أدخلت غيرهم مكانهم. فهل إخراجها هذا لذرية أخ زوجها وأولادهم وأولاد أولادهم يعد إخراجا لهم من الاستحقاق والنظر معا؟ أو من الاستحقاق فقط، مع بقاء حق النظر لهم متى توافرت فيهم الشروط المعتبرة فيمن يستحقه، لعدم تعرضها فى ذلك الإخراج لتغيير النظر أو شرطه؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن التولية فى الواقف خارجة عن حكم سائر الشرائط، لأن له فيها التغيير والتبديل كلما بدا له من غير شرط فى عقدة الواقف، وليست مما يدخل فى الشروط العشرة التى اعتيد اشتراطها للواقف أو لمن يشترطها له، وأنه لو شرط لنفسه فى أصل الوقف استبداله والزيادة والنقصان ونحو ذلك جاز له أن يفعل ما شرطه لنفسه وقت العقد.

وصرحوا بأن شرط التغيير والتبديل راجع إلى مصاريف الوقف، وكذا الزيادة والنقصان الإدخال والإخراج، ولا يدخل فيه شرط النظر، كما سبق.

وحيث شرطت الواقفة في حادثتنا النظر لنفسها في حياتها، ثم من بعدها لزوجها، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من ذريته وذرية أخيه وغيرهم، على الوجه الذى بينته، وشرطت أن يكون لها فى وقفها الشروط العشرة فى الإدخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان والتغيير والبدل والاستبدال والإسقاط، ثم أخرجت من وقفها ذرية أخ زوجها وأولادهم وأولاد أولادهم، وأدخلت غيرهم مكانهم، جاز كل من الإخراج والإدخال المذكورين بالنسبة لمصاريف الوقف، لا بالنسبة للنظر، فيكون الحق فى هذا النظر باقيًا للأرشد من ذرية الأخ المذكور وغيرهم، على ما شرطته الواقفة، حيث لم تنص على إخراجهم منه، ولم يقع منها تغيير فيه ولا تبديل. والله أعلم[٤١٤].

٤٦ ـ (السؤال)

سأل محمد فريد، نجل المرحوم رشوان باشا، فيمن وقف أطيانا زراعية على من عينهم وقت صدور هذا الوقف، وجعل لك منهم نصيبا على الشيوع. ومات الواقف، والمستحقون بعضهم بالغ والبعض قاصر. والوصى على القصر ناظرة الوقف. وقد اتفقت هذه الناظرة مع المستحقين البُلَّغ على تسليم بعض الأراضى الموقوفة يديرونها كيف شاءوا ويستقلون بريعها، وتدير هى البعض الآخر لنفسها ولمن فى وصايتها من المستحقين. واستمر العمل على ذلك، ثم طلبت ناظرة الوقف نقض هذا العمل، وأن تدير هى جميع الأراضى الوقف، بما لها من النظر استقلالا، وتقسم الريع على المستحقين بحسب استحقاقهم. فامتنع بعض المستحقين البلغ المتفقين معها من تسليمها ما بأيديهم من الأراضى، زاعمين أنها قسمة لا يصح الرجوع فيها إلا بالتراضى. فهل هذا الاتفاق الذى استمر عليه العمل المدة المذكورة يعد[٤١٥] قسمة إفراز، وتكون صحيحة، أم لا؟ وإن لم تكن صحيحة تجاب الناظرة لطلب نقضها ذلك، ولها ولاية التصرف فى جميع الموقوف بطريق نظرها الشرعى دون باقى المستحقين؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المصرح به في كتب المذهب أن الوقف لا يقسم بين مستحقيه قسمة إفراز، بل قسمة حفظ وعمارة، وهى المهيأة، إن رضى الكل بها. ولمن أبى منهم بعد ذلك إبطالها، لأنها غير لازمة. وعلى ذلك، فللناظرة فى حادثتنا إبطال القسمة المذكورة، وأخذ ما بيد البلغ المذكورين من بعض الأراضى الموقوفة وصرف غلتها مع غلة باقى الوقف على جميع المستحقين بحسب شرط الواقف، لأن ولاية التصرف فى ذلك لها دون غيرها من المستحقين. والله سبحانه وتعالى أعلم(٤١٦).

٤٧ ـ (السؤال)

سأل عثمان عبد الله، ناظر وقف مصطفى عبد الوهاب، المعروف بوقف الملاح، بإسكندرية، فى: رجل أنشأ وقفه على نفسه أيام حياته، ثم من بعده على أولاده لصلبه، ذكورا وإناثا، بالفريضة، ثم من بعدهم على أولادهم، ثم على أولاد أولادهم، ثم وثم، طبقة بعد طبقة. الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى من نفسها لا من غيرها، على أن من مات منهم وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه إليه، فإن لم يترك ولدا ولا ولد ولد ولا أسفل فنصيبه من ذلك لمن هو فى درجته وذوى طبقته، فإن لم يكن فى درجته وذوى طبقته أحد فلبقية المستحقين معه فى الوقف والمشاركين له فى الاستحقاق. ومن مات منهم قبل دخوله فى هذا الوقف واستحقاقه لشيء من منافعه، وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل من ذلك فرعا وارثا وعقبا، قام مقامه فى الدرجة والاستحقاق، واستحق ما كان يستحقه أصله لو كان حيا باقيا. كل ذلك مع مراعاة الفريضة الشرعية، وحجب الأصل لفرعه، إلى آخر ما ذكره الواقف.

ومن جملة مستحقى هذا الوقف رجل وامرأة من الطبقة الخامسة. ومات الرجل المذكور عن خمسة من الأولاد مرزوقين له من المرأة المذكورة. وبعد موته استحقوا نصيبه، ثم مات منهم أربعة عن أولاد استحقوا ما كان يستحقه آباؤهم. ثم ماتت

المرأة المذكورة، مع وجود جماعة من المستحقين في طبقتها، عن ولدها الباقي من الخمسة المذكورين فقط، فهل ينتقل له نصيبها دون أولاد إخوته، عملا بقول الواقف المذكور؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت المرأة المذكورة عن ابنها المذكور ينتقل نصيبها إليه خاصة، عملاً بشرط الواقف، على ما في السؤال. والله أعلم[٤١٧].

٤٨ ـ (السؤال)

سئل[٤١٨] بإفادة من عموم الأوقاف، مؤرخة في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨، نمرة ٤٤٤٦، مضمونها: أن المرحوم خليل أغا أمين باش أغاى والدة المغفور له الخديو الأسبق، وقف في حياته عقارا بمصر ومكتبين، أحدهما يعرف: بالتركي، والثاني: بالعربي، وانشأ ذلك على أن يصرف من ريعه بعد وفاته على المكتبين المذكورين، وعلى خيرات عينها بحجة وقفه المسطرة في محكمة مصر الشرعية، المؤرخة في ١٨ شوال سنة ١٢٨٦هـ. ثم بعد ذلك بنى مدرسة بخط المشهد الحسيني، وسماها بالمدرسة الحسينية، وهي المشهورة الآن بمدرسة خليل آغا، ونقل إليها التلامذة الذين كانوا بالمكتبين المذكورين، وصرف عليها من ريع الوقف المذكور، ثم في سنة ١٢٩٠ وقف أطيانا بجهات وجعلها على نفسه، ثم على خيرات، وعلى أن يصرف من ريعها مبالغ عينها على التلامذة الذين يوجدون بالمدرسة الحسينية المذكورة وعلى الخوجات وغير ذلك مما عينه الواقف المذكور. وأشار إلى المدرسة المذكورة في جملة مواضع في حجة وقف الأطيان المذكورة المسطرة من محكمة الغربية المؤرخة في ١٥ صفر سنة ١٢٩١ ثم مات الواقف المذكور وأحد النظار الذي آل له النظر على الوقف المذكور جعل الشبابيك التي كانت بالمدرسة المذكورة من جهتها البحرية والغربية حوانيت أجرها واستغل ريعها. ثم فتح بابا من الجهة البحرية وبابا من الجهة الغربية وجعل بهما سلما

يوصل إلى الدور الثاني الذى كان من منافع المدرسة المذكورة، وجعله مساكن أجرها واستغل ريعها. فهل ما يستغل الآن من الحوانيت والمساكن المذكورة يكون مصرفه على المدرسة المذكورة خاصة، ولا يضم لغلة الوقف؟ وإذا احتاجت تلك المدرسة لذلك الدور الثاني يغلق الباب الموصل إليه لانتفاع المدرسة به، كما كان زمن الواقف، حيث إنه كان من منافعها في زمنه؟ أو يبقى مستغلا للمدرسة خاصة دون باقي الوقف؟؟ ولذا اقتضى ترقيمه لفضيلتكم وإبعاثه عن يد ناقله حضرة السيد محمد الدنف، مندوب شرعى الديوان، للإفادة عما يقتضيه الحكم الشرعى فى ذلك الإجراء على مقتضاه. أفندم.

(الجواب)

أما إعادة الدور الثاني إلى المدرسة كما كان في زمن الواقف، فلا مانع منه إن احتاجت المدرسة فى الغاية المقصودة منها للواقف، وهى التعليم. وأما ما حدث فى أسفل المدرسة من الحوانيت، فإن كانت المدرسة فى غنى عنها، ولا حاجة للتلامذة إليها حال إقامتهم فيها، كما يظهر من مكاتبة سعادتكم، فريعها يكون لها، ويصرف على التعليم، كما قصد الواقف، وذلك لأن الواقف بنى المدرسة، وأشار إليها فى كثير من كتب وقفه، فقد عرفها مصرفا للوقف من حيث هى مدرسة. وعرفت كذلك وقفا فى حياته ثم بعد وفاته إلى اليوم، فإذا هى بجميع أجزائها للتعليم لا للاستغلال الذى يوزع على المستحقين. فإذا استغنى التعليم عن بعض الأجزاء، كالشبابيك المذكورة، وكانت مصلحة الوقف فى استغلالها، واستغلت، كانت غلتها ناشئة عما هو للتعليم، فتصرف فيما يحتاج إليه التعليم أولا، وإنما ترد إلى أصل الغلة إذا لم يحتج التعليم إليها. وحالتها فى ذلك كحالة ما يؤخذ على التلامذة من المصاريف إن كان أولياؤهم يقدرون عليها، فإنها تصرف فيما قصده الواقف من المدرسة. والعمدة فى ذلك كله غرض الواقف من جعلها مدرسة بجميع أجزائها، فتبقى كذلك، ويعود كل شيء يحصل منها إلى المعنى الذى تضمنه كونها مدرسة، وهو التعليم. والله أعلم[٤١٩].

٤٩ ـ (السؤال)

سأل الشيخ يوسف صالح محمد الأزهري، فى: رجل أنشأ وقفه على ولده، وسماه، ثم على وله وأولاد ولده ونسلهم، الذكور دون الإناث، الدرجة العليا تحجب الطبقة السفلى، بحيث يحجب الشخص فرعه، وأن من مات منهم وله ولد أو ولد ولد انتقل نصيبه إليه، الذكور دون الإناث. فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد انتقل نصيبه لمن هو فى درجته، يجرى الأمر كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. فإذا انقرضوا، وخلت بقاع الأرض منهم يكون وقفا على الإناث من ذرية الواقف، إناث الظهور دون البطون. فإذا انقرض أولاد الظهور كان ذلك وقفا على أولاد البطون، فإن أبادهم الموت كان ذلك وقفا على عتقى الواقف المذكور وذريته، الذكور والإناث، وجعل آخره لجهة بر لا تنقطع.

ثم مات رجل عن أولاد أولاد ولد الواقف، ولم يعقب ذرية، ولم يوجد أحد فى درجته، بل الموجود فى الدرجة التى تلى درجته، أبناء أخيه لأبيه وبنات أخيه لأبيه، وأحد الابنين ينتمى إلى الواقف بجهة أبيه وجهة أمه، فما الحكم فى نصيب الميت الذى لم يعقب ولم يكن فى درجته أحد، وفقط الموجود فى الطبقة التى تلى طبقته: أبناء الأخ لأبيه وبناته، ولم يكن فى الطبقة النازلة إلا أولادهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن الواقف إذا شرط انتقال نصيب الميت لأهل درجته، ولم يوجد فيها أحد، لا يختص بنصيبه أحد دون أحد، بل يسقط سهمه، وتقسم الغلة بتمامها على المستحقين بقدر أنصبائهم، كأن هذا المتوفى لم يوجد فيهم. وهو نص فى مسألتنا، فيقسم نصيب الرجل المتوفى المذكور، لا عن عقب، ولا أحد فى درجته، على المستحقين بحسب أنصبائهم كما ذكر والله أعلم(٤٢٠).

٥٠ ـ (السؤال)

سأل الشيخ درويش على الرافعى، فى: رجل وقف أرضا وبها بناء وأشجار، ومن ضمن البناء حدائد ثابتة، وذلك مثل الوابور الثابت ولوازمه بالأرض المذكورة، ولكن عند وقف الواقف للأرض لم يذكر المبانى ولم يخرجها من الوقف، فهل تكون تلك المبانى خارجة عن الوقف؟ أو داخله تبعا للأرض؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

البناء، وغيره من الأشياء الثابتة تدخل فى وقف الأرض تبعا لها، وإن لم تذكر فى صفة الوقف تصريحا، كما ذكر ذلك علماؤنا. فالأبنية وما يتصل بها، والوابور الثابت فى حادثتنا هذه داخلة فى الوقف. والله أعلم[٤٢١].

٥١ ـ (السؤال)

سئل[٤٢٢] بإفادة من عموم الأوقاف، مؤرخة فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٠، نمرة ٤٥٨٢ مضمونها: أنه موقوف من قبل المرحومة الست ممتاز قادر، والدة حسين بك ١٠٠ فدان بناحية صرد غربية، على المرحوم الشيخ محمد عيد، ومن بعده على أولاده ثم على أولاد أولاده إلخ، على النص والترتيب المشروحين بكتاب الوقف المحرر من محكمة مصر الكبرى الشرعية وصادر أصله فى غاية ذى الحجة سنة ١٢٧٢ ونقله فى ٧ المحرم سنة ١٢٨٦.

ولوفاة محمد عيد عن ولديه حسن راقم والست زينب، ووفاة حسن راقم عن أولاده ستة هم: محمد وحسن وزينب وحميدة وأمينة وسكينة، ووفاة سكينة عن أولادها محمد وعبد العزيز وتوحيدة، ووفاة أمينة عن غير ذرية، ووفاة زينب ـ بنت محمد عيد ـ عن أولادها أربعة، هم: خديجة ونبوية وسكينة ومحمد عبده، ووفاة

سكينة ـ بنت عبد رب النبى غراب، التى هى من أولاد زينب بنت محمد عيد ـ فى يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٠ عن زوجها وأولادها أربع، هم: محمد عباس وثلاث بنات هن: وسيلة ونظيرة وشفيقة. مطلوب إعطاء الإفادة عما يقتضيه الحكم الشرعى فى استحقاق سكينة المذكورة الوقفى والإرثى.

(الجواب)

قد اطلعت على هذا الرقيم، وعلى ما معه من الأوراق، فرأيت أن الواقف صرح فى كتاب وقفه فى جانب الشيخ محمد عيد ومن معه من الموقوف عليهم: بأن ما هو لكل منهم يكون لمن بعده وقفا على أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، ثم على ذريتهم، ثم على عقبهم، طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل إلى انقراضهم أجمعين.

ومقتضاه ترتيب استحقاق جملة البطن الأسفل على انقراض جملة البطن الأعلى، فإذا انقرضت بطن من البطون يكون الوقف منحصرا فى البطن الذى يليه، ويستحق جميع الوقف جميع البطن الذى يلى البطن المنقرضة. فإذا مات أحد من البطن الأعلى لا ينتقل نصيبه لولده الذى هو فى البطن الأسفل مادام واحد فى البطن الأعلى، وهكذا، عملا بترتيب الطبقات. وعلى ذلك، لا يكون نصيب سكينة بنت زينب من هذا الوقف لأولادها، بل تعتبر كأن لم تكن، ويكون الريع جميعه لمن فى طبقتها، لانحصار هذا الريع فى هذا الطبقة. وأما استحقاقها الذى يورث عنها، فيقسم بين ورثتها على فرائض الله تعالى، لزوجها الربع، فرضا، وباقيه لأولادها، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين. والله أعلم(٤٢٣).

٥٢ـ (السؤال)

سأل محمد بيك يوسف، المحامى، فى: أطيان موقوفة وقفا أهليا قدرها ثلاثمائة فدان تقريبا، مؤلفة من قطع صغيرة كثيرة لا تقل عن ألف قطعة متفرقة وبعيدة بعضها عن بعض. ولهذه الأحوال ريعها قليل. ويوجد الآن من يشتريها

بثمن زائد عن قيمتها، ويمكن لناظر الوقف أن يشترى أطيانا بدلها قطعة واحدة، أكثر من تلك القطع ريعا وأحسن صقعا. فهل يجوز شرعا، والحالة هذه، لناظر الوقف أن يعمل هذا الاستبدال، وإن نهى الواقف عن الاستبدال فى كتاب وقفه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

تفرق أجزاء الأرض الموقوفة، وبعدما بين قطعها ـ كما هو مذكور في السؤال ـ مما يوجد النقص فى قيمتها وريعها لا محالة، بل قد يؤدى إلى خرابها. والمصلحة للوقف في أن يستبدل بها أرض متضامة الأجزاء، تسهل إدارتها ويتيسر استغلالها بما هو أقل كلفة. فإذا وجد الناظر ما هو أحسن صقعا وأوفر ريعا ـ كما ذكر فى السؤال ـ جاز الاستبدال، كما رجح جماعة من الفقهاء.

وأما الاستبدال بالنقود على نية شراء أرض بدل الموقوفة أجود منها تربة وأحسن صقعا وأوفر ريعا فلا مانع منه، ولا يصح أن يكون موضعا للنزاع إلا إذا خشى عليها الضياع بطمع النظار فى أكلها. ولهذا يجوز الاستبدال بالنقود على النحو الذى ذكرنا، بإذن القاضى، على شرط أن تكون النقود فى أمن من تصرف الناظر فيها إلا بشراء أرض البدل على الشرط السابق، بأن توضع فى خزينة المحكمة أو فى أى مأمن يراه القاضى حافظاً للنقود من امتداد يد الناظر حتي توجد الأرض البدل وتدفع فيها. والله أعلم(٤٢٤).

٥٣ـ (السؤال)

سئل(٤٢٥) بإفادة من عموم الأوقاف مؤرخة فى ٢٣ رمضان سنة ١٣١٨، نمرة ١٦٨، مضمونها: أنه معين بكتاب وقفى المرحومين الحاج ألماس آغا ومعتقته بنبه قادن والدة عباس باشا الأول، الصادر من محكمة مديرية الجيزة بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٩ صرف مبلغ ثمانية عشر جنيها مصريا في كل سنة للشيخ محمد

البغدادى، المعروف بإمام سراى المعتقة، مدة حياته، ثم من بعده يصرف ذلك لأولاده، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم لأولاد أولاده، ثم لأولاد أولادهم، ذكورا وإناثا، بالسوية، ثم لذريته، ونسلهم، وعقبهم. . الخ.

ولوفاة المذكور عن أولاده: محمود ومحمد وزهرة، صار إعطاء مرتبه هذا، بعد وفاته، إليهم بالسوية. ثم توفى الآن ولده محمود فى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٠ عن زوجته وأولاده منها ثلاثة قصر: فاطمة وزهرة ونبيهة وأخويه شقيقيه: محمد وزهرة، وحيث إنه مقتضى العلم بمن يئول إليه نصيب المتوفى المذكور فى هذا المرتب بالتطبيق لشروط الإيقاف الواضح على أحد الخمس ورقات طيه، فنرجو الاطلاع عليها والإفادة بما يقتضيه المنهج الشرعى فى ذلك.

(الجواب)

قد اطلعت على هذا الرقيم وعلى ما معه من الأوراق، فرأيت فى صورة الشروط أن الواقف شرط فى الوقفين المذكورين شروطا منها أن يصرف من ريع ذلك بعد وفاته فى كل سنة ثمانية عشر جنيها مصريا للشيخ محمد بغدادى، مدة حياته، ثم من بعده يصرف ذلك لأولاده، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم لأولاد أولاده، ثم لأولاد أولاد أولادهم، ذكورا وإناثا، سوية، ثم لذريتهم ونسلهم وعقبهم، على النص والترتيب المشروحين، إلى حين انقراضهم.

ومن جملة النص والترتيب المذكورين اللذين صرح بهما الواقف فى جانب من عينهم أولا من الموقوف عليهم، أن من مات منهم وترك ولداً أو ولد ولد أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل، وحيث مات محمود، أحد أولاد الشيخ محمد بغدادى، المذكور عن بناته: فاطمة وزهرة ونبيهة، المذكورات، فينتقل نصيبه من ذلك إليهن سوية بينهن أثلاثا، عملا بما يقتضيه كلام الواقف، ولا مدخل لزوجته وشقيقيه فى ذلك النصيب. والله أعلم. وطيه الأوراق كما وردت(٤٢٦).

٥٤ـ (السؤال)

سأل سيد عبد الله، من سوهاج، فى: حانوت جار فى وقف مؤجر من قبل ناظره لشخص مدة معلومة بأجر المثل، ولم تنقض مدة إجارته، فزاد آخر النظار فى أجرة الحانوت المذكور زيادة فاحشة، من قبيل التعنت والإضرار بالمستأجر، فأجرها له الناظر المذكور سنتين بعقد واحد قبل انتهاء مدة الإجارة الأولى، بالأجرة الفاحشة المذكورة، بغير ضرورة، وبدون إذن من قاض شرعى ولا بشرط الواقف. ويريد المستأجر الأول البقاء فى ذلك الحانوت، مع دفع أجر المثل الذى آجر به أولا إن كانت لا تعتبر زيادة الإضرار المذكورة، وكانت الإجارة الثانية لاغية، أو مع دفع تلك الزيادة إن كانت معتبرة شرعا، نرجو الإفادة عن الحكم الشرعى فى ذلك.

(الجواب)

صرحوا بأنه لا يجوز لغير اضطرار إجارة دار الوقف أو أرضه إجارة طويلة ولو بعقود مترادفة، فإن وجدت حاجة إلى ذلك، كعمارة الوقف، بأن تخرب ولم يكن له ريع يعمر به، جاز لهذه الضرورة إجارتها مدة طويلة، بإذن القاضى.

وصرحوا بأن المتولى إذا آجر حوانيت الوقف إجارة مضافة، وقد أهمل الواقف بيان المدة، فتكون هذه الإجارة فاسدة.

وصرحوا بأن الناظر إذا آجر دار الوقف مدة معلومة، ثم زاد آخر فى أثنائها زيادة معتبرة فى أجرتها فتعرض الزيادة على المستأجر الأول، فإن قبلها فهو الأحق بها.

وصرحوا بأن الزيادة إن كانت إضرارا وتعنتا لم تقبل.

ومما ذكر يتبين أن الاجارة الثانية، فى حادثة السؤال، فاسدة. وللناظر إبقاء المستأجر الأول فى ذلك الحانوت بأجرة المثل مطلقا، سواء الأجرة الأولى إن كانت الزيادة المذكورة إضرارا وتعنتا، أو الأجرة الثانية إن لم تكن تلك الزيادة كذلك، وقبلها. والله أعلم(٤٢٧).

٥٥ـ (السؤال)

سأل مرقص فهمى، بمصر، فى: ناظر وقف آجر أعيانه بصفته ناظر وقف، وهى أطيان، إلى المستحقين ولشخص ذمى آخر بعقود مختلفة بطريقة الشيوع، لكل من المستحقين قدر معين من الأفدنة، لمدة ثلاث سنوات. واقتسم المستأجرون الأطيان قسمة زراعية، ووضع كل منهم يده على قدره المعين بمقتضى عقده، فهل تكون العقود صحيحة، وقد دفع الذمى للناظر جزءا من الأجرة مقدما، ومات الناظر وحل محله ناظر آخر آجر الأعيان لمستأجرين آخرين، ولم يدفع للذمى ما عجله من الأجرة؟ فهل يصح له هذا التأخير؟ وهل للذمى حق الرجوع على الناظر الجديد بالأجرة المعجلة التى قبضها منه وصرفها فى شئون الوقف؟ وهل إذا آجر الناظر على الشيوع أعيانا من الوقف، وكان القسمة الزراعية بين المستأجرين ممكنة تكون الإجارة صحيحة؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المصرح به فى كتب المذهب أن إجارة المشاع فيما يقسم وفيما لا يقسم فاسدة، كما عليه الفتوى، وأنه لا يجوز، لغير حاجة، إجارة أرض الوقف إجارة طويلة، ولو بعقود متوالية. وعلى ذلك، فتأجير الناظر الأول على الشيوع بعقود مختلفة ـ على ما فى السؤال ـ فاسد شرعا. ولهذا الذمى أن يرجع بما دفعه معجلاً من الأجرة فى تركة الناظر الأول، وترجع ورثته على مال الوقف بمطالبة الناظر الثانى، متى تحقق أن مورثهم قبض ذلك وصرفه فى شئون الوقف. وحيث إن الإجارة تفسد بالشيوع، فليس للناظر الجديد أن يؤجر شائعا من الوقف وإن كانت القسمة الزراعية ممكنة. والله أعلم(٤٢٨).

٥٦ـ (السؤال)

سؤال مقدم من سعادة حسين باشا واصف، محافظة عموم القنال، والست أسماء حليم، محرر على ورقة فتوى شرعية تمغة صورته:

مرسل لفضيلتكم الأوراق المتعلقة بالقرار الصادر فى شأن وقفية المرحوم إبراهيم باشا حليم بتاريخ ١٤ ذى الحجة سنة ١٣١٤ من حضرة الفاضل الشيخ حسونة النواوى، شيخ الجامع الأزهر سابقا، لإطلاع فضيلتكم عليه والنظر فيما إذا كان هذا القرار صريحا فى أن السبب فى بطلان حجة الوقف المذكور هو عدم صحة الأحكام المشتملة عليها تلك الحجة بالنسبة لفساد الدعوى والشهادات من جهة الشكل فقط؟ أو أن السبب هو بطلان الوقف فى حد ذاته وتزوير الدعوى والشهادات؟ وعما إذا كان يمكن إعادة الدعوى لإثبات الوقف المذكور أمام المحاكم الشرعية بصورة أخرى صحيحة الشكل؟ أو أن ذلك كان ممتنعا بمقتضى هذا القرار؟

نؤمل التكرم بإفادتنا عن ذلك. أفندم.

(وصورة القرار المذكور):

بالاطلاع على مكاتبة نظارة الحقانية نمرة ١٨ وعلى صورة الحجة الشرعية المرفقة بها، الصادرة من محكمة بور سعيد بتاريخ ٤ شوال سنة ١٣١٤ نمرة ٣٠ المشمولة بختم المحكمة المذكورة، وعلى باقى الأوراق المرفقة بهذه المكاتبة الواردة لهذا الطرف، ظهر أن الأحكام التى تضمنتها تلك الصورة غير صحيحة شرعا لوجوه، منها.

أولا: أن فى كثير من الحدود المذكورة بل من الدعوى والشهادة نقصا وخللا.

ثانيا: أن توكيل المدعى عليه عن كريمة المتوفى المدعى عليها لم يتصل به علم القاضى الذى صدر منه الحكم، ولم يثبت لديه بالطريق الشرعى.

ثالثا: أن شهود وضع يد المدعى عليها على الأطيان والعقار لم يشهدوا عن معاينة لذلك، ولم يحكم به القاضى أيضاً.

رابعاً: أن القاضى حكم بصدور الوقف فى حال حياته على كريمته وزوجتيه وعتقاه والجهات التى عينها، مع أن المذكور بالدعوى والشهادة أن الواقف أنشأ وقفه حال حياته على نفسه أولاً ثم من بعده على من ذكر، وهو خلاف المحكوم به المذكور.

خامسا: أن وكيل المدعى عليها أنكر صدور الوقف على الوجه الذى ادعاه المدعى وجحده جحدا كليا، فبطل الحكم لها فيما تستحقه، ومتى بطل فى البعض بطل فى الباقى.

سادسا: أنه حكم بالوقف قبل الحكم بالنظر، مع أن اللازم شرعا هو العكس.

سابعا: أنه حكم بالزوجية، مع كون المدعى عليه ليس خصما فى إثباتها، لأن دعوى الزوجية بعد الوفاة من قبيل دعوى الوراثة، فيلزم أن تكون فى وجه خصم شرعى فى إثبات ذلك، والخصم فى إثبات دعوى الوقف على الوجه المسطور بالصورة المرقومة لا يصلح خصما لإثبات الإرث فى وجهه، لأن دعوى الوقف على وجه ما ذكر لا يتوقف إثباتها على إثبات الزوجية، فضلاً عن كون المتوفى غير متوطن بدائرة تلك المحكمة كما هو ظاهر من الدعوى والشهادة، فالحكم من قاضيها بذلك غير نافذ شرعا. والله أعلم.

(الجواب)

قد اطلعت على هذا السؤال، وعلى ما معه من صورة القرار، فظهر لى فيه أن غاية ما يفيده أن الأشكال التى وردت عليها الدعوى والشهادة هى التى أوجبت بطلان الحكم بالوقف للأسباب المبينة بذلك القرار، وأنه كان يمكن إعادة الدعوى ثانيا بالوقف وسماعها متى كانت مستوفاة للشرائط المعتبرة شرعا، لأن القرار المذكور لا يمنع مع ذلك، وليس فيه شىء يدل على تزوير الدعوى أو الشهادات. والله أعلم(٤٢٩).

٥٧ ـ (السؤال)

سأل إسماعيل أحمد أباظة، من الشرقية، فى: واقف وقف وقفه على نفسه مدة حياته، ثم من بعد يكون ذلك وقفا على نجله مدة حياته إلى حين انتقاله يكون ذلك وقفا على ذريته ونسله وعقبه، ذكورا وإناثا، على الوجه الذى عينه. وشرط

الواقف المذكور أن النظر على ذلك والتولي عليه لنفسه مدة حياته ثم من بعده لنجله المومى إليه مدة حياته ثم من بعده للأرشد فالأرشد من ذريته ونسله وعقبه، طبقة بعد طبقة، ثم لرجل أمين صالح يقرره الحاكم الشرعي بمديرية الشرقية. وشرط الواقف المذكور أيضا أن له ولنجله المومى إليه والأرشد من ذريته ممن يكون ناظراً في الوقف بعد أصله، الادخال والإخراج والإعطاء والحرمان والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل والإبدال والاستبدال متى شاء، يفعل ذلك كلما بدا له فعله، المرة بعد المرة، وغير ذلك مما شرطه الواقف المذكور.

فهل إذا آل النظر للأرشد فالأرشد من تلك الذرية، وأراد من يئول إليه النظر حرمان جميع المستحقين سواه من الوقف وإدخال نفسه بدلهم وحصر جميع الوقف فيه بما له من شرطي الإدخال والإخراج وغيرهما من الشروط المذكورة، لا يكون له ذلك شرعا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

ظاهر قول الواقف أن له ولنجله والأرشد فالأرشد من ذريته، ممن يكون ناظرا، الإدخال والإخراج.. الخ.. يفيد أن لكل منهم أن يفعل ذلك متى شاء بهواه ولو بدون رعاية مصلحة. وهذا الظاهر لا تمكن إرادته بالنسبة لإخراج غيره وإدخال نفسه بدله، لأنه لا يصح إرادة ذلك للواقف، لأنه أراد بوقفه إصلاح شأن ذريته لا إفساده. وعلى ذلك، لا يسوغ لمن يكون ناظرا أن يحرم غيره ويعطي نفسه، لأن الإعطاء يستلزم معطى له، والإنسان لا يعطي نفسه، لما في (الإسعاف) من أنه لو قال: أرضي هذه صدقة موقوفة، على أن للقيم أن يعطي غلتها لمن شاء من الناس، جاز له أن يصرفها إلى الفقراء والأغنياء ولو من ولده أو ولد الواقف. ولو قال: جعلتها للأغنياء يبطل الوقف. ولو جعلها لنفسه لا يجوز، والوقف ومشيئته بحالهما، لأن الإعطاء يستلزم معطى له، والإنسان لا يعطي نفسه. والله سبحانه وتعالى أعلم(٤٣٠).

٥٨ ـ (السؤال)

سأل ناظر وقف سليم باشا أتوزبير، بإفادة مؤرخة فى ١٧ شوال سنة ١٣١٨ نمرة ١٩ مضمونها: أن الواقف المذكور شرط بأن يبدأ من ريع الوقف بعمارته، وبأطيان الوقف عزب بها محلات للسكن تخربت ويخشى من هدمها لو تركت ولم يعلم إن كان هذا الشرط يسرى عليها فى العمارة أم لا؟ ورغب الإفادة عن ذلك حيث إنها لم تذكر بحجة الإيقاف.

(الجواب)

المصرح به فى كتب المذهب أنه لو قال: أرضى هذه صدقة لله عز وجل أبدا، ولم يزد، تصير وقفا، ويدخل فيه ما فيها من البناء. وعلى ذلك تكون العزب المذكورة داخلة فى الوقف، تسرى عليها شروطه. وعلى الناظر عمارة محلات السكن المتخربة فيها من ريع الوقف المذكور، حيث تحقق احتياجها للعمارة(٤٣١).

٥٩ ـ (السؤال)

سأل حضرة الشيخ عبد الله حسين القاضى، الشهير بالعريان، من علماء دمنهور البحيرة، فى: رجل يملك أماكن ذكرها فى كتاب وقفه لها وحددها، وقال فيه: وقفت جميع هذه الأماكن على نفسى مدة حياتى، ثم تكون الدار الفلانية وقفا على ولدى سليمان من غير شريك له فيها، ثم من بعده تكون وقفا على ذريته، الظهور دون أولاد البطون، بالفريضة الشرعية، للذكر مثل حظ الأنثيين، وبقية أماكنى المذكورة تكون وقفًا على ولدى سليمان المذكور وأختيه بنتى: الحرمة عديلة والحرمة بهانة، للذكر مثل حظ الانثيين، فإذا مات سليمان المذكور من غير عقب كانت الدار الموقوفة عليه المذكورة مع ما يخصه فى بقية الأماكن المذكورة لأختيه المذكورتين، فإذا ماتت الأختان المذكورتان مع وجود أخيهما المذكور يرجع نصيبهما له. ولا شىء لعقبهما مع وجود الأخ وذريته. فإن لم يكن له ذرية، كان الوقف على أولاد البطون من ذرية الأختين المذكورتين، على النص والترتيب المشروطين أعلاه.

ثم مات الواقف عن أولاده الثلاثة، ثم توفى ولده سليمان من غير عقب، فآل الوقف كله لأختيه. ثم توفيت عديلة عن ولدها إبراهيم، ثم توفى إبراهيم عن ثلاثة أولاد: محمد وخليل وعديلة. ثم توفيت بهانة عن ولدين: حفيظة وسلومة، وعن أولاد ابن لها. ثم توفيت سلومة من غير عقب. ثم توفيت حفيظة عن خمسة أولاد إناث. فما الحكم الشرعى فيمن ذكروا؟.

(الجواب)

قول الواقف: فإن لم يكن له ذرية، كان الوقف على أولاد البطون من ذرية الأختين، على النص والترتيب المشروحين، يفيد: أن غرضه أنه بعد موت الأختين وموت أخيهما، ولا ذرية له، يكون الوقف على من يوجد من أولاد البطون من ذرية الأختين، وإن اختلفت طبقاتهم بالفريضة الشرعية عملاً بقوله: على النص والترتيب المشروحين، وهما اللذان ذكرهما أولا بقوله: ثم تكون الدار وقفاً على ولدى سليمان، ثم من بعده تكون وقفا على ذريته بالفريضة الشرعية. وحيث ماتت الأختان، ومات أخوهما سليمان، ولا ذرية له، فيكون الوقف حينئذ لمن كان موجودا بعدهم من أولاد البطون من ذرية الأختين على اختلاف طبقاتهم.

والذى يظهر من السؤال، أن الموجود من أولاد البطون المذكور هم: محمد وخليل وعديلة أولاد إبراهيم بن عديلة، واحدة الأختين، وأولاد حفيظة بنت بهانة، ثانية الأختين، وأولاد ابن حفيظة المذكورة، فيشتركون جميعًا فى ريع الوقف بالفريضة الشرعية بينهم، حيث كانوا موجودين عند موت الإخوة. ومن كان موجودا من أولاد البطون من هؤلاء الذين قلنا باشتراكهم ومات، يعتبر كأن لم يكن، ويعود نصيبه لأصل الغلة لسكوت الواقف عنه، فتكون الغلة بتمامها لمن ذكر. والله أعلم(٤٣٢).

٦٠ - (السؤال)

سألت الحرمة: فطومة بنت عوض أحمد الشقرى، بمصر، فى: امرأة تملك عشرين قيراطا وجزأين من أحد عشر جزءا من قيراط فى منزل، وقفتهم على نفسها

أيام حياتها، ثم من بعدها على الوجه الذى عينته، وشرطت النظر على ذلك لها مدة حياتها، ثم من بعدها يكون النظر على العشرة قراريط لابن ابنها الذى سمته، وجعلت ريعها له، ثم من بعده للأرشد فالأرشد من أولاده وذريته ونسله وعقبه من كل طبقة مستحقة لذلك. وعند أيلولة ذلك لمسجد الحسين فلناظره وقتئذ، ويكون النظر على العشرة قراريط والجزأين لمعتقتها التى سمتها، وجعلت لها ستة قراريط من ذلك، ثم للأرشد فالأرشد من أولادها وذريتهم وعقبهم إلى انقراضهم. وعند أيلولة الستة قراريط لضريح السيدة زينب فلناظرها وقتئذ، وسكتت عن النظر على الأربعة قراريط والجزأين.

وقد ماتت الواقفة، وماتت المعتقة ولم تعقب، وآلت الستة قراريط لضريح السيدة زينب. ولهذه الواقفة بنت ابن أبيها، فهل يكون لها النظر على الأربعة قراريط والجزأين؟ حيث كانت من أقارب الواقفة، وإن لم يكن ذلك موقوفا عليها، ولا يولى النظر أحد من الأجانب ما دام أحد من أقارب الواقف صالحا للنظر؟ خصوصا وأن هذه الحصة وقفتها الواقفة على ثمن خوص وريحان وخبز قرصة يوضع ذلك ويفرق على تربة الواقفة، وتلك البنت هى الجارية صرف ريع ذلك على التربة المذكورة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث سكتت الواقفة عمن يكون ناظرا على الأربعة القراريط والجزأين فللقاضى توليه الناظر عليها، ومتى كانت بنت ابن الأب المذكورة صالحة للنظر على ذلك فعليه توليتها، وإن كانت تلك الحصة غير موقوفة عليها، لما فى (الإسعاف) من أنه لا يجعله من الأجانب ما دام يجد من أهل بيت الواقف من يصلح لذلك. والله أعلم(٤٣٣).

٦١ـ (السؤال)

سأل الشيخ سيد عبد اللطيف، فى: واقف شرط فى وقفه النظر لاثنين. وقد وكل أحدهما الثانى فيما يتعلق به من شئون الوقف. وبما لهذا الثانى من ذلك النظر

وتلك الوكالة آجر أرضا من أعيان الوقف لآخر مدة معلومة بعقد شرعي شرط فيه عليه أن يزرع كل سنة من مدة الإيجار نصف تلك الأرض المؤجرة قطنا، ولم يبين في هذا العقد أن النصف الذى يزرعه في هذه السنة قطنا لا يزرعه كذلك في السنة المقبلة، بل أطلق ولم يقيد. ثم طلب المستأجر من ذلك الناظر الوكيل المؤجر بأن يأذن له بزرع جميع تلك الأرض أول سنة من سنى الإيجار قطنا، بعلة أنها بكر لم تزرع قطنا في العام السابق على تأجيرها، بشرط أنه لا ضرر فى ذلك عليها، وأنه لا يحصل منه زرعها قطنا فى السنة الثانية. وبعد هذا الطلب، تم الأمر على أن أذن الناظر المؤجر المذكور ذلك المستأجر بأن يزرع العشر فى جميع تلك الأرض قطنا زائدا على النصف المشروط زرعه أولا قطنا، بشرط أن هذا العشر الزائد يخصم زرعه من النصف الذى يستحق زرعه قطنا في السنة الثانية، وبشرط أن كل قطعة تزرع قطنا فى سنة من مدة الإيجار لا تزرع قطنا فى السنة التى بعدها. وقبل ذلك منه المستأجر المذكور، فهل ما أجراه الناظر المؤجر من الإذن بما ذكر على هذين الشرطين اللذين قيد بأحدهما الإطلاق السابق فى عقد الإيجار تقييدا مفيدا نظرا لما رآه وتحققه من المصلحة وعدم الضرر فى ذلك يكون معمولا به، ولا مؤاخذة به عليه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، يعمل بهذا الإذن على الوجه المذكور، ولا مؤاخذة به على الناظر الوكيل المؤجر، حيث تحقق أنه لا ضرر يعود به على الأرض، وأن المصلحة فيه، خصوصا وقد دل أحد شرطيه على تقييد ما أطلقه أولا، وهو تقييد مفيد. والله أعلم(٤٣٤).

٦٢ـ (السؤال)

سأل عبد الوهاب أفندى وهبي، وكيل ناظرة وقف المرحوم خليل آغا، في: واقف وقف وقفا من ضمنه مكان نص عليه فى كتاب وقفه بقوله: فأما المكان المذكور يكون وقفا على معتوقاته التسع، وسماهن، ومن سيحدثه الله له من العتقاء

الإناث، ينتفع بالسكنى فى المكان المذكور كل من معتوقاته التسع المذكورات ومن سيحدثه الله تعالى من العتقاء الإناث، على الدوام، مدة حياة كل منهن، ما دمن عزبات. وكل من تزوجت منهن سقط حقها من السكنى فى المكان المذكور، فإن تأيمت عاد حقها فى السكنى، وهكذا كلما تزوجت وتأيمت يجرى الحال فى ذلك كذلك، وتستقل بالسكنى فى المكان المذكور الواحدة منهن إذا انفردت ويشترك فيه الاثنان فيما فوقهما عند الاجتماع (يتبادلن)[٤٣٥] ذلك بينهن كذلك إلى انقراضهن.. إلى آخر ما نص عليه.

وقد استقل بالسكنى في هذا المكان واحدة ممن حدث من العتقاء الإناث بسبب تأيمها، وسكن معها ولدها إبراهيم وزوجته وبنتها زينب وزوجها، وما زالوا مستمرين على السكنى معها فى هذا المكان، فهل لهم الحق فى السكنى معها حال كون الواقف لم يشترط السكنى إلا لمعتوقاته؟ وأن الواحدة منهن تستقل بالسكنى إذا انفردت وكانت غير متأيمة، ولم يشترط السكنى لأولاد واحدة منهن ولا لزوجات أبنائهن ولا لأزواج بناتهن؟ أم ليس لهم الحق فى ذلك؟ وإذا لم يكن لهم ذلك الحق يلزم الناظر على هذا الوقف منعهم عن السكنى فى ذلك المكان لعدم شرط الواقف السكنى لهم فيه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من المقرر شرعا أن شرط الواقف كنص الشارع، فى أنه يتبع ويجب العمل به. فشرط الواقف السكنى فى ذلك المكان لكل من هؤلاء المعتقات التسع ومن يحدث له من العتائق الإناث على الدوام ما دمن عزبات، وأنه إذا تزوجت واحدة منهن سقط حقها فى السكنى، وإن تأيمت عاد لها حقها فى السكنى، وإن الواحدة منهن تستقل بالسكنى فى المكان المذكور إذا انفردت. لا ريب يجب العمل بهذا الشرط فيمن سماهن الواقف ما دمن موصوفات بالتأيم وفيمن يحدث له من العتائق الإناث ما دمن على هذا الوجه، ولا يتناول غيرهن بالنسبة للحصر والتعيين والتقييد فى كلامه.

وحيث انفردت هذه المعتقة الحادثة و استقلت بالسكنى فى ذلك المكان لتأيمها

بناء على ذلك الشرط، فيقتصر هذا الاستقلال عليها ولا يشمل غيرها، إذ شموله لغيرها خروج عن غرض الواقف الذى دل عليه ذلك الشرط دلالة ظاهرة. وقد قلنا: إنه كنص الشارع فى وجوب العمل به، واتباعه ليس إلا فى قصر السكنى على تلك المعتقة المستقلة، فليس لغيرها، من ابنها وزوجته وبنتها وزوجها، حق السكنى في ذلك المكان وإلا لزم العدول عن غرض الواقف. وقد قلنا: إن مراعاة غرضه واجبة، فعلى الناظر منع هذا الابن مع زوجته وتلك البنت مع زوجها من السكنى فى ذلك المكان، عملا بشرط الواقف.

أما قولهم: «إذا كان الموقوف عليهم ذكوراً وإناثا، فإن كانت الدار ذات حجر ومقاصير، وكان لكل واحد منهم حجرة يسكنها يغلق عليه بابها، فلكل واحد من الذكور أن يسكن أهله وحشمه وجميع من معه، ولكل ابنة منهم أن تسكن زوجها معها فى الحجرة التى هى فيها. وإن لم يكن لها حجر، وكانت دارا واحدة لم يستقم أن تقسم بينهم ولا تقع فيها مهايأة، فسكناها لمن جعل الواقف له ذلك دون غيرهم". فمحله فى الموقوف عليهم أنفسهم إذا أرادوا أن يسكنوا معهم من هو تابع لهم لا يمكن انفصاله عنهم بحكم ضرورة المعيشة، كما نراه فى صريح عبارتهم، وفيما إذا أطلق الواقف ولم يقيد ذلك بشرط.

والابن والبنت المذكوران لم يكونا ممن أباح الواقف لهم السكنى، وإنما الموقوف عليها ههنا هى تلك المعتقة، وقد نص الواقف على أنه لا يجوز لها أن تسكن زوجها معها، بل متى تزوجت سقط حقها فى السكنى، فيجب أن يكون الأمر على ما شرط. فإذا رجع لها الحق التأيم لم يجز لها أن تسكن معها إلا ما هو من قبيل الحشم وما لابد منه كبناتها وأبنائها القاصرين الذين فى حضانتها، ومتى تجاوزوا سن الحضانة سقط حقهم فى السكنى ووجب أن يخرجوا من دار أمهم إلى دار من استحق حضانتهم. فإن كانوا من الفقر بحيث لا يجدون ما يسكنون فيه، جاز أن يسكنوا معها على طريق التبع إلى أن يتزوج الإناث ويبلغ الذكور راشدين. فإذا تزوج الإناث لا يسوغ سكناهن، وإذا تأيمن لا يسكن كذلك، لأنهن بمجرد تزويجهن خرجن عن أن يكن تابعات لوالدتهن التى لها الحق فى السكنى. وكذلك الأولاد الذكور إذا بلغوا راشدين لا يكون لوالدتهم حق فى إسكانهم معها، سواء تزوجوا أو لم يتزوجوا، عملا بصريح ذلك الشرط.

وأما تصريحهم بجواز الإعارة دون الإجارة، فقد عللوه بأن الإعارة لا توجب حقا للمستقر، بل المستقر بمنزلة ضيف إضافة، بخلاف الإجارة. وعلى هذا، فلا يكون لهذه المعتقة المستحقة للسكنى أن تسكن أولادها معها على سبيل الدوام وتطالب به كأنه حق منحته من قبل الواقف، لأن ذلك مما يخالف حكم الإعارة. والله أعلم(٤٣٦).

٦٣ـ (السؤال)

سأل عثمان بيك خالد، فى: إنسان وقف وقفا على الجامع الأزهر وتكية المرحوم عباس باشا الأول، وجعل النظر على الوقف لمن يكون شيخا على الجامع ولمن يكون شيخا على التكية. ووزع الواقف الريع، فجعل للجامع الأزهر ١٤(ط) وللتكية ١٠(ط) شائعا(٤٣٧). واتفق أن معتديًا اعتدى على أرض الوقف وغصب منها مقدارا معلوما، فرفعت الدعوى من شيخ التكية، وهو أحد الناظرين على هذا المغتصب يطالبه برد ما اغتصب وريعه للوقف كله. فهل تصح هذه الدعوى من ذلك الناظر منفردا، أو لابد من رفعها من الناظرين معا؟ خصوصا إذا لا حظنا أن تصرف هذا الناظر الذى رفع الدعوى يعود بمحض الفائدة على الوقف كله؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن الناظرين كالوصيين، لا ينفرد أحدهما بالتصرف بدون إذن الآخر أو إجازته إلا فيما استثنى، ومن جملته الخصومة، فينفرد بها أحدهما. وعلى ذلك، تصح دعوى الخصومة المذكورة من أحد الناظرين المذكورين بانفراده متى كانت الخصومة فى منفعة الوقف، وكانت الأدلة التى يقيمها الناظر المخاصم مما يفيد غلبة الظن بأن القضاء يكون فى مصلحة الوقف. والله أعلم(٤٣٨).

٦٤ـ (السؤال)

سأل عبد الوهاب أفندى وهبى، وكيل ناظرة وقف المرحوم خليل آغا، بإفادة

مؤرخة فى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٩ مضمونها: أن هذا الواقف شرط أن يصرف فى أجرة خمسة عشر نفرا من حملة كتاب الله يقرءون فى كل شهر ثلاث ختمات، كل خمسة منهم يقرءون ختمة، وعين مكانها وزمانها، وأن يصرف ما تدعو الضرورة لصرفه عليهم من ثمن مأكل ومشرب وبن قهوة وغير ذلك، برأيه حسبما يؤدى إليه اجتهاده، وأن يصرف على أجرة خمسة أنفار من حملة كتاب الله وفى سائر لوازمهم من مأكل ومشرب وبن قهوة وغير ذلك، برأيه حسبما يؤدى إليه اجتهاده، يقرءون فى كل سنة ثلاثا وعشرين ختمة، وعين زمانها ولم يعين مكانها. ورغب السائل الإفادة عما إذا كان يسوغ لناظر الوقف حصول قراءة الثلاث والعشرين ختمة المذكورة بواسطة الخمسة الأنفار المذكورين فى منزله، حيث لم يعين الواقف مكان قراءتها؟

(الجواب)

على الناظر العمل بما شرطه الواقف من قراءة خمسة أشخاص ثلاثاً وعشرين ختمة على الوجه الذى عينه الواقف، فى أى مكان، سواء كان فى منزله أو غيره، إذ غرض الواقف إنما هو قراءة هذه الختمات. وحيث لم يعين مكان القراءة، فعلى الناظر إقراؤها بمنزله أو بغيره، فإن فى قراءتها مطلقا موافاة غرض الواقف، وهو المطلوب. والله أعلم(٤٣٩).

٦٥ ـ (السؤال)

سأل الشيخ محمد الصادق السنوسى، فى: واقف وقف أطيانا بأرض مصر على أن يصرف ريعها لتسعة وثلاثين رجلاً من فقراء المدينة المنورة المقيمين بها، المشتغلين بطلب العلم الشرعى، على الوجه الذى عينه. وشرط النظر على ذلك لنفسه، ثم من بعده للشيخ محمد الصادق، أحد المهاجرين إلى المدينة المنورة، ثم من بعده لرجل من أهل الفقه من مستحقى الوقف المذكور ينتخب منهم، بالصفة التى ذكرها الواقف. ثم مات الواقف، وآل النظر للشيخ محمد الصادق، فنظر فى

شئون الوقف ومصالحه، وعين بالمدينة، حال وجوده بها تسعة وثلاثين رجلا، وهم المذكورون، وصرف لهم.

ونظرا لكون الأطيان الموقوفة المذكورة بأرض مصر، والنظر في مصالحها واستغلال ريعها يقتضي الإقامة بمصر، وكونها محل توطن الناظر، عاد إليها ذلك الناظر لتعاطيه النظر في شئون الوقف. وفى أثناء غيابه بها، صدر إعلام شرعى بعزله من محكمة المدينة المنورة، هذا نصه:

«هذه حجة شرعية، ووثيقة تحررت مرعية، صدرت بمجلس الشريعة المطهرة، بمحكمة المدينة المنورة، بين يدى سيدنا البحر الهمام، محرر القضايا والأحكام، مولانا الحاكم الشرعى الحنفى، عامله الله تعالى بلطفه الخفى، الواضع اسمه وختمه الكريمين أعلاه، دام فضله ومجده وعلاه، مضمونها:

هو أنه لما طال النزاع بين أهل العلم وطلبة العلوم، وبين الشيخ محمد الصادق ابن الحاج أحمد السنوسى المغربى، الناظر المقام من قبل المرحوم الشيخ أحمد البابى الحلبى، المقيم بمحروسة مصر القاهرة على تعيين تسعة وثلاثين نفرا من المشتغلين بطلب العلوم الشرعية بالمسجد الشريف النبوى من الآفاقيين(٤٤٠)، وجلب حاصلات وغلات الموقوف على ذلك بديار مصر المحروسة وتوزيعه على الأشخاص المستحقين فى كل شهر. وفى أثناء المنازعة المذكورة، فر الناظر محمد الصادق المذكور، ولم يعين وكيلا من قبله فى إجراء الخيرات المذكورة، وتعطل إجراء معاش المستحقين لعدم وجود الناظر المذكور وعدم وجود وكيل من قبله. فرافع بعض أهل العلم من الموظفين مع والد الناظر، وهو الحاج أحمد السنوسى، على أنه وكيل من قبل ابنه الشيخ محمد الصادق، المذكور، فى صرف المعاش المذكور، فأجابه بأنه ليس بوكيل. فبقى أمر الخيرات المذكورة معطلاً، فرفعت الحادثة إلى مقام إفتاء المدينة المنورة، فصدر الجواب من مقام الإفتاء المشار إليه بما صورته.

أسأل الله المولى الكريم ذا الطول، التوفيق والإعانة فى الفعل والقول، حيث تبين لدى مولانا الحاكم الشرعى، وفقه الله تعالى، أن وظيفة الوقف شاغرة، فعليه أن يقيم ناظرا يصحبه دفتر أسماء المستحقين ويوقفه على مضمون شرط الواقف،

لينظر في أمور الوقف وحسابه، وقدر المقبوض، ويتطلب واردات الوقف ويجمعها ويعطى من كان مستحقا طبق شرط الواقف. إذ الحاكم الشرعى ولى من لا ولاية له، ويملك ولاية الوقوف بوجهه الشرعى، ففى (تنقيح الحامدية): سئل فى ناظر وقف غاب وترك الوقف بلا وكيل يباشر عنه، وتعطلت مصالح الوقف، لعدم ناظر يباشره، فهل للقاضى إقامة قيم على الوقف بغيبة ناظره إلى أن يقدم؟ ويسوغ للقيم التصرف السابق للمقام هو مقامه؟.. أجاب: نعم. والمسألة من (الخيرات من الوقف) عن (الإسعاف) أ ـ هـ.

والحالة هذه، والله سبحانه وتعالى ولى الهداية، وبه العصمة والحماية[٤٤١]... الفقير إلى عفو ربه القدير: عثمان بن عبد السلام الداغستانى، مفتى المدينة المنورة، الحنفى، عفى عنه.

فبناء على ذلك، قدم جماعة من الأشخاص المعينين استدعاء لمقام الشرع الشريف الأنور يطلبون عزل الناظر المذكور بالكلية، وإقامة جناب المحترم الفاضل المدرس بالحرم الشريف النبوى السيد الشيخ مصطفى صقر، ابن المرحوم السيد محمد صقر، ناظراً على الخيرات المذكورة، لما فيه من الكفاءة واللياقة والديانة والأهلية لذلك. فبعد تحقيق فرار الناظر المذكور لدى مولانا الحاكم الشرعى، والاطلاع على الفتوى الشرعية المذكورة، لم يجد بدا من إقامة ناظر على الوقف المذكور بموجب الفتوى الشرعية المذكورة. فاستخبر ممن له مناسبة بالشيخ مصطفى صقر، المذكور، وهم جناب المحترمين الأفاضل من المستحقين وغيرهم، وهم حضرة الشيخ خليل أفندى الخربوطى، المدرس بالحرم الشريف النبوى ابن إبراهيم، وجناب الفاضل المدرس بالحرم الشريف النبوى محمد بن محمد كمال الدين الأخميمى، وجناب الفاضل المدرس بالحرم الشريف النبوى الشيخ محمد أحمد بابا الشنقيطى، وجناب المدرس بالحرم الشريف النبوى الشيخ محمد بن أحمد العمرى، وجناب المحترم السيد محمد أفندى هاشم بن حسين أفندى هاشم، والشيخ محمد سعيد النجارى، ابن عبد السيد، فأخبروا بكفاءة ولياقة وأهلية جناب الشيخ مصطفى صقر، المومأ إليه، وأنه من جملة المستحقين. فعزل مولانا الحاكم الشرعى، المشار إليه، الناظر محمد الصادق، المذكور، عن النظارة على

وقف وخيرات المرحوم أحمد البابى المذكور، عزلاً عن النظارة بالكلية، لظهور خيانته. وأقام ونصب مولانا الحاكم الشرعى جناب المحترم الفاضل السيد الشيخ مصطفى صقر، المذكور، ناظرا ومتوليا على وقف وخيرات المرحوم الشيخ أحمد البابى الحلبى، المذكور، لتحقق أهليته، وأمره بالقيام على ذلك بالديانة والأمانة، وتولى الله تعالى، وإجراء العمل بمقتضى شرط الواقف أحمد البابى، المذكور، عزلا وتولية كلاهما صحيح شرعى، صدر عن أهله، ووقع فى محله، موافقا للشرع الشريف. وقبل النظارة المذكورة، والتزم القيام على الوقف والخيرات المذكورة جناب السيد الشيخ مصطفى صقر، المومأ إليه، وما وقع صار بالطلب كتبه وتسجيله.

تحريراً فى غاية شهر ذى الحجة الحرام سنة ١٣١٨.

فهل، مع كون مصر القاهرة محل توطن الناظر، وكون الأطيان الموقوفة بالقطر المصرى، وكون ذلك الناظر لم تثبت عليه خيانة بحكم قضائى غير هذا الإعلام، ولم يحصل منه تقصير فى العمل بما شرطه الواقف، وكونه ناظرا بالشرط من قبل الواقف، وكون غيابه عن المدينة إنما هو للنظر فى مصالح الوقف، وكون المدينة ليست محل توطنه، يسوغ لقاضى المدينة عزله عن النظر المشروط له من قبل الواقف، بناء على ما ذكر بهذا الإعلام؟ أو لا يسوغ؟ وإذا كان لا يسوغ، فلا يعتبر عزله إياه، خصوصا وأنه ليس فى دائرة ولايته، ويكون باقيا فى النظر ويتصرف فى الوقف على حسب شروط واقفه، ولا تعتبر إقامة الناظر الثانى المذكور؟ ويكون ذلك الإعلام غير معمول به شرعا، بحيث لا يكون حجة للناظر الثانى؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث كان الناظر بالشرط متوطنا بمصر القاهرة، وكانت الأطيان الموقوفة بالقطر المصرى، فلا يسوغ لقاضى المدينة عزل ذلك الناظر من النظر عن هذا الوقف، لأن هذا الناظر، بالنظر لمحل توطنه عند تعيينه ناظرا من قبل الواقف وبعده، خارج عن

دائرة ولاية قاضي المدينة، فليس له عزله لخروجه عن دائرة ولايته. وعلى تسليم أنه في تلك الدائرة، فلا يجوز له عزله بلا خيانة، فقد صرح في (الملتقى) و (الأشباه) وغيرهما من كتب المذهب بأنه لا يجوز للقاضي عزل الناظر المشروط له النظر بلا خيانة، فلو عزله القاضي وولى غيره لا يصير ذلك الغير ناظرا. أ. هـ.

فعزل قاضي المدينة لذلك الناظر بناء على غيابه عن المدينة، واعتباره ذلك خيانة غير صحيح مطلقا، سواء كان هذا الناظر في دائرة ولايته أم لا. فإنه لو كان في دائرة ولايته وغاب عنها إلى محل الأطيان الموقوفة للنظر في مصالحها واستغلال ريعها وصرفه للمستحقين، لا يعد ذلك خيانة ينبني عليها عزله من النظر، فهو باق في النظر الذي شرطه الواقف على حسب شرطه، ولا يعتبر عزله من النظر بناء على ما ذكر بهذا الإعلام. كما أنه لا يعتبر نظر الناظر الثاني الذي نصبه قاضي المدينة ناظرا لعدم صحة نصبه، فلا حق له في النظر، ولا يكون هذا الإعلام حجة له في ذلك، بل الحق فيه للناظر الأول الذي اتصل به اختيار الواقف، ولم يثبت ما يوجب عزله، والله سبحانه وتعالى أعلم[٤٤٢].

٦٦ ـ (السؤال)

سئل [٤٤٣] بإفادة من حضرة الشيخ إبراهيم الظواهري، شيخ الجامع الأحمدي، مؤرخة في ٢٣ يناير سنة ١٩٠٢ نمرة ٢ مضمونها: إنه بعد تشريف الورقة طيه، المنقولة بالحرف الواحد من وقفية المرحوم شاكر بيك، بأنوار المطالعة تعلم مع العلم بأن الست فطومة، الموقوف عليها الستة القراريط، توفيت ولم تعقب أصلاً. يرجو التكرم بإفادته عن مصرف الستة القراريط الموقوفة عليها، هل تصرف للعلماء بعد موتها، لشدة فقرهم؟

(وصورة الورقة المذكورة):

«فالحصة التي قدرها ستة قراريط من أصل أربعة وعشرين قيراطًا، على الشيوع الشرعي في ذلك، تكون وقفًا مصروفًا ريعه إلى حرمه المصونة الست فطومة، بنت المرحوم الشيخ حسن سعودي، تنتفع بذلك وبما شاءت من سكنى وإسكان وغلة واستغلال بسائر الانتفاعات الشرعية الوقفية أبدا ما عاشت إلى حين وفاتها، يكون

ذلك وقفا مصروفا ريعه لمن يحدثه الله لها من الأولاد، ذكورا وإناثا، للذكر منهم مثل حظ الأنثيين، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ثم على أولاد أولادهم، ثم على أولاد أولاد أولادهم، ثم على ذريتهم ونسلهم وعقبهم، طبقة بعد طبقة ونسلاً بعد نسل، الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل فرعه دون فرع غيره. يستقل به الواحد منهم إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم قبل دخوله في هذا الوقف واستحقاقه لشيء منه وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه من ذلك لمن هو في درجته وذوى طبقته من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم، يتداولون ذلك بينهم كذلك إلى حين انقراضهم أجمعين.

والحصة التى قدرها اثنا عشر قيراطا من أصل أربعة وعشرين قيراطا على الشيوع الشرعى فى كامل المنزل المذكور يكون وقفا مصروفا ريعه على عتقائه، وهم: خورشيد الأبيض الجركسى ابن عبد الله، والأسطى عائشة السوداء بنت عبد الله، والأسطى زعفران السودان بنت عبد الله، على ما بين فيه، ما هو لخورشيد المذكور أربعة قراريط من ذلك، وما هو للأسطى صباح والأسطى عائشة، المذكورتين، ستة قراريط من ذلك، مناصفة بينهما، وما هو للأسطى زعفران المذكورة (٤٤٤) قيراطان اثنان باقى ذلك، ينتفعون بذلك إلى حين انقراضهم أجمعين. ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ذكورا وإناثا، إلى حين انقراضهم أجمعين. يكون ذلك وقفا مصروفا ريعه إلى العلماء المدرسين بالجامع الأحمدى وإلى العواجز والعميان بمسجد سيدى أحمد البدوى، ما هو إلى العلماء المدرسين ثلاثة أرباع ذلك وما هو إلى العواجز والعميان الربع باقى ذلك، فإن تعذر الصرف على طائفة من ذلك انتقل نصيبها للأخرى، وإن تعذر الصرف على الجميع يكون ذلك وقفا مصروفا ريعه للفقراء والمساكين المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا».

(الجواب)

بالاطلاع على ما هو مسطور بالورقة المرفقة بهذا الرقيم، ظهر أن قول الواقف بعد ذكر شرائط وقف الحصة التى قدرها اثنا عشر قيراطا: «إلى حين انقراضهم أجمعين يكون ذلك وقفا مصروفا ريعه إلى العلماء».. الخ.. لا يمكن أن يعلق فيه

الجار والمجرور ـ أعني: إلى حين انقراضهم ـ بيكون التى بعده، بل هو غاية ليكون وقفا مصروفا ريعه على عتقائه التى فى أول الشروط، لأن الانقراض غاية لاستحقاق العتقاء وذراريهم. فإذن لابد أن يكون قوله: «يكون ذلك وقفاً»، المذكور بعد الانقراض، كلاما مبتدأ مستأنفا أفاد: أنه بعد انقراض كل من السلسلتين في الحصتين، ينتقل ريع الوقف إلى العلماء ومن معهم على حسب شرطه. والإشارة فى لفظ «ذلك» تضم كلا من السلسلتين على حكمه، على معنى أن يكون ذلك بوقف الأول عند انقراض مستحقيه مصروفا ريعه إلى العلماء.. الخ.. وذلك الوقف الثاني عند انقراض مستحقيه مصروفا ريعه إلى العلماء.. الخ.. وضم أمرين على معنى التوزيع الذى هو معنى «أو» على الحقيقة فى إشارة واحدة معروفة فى اللغة، قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ (البقرة: آية ١١١) فالواو التى هى ضمير معرفة احتوت على فريقين معا، وإن كان المعنى على التعريف، أى قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى: لن يدخلها إلا من كانوا نصارى.

وكما يفهم ذلك المعنى على حسب المعروف فى اللغة، يفهم على حسب المألوف فى العرف أيضا، وعلى فرض وجود من ينازع فى ذلك يقال: إن الواقف حذف من الأول بدلالة الثاني، وهو معروف فى اللغة والعرف كذلك.

وعلى هذا يكون نصيب فطومة، إذا لم يكن لها أولاد، راجعا إلى العلماء ومن معهم مباشرة. والله أعلم(٤٤٥).

٦٧ ـ (السؤال)

سأل الشيخ حسين البشلاوى، من بشلة، بمركز ميت غمر، دقهلية، فى: أطيان موقوفة على جماعة قسموها بينهم مهايأة ليتصرف كل منهم فى نصيبه بالزرع وغيره بمن فيهم الناظر على تلك الأطيان، لكونه مستحقا فيها، وقد آجر هذا الناظر حصة فى الوقف مدة ثلاث سنين قبض أجرتها مقدما وثلاث سنين أخرى قبض أجرتها مقدما، وثلاث سنين أخرى قبض أجرتها مقدما، والمستأجر فى الكل واحد. وفى

أثناء ذلك مات الناظر المؤجر المذكور، وتولى بعده على الوقف ناظر آخر، واستمر المستأجر واضعا يده على الحصة المذكورة إلى أن انتهت مدة إجارته المذكورة. ونظرا لأيلولة حصة الناظر المؤجر الميت المذكور، بعد موته، لبنته، ورضائها بتلك القسمة، وإقرار الناظر الذى تولى بعد أبيها على هذه القسمة، وعلى أن يؤجر كل من المستحقين نصيبه فى الوقف، بمن فيهم البنت المذكورة، قد أجرت هذه البنت نصيبها للمستأجر الأول مدة ثلاث سنين بعقد واحد بأجرة المثل قبضتها معجلاً. واستمر المستأجر واضعاً يده على حصتها بحق الإجارة. وعند نهاية هذا العقد، أجرت نصيبها المذكور بعقد ثان مدة ثلاث سنين بأجرة المثل، قبضتها مقدما من المستأجر، ووضع يده على ذلك النصيب وتصرف فيه بحق الإجارة، بمشاهدة الناظر وعدم منازعته فى ذلك. وبعد مضى مدة من مدة العقد الثانى أجرت هذه البنت للمستأجر نصيبها المذكور مدة ثلاث سنين أخرى بعقد ثالث، بأجرة المثل، قبضتها منه معجلاً. ونحن الآن فى مدة العقد الثانى، وقد قامت الآن هذه المؤجرة تريد فسخ العقد الثانى والثالث المذكورين، وتطالب المستأجر بالأجرة عن المدد التى أجرها أبوها أولا، مع ثبوت قبضه لها معجلاً، حين كان ناظرا قبل موته، ومضى مدة من وقت موته إلى الآن. فهل والحالة هذه، يكون لها ذلك؟ أو ليس لها ذلك؟

(الجواب)

لا حق للبنت المؤجرة المذكورة فى المطالبة بالأجرة التى تعجلها أبوها، الذى كان ناظرا، عن مدد الإجارة الصادرة منه، لأن ذمة المستأجر برئت منها بتعجيلها. كما أنه لا حق لها ولا للناظر الذى تولى بعد أبيها فى فسخ العقد الثانى الذى صدر منها بتأجير نصيبها بأجرة المثل التى قبضتها معجلاً ومضى منه مدة تصرف فيها المستأجر بماله من حق الانتفاع بالإجارة بمشاهدة الناظر المذكور. أما العقد الثالث، فإن جددته بعد انتهاء العقد الثانى، وكان الناظر مقرا عليه، صح، وإلا فلا. والله أعلم(٤٤٦).

٦٨ـ (السؤال)

سأل محمد أفندى رشدى، رئيس قلم مدنى وتجارى محكمة الزقازيق الأهلية، فى: أماكن موقوفة كانت قائمة على أرض وقف، وتخربت بمرور الزمان، وصارت عديمة المنفعة، ولا غلة ولا ريع لوقفها لكى يمكن أن تعمر منه كلها أو بعضها. فناظرة الوقف، التى هى إحدى مستحقيه، أعطت إلى رجل بالإيجار إلى طول الزمان النصف فى أرض الأماكن المذكورة، وعينت عليه دفع الإيجار سنويا بقيمة معينة هى أجر المثل، واستلمت منه قيمة أجرة أربعين سنة مقدما، وباعت له النصف فيما وجد من الأنقاض على أرض الأماكن المذكورة، وأذنته بالبناء والتعلى، على أن كل ما بناه وجدده يكون ملكا مطلقا له، مع حق القرار له فى ذلك.

وبناء على ذلك، بنى هذا الرجل أماكن على الأرض المذكورة، وصارت ذات غلة وريع. ثم تولت ناظرة أخرى على الوقف قامت تعارض فى ذلك بأن شرط الواقف لا يقتضى التأجير أزيد من سنة، فهل ما ذكر يعد تحكيراً؟ ولناظرة الوقف ولاية هذا العمل بنفسها بدون إذن القاضى، حيث إن حكم التحكير غير التأجير؟ وما بناه هذا الرجل بمقتضى ذلك الإذن يكون ملكا له، مع حق القرار، يتصرف فيه بأنواع التصرفات مادام قائما بأجر المثل؟ ولا حق لهذه الناظرة الحالية فى تلك المعارضة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأنه إذا تعطل الانتفاع بالأرض الموقوفة جاز تحكيرها بأجر المثل، وإن الاحتكار عقد إجارة يقصد به استبقاء الأرض الموقوفة مقررة للبناء والتعلى أو للغرس أو لأحدهما، وإن البناء الذى يبنيه المحتكر بإذن القاضى أو الناظر فى الأرض المحتكرة يكون ملكا له، وبه يثبت له حق القرار، وعليه أجر المثل المقرر على الأرض.

والطريقة التى جرت عليها الناظرة، فى حادثة السؤال هى بعينها طريقة التحكير وإعطاء حق القرار لمدة طويلة، بدلالة الإذن منها بالبناء والتعلى على الطريقة

المعروفة في الأحكار. فما بناه هذا الرجل، بإذن الناظرة، صار حقه وملكه يتصرف فيه بالبيع ونحوه من التصرفات الجائزة، وبه ثبت له حق القرار، وعليه أجر المثل ما دام ذلك البناء، ولا حق للناظرة الحالية في المعارضة في ذلك بناء على شرط الواقف المذكور، لأن ما جرت عليه الناظرة الأولى هو بعينه طريقة التحكير، كما قلنا. والله أعلم(٤٤٧).

٦٩ ـ (السؤال)

سئل(٤٤٨) بإفادة من حضرة شيخ الجامع الأزهر، مؤرخة في ١٨ ذى القعدة سنة ١٣١٩، نمرة ١٩٦، فيما إذا كان لوقف ناظران، واستأجر أحدهما أطيان الوقف برضاء صاحبه، وإذن من سماحة قاضي محكمة مصر الكبرى الشرعية، وبعد تمام عقد الإجارة المذكورة اشترط المستأجر على نفسه أن يحافظ على الأطيان وحدودها ومساقيها ومراويها من تعدى الغير عليها، بحيث إذا تعدى أحد على شيء من ذلك يكون ملزوما بالمدافعة والمرافعة عنه أمام جهة الاختصاص، ولا يكون له حق في مطالبة الناظر المؤجر بشيء على الإطلاق في نظير ما ينشأ عن ذلك. وإنه إن لزم للوابور الذى بتلك الأطيان تصليحات في مدة الإجارة تكون مصاريفها من طرفه خاصة. فهل لو صرف شيئا في سبيل ما ذكر يكون له حق الرجوع به على الوقف، مع الشروط المذكورة، وعدم الإذن له بذلك الصرف من الناظر المؤجر؟ أم لا؟

(الجواب)

ليس لأحد الناظرين أن ينفرد بالتصرف دون الآخر، على قول أبى حنيفة ومحمد، وهو الذى عليه العمل، إلا إذا كان أحدهما وكيلاً عن الآخر أو مأذونا من قبله.

والحادثة المسئول عنها ليس فيها شيء من ذلك، وعلى هذا فليس للناظر المستأجر أن ينفرد بالصرف بدون وكالة أو إذن من الناظر الثاني، فإذا صرف شيئا في سبيل ما ذكر بالسؤال بدون تلك الوكالة أو ذلك الإذن كان متبرعا بما صرف، وليس

له أن يرجع به على الوقف، خصوصاً مع اشتراطه ذلك على نفسه. والله أعلم(٤٤٩).

٧٠ـ (السؤال)

سؤال مرسل من قبل حضرة حمودة أفندى عبده، المحامى، مضمونه: أن المرحوم عباس باشا الأول وقف ستمائة فدان بناحية كفر ششتا على كل من زوجات المرحوم السيد محمد أسعد البغدادلى، وهن: ليلى وزهرة وأسمهان، وعلى بنته حافظة، وعلى أولاد أخويه عبد الحميد وعبد الوهاب، بالسوية. ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده. ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولادهم، ثم على نسلهم وعقبهم، طبقة بعد طبقة ونسلاً بعد نسل وجيلاً بعد جيل، الطبقة العليا منهم تحجب الطبقة السفلى بنفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. ويستقل به الواحد منهم إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم وترك ولداً أو ولد ولد أو أسفل من ذلك انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل، فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا أسفل انتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له فى الدرجة والاستحقاق. فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات، فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم، يتداولون ذلك بينهم إلى انقراضهم.

ثم توفيت إحدى الزوجات، وهى الست أسمهان، عقيما وليس لها إخوة ولا أخوات مشاركون لها فى الدرجة والاستحقاق، وانقرضوا جميعا، ولا توجد طبقة أقرب للمتوفاة المذكورة سوى بنتى حافظة المشاركة للمتوفاة فى الدرجة والاستحقاق، وهما مريم وزينب، فهل يئول حصة أسمهان المذكورة لهما، عملاً بالشرط؟ أم لا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قول الواقف: فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات، فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم يقتضى أنه بموت أسمهان، إحدى الزوجات،

عقيما وليس لها إخوة ولا أخوات مشاركون، ينتقل نصيبها لأقرب الطبقات إليها، وهو من فى درجتها من باقى الزوجات، وحافظة، البنت وأولاد الأخوين، فإذا كانوا انقرضوا جميعاً - على ما فى السؤال - ولا أولاد لهم سوى بنتى حافظة كانتا موصوفتين بأنهما أقرب الطبقات لأسمهان، فينتقل نصيبها إليهما مناصفة حيث لم يكن فى طبقتها سواهما. والله أعلم(٤٥٠).

٧١ - (السؤال)

سئل(٤٥١) بإفادة من حضرة شيخ الجامع الأزهر، مؤرخة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٢٦١ مضمونها: إذا استأجر أحد ناظرى الوقف أطيان الوقف برضاء صاحبه، وإذن القاضى مدة معينة، وشرط على نفسه أن يسلم الأطيان المؤجرة فى نهاية المدة، وإن تأخر عن التسليم، فى حال عدم تجديد الإيجار إليه مدة أخرى، يحسب عليه الإيجار ضعف ونصف أصله لمدة سنة علاوة على مدة العقد، وإنه لو خالف أى شرط من شروط عقد الإيجار أو تأخر عن سداد أى قسط من أقساطه كان لصاحبه المؤجر الحق فى فسخ العقد بدون احتياج لاتخاذ وسائل قانونية، وعندها يصير إشهار مزاد تأجير الأطيان، فإن أجرت بأقل من الجرة التى استأجر يحسب الفرق عليه، ويكون مكلفا بتسليم الأطيان إلى المستأجر الجديد.

فهل إذا انتهت مدة التأجير المتفق عليها، وكان المستأجر خالف شروط العقد، وتأخر عن سداد أقساط الإيجار، ورفعت عليه قضايا من المؤجر بسبب ذلك، وبقاء الأطيان فى يده يضر بالوقف، ولم يوافق على التأجير لغيره بأجرة أكثر مما استأجر، تعنتا منه، وتأجيرها لذلك الغير مصلحة للوقف، يجوز لصاحبه أن ينفرد بالتأجير، نظرا لما تقدم، بإذن القاضى؟؟

(الجواب)

إذا امتنع أحد الناظرين من التأجير تعنتا، وكان التأجير مصلحة للوقف، فيرفع الناظر الثانى الأمر للقاضى ليطلق له التصرف، وحينئذ يسوغ له الانفراد بالتأجير. والله أعلم(٤٥٢).

٧٢ـ (السؤال)

سأل محرم عبد الظاهر خورشيد، في: رجل كان مستحقا في وقف والده، ومات، وآل نصيبه من بعده لأولاده، عملاً بشرط الواقف. وبعد أن مات ظهر عليه ديون أراد أربابها الحجز على نصيبه في الوقف الذي آل من بعده لأولاده، فهل يجوز لهم ذلك شرعاً؟ أو لا يجوز ويكون الحق في النصيب المذكور لأولاد الميت المديون، لانتقاله لهم بشرط الواقف ولا يعتبرون ذلك تركة عن أبيهم المديون حتى يحصل الحجز عليه من أرباب الديون؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

هذا النصيب خاص بهؤلاء الأولاد بانتقاله إليهم بموت أبيهم، حيث شرط الواقف ذلك، ولا يعتبر تركة موروثة لهم عن أبيهم، فلا يصح الحجز عليه من قبل أرباب تلك الديون، لأن ديونهم إنما تتعلق بتركة الميت، وليس هذا النصيب تركة، فلا يرد الحجز عليه، بل هو استحقاق وقفي خص الواقف به من عينه، وهم الأولاد المذكورون بعد موت أبيهم، فلا يصح الحجز على حصصهم، كما قلنا. والله أعلم(٤٥٣).

٧٣ـ (السؤال)

سأل محمد أبو سن، في: رجل اسمه الحاج درويش أبو سن، بنى مسجدا بإسكندرية للعارف بالله سيدي عبد الرحمن الأعرج. وبنى للمسجد المذكور مطهرة وأماكن عليها حال حياته. ثم مات، فجاء شقيقه محمد بيك أبو سن ووقف على المسجد المذكور جملة عقارات، وصار ناظرا عليها وعلى المسجد المذكور وما يتبعه من تلك الأماكن التي كان يستغلها حال حياته لجهة المسجد المرقوم، حيث كانت معلومة للكافة بأنها وقف للمسجد المذكور على وجه الشهرة، ولم يشتهر أنها مملوكة للباني ولا لغيره، بل المعلوم أنها وقف من جملة ملحقات المسجد المذكور. وكان الناظر المذكور قد أسكن بعض أقاربه بها مدة إلى أن توفي وتوفيت الساكنة عن

ورثة تصرفوا فى تلك الأبنية بالبيع بمقتضى عقود عرفية سنة ١٣٠٢ حال كون مورثهم ليست وارثة لبانى المسجد شرعاً. ثم لما تقرر أحد أولاد محمد بيك أبو سن ناظرا على وقف والده والمسجد المذكور بعد بلوغه، تنازع مع واضع اليد بالمحكمة الأهلية، فصدر حكمها بأنه قبل الفصل فى الموضوع يكلف الناظر بأن يقدم فتوى شرعية من فضيلة مفتى الديار المصرية بما يقتضيه الحكم الشرعى فى هذا البناء، إن كان بإنشائه على مطهرة المسجد من قبل الواقف يلحق بوقف المسجد المذكور، ولو لم يصرح بذلك فى كتاب وقفه حتى مات؟

فهل يكون الحكم كذلك، والحال ما ذكر بهذا السؤال؟ وقد جرى عرف الناس أجمع أن من بنى مسجداً وجعل له مطهرة ولواحق فوقها يكون ذلك تابعًا للمسجد بعد الإذن بالصلاة فيه، أم كيف الحكم؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

متى كان نظار الوقف السابقون يستغلون هذه الأماكن للمسجد باعتبارها وقفا، ومضت الشهرة والسماع عند الكافة بأنها وقف، ولم تعرف بأنها ملك، وتحقق كل ذلك، وجب أن تعتبر وقفا، لأن تعلق الوقف بالعين يثبت بالشهرة والسماع عند تحققهما، ولا قيمة حينئذ للعقود التى فى أيدى المدعى عليهم، لأنه ليس للبائعين ملك صحيح فى تلك الأعيان بعد مضى الشهرة والسماع وتحققهما. والله أعلم[٤٥٤].

٧٤ـ (السؤال)

سئل[٤٥٥] بإفادة من مديرية الجيزة، مؤرخة فى ٦ ذى الحجة سنة ١٣١٩ نمرة ٥٤٠، مضمونها: أن من ضمن صور العقود الواردة من محكمة مصر المختلطة بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٩٠١ نمرة ١٥٨ صورة عقد مسجلة بتاريخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠١ نمرة ١٧٠٤٣ تشتمل على مبيع (٣ فدن) من السيد مصطفى الأصيلى إلى السيد حسن مصطفى، بناحية برطيق، التابعة مديرية هنا. وبإجراء التحريات

اللازمة لنقل التكليف، تبين أن تلك الأطيان وقف. وحيث يقتضى أخذ رأى حضرتكم فى جواز تنفيذ هذا البيع ونقل التكليف باسم المشترى من عدمه اقتضى ترقيمه بأمل النظر والإفادة.

(الجواب)

من المقرر أن بيع الوقف لا يجوز، وإن الواقف لو شرط بيعه فى عقدة الوقف كان ذلك الشرط باطلاً، بخلاف ما إذا شرط استبداله أو استبدله القاضى للمصلحة فإن الاستبدال يكون صحيحا. وعلى هذا، فلا يجوز بيع هذه الأطيان، حيث كانت وقفا، ولم يثبت خروجها من الوقف بطريق الاستبدال ولا نقل التكليف باسم المشترى. والله أعلم[٤٥٦].

٧٥ـ (السؤال)

سأل حضرة عثمان بيك خالد، فى: وقف نص واقفه على أنه وقفه على مصالح التكية ومهماتها، فهل صرف شىء من إيراد ذلك الوقف فى سبيل التعليم للدراويش فرائض الدين وعقائد التوحيد ومكارم الأخلاق والسيرة النبوية، ليكونوا من ذوى الإلمام بالواجبات الدينية والمحاسن الشرعية، يدخل فى مصالح التكية؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من المعلوم أن التكايا إنما هى للمريدين والمرشدين والذكر والعبادة، بالعلم والعمل، ولا حياة للعمل بدون علم، ولا علم بدون تعلم، فتعليم الدين ووسائله من أهم مقاصد واقفى التكايا والواقفين عليها، فيدخل فى مصالح التكايا حتما، ولهذا يسوغ لمن له ولاية التصرف فى التكية المسئول عنها صرف ما تدعو الحال لصرفه من ريع وقفها فى سبيل التعليم المذكور لمن يعلم هؤلاء الدراويش ما يتعلق بأمر دينهم، لدخول ذلك فى المصالح التى نص عليها الواقف. والله أعلم[٤٥٧].

٧٦ ـ (السؤال)

سأل مأمور دائرة دولتلو البرنس خديجة هانم أفندى، شقيقة الجناب العالى، فى: رجل وقف وقفا شرط فيه أن يصرف من ريعه قدر معلوم لكاتب نظير قيامه بكتابة محصولات الزراعة وتحصيل الأجر، وغير ذلك. ثم رأى الناظر عليه احتياج الوقف لأعمال كتابية تكون بطرفه، لكونه مقيما بمصر. ولنص الواقف على أن كاتب الزراعة يقيم بجهة أطيان الوقف، التى هى بعيدة عن محل إقامة الناظر، فهل للناظر أن يتخذ كاتبا له، بأجرة المثل، للأعمال الضرورية الكتابية لمصلحة الوقف، حيث كان هذا العمل لا يعمله مثل الناظر؟ وله أن يصرف له تلك الأجرة التى يفرضها له من ريع الوقف، حيث إن ذلك أجرة على العمل، وليس بإحداث وظيفة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: لا يكلف الناظر من العمل بنفسه إلا مثل ما يفعله أمثاله، ولا ينبغى له أن يقصر عنه. ولو نازعه أهل الوقف، وقالوا للحاكم: إن الواقف إنما جعل هذا فى مقابلة العمل، وهو لا يعمل شيئا، لا يكلفه الحاكم فى العمل ما لا يفعله النظار. وإن للناظر أن يستأجر من يعمل فى أمور الوقف عملا ضروريا فى مصالحه، ككاتب يكتب أمور الوقف على قدر عمله الضرورى، بدون جعل ذلك وظيفة مقررة بمرتب مستمر، حيث لم يشترط الواقف ذلك.

وحيث شرط الواقف فى الحادثة المسئول عنها أن يصرف ما عينه لكاتب نظير قيامه بكتابة المحصولات وتحصيل الأجر وغير ذلك، وقد دعت الضرورة لكاتب آخر يعمل عملاً لا يعمله مثل الناظر، فللناظر على هذا الوقف أن يستأجره للعمل فيما دعت الضرورة إليه، ويصرف له الأجرة من ريع الوقف على قدر عمله، بدون أن يجعل ذلك وظيفة مقررة. والله أعلم(٤٥٨).

٧٧ ـ (السؤال)

سئل(٤٥٩) بإفادة من مديرية الجيزة، مؤرخة فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٥٦٠ مضمونها: أنه ورد لها من محكمة مصر المختلطة صورة عقد مسجل فى يولية سنة

١٩٠١ تحت نمرة ٨٧٨٧ يشتمل بيع ثلاثة أفدنة بناحية البساتين من الشيخ محمد الليثى، من تكليفه، إلى حسين عبد الوهاب ومحمد عبد الوهاب، مناصفة. ومن التحريات التى جرت، تبين أن هذا القدر عشورى بحوض الأبعادية ضمن قطعة نمرة ٣ قدرها ٢٧ فدّن وزيادة، ووارد ذلك بتكليف البائع، ووقف المرحوم الأستاذ الشيخ محمد الإنبابى، وأن البائع يملك النصف، على الشيوع، فى الأطيان المكلفة، وحيث إن المديرية ترغب معرفة جواز نقل تكليف ٣ الفدن باسمى المشتريين، مع أنها من ضمن أطيان مملوك نصفها وموقوف نصفها على الشيوع ـ كما ذكر ـ من عدمه؟ فالأمل الإفادة بما يرى فى ذلك.

(الجواب)

بالاطلاع على رقيم عزتكم المؤرخ فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٥٦٠، المرفق بهذا، تبين أن محمد الليثى يملك النصف مشاعا فى الأطيان المكلفة باسمه، ووقف الأستاذ المرحوم الشيخ محمد الإنبابى، وأنه باع أفدنة ثلاثة من تكليفه إلى حسين عبد الوهاب ومحمد عبد الوهاب، مناصفة، بمقتضى العقد المسجل المنوه عنه بذلك الرقيم، وترغبون معرفة جواز نقل تكليف الأفدنة المبيعة باسم المشتريين، من عدم جوازه.

وأفيد عزتكم أنه متى كانت هذه الأفدنة المبيعة من تكليف البائع، أى من النصف المملوك له، المكلف باسمه، صح البيع، وساغ نقل التكليف باسم المشرين وعند إرادة قسمة الوقف من الملك تكون القسمة بين الناظر على النصف الموقوف وبين أحمد الليثى، البائع، وحسين عبد الوهاب ومحمد عبد الوهاب، المشتريين، باعتبارهم ارباب النصف المملوك. والله أعلم[٤٦٠].

٧٨ـ (السؤال)

سئل[٤٦١] بإفادة من عموم الأوقاف، مؤرخة فى ٥ إبريل سنة ١٩٠٢ نمرة ٩٤٦، مضمونها: أن من ضمن المستحقين فى وقف الحاج عاشور أبى علفة، بإسكندرية، الجارى إدارته بالديوان، كل من محمود محمد الشيمى، وأخيه حسن، ولدى صالحة، أخت الواقف. وقد مات الأول عن بنتيه: فاطمة وفؤادة،

والثانى عن أشقائه: سليم، ومنوسه، وزنوبة. وصدرت فتوى من مفتى إسكندرية تضمنت عدم انتقال حصة محمود لبنتيه، بناء على قول الواقف: «ثم من بعد أولادها ينتقل نصيبها إلى أولاد الذكور من أولادها».. المفيد عدم انتقال نصيب أحد من الأولاد لأولاد الأولاد إلا بعد وفاة الأولاد جميعهم، وانتقال نصيب حسن الذى مات عقيما لمن فى درجته.

وبتحويل أوراق ذلك، بما فيها الفتوى، على حضرة مفتى الديوان لإبداء رأيه، افتى بأنه بوفاة محمود عن بنتيه: فاطمة وفؤادة ينتقل نصيبه لهما، عملا بقول الواقف: «يتداولون ذلك بينهم»، والناسخ لما قبله، وبوفاة حسن عقيما يرجع نصيبه لإخوته المشاركين له فى الدرجة والاستحقاق.

ولوجود خلاف بين هاتين الفتوتين نرجو النظر فى ذلك، والإرادة بما يرى، ليكون هو المرجع فى العمل.

(الجواب)

قول الواقف: «يتداولون ذلك بينهم كذلك أبدا ما عاشوا، طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل، يحجب كل أصل منهم ما تناسل من نفسه دون من تناسل من غيره بحيث يحجب الأب ولده دون ولد أخيه» إلى آخره، عام، فقد انتظم جميع الموقوف عليهم، وهو بمثابة البيان والتفصيل للبعدية المذكورة أولا فى كلامه. فقوله: «ومن بعد وفاة الحاجة صالحة، أخت الواقف، تنتقل حصتها من ذلك إلى أولادها، الذكور والإناث، بالفريضة الشرعية بينهم، ثم من بعد أولادها ينتقل نصيبها إلى أولاد الذكور من أولادها».. وإن كان يقتضى بظاهره أن نصيبها لا ينتقل إلى أولاد الذكور من أولادها إلا بعد أولادها، إلا أنه باعتبار ذلك البيان الذى جاء فى عبارة التداول صار غير ملاحظ بانفراده، بل يلاحظ مع ذلك البيان المقتضى أخذ الفرع نصيب أصله.

وعلى هذا، فبموت محمود بن صالحة عن بنتيه فاطمة وفؤادة ينتقل نصيبه لهما، عملا بما ذكر. وبموت أخيه حسن عقيما، انتقل نصيبه لإخوته وأخواته المشاركين له، عملا بقول الواقف: «وكل من مات من الموقوف عليهم ولم يترك

ولدا ولا ولد ولد ولا أسفل انتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له في قسمهم المبين لهم من غلة الوقف».

وبهذا يعلم أن ما أفتى به حضرة مفتى الديوان، من انتقال نصيب محمود لبنتيه، ونصيب حسن لإخوته وأخواته المشاركين، مطابق لكلام الواقف. غاية الأمر أنه لا نسخ في كلامه، وإنما هو بيان بعد إبهام وتفصيل بعد إجمال. والله أعلم(٤٦٢).

وطيه الأوراق (عدد٤).

٧٩ـ (السؤال)

سأل يوسف بيك ذهني، في: وقف أهلي له جماعة مستحقون، ومن ضمنهم ناظره الشرعي. وبرأى المستحقين ورضائهم، أناب الناظر عنه أحدهم في تحصيل الإيجارات وبيع المحصولات وقبض الثمن والدفع للمستحقين وتقديم حساب ذلك سنويا.

وما زال هذا النائب قائما بذلك، بمشاهدة المستحقين المقيمين معه في جهة الوقف لغاية سنة ١٩٠١، وفيها قبض ثمن المحصولات والإيجارات ودفع لبعض المستحقين شيئا من استحقاقهم فيها، ودفع الأموال الميرية عنها. وبعد ذلك مات، قبل تقديم حسابها. وانتقل نصيبه في الوقف لباقي المستحقين، بحسب شرط الواقف. وضاع مال الوقف الباقي من المال الذي قبضه من ثمن المحصولات والإيجارات لعدم وجوده عنده حين موته، وعدم معرفة ما صنع به، وعدم وجود تركة له. فبعض المستحقين أقر ذلك الضياع، والبعض أنكره ويريد مطالبة الناظر به. فهل دعوى الناظر ضياع ذلك يصدق فيها، لكونه أمينا؟ ولا حق لمن أنكر من المستحقين في مطالبته بشيء من ذلك؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المعروف في كتب الفقه أن الوصي يصدق بيمينه، وأن الوصي وناظر الوقف أخوان، فالناظر يصدق بيمينه. وقد قال في (العقود) نقلاً عن (البحر) من شتى

القضاء ما نصه: «نائب الناظر كالناظر في قبول قوله، فلو ادعى ضياع مال الوقف أو تفريقه على المستحقين، وأنكروا، فالقول له، كالأصيل، لكن مع اليمين». أ. هـ.

وذلك كله صريح في أن القول للناظر المذكور في ضياع مال الوقف، بيمينه، وحينئذ فلا عبرة بإنكار المستحقين، ولا حق لهم في مطالبته بذلك. والله أعلم(٤٦٣).

٨٠ـ (السؤال)

سأل عبد الوهاب بيك الشنواني، في: أخوين وأخت وقفوا وقفهم على أنفسهم أيام حياتهم، ثم من بعد كل منهم تكون حصته من ذلك وقفا على أولاده، ثم وثم، طبقة بعد طبقة، العليا منهم تحجب السفلى من نفسها دون غيرها. على أن من مات منهم وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل.. إلخ. وإذا مات أحد الواقفين المذكورين من غير عقب يكون وقفه لما هو معين له من العقار وقفا على الآخر منهم، ثم من بعد كل منهم على أولاده، ثم على ذريته ونسله وعقبه بالسوية، على النص والترتيب المفروض.

ومات أحد الأخوين عن ولد، وانتقل نصيبه إليه، ومات ثانيهما عقيما، وكان موجودا حين موته أخته المذكورة، فهل يكون وقفه وقفا عليها؟ وبعد موتهما ينتقل ما وقفته هي حال حياتها وما صار وقفا عليها من قبل أخيها، بعد موته عقيما، لأولادها ونسلها وعقبها، بالسوية، على النص والترتيب المشروحين، كما هو معين بحجة الوقف المذكور؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث نص هؤلاء الواقفون على أنه إذا مات أحدهم من غير عقب يكون وقفه لما هو معين له من العقار وقفا على الآخر منهم، ثم من بعد كل منهم على أولاده، على الوجه الذي عينوه. وقد مات أحدهم عن ولد، وانتقل إليه نصيبه، عملا بقولهم أولا: «ثم من بعد كل منهم تكون حصته من ذلك وقفا على أولاده» ومات

ثانيهم عقيما، وكان موجودا حين موته أخته، الواقفة المذكورة، فلا ريب يكون العقار الذي وقفه وقفا عليها، عملا بقولهم: «إذا مات أحدهم عن غير عقب يكون وقفه لما هو معين له من العقار وقفا على الآخر منهم».

ولا شك أن الأخت المذكورة في هذه الحالة أخرى بالنسبة لذلك الذي مات عقيما لعدم وجود سواها منهم حين موته. وبعد موتها ينتقل ما وقفته هي حال حياتها وصار وقفا عليها بعد موت أخيها العقيم المذكور لأولادها وذريتها ونسلها وعقبها، على النص والترتيب المذكورين في كلامهن. والله أعلم(٤٦٤).

٨١- (السؤال)

سأل الشيخ سيد عبد اللطيف، في: وقف مشمول بنظر ناظرين، بمقتضى كتاب الوقف وإعلامين شرعيين صدرا لهما بذلك النظر في محكمة مصر الشرعية. وفي شروط الواقف أن يصرف من ريع الوقف قدر عينه لأشخاص من طلبة العلم بجهة المدينة، بين عددهم وصفتهم، وفوض تعيينهم لأحد الناظرين المقيم بالمدينة المنورة المسمى بالشيخ محمد الصادق، فخالف هذا الناظر المفوض إليه ذلك ما شرطه الواقف بالنظر لهؤلاء الأشخاص، وخان في عمله أيضا وثبتت خيانته لدى قاضي المدينة، وعزله عن ذلك النظر بناء على ثبوت الخيانة عليه، وعين بدله ناظرا آخر يسمى الشيخ مصطفى صقر، أحد علماء المدينة، ليكون مع الناظر الثاني.

وقد كان هذا الناظر الثاني، المقيم بمصر، الذي هو السيد عبد اللطيف، أرسل مبلغا بواسطة مالية الحكومة المصرية إلى المدينة لصرفه حسب شرط الواقف باتحاد وكيله مع ثاني الناظرين، وجرى صرفه من يد وكيل السيد عبد اللطيف الشرعي بالاتحاد مع الناظر الثاني، فجاء ذلك الناظر المعزول، الذي هو الشيخ محمد الصادق، يطالب الناظر الثاني، الذي هو السيد عبد اللطيف، بالمبلغ الذي أرسله بواسطة مالية الحكومة المصرية لصرفه على وجه ما ذكر، متعللا بأنه هو الذي أخذ المبلغ وصرفه بمعرفته، فهل لا حق له في تلك المطالبة، حيث إن السيد عبد اللطيف، الناظر الثاني، أرسل ذلك المبلغ بواسطة المالية لصرفه باتحاد وكيله مع الناظر الثاني، خصوصاً وأن محمد الصادق، الذي يتعلل بما ذكر معزول من النظر

لثبوت الخيانة عليه، وقد تعين بدله ناظر آخر بمقتضى إعلام شرعى صادر من قاضى المدينة المنورة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، لا حق لذلك الناظر المعزول فى تلك المطالبة لانقطاع ولاية تصرفه بعزله بسبب الخيانة الثابتة، فلا عبرة بتعلله بما ذكر، لأن الذى له ولاية التصرف هو الناظر الذى تعين بدله، والناظر الثانى المقيم بمصر. فما صنعه هذا الناظر الثانى، الذى هو الشيخ سيد عبد اللطيف، من إرسال ذلك المبلغ إلى المدينة لصرفه كشرط الواقف باتحاد وكيله مع الناظر الثانى المعين المذكور لم يخرج عن تلك الولاية الثابتة لهما بطريق نظرهما، بخلاف ذلك الناظر المعزول، فإنه لا ولاية له، كما ذكر. ولو فرض أن هذا الناظر الذى عزل بقى ناظرا ولم يعزل، وأرسل الشيخ عبد اللطيف ذلك المبلغ بواسطة المالية لتوزيعه على الطريقة التى ذكرت فقد برئ الشيخ سيد المذكور من هذا المبلغ، ولم يبق للناظر الآخر حق مطالبته به متى تحقق ذلك. والله أعلم(٤٦٥).

٨٢ـ (السؤال)

سأل الشيخ مراد إسماعيل زايد، من طلبة العلم بالأزهر، فى: امرأة وقفت وقفها على نفسها أيام حياتها، ثم من بعدها على أخويها لأبيها، ثم من بعد كل منهما على أولاده ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم وذريتهم ونسلهم وعقبهم، مع مشاركة عتقاء الواقفة، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم من بعد كل منهم على أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، طبقة بعد طبقة إلى انقراضهم، يكون ذلك مضافا إلى خيرات عينتها.

ثم ماتت عن أخويها لأبيها: أيوب ومصطفى، ولم يوجد لها عتقاء حين موتها، ثم مات أيوب عن بنته زهرة، ثم مات مصطفى عن أولاد أولاده محمد وخديجة وعبد الرحمن، هم: على وعبد السلام وزنوبة، أولاد محمد من زوجته زهرة، وأحمد ومحمد وفاطمة، أولاده من زوجة أخرى وزبيدة بنت خديجة، ومحمد بن

عبد الرحمن، ثم مات أحمد بن محمد عقيما، ثم مات أخوه على عقيما، ثم مات أخوه عبد السلام عقيما، ثم مات أخوه محمد عقيما، فما استحقاق كل من الموجودين؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قول الواقفة، بعد استحقاق أخويها أيوب ومصطفى: «ثم من بعد كل منهما على أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم وذريتهم ونسلهم وعقبهم، مع مشاركة عتقاء الواقفة ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم» إلى آخره.. يقتضى أن لذرية الأخوين من بعدهما النصف، وللعتقاء كذلك النصف الثانى، كما يفيده التعبير بالمشاركة، ويكون نصيب كل من الأخوين بمنزلة وقف مستقل، كما يقتضيه قوله: «ثم من بعد كل منهما على أولاده».

فتختص ذرية أيوب بربع الوقف، باعتباره وقفا مستقلا خاصا بهم، وتختص ذرية مصطفى بربع الوقف باعتباره وقفا مستقلا خاصا بهم كذلك، فيكون لزهرة، بعد موت أبيها أيوب الربع، ويكون لعلى وعبد السلام وزنوبة وأحمد ومحمد وفاطمة وزبيدة ومحمد، أولاد مصطفى، الربع الثانى، سوية بينهم. وبعد موت زهرة، بنت أيوب، ينتقل الربع الذى كان بيدها لأولادها من زوجها محمد بن مصطفى، المذكور، وهم: على وعبد السلام وزنوبة، سوية بينهم. وبموت كل من أبنيها على وعبد السلام، المذكورين، عقيما، وسكوت الواقفة عن نصيب من مات عقيما، يرجع نصيبه لأصل الغلة، ويعتبر كل منهما كأن لم يكن، ويقسم الربع حينئذ على الموجود من المستحقين، والموجود منهم بعد موتهما: أختهما زنوبة، فينحصر فيها استحقاق ريع جميع الربع الذى كان لأمها زهرة، باعتبار أنها ماتت عنها فقط، واعتبار أن أخويها المذكورين لم يكونا. وكذلك يرجع نصيب أخويها المذكورين ونصيب كل من أخويهما لأبيهما المذكور، وهما: أحمد ومحمد، اللذان ماتا عقيمين فى الربع الثانى المذكور لأصل الغلة، ويعتبر كل منهم كأنه لم يكن. ويقسم الربع حينئذ على الموجودين من المستحقين، والموجود منهم بعد موتهم: زنوبة وفطومة، بنتا محمد بن مصطفى، وزبيدة، بنت خديجة بنت مصطفى،

ومحمد بن عبد الرحمن بن مصطفى، سوية بينهم أرباعا، فيكون لزنوبة المذكورة من الربع الثاني قيراط واحد ونصف قيراط، زائدا على الربع الأول الذى انحصر استحقاقه فيها، ويكون لفاطمة بنت محمد وزبيدة بنت خديجة ومحمد بن عبد الرحمن، المذكورين، أربعة قراريط ونصف قيراط، سوية بينهم أثلاثا، باقى الربع الثانى الذى هو شطر النصف المختص بذرية الأخوين.

أما النصف الثانى الذى جعلته الواقفة للعتقاء، فإنه بموتها عن غير عتقاء يكون للفقراء، لأنه حينئذ من قبيل منقطع الوسط، ومصرفه الفقراء. والله أعلم(٤٦٦).

٨٣ـ (السؤال)

سألت حرم المرحوم حسين باشا الدرملى، فى: واقفة أنشأت وقفها على نفسها مدة حياتها، ثم من بعدها على من سيحدثه الله لها من الأولاد، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم من بعد كل منهم تكون حصته من ذلك على أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، ثم على ذريتهم، ثم على نسلهم وعقبهم، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم طبقة بعد طبقة، العليا منهم تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. يستقل به الواحد إذا انفرد، ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل لأولاد الظهور إن كان منهم، فإن لم يكن فلأولاد البطون، فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا أسفل انتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له فى الدرجة والاستحقاق، فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم، يتداولون ذلك بينهم كذلك إلى انقراضهم. يكون من ذلك ثلاثمائة وخمسون فدانا وقفا على زوجها حسين بيك الدراملى، ثم من بعده على ذريته ونسله وعقبه، طبقة بعد طبقة، إلى حين انقراضهم. فإذا انقرضوا تكون الثلاثمائة وخمسون فدانا المذكورة وقفا يصرف ريعها على مقام ومسجد السيدة فاطمة النبوية، رضى الله عنها، الكائن ضريحها بمصر بخط الدرب الأحمر بالعطفة التى تجاه الحارة المعروفة بزرع النوى. ومن ذلك عشرة أفدنة بعد

الثلاثمائة وخمسين فدانا المذكورة وقفا على تابعتها آمنة، ثم من بعدها على أولادها وأولاد أولادها ونسلها وعقبها إلى حين انقراضهم.

ومن ذلك عشرة أفدنة وقفا على تابعتها زينب ونسلها وعقبها إلى حين انقراضهم. ومن ذلك ثمانون فدانا وقفا على جواريها ومماليكها، الموجود منهم ومن سيوجد، بالسوية بينهم، ثم من بعدهم على نسلهم وعقبهم إلى انقراضهم.

وجعلت مآل ذلك لجهة بر لا تنقطع. وشرطت شروطا منها ما يتعلق بالنظر، وأنه إذا انتقل النظر على ذلك لزوجها حسين بيك، المذكور، يصرف من ذلك لمستحقيه من العتقاء والمرأتين المذكورتين، ويتداولون بينهم ذلك بحسب طبقاتهم على النص والترتيب السابقين أعلاه إلى حين انقراضهم أجمعين.

فهل إذا مات أحد من ذرية حسين باشا الدرملي أو أحد العتقاء أو إحدى المرأتين عن أولاد ينتقل نصيبه إلى أولاده، مع وجود أهل طبقته؟ أو مات لا عن أولاد، وله إخوة وأخوات مشاركون، ينتقل نصيبه إليهم؟ وإذا لم يكن له إخوة ولا أخوات ينتقل لأهل طبقته؟؟ أو كيف الحكم؟؟

(الجواب)

قول الواقفة، فى شرط كل من الأوقاف التى تكون بعد انقراض الذرية: «ثم من بعده - أى حسين باشا - يكون وقفا على ذريته ونسله وعقبه، طبقة بعد طبقة» إلى آخره.. ثم من بعدها، أى آمنة، تكون العشرة أفدنة وقفا على أولادها وأولاد أولادها ونسلها وعقبها إلى حين انقراضهم.. إلخ.. ثم من بعدهم، أى الجوارى والمماليك، على نسلهم وعقبهم إلى حين انقراضهم.

قولها ذلك، على هذه الطريقة، بعدما بينت ترتيب الطبقات فيما سبق، وإن العليا تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، وإن نصيب كل ينتقل إلى ولده أو ولد ولده، يدل على أنها سكتت عن تفصيل الترتيب اعتمادا على ما سبق من ذكره، يؤيد ذلك أنها لم تذكر الطبقات إلا فيما هو وقف على حسين بيك، ثم جاءت فى المرأتين والعتقاء وذكرت ترتيب النسل بالواو للاختصار بعد ذكر

الترتيب، ثم خافت ألا يفهم ذلك حق الفهم لاشتباه الموسوسين في مثله، فصرحت في آخر شرط النظر بقولها: يصرف من ذلك لمستحقيه من العتقاء والمرأتين المذكورتين ويتداولون بينهم ذلك بحسب طبقاتهم، على النص والترتيب السابقين أعلاه إلى حين انقراضهم أجمعين، فإن هذا البيان لا يمكن أن يعود إلى النظر، لأن شرط النظر انتهى إلى حسين بك ووقف، ولا يمكن أن يكون ذلك إنشاء لحق التصرف لحسين بيك، فإن الحق له بمقتضى شرط النظر، وإنما هو بيان لما أجمل في طريق الاستحقاق عند إنشاء الوقف، ولذلك خصت بالذكر المرأتين والعتقاء لظنها أن الالتباس فيهما أقوى، حيث أهملت ترتيب الطبقات في أعقابهم بالمرة، وعلى ذلك يراعى في انتقال الأنصباء من الأصول إلى الفروع ما نصت عليه الواقفة من الترتيب في ذريتها بلا فرق. والله أعلم[٤٦٧].

٨٤ـ (السؤال)

سألت الست بيهانة، ناظرة وقف المرحوم محمد حافظ بيك، من أعضاء مجلس مصر سابقا، في: أن هذا الواقف أنشأ وقفه على نفسه مدة حياته، ثم من بعده يكون وقفا على من سيحدثه الله له من الذرية، الذكور والإناث بالسوية، ثم على أولادهم وعلى أولاد أولادهم، وذريتهم ونسلهم وعقبهم، طبقة بعد طبقة، العليا منهم تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. يستقل به الواحد منهم إذا انفرد ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم عن ولد أو ولد ولد أو أسفل انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل، فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا أسفل انتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له في الدرجة والاستحقاق، فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات فلمن يوجد في طبقته، فإن لم يكن له أحد في طبقته فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم، يتداولون ذلك بينهم كذلك إلى انقراضهم، فإن لم يعقب الواقف ذرية يكون ذلك وقفا على الوجه الآتي:

عند ذلك(٣٠٠ فدن) جملة قطع على زوجته أسماء، و (١١٥ فدن) جملة قطع على حسن القرملى، و (١٥ فدن) جملة قطع على مصالح ومهمات تربة الواقف، و (١٤٤ فدن) على عتقائه: عثمان وجلفدان وولدها يوسف إسماعيل ومناكشة وآمنة وفاطمة وحليمة وفضيلة وعائشة وبلال وعبد الله، على الشيوع بينهم، وعين لكل منهم قدرا من ذلك. و(٥٠ فدن) جملة قطع على الست جاويش وبنتها بيهانة، سوية، ثم من بعدهم يكون الموقوف على كل منهم وقفا على أولاده ثم على أولاد أولاده ثم على أولاد أولاد أولادهم ونسلهم وعقبهم على النص والترتيب المشروحين فى ذرية الواقف، إلى انقراضهم، ما عدا أسماء زوجة الواقف فإنه من بعد وفاتها يكون الموقوف عليها وقفا على الوجه الآتى: فمن ذلك(١٠٠ فدن) على حسن القرملى يضم له على استحقاقه الموقوف عليه، و (٥٠ فدن) على جاويش، يضم لها على استحقاقها الموقوف عليها، و (٥٠ فدن) على بيهانة، يضم لها على استحقاقها الموقوف عليها، و (١٠٠ فدن) باقى ذلك، منها (٤٠ فدن) على مرجان وسعيد وسليم وفاطمة الصغيرة، عتقاء الواقف بالسوية، و (١٥ فدن) على مصالح تربة أسماء، و (٤٥ فدن) باقى ذلك على العتقاء المذكورين جميعهم، لكل منهم وما يخصه على حسب استحقاقه الموقوف عليه ويضم له عليه، ثم من بعد كل منهم على أولاده وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وذريتهم ونسلهم وعقبهم، على النص والترتيب المشروحين أعلاه.

وإذا كان حسن أفندى القرملى، المذكور، لم يعقب ذرية ينتقل نصيبه من ذلك على زوجته الست جاويش، المذكورة، يضم على نصيبها، فإن لم تعقب جاويش وابنتها بيهانة ذرية، وكان حسن القرملى المذكور حيا، ينتقل نصيبهما من ذلك جميعه إليه، ويضم على نصيبه المذكور، يتداولون ذلك بينهم كذلك إلى انقراضهم، فإن انقرضوا يكون ذلك وقفا على عتقاء الواقف وعتقاء حرمه وأخيه وزوجة أخيه وابنتها، بالسوية، ثم من بعدهم على ذريتهم ونسلهم وعقبهم إلى انقراضهم، يكون ذلك وقفا على جهة بر لا تنقطع.

ثم مات الواقف عن غير أولاد ولا ذرية، ومات بعده حسن القرملى عن غير أولاد ولا ذرية، ثم ماتت جاويش زوجة حسن القرملى عن بنتها بيهانة، ثم مات عبد الله وآمنة ومناكشة عن غير أولاد ولا إخوة ولا أخوت يشاركونهم، ثم مات

بلال عن أولاده سالم وخديجة وجلسن، ثم مات عثمان ومرجان وسعيد وسليم وفاطمة عن غير أولاد، ولم يكن لهم إخوة ولا أخوات مشاركون، ثم ماتت أسماء زوجة الواقف عن غير أولاد، ولم يكن لها إخوة ولا أخوات مشاركون، فما يخص كل واحد من المستحقين الموجودين الآن؟ ولمن ينتقل نصيب أسماء المذكورة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت الواقف عن غير أولاد ولا ذرية انحصر ريع الوقف في زوجته أسماء وحسن القرملي وتربة الواقف وعتقائه: عثمان وجلفدان وابنها يوسف ومناكشة وآمنة وفاطمة وحليمة وفضيلة وعائشة وبلال وعبد الله، وفي جاويش وبيهانة المذكورين، كل منهم بحسب ما عينه له الواقف.

وبموت حسن القرملي عقيما انتقل نصيبه لزوجته جاويش، عملاً بقول الواقف: وإذا كان حسن أفندي القرملي، المذكور، لم يعقب ذرية ينتقل نصيبه من ذلك إلى زوجته الست جاويش.

وبموت جاويش انتقل ما هو موقوف عليها وما آل إليها من زوجها حسن القرملي لبنتها بيهانة، عملا بقول الواقف: ثم من بعدهم يكون الموقوف على كل منهم على أولاده.

وبموت كل من عبد الله وآمنة ومناكشة عقيما وليس له إخوة ولا أخوات مشاركون انتقل ما هو له للموجودين في طبقته، بالسوية بينهم، وهم: أسماء، الزوجة، وعثمان وجلفدان ويوسف وفاطمة وحليمة وفضيلة وعائشة وبلال وبيهانة، المذكورون، بالسوية، عملا بقول الواقف في جانبهم: على النص والترتيب المشروحين في ذرية الواقف، ومن جملتها: أن من مات عن غير أولاد ولا إخوة ولا أخوات مشاركين انتقل نصيبه من ذلك لمن يوجد في طبقته.

وبموت بلال انتقل الموقوف عليه وما آل له من عبد الله وآمنة ومناكشة لأولاده: سالمة وخديجة وجلسن، سوية بينهن.

وبموت عثمان، عقيما وليس له إخوة ولا أخوات مشاركون، انتقل ما هو موقوف عليه وما آل من عبد الله وآمنة ومناكشة للموجودين في طبقته، وهم: أسماء، الزوجة، وجلفدان ويوسف وفاطمة وحليمة وفضيلة وعائشة وبيهانة، بالسوية بينهم.

أما مرجان وسعيد وسليم وفاطمة الصغيرة، عتقاء الواقف، الذين ذكر في السؤال موتهم مع عثمان، المذكور، فيعتبرون كأنهم لم يكونوا، لأنه لا شيء لهم إلا بعد موت أسماء، الزوجة، وهي كانت موجودة حين موتهم، فلا شيء بيدهم في ذلك الحين.

وبموت أسماء، المذكورة، تأخذ بيهانة من الموقوف عليها ما عينه لها الواقف بعد موتها، أما ما جعله الواقف منه بعد موتها لحسن القرملي وجاويش ومرجان وسعيد وسليم وفاطمة الصغيرة، الذين ماتوا في حياتها لا عن عقب، قبل الاستحقاق، فيصرفه ناظر الوقف للفقراء، لأن الواقف لم يبين في شرطه من يصرف إليه نصيب أحدهم إذا مات قبل الاستحقاق عن غير عقب. وما هو موقوف منه على مصالح تربة أسماء المذكورة، يصرف في ذلك ما شرط، وباقيه، وهو الذي شرط الواقف صرفه على العتقاء المذكورين جميعهم لكل منهم ما يخصه على حسب استحقاقه، يؤخذ منه ما يخص العتقاء الأربعة الذين كانوا من أهل الموقوف على أسماء، المذكورة، بعد موتها، وماتوا في حياتها لا عن عقب كما ذكر، ويصرف للفقراء ويؤخذ منه أيضا ما يخص من مات من العتقاء ممن في طبقة أسماء المذكورة، ويصرف للفقراء، وذلك لموتهم في حياتها قبل الاستحقاق لا عن عقب، وكون الواقف لم يبين في شرطه مصرف أنصبائهم إذا ماتوا قبل الاستحقاق وباقيه يكون للموجود من العتقاء الذين في طبقة أسماء، المذكورة، لكل منهم ما يخصه على حسب استحقاقه كما شرط الواقف.

هذا بالنسبة للموقوف على أسماء، المذكورة، بعينه، أما ما آل لها من عبد الله وآمنة ومناكشة وعثمان، الذين ماتوا من أهل طبقتها، فإنه بموتها عن غير أولاد ولا ذرية ولا إخوة ولا أخوات مشاركين ينتقل للموجودين في طبقتها، وهم جلفدان ويوسف وفاطمة وحليمة وفضيلة وعائشة وبيهانة، بالسوية بينهم، عملاً بما صرح

به الواقف من أن من مات عن غير أولاد ولا إخوة ولا أخوات مشاركين انتقل نصيبه من ذلك لمن يوجد في طبقته، كما ذكر. والله أعلم[٤٦٨].

٨٥ـ (السؤال)

سئل[٤٦٩] في وقف مشمول بنظر حضرة حسين بيك محرم، أنشأه الواقف على نفسه مدة حياته، ثم من بعده يصرف ريعه على خيرات عينها، وعلى ما يلزم للعمارة والمرمة. وما فضل عن ذلك يصرف لأولاد الواقف، الذكور والإناث، بالسوية، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ثم على أولاد أولاده، ثم على أولاد أولاد أولادهم، وذريتهم ونسلهم، طبقة بعد طبقة، العليا منهم تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره. يستقل به الواحد منهم إذا انفرد ويشترك فيه الاثنان فما فوقهما عند الاجتماع. على أن من مات منهم وترك ولدا أو ولد ولد أو أسفل انتقل نصيبه من ذلك لولده أو ولد ولده وإن سفل. فإن لم يكن له ولد ولا ولد ولد ولا أسفل، انتقل نصيبه من ذلك لإخوته وأخواته المشاركين له في الدرجة والاستحقاق. فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات، فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف الموقوف عليهم. وكل من مات منهم قبل دخوله في هذا الوقف واستحقاقه لشيء منه وترك ولدا أو ولد (ولد)[٤٧٠] أو أسفل، قام ولده أو ولد ولده، وإن سفل، مقامه في الدرجة والاستحقاق، واستحق ما كان يستحقه أصله لو كان حيا، يتداولون ذلك بينهم إلى انقراضهم. فإذا انقرضوا، يصرف المذكور على عتقاء الواقف وعتقاء أولاده، ذكورا وإناثا، البيض والذكور الأغوات السود، بالسوية. وكل من مات من العتقاء الأغوات السود ينتقل استحقاقه من ذلك للعتقاء البيض، ذكورا وإناثا، ثم من بعد كل منهم فعلى أولاده، ثم على أولاد أولادهم وذريتهم ونسلهم، طبقة بعد طبقة، على النص والترتيب المشروحين. إلى آخر ما عينه الواقف بكتاب وقفه، وجعل ماله لجهة بر لا تنقطع.

ثم مات الواقف وأولاده وذريته وعتقاؤه وذريتهم، ولم يبق منهم سوى معتقه الأبيض الأمير أيوب، فانحصر فيه فضل ذلك الريع. ثم مات المعتق المذكور عن أولاده الثلاثة: محمد وزهرة وعائشة. ولعائشة ولدان: حفيظة وسليم، ثم مات

سليم قبل أمه عائشة، عقيما. ولحفيظة ولدان: زينب وحسين، ثم ماتت عنهما قبل والدتها عائشة. ثم مات حسين بن حفيظة عن ابنه أحمد. ثم مات محمد جلبي ابن المعتق المذكور، عقيما، عن أختيه: زهرة وعائشة. ثم ماتت أخته عائشة عن بنت بنتها زينب وعن ابن ابن بنتها أحمد. ولزهرة المذكورة ولدان: مصطفى الصاوى وحفيظة الدواخلية. وخلف مصطفى، المذكور، قبل دخوله في الوقف أولاده الخمسة: حسن وعائشة وفاطمة الصغيرة وفاطمة الكبيرة وصلوحة. ثم مات حسن قبل أبيه مصطفى عن ولده على. ثم مات مصطفى الصاوى عن أولاده الأربعة الباقين بعد موت ابنه حسن، وعن على ابن ابنه حسن، المذكور. ثم ماتت زهرة بنت المعتق، المذكور، عن بنتها حفيظة الدواخلية وعن أولاد ابنها مصطفى الصاوى الأربعة: عائشة وفاطمة الصغيرة وفاطمة الكبيرة وصلوحة، وعن على ابن ابنه حسن. ثم ماتت حفيظة الدواخلية، عقيمة. ثم ماتت فاطمة الصغيرة عن أولادها الأربعة: نبيهة ومحمود وعبد العزيز ومصطفى. ثم ماتت عائشة بنت مصطفى الصاوى عن ابنها محمد أمين، ثم مات محمد أمين، عقيما. ثم مات مصطفى بن فاطمة الصغيرة، عقيما، عن إخوته محمود وعبد العزيز ونبيهة. ولزينب بنت حفيظة بنت عائشة بنت المعتق، المذكور، أولاد خمسة: محمد حافظ وعلى حافظ ونبوية وفاطمة ووالى حافظ. ثم مات والى حافظ في حياة أمه زينب عن بنته عزيزة، ثم ماتت نبيهة بنت فاطمة الصغيرة عن أولادها الخمسة: فاطمة وأمينة وأحمد ومصطفى وعزيزة، ثم مات أحمد بن حسين، عقيما، ثم ماتت نبوية بنت زينب عن أولادها: عائشة وأحمد وزكية، ثم ماتت زينب عن أولادها محمد حافظ وفاطمة.

فكيف يقسم فاضل الربع المذكور على الموجودين من نسل المعتق المذكور؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

القاعدة فى مثل هذا الوقف الذى ينشأ على مثل تلك الشروط ألا يحرم أحد من أهله إلا بأن يكون محجوبا بأصله، بأن يكون أصله المستحق حيا يتناول نصيبه من

الوقف. فإذا مات الأصل المستحق حلت جميع فروعه، التى لم يكن لها حاجب سواه، محله. فإن لم يكن أصل الفرع قد استحق، ومات فى حالته هذه، لم يبق حاجب لذلك الفرع إلا أصله الأعلى المستحق، فإذا مات ذلك الأصل الأعلى تساوت فى الاستحقاق جميع فروعه التى لم يكن لها حاجب سواه أسفل منه، فيستحق ابن الابن مع الابن الذى هو عمه؛ كما استحق أولاد مصطفى الصاوى فى هذه الحادثة مع عمتهم حفيظة الدواخلية فى نصيب جدتهم زهرة عند موتها، لأنه لم يكن لهم حاجب سواها، لموت مصطفى الصاوى الذى كان يحجب أولاده؛ وكما استحق أحمد بن حسين مع عمته زينب في نصيب جدتها وأم جدته عائشة عند موتها، لأنه لم يكن لهما حاجب سواها. أما زينب فلأن والدتها كانت ماتت قبل موت جدتها، وأما أحمد فلأن والده وجدته مات كلاهما قبل موت أم جدته، وهى عائشة المذكورة، فلا أصل يحجبه سواها فينال ما كان يأخذه أبوه حسين لو كان حيا، عملاً بقول الواقف: إن الطبقة العليا إنما تحجب من نفسها دون غيرها، وكل من مات قبل دخوله.. الخ. فزينب لا تحجب أحمد فى شىء من نصيب حفيظة، بنت عائشة، الذى كانت تستحقه لو كانت حية. هذا فيما يتعلق بحجب الحرمان.

أما ترتيب الطبقات فى ذاتها، مع قطع النظر عن كل فرع مع أصله، وهى الطبقات التى يعنون بها كل واحد من المستحقين، بحيث يقال: فلان فى الطبقة الأولى من هذا الوقف أو الثانية أو الثالثة، فيظهر اعتبارها فى حجب النقصان عندما تنتهى الطبقة وتنقضى القسمة ويقسم الريع على الطبقة التى تليها، فقد ينقص نصيب الولد بعد أبيه وقد يزيد وينقص نصيب غيره. وكما يظهر ترتيب الطبقات فى نقض القسمة يظهر فى اعتباره بقية الشروط، كما لو جعل النظر باعتبار الأرشد من الطبقة العليا. وكما لو شرط أن من يموت عقيما وليس له إخوة ولا أخوات ينتقل نصيبه إلى أقرب الطبقات، فإن أقرب الطبقات تكون هى الطبقة التى هو فيها باعتبار منزلته من النسب إلى الواقف، فابن الابن يعتبر فى الطبقة الثانية وإن كان يأخذ نصيب الابن، وابن ابن الأبن يعتبر فى الثالثة وإن كان يأخذ نصيب الابن، وهكذا. فأحمد فى هذه الواقعة، الذى يشارك عمته زينب فى نصيب حفيظة بنت عائشة الذى كان يئول إليها من والدتها عائشة لو كانت حية، إذا مات عقيما وليس

له إخوة ولا أخوات يرجع نصيبه إلى أقرب طبقة إليه، وهي الطبقة التي هو فيها بمقتضى ترتيب النسب، وهي خامس طبقة من الأمير أيوب بحيث يعتبر الأمير أولها، ولا يرجع إلى أهل الطبقة الثالثة، التي هى طبقة جدته حفيظة ومصطفى الصاوى، وإن كان عند الاستحقاق قد نال حظا مما كانت تستحقه بمقتضى قول الواقف: وكل من مات قبل دخوله.. الخ.

ولا يصح أن يقال: إن قول الواقف فيمن مات قبل الاستحقاق «قام ولده أو ولد ولده مقامه فى الدرجة والاستحقاق واستحق ما كان يستحقه أصله لو كان حيا باقيا»، يقضي بتغيير طبقة من مات أصله قبل الاستحقاق بالمرة، حيث قال: «قام مقامه فى الدرجة»، والدرجة هي الطبقة. فأحمد، فى مثالنا، الذى كان فى طبقة خامسة بمقتضى ترتيب النسب قد صار فى طبقة ثالثة بمقتضى الشرط، وبذلك انعدمت طبقته الأصلية التي ولد فيها وصارت جميع أحكامه هى أحكام الطبقة الثالثة، فهو يستحق نصيب من يموت فيها عقيمًا وليس له إخوة ولا أخوات، وإذا مات هو عقيمًا استحق نصيبه من فى تلك الطبقة الثالثة، لأنها أقرب طبقة إليه، بعد ما جعله الواقف منها، وهى الطبقة التى يعبرون عنها بالجعلية.. لا يصح أن يقال ذلك:

أولا: لأن قول الواقف: «طبقة بعد طبقة» بعد قوله: «وذريتهم ونسلهم» قبل أن يذكر شرط من مات قبل الاستحقاق لا يمكن لأحد أن يفهم منه إلا طبقات الترتيب فى النسب. وكذلك قوله فى العتقاء: «طبقة بعد طبقة، على النص والترتيب» وشرطه فيمن مات قبل الاستحقاق أن يقوم ولده مقامه إنما هو تصريح بما يدفع وهم حرمان من يموت أصله قبل الاستحقاق الذى نشأ من قول الواقفين: انتقل نصيبه من ذلك إلى ولده أو ولد ولده. فإنه قد يعطى أن الولد لا يستحق عن والده إلا ما حازه والده بالفعل، كما ذكره كثير من العلماء، فيدفعه الواقف بقوله: «وكل من مات» إلخ.. حتى ينص على أن المراد من النصيب ليس هو النصيب الفعلى، وإنما هو النصيب المقدر بمقتضى تقسيم الواقف فى ذاته، استحقه الأصل بالفعل أم لم يستحقه. والواقف فى هذا التصريح لم يغير شيئا من ترتيب الطبقات النسبية، بل حققه وقرره، فإنه جعل ترتيب الأبناء بعد الآباء عاما فيما قبل الاستحقاق وبعده. ولا ينافى ذلك قول الواقف: «قام مقامه فى الدرجة»، والدرجة هى الطبقة،

والقيام مقامه فى الطبقة أن تعدم طبقة والده من الترتيب وتنشأ طبقته هو مكانها، لأن قول الواقف ذلك لم يقصد منه ما ذكرت، بل قصد ما عطف عليه، وهو الاستحقاق، وتسمية القيام مقامه في الاستحقاق درجة، على طريق المجاز، أمر معروف، والقرينة قائمة عليه، لقوله بعد ذلك: «واستحق ما كان يستحقه أصله لو كان حيا». . الخ. . مع أن ذلك يغني عنه قوله: «فى الدرجة والاستحقاق». . فهذا الإيضاح كله لبيان المراد من معنى الدرجة، فالوالد الذي يستحق نصيب والده أوجده بسبب موت أصله إنما يستحقه وهو فى درجته النسبية لم يخرج عنها إلا بنص أصرح من تلك النصوص التى تذكر فى مثل هذا الوقف.

وثانيا: لأنه لا يعقل أن يكون من قصد الواقف فى مثل هذا الوقف أن يفضل من مات أصله قبل الدخول في الوقف على من استحق أصله بالفعل، وإنما أراد المساواة في الاستحقاق بين من مات أصله ومن لم يمت أصله قبل الدخول، ولو اعتبرت تلك الدرجة الجعلية طبقة حقيقية انعدمت بها طبقة الأصل الميت قبل الدخول لكان من مات أصله أرفع طبقة ممن لم يمت أصله، ونال من الحقوق ما يناله أهل الطبقات العليا التى ارتفع إليها بهذا الشرط وامتاز بها عمن تلقوا أنصباءهم عن أصولهم بعد الاستحقاق، وهو ما لا يعقله إلا من لا يعقل، فإنه لا غرض للواقف يتعلق بذلك البتة، وترجيح لا يميل إليه إلا من فقد رأيه.

ولو سلم أن عموم قوله: «واستحق ما كان يستحقه لو كان حيا» يشمل ما ينحل عن بعض من فى طبقة أبيه وليس له ذرية ولا إخوة ولا أخوات، كما رجحه كثير من الفقهاء، لم يجز أن يقضى ذلك بإعدام الطبقة الأصلية وإحداث أخرى مكانها فى هذا الفرع وفروعه خاصة، وإنما يكون ذلك آتيا من نص جديد استثنى به هذا الفرع من عموم الطبقات التى بنى عليها الواقف وقفه لتحقيق معنى الاستحقاق، ولكن يبقى حكم الطبقات النسبية على ما هو عليه، وإذا أطلق لفظها لا ينصرف إلا إليه، فإذا قيل: أقرب الطبقات، كان المراد الأقرب من تلك الطبقات التى بنى عليها الوقف، لا الطبقات التى تجوز فيها واستثنى أهلها لعارض غرض طرأ على الواقف فى موضع خاص لتوفير الاستحقاق على بعض الأشخاص حتى كأن أصولهم استحقوا ما استحقوا وأفضوا بجمعه إليهم. على أننا لو سلمنا أن تلك الدرجة أصبحت طبقة جعلية حقيقية، وكانت منزلتها في كلام الواقف منزلة سائر الطبقات

النسبية فى الاعتبار ودخلت فى اللفظ المطلق الوارد فى قوله: أقرب الطبقات، لكانت تلك الطبقة الجعلية أيضا خارجة من الاستحقاق، لا يستحق أهلها شيئا من نصيب من يموت عقيما، وذلك أن معنى الأقرب ما لا يفضله شيء فى القرب ولا يساويه، ومن ولد فى الدرجة الخامسة قبل الاستحقاق فقد تحققت له درجته النسبية حتما لوجود أصله، فإذا مات أصله قبل الاستحقاق تجددت له درجة أخرى هى الجعلية. ومن المعلوم أن الطبقة التى له بالذات هى أقرب إليه من الطبقة التى له بالعرض، ولا يقول أحد بمساواتها لها، فتكون أقرب الطبقات هى الطبقة الأصلية النسبية. وزد على ذلك أن الطبقة التى يتنازل نصيبه فيها لو انقرضت نقضت القسمة بموت آخر مستحق فيها، وإن كان صاحب الدرجة الجعلية حيا، فهو إذا غير معدود من تلك الطبقة حقيقة، ولو كان له ولد لكان ولده فى الطبقة السادسة قطعًا استحق مع أهلها، إلا أن يستثنى بشرط كما استثنى أبوه، فإذا الطبقة القربى التى تدانيها الطبقة الخامسة التى هى أقرب الطبقات النسبية إليه.

وعلى هذا، ينحصر فاضل ريع ذلك الوقف بموت الأمير أيوب فى أولاده الثلاثة: محمد جلبى وزهرة وعائشة، سوية بينهم، ويعتبر سليم الصغير، الذى مات عقيما فى حياة أمه عائشة، كأن لم يكن، وبموت حفيظة بنت عائشة، قبل الدخول فى الاستحقاق قام ولداها حسين وزينب مقامها فى الدرجة والاستحقاق، وكذلك بموت ابنها حسين قبل دخوله واستحقاقه قام ابنه أحمد مقامه فى ذلك، وبموت محمد جلبى، عقيما، انتقل نصيبه من ذلك ـ وهو الثلث ـ لأختيه زهرة وعائشة، مناصفة بينهما، لأن أحمد قام مقام والده حسين بمجرد موته وقد كان حسين قام هو وأخته زينب مقام والدتهما حفيظة بمجرد موتها، وبموت مصطفى الصاوى فى حياة أمه زهرة، قبل دخوله واستحقاقه، قام بناته عائشة وفاطمة الصغيرة وفاطمة الكبيرة وصلوحة وعلى، ابن ابنه حسن الذى مات فى حياة أبيه، مقامه فى الدرجة والاستحقاق. وبموت زهرة المذكورة، وهى آخر طبقتها انقراضا، تنقض القسمة، ويقسم ذلك الفاضل على أهل الطبقة التى تلى طبقتها، أحياء وأمواتا، فما أصاب الأحياء أخذوه وما أصاب الأموات كان لأولادهم، ومن مات من الأولاد قبل الدخول والاستحقاق قام ولده مقامه.

وأهل هذه الطبقة هم ولداها: مصطفى الصاوى وحفيظة الدواخلية وحفيظة ابنة

عائشة، فيشتركون فى ذلك الفاضل بالسوية، ونصيب مصطفى الصاوى، الذى مات قبل الدخول والاستحقاق ـ وهو الثالث ـ تأخذه بناته عائشة وفاطمة الصغيرة وفاطمة الكبيرة وصلوحة وعلى، ابن ابنه حسن، لقيامه مقام أبيه، سوية بينهم أخماساً. ونصيب حفيظة بنت عائشة ـ وهو الثلث ـ يأخذه بنتها زينب وأحمد ابن ابنها حسين، لقيامه مقام أبيه، مناصفة بينهما، وبموت حفيظة الدواخلية، عقيما، وهى آخر طبقتها الأصلية انقراضا، تنقض القسمة، ويقسم فاضل الريع على أهل الطبقة التى تلى طبقتها، أحياء وأمواتاً، فما أصاب الأحياء أخذوه وأما ما أصاب الأموات كان لأولادهم.

وأهل هذه الطبقة الذين يقسم عليهم سبعة، وهم حسن وعائشة وفاطمة الصغيرة وفاطمة الكبيرة وصلوحة، أولاد مصطفى الصاوى، وزينب وحسين، ولدا حفيظة، فيصيب كلا منهم سبع ذلك الريع ثلاثة قراريط وثلاثة أسباع قيراط. والسبع الذى أصاب حسن، الميت، يكون لابنه علي، وكذلك السبع الذى أصاب حسين، الميت، يكون لابنه أحمد، وبموت فاطمة الصغيرة انتقل نصيبها من ذلك ـ وهو السبع ـ لأولادها: محمود وعبد العزيز ومصطفى ونبيهة، سوية بينهم، لكل واحد منهم ستة أسباع قيراط، وبموت أختها عائشة انتقل نصيبها من ذلك ـ وهو السبع ـ لابنها محمد أمين، وبموت ابنها محمد أمين، عقيما، وليس له إخوة ولا أخوات مشاركون، انتقل نصيبه من ذلك ـ وهو السبع ـ إلى أقرب الطبقات إليه، وهو من معه فى طبقته الذين هم علي. بن حسن بن مصطفى، ومحمود وعبد العزيز ومصطفى ونبيهة، أولاد فاطمة الصغيرة، ومحمد حافظ ووالى حافظ وعلى حافظ ونبوية وفاطمة، أولاد زينب، وأحمد بن حسين، بالسوية بينهم، لكل واحد منهم سبعان اثنان من قيراط وجزآن اثنان من أحد عشر جزءا من سبع قيراط. وبموت مصطفى بن فاطمة الصغيرة، عقيما، انتقل ما آل له من أمه، المذكورة، وهو ستة أسباع قيراط، وما آل له من محمد أمين، وهو سبعان اثنان من قيراط وجزآن اثنان من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، لإخوته محمود وعبد العزيز ونبيهة، سوية بينهم، فيكمل لهم بذلك أربعة قراريط وأربعة أسباع قيراط وثمانية أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، ووالى حافظ بن زينب، انتقل ما آل له من محمد أمين ـ وهو سبعان اثنان من قيراط وجزآن اثنان من أحد عشر جزءاً من سبع قيراط ـ

لبنته عزيزة. وبموت نبيهة، بنت فاطمة الصغيرة، انتقل ما آل لهامن أمها وما آل لها من محمد أمين وما آل لها من أخيها مصطفى ـ وهو قيراط واحد وثلاثة أسباع قيراط وعشرة أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط ـ لأولادها أحمد مصطفى وفاطمة وأمينة وعزيزة، بالسوية بينهم. وبموت أحمد حسين، عقيما، وليس له إخوة ولا أخوات مشاركون، انتقل ما آل له عند نقض القسمة بموت حفيظة الدواخلية وهو ثلاثة قراريط وثلاثة أسباع قيراط ـ وما آل له من محمد أمين ـ وهو سبعان اثنان من قيراط وجزءان اثنان من أحد عشر جزءا من سبع قيراط ـ إلى أقرب الطبقات إليه، وهو من معه في طبقته الأصلية الذين هم محمد حافظ وعلى حافظ وفاطمة ونبوية، أولاد عمته زينب، ومحمود وعبد العزيز، ابنا فاطمة الصغيرة، وعلى بن حسن بن مصطفى الصاوى، باعتباره فى طبقته الأصلية، سوية بينهم، لكل واحد منهم ثلاثة أسباع قيراط وثمانية أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط وسبع جزء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط. وبموت نبوية بنت زينب انتقل ما آل لها من محمد أمين ـ وهو سبعان اثنان من قيراط وجزآن اثنان من أحد عشر جزءا من سبع قيراط ـ وما آل لها من أحمد بن حسين ـ وهو ثلاثة أسباع قيراط وثمانية أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط وسبع جزء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط ـ لأولادها أحمد وعائشة وزكية، بالسوية بينهم، لكل واحد منهم سبع قيراط وعشرة أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط وخمسة أسباع جزء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط. وبموت زينب انتقل ما آل لها عند نقض القسمة بموت حفيظة الدواخلية ـ وهو ثلاثة قراريط وثلاثة أسباع قيراط ـ لأولادها محمد حافظ وعلى حافظ، بالسوية بينهم.

إذا علم ذلك يعلم أن فاضل الريع المذكور قد انحصر الآن فى صلوحة وفاطمة الكبيرة، بنتى مصطفى الصاوى، وعلى بن حسن بن مصطفى الصاوى، ومحمود وعبد العزيز، ابنى فاطمة الصغيرة بنت مصطفى الصاوى وأحمد ومصطفى وفاطمة وأمينة وعزيزة، أولاد نبيهة بنت فاطمة الصغيرة بنت مصطفى الصاوى، ومحمد حافظ وعلى حافظ وفاطمة، أولاد زينب، وأحمد وزكية وعائشة، أولاد نبوية بنت زينب، وعزيزة بنت والى حافظ بن زينب.

ما هو لصلوحة وفاطمة الكبيرة ستة قراريط وستة أسباع قيراط، مناصفة بينهما.

وما هو لعلى بن حسن أربعة قراريط وسبع قيراط وعشرة أجزاء من سبع قيراط وسبع جزء من أحد عشر جزءاً من سبع قيراط . وما هو لمحمود وعبد العزيز أربعة قراريط وسبع قيراط وثلاثة أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط وسبعان اثنان من جزء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، مناصفة بينهما . وما هو لأحمد ومصطفى وأمينة وعزيزة، أولاد نبيهة، قيراط واحد وثلاثة أسباع قيراط وعشرة أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، بالسوية بينهم، وما هو لمحمد حافظ وعلى حافظ وفاطمة، أولاد زينب، خمسة قراريط وستة أسباع قيراط وثمانية أجزاء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط وثلاثة أسباع جزء من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، بالسوية بينهم. وما هو لعزيزة بنت والى حافظ بن زينب سبعان اثنان من قيراط وجزآن اثنان من أحد عشر جزءا من سبع قيراط، باقى فاضل الريع المذكور . والله أعلم .

هذا وقد جرينا في التقسيم على أن أولاد والى حافظ ونبوية، ولدى زينب، لم يقوموا مقام أصلهم عند وفاة جدتهم زينب، لأن الأصلين كانا قد استحقا شيئا من الوقف عمن مات عقيماً فى طبقتهما، والشرط أن ولد من مات قبل الاستحقاق يقوم مقامه إذا كان الموت قبل استحقاق شيء من الوقف. وظاهر الشرط أن استحقاق شيء ما، قل أو كثر، يمنع من قيام الفرع مقام الأصل الذى يموت بعد استحقاقه ذلك الشيء، ولا قرينة توجب غلبة الظن بتقييد الاستحقاق بكونه عن الأصل المستحق بالفعل. والله أعلم(٤٧١) .

٨٦ـ (السؤال)

سأل حضرة حمودة بيك عبده، في : واقف وقف أطيانه على أولاده، ثم من بعدهم على ذريتهم. وشرط النظر من بعد للأرشد فالأرشد من أولاده، وإن الناظر يبدأ بإصلاح الأطيان وتعمير وترميم الدوارين والطاحونة وغرس بدل الأشجار التالفة، ولو صرف فى ذلك جميع غلته، وإذا احتاج الحوش الذى بقرافة السيدة نفيسة للعمارة فيعمره. وشرط أن يصرف من ريع الوقف بعد وفاته مبلغ(٤٧٢) ٤٥٠ فى قراءة قرآن وثمن خوص وريحان وخبز يوزع على الفقراء فى أيام المواسم بالحوش المذكور .

ثم عقب وفاة الواقف لم يعين عليه ناظر، بل اجتمع المستحقون ووكلوا أحدهم في إدارة أعمال الوقف بمقتضى توكيل صدر منهم إليه. وبعد أن أدار الوكيل الأطيان مدة اثنتى عشرة سنة، تولى أحدهم النظر بمقتضى إعلام شرعى صدر له من القاضي الشرعي. ولما استلم هذا الناظر أوراق الوقف من الوكيل رأى أن للوقف مبلغا قدره[٤٧٣] ١٠٠٨٤ في ذمة حسين أفندى مصطفى المنشاوى، أحد المستحقين، الذى كان مستأجرا لأعيان الوقف ولم يطالبه به الوكيل فى سنة ١٩٠٠ قبطية. وقد تحصل هذا الوكيل على إقرار من أغلب المستحقين بتاريخ ٢٥ إبريل سنة ١٩٠١ بالتنازل عن المطالبة بهذا المبلغ، فهل هذا التنازل يمنع الناظر من المطالبة بمبلغ الدين المذكور للوقف؟ مع ملاحظة أن الوقف محتاج للعمارة، وقد قدرها الخبير بمبلغ ٢٠٠ ج تقريبا، وملاحظة أنه يوجد مبلغ ٤٥٠ جنيهًا للخيرات سنويًا ورأى الناظر أيضا في حساب الوكيل المقدم منه أنه قد خصم من ريع الوقف فى مدة وكالته مبلغ ٣٤ج وكسور قيمة عجز وشراقى[٤٧٤] في الأطيان من سنة ١٨٨٧ أفرنجية، ثم. تحقق أنه لم يحصل عجز ولا شراقى فى الأطيان، ويعتبر هذا المبلغ دينا في ذمة الوكيل للوقف، وتحصل الوكيل المذكور على تنازل عن ذلك المبلغ من المستحقين مؤرخ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨٩، فهل هذا التنازل يمنع الناظر من المطالبة بهذا المبلغ؟ مع احتياج الوقف للعمارة، وملاحظة المبلغ المخصص صرفه في الحوش المذكور؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

مقتضى شرط الواقف أن يبدأ من ريعه وقفه بإصلاحه وتعميره وترميمه، وأن يصرف منه ما عينه فى القراءة وغيرها من الخيرات. ومنه يعلم أن لا حق للمستحقين إلا بعد هذه العمارة وما شرط الصرف له من الخيرات، فمتى كان الاحتياج لذلك قائما حال التنازل لم يصح ذلك التنازل، وكان للناظر مطالبة المديون المستحق بذلك المبلغ. أما إذا كان الاحتياج المذكور قد حدث بعد التنازل، وثبت تاريخ التنازل بدليل صحيح، وكان مستوفيا شرائط صحة الإبراء، سرى على المتنازلين فى حق أنصبائهم، دون من لم يتنازل من باقى المستحقين، ويكون للناظر أن يطالب ذلك المديون بما يخص باقى المستحقين الذين لم يتنازلوا، كما أن له أن

يطالب الوكيل بالمبلغ الذى يقال إنه قيمة عجز وشراقى فى الأطيان، حيث تحقق أن ذلك لم يحصل، لأنه حينئذ يكون عليه دين للوقف، ولا يفيد التنازل عنه عند ذلك الاحتياج، وإلا سرى علىَ المتنازلين دون غيرهم، كما ذكر. والله أعلم[٤٧٥].

٨٧- (السؤال)

سئل[٤٧٦] بإفادة من مدير أوقاف خديوية مؤرخة فى ٢٦ مايو ١٩٠٢ نمرة ٢٠ مضمونها: أنه بعد أن جاءت من حضرتكم الفتوى للمصلحة بتاريخ ٢٦ محرم سنة ١٣١٩ نمرة ٣١٧ بانتقال نصيب أحمد مجد الدين، الذى مات عقيما، من مستحقى وقف المرحومة برنجى قادن، إلى من فى طبقته من أولاد أولاد العتقاء، للذكر مثل حظ الأنثيين، بناءً على أن الواقفة بنت القسمة فى وقفها على التفاضل بين الذكر والأنثى وبينت أن ذلك فى جميع الطبقات، بالصفة التى أشرتم إليها، ووزعت المصلحة نصيب هذا الميت على من آل إليهم، بالصفة المنصوص عنها فى تلك الفتوى، مات منهم المدعوة نفيسة بنت رجب أحمد ابن الست فلكسو عن والديها وجديها وأخيها، فتخابرت المصلحة مع مفتى ديوان الأوقاف بالاستفهام عمن تئول إليهم حصتها بعد الوفاة؟ وأعطيت منه الفتوى فى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٢ بأيلولة نصيبها لأخيها وأختيها، بالسوية بينهم، إذ لا نص فى شرط الإيقاف على التفاضل فى جانب الإخوة.. لآخر ما ذكر بالفتوى.

وحيث إن ما أفتى به جاء مغايرا لما قررتموه فى الفتوى السابقة عن اضطراد حكم تفاضل القسمة فى جميع الطبقات، فالمصلحة تعيد أخذ رأى حضرتكم فيما يجب العمل به مما يتنفذ معه الغرض المقصود من شرط الواقفة.

وعليه تحرر هذا. وطيه الأوراق عدد ٤ بأمل الإفادة بما يرى.

(الجواب)

صرحوا بأنه إذا وقف على أولاده، ثم على أولادهم، ثم وثم، على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الأنثيين، ثم شرط أن من مات عقيما فنصيبه لأهل درجته.

فإذا مات أحدهم عقيما، وفي درجته ذكور وإناث، يوزع نصيب المتوفى بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، وإن ترك الواقف التصريح بذلك، ولا يقسم على السوية، لأنه إنما يقسم بالسوية لو لم يشترط المفاضلة وهو قد اشترطها أولا فى قسمة ريع الوقف على أولاده وأولادهم، ومن جملة ذلك قسمة نصيب المتوفى عقيما على أهل درجته، فينسحب الشرط عليه وإن لم يصرح به فيه، لأن قوله: على أن . . الخ تفصيل لما أجمله أولا من قوله: على أولادى . . إلخ.

وقالوا: إن هذا كلام فى غاية الحسن، واستشهدوا له بشواهد قاطعة، كما فى (العقود).

والحادثة المسئول عنها لا تخرج عن هذا المعنى، لأن الواقفة بعد أن رتبت فى الموقوف عليهم من العتقاء وذراريهم بقولها: «طبقة بعد طبقة»، قالت: «للذكر مثل حظ الأنثيين»، ثم شرطت أن (من مات)[٤٧٧] عقيما منهم انتقل نصيبه من ذلك لعتقائه وذريتهم . . إلخ . . فمن يموت عقيما ولم يكن له عتقاء وله إخوة وأخوات يكون نصيبه لهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، كما شرطته (الواقفة. وعلى هذا تجرى قسمة)[٤٧٨] ريع الوقف لانسحاب الشرط عليه، وفهم القسمة على غير هذا الوجه، فى مثل هذا الموقف، خروج على الفقه والعربية والعرف.

وبذلك يعلم أن نصيب نفيسة، المتوفاة لا عن عقب ولا عتقاء، يكون لأخيها وأختيها، بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، كما يقتضيه شرط الواقفة، ويشهد به الفقه واللغة العربية والعرف. والله أعلم[٤٧٩]. وطيه الأوراق عدد ٤.

٨٨ـ (السؤال)

سأل الشيخ حسين على ضيف، من سوق السلاح، تبع قسم الدرب الأحمر، بمصر، فى: رجل وقف عقاره وعقار زوجته، بتوكيله عنها: على نفس زوجته، ثم على بنتها، ثم على أولادها، ثم على أولاد بنتها، إلى انقراضهم. يكون وقفا على كل من أولاده من غير زوجته المذكورة وعلى كل من أقارب زوجته، موكلته

المذكورة، الأقرب فالأقرب، ذكوراً وإناثاً، بالسوية بينهم، ثم على أولادهم، إلى حين انقراضهم. ثم على عتقاء أولاده وعتقاء أقارب زوجته، الأقرب فالأقرب، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم على أولادهم، إلى انقراضهم.

وشرط على أن من مات، قبل دخوله في الوقف، وترك ولدا أو ولد ولد قام مقام أبيه في الدرجة والاستحقاق، واستحق ما كان أصله يستحقه لو كان الأصل حيا باقيا، يتداولون ذلك إلى حين انقراضهم.

وكان للزوجة أبوان، وللزوج الواقف ولدان من غير زوجته المذكورة، ومات كل من أبوى الزوجة وابنى الزوج، قبل الدخول فى الوقف، وتركا أولادا، ذكورا وإناثا، ثم ماتت الزوجة الموقوف عليها عن بنت، ثم ماتت البنت عقيما، والموجود حين موتها أولاد ابنى الزوج الواقف، ذكورا وإناثا، وإخوة الزوجة، ذكورا وإناثا، أشقاء ولأب.

فما كيفية قسمة ريع الوقف على أولاد الابنين والإخوة والأخوات الأشقاء ولأب؟ وإذا كان الشقيق واحدا يختص بنصف الريع ولا يشاركه فيه الإخوة والأخوات لأب؟ عملا بقول الواقف: الأقرب فالأقرب؟ أو ما هو الحكم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

اعتبر الإمام فى الوصية للأقارب والوقف عليهم الأقرب فالأقرب، واعتبر فيهم المحرمية مع الرحم، وخالفه صاحباه فيهما واكتفيا فيهم بالرحم بلا محرمية، وسويا بين الأقرب والأبعد منهم، واتفقوا على أن لفظ الأقارب ونحوه يكون للاثنين فصاعدا، إلا إذا ذكر معه الأقرب فالأقرب، فإنه لا يعتبر الجميع، اتفاقا، لأن الأقرب اسم فرد يدخل فيه المحرم وغيره، لكن يقدم الأقرب لصريح الشرط.

والأقرب فى حادثتنا هو الأخ الشقيق، لأن الأقرب أفعل تفضيل، ومعناه الأقوى فى القرابة. ولا شك فى أن الأقوى قرابة هو الشقيق، فينفرد بالنصف، ولا ينافي ذلك ما ذكروه فى الفرائض من الفرق بين درجة القرابة وقوة القرابة، وأنه قد

يراد فى الأقرب ذو الدرجة القربى، كالأخ مع ابن الأخ مثلاً، لأن ذلك اصطلاح خاص لا ينظر إليه فيما مرجعه العرف والاستعمال العام، فالمراد بالأقرب هنا وفيما يماثل ما نحن فيه من هو أشد صلة بالموقوف عليه من سواه، وأشد الإخوة صلة به الأخ الشقيق قطعا، فهو وحده الذى يستحق مقاسمة أولاد الابنين. والله أعلم(٤٨٠).

٨٩ـ (السؤال)

سألت الست نور فير، ناظرة وقف المرحوم حسن بيك الجداوى، المقيمة بشارع الإسماعيلية، بالناصرية، بقسم السيدة زينب، فى: أمير وقف أماكن له بوقفيتين، إحدهما تاريخها ١٨ صفر سنة ١٢٠٢ والثانية فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٠٢ وجعل ريع كل منهما على نفسه أيام حياته، ثم من بعده على زوجته وأولاده وذريتهم، على الترتيب الذى عينه، فإذا انقرضوا كان وقفا على عتقاء الواقف وعتقاء زوجته وأولادهم وذريتهم. فإذا انقرضوا كان وقفا على عتقاء عتقاء الواقف وعتقاء عتقاء زوجته وأولادهم وذريتهم، الطبقة العليا تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، وبعدهم يكون على مسجد سيدنا الحسين، رضى الله عنه.

ثم وقف أماكن أخرى في وقفية ثالثة بعد مضى مدة، تاريخها ٢٨ شعبان سنة ١٢٠٥ على نفسه، ثم من بعده على مستولدته وذريته، ثم من بعدهم يكون الوقف لعتقاء الواقف وأولادهم وذريتهم، ثم من بعدهم لعتقاء عتقاء الواقف وعتقاء أولاده، ثم من بعدهم لأولاد عتقاء عتقاء الواقف وأولاد عتقاء ذريته، ثم على ذريتهم، وبعدهم على مسجد وضريح سيدى أحمد البدوى.

وقد انقرض الموقوف عليهم ما عدا اثنين: أحدهما: معتقة معتق الواقف، والثانية: معتقة معتقة زوجة الواقف، وهما المستحقان لريع الوقفين الأولين بالسوية بينهما. ولكن ديوان عموم الأوقاف كان واضع اليد على أعيان الوقف، رفعت دعوى من وكيلهما ضده بمحكمة مصر الكبرى الشرعية بناء على كتاب الوقف الأول المؤرخ ١٨ صفر سنة ١٣٠٢ لاشتماله استحقاق الاثنين المذكورين، وقد أصدرت المحكمة حكما شرعيا فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٦، باستحقاق

معتقة معتق الواقف نصف ريع فاضل الوقف، وباستحقاقها للنظر على كامل الوقف. وبناء على ذلك وضعت يدها على أماكن الثلاث وقفيات، ولوفاتها وابنتها فالناظرة، وهي الست نورفير تعطى إلى على أفندى فوزى ولد ابنة معتقة معتقة زوجة الواقف نصف ريع فاضل الوقفين الأولين. وبعد مضى مدة على ذلك، أراد على أفندى فوزى مشاركة الناظرة فى ريع الوقف الثالث السابق ذكره قياسا على الوقفين، مع أن الواقف لم يجعل فيه حقا لعتقاء عتقاء زوجته ولا لأولادهم، وهى تمنعه من ذلك، فهل لها حق فى المنع؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث قصر الواقف وقفه الثالث على من عينهم، ولم ينص على استحقاق الزوجة عتقائها ولا عتقاء عتقائها ولا ذرية عتقاء العتقاء، فلا مدخل حينئذ لعلى أفندى فوزى ابن بنت معتقة معتقة الزوجة فى هذا الوقف بالمرة، بل يختص به الموقوف عليهم على ما شرط. والله أعلم[٤٨١].

٩٠ـ (السؤال)

سئل[٤٨٢] بإفادة من سعادة مدير أوقاف خديوية مؤرخة فى ١٨ فبراير سنة ١٩٠٠ نمرة ٣ مضمونها: أن الست خديجة برنجى قادم وقفت ما تمتلك من الأطيان على نفسها مدة حياتها، ومن بعدها على كل من عنبر آغا ومحبوب آغا معتقى إبراهيم باشا، وعلى معاتيقها التى أوضحت أسماءهم بحجة الإيقاف، ولوفاة عنبر آغا عن أربعة عتقاء آل نصيبه إليهم، ولوفاة ثلاثة منهم أعطى نصيبهن إلى (حوش قدم)[٤٨٣] المعتقة الرابعة الموجودة على قيد الحياة الآن. وإن بعض[٤٨٤] المستحقين أوردوا فى عريضة قدموها للمصلحة بأن شرط الإيقاف يقضى بأيلولة نصيب الثلاثة المتوفين إلى العتقى الأصليين، لا للمعتقة الرابعة، كما تقرر بالفتوى المعطاة من الشيخ حسن الطرابلسى، مفتى الأوقاف سابقا، ورغبوا إحالة الفصل فى هذه المادة على فضيلتكم، وهاهى ذى الفتيا والعريضة مرسلتان[٤٨٥] مع هذا للاطلاع عليهما

والإفادة عن اليوم الذى يستحسن لنظر هذه المسألة لإبعاث[٤٨٦] حجة الإيقاف لنظرها وإعادتها مع الإفادة بما يرى. وقد بعثت الوقفية مع مندوب من طرف حضرته.

(الجواب)

هذا الوقف سبق الإفتاء منا بديوان الأوقاف بشأن بعض مستحقيه بعد طلب ذلك، وإرسال الأوراق المشتملة على ما ذكرته الواقفة بكتاب وقفها من أنها وقفت وقفها على نفسها أيام حياتها، ثم من بعدها على عنبر آغا ومحبوب آغا معتقى المرحوم إبراهيم باشا، وعلى عتقاها الموجودين حين صدور هذا الوقف منها الذين عينتهم، وعلى من سيحدثه الله لها من العتقى، ذكورا وإناثا، بالسوية بينهم، ثم من بعد كل منهم تكون حصته من ذلك وقفا على أولاده ثم على أولاد أولاده ثم على أولاد أولاد أولاده، للذكر مثل حظ الأنثيين، ثم على ذريته ونسله وعقبه، للذكر مثل حظ الأنثيين، طبقة بعد طبقة، العليا منهم تحجب السفلى من نفسها دون غيرها، على أن من مات منهم عن ولد أو ولد ولد أو أسفل انتقل نصيبه من ذلك لعتقاه وذريتهم، كما ذكر. فإن لم يكن له عتقى فلأخوته ولإخوانه المشاركين له فى الدرجة والاستحقاق. فإن لم يكن له إخوة ولا أخوات فلمن يوجد فى طبقته، فإن لم يكن له أحد فى طبقته فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف يتداولون ذلك إلى حين انقراضهم[٤٨٧]، فإذا انقرضوا يكون ذلك وقفا على عتقاهم ثم لذريتهم[٤٨٨] وذرية ذريتهم على الوجه المشروح. فإن لم يكن لهم عتقاء ولا لذريتهم، فلأقرب الطبقات للمتوفى من أهل هذا الوقف إلى آخر ما نصت عليه الواقفة. وحيث كان الحال ما ذكر، ينقل نصيب عنبر آغا الموقوف عليه مباشرة المذكور بعد موته عقيما لعتقاه، عملاً بقول الواقفة: فإن لم يكن له ولد إلى آخره ينقل نصيبه من ذلك لعتقاه. أما قولها، بعد ذلك: فإن لم يكن له عتقى إلى آخره، فهو استمرار فى الكلام على من مات من أولئك الموقوف عليهم المذكورين، وذراريهم[٤٨٩] لا يدخل فيه عتقاهم وذراريهم، وإلا لقالت: فإن لم يكن لهم عتقاء، وقد بينت حكمهم بعد انقراض الموقوف عليهم وذراريهم بقولها: فإذا

انقرضوا يكون ذلك وقفاً على عتقاهم، إلى آخره. وعلى ذلك فنصيب من يموت من عتقاء الموقوف عليه مباشرة كعتقاء عنبر آغا الثلاثة الذين ماتوا مسكوت عنهم لم تتعرض الواقفة فى كلامها قبل انقراض الموقوف عليهم وذراريهم لانتقاله لمن فى درجته. ومتى كان مسكوتا عنه يعود لأصل الغلة لا محالة ولا تنقل لطبقة من يموت خاصة، بل يضم إلى مجموع الريع ويوزع معه على جميع المستحقين بحسب أنصبائهم. والله أعلم(٤٩٠).

وطيه الفتيا والعريضة المذكورتان، وكذلك الوقفية التى اطلعنا عليها ووجدنا ما فيها مطابقا لما ذكر.

٩١ـ (السؤال)

سئل(٤٩١) بإفادة من عموم حسابات المالية، مؤرخة فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٠٠م نمرة ١٧٥ مضمونها: أنه بعد الاطلاع على الإعلام الشرعى الصادر من محكمة حلفا الشرعية بتاريخ غرة محرم سنة ١٣١٦ نمرة ٥ بتوكيل على حسين عن خليل بن عواض والمرأة أشادى بنت عمر فى قبض واستلام ما يخصهما فى تركة مورثهما عمر بن عواض، يفاد عما إذا كان مستوفيا الشرائط الشرعية؟ ويجوز صرف حقوقهما إليه بمقتضاه؟ أم لا؟.

(الجواب)

قد اطلعت على الإعلام المذكور، فوجدت أن ما فيه من التوكيل معتبر، وعليه فلا مانع من صرف حقوق الموكلين إلى الوكيل متى قبل الوكالة عنهما. وطيه: الإعلام(٤٩٢).

٩٢ـ (السؤال)

سأل الحاج يونس العدوى، ببولاق، فى: امرأة ماتت وتركت حليا، وورثتها: زوجها، وأولاد إخوتها الأشقاء الذكور. وقد أراد هؤلاء الأولاد أخذ نصف ما

تركته، بدعوى أنه ملك خالص لها، وزوجها يقول: إن هذا الحلى ملك له، وأنه أعطاه لها للتزين به، وليس بتركة عنها، ويريد منعهم من الميراث فيه بتلك الدعوى. وليس لأحد الطرفين بينة تشهد له بدعواه، فما الحكم الشرعى فى ذلك؟

(الجواب)

صرح علماؤنا بأنه إذا مات أحد الزوجين، ثم وقع الاختلاف بين الباقى وورثة الميت، فعلى قول أبى حنيفة ومحمد: ما يصلح للرجل فهو للرجل إن كان حيا، ولورثته إن كان ميتا. وما صلح للنساء فهو للمرأة، إن كانت حية، ولورثتها إن كانت ميتة. وبذلك يعلم أن هذا الحلى لورثة المرأة المذكورة، لأنه مما يصلح للنساء، والقول فى ذلك قولهم، ويحلفون على العلم بأن ذلك الحلى ليس ملكاً للزوج المذكور، وهذا حيث لا بينة عنده تثبت ملكيته لذلك، كما فى هذه الحادثة. والله أعلم(٤٩٣).

٩٣ـ (السؤال)

سأل الشيخ عبد الكريم جوده، خطيب مسجد الشيخ الجوهرى، بمصر، فى: رجل مات عن ابن وبنت، وترك لهما أرضا، بعضها فيه بناء، والبعض الآخر خال من البناء، ثم مات الابن عن أولاده القصر، ولم يكن عليهم وصى مختار ولا وصى من قبل القاضى. وللبنت المذكورة ابن بنى فى الأرض الخالية بناء فى حياة أمه، ثم ماتت أمه المذكورة، وبلغ الأولاد القصر رشدهم فقاسمهم ابن البنت فى الأرض المبنية قبل موت مورثهم وأخذ كل نصيبه، وأولاد الابن المذكورون لم يعلموا بأن من جملة المخلف عن جدهم، أب أبيهم، الجزء الذى بنى فيه ابن البنت المذكورة. وقد مضى على البناء الذى أحدثه ابن البنت نحو من اثنتين وعشرين سنة. فهل إذا علم أولاد الابن بعد بلوغهم بعشر سنين أن القطعة التى أحدث فيها ابن البنت البناء المذكور هى من جملة المخلف عن جدهم، أب أبيهم، يكون لهم أن يقاسموا ابن البنت بقدر نصيب أبيهم فى الأرض من غير أن يغرموا لابن البنت البانى شيئا مما كلف به البناء، ويكون متبرعا به، حيث لم يكن بإذن معتبر، ولم

يكن مضطرا فيه، والأرض التي بنى فيها قابلة للقسمة ويكون للقصر بعد بلوغهم رشدهم أن يحاسبوا ابن البنت على قيمة ما يخصهم فى أجرة الجهة التي بنى فيها البناء المذكور؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

متى ثبت أن قطعة الأرض التى بنى فيها ابن البنت المذكور مملوكة للجد، وأنه مات عن ابنه وبنته، وماتت بنته عن ابنها، وابنه عن أولاده القصر، وأن ابن البنت المذكور بنى فى تلك القطعة المشتركة بينه وبين أولاد خاله المذكورين، وثبت عذرهم وعدم تمكنهم من طلب حقهم فى القطعة المذكورة وطلب الأجرة بسبب قصورهم، ولا وصى لهم يطلب ذلك، كان لهم بعد بلوغهم رشدهم طلب نصيبهم فى القطعة المذكورة ورفع يد ابن عمتهم المذكور عنه، كما أن لهم طلب أجرته على حسب أجر المثل من وقت وضع يده عليه لحين بلوغهم رشدهم، لأن دار اليتيم كدار الوقف فى وجوب أجر المثل على الشريك. أما البناء، فإن لم يرض الأولاد المذكورون ببقائه فى الأرض، فتقسم القطعة جميعها بينهم وبين البانى، فإن وقع البناء فى نصيبه بقى له، وإن وقع فى نصيبهم فلهم طلب قلعه، ويقلع، فإن نقصت الأرض بذلك القلع ضمن البانى قيمة النقص. هذا ما اختاره كثير من العلماء. ولا يتوهم أن فى ذلك مع إلزامه بدفع الأجرة مدة القصور جمعا بين الأجر والضمان، والقاعدة ألا يجمع بينهما، لأن ذلك فى غير مال الوقف واليتيم، كما سبق، على أن هذا إنما يأتى فيما لو طلب الأولاد حقوقهم بمجرد بلوغهم، أما فيما لو مضى عليهم فى ذلك سنوات فلا يأتى هذا، لأن الأجر قد انقطع تلك المدة، فضمان النقص قد جاء على غير أجر، وإنما لزم الأجر أيام اليتم والقصور للاستعمال فى تلك المدة، وهو يوجب على الشريك أجر المثل إن كان المستعمل مال اليتيم، كما بينا. والله أعلم(٤٩٤).

٩٤ـ (السؤال)

سأل محمود حسن أبو المكارم، من صندفا، بمركز بنى مزار، فى: امرأة ماتت عن تسعة إخوة لأب، ذكورا وإناثا، منهم سبعة من أم واثنان من أم أخرى، ثم مات

رجل من السبعة عن بنتيه وأمه وإخوته الأشقاء، ذكورا وإناثا، وغير الأشقاء، وهو أخ وأخت، وهما شقيقان لبعضهما. ثم ماتت والدة السبعة بعد وفاة أحدهم المذكور عن أولادها الستة، ذكورا وإناثا. ثم ماتت امرأة من الأم الأخرى عن ابنها وأخيها الشقيق وإخوتها غير الأشقاء، ذكورا وإناثا. فمن يرث ومن لا يرث؟ وما نصيب كل وارث؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت المرأة المذكورة عن إخوتها لأبيها، الذكور والإناث، المذكورين، تقسم تركتها بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين. ثم بموت رجل من السبعة الأشقاء المذكورين عن بنتيه وأمه وإخوته الستة الأشقاء والاثنين غير الأشقاء، يكون لأمه من تركته السدس فرضا، ولبنتيه الثلثان كذلك، والباقي لإخوته الأشقاء، للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا شيء لأخويه غير الأشقاء. ثم بموت أم السبعة الأشقاء المذكورين، بعد موت أحدهم، عن أولادها الستة الذكور والإناث تقسم تركتها بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين. ثم بموت المرأة، التى هى من الأم الأخرى، عن ابنها وأخيها الشقيق تكون تركتها لابنها، ولا شيء لأخيها الشقيق ولا لإخوتها لأبيها، لحجب الكل بابنها المذكور. والله أعلم(٤٩٥).

٩٥ـ (السؤال)

سأل سلامة عطا سعد، من كفر حسن سعد، قليوبية، فى: رجل مات عن والدته وزوجته وبنته منها القاصرة التى عمرها سنة تقريبا، وبنتين من غيرها، وأخوين شقيقين. وقد صالحت الزوجة أم البنت القاصرة أم الميت مع الأخوين الشقيقين على أن تأخذ أم البنت من تركته ستة أفدنة لها وبنتها القاصرة المذكورة، والحال أن الزوجة أم البنت لم تكن وصية على بنتها. فهل وقع الصلح صحيحا عنها وعن بنتها القاصرة المذكورة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الصلح الصادر من هذه الزوجة فى حق بنتها القاصرة المذكورة لا ينفذ، حيث لم تكن وصية عليها. فإن كان لها وصى أو ولى يجيز ذلك كان هذا الصلح موقوفا على إجازتهن فإن أجازه نفذ، وإن رده بطل. ومع صدوره من تلك الزوجة، وعدم وجود من يملك الإجازة يكون ما خص هذه القاصرة بالفرض الشرعى من تركة أبيها المتوفى باقيا لها على حاله، لا يسرى عليه ذلك الصلح، لبطلانه، كما يستفاد من كلام علمائنا. والله سبحانه وتعالى أعلم(٤٩٦).

٩٦ـ (السؤال)

سأل حسن أحمد عشرى، فى: رجل مات عن زوجته: خضرة، وأمه: فاطمة، وأولاده لصلبه: على ومحمد وأمارة، ثم توفيت أمه فاطمة عن ولديها: عمر وأحمد، ثم توفى عمر عن شقيقه أحمد، ثم توفى أحمد عن زوجته زينب وأولاده حسن ويوسف وشلباية. وتركة المتوفى الأول باقية إلى الآن بدون قسم. فما هو نصيب كل وارث؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت الرجل المذكور عن ورثته المذكورين يكون لزوجته من تركته الثمن فرضا، ولأمه السدس كذلك، ولأولاده الباقى، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين. ثم بموت أمه فاطمة المذكورة عن ابنيها عمر وأحمد المذكورين تكون تركتها لهما سوية، تعصيبا، ثم بموت عمر عن شقيقه أحمد تكون تركته له خاصة. ثم بموت أحمد عن ورثته المذكورين يكون لزوجته من تركته الثمن، فرضا، والباقى لأولاده، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين، والله أعلم(٤٩٧).

٩٧ـ (السؤال)

سأل عبد العزيز أفندى عزت، فى: امرأة ماتت عن زوج وأختين شقيقتين، وتركت منقولات، فما يخص كلا منهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

للزوج المذكور النصف، عائلاً، عشرة قراريط وسبعان اثنان من قيراط من التركة المذكورة، وللشقيقتين المذكورتين الثلثان، عائلا، مناصفة بينهما، ثلاثة عشر قيراطاً وخمسة اسباع قيراط، باقى تلك التركة، والله أعلم(٤٩٨).

٩٨ـ (السؤال)

سأل عرفات سرحان، من نهطاى، بمركز زفتى، فى: رجل يدعى محمد متولى سرحان، غائب عن وطنه غيبة منقطعة بالأقطار السودانية، ولا يدرى مكانه ولا حياته ولا موته من مدة ثمانى عشرة سنة. وله ممتلكات خصوصية، وأخرى تركت له عن أخيه لأمه عبد الرحمن موسى خفاجى المتوفى عن ورثته الشرعيين، وهم: محمد متولى سرحان، الغائب المذكور، وعرفات، وأبو الليل، إخوة المتوفى لأم فقط. ولم يكن له ورثة غيرهم خلاف والدتهم، التى هى أم المتوفى، وأخت شقيقة. وعرفات، أخو الغائب، هو أرشد إخوته والوكيل على أملاكه والمنوط بحفظ تركته بمقتضى توكيل بيده من مجلس حسبى مركز زفتى، وهو واضع اليد على أملاك الغائب المذكور الخصوصية بأمر المجلس المذكور. وأما ما يستحقه الغائب مع باقى إخوته لأم والدته وأخته الشقيقة فيما ترك لهم عن مورثهم عبد الرحمن موسى المذكور، فإنه تحت يد إخوته لأبيه الغير الوارثين له، ولا يمكن الورثة الحصول على حقوقهم وحقوق الغائب إلا بواسطة المحاكم الأهلية. وقد رفعت الدعوى ضده منهم، فهل للقاضى الحق فى نزع ما يخص الغائب تحت يد واضعى اليد على حقوق جميع الورثة ويسلم للقيم هو وما ينتج منه إلى أن يظهر موته أو حياته، ما دام أنه قد ظهرت خيانة واضعى اليد المذكورين باستيلائهم على حقوق الأحياء أيضا وتعنتهم فى تسليمها لهم حتى أدى الأمر إلى المخاصمة؟.. أفيدوا الجواب.

(الجواب)

تركة الميت عبد الرحمن موسى، المذكور: تأخذ أخته الشقيقة منها النصف، اثنا عشر قيراطا، وتأخذ أمه السدس، أربعة قراريط، وإخوته لأمه يأخذون الثلاث،

ثمانية قراريط . كل ذلك على سبيل الفرض، ولا شيء للإخوة للأب، لاستغراق الفروض التركة، وهم إنما يستحقون بالتعصيب فيما يبقى بعد الفروض، وهنا لم يبق بعد الفروض شيء، فهم أجانب بالنسبة لهذه التركة ولا حق لهم في أن يضعوا أيديهم على شيء من أنصباء الورثة. وحيث ظهرت خيانتهم باستيلائهم على أنصباء الورثة الحاضرين مع نصيب الغائب، فللقاضي الحق في نزع جميع ما تحت أيديهم من التركة، ويتسلم كل ما يستحقه، وتسليم نصيب الغائب إلى القيم المنصوب من قبل المجلس الحسبي ليحفظه وديعة إلى أن يظهر حال الغائب، والله أعلم(٤٩٩).

٩٩ـ (السؤال)

سأل عبد الوهاب أفندي زكي، باشمهندس مديرية البحيرة، في: بنت ماتت عن عمتها وبنت أختها شقيقتها وخالها وأولاد عمها، أخ أبيها لأم، أربعة إناث وذكر، وخلفت تركة. فمن الوارث؟ وما نصيبه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث ماتت البنت المذكورة عمن ذكر لا غير، فتكون تركتها كلها لبنت أختها الشقيقة المذكورة، ولا شيء منها لعمتها وخالها وأولاد عمها، أخ أبيها لأم، المذكورين لأن بنت الأخت من الصف الثالث من ذوي الأرحام، والعمة والخال وأولاد العم، أخ الأب لأم، من الصف الرابع منهم، والصف الثالث مقدم في الميراث على الصف الرابع بجميع أقسامه على ما عليه الفتوى، كما نصوا عليه. والله أعلم(٥٠٠).

١٠٠ـ (السؤال)

سأل رضوان يوسف، من ديروط أم نخلة، بمديرية أسيوط، في: رجل اشترى أمة وتسرى بها، وخلف منها ولدين، ثم مات عنها وعنهما وعن أولاد من غيرها،

وترك تركة، فادعى أحد الولدين أنها تستحق إرث زوجة من هذه التركة، فهل تستحق ذلك؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لا شيء من هذه التركة لأم الولد المذكورة التى لم ينجز سيدها عتقها حال حياته، وعتقت بموته، حيث لم تكن زوجة بعقد النكاح، بل تكون هذه التركة ميراثا لأولاده المذكورين كل منهم بقدر نصيبه الشرعى، حيث لا وارث له سواهم. والله أعلم[٥٠١].

١٠١ـ (السؤال)

سأل فرجانى عبد القادر بركات، فى رجل مات عن زوجاته الثلاثة وسبعة أولاد ذكور وثلاث بنات، وترك ما يورث عنه شرعاً، فما هو نصيب كل منهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لهؤلاء الزوجات الثلاث الثمن فرضا، ثلاثة قراريط، سوية بينهن أثلاثاً، وللأولاد العشرة المذكورين واحد وعشرون قيراطا بالفريضة الشرعية بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، فيكون لكل ابن من الأبناء السبعة قيراطان اثنان وأربعة أجزاء من أحد عشر جزءا من قيراط، .ولكل بنت من البنات الثلاث قيراط واحد وجزء من أحد عشر جزءا من قيراط. والله أعلم[٥٠٢].

١٠٢ـ (السؤال)

رفع سؤال من محمد أحمد سعد، من الشام، لحضرة الشيخ محمد صالح،

مفتي الشام صورته :

ما قولكم فيما إذا مات زيد عن بنته منيرة، وعن ابنى أخيه العصبى هما : محمد وحسين، وخلف تركة معلومة من الذهب، فصالحت البنت ابنى الأخ المذكورين على طريق التخارج من التركة المذكورة على مبلغ معلوم من النقود الذهب هو أقل من نصيبها فيها، فهل يكون الصلح المذكور غير جائز، حيث كان الحال ما ذكر؟؟

وأجاب عليه حضرة المفتي المذكور بقوله : الحمد لله وحده. نعم يكون الصلح المذكور غير جائز، حيث كان الحال ما ذكر، كما فى (فتاوى الأنقروى) و (تنقيح الفتاوى الحامدية). والله سبحانه وتعالى أعلم.

(الجواب)

جواب مفتي الشام على السؤال صحيح، منطبق على الحكم الشرعى.

١٠٢ ـ (السؤال)

سأل متولى عطية فى : امرأة ماتت عن زوجها، الذى عقد عليها ولم يدخل بها، وعن أمها وأختها شقيقتها، وأختيها لأبيها، وأختها لأمها، فهل جميعهم يرثون؟ وما نصيب كل منهم؟.. أفيدوا الجواب.

(الجواب)

يخص الزوج مما تركته زوجته المتوفاة المذكورة النصف، فرضا عائلا، ثمانية قراريط، ويخص الأخت الشقيقة كذلك النصف، فرضا عائلا، ثمانية قراريط، ويخص الأختين لأب السدس، فرضا عائلا، تكملة الثلثين، قيراطان اثنان وثلثان اثنان من قيراط، ويخص الأخت لأم السدس فرضا عائلا، قيراطان اثنان وثلثان اثنان من قيراط، ويخص الأم السدس فرضا عائلا، قيراطان اثنان وثلثان من

قيراط، باقى الأربعة والعشرين قيراطاً. والله أعلم[٥٠٣].

١٠٤ـ (السؤال)

سئل[٥٠٤] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٩ شعبان سنة ١٣١٩ نمرة ١٢ مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة المالية نمرة ٢٥٩.[٥٠٥] المطلوب بها النظر فى الإعلام الشرعى الصادر من محكمة رنيسكى التابعة لولاية قونية بوفاة علانية لى رمضان آغا خليل، المرتب له معاش شهريا ٢ ج كان محولاً صرفه له من محافظة دمياط، وانحصار إرثه فى أشخاص مخصوصة لم تكن فيهم زوجته، تفاد الحقانية عما طلبته المالية.

وطيه سبع ورقات بما فيها الإعلام وترجمته.

(الجواب)

بالاطلاع على ترجمة الإعلام المذكور ظهر منها أن دعوى المدعية تضمنت انحصار ميراث تركة المتوفى فيها، بصفتها أخته لأبويه، وفى ابنى أخيه، وفى زوجته، وأنه لم يكن أحد يستحق هذا الميراث خلافهم. وظهر منها أيضا أن شهادة الشاهدين تضمنت التزكية، ولم يوجد بالشهادة ما يدل على وجود زوجة للمتوفى، فلم يشملها ذلك الحكم. وعلى هذا، يمكن الأخذ بذلك الإعلام بعد صرف النظر عما فى شكله فيما عدا الزوجة. أما الزوجة، فإن ثبت أنها زوجته بطريق شرعى استحقت ميراث زوجة فى تركة زوجها، وإن لم يثبت شاركت المدعية فى نصيبها، مع مراعاة أن النسبة بينه وبين أنصباء الباقين مؤاخذة لها بإقرارها فى دعواها بزوجيتها. والله أعلم.

طيه سبع ورقات[٥٠٦].

١٠٥ـ (السؤال)

إلحاقا بما هو مقيد بهذه المضبطة[٥٠٧] بتاريخ ٢٤ صفر سنة ٣١٩ نمرة ٣٣٦ فتاوى صحيفة ١٣٧: وردت إفادة من إدارة عموم الحسابات المصرية مؤرخة فى أول

ديسمبر سنة ١٩٠١ نمرة ٥١٣١ مضمونها: أن الشيخ محمد محمود، وكيل ورثة المرحوم حامد أفندي زكي، حضر اليوم للمالية، وقدم لها حكما من محكمة مركز الزقازيق الشرعية مؤرخا في ٥ نوفمبر سنة ١٩٠١ بوفاة شقيقه مورثه وانحصار إرثه في ورثته، فبعد اطلاع فضيلتكم عليه ووجودها مستوفيا الشرائط الشرعية يعاد مع الأوراق، والعدد خمسة، لإجراء اللازم في صرف المبلغ المستحق للورثة.

(الجواب)

بالاطلاع على صورة الحكم الصادر من محكمة مركز الزقازيق الشرعية المحررة في ٥ نوفمبر سنة ١٩٠١ بوفاة المرحوم حامد أفندي زكي عن والدته وإخوته أشقائه، وانحصار إرثه فيهم على الوجه المسطور بتلك الصورة، وجد هذا الحكم كافيا في ثبوت الوفاة والوراثة. ويسوغ للشيخ محمد محمود جبر، أحد الأشقاء، والوكيل عن البُلّغ، والوصي على القاصرين أخذ المبلغ المعلى أمانات باسم ذلك المورث لنفسه وموكليه ومحجوريه القاصرين. وطيه الأوراق عدد ٥[٥٠٨].

١٠٦ ـ (السؤال)

سأل عبد الحميد أفندي فهمي، بدائرة الأميرة زينب هانم، في: رجل مات عن زوجته وابنه وبنتيه. ثم ماتت إحدى البنتين عن زوجها وأمها وأبنيها. ثم مات أحد الابنين عن جدته لأمه وأخيه وأبيه. ثم ماتت الجدة عن أمها وابنها وبنتها وزوجها. فما نصيب كل واحد؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت هذا الرجل عن زوجته وابنه وبنتيه، تقسم تركته بينهم على فرائض الله تعالى: لزوجته الثمن، فرضا، ولابنه وبنتيه الباقي، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين. وبموت واحدة البنتين عن زوجها وأمها وابنيها، يخص زوجها في تركتها

الربع، فرضا، ويخص أمها السدس، كذلك، يخص ابنيها الباقى تعصيبا، مناصفة بينهما. وبموت أحد هذين الابنين عن: جدته، أم أمه، وأبيه وأخيه، يكون لجدته المذكورة في تركته السدس، فرضا، وباقيها لأبيه، تعصيبا، ولا شيء لأخيه، لحجبه بالأب. وبموت تلك الجدة عن: أمها وزوجها وابنها وبنتها يكون لأمها فى تركتها السدس، فرضا، ولزوجها الربع، كذلك، والباقى لابنها وبنتها، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين. والله سبحانه وتعالى أعلم[٥٠٩].

١٠٧ ـ (السؤال)

سأل محمد أفندى شكرى، من أرباب المعاشات، بالعباسية، فى: غلام مات عن أم وأخ لأم وأخ شقيق وأخوين لأب، فمن يرث منهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الذى يرث هذا الغلام المتوفى: أمه وأخوه لأمه وأخوه شقيقه. للأم السدس، فرضا وللأخ للأم السدس، كذلك، والباقى، تعصيبا، للأخ الشقيق. أما أخواه لأبيه فلا يرثان لحجبهما بالأخ الشقيق. والله أعلم[٥١٠].

١٠٨ ـ (السؤال)

سئل[٥١١] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٨ شوال سنة ١٣١٩ نمرة ٢ مضمونها: أن النائب العمومى خاطبها فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠١ نمرة ٣٥١٥ بفحص ثلاثة إعلامات أرسلها مع خطابه، وإبداء الرأى فيما إذا كان يمكن التعويل عليها قانونا، ولا يترتب عليها فيما بعد نزاع نظرا لكونها محررة على شكل دعوى غير حقيقية بعد شهادة شهود. وإن هذا الرأى لازم لقلم كتاب محكمة مصر المختلطة ليتسنى له معرفة ما إذا كانت هذه الإعلامات كافية، بحيث يمكنه بمقتضاها أن يصرف إلى ورثة السيد رضوان الحفناوى، بناء على طلبهم، مبلغ ١٧٦١ ج و١٥١ مليما قيمة تحويل على مدين بما خصهم حسب درجة دينهم فى توزيع ثمن

ناتج من بيع ملك له . ورغبت النظارة الاطلاع على تلك الإعلامات وإفادتها بما يرى بالنسبة لما يطلبه قلم الكتاب المذكور .

(الجواب)

بالاطلاع على الأوراق المرسلة مع رقيم سعادتكم المؤرخ ٨ شوال سنة ١٣١٩ نمرة ٢ ، تبين من صورة الإعلام الشرعى المحرر من محكمة مصر الكبرى الشرعية فى ١٩ صفر سنة ١٣٠٩ صدور الحكم للسيد محمد أفندى الحفناوى ، ابن السيد حسن ، بوكالته عن زنوبة بنت يوسف أفندى ابن عبد الرحيم ، ومحمد أفندى الحفناوى ، ونفوسة وزنوبة ، أولاد السيد رضوان الحفناوى ، الوكالة العامة . والحكم بوفاة السيد رضوان الحفناوى ، المذكور ، عن : أمه زنوبة ، المذكورة وزوجته عديلة بنت أحمد بيك فؤاد ، وأولاده الستة : حسن وعزيزة ومنيرة ، القصر ، ومحمد أفندى الحفناوى ونفوسة وزنوبة ، البلغ ، وبوراثتهم له ، وانحصار إرثهم فيه ، على الوجه المسطور بذلك الإعلام .

وظهر من صورة الإعلام الشرعى المحرر من هذه المحكمة فى ٩ جمادى الأولى سنة ١٣١٢ أنه حكم للسيد أحمد الحفناوى ، ابن السيد حسن ، بوكالته عن أخويه محمد أفندى الحفناوى والست بنبا ، ولدى السيد حسن الحفناوى ، فيما نص عليه هذان الموكلان ، وأنه حكم له ولموكليه بوفاة أمهم زنوبة بنت يوسف آغا ، ابن عبد الرحيم ، عنهم وبوراثتهم لها ، وانحصار إرثها فيهم على وجه ماذكر بالإعلام المذكور .

وعلم من الإعلام الشرعى المحرر من المحكمة المذكورة فى ٢٨ صفر سنة ١٣١٩ أن السيد أحمد الحفناوى ، الوصى الشرعى على القصر أولاد المرحوم محمد أفندى الحفناوى بمقتضى إعلام شرعى محرر من هذه المحكمة فى ١٢ رجب سنة ١٣١٧ حضر وذكر أن أخاه شقيقه محمد أفندى الحفناوى ، ابن السيد حسن ، توفى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٩ ، وهو متوطن بمصر ، عن ورثته الشرعيين ، وهم : زوجته الست نظلة وأولاده الستة : أحمد ومحمد وحسن وزينب ونفيسة ، القصر ، المشمولات بوصايته بمقتضى الإعلام المذكور ، والست فاطمة البالغة ، من غير شريك بشهادة الشهود . ولم يحكم بوفاته وانحصار إرثه فى هؤلاء الورثة .

وعلى ذلك، فالإعلامان المذكوران أولاً وثانياً كافيان، بالنظر لما تضمناه من الأحكام فى ثبوت وفاة السيد رضوان الحفناوى عن أمه زنوبة وزوجته عديلة وأولاده الستة، ووفاة زنوبة الأم عن أولادها السيد أحمد الحفناوى ومحمد أفندى الحفناوى والست بنبا، وانحصار إرثها فيهم، ووكالة السيد أحمد الحفناوى عن شقيقته بنبا.

أما وفاة شقيقه محمد أفندى الحفناوى، الذى كان وكيلاً عن أمه زنوبة وعن أولاد السيد رضوان الحفناوى البلغ، فلا يكفى فى ثبوتها مجرد حضوره بالمحكمة وذكره أن شقيقه المذكور مات عن ورثته الذين ذكرهم، بل لابد من حكم شرعى بوفاته عن ورثته وانحصار إرثه فيهم.

وبعد ذلك، وظهور أن أولاد السيد رضوان الحفناوى، الذين كانوا قاصرين وقت تحرير الإعلام الأول، صاروا الآن بالغين رشيدين أو وجود وصى عليهم، إن كانوا قاصرين إلى الآن، وتحقق أن السيد أحمد الحفناوى ما زال وصيا على أولاد أخيه محمد أفندى الحفناوى بمقتضى الإعلام الشرعى المحرر فى ١٢ رجب المذكور، يسوغ صرف ما يخص الورثة البلغ فى هذا المبلغ لهم أو لوكلائهم وصرف ما يخص القاصرين لأوصيائهم حيث كان ذلك حقا لهم، ولا مانع. والله أعلم.

وطيه الصورتان والإعلام والترقيم. أفندم[٥١٢].

١٠٩ ـ (السؤال)

سأل حسنين بدوى الحباك، بمصر بقسم الجمالية، فى: امرأة ماتت عن ولدى أخيها شقيقها، ذكر وأنثى، وتركت تركة، فهل تكون التركة جميعها لابن أخيها الذكر دون الأنثى، حيث لا وارث لها[٥١٣] سواهما؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من المقرر شرعاً أن ابن الأخ للأبوين أو لأب عاصب بنفسه، وأن بنت الأخ لأبوين أو لأب من ذوى الأرحام، وأن توريث العاصب مقدم على توريث ذوى

الأرحام. وعلى ذلك يختص بجميع تركة المرأة المذكورة ابن أخيها المذكور دون بنت أخيها المذكورة. والله أعلم[٥١٤].

١١٠ ـ (السؤال)

سئل[٥١٥] بإفادة من نظارة الحقانية، مؤرخة فى ٣ ذى القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٤ مضمونها: أنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة قسم قضايا الداخلية رقيمة ٤ يناير الماضى نمرة ٢١ والأوراق المرفقة بها التي من ضمنها إعلام شرعى صادر من ولاية بيروت بثبوت وراثة محمد دمر وأخيه محمود للحرمة بهية الشامية التى بعد أن ادعت حرمة تسمى طرفة بنت إسماعيل حقى وراثتها لها دون سواها رجعت عن ذلك مصادقة لمن ثبتت وراثتهما لهذه المتوفاة، وحصلت المطاعنة بعد فى أمر وراثتهما لها ممن يدعى إبراهيم سلامة، تفاد الحقانية بما يرى فى هذا الإعلام، مع ما توضح بتلك المكاتبة. وطيه الأوراق عدد ٩.

(الجواب)

قد اطلعت على هذا الرقيم وعلى ما معه من الأوراق، فرأيت أن الإعلام الشرعي الصادر من مدينة بيروت بالحكم بثبوت انحصار إرث بهية الشامية فى شقيقيها محمد دمر ومحمود يمكن الأخذ به بعد صرف النظر عما فى شكله فى اعتبار ذلك الحكم. وكذلك الإعلام الصادر من محكمة مديرية الغربية فى شأن ذلك التوريث، وإن كان عاريا عن الحكم ذلك، إلا أنه يمكن الأخذ به بالنظر لما ذكر فيه من التصديق على ذلك من الحرمة طرفة بنت إسماعيل حقى التى كانت أنهت بأنها بنت أخت المتوفاة. على أنه لو ثبت أنها بنت أختها، كما أنهت، فلا حظ لها فى الميراث، لأنها من ذوى الأرحام، وهم لا يرثون مع ذى سهم ولا عصبة. والشقيقان المذكوران عصابان بأنفسهما، فلا ميراث لها معهما، بل هما اللذان يحوزان جميع التركة لانفرادهما وعدم وجود وارث سواهما. أما مجرد الطعن فى ذلك من إبراهيم سلامة، المذكور، على الوجه المسطور بالأوراق، فلا يعتد به شرعا، والله أعلم[٥١٦].

وطيه الأوراق عدد ٩ .

١١١ ـ (السؤال)

سأل طه علي النجار، بجهة الإمام الشافعي، بمصر، في : رجل مات عن زوجته وولدي أخته شقيقته، ذكر وأنثى، فما يخص كلا منهم؟

(الجواب)

من المقرر شرعا أن ذوى الأرحام يأخذون ما بقي بعد فرض أحد الزوجين، لعدم الرد عليهما، فتأخذ الزوجة من هذه التركة الربع، فرضا، ستة قراريط، والباقي بعد فرضها، وهو النصف والربع، يأخذه ولدا الأخت الشقيقة اللذان هما من ذوى الأرحام، للذكر مثل حظ الأنثيين، لعدم الرد على الزوجة. والله أعلم[٥١٧] .

١١٢ ـ (السؤال)

سأل أحمد محمد القلعاوى الفقى، في : رجل مات عن زوجته وبنته وابنى ابن عمه الشقيق وبنتي عمين، فمن يرث منهم؟

(الجواب)

ترث الزوجة الثمن، فرضا، ثلاثة قراريط، وترث البنت النصف، فرضا، اثنى عشر قيراطا. ويرث الباقي، تعصيبا، ابنا ابن العم الشقيق مناصفة بينهما، ولا شيء لبنتي العمين لأنهما من ذوى الأرحام. والله أعلم[٥١٨] .

١١٣ ـ (السؤال)

سئل[٥١٩] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة في ١٠ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٥

تتضمن أن قسم قضايا الداخلية بعث لها مكاتبة بخصوص استعلام إدارة عموم الحسابات منه عما يراه في تركة الست حسن قمر هانم الجركسية، نظراً لكون ظرافات السودانية أبرزت تنازلا من المتوفاة، حال حياتها، عن متروكاتها إليها وإلى شخص آخر مسجلا بالمحكمة المختلطة. وقد أورى القسم أنه، قانونا، لا يجوز للموروث التصرف بطريق التنازل أو الإيهاب إلا عن ثلث ماله فقط، والمتنازلة توفيت عن غير وارث، ومثلها تئول ممتلكاته للحكومة. ولعدم علم القسم بأن كانت الحكومة يحق لها الطعن فى ذلك التنازل أم لا، رام الاستفتاء عن ذلك شرعا، وعليه لزم ترقيمه ـ والأوراق طيه عدد ٧ ـ بأمل الإفادة عن الحكم الشرعى فى ذلك لمخابرة القسم كطلبه.

(الجواب)

اطلعت على رقيم سعادتكم المؤرخ فى ١٠ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٥ وعلى ما معه من الأوراق، فظهر لى أن التنازل الذى صدر من الست حسن قمر هانم، على الوجه المسطور بالإشهاد المحرر منها بالأوراق، من قبيل الوصية، لتصريحها فى هذا الإشهاد بأن تنازلها عما عينته من الأصناف وما بقى بعده إنما هو بعد وفاتها. والوصية على هذا الوجه صحيحة، وإن كانت بصيغة التنازل حيث لا وارث. فقد صرح علماؤنا بصحة الوصية بكل المال عند عدم الورثة، لعدم المزاحم. وبذلك يملك المتنازل لهما ما تنازلت عنه الست المذكورة بعد وفاتها دون غيرهما، متى تحقق عدم الوارث، وأنها ماتت مصرة على ذلك. والله أعلم(٥٢٠). وطيه الأوراق عدد ٨.

١١٤ ـ (السؤال)

سئل(٥٢١) بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة في ١٥ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٦ مضمونها: أن جناب النائب العمومى لدى المحاكم المختلطة بلغ الحقانية بالمكاتبة نمرة ٢٣٦ ـ فرنساوية العبارة ـ طلب جناب باشكاتب محكمة مصر المختلطة معرفة ما إذا كان الإعلام الشرعى الصادر بثبوت وفاة صبره إسماعيل ووراثة الست فاطمة

وزيد إسماعيل له يعتمد عليه أم لا؟ وعليه، ها هو ذا الإعلام والمكاتبة مرسلان طيه لإفادة الحقانية عما طلب الباشكاتب المومأ إليه.

(الجواب)

بناءً على رقيم سعادتكم المؤرخ فى ١٥ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٦، قد اطلعت على الإعلام الشرعى المحرر من محكمة أم درمان فى ٢٢ الحجة سنة ١٣١٦ فرأيته محكوما فيه بوفاة صبره بن إسماعيل، عن زوجته فاطمة بنت النوربيك وابنه محمود، المرزوق له من أم ولده عطا منه وانحصار إرثه فيهما بدون مشارك لهما فى ذلك، ووفاة محمود، الابن المذكور، عن عمه زيد، شقيق والده المذكور، وانحصار إرثه فيه بدون مشارك له في ذلك، وبأن يسلم المدعى عليه للمدعى ما أقر به من مثل الدين الذى اقترضه من المتوفى الأول. ووجدت هذا الحكم صحيحا مستوفى الشرائط اللازمة، فيعتمد عليه بالنظر لما ذكر. والله أعلم[٥٢٢].

طيه الأوراق عدد ٣.

١١٥ ـ (السؤال)

سأل الشيخ عبد الله رشدى، فى: رجل مات عن زوجته وبنته وأخ شقيق وأخ وأخت من أب وأختين من أم، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

ترث هذه الزوجة الثمن، فرضاً، ثلاثة قراريط، وترث البنت المذكورة النصف، فرضا، اثنى عشر قيراطا، ويرث الأخ الشقيق الباقى، وهو الربع والثمن، تسعة قراريط، تعصيبا. ولا شىء للأخوين لأب، لحجبهما بالأخ الشقيق، كما أنه لا شىء للأختين لأم، لحجبهما بالفرع الوارث وهو البنت. والله أعلم[٥٢٣].

١١٦ ـ (السؤال)

سأل إسماعيل أفندى حافظ، صاحب مطبعة الموسوعات، فى: رجل توفى عن زوجته وبنتيه وأخت شقيقة وأخ لأم وأولاد أختين لأب، فمن الوارث منهم؟ وما

مقدار نصيبه؟

(الجواب)

ترث زوجة هذا الرجل المتوفى الثمن، فرضا، ثلاثة قراريط، وترث بنتاه الثلثين، فرضا، ستة قراريط، مناصفة بينهما، والباقى، وهو خمسة قراريط، لأخته شقيقته، تعصيبا بسبب كونها عصبة مع البنتين، ولا شىء للأخ لأم لحجبه بالفرع الوارث وهو البنتان، كما أنه لا شىء لأولاد الأختين لأب، لأنهم من ذوى الأرحام، وهم لا يرثون مع ذى سهم يرد عليه ولا عصبة. والله أعلم(٥٢٤).

١١٧ - (السؤال)

سأل السيد عمران، من الطود، بحيرة، فى: رجل مات عن أمه وعمته شقيقة أبيه، وبنتى أختيه الشقيقتين وعم شقيق مفقود من نحو خمس عشرة سنة تقريبا، ولم يدر مكانه ولا حياته من موته. ثم ماتت العمة المذكورة عن أولادها، ذكورا وإناثا، وأخيها المفقود المذكور، ثم ماتت الأم عن بنتى بنتيها والمفقود المذكور، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟

(الجواب)

لهذه الأم من تركة ابنها المتوفى الثلث، فرضا، ثمانية قراريط، والباقي يوقف للعم المفقود إلى أن يتبين حاله، فإن ظهر حيا علم أنه كان مستحقا، وإن لم يظهر حيا، بأن ثبت موته قبل موت هذا الابن المتوفى يرد على الأم.

وعلى كل حال، فلا شىء للعمة وبنتى الأختين، لأنهن من ذوى الأرحام، وهم لا يرثون مع العم العاصب إن ظهر حيا ولا مع الرد على الأم إن لم تظهر حياته.

ثم بموت هذه العمة عن تركة تكون لأولادها، للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يوقف منها شىء لأخيها المفقود، ظهرت حياته أو لم تظهر، لحجبه على فرض حياته بالذكور من أولادها.

وكذا بموت الأم المذكورة تكون تركتها لبنتى بنتيها مناصفة، ولا يوقف منها شىء

لذلك المفقود، حيث كان لا مدخل له فى ميراثها بحال من الأحوال. والله أعلم(٥٢٥).

١١٨ـ (السؤال)

سئل(٥٢٦) بإفادة من نظارة الحقانية، مؤرخة فى ٥ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٧ مضمونها: أن ينظر فى السؤال المرفق بها، الوارد للحقانية من المالية بالبوصتة المؤرخة ١٧ فبراير سنة ١٩٠٢ ويفاد.

(الجواب)

بناء على رقيم سعادتكم المؤرخ ٥ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٧، قد اطلعت على السؤال الوارد للحقانية من المالية ببوصتة مؤرخة فى ١٧ فبراير سنة ١٩٠٢ فرأيته يتضمن ثلاث مناسخات:

الأولى: إن أحمد عمر السيد مات عن أمه زهرة وأختيه شقيقتيه فاطمة وشفيقة وأخته لأبيه نبيهة وأعمامه إخوة والده من أبيه شعراوى وعدوى ونجية من غير شريك.

والذى يرث فى هذه الصورة هو زهرة الأم بحق السدس، فرضا، والشقيقتان بحق الثلثين، فرضا، مناصفة، والباقى لشعراوى وعدوى، العمين، تعصيبا، مناصفة. ولا شيء للأخت للأب، لسقوطها بأخذ الشقيقتين تمام فرضهما، كما أنه لا شيء لنجية، العمة، لأنها من ذوى الأرحام.

الثانية: إن زهرة الأم ماتت عن بنتيها فاطمة وشفيقة وأولاد أخيها شقيقها السيد أحمد وعلى وعبد السلام وحسين، من غير شريك.

والذى يخص البنتين من تركتها الثلثان، فرضا مناصفة، والباقى لأولاد الأخ المذكورين، تعصيبا، بالسوية بينهم.

الثالثة: إن شفيقة المذكورة ماتت عن أختها شقيقتها وأختها لأبيها المذكورتين.

ونصيب الشقيقة النصف، فرضا، ونصيب الأخت للأب السدس، تكملة

للثلثين، والباقي يرد عليهما بحسب أنصبائهما.

ومن ذلك يتبين أنه ليس في هذه المناسخات أولاد العم الذين استفهم بذلك السؤال عن ميراثهم، ولا يفهم معنى لما ذكر في السؤال من عبارة: «فهل أولاد العم المذكورون يرثون في المتوفى أولا، وثالثا»؟.

فإن كان لذلك معنى مقصود فليبين حتى يعرف. وطيه ثلاث أوراق(٥٢٧).

١١٩ - (السؤال)

إلحاقا بما هو مقيد بهذه المضبطة(٥٢٨) بتاريخ ٢٩ القعدة سنة ٣١٩ نمرة ٤٣٥ ص ١٧٧، وردت إفادة من إدارة خزينة المالية مؤرخة في ٢٦ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٣٨٣ مضمونها: أنه ورد لها مع إفادة الحقانية الرقيمة ٢٤ الجاري نمرة ٧٨ الفتوى المعطاة من هذا الطرف في من يرث ومن لا يرث من ورثة أحمد عمر السيد ووالدته زهرة وأخته شفيقة. وأن المتوفاة المذكورة آخرا، وإن كان قيل بأن وارثيها أختها شقيقتها وأختها من أبيها إلا أن لها أعماما ثلاثة: ذكرين وأنثى، وأخوات والدها من أبيه، فمن يرث منهم ومن لا يرث؟ ومرغوب الإفادة عن ذلك.

(الجواب)

علمت من رقيم عزتكم المؤرخ في ٢٦ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٣٨٣ أن شفيقة المتوفاة آخرا من ورثة المرحوم أحمد عمر ووالدته زهرة كانت وفاتها عن أختها شقيقتها وأختها من أبيها وعميها وعمتها إخوة والدها من أبيه، وأن الغرض بيان من يرث منهم ومن لا يرث.

وأفيد عزتكم أن الوارث في هذه الصورة: الأخت الشقيقة والأخت للأب والعمان. ونصيب الأخت الشقيقة من التركة النصف، فرضا، ونصيب الأخت لأب السدس، تكملة الثلثين، والثلث الباقي للعمين، تعصيبا مناصفة بينهما، ولا شيء للعمة، لأنها من ذوي الأرحام. والله أعلم(٥٢٩).

١٢٠ ـ (السؤال)

سألت الحرمة زينب بنت محمد عبد الدايم، من كوم الشيخ سلامة، فى: رجل مات عن ابنيه وبناته الأربع، وترك ما يورث عنه شرعا، ثم ماتت إحدى البنات الأربع عن أخويها المذكورين وعن أخواتها الثلاث، وتركت ما يورث عنها شرعا، ثم مات أحد الابنين عن زوجته وابنه وبناته الثلاث، ثم مات ابن الابن المذكور عن أمه وأخواته الثلاث، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

بموت الرجل المذكور تقسم تركته على أولاده المذكورين، للذكر مثل حظ الأنثيين. وبموت واحدة من البنات عن أخويها وأخواتها تقسم تركتها بينهم، للذكر مثل حظ الأنثيين، وبموت(٥٣٠) أحد الابنين يكون لزوجته من تركته الثمن، فرضا، ولأولاده الباقي تعصيباً، للذكر مثل حظ الأنثيين، وبموت ابن الابن يكون لأمه من تركته السدس، فرضا، ولشقيقاته الثلثان فرضاً والباقي يرد عليهن بحسب أنصبائهن. والله أعلم(٥٣١).

١٢١ ـ (السؤال)

سألت الست لطيفة هانم بنت مظهر باشا، فى: امرأة ماتت عن أختيها لأبيها الست لطيفة هانم والست خديجة وأولاد أخيها شقيقها وهم سعيد وفاطمة وحفيظة وأمينة، من غير شريك، فمن يرث؟ ومن لا يرث؟ وما نصيب الوارث منهم فى تركة المتوفاة المذكورة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الوارث لهذه المرأة المتوفاة أختها لأبيها: الست لطيفة هانم والست خديجة وسعيد ابن أخيها شقيقها دون غيرهم، والذى يخص هاتين الأختين من تركتها الثلثان، فرضا، مناصفة بينهما، والثلث الباقى يحوزه سعيد ابن الأخ الشقيق،

تعصيبا. ولا شيء لفاطمة وحفيظة وأمينة بنات الأخ الشقيق، لأنهن من ذوى الأرحام، وتوريث أخيهم سعيد العاصب مقدم عليهن. والله أعلم(٥٣٢).

١٢٢ ـ (السؤال)

سألت الحرمة هاجر بنت حسن أبو عائشة، من الرقة، بمديرية الجيزة، فى: رجل مات عن زوجته وولد وخمس إناث، فما يكون لكل منهم فى الميراث؟

(الجواب)

بموت هذا الرجل عن زوجته وأولاده المذكورين تقسم تركته بينهم على فرائض الله تعالى، لزوجته الثمن، فرضا، ثلاثة قراريط، ولأولاده الباقى، تعصيبا، للذكر مثل حظ الأنثيين، والله أعلم(٥٣٣).

١٢٣ ـ (السؤال)

سئل(٥٣٤) بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٨ مضمونها النظر فى السؤال المرفق بها، الوارد للحقانية من المالية بالبوصتة المؤرخة فى ٦ مارس سنة ١٩٠٢، والإفادة بما يرى.

(الجواب)

بناء على رقيم سعادتكم المؤرخ فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٢ نمرة ٨، قد اطلعت على السؤال الوارد للحقانية من المالية بالبوصتة المؤرخة فى ٦ مارس المذكور، فرأيته يتضمن ما قيل يوم وفاة أحمد ندى القبانى، من أن الوارث له زوجته وبنته وأخته لأبيه وبنت بنته وابن أخيه، ويتضمن أيضا طلب معرفة من يرث ومن لا يرث منهم؟

وأفيد سعادتكم أن الوارث لهذا المتوفى: زوجته وبنته وأخته لأبيه، فتقسم تركته بينهم على فرائض الله تعالى، للزوجة الثمن، فرضا، ثلاثة قراريط، وللبنت

النصف، فرضا، اثنا عشر قيراطا، وللأخت للأب الباقى، تعصيبا، ولا شيء لابن الأخ المذكور سواء كان ابن أخ لأبوين أو لأب، لحجبه بالأخت المذكورة، أو كان ابن أخ لأم، لأنه من ذوى الأرحام، وكذلك لا شيء لبنت البنت، لأنها أيضاً من ذوى الأرحام، وهم لا يرثون مع العصبة بأنواعها. والله أعلم(٥٣٥).

وطيه ثلاث أوراق.

١٢٤ـ (السؤال)

سأل أحمد حسنين، المجاور بالأزهر، فى: امرأة ماتت عن أولاد أخيها شقيقها، وهم أربعة، واحد ذكر وثلاث إناث، وعن بنت أخيها شقيقها الثاني، وخلفت ما يورث عنها شرعاً، فمن الوارث منهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الوارث لهذه المرأة المتوفاة ابن أخيها شقيقها المذكور، فيحوز جميع تركتها، لأنه عاصب بنفسه، والعاصب بنفسه يحوز جميع المال عند الانفراد، ولا شيء للإناث بنات شقيقها المذكور، كما أنه لا شيء أيضا لبنت شقيقها الثاني، لأنهن من ذوى الأرحام. والله أعلم(٥٣٦).

١٢٥ـ (السؤال)

سأل حمودة بيك عبده، المحامى، فى: رجل يونانى ذمى كان مقيما بمصر، ثم سافر لبلاد إيطاليا مريضا للتداوى، فتوفى بها، وله أخ يونانى ذمى مقيم بمصر جاء يطلب ميراثه، فهل يمنع اختلاف الدار التى مات بها أخوه حقه فى الميراث؟

(الجواب)

موت أحد الأخوين بالجهة التى سافر إليها للتداوى لا يمنع أخاه المقيم بمصر من

١٢٦ ـ (السؤال)

رفع سؤال من عبد العليم البيلاوى إلى حضرة مفتى مديرية أسيوط، يتضمن أن بنتا صغيرة ماتت عن أمها وجدها لأبيها وشقيقها، واستفهم منه عما إذا كان للشقيق شىء؟ أو يحجب بالجد؟ وطلب منه الجواب.

وأجاب عليه بقوله: بموت البنت المذكورة يكون لأمها ثلث تركتها والباقى لجدها، ولا شىء لأخيها، لأنه محجوب بالجد على مذهب الإمام الأعظم المفتى به. والله أعلم.

وطلب من سيادة الأستاذ الأعظم مفتى الديار المصرية التصديق على هذه الفتوى.

(الجواب)

ما أفتى به حضرة مفتى مديرية أسيوط، على الوجه المسطور، مطابق للفقه، موافق للصواب، فيجب اتباعه والعمل به. والله أعلم[٥٣٨].

١٢٧ ـ (السؤال)

سئل[٥٣٩] بإفادة من نظارة الحقانية، مؤرخة فى ٥ إبريل سنة ١٩٠٢ نمرة ١٠ مضمونها: ان نظارة المالية رغبت بإفادتها نمرة ٦٢ فى مادة وفاة علانية لى رمضان آغا خليل وثبوت وارثة ورثته السابق الاطلاع على الإعلام الصادر عن ذلك من محكمة رتسكى الذى لم يذكر فيه وجود زوجة للمتوفى لصدور إعلام شرعى من محكمة دمياط بتاريخ ٢٦ القعدة سنة ١٣١٩ نمرة ٢٥ بثبوت زوجية صديقة هانم الجركسية للمتوفى، وأنه بعد النظر فى ذلك الإعلام والأوراق المرفقة به وقدرها (عدد ١٩) يفاد بما يرى.

(الجواب)

اطلعت على رقيم سعادتكم المؤرخ فى ٥ إبريل سنة ١٩٠٢ نمرة ١٠ وعلى ما معه من الأوراق المختصة بوفاة علانية لى رمضان آغا خليل ووارثة ورثته، فرأيت أن

الحكم الذى تضمنه الإعلام الأول الصادر من محكمة رتسكي لم يشمل الزوجة، لأن الشهادة التى ذكرت بذلك الإعلام قاصرة على وفاة المتوفى عن أخته لأبويه وابنى أخيه، وقد حكم بوراثتهم بناء على تلك الشهادة.

وقد قلنا فيما كتبناه أولا فى هذه المسألة: إنه إن ثبت أنها زوجة بطريق شرعى استحقت ميراث زوجة فى تركة زوجها المتوفى، وإن لم يثبت أنها زوجة شاركت أخته لأبويه التى ادعت انحصار ميراثه فيها وفى ابنى أخيه وزوجته فى نصيبها، مع مراعاة النسبة بينه وبين أنصباء الباقين مؤاخذة لها بإقرارها فى دعواها بزوجيتها.

أما الإعلام الثانى الصادر من محكمة دمياط فقد تضمن أن الزوجة المذكورة أشهدت على نفسها بوفاة زوجها وانحصار إرثه فيها، بصفتها زوجة له، وفى شقيقة وفى ابنى أخيه. وهذا الإشهاد لا يكفى فى ثبوت زوجيتها إذا نازعها فى الزوجية ابنا الأخ، بل لابد حينئذ من ثبوتها بحكم شرعى. أما إذا لم ينازعاها فى زوجيتها، بأن أقر بها كما أقرت الأخت الشقيقة، كانت زوجيتها ثابتة بناء على ذلك الإقرار، والله أعلم(٥٤٠).

ومعه الأوراق عدد ٢٠.

١٢٨ ـ (السؤال)

سأل أحمد محمد الجزولى، فى: رجل يدعى محمد بيك الجزولى... (٥٤١) له أولاد قصر، أقام على بعضهم، حال حياته، وصيا مختارا بعد وفاته، ثم بعد إقامته لهذا الوصى أقام أيضا، حال حياته، وصيا مختاراً بعدوفاته على جميع هؤلاء الأولاد القصر. وبعد وفاته، أثبت كل من الوصيين وصايته على الانفراد بسند شرعى فى محكمة شرعية فى يده. وللموصى دين على شخص مقيم بالجهة المقيم بها أحد هذين الوصيين، الذى هو وصى على جميع القصر، ويريد هذا الوصى أن يأخذ الدين من هذا الشخص، حفظا لحق هؤلاء القصر. ولو تأخر عن أخذه ربما يطرأ شىء على المدين يضيع به هذا الدين، فهل للوصى على جميع الأولاد، المقيم بجهة المدين، أن ينفرد بقبض الدين المذكور ويحفظه لهؤلاء القصر فراراً مما عساه يطرأ؟ وعلى المدين تسليم ذلك الدين له بانفراده؟

(الجواب)

صرح علماؤنا بانفراد أحد الوصيين بالتصرف، لو كان إيصاؤه إلى كل منهما متعاقبا، على قول أبي يوسف. قال أبو الليث: وهو الأصح، وبه نأخذ، وعليه جرى في (الإسعاف) حيث قال: لو أوصى إلى رجلين يجوز انفرادهما بالتصرف عند أبي يوسف. وعلى ذلك يجوز لهذا الوصي أن ينفرد بقبض الدين المذكور بلا رأي الآخر، لا سيما إذا خاف عليه الضياع لو تأخر أخذه.

على أنه في مثل هذه الصورة، لا مجال للاختلاف في الانفراد، لأنه متى خيف على الدين الضياع فلا شك في جواز الانفراد بقبضه بلا خلاف، وعلى المدين المذكور دفعه لذلك الوصي بانفراده، حفظاً لحق هؤلاء القصر حيث كان موروثا لهم. والله سبحانه وتعالى أعلم[٥٤٢].

١٢٩ ـ (السؤال)

سئل[٥٤٣] بإفادة من محافظة مصر مؤرخة في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٠٠، نمرة ٣٠٠٥ مضمونها: أن شخصا أقام آخر، في حياته، وصيا مختارا من قبله على أولاده القصر، ثم توفي مصرا على ذلك، وقبل الوصي ذلك في حياته وبعد وفاته. ومن ضمن ورثة الموصي المذكور حمل مستكن، فهل عند انفصاله تشمل الوصاية المختارة المذكور؟ أو يعين وصي شرعي عليه؟ يفاد.

(الجواب)

الوصاية المختارة على هؤلاء الأولاد لا تشمل الحمل المستكن، لعدم النص عليه فيها، فيصح أن يقام وصي عليه. وأستحسن أن يقام هذا الوصي المختار وصيا على الولد الذي كان حملا، لأن والد الأولاد المذكورين قد اختاره عليهم، فله فيه الثقة بأمانته في القيام بمصالح أولاده، فلو أقيم على الولد الجديد كان ذلك أوفى بغرضه. والله أعلم[٥٤٤].

١٣٠ ـ (السؤال)

سأل عبد الرزاق الشربينى، فى: رجل اشترى لولده الصغير الفقير الذى لا مال له شيئا غير واجب عليه، يعنى أطيانا، ونقد الثمن من ماله، وقصد الرجوع بذلك وقت البيع، وأشهد على قصده. ثم رجع فى ذلك وأشهد على رجوعه، فهل رجوع الصحيح؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث أشهد الأب بالرجوع على الابن ورجع فرجوعه صحيح، بناء على ما صرح به علماؤنا من أن الأب لو اشترى لولده الصغيرة دارا أو عبدا وقصد بذلك الرجوع رجع إن أشهد. والله أعلم(٥٤٥).

١٣١ ـ (السؤال)

سألت الست جليلة البارودية، فى: امرأة مستحقة فى وقف يبلغ إيراده سنويا ثلاثة آلاف جنيه. وليس لهذا الوقف مستحق إلا هى وأختها، ولا عائلة لها. وهذا غير ما لها من الأملاك الطائلة. فاستولت وحدها على ريع الوقف والملك، وأسرفت حتى رهنت الوقف على مبلغ ثلاثة آلاف جنيه صرفته فى عمل عرس لها. ثم لما تزوجت ملكت زوجها زمام الوقف، فأجره بالغبن الفاحش لرجل رومى ثلاث سنوات، لم تنقض للآن. ولذلك، عزلت من النظر، وتولى غيرها. وما زالت للآن تستولى على ريع الوقف بالتواطؤ مع المستأجر الرومى، وتصرف غلته هى وزوجها فيما لا يجوز شرعا برضاها وعلمها وإذنها إضرارا بأختها، وليس عندها من المبالغ التى استلمتها ـ على كثرتها ـ شىء. فهل بذلك تصير سفيهة يجب الحجر عليها؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بترجيح قول الصاحبين بصحة الحجر على الحر المكلف بسبب السفه، وعليه الفتوى، كما فى (الخانية) وفى (القهستانى): أنه المختار. وقالوا: إن السفه

هو تبذير المال وتضييعه على خلاف مقتضى الشرع أو العقل، كالتبذير والإسراف فى النفقة، وأن يتصرف تصرفات لا لغرض أو لغرض لا يعده العقلاء من أهل الديانة غرضا، كدفع المال إلى المغنين واللعابين، ونحو ذلك. وعلى ذلك، فالأعمال التى صدرت من هذه المرأة، على ما فى السؤال، تعد سفها يجب الحجر عليها بسببه. والله أعلم(٥٤٦).

١٣٢ ـ (السؤال)

سأل حماد بن حماد الدويرى، فى: وصى من قبل القاضى على قاصرين، وللوصى مشرف ضامن له، وعلى مورث القاصرين دين لرجل فى حال حياته، وحكم به القاضى بعد وفاته على الوصى، وتصرف الوصى ببيع ثمانية عشر قيراطاً وسدس من ضمن عقار القاصرين بأكثر من القيمة لعدم وجود منقولات أصلاً، ولعدم وجود نقود تفى بالدين الذى على التركة، ووفى الوصى بثمن العقار الدين المذكور، ثم رد البيع بتكليف المجلس الحسبى الوصى والمشترين بذلك لعدم إذنه، مع سبق علمه بحكم القاضى على الوصى بالدين الذى على التركة. ولم يكن عند الوصى نقود يدفعها فى ثمن البيع الذى يرد، فأذن الوصى بعد الرد المشرف وأمره أن يدفع ثمن البيع الذى رد بشرط أن يرجع على التركة. ودفع المشرف على هذا الشرط بحضور الشهود بناحية الدوير، مركز أبى تيج، بمديرية أسيوط سنة ١٩٠٠. فهل يصح رد البيع والحالة هذه؟ وللمشرف أن يرجع بما دفعه على التركة؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

متى تم نقض البيع بالرد، وتحقق أمر الوصى للمشرف بذلك الدفع، على أن يرجع بما يدفعه فى التركة، نظرا لسداد دين الميت الذى حكم به القاضى من ثمن البيع، كان للمشرف الرجوع بما دفعه. والله أعلم(٥٤٧).

١٣٣ ـ (السؤال)

سأل حسن سيد الخرزاتى، بمصر، فى: رجل مات وله ديون على أشخاص

بعضها بسندات مضى عليها لحين وفاته نحو الخمس عشرة سنة، وبعضها نحو الخمسين سنة، وبعضها لم يعلم صاحبه أصلا. وفى حال حياته، أقام وصيا مختارا على أولاد القصر. وبعد وفاته، قبض هذا الوصى ما تيسر له قبضه من بعض الأشخاص المذكورين، وتعذر عليه أخذ الباقى بسبب مضى المدة الطويلة على تلك السندات، فضلاً عن عدم معرفة أربابها، فهل لا يضمن هذا الوصى لما بقى من الديون؟ وإذا بلغ أحد القصر لا يكون له حق فى مطالبته بما يخصه فيما هلك من تلك الديون؟ وإذا أنفق الوصى على القاصر من ماله نفقة المثل فى مدة تحتمله، ولا يكذبه الظاهر فيها، يقبل قوله فيما أنفقه بيمينه ولا يجبر على البيان والتفصيل؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من المقرر شرعا أن الوصى لا يضمن ما هلك من الديون، وأنه يقبل قوله بيمينه فى قدر الإنفاق حيث كان نفقة المثل فى مدة تحتمله، ولا يكذبه الظاهر. وأنه إذا كبر الصغار وطلبوا أن يحاسبوا وصيهم، كان للقاضى ولهم مطالبته بالحساب، لكن لا يجبر على بيان المصرف وجزئياته جزئية لو امتنع، إن عرف بالأمانة.

ومما ذكر، يعلم أن الوصى فى حادثتنا لا يضمن ما هلك من تلك الديون، وليس للصغير إذا بلغ أن يطالبه بما يخصه فى ذلك الذى هلك، ويقبل قوله بيمينه فيما أنفقه عليه نفقة المثل فى مدة تحتمله ولا يكذبه الظاهر، ولا يجبر على بيانه وتفصيله، ولو امتنع، حيث كان معروفا بالأمانة. والله أعلم[٥٤٨].

١٢٤ ـ (السؤال)

سأل حضرة إبراهيم بيك توفيق، قاضى محكمة شبين الجزئية، فى: رجل أصابه شلل فى جسمه ولسانه منعه ذلك من التصرف فى ماله وحجر عليه بسبب ذلك، وأقيم عليه قيم، فهل يجوز لذلك القيم أن يستدين على المحجور عليه بدون إذن الحاكم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرح علماؤنا بأن المحجور عليه كالصغير، وأن القيم كالوصي، وقالوا: إذا أراد الوصي الاستدانة على الصغير جاز له ذلك إن كان القاضي أمره به، وإلا فالمختار أن يرفع الأمر إلى القاضي فيأمره به، وهذا هو الأحوط. وعلى ذلك فليس للقيم فى حادثتنا أن يستدين على المحجور عليه بدون أمر القاضي. والله أعلم(٥٤٩).

١٣٥ ـ (السؤال)

سأل حضرة محمود بك أبو النصر فى: رجل رهن لآخر أرضا زراعية وحرر له بذلك عقدا رسميا أمام إحدى المحاكم الشرعية بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٩٩ فى نظير مبلغ معلوم اعترف الراهن باستلامه نقدا وعدا. واعترف المرتهن باستلام الأطيان المرهونة فى مقابلته. ونص فى العقد على أن الأطيان صارت مرهونة ومحبوسة تحت يد المرتهن لحين سداد مبلغ الدين، لا يجوز للراهن التصرف فيها ما دام عليه درهم واحد من الدين. وأن المرتهن يقوم بدفع أموال الأطيان بالجهة الميرى كل سنة حسب ضريبة الناحية. وأن المتعاقدين اتفقا على أنه عند سداد مبلغ الدين إلى المرتهن يسلم الأطيان إلى الراهن. ومن المعلوم، أن الراهن ما سلم العين حبسا تحت يد المرتهن إلا لينتفع هذا بها لنفسه، كما يدل عليه قوله فى العقد: ويقوم بدفع الأموال، وكما هو مقتضى العرف. فهل للراهن بعد مضى نحو عشرين سنة الحق فى طلب رد الأطيان إليه، مع كونه لم يدفع شيئا من الدين، بحجة أن حبس الأرض تحت يد المرتهن والانتفاع بها أثناء المدة المذكورة يستهلك به الدين بتمامه، باعتبار قيمة الإيجار، وأن الدين لم تشترط له فائدة بعقد الرهن؟ أو يعد غير محق فى طلبه، لأن استغلال الأطيان وحبسها تحت يد المرتهن حق ثابت له حتى يؤدى الراهن مبلغ الرهن، كما تفيده عبارات العقد السالفة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: للدائن طلب دينه من راهنه وله حبسه به وإن كان الرهن في يده، لأن الحبس جزاء مطله. كما أن له حبس رهنه بعد الفسخ للعقد حتى يقبض دينه أو يبرئه، لأن الرهن لا يبطل بمجرد الفسخ بل يبقى رهنا ما بقي الرهن في يد المرتهن والدين في ذمة الراهن.

وقالوا: إنه لا يكلف من اقتضى بعض دينه أو أبرأ من بعضه تسليم بعض رهنه حتى يقبض البقية من الدين أو يبرئها اعتبارا بحبس المبيع.

ومن ذلك يعلم أنه ليس للراهن، في حادثتنا، طلب رد الرهن إليه ما دام الدين في ذمته ولم يبرئه المرتهن. أما انتفاع المرتهن بالرهن أثناء المدة المذكورة فإنه لا يضمنه ولا يسقط به شيء من دينه، حيث أباحه الراهن له، على ما في السؤال، كما نص عليه علماؤنا. والله أعلم(٥٥٠).

١٣٦ - (السؤال)

سأل عثمان بشير، من وادي حلفا، في: رجل واضع يده على أطيان مكلفة باسمه مدة تسع وخمسين سنة، يتصرف فيها بالزرع وغيره، ثم قام الآن رجل يدعي عليه بأنها ملكه بطريق الميراث عن جده، مع أنه في هذه المدة حاضر ومشاهد لتصرفه، ولم يدع بذلك، مع عدم مانع يمنعه من الدعوى، فهل تسمع دعواه المذكورة؟

(الجواب)

حيث كان ذلك الرجل المدعي حاضرا مشاهدا لتصرف واضع اليد تلك المدة، ولم يدع عليه هذه الدعوى، مع التمكن منها وعدم العذر في عدم إقامتها، فلا تسمع دعواه المذكورة، ولا تنزع تلك الأطيان من يد واضع اليد بدون وجه شرعي. والله أعلم(٥٥١).

١٣٧ ـ (السؤال)

سأل حسن على يوسف، فى: من أسلم فى مكيل أو موزون، معلوم القدر والجنس والنوع والصفة، مع بيان الأجل، وقبض رأس المال وهو الثمن فى المجلس، واستوفى السلم[٥٥٢] شرائطه الشرعية، ولكن كان رأس المال، وهو الشيء الذى وقع عليه عقد السلم، أقل من قيمة المسلم فيه، وهو المبيع، بكثير، وقت العقد ووقت حلول الأجل، فهل يكون العقد صحيحا؟ ويكون المسلم إليه، وهو البائع، ملزما بتسليم المسلم فيه، وهو المبيع، وقت حلول الأجل، مهما قل مقدار الثمن الذى وقع العقد عليه، ولا فرق بين أن يكون المتعاقدان تعاقدا بأنفسهما أو بوكيلهما؟ سواء أكان الوكيل مسلما أو ذميا؟ بعد مراعاة شروط السلم وما لا بد منه فيه؟ . . أفيدوا الجواب .

(الجواب)

لا ريب فى صحة عقد ذلك السلم، حيث استوفى شرائطه الشرعية، وعلى المسلم إليه تسليم المسلم فيه وقت حلول أجله ولو كان الثمن الذى وقع عليه العقد أقل من قيمة المسلم فيه وقت العقد أو حلول الأجل مهما قل . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون العقد بأنفسهما أو بوكيليهما، مسلما كان الوكيل أو ذميا . والله أعلم[٥٥٣] .

١٣٨ ـ (السؤال)

سأل على محمد الدويرى، فى: رجل اشترى دارا فيها نخيل مشترك مع الأرض بينه وبين آخرين، ثم إن أحد شركائه في النخيل باع نصيبه فيه لآخر من باقي الشركاء، فاشترى الآخر للقرار، فلما بلغ البيع مشترى الدار طلب الشفعة فى هذا النصيب الذى اشترى للقرار تبعا للشفعة فى الأرض التى قام عليها النخيل، فهل يصح له هذا الطلب، ويكون له الشفعة فى النخيل تبعا للأرض التى قام عليها؟ أفيدوا الجواب .

(الجواب)

إذا اشترى أحد الشركاء فى النخيل بعضه، مع اشتراط البقاء فى الأرض والقرار، يدخل ما قام عليه ذلك الجزء من الأرض فى البيع، ويكون لمشترى الدار، الشريك فى الأرض التى قام النخيل على بعضها، الشفعة فى النخيل تبعاً للأرض، فإذا استوفى طلب الشفعة شروطه كان له الأخذ بها، والله أعلم(٥٥٤).

١٣٩ ـ (السؤال)

سأل سيد أفندى السبكى، فى: رجل مات عن زوجة وعن أولاد منها قاصرين وأولاد من غيرها بالغين، ثم أقام القاضى الزوجة المذكورة وصيا على أولادها القاصرين. وبعد ذلك قام أحد الورثة البالغين يدعى عليها وعلى باقى الورثة بأن أباه المتوفى حال حياته أوصى إلى أولاده باثنى عشر فداناً مما تركه ميراثاً عنه لورثته، وأن المدعى عليهن معارضات له فى صدور الوصية المذكورة من الموصى المذكور لأولاده، وموته مصرا عليها، وبما له من الولاية الشرعية على أولاده الموصى لهم يطالب الوصى المذكور وباقى المدعى عليهن بعدم معارضتهن له ولأولاده فى ذلك، فاعترف المدعى عليهن بصدور الوصية، وبموته مصرا عليها، ما عدا الوصى المذكورة فإنها دفعت دعوى المدعى بأن الموصى بعد أن أوصى رجع، ومات غير مصر على وصيته، ومنعه من الكتابة بالرجوع مرضه الذى كان فيه ووجود «ختمه» مع ابنه المدعى. وكان كلما دخل عليه شخص يعوده فى مرضه يخبره برجوعه عن الوصية، وأن ابنه لم يمكنه من الختم حتى يكتب بذلك ورقة. فالمحكمة الشرعية لم تلتفت إلى هذا الدفع، وقررت بمنعها من معارضتها للمدعى فى صدور الوصية المذكورة لأولاده المذكورين، وأمرت المدعى عليهن، بما فيهن الوصى المذكورة بترك التعرض فى الأطيان الموصى بها لأولاد المدعى المذكور، معاملة لهن بإقرارهن، وتحرر بذلك إعلام شرعى من المحكمة العليا الشرعية بمصر مؤرخ فى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٥. فهل ـ والحال ما ذكر ـ يكون اعتراف الوصى المذكورة بذلك، والحكم عليها باعترافها سارياً على محجوريها القاصرين؟ ويؤخذ من أنصبائهم فى الأطيان المتروكة لهم إرثاً كما يؤخذ من

أنصباء غيرهم البالغين، مع أن قرار هذه المحكمة صدر بمنع هاته الزوجة من تلك المعارضة بصفتها وارثة لا وصية؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من المقرر أن الإقرار حجة قاصر على المقر، فلا يتعداه إلى غيره. فالإقرار بتلك الوصية من هذه الزوجة التى تقرر منعها من المعارضة بصفتها وارثة يكون قاصراً عليها، لا يتعدى إلى محجوريها القاصرين، فتعامل به بالنسبة لنصيبها دون نصيبهم. على أنها لو أقرت بصفتها وصية، لا يصح إقرارها، لما صرحوا به من أنه لا يصح إقرار الوصى بدين على الميت، ولا بشىء من تركته أنه لفلان، إلا أن يكون المقر وارثاً فيصح فى حصته، كما فى (التنوير من الوصايا). والله أعلم(٥٥٥).

١٤٠ـ (السؤال)

سأل شريف بيك عمر، بصهرجت الكبرى، دقهلية، فى: رجل كان وصيا مختارا على أخيه القاصر، ومورثهما ترك لهما عقارا تركة عنه لهما ولباقى ورثته، وهذا الوصى حال وصايته على أخيه القاصر كان له مال خاص يتجر فيه، وقد نما هذا المال بسبب تلك التجارة وتوظف فى الحكومة بمرتب عال لا يقل عن الأربعين جنيها شهريا، واستمر موظفا بهذا المرتب مدة طويلة، وصارت له ثروة، وكان تحت يده ما يخص القاصر المشمول بوصايته المذكورة فى ريع ذلك العقار الموروث ليتصرف فيه بالإنفاق عليه منه بحسب ماله، وقد اشترى ذلك الوصى من أمواله الخاصة أملاكا وأطيانا لنفسه خاصة لا مدخل لمال ذلك القاصر فيها بوجه من الوجوه، لأنه عبارة عن حصة فى ريع ذلك العقار الموروث. وكانت تلك الحصة تحفظ تحت يد وصيه للإنفاق عليه منها حال وجوده معه فى بيته فى معيشة واحدة. فهل ـ والحالة هذه ـ لا يكون لذلك الأخ لمحجور حق فى الأملاك والأطيان التى اشتراها الوصى المذكور من ماله لنفسه خاصة؟ وإذا طلب ذلك المحجور المحاسبة عن حقوقه لا يكون له إلا طلب المحاسبة عن ريع حصته فى ذلك العقار الموروث الذى أنفق عليه منه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث كان لهذا الوصي مال خاص به، وقد نما هذا المال وازداد بالتجارة وغيرها إلى أن صارت له به ثروة، واشترى من ذلك المال الأملاك والأطيان المذكورة لنفسه خاصة، فلا ريب يكون له ذلك الذى اشتراه من الأملاك والأطيان خاصة، لا حق لذلك المحجور فيه، لنفي الشركة بينهما في المال والكسب. ولو طلب ذلك المحجور المحاسبة على ماله كان له طلبها، غير أنها تكون قاصرة على ما وصل ليد الوصي من ماله، وهو ربع حصته الموروثة فقط، حيث لا مال له غير ذلك الربع. والله سبحانه وتعالى أعلم(٥٥٦).

١٤١ ـ (السؤال)

سأل جناب الخواجا جبرائيل يوسف دبانه، فى: بيع جعل فيه الخيار للمشترى فى دفع الثمن بعد مدة معينة، وهى خمس سنوات، على أن يدفع عربونا للبائع، ثم إذا اختار رد المبيع ترك العربون الذى دفعه، ثم باع المشترى جزءا من العين المبيعة لآخر وأخذ منه عربونا، على شرط أن له الخيار فى فسخ البيع ورد العربون إذا هو لم يتمم عقده مع البائع الأول.

هل تصح الشفعة لمن له حق طلبها من المشترى الثانى، لو كان البيع صحيحا لازما؟ وهل يجب على طالب الشفعة أن يطلبها بمجرد سماعه بعقد هذا البيع، مع بقاء شرط الخيار للبائع، فإذا لم يطلب الشفعة سقط حقه فيها؟ أو لايلزم طلب الشفعة إلا بعد سقوط الخيار ولزوم البيع فيكون حقه فى طلب الشفعة محفوظا باقيا إلى أن يصير البيع لازما؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

شرط الخيار فى مدة الخمس السنوات فى دفع الثمن وإمضاء البيع أو رد المبيع وترك العربون مما يفسد البيع، فيكون البيع الأول فاسدا. ولما كان البيع الثانى قد شرط فيه المشترى الأول أن له الخيار فى إنفاذه إن أمضى العقد الأول الذى شرط

لنفسه الخيار فيه مدة خمس سنوات وعدم إنفاذه إن لم يمضه، فهذا العقد يكون فاسدا أيضا، وعقد البيع إذا كان فاسدا لا يكسب حق الشفعة لمن له الحق لو كان البيع صحيحا، ولا يثبت حق الشفعة إلا إذا زال الفساد ووجد ما يقتضى لزوم العقد وامتناع التفاسخ.

وعلى هذا، فإذا كان الحال فى هذه الواقعة أن الفساد قد زال، ولم يبق خيار للبائع الثانى فى فسخ العقد، جاز طلب الشفعة بعد سقوط خيار البائع، ولا يجوز قبلها. ولا شك أن حق الشفيع فى طلب الشفعة يبقى محفوظا له إلى أن يلزم البيع ويبطل الخيار فيه. والله أعلم(٥٥٧).

١٤٢ ـ (السؤال)

سأل خليل أفندى أحمد سليمان، المقاول، من مصر، فى: رجل مسلم عاقل حر شديد محسن للتصرف، أقر بدين فى مجلس قضاء شرعى عن نفسه وبوكالته وكالة عامة عن إخوته وأقاربه، وعمل بالإقرار المذكور إشهاد شرعى بمحكمة السودان، ثم بعد ذلك عاد المقر فأنكر الدين، فهل يعول على إنكاره؟ أم لا ؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: الوكيل العام يملك الإقرار على الموكل بالديون، ولا تختص صحة الإقرار بمجلس القاضى، لأن ذلك إنما هو فى الوكيل بالخصومة، وعلى ذلك فإقرار الوكيل العام فى هذه الحادثة عن نفسه وبوكالته المذكورة بذلك الدين يسرى عليه وعلى موكليه، ولا يصح رجوعه عنه بإنكاره المذكور، فلا يعول على إنكاره شرعا. والله أعلم(٥٥٨).

١٤٣ ـ (السؤال)

سأل عبد الجواد الداعور الخليلى، فى: رجل مات وادعى ابن أخيه بعد موته بعشرة أيام لدى رئيس المجلس الحسبى بمصر وعضويه: الشرعى والتجارى، ونائب قاضى مصر، الوصاية المختارة على ابنه المعتوه وتركته، ولم يثبت ما ادعاه، فأقام

نائب القاضى بالمجلس المذكور قيما على ابنه المعتوه ووصيا على تركته. وتحرر بذلك إعلام شرعى من محكمة مصر الكبرى. فهل هذه الوصاية والقوامة معول عليهما؟ ولا تعتبر الوصاية المختارة المذكورة، حيث لم تثبت شرعا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حيث لم تثبت تلك الوصاية المختارة، فلا يعتبر مدعيها وصيا مختارا، وتكون ولاية التصرف فى مال الابن المعتوه لذلك القيم الذى نصبه النائب الشرعى قيما عليه ووصيا على تركة أبيه المتوفى، لأن تنصيبه من قبل النائب الشرعى يعطيه تلك الولاية، دون مدعى الوصاية المختارة المذكورة، لعدم ثبوتها بالطريق الشرعى. والله أعلم(٥٥٩).

١٤٤ـ (السؤال)

سأل عبد التواب زغلول، فى: قيم وضع يده على أطيان محجورة، وهى خالية من الزرع، فاقترض مالا بدون إذن الحاكم الشرعى وصرفه فى مصالح محجوره الشرعية، من نفقة وكسوة ومسكن له وعلى زوجته وأولاده، فيما ذكر، وفى تربية أولاده، من أجرة معلم وغيرها، وفى طرق استغلال تلك الأرض، حيث كان لا مال لمحجوره وقتئذ، ولا يمكن استغلال تلك الأرض إلا بما صرفه القيم عليها من مال القرض المذكور، بما عاد على المحجور عليه بالمصلحة. وذكر القيم المذكور فى الصك أنه اقترضه بصفته قيما لصرفه فى شئون محجوره. وبعد صرف مال القرض، على الوجه المبين، مات القيم المذكور قبل سداد مال القرض. فهل مال القرض الذى صرف كما ذكر يقضى من مال المحجور عليه، حيث كان صرفه عليه وعلى من تجب عليه نفقتهم؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن القيم كالوصى والمحجور كالصغير، وصرحوا بعدم رجوع الوصى قضاء بما أنفقه على اليتيم من ماله بدون أن يشهد أنه أنفقه عليه ليرجع به فى ماله،

وأن ذلك هو الراجح، ومشى عليه صاحب (التنوير). وصرحوا بأن المختار أنه ليس للوصى أن يستدين على الصغير إلا بأمر القاضى، على الأحوط، وعلى ذلك فلا رجوع لورثة القيم فى هذه الحادثة بما أنفقه مورثهم، بدو إشهاد بالرجوع به فى مال محجوره، وليس للمقترض أن يرجع بما أقرضه للقيم فى مال ذلك المحجور، حيث كان هذا القرض بدون إذن القاضى. والله أعلم(٥٦٠).

١٤٥ـ (السؤال)

سأل زيدان مؤمن، من المقطعية، فى: امرأة لها حصة فى دار مشاعة بينها وبين ابن أخيها وأختها، ولم تقسم الدار بينهم إلى الآن، ثم فى حال صحتها وهبت حصتها المجهولة فى الدار المذكورة إلى ابن بنتها، والحال أن الدار المذكورة قابلة للقسمة. فهل، والحال هذه، تكون الهبة باطلة؟ وتكون هذه الحصة لورثتها؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: الموهوب إذا كان مشاعا فيما يقسم لا تصح الهبة فيه. وعلى ذلك فالهبة، المحدث عنها بالسؤال، غير صحيحة، حيث كانت الدار قابلة للقسمة، وتكون الحصة الموهوبة موروثة عن الواهبة بعد موتها لورثتها. والله أعلم(٥٦١).

١٤٦ـ (السؤال)

سأل محمود أفندى بسيونى، المحامى بأسيوط، فى: جدة حاضنة لأولاد بنتها المتوفاة، وتركت لهم والدتهم مالا تحت يد جدتهم المذكورة. فأراد والدهم أخذ أولاده منها، وأخذهم بالفعل. ثم ادعت جدتهم المذكورة بمبلغ على والدهم نظير ما أنفقته على أولاده من مالها الخاص بها، زاعمة أن هذا الإنفاق منها عليهم بإذن والدهم ورضاه، وتريد مطالبته بذلك، فهل تجاب لذلك، أو لا ؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن نفقة الصغير على أبيه إذا لم يكن له مال، وفى ماله إذا كان له مال، وأن ولاية التصرف فى مال الصغير لأبيه، وأن فعل المأذون ينفذ على الآذن. وعلى هذا فإذا ثبت أن الأب فى هذه الحادثة أذن لهذه الجدة الحاضنة بالإنفاق على أولاده الصغار كان لها الرجوع بما أنفقته عليهم حيث كان نفقة المثل، ولم يكذبها الظاهر فيه، فى مالهم بمقتضى إذن أبيهم بذلك لها، لأنه هو الذى له ولاية التصرف فيه، وقد تقرر أن فعل المأذون ينفذ على الآذن. أما إذا كان إنفاقها عليهم بدون إذن ممن يملكه، وهو أبوهم، كانت متبرعة بما أنفقته. والله أعلم(٥٦٢).

١٤٧ـ (السؤال)

سأل عوض الله أنيس على، بهندسة السكة الحديد، بطنطا، فى: رجل اسمه على خميس، من ناحية كفر أبو شهبة، بمديرية بنى سويف، صدر له حكم من مجلس بنى سويف الملغى بتاريخ ٢٠ القعدة سنة ١٣٠٢ بإلزام محمد عبد الهادى زهير بأن يدفع له مبلغ ٤٩٤٠ ج و ١٦ مليما وقد بقى هذا الحكم بلا تنفيذ حتى ألغى المجلس، لإفلاس المحكوم عليه، ثم افتتحت المحاكم الأهلية بالوجه القبلى، وفى ٥ ربيع الأول سنة ١٣١٩، أعلن هذا الحكم للمحكوم عليه لأجل تنفيذه، فعارض المحكوم عليه بسقوط حكم المجلس الملغى لمرور مدة تزيد على خمس عشرة سنة، وبأن منع القاضى من سماع الدعوى بعد مرور الزمن نتيجة سقوط الحق، وبأن القول بعدم سقوط الحق بتقادم الزمان هو أن صاحبه لو تمكن من الحصول عليه بدون واسطة القضاء حل له أخذه ديانة، فهل يوجد بأحكام الشريعة نص يسقط الحكم بمرور الزمن؟ وهل ما قيل موافق للشريعة؟ أفتونا فى هذه الحادثة.

(الجواب)

من هذا السؤال يظهر أن المحكوم عليه لا يزال مقرا بهذا المبلغ الذى حكم به

عليه، غاية الأمر أنه يعارض بسقوط الحكم بالنظر لما ذكر. والذى يقتضيه الحكم الشرعى أنه مع الإقرار به يلزمه، لأن الإقرار حجة معتبرة، يعامل به المقر ولو طال الزمن، ما دام لم يأخذ صاحب الحق حقه، لأن الحق لا يسقط بتقادم الزمان ولا بعدم أخذه مع التمكن، فلا عبرة بما عرض به المحكوم عليه. والله أعلم(٥٦٣).

١٤٨ـ (السؤال)

سأل مصطفى أفندى عزت، فى: شاب غير محصن أصيب فى بصره من منذ سنتين، وتعطل عن العمل، وحرم من كسب عيشه بيده، وهو فقير، ومن الأشراف، واضطر إلى الاقتراض دفعا لضروريات الحياة، وله والد يدخل فى عداد أهل الثروة واليسار والاقتدار، فهل يلزم بالنفقة عليه؟ وأداء ديونه؟ وتزويجه إكمالا لدينه؟ وبالنفقة على زوجته وعياله؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

متى كان الابن كبيرا فقيرا عاجزا عن الكسب، بأن كان ذا عاهة تمنعه عن الكسب، أو كان من أبناء الأشراف ولا يستأجره الناس، فنفقته على أبيه. وحيث إن بهذا الشاب عاهة تمنعه عن الكسب من وجوه كثيرة، وما يتيسر للأعمى أن يصنعه لا يليق بمثله مع يسار أبيه، لأنه حينئذ يعد من القسم الثانى، فعلى والده أن ينفق عليه، وليس عليه شيء مما سوى ذلك. والله أعلم(٥٦٤).

١٤٩ـ (السؤال)

سأل محمد أفندى عفيفى، فى: أرض موات أعطتها الحكومة لأحد الأفراد، على سبيل التمليك، ووضع يده عليها، وأحياها، وتصرف فيها بالزرع ونحوه، فهل يعد ذلك هبة تعتبر سببا للملك؟ أو لا يعد؟ ويكون إحياؤها والتصرف فيها

كما ذكر هو سبب الملك، بحيث لو عارض فيها معارض، والحال ما ذكر، يمنع من معارضته؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجـــواب)

من المقرر شرعا إن إحياء الموات يعطي حق الملكية لمحييه. وعليه يكون سبب الملك هو الإحياء، فيملك هذه الأرض من أحياها ووضع يده عليها وتصرف فيها، بعد أن أعطته الحكومة إياها، ولا حق لأحد في معارضته فيها، والحال ما ذكر، وليس ذلك من قبيل الهبة، كما لا يخفى. والله أعلم(٥٦٥).

فتـــاوى فـى
الأســـرة ومشـــكلاتها

١٥٠ ـ (السؤال)

سئل[٥٦٦] بإفادة من نظارة الحقانية مؤرخة فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٣١٨ نمرة ١٩ مضمونها : إنه بعد الإحاطة بما اشتملت عليه مكاتبة نظارة الداخلية نمرة ١٥٣ المختص بتضرر بعض زوجات المحكوم عليهم من عدم إنفاق أزواجهن عليهن أو إطلاق عصمهن، وتعذر الأسباب التى تمكن القاضى الشرعى من الفصل فى ذلك بين الزوجة والزوج لوجودها فى مكان غير الذى فيه الزوج.

وما طلبته النظارة المشار إليها من استفتاء فضيلتكم عن الطريقة التى يفصل بها فى الأمر شرعا لحسم شكوى تلك النسوة، إجابة لطلب سعادة مفتش عموم السجون بإفادة نمرة ١١٣ .

(الجواب)

اطلعت على ما حررت سعادتكم فيما يختص بما ورد من نظارة الداخلية من الاستفهام عن الوجه الشرعى فى إزالة ما يشكو منه النساء اللائى حكم على أزواجهن بمدد طويلة يقضونها فى السجن أو الأشغال الشاقة، مع تركهن بلا نفقة ولا عائل لهن ولا لأولادهن منهم.

واطلعت على وجوه الضرورة المحتمة للبحث عن طريقة للفصل فى تلك الشكايات التى بينها جناب مفتش عموم السجون فيما كتبه لنظارة الداخلية.

هذه مسألة من عدة مسائل من قبيلها كثرت فيها الشكوى وعمت بها البلوى، ونظارة الحقانية لا يمر عليها زمن طويل حتى يصلها من جميع أطراف القطر المصرى

ما يستحثها للنظر فى مخلص مما يلحق النساء المعوزات من الضرر فى دينهن ومعيشتهن والفساد الذى يعرض لأولادهن وما ينشئون عليه من ردئ الأخلاق وسيئ الأعمال، وما يعقب هذه الحال من القلق والاضطراب فى حال الأمة بتمامها، كما أشار إلى ذلك مفتش عموم البوليس فى كلامه عن مسألته.

ولهذا رأيت أن أبحث فى هذه المسائل جميعا . . وهى:

المسألة الأولى: مسألة المسجونين التى جاءت برقيم سعادتكم.

الثانية: مسألة عجز الزوج عن النفقة على زوجته أو امتناعه عن الإنفاق عليها عنادًا، كما يحصل من أغلب أفراد الطبقة السفلى من الأهالى وكثير من أفراد الطبقة الوسطى والعليا.

الثالثة: مسألة الغائب الذى ينقطع خبره أو تبعد غيبته ولا يترك لزوجته وأولاده شيئا من المال، أو يترك مالا لكن لا تصل إليه يدها، أو تحتاج زوجته بمقتضى الطبيعة البشرية إلى الخلاص من حالتها، خصوصا إن كانت شابة، ويندرج فى هذه المسألة ما يعرف بمسألة المفقود.

الرابعة: مسألة الزوج الذى يضار زوجته ويعنتها فى المعاشرة حتى لا يكون سبيل لمعيشة الزوجين معا.

جميع هذه المسائل فى درجة واحدة من الحاجة إلى النظر، وكثيرا ما ترد علىّ الأسئلة من كل جانب للاستفتاء عما يقتضيه الشرع فيها.

وقد سئلت من مدة أيام عن امرأة وارتدت لسوء معاشرة زوجها، ولا هو يطلقها ولا هو يحسن عشرتها ولا هو يدعها تعيش عند أهلها، وعن أخرى على عزم الرد عن دينها لإكراهها على معاشرة قاتل أبيها، ولها قضية فى محكمة مديرية الدقهلية.

وقد ورد على أثناء كتابة هذه السطور شكوى من امرأة عجز زوجها عن النفقة أرسلها مع هذه الأوراق.

أما الشكوى من نساء الغائبين والعاجزين عن النفقة فعندى منها كثير ـ وأرسلت بعضها للنظارة، وللنظارة علم بكثير من ذلك.

الذى شوهد بالعيان، ولم تبق فيه ريبة لمرتاب، أن النساء فى أية حالة من الحالات الأربع التى عددنا مسائلها يلجأن، بحكم الضرورة، إلى الفحش وارتكاب ما يخالف أحكام كل دين وأدب أو يهلكن، ولا سبيل لإنقاذهن من المهلكتين إلا التطليق على أزواجهن، وذلك ما قضت به حالة الناس من فساد الاعتقاد وسوء الخلق. وكل ما يلتمس وراء التطليق فهو خيال لا يمكن تحقيقه. فالاضطرار إلى التطليق على الزوج فى الأحوال المذكورة، أو اعتباره فى حكم الميت إن كان مفقودا مما لا ينكره إلا جاهل بأحوال المسلمين اليوم أو مكابر ينسى عقله وإحساسه، ولا اعتداد بواحد منهما.

متى تحققت الضرورة وجب مراعاتها بنص الكتاب والسنة وإجماع الأئمة والأمة. ولا حاجة لسرد النصوص على ذلك، لأنه معلوم من الدين بالضرورة. ومراعاة حكم الضرورة لا يعد اجتهادا، لأن الاجتهاد إنما يكون له مجال فى الأمل ذى الوجوه، أما ما قضت به الضرورة فهو من قبيل المحسوس، لا مجال للنظر فيه، حتى يكون فيه اجتهاد.

وقد صرح الفقهاء عند الكلام على الحكم بالمرجوح: أن محل الحظر فيها إذا لم تقض به الضرورة، فإن قضت به ساغ للقاضى، بلا استئذان من ولاه، أن يحكم به، فقد كان يصح للقضاة المقلدين لمذهب أبى حنيفة أن يحكموا الضرورة عند ظهورها، بعد التحقق منها، ولا يكونون قد خرجوا بذلك على مذهب أبى حنيفة، ولكنهم يتحرجون ذلك.

وذهب بعض المفتين، غفلة منه عن حقيقة الدين، إلى أنه لا يجوز الإفتاء ولا الحكم بما تقضى به الضرورة من التطليق على الزوج، وأساء إلى دينه بالتشنيع على من يفتى أو يحكم بذلك، وهو لا يشعر بأنه يستبيح ارتكاب القبائح باسم الدين.

ثم، قد صرح الفقهاء فى مسألة المفقود بجواز الإفتاء بمذهب مالك للضرورة، ولا ضرورة أظهر مما نحن فيه الآن.

للفقهاء من الحنفية خلاف فى الحكم بمذهب الغير، وهل ينفذ؟ أو لا ينفذ؟ وأكثرهم على أنه ينفذ، وأفتى بكل من القولين، ولهم فى توجيه نفاذه أدلة مقبولة. وقال صاحب (فتح القدير) عند البحث فى نفاذ الحكم بمذهب الغير وعدم نفاذه، ما

معناه: يحل الإقدام على الحكم بمذهب الغير، لأن القاضى مأمور بالمشاورة، وقد تقع على خلاف رأيه. وقال قبل هذا بقليل: إن المقلد إنما ولاه ليحكم بمذهب أبى حنيفة مثلا، فلا تمكن المخالفة، فيكون معزولا بالنسبة إلى ذلك الحكم. وقد تبين من كلامهم وعلل أحكامهم أن الخلاف إنما هو فى الحكم الذى يصدر من القاضى بمذهب غيره، إن كان مجتهدا، أو على خلاف ما حدده من ولاه إن كان مقلدا، ولم تكن هناك ضرورة ملجئة، أما إذا كان الحكم بناء على أمر من ولى القاضى أو مراعاة لضرورة عند تحققها فلا خلاف فى صحته ونفاذه.

والذى تطلبه نظارة الحقانية الآن إنما هو طريقة شرعية للخلاص من انتهاك حرمات الدين، أو التخليص من الهلكة، على أن يصدر بتلك الطريقة أمر الجناب العالى الخديوى الذى يولى القضاة، فتصبح مما لا خلاف فيه.

أما أن ذلك يجوز للجناب العالى الخديوى فهو مما لا ريب فيه، فإنه هو الحاكم الذى يولى القضاة وهو ينشر لهم المنشورات بالطرق التى يتبعونها والمذهب الذى يحكمون به، وهو وحده الذى يسوغ له ذلك بمقتضى الأحكام الفقهية، غاية ما فى الأمر أن الحكومة يمكنها أن تخص الحكم فى هذه المسائل بما عدا محكمة مصر الشرعية، حيث عرضت الشبهة فى أن التولية فيها ليست خاصة بالجناب الخديوى، بل يشترك فيها أمر الجناب السلطانى، ثم تبيح لمن فى دائرة محكمة مصر الشرعية أن يرفعوا قضاياها التى من هذا القبيل إلى قضاة القليوبية والجيزة، ولا شىء فى ذلك، لا شرعا ولا سياسة، ولا شك أن سماحة قاضى مصر لا يعارض فى ذلك ما دام الأمر بعيدا عنه، وما دام لم يسأل رأيه فيه.

للأسباب التى بينتها أرى أنه يجب الرجوع إلى ما جاء في مذهب مالك من أحكام النفقات والغائبين والمفقودين والمسجونين والمضارين لأزواجهن. وقد استخرجت من فقه المالكية ما تمس إليه الضرورة فى ديارنا، وضمنته إحدى عشرة مادة، وكتبت إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ومفتى السادة المالكية أسأله: هل يوافق على ما رأيت؟ فكتب إلى ما يفيد أن رأيه موافق لرأيى، وأنه يرى الحالة الحاضرة من الخطب الجسيم الذى يجب النظر فيه للخروج منه.

وإنى أرسل إلى سعادتكم هذا المشروع، مع تصديق صاحب الفضيلة شيخ

الجامع الأزهر، ليرفع إلى جناب الخديو، ليصدر أمره الكريم بمقتضاه، بناء على إفتاء فضيلة شيخ الجامع الأزهر ومفتي المالكية وإفتاء مفتي الديار المصرية وموافقة نظارة الحقانية فقط، بدون إرساله إلى شورى القوانين، لعدم الضرورة إلى ذلك في الأحكام الشرعية.

أما تخصيص المحاكم بالحكم بمقتضى المشروع المذكور، وهل يستأنف الحكم أو لا يستأنف؟ وأمام أي المحاكم يكون استئنافه؟ فذلك يوضع له مشروع آخر يصدق عليه مجلس النظار ويؤخذ فيه رأي شورى القوانين، لأنه من الأحكام الوضعية. وإذا رأت النظارة أن أشترك معها في وضعه فذلك لها. والله أعلم.

وطيه الأوراق عدد ٦ بما فيها المشروع. وصورته:

العجز عن النفقة:

١ ـ إذا امتنع الزوج عن الإنفاق على زوجته، فإن كان له مال ظاهر، ولم يقل إنه معسر أو موسر، ولكن أصر على عدم الإنفاق، طلق عليه القاضي في الحال. وإن ادعى العجز، فإن لم يثبته طلق عليه حالاً، وإن أثبت الإعسار أمهله مدة لا تزيد على شهر، فإن لم ينفق طلق عليه بعد ذلك.

٢ ـ إن كان الزوج مريضا أو مسجونا وامتنع عن الإنفاق على زوجته أمهله القاضي مدة يرجى فيها الشفاء أو الخلاص من السجن، فإن طالت مدة المرض أو السجن، بحيث يخشى الضرر أو الفتنة، طلق عليه القاضي.

٣ ـ إذا كان الزوج غائبا غيبة قريبة، ولم يترك نفقة لزوجته، أعذر إليه القاضي بالطرق المعروفة، وضرب له أجلا، فإن لم يرسل ما تنفق منه زوجته على نفسها أو لم يحضر للإنفاق عليها طلق عليه القاضي بعد مضي الأجل. فإن كان بعيد الغيبة، على مسيرة عشرة أيام فأكثر للراكب، أو كان مجهول المحل، وثبت أنه لا مال له تنفق منه الزوجة طلق عليه القاضي.

٤ ـ إذا كان للزوج الغائب مال أو دين في ذمة أحد أو وديعة في يد آخر، كان للزوجة حق طلب فرض النفقة من ذلك المال أو الدين، ولها أن تقيم البينة على من ينكر الدين أو الوديعة، ويقضى لها بطلبها بلا كفيل، وذلك بعد أن تحلف

أنها مستحقة للنفقة على الغائب وأنه لم يترك لها مالا ولم يقم عنه وكيلاً في الإنفاق عليها. ثم الغائب على حجته بعد عودته.

٥ ـ تطليق القاضى لعدم الإنفاق يقع رجعيا، وللزوج أن يراجع زوجته إذا ثبت إيساره واستعد للإنفاق في أثناء العدة، فإن لم يثبت إيسارة أو لم يستعد للإنفاق لم تصح الرجعة.

٦ ـ من فقد فى بلاد المسلمين وانقطع خبره عن زوجته، كان لها أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية مع بيان الجهة التى تعرف أو تظن أنه سار إليها أو يمكن أن يوجد فيها، وعلى ناظر الحقانية عند ذلك أن يبحث عنه فى مظنات وجوده بطرق النشر للحكام ورجال البوليس. وبعد العجز عن خبره يضرب لها أجل أربع سنين، فإذا انتهت تعتد الزوجة عدة وفاة أربعة أشهر وعشرا بدون حاجة إلى قضاء قاضٍ، ويحل لها بعد ذلك أن تتزوج بغيره.

٧ ـ إذا جاء المفقود، أو تبين أنه حى، وكان ذلك قبل تمتع الزوج الثانى بها، غير عالم بحياته، كانت الزوجة للمفقود، ولو بعد العقد مطلقا، أو بعد التمتع فى حال ما لو كان الزوج الثانى عالماً بحياة المفقود. فإن ظهر أن المفقود مات فى العدة أو بعدها، قبل العقد على الزوج الثانى أو بعده، ورثته، ما لم يكن تمتع بها الثانى غير عالم بحياة الأول، فإن مات بعد تمتعه وهو غير عالم بحياة الزوج الأول لم ترث.

٨ ـ من فقد فى معترك بين المسلمين بعضهم مع بعض، وثبت أنه حضر القتال جاز لزوجته أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية، وبعد البحث عنه، وعدم العثور عليه، تعتد الزوجة بدون مدة، ثم لها أن تتزوج بعد العدة، ويورث ماله بمجرد العجز عن خبره، فإن لم يثبت إلا أنه سار مع الجيش فقط كان حكمه ما فى المادتين السابقتين.

٩ ـ لزوجة المفقود فى حرب بين المسلمين وغيرهم أن ترفع الأمر إلى ناظر الحقانية، وبعد البحث عنه يضرب لها أجل سنة، فإذا انقضت اعتدت وحل لها الزواج بعد العدة، ويورث ماله بعد انقضاء السنة. ومحل ضرب الآجال لاعتداد زوجة المفقود إذا كان فى ماله ما تنفق منه الزوجة أو لم تخش على نفسها الفتنة، وإلا رفعت الأمر إلى القاضى ليطلق عليه متى ثبت له صحة دعواها.

١٠ ـ إذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها في كتاب الله تعالى، رفع الأمر إلى قاضي المركز، وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين، أحدهما من أقارب الزوج والثاني من أقارب الزوجة، والأفضل أن يكونا جارين، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب، وأن يبعث بهما إلى الزوجين، فإن أصلحاهما فبها، وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه، وعند ذلك عليه أن يقضي بما حكما به، ويقع التطليق في هذه الحالة طلقة واحدة بائنة، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها.

١١ ـ للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر، والضرر هو ما لا يجوز شرعا كالهجر بغير سبب شرعي والضرب والسب بدون سبب شرعي. وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية(٥٦٧).

١٥١ ـ (السؤال)

سئل(٥٦٨) بإفادة من سعادة إبراهيم باشا حسن، مؤرخة في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٠٠، بدون نمرة، مضمونها: أنه لمناسبة ضرورة تأهل نجله علي بك رامز إبراهيم بألمانيا، اقتضى القانون هناك، ضمن الشروط، أن يحضر شهادة من فضيلتكم مؤداها أن زواجه القانوني بألمانيا يعتبر مقبولاً بمصر، وحيث إن ذلك جائز في الشرع الشريف، يرجو التكرم بإعطاء الشهادة المطلوبة للاعتماد.

(الجواب)

يجوز أن يتزوج المسلم التابع للدولة العلية بمسيحية، في ألمانيا أو غيرها من بلاد أوروبا. ويعتبر هذا الزواج مقبولا بمصر، متى كان العقد بحضرة شاهدين، ولو ذميين، وذلك لأن زواج المسلم بالمسيحية جائز شرعا في أي بلد كان متى استوفيت

الشرائط اللازمة لصحة العقد، لأن المسيحية من أهل الكتاب، وقد أحل للمسلمين أن يتزوجوا بالكتابيات. والله أعلم(٥٦٩).

١٥٢ ـ (السؤال)

سأل على سليمان أباظة، من ناحية طاهرة، شرقية، فى: رجل أجرى عقد زواجه على امرأة فى بلدة الزقازيق، ودخل بها فى بلدة ناحية طاهرة، شرقية. وبعد أن عاشرها معاشرة الأزواج مدة، طلقها، وقد رزقت منه بولد سنه ثلاث سنوات تقريبا. وفى أثناء العدة انتقلت به إلى مصر، وأقامت معه فيها نحو أسبوع أو أكثر، ثم انتقلت به من مصر إلى نجع حمادى بمديرية قنا، وكل ذلك بدون إذن أبيه، وما زالت مقيمة به بنجع حمادى إلى الآن، وما زال أبوه مقيما ببلدة طاهرة المذكورة، وبذلك لا يمكنه أن ينظر إلى ولده كل يوم بناحية نجع حمادى ويبيت فى بلده طاهرة، لما بينهما من المسافة البعيدة. فهل، والحالة هذه، ليس لها الانتقال بذلك الولد من ناحية طاهرة، وإقامتها به فى ناحية نجع حمادى؟ وعليها أن تعود به إلى جهة يمكن للأب أن يرى ابنه فيها ويعود إلى بلده فى يوم، حتى لا يضيع على الأب حق رؤيته كل يوم لولده؟ وإن أبت ذلك العود، يجبرها الحاكم على ذلك؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرح علماؤنا بأن البلدة التى قصدتها، إذا لم تكن بلدتها، أو كانت بلدتها لكن لم يقع التزوج فيها، فليس لها السفر بالولد، وللأب أن يمنعها من السفر به إليها. وهذا إذا كان بين البلدين ـ مصرين كانا أو قريتين ـ تفاوت، بحيث لا يمكن للأب أن يطالع ولده ويبيت فى بيته. وحيث خرجت هذه الأم بولدها المذكور من ناحية طاهرة، وسافرت به، وانتهى حالها على أن أقامت به فى ناحية نجع حمادى، التى ليست ببلدتها، ولم يقع التزوج فيها، وكان بينهما مسافة بعيدة، ولا يتأتى بسببها أن ينظر الأب ولده ويبيت فى بيته فى يوم واحد، فعليها أن تعود به إلى بلدة يمكن

للوالد أن يرى ولده فيها ويرجع إلى محل إقامته في يوم واحد، وإن امتنعت تجبر على ذلك، حفظا لحق الأب المذكور. والله أعلم(٥٧٠).

١٥٣ ـ (السؤال)

سألت الست خديجة بنت مصطفى أغا الجرولي، فى: امرأة ماتت وتركت أطفالاً لم يبلغوا سن الحضانة، ولأبيهم أم خالية من الأزواج والأشغال، ولأمهم المتوفاة أم كذلك خالية من الأزواج والأشغال، فهل يكون حق حضانتهم لأم الأب أو لأم الأم المتوفاة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

الحق فى حضانة هؤلاء الأولاد لأم أمهم المذكورة، حيث كانت صالحة لها قادرة عليها، دون أم أبيهم المذكورة. والله سبحانه وتعالى أعلم(٥٧١).

١٥٤ ـ (السؤال)

سألت الحرمة هانم بنت حسن عدس، فى: امرأة تزوج بها رجل، فرزقت منه بنتين وغلاما، ثم طلقها ثلاثا، فمكثت فى بيت والدتها عامين، وطلبت زوجها لدى ولى الأمر لتجعل عليه نفقة وأجرة حضانة لأولاده منها الصغار المذكورين، فتحصلت على تقرير عليه بذلك من محكمة شرعية. ولم يدفع لها الزوج شيئا مدة أربع سنين تقريبا من وقت هذا التقرير. وفى هذه المدة تزوجت بغيره، وصارت حضانة أولادها لوالدتها، ومكثت مع هذا الرجل الذى تزوجت به سنة تقريبا، ثم افترقا. ولما علم زوجها الأول أنها تريد أن تطالبه بالفرض الماضى، رأى أن يعيدها لعصمته ثانيا، فاحتال عليها حتى أعادها لعصمته، ولم يوافقا بعضهما، وافترقا ثانيا، فهل لها حق فى طلب النفقة المقررة سابقا وأجرة الحضانة؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

للمرأة المذكورة في السؤال أن تطلب من زوجها ما قدر لها من أجرة الحضانة في المدة الماضية من يوم التقدير، بلا نزاع. أما المقدر من نفقة الأولاد، فقد قيل: إذا لم تؤمر المرأة بالاستدانة، تسقط النفقة بمضى أكثر من شهر. وقال الزيلعى: لا تسقط نفقة الأولاد متى قدرت بالرضا أو القضاء، وإن طال الزمن، ورجح الأول بعضهم، ورجح الثانى بعض آخر، وأفتى به ثقاة المفتين، وهو الموافق للعدل، خصوصا في هذه الأزمان التى عمت فيها مماطلة الرجال لنسائهم فى الوفاء بالنفقات، فلا تزال المرأة تطلب وهو يمطلها حتى تمضى الشهور، بل الأعوام. فلو أخذ بالقول الأول أصبحت أحكام القضاة وما يجرى بين أيديهم مما لا أثر له، وعد ذلك كله لغوا. فالقول الثانى هو الذى يجب أن يكون عليه العمل، فلا تسقط نفقة الأولاد في المدة الماضية.

أما أجرة الحضانة التى للأم المطالبة بها فهى عن المدة الماضية كذلك، إلا فى الوقت الذى كانت فيه زوجة لغيره، فإنها لم تكن حاضنة، وفى الوقت الذى رجعت فيه لوالد الأولاد، فإنها فى هذه الحالة مكلفة بالقيام على الأولاد بلا أجر. وأما الجدة فلها أن تطلب بأجرة الحضانة مدة إقامة الأولاد تحت حضانتها، لأن تقدير الأجرة أمام القاضى كان إلزاما للزوج بأن يدفع الأجرة المقدرة لمن يحضن الأولاد، فيتعدى ذلك إلى الجدة بالضرورة. على أن أجرة الحضانة كأجرة الرضاع تلزم بدون عقد، كما صرحوا به. والله أعلم(٥٧٢).

١٥٥ ـ (السؤال)

سأل سلامة محمد بدر، من شبين القناطر، قليوبية، في: شخص وله ولد بالغ، وهو معه في معيشة واحدة، فخطب والده له بنتا بكرا من وليها، فأجابه بشرط أن يكون الوالد ملزما بجميع ما يلزم لها من نفقة وكسوة ومسكن فى المستقبل، فقبل ذلك الشرط والتزمه، وزوجها لابنه على ذلك. ودفع الوالد مقدم الصداق، ودخل ابنه بها وأقام معها، وقد امتنع والده من النفقة عليها، فهل يلزم

بها عملاً بذلك الشرط، حيث كان موسرا وابنه فقيرا غير قادر على كسب ما يفى بنفقتها؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن الأب لا يطالب بمهر زوجة ابنه ونفقتها إلا أن يضمن، وحملوا ضمان النفقة على ما إذا كانت بعد الفرض أو التراضى. وقالوا: إن الحمل على ذلك متعين. وعليه فضمان الأب لنفقة زوجة ابنه المذكور غير صحيح، حيث كان ذلك قبل الفرض أو التراضى، فلا تلزمه نفقتها بناء على التزامه المذكور لعدم صحته، كما ذكر. ومتى كان الزوج فقيرا ليس عنده قدر النفقة لزوجته يستدين عليه بأمر القاضى، كما نصوا عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم(٥٧٣).

١٥٦ ـ (السؤال)

سئل (٥٧٤) بإفادة من نظارة الحربية مؤرخة فى ٩ إبريل سنة ١٩٠٣م نمرة ٣٦٥ سايرة، مضمونها: أنه ورد فى آخر المادة ١٩ من قانون القرعة العسكرية الصادر عليه الأمر العالى بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٠٢م ما نصه:

«وعند تطبيق هذه المادة يعتبر الشخص الغائب غيابا شرعيا كأنه ميت»، وحيث إن بعض أنفار القرعة حاصل الإدعاء منهم بغياب آبائهم وإخوتهم، وجار إثبات غيابهم بإعلامات فى المحاكم الشرعية، مع اختلاف مدة الغياب من سنتين وثلاث وأكثر، وأن نص ذيل تلك المادة يستدعى معرفة مدة الغياب التى يمكن تطبيقها عليه. والمرجو الإفادة عن ذلك.

(الجواب)

ما ذكر فى الفقرة الثالثة من المادة المذكورة فيما يتعلق بالمرأة التى غاب عنها زوجها وهو:

«أو غاب زوجها غيابا شرعيا، أو تركها ولا يعلم مقره».

يدل على أن الغرض من الغياب الشرعى غيبة أخرى غير غيبة المفقود، وإن كانت غيبة المفقود تعد غيابا شرعيا أيضا. فهذا النص يشمل الغيبة التى تترتب عليها أحكام شرعية وتعد غيبة صحيحة، سواء غيبة مفقود أو غيبة أخرى معتبرة شرعا. وغيبة المفقود هى غيبة من لا يعرف مكانه ولا يعلم موته ولا حياته، وهو ما ذكر فى الفقرة الثالثة فى عبارة «أو تركها ولا يعرف مقره».

ومتى كانت حالة الغائب كذلك عدت غيبته شرعية، سواء طالت مدة الغيبة أو قصرت.

وأنواع الغيبة الشرعية: ما يسمى غيبة منقطعة، وهى أن يكون الغائب فى مكان لا يمكن الوصول إليه، وإن كان ذلك المكان معلوما، كمن يكون فى الهند أو المغرب الأقصى بالنسبة إلى المصريين، فإن مثل هذا الغائب لا يمكن أن ينفع من يتصل به من الزوجة وذى القرابة بشىء، إذا لم يثبت ثبوتا كافيا أنه يرسل إلى ذى قرابته بأى طريق من الطرق ما يعينه فى معيشته، وهذا النوع من الغيبة تشمله تلك المادة، بدليل ما جاء فى الفقرة الثالثة، كما قلنا. ويعتبر صاحبها فى حكم المفقود، ويكون بالنسبة إلى قانون القرعة بمنزلة الميت بدون مدة.

وهناك نوع ثالث من الغيبة، وهو ما كان الغائب فيه من البلد على مسافة ثلاثة أيام بلياليها، بالسير المتوسط، وهذا النوع لا تشمله المادة التاسعة عشرة. والله أعلم[٥٧٥].

١٥٧ - (السؤال)

سال محمد على، من حلفا، فى: رجل عقد على امرأة، ثم ماتت قبل الدخول، فهل له أن يتزوج بنتها:؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لا تحرم البنت إلا بالبناء بالأم، وحيث إن الأم ماتت قبل الدخول، فيسوغ لمن كان عاقدا عليها أن يتزوج ببنتها. والله أعلم[٥٧٦].

١٥٨ ـ (السؤال)

سألت السيدة تريال هانم، زوجة المرحوم محمد بيك أنور، محافظ دمياط سابقا، في: أنه جعلها حال حياته وصية علي أولاده وتركته بعد موته، وحرر بذلك وصية في ١٤ يناير سنة ١٩٠٢، ومات بعد ذلك عنها وعن باقي ورثته الكبار والصغار، وصدق على هذه الوصية مجلس حسبي دمياط وقاضيها ومفتيها، وصارت معتمدة.

وكان هذا الموصي، حال حياته، قد وضع في بنك «الكريدى ليونيه» بمصر مبلغا وديعة، وتريد هذه الوصية قبض هذا المبلغ من البنك المذكور، فهل لها ذلك شرعا؟ وإن كان للمتوفي ديون على الناس يجوز لها قبضها كذلك؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن للوصي قبض وديعة الموصى من المودع، وأن الرجل إذا مات عن صغار وكبار، وللصغار وصي، وللميت ديون على الناس يكون قبض دينه للوصي، لا للورثة، وعلى ذلك يكون لهذه الوصية قبض المبلغ المذكور من ذلك البنك، حيث إن موصيها قد وضعه حال حياته وديعة به، كما أن لها قبض دينه الذى على الناس. والله أعلم[٥٧٧].

١٥٩ ـ (السؤال)

سأل محمد محمد المنشاوى، بدرب المحروقي، بقسم الدرب الأحمر، في: رجل متزوج بامرأة أحضرته أمام القاضي الشرعي وطلبت منه أن يفرض لها عليه نفقه كل يوم، فأجاب طلبها، وفرض لها عليه النفقة. ثم أقامت في بيت أهلها نحو سنة، وادعى عليها زوجها النشوز، وأثبته عليها باعترافها به لدى القاضي، وحكم به. فهل هذا الحكم يسقط حقها في النفقة الماضية المتجمدة لها؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأن النفقة المفروضة تسقط بالنشوز، بمعنى أنه إذا كان للزوجة على زوجها نفقة أشهر مفروضة، ثم نشزت، سقطت تلك الأشهر الماضية. هذا إذا لم يأمرها القاضي بالاستدانة، أما إذا أمرها واستدانت عليه فإنها لا تسقط.

ومن هذا يتبين أن نشوز هذه المرأة بعد فرض تلك النفقة، وقد ثبت عليها باعترافها، وحكم به، يسقط نفقة المدة الماضية، حيث لم تكن مستدانة، فلا حق لها فى المطالبة بتلك النفقة الماضية. والله أعلم(٥٧٨).

١٦٠ ـ (السؤال)

سأل حسن أفندى ندى، بمركز نوى، فى: رجل طلق زوجته، وهو مرزوق منها بولدين صغيرين، وكان قرر على نفسه نفقة لهما بالسوية، وكانا فى حضانة أمهما، ولها وكيل شرعى فى قبض ما تقرر من النفقة لهما. ثم إن هذه الأم تزوجت بأجنبى منهما، وبذلك سقطت حضانتها، وكان الوكيل يقبض من والد الصغيرين نفقتهما شهريا، وأحدهما بلغ من العمر سبع سنين وسلمه الوكيل إلى أبيه، وأخذ الوكيل الولد الثانى الذى لم يبلغ من العمر سبع سنين عنده، وكتم أمر زواج موكلته على والده، وصار يأخذ النفقة على زعم بقاء الحضانة مدة. والصغير المذكور ليس له من قبل أمه سوى جدة متزوجة ومشتغلة بشئون زوجها وأولادها، ومقيمة بمكان يبعد عن محل الأب بمسافة القصر، وله جدة من قبل أبيه خالية من الأزواج، وأهل للحضانة. فهل ما قبضه الوكيل من الوالد المذكور من تاريخ عقد زواج الأم يجوز للوالد الرجوع به عليه؟ حيث لم يكن الصغير فى حضانة أمه؟ والوكيل قد تكتم الزواج؟ وهل تنتقل الحضانة من أم الصغير إلى جدته من قبل أبيه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: إن الأم إذا تزوجت بأجنبى ينتقل حقها فى الحضانة إلى أمها، وإن علت، فإن لم تكن، أو كانت ليست أهلا للحضانة، تنتقل إلى أم الأب، وإن علت.

وحيث تزوجت أم الصغير بأجنبى، وليس من قبلها سوى جدة ليست أهلا للحضانة فتنتقل حضانته إلى جدته التى من قبل أبيه، إن كانت أهلا لها.

أما ما دفعه الأب للوكيل من نفقة ابنه هذا الصغير، حال سقوط حضانة أمه بذلك الزواج، لينفقه عليه فلا حق له فى الرجوع به عليه، لأن نفقة الابن الصغير واجبة على أبيه، وهذا الأب إنما دفع ما دفعه لذلك الوكيل نظير نفقة ابنه الصغير، فلا مدخل للحضانة فيه، فلا رجوع له به عليه متى تحقق الإنفاق. والله أعلم(٥٧٩).

١٦١ ـ (السؤال)

سأل الشيخ محمد طموم، بالأزهر، فى: رجل تزوج امرأة، وقد ضمن لها أبوه نفقتها وكفلها له بكتابة لها بذلك. وقد دخل بها هذا الزوج، ثم امتنع من الإنفاق عليها لفقره، فهل، والحالة هذه، يكون ذلك الأب ملزما بتلك النفقة؟ معاملة له بكفالته وضمانه؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المصرح به فى كتب المذهب أنه لو كفل لها رجل بالنفقة أبدا ما دامت الزوجية جاز، بناء على أن صحة الكفالة بها مستثناة من شرط كون المكفول به دينا صحيحا، وقالوا: إن ذلك كقوله لامرأة الغير: كفلت لك بالنفقة أبدا، فإنه تلزمه النفقة أبدا ما دامت فى نكاحه، كما فى (رد المحتار) وغيره) ومن هذا يتبين أن ذلك الأب تلزمه نفقة زوجة ابنه المذكورة ما دامت الزوجية، فإن مثل هذه الكفالة لا يراد به إلا التأبيد. والله أعلم(٥٨٠).

١٦٢ ـ (السؤال)

سأل محمد بدر، من ناحية الكردى، بمركز دكرنس، دقهلية، فى: رجل مع

والديه، ثم نيته و (مقصده)[٥٨١] أخذ زوجته وخروجه من عند والديه. ثم بلغ سن الاقتراع، وصار طلبه، وكانت معه والدته إلى جهة طلبه، فقالت له: إنى أريد أن أدفع لك «البدل»[٥٨٢] نقدا لجهة الحكومة، لعدم اقتراعك، بشرط أن تحلف لى بالطلاق الثلاث من زوجتك أنك لا تفارقنا وتعيش مع زوجتك وتتركنا. فقال لها: على الطلاق الثلاث أنى لا أفارقكما وأعاشر زوجتى خارجا عنكما. ومقصده: إن دفعت والدته «البدل» عنه. فعوفى فى «الفرز»، بلا بدل، فهل يدين فى قصده المذكور؟ وإذا انفصل عن والديه بعد ذلك مع زوجته لا يقع عليه الطلاق الثلاث، وتكون زوجته على عصمته؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

حال هذه المرأة مع ابنها المذكور دالة على أن حلف ابنها بالطلاق الثلاث المذكور على عدم الخروج بزوجته وترك والديه مقيد بما إذا دفعت «البدلية» عنه لجهة الحكومة، فإذا لم تدفعها، وخرج بزوجته وترك والديه لا يقع ذلك الطلاق.

وأما قولهم: إن الأيمان مبنية على الألفاظ، لا على المقاصد، فذلك فى غير مثل حادثتنا. أما حادثتنا، ومايجرى مجراها، فهى من قبيل ما حذف فيه بعض الكلام للدلالة عليه بالقرينة الظاهرة التى لا شبهة فيها، فقوله: (على الطلاق الثلاث أنى لا أفارقكما.. إلخ)، بعد طلب والدته اليمين، مما ذكر فيه المعلق وترك المعلق عليه لتقدمه، كحذف الفعل فى جواب القائل: من جاء؟ فنقول: زيد، أى: جاء زيد، فلا تتم الجملة إلا بالمحذوف فى الحقيقة. والله أعلم[٥٨٣].

١٦٣ ـ (السؤال)

سأل الزنقلى أحمد شريف، من ناحية الميدوم، بمركز فاقوس، شرقية، فى: رجل تشاجر مع زوجته، فقالت له: أبرأتك من صداقى ونفقة عدتى، فقال لها: إن صحت براءتك فروحي طالق. فمزقت ملابسها ولطمت وجهها وقبضت بطوق زوجها، وقالت له: كملها! فقال لها: كيف أكملها؟! فقالت له: بالثلاث، فقال

لها: طيب، بالثلاث. فعندها عرفهما مأذون الناحية بأن الطلاق واقع ثلاثاً لا لتحامه ببعضه. فما هو الحكم فى ذلك؟

(الجواب)

لا يقع الطلاق المعلق على صحة البراءة فى الحادثة المذكورة على هذا الوجه، لأنهم نصوا على أنها إذا ضمت نفقة العدة المستقبلية إلى الصداق ومؤخره وأبرأته منهما، وعلق زوجها الطلاق على صحة براءتها، لا يقع.

وقولها: بالثلاث، بعد أن مزقت ثيابها ولطمت وجهها وقبضت بطوق زوجها وقالت له: كملها، وقولها: بالثلاث، لا يلحق ما قبله، للفاصل غير الضرورى. ولو فرض اللحوق والاتصال بقوله: روحى طالق، الأول، لا يقع أيضا، لأن الوقوع بالعدد إذا قرن به وقد علق على صحة البراءة، وقد علمت عدم صحتها. والله أعلم(٥٨٤).

١٦٤ـ (السؤال)

سئل(٥٨٥) من الشيخ راضى وسيم، من الغربية، فى: رجل سرق خرجا لعمدة بلده كان موضوعا بباب المسجد، بأجرى العمدة البحث عليه، فخاف السارق أن يصل البحث إليه، فالتجأ إلى ذى مروءة، وترجاه أن يأخذه ويوصله إلى صاحبه، ولا يخبره به إذا سأله عن السارق. فقبل رجاءه، وتوجه بالخرج إلى العمدة، وأعطاه أياه، فسأله: من الآخذ لهذا الخرج؟ فقال: أنا، لكن لا بقصد السرقة، فقال له: تعلم حين أخذته من باب المسجد أنه خرجى؟ قال: لا، لأنه لم يعلم بذلك وقت أخذه من باب المسجد، فاستحلفه على ذلك بالطلاق الثلاث، فحلف أنه لا يعلم حين أخذه من باب المسجد أنه للعمدة، فهلا يقع عليه الطلاق؟

ثم مررت على والد العمدة، وهو بباب البيت، ولم يسألنى عن شىء، غير أنه قال لى: هل حلفت؟ قلت: نعم، وانصرفت.

والآن، ادعى والد العمدة أنه سأل الحالف بعد ما تقدم: هل كان حلفك أنك لا

تعلم أنه خرج العمدة قبل أخذك له من باب المسجد وبعده؟ وأنه قال: نعم. لا بينة له على ذلك، فهلا يقع على الحالف الطلاق بهذا الحلف ولا يعول على هذه الدعوى؟ أفيدونا.

(الجواب)

حلفه على أنه لا يعلم، وقت أخذ الخرج من باب المسجد، أنه للعمدة لا يقع به عليه شيء، لصدقه في هذا الحلف، لأن علمه بأنه للعمدة لم يحصل إلا بإخبار السارق له بعد الأخذ من باب المسجد، فلا علم له حال الأخذ من باب المسجد، فلا يحنث في يمينه، خصوصاً وتحليف صاحب الخرج له إنما هو تحليف له في الحقيقة على أنه لم يسرق الخرج، فحلفه بالطلاق أنه لا يعلم بأنه له وقت أخذه من باب المسجد هو حلف على أنه ليس بسارق الخرج، وهو في الحقيقة غير سارق له، فلا يحنث في يمينه كما قلنا. والله أعلم(٥٨٦).

١٦٥ ـ (السؤال)

سئل(٥٨٧) بإفادة من قاضي محكمة مركز ههيا الشرعية مؤرخة في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٠، بدون نمرة، غير رسمي، مضمونها: أن امرأة تزوجت برجل على أن عصمتها بيدها، تطلق نفسها متى شاءت، وقبل الزوج بقوله: قبلت نكاحها على أن أمرها(٥٨٨) بيدها تطلق نفسها متى شاءت. ثم تنازعت مع زوجها نزاعا استوجب أن قالت لزوجها: طلقتك، فهل قولها لزوجها هذا: طلقتك، لا يعد طلاقا، لأنها لم تقل: طلقت نفسي منك؟ وإذا كان طلاقا فهل له أن يراجعها؟ وإذا راجعها فهل لا يعود لها حكم الأمر باليد، كما هو المعروف في كتب الفقه من أن ألفاظ الشرط كلها ينحل بها اليمين إذا وجد الشرط مرة ما عدا «كلما» المقتضية للتكرار؟ وهل من حيلة توجب إبطال الأمر من يدها إذا لم يكن هذا الطلاق واقعا؟

ورغب الإفادة بما يقتضيه الوجه الشرعي. وأرسل الوثيقة.

(الجواب)

مقتضى ما وجد فى وثيقة الزواج من تمليك الزوج زوجته عصمتها صحيح، وقد شرطت الزوجة أن يكون لها الطلاق متى شاءت، فلا تملك الطلاق إلا مرة واحدة، لأن الشرط يقع بمرة واحدة، ولا يتكرر إلا إذا كان بلفظ «كلما»، لأنها لعموم الأفعال أما قولها له: طلقتك، فلا يقع به الطلاق، لأن محل الطلاق هو الزوجة لا الزوج، وحيث لم يقع طلاق فهى باقية على شرطها، ولا حيلة فى إبطاله بوجه شرعى. هذا ما ذكره علماؤنا. والله أعلم.

وطيه الوثيقة(٥٨٩).

١٦٦ ـ (السؤال)

سأل محمد الحلوجى، من الشبول، دقهلية، فى: امرأة بكر بالغ قالت لأبيها الرشيد، بحضرة شهود: وكلتك فى تزويجى بفلان البالغ الرشيد، بصداق ثلاثين «بنتو»ذهبا، حالة ومؤجلة، وتكون عصمتى بيدك. فقبل منها الوكالة، وزوجها للرجل المذكور بقوله له: زوجتك بنتى فلانة البكر البالغ بإذنها لى فى العقد على صداق ثلاثين «بنتو»ذهبا حالة ومؤجلة، وعصمتها بيدى. فقبل الزوج منه الزواج لنفسه بقوله: قبلت منك زواجها لنفسى، على الصداق المذكور، وعصمتها بيدك. وكان ذلك بحضرة شهود، والزوج أمى. فهل يصح هذا العقد؟ وللأب أن يطلقها متى شاء؟ ومتى كيفية الطلاق إن أراده؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قالوا: إذا بدأت المرأة بالإيجاب، وكان فيه شرط أن تكون عصمتها بيدها، وقبل الزوج النكاح على ذلك الشرط، صح النكاح، ولزم الشرط، بخلاف ما إذا أوجب الزوج مع الشرط، وقبلت المرأة، فإن الشرط يلغو حينئذ، وقالوا: إن بطلان الشرط فى الصورة الثانية مبناه أن الزوج قد ملك العصمة قبل العقد، فإذا قبلت الزوجة مع

ذكر الشرط كأنها أعطت تلك العصمة لنفسها عند تمام العقد، وهى لا تملك ذلك بالضرورة، بخلاف ما إذا بدأت، وأجاب الزوج بالشرط، فإن الشرط يكون قد وقع بعد تمام العقد، ويكون الزوج قد ملكها ما يملكه حقيقة، فيلزم.

وما صدر من الوكيل فى هذه الحادثة كأنه صادر عن نفس الزوجة، لأن الوكيل سفير ومعبر، وقد أوجب أولا مع الشرط، وقبل الزوج معه، فيلزم. وقول الوكيل: وعصمتها بيدى، وقول الزوج: وعصمتها بيدك، بمنزلة قول كل منهما: على أن تكون عصمتها بيد فلان. فالعقد صحيح، والشرط لازم.

ثم قالوا: إذا قال الزوج لزوجته: عصمتك بيدك، أو: اختارى لنفسك، ولم يقل: تطلقي نفسك متى شئت، أو: كلما شئت، ونحو ذلك، صح التفويض. واقتصر الحق لها فى التطليق على مجلسه، فإذا انقضى المجلس لم يكن لها أن تطلق نفسها. ومقتضى تعليلهم السابق فى مثل حادثتنا أن تمليك العصمة حصل بعد العقد، فيكون حكمه حكم التفويض الذى ذكروه، وعلى ذلك فلا يكون لوالد الزوجة فى حادثتنا أن يطلق زوجته متى شاء بعد انقضاء مجلس العقد، لأن كلا من الزوج والوالد لم يقل: يطلقها متى شاء، ولم نطلع على كلام لهم فى مثل حادثتنا، ولكن لو أعطينا الشرط الواقع فى العقد حكم التفويض الواقع بعده، بناء على ما يفهم من كلامهم، لأصبح الشرط لغوا. ولكان ذلك مخالفا لمقصد المتعاقدين بالضرورة، فإن الزوجة إنما شرطت تمليك العصمة لوالدها لأجل أن تتخلص من مضايقة زوجها لها بعد الدخول أو قبله لو عرض شقاق بينهما، والزوج قبل ذلك على أن يكون حل العصمة بإرادة الوالد فى مستقبل الزمان إذا عن له ذلك، لا أن يكون له ذلك فى مجلس العقد، حتى يلزم بنصف الصداق قبل انصرافه منه بدون أن يتمتع بشىء، بل يكون هذا بمنزلة أن تقول الزوجة: وكلتك فى أن تعقد نكاحى، ولك أن تطلقنى فى الحال. ويقول الزوج: قبلت ذلك، ولك أن تفصم عصمتها قبل قيامنا من المجلس. وهو من الهزء بمكان، ولا يمكن أن يتوجه إليه قصد عاقل.

وقد جاء فى كلامهم، فى حكم حادثة أخرى ما يسترشد به على الحكم فى حادثتنا وذلك أنهم قالوا: إذا خافت الزوجة عند نكاح المحلل ألا يطلقها، فالحيلة أن تقول: زوجت نفسى منك على أن تكون عصمتى بيدى، فتتخلص بهذا من

تعنت الزوج الجديد، ولم يقيدوا صحة ذلك لها بأن تقول: أطلق نفسي متى شئت. وجاء في عبارات بعضهم التقييد بكلما شاءت. فالذي أطلق العبارة راعى بلا ريب أن مجرد الاشتراط كاف في أن تملك عصمتها إلى ما بعد الدخول حتى يتم الحل بدون أن تقول: متى شئتَ أو كلما شئت. وهذا هو الذي أذهب إليه في حادثتنا.

أولا: لأن عدم ذكر هذا القيد، وهو يطلقها متى شاء، ليس بشيء، لأن الشرط نفسه لا تكون له فائدة تفعل إلا معه، فهو إنما ترك لأنه مفهوم بالبديهة والتعارف الذي لا يرتاب فيه.

وثانيا: لأن النكاح وقع مقيدا به، فكأن كلا منهما قال: إن النكاح باق ما بقي الشرط، فلا نكاح بدونه، فالشرط دائم بدوام النكاح، وذلك يساوي التصريح بالتطليق متى شاء.

وثالثا: لأن قولهم: إن الشرط قد وقع بعد النكاح لا يقتضي التسوية بين هذه الحالة وحالة التفويض التي ذكروها، لأن التفويض إذا ذكر استقلالا كان ذلك ابتداء قصدا للفراق بعد مرور الزمن على النكاح، كأن الزوج عنَّ له أن يطلق فأراد أن يكون الطلاق بيد زوجته حتى لا يكون مباشراً له، وهذا أمر متعارف عليه عند الناس، صورة من صور الطلاق غير أنها معلقة على إرادة شخص آخر. ولا ريب في أن هذا يتحدد بالمجلس ما لم يصرح بلفظ يدل على امتداده إلى أكثر من ذلك. أما في حادثتنا فالبعدية تقديرية كأنها مسألة من مسائل الاقتضاء، فإنه لما قال: قبلت، وعصمتها بيدك، فقد وقع تمام العقد مع الشرط، لكن يقدر أن النكاح تم، ثم كان التمليك، فالشرط وقع في ضمن العقد، فيكون له حكم العقد قصورا وامتدادا، ولا يمكن أن يعطى حكم التفويض المستقل، وهذا هو الذي يمكن أن تصان به الأحكام الشرعية عن العبث، فيكون لوالد الزوجة أن يطلقها متى شاء مرة واحدة، ولا يتكرر. وأما صيغة الطلاق فهي أن يقول: طلقتها وأبنتها، مثلا، من ألفاظ الطلاق المعروفة. وأما كون الزوج أميا، فهو يؤيد ما ذهبنا إليه، لأنه لا يفهم من شرط تمليك العصمة إلا أن يكون للوالد طلاقها متى شاء بالضرورة. والله أعلم(٥٩٠).

١٦٧ ـ (السؤال)

سأل الشيخ محمود عبد المجيد أحمد محمود، من الرحمانية، فى: رجل بلغ من السن ستين سنة، واشتد غضبه من ولده إلى أن صار بحالة يتكلم بما يفهم وما لا يفهم، وألقى الأكل جميعه على الأرض، وكسر الأوانى بالإلقاء والضرب بالعصا، وفى هذه الحالة قال أيضا: لو طالت يدى ولدى لهلكته، وقال: زوجتى فلانة بنت فلان طالق ثلاثا، وهى بنت فلان آخر. فهل طلاقه فى هذه الحالة واقع؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

قال فى (رد المحتار) من كتاب الطلاق[٥٩١]. . . بعد كلام يتعلق بالمدهوش الذى لا تعتبر أقواله ـ مانصه: «والذى يظهر لى أن كلا من المدهوش والغضبان لا يلزم فيه أن يكون بحيث لا يعلم ما يقول، بل يكتفى فيه بغلبة الهذيان واختلاط الجد بالهزل، كما هو المفتى به فى السكران، على ما مر، ولا ينافيه تعريف المدهش بذهاب العقل، فإن الجنون فنون، ولذا فسره فى (البحر) باختلال العقل، وأدخل فيه العته والبرسام والإغماء والدهش. ويؤيد ما قلنا قول بعضهم: العاقل من يستقيم كلامه وأفعاله إلا نادرا، والمجنون ضده. وأيضا فإن بعض المجانين يعرف ما يقول ويريده ويذكر ما يشهد الجاهل به بأنه[٥٩٢] عاقل، ثم يظهر منه فى مجلسه ما ينافيه. فإذا كان لمجنون حقيقة قد يعرف ما يقول، ويقصده، فغيره بالأولى. فالذى ينبغى التعويل عليه فى المدهوش ونحوه إناطة الحكم بغلبة الخلل فى أقواله وأفعاله الخارجة عن عادته. فكذا يقال فيمن اختل عقله لكبر أو لمرض أو لمصيبة فاجأته، فما دام فى حال غلبة الخلل فى الأقوال والأفعال لا تعتبر أقواله، وإن كان يعلمها ويريدها، لأن هذه المعرفة والإرادة غير معتبرة، لعدم حصولها عن إدراك صحيح، كما لا تعتبر فى الصبى العاقل. . »إلى آخر ما ذكر فى هذا المقام.

ومنه يعلم أنه إن صح ما قيل فى السؤال من أن الرجل كان يتكلم بما يفهم وما لا يفهم، وأنه ظهرت منه أفعال من عجز عن ضبط إرادته وإدراكه، كان حكمه حكم من ذكره فى (رد المحتار) ولا يقع عليه الطلاق. والله أعلم[٥٩٣].

١٦٨ ـ (السؤال)

سأل مصطفى القباني الدمشقي، في: إذا كان لزيد دين على عمرو وعده بدفعه يوم كذا، فقال صاحب الدين: قل: إن لم أدفع لك في الوقت المذكور فكل امرأة تدخل في نكاحي طالق ثلاثا، بغير تورية، بل على نيتي. فأجابه بقوله: إن لم أدفع لك في الوقت المذكور، فكل امرأة تدخل في عقد نكاحي طالق ثلاثا، على نيتك. فجاء الوقت ولم يدفع له. قامت زوجته السابق نكاحها على اليمين المذكور تدعي دخولها في اليمين، وأنها بانت منه بينونة كبرى، فعارضها الزوج بأنها لا تدخل بهذه الصيغة، فأجابت قائلة: حيث سلخ النية عن نفسه وأحالها إلى زيد، المحلف صاحب الدين، فصار الاعتبار لنيته، وتطلب من الحاكم الشرعي سؤال زيد المذكور عما نواه، فهل إذا سأله وأجاب بأنه نواها في هذا اليمين تبين بينونة كبرى؟؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

المعتبر في مثل حادثة السؤال نية الحالف المذكور، لما نصوا عليه من أنه في التحليف بطلاق وعتاق تعتبر نية الحالف مطلقا، ظالما أو مظلوما، ديانة وقضاء، إن لم تخالف الظاهر، فإن خالفته اعتبرت ديانة فقط. ونية الحالف كل امرأة ينكحها في المستقبل، وعدم دخول زوجته التي سبق نكاحها على اليمين لم تخالف الظاهر، لأن الظاهر من قوله: تدخل في عقد نكاحي، الدخول في المستقبل، وقول الدائن المحلف له: بغير تورية، بل على نيتي، وقول الحالف في الحلف: على نيتك، مخاطباً به المحلف، لا يفيد شيئا، فإن إفادة المضارع للمستقبل لا تورية فيها، فهو صادق في أنه حلف بلا تورية، وقوله: على نيتك لا يؤثر شيئا كذلك، لأن المعتبر في نيته ما كان يصح أن ينوى في ذلك اللفظ، وهو لا يصدق في الماضي، فقد حلف على نيته التي يصح أن تكون من اللفظ، فلو أراد يمينا أشمل لكان قد حلفه بغير هذه الصورة. على أنه لا شيء من هذه الألفاظ يزيل اختصاص النية بالحالف في التحليف بطلاق وعتاق، فتكون نية الحالف باقية على هذا الاعتبار. وحيث لم يجعل يمينه شاملا لزوجته التي سبق نكاحها عليه، ولم ينوها

بلفظه، لا يقع عليها شيء من الطلاق، لا قضاء ولا ديانة. نعم، تبقى اليمين منعقدة، فكل امرأة ينشئ العقد عليها فى المستقبل تكون طالقا ثلاثا، حتى زوجته المذكورة لو أنشأ عليها نكاحا فى المستقبل تكون كذلك. والله أعلم[٥٩٤].

١٦٩ ـ (السؤال)

سأل عبد القادر أفندى عمر، بالأموال الغير مقررة بالمالية، فى: رجل تشاجر مع زوجته فقال لها: إن خرجت باكرا تكونى طالقة، فقالت له: سأفعل ذلك، فقال لها: تكونين على ذمة نفسك. ثم فعلت الخروج المحلوف عليه باكرا، فراجعها من غير عقد، بقوله: راجعت زوجتى إلى عصمتى، وهو حنفى المذهب، ولم يقلد من يرى صحة الرجعة، واشتهر ذلك بأن صار معروفا بين الناس، وعاشرها مدة تزيد على ستة شهور حاضت فيها ثلاث حيض وزيادة، ثم تشاجر مع خالها فقال مخاطبا له: بنت أختك تكون طالقة بالثلاث. فهل تنقضى العدة مع المعاشرة حيث كان الطلاق مشهورا ولا يلحقه الطلاق الثلاث حيث كان بعد انقضاء عدتها منه، ويكون له الآن العقد عليها بمهر جديد وحضرة شاهدين برضاها؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

إن قصد بقوله تكونين على ذمة نفسك التنجيز وقع به طلاق بائن، ولا يبطل به تعليق الأول، فإذا خرجت وقع الطلاق الصريح المعلق ولحق الطلقة المنجزة وهى: تكونين على ذمة نفسك، وإن قصد التعليق، كما فى الأول، وخرجت، وقع عليه الطلقتان. وعلى كل حال فإن إحداهما وهى: تكونين على ذمة نفسك، بائنة لا تصح الرجعة المذكورة فيها. وحيث أوقع الطلاق الثلاث بعد انقضاء العدة بالمعاشرة، مع شهرة الطلاق السابق واعتراف الزوجين به، تكون الزوجة أجنبية منه، لا يلحقها الطلاق الثلاث المذكور، ويكون له العقد عليها برضاها ومهر جديد وحضرة شاهدين، وبعد ذلك يملك عليها طلقة واحدة لا غير والحال ما ذكر. والله أعلم[٥٩٥].

١٧٠ ـ (السؤال)

سأل الشيخ حسن داود، شيخ رواق الصعايدة بالأزهر، فى: رجل تزوج بنتا قاصرة من أبيها وليها بمهر سماه، وقسطه عن كل شهر جزءا معلوما، وقال: إن تأخرت فى دفع قسط شهر تكون زوجتي فلانة، التى هى البنت المذكورة، خالصة ولم تكن لى على ذمة. فهل إذا تأخر فى قسط أى شهر من شهور التقسيط تبين منه زوجته؟ ولا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

نعم، إذا تأخر الزوج فى قسط من الأقساط ولم يدفعه فى وقته المحدد له تقع عليه طلقة بائنة، ولا تحل له بعد ذلك إلا بعقد ومهر جديدين، على القواعد الشرعية. والله أعلم(٥٩٦).

١٧١ ـ (السؤال)

سأل محمد خليل حمزة، فى: رجل أراد أن يتزوج أخت رجل آخر، فتكلم معه فى زواجها، فامتنع بالنسبة لكون زوجة الخاطب بينها وبين المخطوبة قرابة، فقال الخاطب: وأيمان المسلمين إن لم أتزوج بفلانة، المخطوبة، تكون زوجتى محرمة على مثل أمى وأختى.

فهل يقع بأيمان المسلمين شيء؟ أو لا يقع؟ ويلزمه ظهار؟ أو لا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لا يقع بأيمان المسلمين شيء على هذا الرجل، لأنه قسم، وجاء لغوا فى التعليق. وإنما يقع عليه بقوله: إن لم أتزوج بفلانة تكون زوجتى محرمة على مثل أمى وأختى، طلاق بائن عند اليأس من التزوج بها بموته أو موتها. والله سبحانه وتعالى أعلم(٥٩٧).

١٧٢ ـ (السؤال)

سأل محمد أحمد، من سفاى، تبع مديرية المنيا، فى: رجل قال لزوجته: أنت طالق ثلاثا، غير باقية على ذمتى ما لم أتزوج حسب مرغوبى، فهل تطلق منه؟ أو لا تطلق؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

لا تقع هذه اليمين على ذلك الحالف إلا باليأس من تزوجه حسب مرغوبه، ولا يتحقق اليأس إلا بآخر جزء من حياته. وذلك، لأن هذا الاستعمال فى لسان مثل الحالف يعين معنى الشرط، كأنه قال: أنت طالق ثلاثا إن لم أتزوج، أو: إن لم أتزوج حسب مرغوبى فأنت طالق ثلاثا. ومثل هذا اليمين لا يحنث حالفها إلا باليأس، كما ذكرنا. وعلى ذلك، فزوجته المحلوف عليها لا يقع عليها ذلك الطلاق، بل هى باقية على عصمته إلى حين ذلك اليأس. والله سبحانه وتعالى أعلم[٥٩٨].

١٧٣ ـ (السؤال)

سأل عبد النبى محبوب، من الجيزة، فى: رجل حلف بالطلاق الثلاث أن أخته لا تزوج بفلان، فزوجها والدها بفلان المحلوف عليه. ثم سافر الحالف إلى العسكرية واستعلم عنه فلم تعلم حياته ولا موته. فهل، والحالة هذه، يسوغ لزوجة الحالف أن تتزوج بغيره، لتحققها وقوع الطلاق المذكور، ولحصول الحلف المذكور منه على يد بينة تشهد بذلك؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

من هذا السؤال، يعلم وقوع الطلاق على الحالف بزواج أخته بفلان الذى حلف على عدم زواجها. فإذا كانت الواقعة هكذا، وثبت الحلف ووقوع المحلوف عليه، فلا شك يجوز لزوجة الحالف أن تتزوج بغيره. والله أعلم[٥٩٩].

١٧٤ ـ (السؤال)

سأل محمود أفندي فهمي، صاحب البزار المصري، في: رجل قال لزوجته: إن خرجت باكرا تكوني طالقة، فأجابته بقوله: سأخرج، فقال لها: تكونين على ذمة نفسك، ثم خرجت باكرا، فراجعها إلى عصمته بدون عقد، مع كونه حنفي المذهب، بدون أن يقلد من يرى صحة الرجعة. واشتهر ذلك وصار معروفا بين الناس، وبعد ذلك عاشرها مدة حاضت فيها زيادة عن ثلاث حيض، ثم حصل بينه وبين خالها نزاع فخاطبه بقوله: بنت أختك تكون طالقة بالثلاث. فهل العدة تنقضي مع المعاشرة، حيث كان الطلاق مشهورا، ولا يلحق الطلاق الثلاث لكونه بعد انقضاء العدة، ويكون للزوج العقد عليها بمهر جديد بحضرة شاهدين برضاها؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

أما قوله: تكوني على ذمة نفسك، فإن قصد به التنجيز وقع به طلاق بائن، ولا يبطل به تعليق الأول، فإذا خرجت وقع الطلاق الصريح المعلق ولحق الطلقة المنجزة التي هي: تكوني على ذمة نفسك، وإن قصد به التعليق، كما في الأول، وخرجت وقع عليه الطلقتان. وعلى كل حال فإحداهما، وهي: تكوني على ذمة نفسك، بائنة لا تصح الرجعة فيها، وبإيقاعه الطلاق الثلاث بعد انقضاء العدة مع المعاشرة وشهرة الطلاق السابق واعترافه به هو والزوجة تكون هذه الزوجة أجنبية منه لا يلحقها الطلاق الثلاث المذكور، ويسوغ له العقد عليها بمهر جديد برضاها وحضرة شاهدين ,يملك عليها بعد ذلك طلقة واحدة. والله أعلم(٦٠٠).

١٧٥ ـ (السؤال)

سأل سليمان الفيومي، المجاور بالأزهر، في: رجل قال لزوجته: بعد كلام وقع بينهما إن تكلمت بهذا الكلام وعدت إليه تكوني خالصة. فتكلمت بكلام غيره، فقال لها: إن تكلمت أيضا بهذا الكلام تكوني خالصة تسعين خلاصا. ثم تكلمت

بالأول أولا وبالثانى ثانيا، بدون تراخ بينهما، فهل يقع اليمين الثانى؟ أو لا؟ وإذا وقع يلزمه مؤخر الصداق؟ أو لا؟ أفيدوا الجواب.

(الجواب)

صرحوا بأنه لو قال لها: إن دخلت الدار فأنت بائن، ثم قال: إن كلمت زيدا فأنت بائن. ثم دخلت وبانت، ثم كلمت يقع مرة أخرى، كما فى (رد المحتار) نقلا عن «الذخيرة». وعلى هذا يقع على الحالف فى هذه الحادثة طلقتان بائنتان بكلامها الكلام الأول والثانى، لأن الثانى وإن كان بائنا معلقا إلا أنه يلحق البائن الأول المعلق، لوجود التعليق الثانى قبل وجود شرط الأول، كما هنا. وبذلك يحل للزوجة مؤخر صداقها، لأنه يحل بأحد الأجلين: الطلاق البائن أو الموت، وقد وجد الأول.

وأما قوله: تسعين خلاصا، فلا أثر له، لأنه عند وقوع الشرط بمنزلة قوله: أنت على حرام ألف مرة، وقد قالوا: إنه لا يقع به إلا واحدة، فالذى يقع بوقوع التعليق الثانى طلقة واحدة بائنة. ويسوغ للزوج، والحال ما ذكر، العقد عليها فى العدة وبعدها، برضاها وحضرة شاهدين بمهر جديد، ويملك عليها بعد ذلك طلقة واحدة إن لم يسبق منه طلاقها قبل هاتين الطلقتين. والله أعلم[٦٠١].

١٧٦ ـ (السؤال)

سأل محمود صالح الدباغ، بمصر، فى: رجل أصله من مدينة حلب بالديار الشامية، وتوطن بمصر، وتزوج منها بامرأة دخل بها وعاشرها. وفى أثناء المعاشرة عزم على التوجه إلى بلده، وقبل قيامه من مصر حضر خطاب لأخيه المقيم بمصر ذكر فيه، أنى لما توجهت إلى بلدى وجدت والدتى مريضة ومنعتنى عن الرجوع لمصر، وأن والد زوجتى زينب لم يأتمنى عليها، ولرغبته فى طلاقها تلفظت بقولى: زينب زوجتى طالق ثلاثا، وأرجوك إرسال هذا الجواب إلى والدها. وهذا الجواب محرر بخط الزوج، وإمضائه. وجعله محررا من حلب، مع أن تحريره بمصر.

فهل، والحال هذه، يقع عليه الطلاق الثلاث؟ وإن كان يقول: إن الجواب كتبه من غير أن يتلفظ بما كتب؟ وكان قد حلف قبل تحرير الجواب وقبل سفره يمينا قائلا: عليَّ الحرام بالثلاث متى نزلت البحر تكون زينب محرمة، ناويا وقوع الطلاق، وناويا بنزوله في البحر السباحة، ولم ينزل بقصد السباحة.. أفيدوا الجواب.

(الجواب)

متى كان هذا الرجل مقرا بأن الخط خطه، وقع عليه الطلاق الثلاث، لأنه بمنزلة الخطاب، فلا تحل له زوجته من بعد حتى تنكح زوجا غيره. ولا أثر مع ذلك لليمين المعلق على نزول البحر، لأن وقوعه، وإن كان قد حصل بذلك النزول، إلا أن هذا الوقوع كان عند عدم محلية طلاق بحصول الطلاق الثلاث المذكور قبله. والله أعلم[٦٠٢].

فتـــاوى فى
القصـاص (القـود)

١٧٧ ـ (السؤال)

سئل [٦٠٣] بإفادة من رئيس جلسة الجنايات الكبرى بمحكمة استئناف مصر، مؤرخة فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٠ نمرة ١٠١٠ مضمونها: أن المحكمة قررت إرسال أوراق قضية النيابة العمومية نمرة ١٢٧٠ ضد محمود مكاوى ومن معه لأخذ رأى حضرتكم فيها. ولذا ها هى الأوراق مرسلة مع هذا، وبالانتهاء تفاد المحكمة قبل يوم ١١ أكتوبر سنة ١٩٠٠ للنظر.

(الجواب)

اطلعت على القضية المذكورة فى رقيمكم هذا، ولم أر مساغا للحكم بالإعدام على واحد من المتهمين، لأنه لا يوجد دليل يوجب الجزم بأن أحدهما بعينه هو القاتل والآخر شريك. فإن كان يراد الحكم عليهما معا فذلك ليس مذهب أبى حنيفة، بل مذهب مالك فى التأبين على القتل. والله أعلم[٦٠٤].

١٧٨ ـ (السؤال)

سئل [٦٠٥] بإفادة من محكمة مصر الابتدائية الأهلية مؤرخة فى ٢٨ شعبان سنة ١٣١٨، نمرة ٨٣٠ مضمونها: إنه فى يوم الأربعاء ١٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠ قررت محكمة الجنايات إحالة أوراق القضية نمرة ١٥٦ جنايات مركز طوخ سنة ١٩٠٠ المتهم فيها طه رشدى مع آخرين بقتل حسن إبراهيم الجناينى، عمدا مع سبق الإصرار والتربص، على فضيلتكم، وعليه فها هى ذى الأوراق مرسلة مع هذا رجاء إفادة المحكمة برأى فضيلتكم قبل يوم الأربعاء ٢ يناير سنة ١٩٠١.

(الجواب)

اطلعت على أوراق القضية نمرة ١٥٦ جنايات، المتهم فيها طه رشدى، ومن معه، بقتل حسن إبراهيم الجناينى، عمدا مع سبق الإصرار والترصد. وقد رأيت أن فعل القتل غير ثابت قطعا على طه رشدى، وغاية ما يظن أنه اشترك مع الآخرين وحضر الجناية معهم، فلا يجوز الحكم عليه بالإعدام. ولو دقق النظر فى شهادة شهود الإثبات لصعب الأخذ بها بالنسبة إليه حتى فى ثبوت الاشتراك.

وأما الباقون، فالذى يمكن أن يؤخذ من شهادة على داود هو أن فرج محمد خليفة هو الذى قبض على عنق القتيل، فيكون هو القاتل، لو صحت تلك الشهادة. ولكن يوجد فى الشهادات ما يزعزع اليقين بثبوت الجناية على الوجه الذى انسقات إليه التهم. وغاية ما يمكن ان يحصل منها هو غلبة الظن بوقوعها من المتهمين الثلاثة، وغلبة الظن لا تسوغ الحكم بالقتل على أحد خشية أن يظهر خطأ الحكم بعد تنفيذه فلا يمكن تداركه. فالذى أراه أن يحكم على الثلاثة بالعقوبة التى تلى عقوبة القتل، لا غير هذا، إن صحت المرافعة وانطبقت على الأصول المرعية. وطيه أوراق القضية، مع إفادة عزتكم نمرة ٨٣٠[٦٠٦].

١٧٩ ـ (السؤال)

سئل[٦٠٧] بإفادة من رئيس جلسة الجنايات الكبرى بمحكمة الاستئناف الأهلية، مؤرخة فى ٢٦ رمضان سنة ١٣١٨ نمرة ١٦٠ مضمونها: أنه مرسل معها قضية النيابة العمومية نمرة ١٩١٠ المتهم فيها عبد النبى حسن محمود بقتل شقيقه حسن محمود، عمدا مع سبق الإصرار، فيما بعد الاطلاع عليها وإبداء الرأى فيها ترسل للمحكمة فى مدة ثمانية أيام من تاريخه.

(الجواب)

اطلعت على أوراق القضية نمرة ١٩١٠ المتهم فيها عبد النبى حسن محمود بقتل شقيقه حسن محمود، عمدا مع سبق الإصرار.

والذى ظهر من كلام المتهم أنه القاتل قطعا، وكلامه فى أن القتل كان خطأ ظاهر البطلان، لأن جميع القرائن والشواهد تكذبه. وسوابق النزاع بينه وبين أخيه، ومقاطعة أخيه له لا تسمح بتصديقه فى أنه سلمه البندقية. فهو قاتل عمدا، أما الإصرار فدليله أنه لم يبت بالبيت، على عادته، فقد كان يترقب حركات أخيه المقتول إلى أن نام، وهو يعرف أن نومه ثقيل، كما جاء فى كلامه، ثم فعل فعلته، فهو يستحق العقوبة المنصوص عليها فى المادة ٢٠٨، ولا مانع من الحكم بها عليه إذا توافرت شرائط الدعوى والمرافعة على الوجه المشروع[٦٠٨].

١٨٠ـ (السؤال)

سئل[٦٠٩] بإفادة من محكمة مصر الابتدائية الأهلية مؤرخة فى ٨ شوال سنة ١٣١٨ نمرة ٥٠ مضمونها: أن محكمة الجنايات قررت يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠١ إحالة أوراق قضية الجنايات نمرة ١٤٨ بولاق سنة ١٩٠٠ المتهمة فيها فاطمة بنت محمد بقتل زوجها حسنين عبده، عمدا مع سبق الإصرار، على فضيلتكم، لإبداء الرأى فيها. وعليه ها هى ذى مرسلة رجاء الإفادة بالرأى فيها قبل يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠١ المحدد للفصل فيها.

(الجواب)

اطعلت على أوراق القضية نمرة ١٤٨ المتهمة فيها فاطمة بنت محمد، بقتل زوجها حسنين عده، عمدا، فرأيت أن التهمة ثابتة عليها، وعقاب ما فعلته هو الإعدام. وطيه أوراق القضية[٦١٠].

١٨١ـ (السؤال)

سئل[٦١١] بإفادة من رئيس جلسة الجنايات الكبرى بمحكمة استئناف مصر الأهلية مؤرخة فى ٩ شوال سنة ١٣١٨ نمرة ٣٠٧ مضمونها: أنه مرسل معها قضية

النيابة العمومية نمرة ١٧٩٩ سنة ١٩٠٠ ضد السيد على سليمان، المتهم بقتل والدته زنوبة وأخيه عباس، بواسطة وضع مواد سمية زرنيخية فى الطعام فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٠، للاطلاع عليها وإبداء الرأى فيها وردها للمحكمة فى مدة أسبوع من تاريخه.

(الجواب)

اطلعت على هذه القضية المتهم فيها السيد على سليمان بقتل والدته زنوبة وأخيه عباس، فرأيت أن هذا المتهم معترف بما صنع وأفضى إلى موت من مات، وأنه يستحق عقوبة جنايته متى استوفت الدعوى والمرافعة الشرائط المعتبرة. وطيه أوراق القضية كما وردت(٦١٢).

١٨٢ ـ (السؤال)

سأل سعادة رئيس دائرة الجنايات الكبرى بمحكمة الاستئناف الأهلية بإفادة مؤرخة فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٠١ نمرة ٣٩٥٨ مضمونها: أنه مرسل معها أوراق قضية النيابة نمرة ١٦١١ سنة ١٩٠١ المتهم فيها بخيت محمود بقتل ابنه إبراهيم بخيت، عمدا مع سبق الإصرار، لإعطاء الرأى فيها وإعادتها قبل يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٠١ المحدد لصدور الحكم فيها.

(الجواب)

اطلعت على أوراق القضية نمرة ١٦١١ سنة ١٩٠١ أما ثبوت التهمة على بخيت محمود فى قتل ابنه فلا كلام فيه. وأما الاقتصاص منه بقتل ولده فغير جائز عند الحنفية، لأن الفروع لا يقتص بهم من أصولهم، فلا يقتص من الوالد إذا قتل ولده، ولكن يجوز أن يقتص الوالد بولده عند المالكية، بشرط أن يقصد الوالد بالضربة إزهاق روح الولد، كأن يرمى عنقه بالسيف أو يضجعه فيذبحه. ومن ذلك حادثة

نجيب محمود. ومذهب الحاكم هو مذهب الحنفية، كما هو معلوم، فهو الذى يتبع، فإذا استوفيت شرائط المرافعة الشرعية وجب أن يعدل عن عقوبة الإعدام إلى العقوبات التى تليها. والله أعلم[٦١٣].

١٨٣ ـ (السؤال)

سئل [٦١٤] بإفادة من رئيس جلسة الجنايات بمحكمة الاستئناف بمصر مؤرخة فى ٦ شوال سنة ١٣١٩ ١٦ يناير سنة ١٩٠٢ نمرة ١٦١ مضمونها: أنه مرسل معه قضية النيابة نمرة ١٨٥٢ سنة ١٩٠١ المتهم فيها إبراهيم عبيد، بقتل أحمد جاد الله عمدا، لإبداء الرأى فيها حسب أحكام الشريعة، وإعادتها قبل يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٠٢ المحدد لصدور الحكم فيها.

(الجواب)

اطلعت على القضية المذكورة، المتهم فيها إبراهيم عبيد، بقتل أحمد جاد، ومتى صحت المرافعة وانطبقت على الأصول الشرعية، جاز الحكم على الجانى بعقوبة الجناية. والله أعلم[٦١٥].

١٨٤ ـ (السؤال)

سئل [٦١٦] بإفادة من رئيس دائرة الجنايات الكبرى، مؤرخة فى إبريل سنة ١٩٠٢، نمرة ١٤٨١ مضمونها: أن دائرة الجنايات الكبرى قررت فى قضية النيابة العمومية نمرة ٢٣٠٩ الواردة جدول المحكمة بنمرة ١٦٣ سنة ١٩٠٢ المتهم فيها عبد المعطى السيد زهرة بقتل البنت زينب بنت فضل الله السودانى، عمدا بواسطة الخنق، بإرسال أوراقها لفضيلتكم لإبداء الرأى. فها هى ذى مرسلة بأمل إعادتها قبل يوم ٢٤ إبريل سنة ١٩٠٢ المحدد لنطق الحكم.

(الجواب)

اطلعت على القضية الواردة فى جدول المحكمة تحت نمرة ١٦٣ سنة ١٩٠٢ التى يتهم فيها عبد المعطى السيد زهرة بقتل زينب بنت فضل الله السودانى، عمدا بواسطة الخنق فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ وقد رأيت أن الأدلة قائمة على أنه القاتل عمدا لا محالة. أما القصاص فى مثل هذه الواقعة ففيه خلاف. فمذهب الإمام أن القتل بالخنق والتغريق مثلا لا قود فيه، ومذهب صاحبيه أن فيه القود كالقتل بآلة جارحة، كما هو مذهب غير الحنفية أيضا، وهو الذى أرجحه، لإطلاق القصاص فى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة: آية ١٧٩) وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة: آية ١٧٨). إلى آخر الآية، وإطلاق السنة فى ذلك أيضا، وما رواه ابن أبى شيبة فى قوله عليه الصلاة والسلام: «قتيل السوط والعصا شبه عمد فيه مائة من الإبل» لم يبلغ من الصحة ما يصح الرجوع إليه، على أنه محمول على الضرب للتأديب ونحوه بغير قصد القتل. فالذى ينطبق على الشريعة الغراء هو القصاص فى مثل هذه الحادثة بعد أن تتوافر سائر الشروط فى دعوى طلب القصاص؛ فمتى توافرت وصحت الدعوى والمرافعة شرعا جاز الحكم على القاتل المتهم فى هذه القضية بعقوبة جنايته. والله أعلم[٦١٧] طيه القضية المذكورة.

الهوامش

(١) الوقائع المصرية . العدد ٩٤٢ في ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠م (١٤ من ذى القعدة سنة ١٢٩٧هـ) .

(٢) هي حكومة رياض باشا ، وكان يشغل فيها منصب نظارة (وزارة) الداخلية إلى جانب رئاسته للنظار . والخديو المشار إليه هنا هو الخديو توفيق .

(٣) أكتوبر سنة ١٨٨٠م .

(٤) الوقائع المصرية . العدد ٩٦٩ فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠م (٢٢ من ذى الحجة سنة ١٢٩٧هـ) .

(٥) لعل المراد الغرامات والجزاءات التى تختلق لتحصيلها الأسباب ، ومازال الريف المصرى يستخدم حتى الآن كلمة «التجريم» مصدراً يعبر به عن فعل السلطة هذا .

(٦) السلم : من معانيه السلف ، وهو المراد هنا ، وهو نوع من أنواع البيوع فى الفقه الإسلامى معروف بهذا الاسم .

(٧) أى معدمين ، لا شيء لديهم ، قد التصقت أكفهم بالتراب .

(٨) أى قلة الماء الذى يروى الأرض .

(٩) الوقائع المصرية . العدد ٩٨٨ فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠م (١٦ من المحرم سنة ١٢٩٨هـ) .

(١٠) الوقائع المصرية . العدد ١٠٢٤ فى ٢٩ يناير سنة ١٨٨١م (٢٨ من صفر سنة ١٢٩٨هـ) .

(١١) الوقائع المصرية . العدد ٩٥٨ فى ٢٧ من ذى الحجة سنة ١٢٩٧هـ (٣٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠م) .

(١٢) ركاكة أسلوب السطور المتقدمة راجعة إلى أنها من المكاتبات الديوانية لذلك العصر ، كان الأستاذ الإمام ينشرها فى الجريدة الرسمية - كالمعتاد من قبل عمله بها - ثم يأخذ فى التعليق عليها بقلمه وأسلوبه ، وهو الأمر الذى استحدثه فى «الوقائع» عندما أشرف عليها .

(١٣) الوقائع المصرية : العدد ٩٨٤ فى ١٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٠م (١١ من المحرم سنة ١٢٩٨هـ) .

(١٤) كومبرة : - أكوم را - من قرى مركز إمبابة .

(١٥) مفردها «زكيبة» وهى الجوال الكبير .

(١٦) من قرى محافظة الجيزة ، وتدخل الآن فى الإطار الجغرافى للقاهرة الكبرى .

(١٧) هنا ينتهى نص الرسالة «الديوانية» الواردة ، ويبدأ تعليق الأستاذ الإمام .

(١٨) الوقائع المصرية : العدد ٩٩٥ فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨٠م (٢٤ من المحرم سنة ١٢٧٨هـ) .

(١٩) الوقائع المصرية : العدد ١٠١٢ فى ١٥ من يناير سنة ١٨٨١م (١٤ من صفر ١٢٩٨هـ) .

(٢٠) الوقائع المصرية : العدد ١٠١٧ فى ٢٠ من يناير سنة ١٨٨١م (١٩ من صفر ١٢٨٩هـ) .

(٢١) نوع من الأثل يمتاز بصلابة خشبه ، فتظل جمرات ناره متقدة زمناً طويلاً .

(٢٢) جمع «ندوة» وهى الآفة تصيب الزرع .

(٢٣) الوقائع المصرية : العدد ١٠٣٣ فى ٩ من فبراير سنة ١٨٨١م (١٠ من ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ).
(٢٤) الإشارة هنا إلى الخديو إسماعيل، ورهنه أرض الدائرة السنية.
(٢٥) الوقائع المصرية. عدد ١٠٤٨ فبراير سنة ١٨٨١م (٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ).
(٢٦) الوقائع المصرية. العدد ١٠٣٨ فى ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ (١٥ فبراير سنة ١٨٨١م).
(٢٧) الإشارة إلى مقال عن إبطال هذه البدعة فى العدد ١٠٣٥ فى ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ.
(٢٨) تقطع.
(٢٩) الوقائع المصرية. العدد ١٠٧٨ فى ٣ إبريل سنة ١٨٨١م (٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٨هـ).
(٣٠) الوقائع المصرية. عدد ١٠٤١ فى ١٩ فبراير سنة ١٨٨١م. (٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ). والمقال بلا عنوان.. فقط كتب عليه عنوان القسم «قسم غير رسمى».
(٣١) الوقائع المصرية. عدد ١٠٤٣ فى ٢١ فبراير سنة ١٨٨١م (٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ).
(٣٢) الوقائع المصرية. العدد ١٠٥٥ فى ٧ مارس سنة ١٨٨١م (٧ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ).
(٣٣) نزا عليها.
(٣٤) ورد هذا الفصل فى كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وهو من الفصول التى حققنا نسبتها إلى الأستاذ الإمام. (تحرير المرأة) ص ١١٩-١٢٨.
(٣٥) الوقائع المصرية. العدد ١٠٥٦ فى ٨ ربيع الأول سنة ١٢٩٨هـ (٨ مارس سنة ١٨٨١م).
(٣٦) أى يجرى القرعة لتحديد من تصحبه منهن فى سفره.
(٣٧) الفحل: من لا عيب فى قدراته الجنسية. والعنين: هو العاجز عن الجماع لمرض يصيبه. والمجبوب هو مقطوع عضو التناسل.
(٣٨) التى فقدت زوجها.
(٣٩) أى كثيراً.
(٤٠) ورد هذا الفصل فى كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وهو من الموضوعات التى حققنا نسبتها للأستاذ الإمام. (تحرير المرأة) ص ١٢٨-١٣٦
(٤١) نشر (المنار) هذه الفتاوى للأستاذ الإمام فى الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين الصادر فى ٣ مارس سنة ١٩٢٧م ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٥هـ. وقال الشيخ رشيد رضا فى التقديم لها: «وجدت بين أوراق شيخنا الأستاذ الإمام الفتاوى الآتية، فأحببت نشرها لتصدى الحكومة المصرية لتقييد إباحة التعدد، وكثرة الكلام فيه» ص ٢٩-٣٥.
(٤٢) فى هامش (المنار) نجد هنا تعليقًا لا ندرى أهو للإمام أم للشيخ رشيد رضا، ولم ينسب إلى (المنار) كما هى عادة الشيخ رشيد، وكما فعل فى نفس الموضوع عندما ميز تعليقاته بنسبتها إلى (المنار).
ونص التعليق: «هذا هو المنصوص فى فقه المذاهب المشهورة. ولكن قالوا بأن ما يجب للزوجة يستحب للسرية. وفى كتب الحنابلة قول بأنه يجب على السيد أن يحصن مملوكه بالزواج بشرطه».
(٤٣) الوقائع المصرية. عدد ١٠٥٩ فى ١٢ مارس سنة ١٨٨١م (١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ).
(٤٤) الوقائع المصرية. عدد ١١١٦ فى ١٩ مايو سنة ١٨٨١م (٢١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ).
(٤٥) العِثْيَر: الغبار.
(٤٦) ورَد هذا الموضوع فى كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وهو من النصوص التى نراها من إنشاء الأستاذ الإمام. (تحرير المرأة) ص ١١٦-١١٨.

(٤٧) أي باطل .
(٤٨) تاريخ الطبري جزء سادس صحيفة ٣١١٦ .
(٤٩) جاء هذا الفصل في كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وهو من الفصول التي حققنا نسبتها إلى الأستاذ الإمام. (تحرير المرأة، ص ٥٧ - ٧٠ طبعة سنة ١٩٢٨م) .
(٥٠) صحيفة ٣٣٦ جزء ١ (أقواس النصوص المقتبسة وتوثيقها للأستاذ الإمام) .
(٥١) صحيفة ١٠٩ ، ١٠٤ ، جزء ٢ .
(٥٢) صحيفة ٦٩ ، جزء ٣ .
(٥٣) صحيفة ٢٩ .
(٥٤) أي انفراد .
(٥٥) صحيفة ٢٦١ من كتاب حسن الأسوة .
(٥٦) من معانيها : عورة .
(٥٧) صحيفة ٣٢٣ جزء خامس .
(٥٨) صحيفة ٤٢٣ جزء خامس .
(٥٩) أي جلد، والأدم باطن الجلد مما يلي اللحم، وقيل ظاهره الذي ينبت فيه الشعر (لسان العرب) مادة «أدم» .
(٦٠) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبري جزء خامس .
(٦١) ورد هذا الفصل في كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين، وهو من الكتابات التي حققنا نسبتها للأستاذ الإمام. (تحرير المرأة) ص ١٣٦ - ١٥٩ .
(٦٢) صحيفة ٥٧٢ جزء ٢ .
(٦٣) صحيفة ١٩٥ جزء ٢ .
(٦٤) صحيفة : ١٦ .
(٦٥) صحيفة ٥٧٦ «جزء ثاني» .
(٦٦) صحيفة ١٩٠ «جزء ثاني» .
(٦٧) صحيفة ١٩١ «جزء ثاني» .
(٦٨) في ٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) كتب الأستاذ الإمام هذه المواد الإحدى عشرة يعالج بها قضية عدم إنفاق الزوج على زوجته بسبب ما يعتريه من ظروف منها الحكم عليه بالسجن . . وكانت الحكومة قد استفتته في هذا الحكم . . ولقد أيد شيخ الجامع الأزهر الشيخ سليم البشري رأي الأستاذ الإمام هذا بخطاب مؤرخ في ٦ ربيع الآخر سنة ١٣١٨هـ . ونشر هذه المواد قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة) ص ٢١٩ - ٢٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩١١م . (أما نص السؤال، وتشخيص المشكلة فهو - مع هذه المواد - في هذا الجزء ص ٦٦٣ - ٦٦٩) .
(٦٩) الوقائع المصرية . عدد ١٠٨٩ في ١٦ إبريل سنة ١٨٨١م (١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٨هـ) .
(٧٠) الوقائع المصرية . العدد ١١٠٥ في ٧ مايو سنة ١٨٨١م . (جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ) .
(٧١) الأسل جمع أسلة، وهو النبات الدقيق الأغصان الطويلها، ويطلق على كل ما هو رهيف حديد .
(٧٢) الكَحَل، بفتح الكاف والحاء هو سواد منابت الشعر خلقة بدون الكُحْل الصناعي (الإثمد) والأخير يضبط بضم الكاف وسكون الحاء .

(٧٣) الجوارش نوع من الحلوى، والمراد هنا ما ضمن منها أنواع المخدرات.
(٧٤) الوقائع المصرية. عدد ١١١١ فى ١٤ مايو سنة ١٨٨١م (١٦ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ). والمقال غير وارد فى (قسم غير رسمى)، ولكنه افتتاحية العدد، ولقد أثبتناه هنا لإشارة وردت إليه فى مقال (عادات المآتم).
(٧٥) الوقائع المصرية. عدد ١٥٣٣ فى ٨ يونيو سنة ١٨٨١م (١١ رجب سنة ١٢٩٨هـ).
(٧٦) الوقائع المصرية. عدد ١١١٩ فى ٢٣ مايو سنة ١٨٨١م (٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ).
(٧٧) الوقائع المصرية. عدد ١١٣٠ فى ٥ يونيو سنة ١٨٨١م (٨ رجب سنة ١٢٩٨هـ).
(٧٨) الضمار من يزعم كشف الغيب بالرمل والودع. إلخ.. إلخ.
(٧٩) الوقائع المصرية. عدد ١٢٠٢ فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٨١م (١٠ شوال سنة ١٢٩٨هـ).
(٨٠) الوقائع المصرية. عدد ١٣٠٩ فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٢م (٢٦ صفر سنة ١٢٩٩هـ). والمقال وارد فى (قسم غير رسمى) بدون عنوان.
(٨١) الوقائع المصرية. عدد ٣٠ ديسمبر ١٨٨١م (٢٨ محرم سنة ١٢٩٩هـ).
(٨٢) (ثمرات الفنون) البيروتية.. ثم نشرت بالمجلد الرابع من المنار، وهى من مقالاته التى كتبها أثناء إقامته ببيروت.
(٨٣) تتخذها وكرا ومقاما لها، وعشا تسكن إليه.
(٨٤) من معانيها: غدّارة، خبيثة، فاسدة.
(٨٥) حارسا وحافظا.
(٨٦) أذلت.
(٨٧) قدره لنا.
(٨٨) الجرب.
(٨٩) هائجة.
(٩٠) الأبهم: المصاب فى عقله.
(٩١) الإقبال عليهم بما ينبههم.
(٩٢) مرادفة للضغينة.
(٩٣) الأصلخ هو الشديد الصمم، لا يسمع ألبتة. والصماليخ مفردها صملاخ وصملوخ، ويطلق على الوسخ المستكن داخل خرق الأذن.
(٩٤) مفردها إهاب، وهو الجلد، وخاصة ما لم يدبغ منه، والمراد ثياب الغفلة ومواطنها.
(٩٥) (المنار). المجلدان: السادس والسابع، وهى فصول كتبها الأستاذ الإمام فى سياحته بهذه البلاد أثناء عودته من رحلته إلى الجزائر وتونس.
(٩٦) حاضرة صقلية فى ظل الحكم العربى لها، استولى عليها العرب سنة ٨٣١م بواسطة جيش العرب الأغالبة الأفريقيين، وازدهرت فيها حضارتهم التى لا تزال آثارها بها حتى الآن، وتنطق (بلرم) و(بالرمو) و(بالرم).
(٩٧) إحدى مدن صقلية، سقطت بيد النورمانديين سنة ١٠٦٠م، وتبع سقوطها سقوط «بلرم» سنة ١٠٧١م.
(٩٨) وتنطق كذلك «روجار» و«روجر». وهناك «روجر» الأول (المتوفى سنة ١١٠١م)، و«روجر»

الثاني. والثاني هو الذى كان ولوعا بالمحافظة على آثار العرب في الجزيرة، وكان حكمه في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادى.

(٩٩) صحيفة، صفحة، ورقة.. وليس المراد هنا ما تتعارف عليه من لفظ «جريدة» الآن.

(١٠٠) كاتيدرائية.

(١٠١) مفرد سدنة، وهم القائمون على خدمة بيوت العبادة.

(١٠٢) صقلية.

(١٠٣) الدانق كلمة فارسية تطلق على عملة قيمتها سدس درهم.

(١٠٤) بالقرب من «عين شمس» بضواحي القاهرة، والأستاذ الإمام كان من سكان «عين شمس».

(١٠٥) بالقلعة، بالقاهرة، حي مجاور لمقر سجن القاهرة السابق «قره ميدان».

(١٠٦) من معانيها: المسرعون.

(١٠٧) المتبولي والبيومي من صلحاء القاهرة ذوى المزارات.

(١٠٨) ما تمطط وسال من أنفه وفيه.

(١٠٩) اتباع أبي الحسن الأشعرى (المتوفى سنة ٣٢٤هـ)، وهم جمهور كبير فى عامة المسلمين. يقولون بمذهب متوسط في «الجبر»، ويخالفون مدرسة المعتزلة: كما يختلفون مع مدرسة «أصحاب الحديث» ومدرسة «أهل الظاهر».. وهم يقولون إن علة الحسن والقبح فى الأشياء والأفعال هو الأمر بها والنهى عنها، وليس كونها حسنة فى ذاتها أو قبيحة فى ذاتها، يدرك العقل فيها الحسن أو القبح دون النص النقلي. ويختلفون فى ذلك مع المعتزلة أهل العدل والتوحيد.

(١١٠) من معانيها: الدرع، والشخص الشديد من كل شيء.

(١١١) وصف للدرع إذا كان أبيض أملس.

(١١٢) طاقته وإمكانه.

(١١٣) صاحب كتاب (بهجة المشتاق في بيان حكم زكاة أموال الأوراق).. وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٢٩هـ.

(١١٤) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر تعليقات ص ١٨٤.

(١١٥) كون الأستاذ الإمام لهذا الغرض لجنة متفرعة عن (الجمعية الخيرية الإسلامية) التى كان يرأسها.. وكان يطوف بنفسه أنحاء البلاد لجمع الإعانات، قاصداً تربية وجدان الأمة على التضامن عند المحن. ولقد نشر مقاله هذا فى «المؤيد» بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٠٢م.

(١١٦) فى سنة ١٨٩٩م، عهدت الحكومة إلى الأستاذ الإمام بالتفتيش على المحاكم الشرعية لتقرير ما يلزم لها من أوجه الإصلاح الضرورى. وبعد رحلة قام بها إلى محاكم الوجهين البحرى والقبلى الشرعية، وبعد دراسة متأنية لأوضاعها وما يكتنفها من ظروف وملابسات، كتب هذا التقرير إلى ناظر الحقانية فى نوفمبر سنة ١٨٩٩م.. وكان الأستاذ الإمام قد صحب معه فى رحلته هذه الشيخ أحمد إدريس، أحد قضاة محكمة مصر الشرعية.

(١١٧) هذا الحديث رد به الأستاذ الإمام على قاضى مصر ـ التركي ـ «يحيى أفندى» الذى عارض فى اجتماع «مجلس شورى القوانين» إصلاح القضاء الشرعي بحجة أن الشرع لا يحتاج إلى إصلاح، وأن أحكام هذه المحاكم هي بالشرع. فرد عليه الأستاذ الإمام فى اجتماع المجلس بهذه الكلمة التى ختمها بمقترحات خمسة اتفق عليها المجلس فى نهاية النقاش.

(١١٨) كان ذلك فى سنة ١٨٩٩م (١٣١٧هـ) عندما قرر الإنجليز عزل قاضى مصر التركى «جمال الدين أفندى»، وهو المعين من قبل السلطان العثمانى. وبعث وزير الخارجية الإنجليزى برقية إلى اللورد كرومر بذلك، وبتعيين قاض مصرى بدلاً من التركى. وفى الوقت الذى كان فيه كرومر فى طريقه للقاء الخديوى، ومجلس النظار منعقد فى انتظار نتيجة هذا اللقاء، نصح البعض الخديو باللجوء إلى استشارة الأستاذ الإمام، لعل لديه المخرج من هذه الأزمة. فدعى الأستاذ الإمام لمقابلة الخديو بالإسكندرية، ولقيه فى رأس التين، ودار بينهما هذا الحوار.. وتمت الأمور حسبما أشار الأستاذ الإمام.

(١١٩) أعد الأستاذ الإمام هذا المشروع وقدمه إلى «مجلس الأوقاف الأعلى»، فوافق عليه سنة ١٩٠٤م.

(١٢٠) كانت نية الأستاذ الإمام قد انصرفت إلى كتابة ترجمة ذاتية لحياته، استجابة لاقتراح أحد الأجانب من عارفى فضله وقيمته، ولكن الظروف لم تمكنه إلا من كتابة مقدمة هذا الكتاب وجزء من الفصل الأول. وطالب هذه الترجمة والسيرة هو الكاتب الإنجليزى الحر «ويلفرد بلنت» أحد الذين ناصروا القضية المصرية ضد الاحتلال الإنجليزى ودافعوا عن العرابيين.

(١٢١) هو الشيخ محمد رشيد رضا.

(١٢٢) أى منذ أن دالت دولة الفراعنة، وتعاقب على مصر الفتح من الفرس والرومان والعرب.. إلخ.. وفى هذه الإشارة بيان لرأى الأستاذ الإمام فى تقييم الأنظمة التى تعاقبت على مصر منذ ذلك التاريخ القديم.

(١٢٣) أى أواسط القرن التاسع عشر. وذلك تحديد من الأستاذ الإمام للتاريخ الذى كتب فيه سيرته هذه على وجه التقريب، فلقد حدث ذلك فى بدايات هذا القرن. وإذا كان يعنى بالقرن الهجرى لا الميلادى فإن منتصف القرن الثالث عشر الهجرى يوافق سنة ١٨٣٤م.

(١٢٤) ١١٦٢-١٢٣١م. والإشارة هنا إلى كتابه (الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر)، وهو على صغره من أجود الكتب التى صنفت فى وصف مصر وطبوغرافيتها فى العصور الوسطى.

(١٢٥) إلى هنا ينتهى القدر من (السيرة) الذى أنجز كتابته الأستاذ الإمام بناء على طلب الكاتب الإنكليزى «بلنت».

(١٢٦) كتب الأستاذ الإمام هذا الفصل فى أخريات حياته فى شكل ترجمة موجزة لحياته، طلبها منه الشيخ رشيد رضا ليعطيها لأحد الأجانب بعد طلبه لها.

(١٢٧) سنة ١٨٦٢م.

(١٢٨) السافياء: الغبار.

(١٢٩) الرمضاء: شدة الحر. والأرض والحجارة حميت من شدة الحر.

(١٣٠) هجرية (١٨٦٩م) وهى الزيارة القصيرة الأولى لمصر، وكان فى طريقه إلى الحجاز، ثم عاد بعد ذلك ليقيم بمصر من سنة ١٨٧١ حتى سنة ١٨٧٩م.

(١٣١) هجرية، مارس سنة ١٨٧١م.

(١٣٢) لم يسجل لنا الشيخ رشيد رضا من هذه الترجمة الموجزة سوى هذا القدر من هذا الفصل. وفى مكان آخر ذكر لنا قطعة بقلم الأستاذ الإمام يحكى فيها تعلمه اللغة الفرنسية. ونحن سنثبتها فى سيرته لصلتها بهذا الموضوع.

(١٣٣) من مكتوب خص به الأستاذ الشيخ رشيد رضا.
(١٣٤) الإشارة للشيخ «درويش».
(١٣٥) هذه الأبيات أنشدها الأستاذ الإمام قبيل وفاته، وهو على فراش المرض، وهي مع القصيدة التي كتبها عن أحداث الثورة العرابية من سجنه عقب فشلها، كل ما له من شعر.
(١٣٦) كتبها الأستاذ الإمام في تقديمه لشرح وتحقيق (نهج البلاغة).
(١٣٧) يتيمة الدهر في محاسن العصر لأبي منصور الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ).
(١٣٨) المبغض.
(١٣٩) وعاء يستعمل في حفظ الأشياء.
(١٤٠) مجادلتي.
(١٤١) تعب.
(١٤٢) الدابة أهزلها السفر.
(١٤٣) من تعليقات الأستاذ الإمام على قول الإمام علي في (نهج البلاغة) مخاطبًا عثمان بقوله: «وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحق منك، وأنت أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وشيجة رحم منهما» انظر تعليقات (نهج البلاغة) ص ١٨٩.
(١٤٤) المصدر السابق ص ٢٠٩.
(١٤٥) كتب الأستاذ الإمام هذه الترجمة لأستاذه في حياته كمقدمة لترجمة رسالة الرد على الدهريين، كما تشهد بذلك بعض عباراتها (وهو قد ترجمها أثناء إقامته ببيروت منفيا بعد مغادرته باريس).. ولكن الظروف السياسية جعلته يرغب عن إعادة نشرها وتقديمها للناس.. وعندما توفي الأفغاني أرادت (المقتطف) التهرب من الكتابة عنه بحجة عدم وجود ترجمة له، وطلبت من الإمام الترجمة له، فتهرب بدوره، ولم يحلها على هذه الترجمة التي كتبها الأول عن الثاني، وكذلك في كل الطبعات المصرية لرسالة الرد على الدهريين.. في كل هذه الآثار لم ترد هذه الترجمة منسوبة للإمام.. والمصدر الذي حفظها هو (الجامعة) الجزء الثالث من السنة الخامسة، أول أغسطس سنة ١٩٠٦م (١١ جمادي الآخرة سنة ١٣٢٤هـ) ص ١٢٢-١٢٩. وانظر كذلك الجزء نفسه ص ١٤٦، ١٤٧. وإن تكن هناك مصادر كثيرة قد استفادت من مادتها أو اقتبست منها ولكن دون نسبتها لكاتبها.
(١٤٦) ١٨٣٨م.
(١٤٧) هجرية سنة ١٨٦٣-١٨٦٤م.
(١٤٨) هجرية سنة ١٨٦٨م.
(١٤٩) هجرية سنة ١٨٧٠م.
(١٥٠) هجرية (٢٣ مارس سنة ١٨٧١م).
(١٥١) هجرية سبتمبر سنة ١٨٧٩م.
(١٥٢) تقطع هذه العبارة بأن الأستاذ الإمام كتب هذه الترجمة ليقدم بها ترجمته العربية لرسالة الرد على الدهريين.. وهو قد ترجمها وهو في المنفى بعد فشل الثورة العرابية.
(١٥٣) أي سكنت وهدأت.
(١٥٤) هنا تنتهي ترجمة الإمام لأستاذه جمال الدين.. وعندما مات الأفغاني سنة ١٨٩٧م، حالت

السياسة وعلاقة الشيخ محمد عبده بالإنجليز في مصر بينه وبين أن يرثي أستاذه. وهو موقف يحسب عليه.. ولكنه دوّن كلمة في مذكرة له نقلها عنه الشيخ رشيد رضا قال فيها: «والدي أعطاني حياة يشاركني فيها «علي» و«محروس». (وهما أخواه)، والسيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين. ما رثيته بالشعر لأنني لست بشاعر، وما رثيته بالنثر لأنني لست الآن بناثر. رثيته بالوجدان والشعور، لأنني إنسان أشعر وأفكر». انظر مقدمة الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام ص: ط.

(١٥٥) نشرت (المنار) هذه الترجمة في العدد ٢٠ من سنتها السابعة، الصادر في ١٦ شوال ١٣٢٢هـ ٢٣ ديسمبر ١٩٠٤م، بمناسبة وفاة البارودي. وقالت في التقديم لها: إنها «ترجمته عن صحيفة كانت عنده يقال بأن الشيخ محمد عبده كتبها معه سنة ١٢٩٨هـ». وقد أجرت (المنار) بعض الحذف للأسماء الأعجمية الواردة في نسب البارودي.. وما أشارت المجلة إلى حذفه أثبتناه نحن هنا حتى يقترب نصنا من الأصل الذي كتب بقلم الأستاذ الإمام. وكما يفهم من نهاية هذه الترجمة، فإن تاريخ كتابتها هو الفترة الأولى للأحداث العرابية.

(١٥٦) هجرية سنة ١٨٣٩م.

(١٥٧) هجرية سنة ١٨٥٠م.

(١٥٨) هجرية سنة ١٨٥٥م.

(١٥٩) هجرية سنة ١٨٦٢م.

(١٦٠) هجرية سنة ١٨٦٣م.

(١٦١) أي شهر جمادى.

(١٦٢) هجرية سنة ١٨٦٤م.

(١٦٣) هجرية سنة ١٨٦٦م.

(١٦٤) هجرية سنة ١٨٦٧م.

(١٦٥) هجرية سنة ١٨٧٣م.

(١٦٦) هجرية سنة ١٨٧٨م.

(١٦٧) هجرية سنة ١٨٨٠م.

(١٦٨) هجرية سنة ١٨٨١م.

(١٦٩) إلى هنا تنتهي الترجمة المنسوبة للأستاذ الإمام، وهذه النهاية تقطع بأن زمن كتابتها إنما هو الفترة التي بدأت فيها الأحداث العرابية، وقبل أن يترك البارودي نظارة الجهادية إلى رئاسة النظار.

(١٧٠) في العدد ٩٤ من جريدة (السياسة الأسبوعية) الصادر في ٢٤/ ١٢/ ١٩٢٧م كتب الأستاذ محمد الههياوي دراسة عن الشيخ علي الليثي، وفي العدد ٩٧ من الجريدة الصادر في ١٤ من يناير سنة ١٩٢٨م بعث حفيد الشيخ الليثي الأستاذ علي محمد الشعراني، برد على مقال الههياوي، تناول فيه حياة الليثي وتاريخه وآثاره، وضمن مقاله كلمة كتبها الشيخ محمد عبده عن الليثي بعد وفاته بأعوام.. وذيل الشعراني مقاله بملحوظة قال فيها. إن مراجع مقاله هذا «هي مذكرات ومكتبة محمد بك علي سعودي» صهر الشيخ علي الليثي.. وما أثبتناه هنا هو كلام الشيخ محمد عبده.

(١٧١) تتعلق هذه الرسالة بفكر الأستاذ الإمام الخاص بالتقريب بين الأديان السماوية، ذلك الفكر الذي تجسد في جمعية أقامها لهذا الغرض في أثناء إقامته ببيروت.

(١٧٢) تتطلع إليه وتنظر .
(١٧٣) ورقة .
(١٧٤) ترجمه «مرزا باقر» بتكليف من الأستاذ الإمام وراجعة الأستاذ الإمام .
(١٧٥) نشر في جريدة (ثمرات الفنون) البيروتية .
(١٧٦) هي رسالة جوابية ، أرسلها الإمام ردا على خطاب من القس الإنجليزي .
(١٧٧) الإشارة إلى سعي الأوروبيين إلى تحرير العبيد وإلغاء الرق .
(١٧٨) الإشارة إلى تحرير المرأة ، ووقوف الأوروبيين ضد تعدد الزوجات .
(١٧٩) كتبها الأستاذ الإمام من مصر إلى الفيلسوف والأديب والمصلح الروسي ، عندما ثارت ضده وضد تعاليمه الكنيسة الروسية وحكمت عليه «بالحرمان» . . والأستاذ الإمام يشير بالمدح والثناء ، في الرسالة إلى الموقف «المثالي» لتولستوي من المشكلة الاجتماعية وعلاقة الأغنياء بالفقراء .
(١٨٠) أرسلها من مصر إلى سلطان المغرب العربي مولاي عبد العزيز .
(١٨١) وهي التي تكونت سنة ١٨٩٩م .
(١٨٢) وكان يشغل إلى جانب منصب قاضي القضاة منصب التدريس بجامع القرويين بمدينة فاس .
(١٨٣) أحد علماء مدينة «حيدر آباد الدكن» بالهند ، وصاحب الرسالة الشهيرة إلى الأفغاني حول «الدهريين» المحدثين ، تلك الرسالة التي أجاب عنها الأفغاني بكتابه «الرد على الدهريين» . .
(١٨٤) تابع الأفغاني .
(١٨٥) هي رسالة الرد على الدهريين .
(١٨٦) وهو المختار من كلام الإمام علي بن أبي طالب ، جمعه الشريف الرضي ، وحققه وشرحه الإمام محمد عبده .
(١٨٧) هي رسالة جوابية ، كتبها الأستاذ الإمام من مصر ، عندما تولى منصب الافتاء ، يرد بها على التهنئة بالمنصب ، ويصف حاله والملابسات المحيطة به يومئذ .
(١٨٨) أي : ليسوا من الشر ولا من الخير في شيء .
(١٨٩) اللقلقة : الجلبة ، والصوت ذو الحركة والاضطراب ، وهي وصف كذلك لعي اللسان وحبسته .
(١٩٠) كتبها إليه في تقريظ تعريبه للجزء الأول من رواية (البؤساء) عن اللغة الفرنسية ، وكان حافظ قد أهداه إلى الأستاذ الإمام ، محدثا إياه عن أسباب اهتمامه بهذا الكتاب ، ومن بينها اشتراكه مع بطل الرواية في البؤس الذي يجمعهما .
(١٩١) العرف : الرائحة ، والزكية منها غالبا .
(١٩٢) من خطاب بعث به الأستاذ الإمام من أوروبا إلى الشيخ رشيد رضا .
(١٩٣) شارك في دائرة المعارف ـ القديمة ـ . ورسالة الأستاذ الإمام هذه قرئت في حفل بالقاهرة أقامه الأدباء والمثقفون السوريون تكريما للبستاني بمناسبة إتمامه ترجمة الإلياذة .
(١٩٤) من معانيها : مشابهتها .
(١٩٥) الإشارة إلى الخديو عباس حلمي .
(١٩٦) وكان تلميذا للأستاذ الإمام ، ونجلاً لصديقه «حسن باشا عبد الرزاق» ، وهي جواب عن أبيات من الشعر كتبها الشيخ مصطفى في صباه .
(١٩٧) كتبها الأستاذ الإمام إلى تلميذه وصديقه حفني بك ناصف (١٢٧٣ ـ ١٣٣٨هـ ـ ١٨٦٠ ـ ١٩١٩م)

جوابا على إحدى رسائله. ولقد نقلها الدكتور على شلش عن مجلة (الهلال) عدد فبراير سنة ١٩٣٣م - انظر كتابه (سلسلة الأعمال المجهولة - محمد عبده) ص ٦٧.

(١٩٨) هذا التاريخ الهجرى يوافق أول فبراير سنة ١٨٩٨م.

(١٩٩) من خطاب بعث به من مصيف «رأس البر» إلى الشيخ رشيد رضا.

(٢٠٠) بعث بها الأستاذ الإمام مدحا لأحد المؤلفين، وتقريظاً لكتاب ألفه.

(٢٠١) أحبوه وألفوه.

(٢٠٢) من رسالة بعث بها من «المنصورة» إلى الشيخ رشيد رضا.

(٢٠٣) من أدباء العصر وبلغائه، ومن الشعراء الذين أذكى شعرهم روح النضال القومى العربى ضد العثمانيين.. وكانت قصيدته التى مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

تطبع فى منشورات وتوزعها الجمعيات السرية القومية العربية فى ولايات الشام العربية الخاضعة لحكم آل عثمان أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن. وهذه الرسالة كتبها الأستاذ الإمام إلى اليازجى وهو فى بيروت.

(٢٠٤) كتبها إليه من مصر، بعد عودته من المنفى، وهى مؤرخة فى ١٥ صفر سنة ١٣٠٦هـ.

(٢٠٥) كتبها الأستاذ الإمام من مصر فى ٢٣ ربيع الثانى سنة ١٣٠٦ هـ (سنة ١٨٨٩م).

(٢٠٦) الإشارة إلى الشيخ خليل اليازجى، شقيق الشيخ إبراهيم، وكان مريضا.

(٢٠٧) الإشارة إلى المصاعب التى يلقاها نشاط الشيخ إبراهيم اليازجى فى سلبيل نهضة الأمة.

(٢٠٨) بعث بها الإمام معزيا الشيخ إبراهيم اليازجى فى وفاة أخيه الشيخ خليل اليازجى. والرسالة مكتوبة من سوريا.

(٢٠٩) يتنمر، ويغضب، ويقهر، ويظلم.. الخ.

(٢١٠) مطمئنة.

(٢١١) أفشيه.

(٢١٢) كتبها الأستاذ الإمام من مصر بعد عودته من إحدى رحلاته.

(٢١٣) سنة ١٨٩٢م.

(٢١٤) بعث بها الأستاذ الإمام من منفاه ببيروت إلى أحد ظرفاء عصره الدمشقيين: الشيخ عبد المجيد الخانى وهى نموذج يجسد جانبا طريفا من جوانب حياة الأستاذ الإمام.

(٢١٥) أحد الظرفاء المعاصرين للأستاذ الإمام، كان سريع الحفظ، كثيره، وصاحب هزل ودعابة ومبالغات.

(٢١٦) هى (ثمرات الفنون) البيروتية، كان يرأس تحريرها عبد القادر القبانى، وحرر فيها الأستاذ الإمام أثناء مقامه ببيروت.

(٢١٧) كلمة محذوفة لخروج الوصف فيها عن ما هو مألوف مما ينشر على الجمهور !!

(٢١٨) كلمات محذوفة لخروج معانيها عن المألوف نشره على الجمهور!!

(٢١٩) هنا سجع، ومفردات غريبة يجرى استعمالها فى مثل هذا المقام.

(٢٢٠) القائد الجزائرى الذى هزمه الفرنسيون سنة ١٨٤٨م، بعد أن قاوم احتلالهم للجزائر سبعة عشر عاما، وعاش فى دمشق بعد ذلك.

(٢٢١) أرسلها الأستاذ الإمام من منفاه ببيروت إلى الشيخ عبد المجيد الخانى بدمشق .

(٢٢٢) كتبها الأستاذ الإمام من مصر إلى أحد علماء سوريا .

(٢٢٣) وهى من الرسائل الإخوانية ، التى بعث بها إلى كريم أكرم وفادته .

(٢٢٤) هى رسالة جوابية ، يظهر فيها أسلوب الأستاذ الإمام عندما يستخدم السجع الكثير ، ويكثر من المحسنات اللفظية .

(٢٢٥) من معانيه : الكسر ، والقطع التى تكسرت من الشيء ، وأيضاً حجارة الذهب وقطع الفضة .

(٢٢٦) كتبها من مصر إلى أحد علماء سوريا ، جوابا عن رسالة منه .

(٢٢٧) كتبها بمصر إلى أحد أصدقائه .

(٢٢٨) كتبها بمصر ، بعد مراسلات عاتبة ، وفيها يبرأ من هفوة فى حق هذا الصديق .

(٢٢٩) أحمد الهاشمى كتاب [جواهر الأدب] ص ٨٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٣م .

(٢٣٠) كتبها الأستاذ الإمام من مصر إلى «محمد بك نجيب بكار» ، جوابا عن رسالة منه .

(٢٣١) أرسلها إلى الأستاذ محمد بك صالح عند ترقيته إلى منصب قاض من الدرجة الثالثة .

(٢٣٢) كتبها الأستاذ الإمام ، معزيا أبنى الأمير عبد القادر الجزائرى فىّ وفاة والدهما . وهى مكتوبة من سوريا .

(٢٣٣) بعث بها من سوريا إلى صديق له من رجالات مصر ، معزيا فى وفاة عقيلته .

(٢٣٤) أى بقاياها .

(٢٣٥) كتبها من سوريا ، معزيا أحد أصدقائه فى وفاة كريمته .

(٢٣٦) كتبها الأستاذ الإمام من سوريا ، جوابا على رسالة تعزية . ولعل ذلك كان في وفاة زوجته ، فلقد توفيت وهو فى منفاه هناك .

(٢٣٧) اختلطت .

(٢٣٨) أصابنى بالصداع .

(٢٣٩) شقنى ، أوغيبنى .

(٢٤٠) كتب الأستاذ هذه الرسالة إلى الشيخ على الليثى فى ٩ صفر سنة ١٣٠٨ هـ (سبتمبر سنة ١٨٩٠م) . وقد وجدها المرحوم خير الدين الزركلى بين أوراق الشيخ على الليثى ، ونشرها مصورة فى المستدرك الثانى على قاموسه (الأعلام) طبعة بيروت ، الثالثة .

(٢٤١) شرح الأستاذ الإمام مقامات أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى ، وحققها بمقابلة نصها على عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة ، وأثبت على المتن شروحاً تزيد على أضعافه حجما . وكان فراغه من هذا الشرح والتحقيق فى ١٦ رمضان سنة ١٣٠٦ هـ (سنة ١٨٨٩م) . . والطبعة التى رجعنا إليها هى طبعة المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ببيروت سنة ١٩٢٤ . انظر ص ١ ـ ٨ ، وهامش ٣ من ص ٢٦٤ .

(٢٤٢) شراسة .

(٢٤٣) سوء الخلق .

(٢٤٤) حدة اللسان فى الفصاحة .

(٢٤٥) اللامع البياض .

(٢٤٦) الأسمر .

(٢٤٧) مختص .
(٢٤٨) خواطر السوء تسلك فى النفس مسالك القضاء .
(٢٤٩) الاضطراب .
(٢٥٠) هيجان الفتنة .
(٢٥١) كالحة .
(٢٥٢) نشر الأستاذ الإمام هذه المقالة فى مجلة (ثمرات الفنون) البيروتية، أثناء مقامه هناك منفيا، وذلك بالعدد ٥٨٧ الصادر فى ٢٦ رمضان سنة ١٣٠٣ هـ (سنة ١٨٨٦م).
(٢٥٣) المراد النداء المخصوص المتفق عليه بين الناس للحرب والغزو والتضامن فى الملمات .
(٢٥٤) المراد مقدم اللحية .
(٢٥٥) هو القميص، وكل ما يلبس .
(٢٥٦) كتب الأستاذ الإمام هذه المقدمة لشرحه وتحقيقه لكتاب البصائر النصيرية فى علم المنطق، وهو من تصنيف الشيخ عمر بن سهلان الساوى . انظر الطبعة الأولى من هذا الكتاب (بولاق سنة ١٣١٦هـ سنة ١٨٩٨م) ص ٢ .
(٢٥٧) سنة ١٨٨٧م . قبل عودة الأستاذ الإمام من المنفى .
(٢٥٨) هذه الكلمة «قرظ» بها الأستاذ الإمام كتاب (أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجانى، عندما طبع - بسعيه وجهده - ونشرتها (المنار) فى الجزء الرابع من سنتها الخامسة (١٦ صفر سنة ١٣٢٠هـ - ٢٤ مايو سنة ١٩٠٢م) ص ١٥٤ .
(٢٥٩) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية) . انظر ص ١٣ .
(٢٦٠) المصدر السابق . تعليقات ص ١٥ .
(٢٦١) هو جزء من الماهية يميز النوع كالناطق بالنسبة للإنسان، وينقسم إلى قريب وبعيد . انظر المعجم الفلسفى، مادة «فصل» .
(٢٦٢) هو الكلى الذاتى الذى يقال على كثيرين مختلفين بالعدد فى جواب ما هو . المصدر السابق، مادة «نوع» .
(٢٦٣) هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ما هو من حيث هو كذلك . المصدر السابق، مادة «جنس» .
(٢٦٤) من تعليقات الإمام على (البصائر النصيرية)، ص ٤١ .
(٢٦٥) المصدر السابق . تعليقات ص ٤٣ .
(٢٦٦) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية) . انظر ص ١٧٣ .
(٢٦٧) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية) . وهو تعليق على قول المؤلف : «. . ولا يتحقق رفع الشئ فى الذهن دون وجوده فى الذهن، فكل عدم لا يتحقق فى الذهن ولا يتحدد إلا بالوجود، بأن يؤخذ الوجود جزءا من حد العدم» . ص٥٠ .
(٢٦٨) المصدر السابق، تعليقات ص ٥٧ .
(٢٦٩) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية)، انظر ص ٦٩ .
(٢٧٠) المصدر السابق . تعليقات ص ٦٤ .
(٢٧١) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية) . انظر ص ١١٦ .

(٢٧٢) المصدر السابق. تعليقات ص ١١٦ .

(٢٧٣) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية). انظر ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢٧٤)من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية). انظر ص ١٢٨ ـ ١٣١ .

(٢٧٥) الحسن بن أبي الحسن البصرى .

(٢٧٦) من تعليقات الأستاذ الإمام فى (نهج البلاغة) على قول الإمام على متحدثاً عن خلق الفضاء : «ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء. .». انظر ص ٢٦ .

(٢٧٧) عاش فى الفترة من ٦٢٤ حتى ٥٥٠ق. م. تقريبا، وقال إن الماء هو المادة الأولى التي صدرت عنها الكائنات وإليها تعود، وهو معدود ضمن الحكماء السبعة، وأول من حاول تفسير الكون، وأقدم فلاسفة هذا الوجود. انظر «قصة الفلسفة اليونانية» تصنيف أحمد أمين وزكى نجيب محمود. طبعه دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٥ . ص ١٩ ـ ٢٢ .

(٢٧٨) من تعليقات الأستاذ على (البصائر النصيرية). انظر ص ١٣٣ .

(٢٧٩) المصدر السابق. تعليقات ص ١٣٣ ، ١٣٤ . وهو يعلق هنا على القول الشائع فى كتب المناطقة بأن التمساح يحرك عند المضغ فكه الأعلى فقط .

(٢٨٠) عالم مصرى اشتهر بكتابه (حياة الحيوان) توفى سنة ١٤٠٥م .

(٢٨١) من تعليقات الأستاذ الإمام على (البصائر النصيرية). انظر ص ١٦٤ .

(٢٨٢) المصدر السابق. تعليقات ص ١٨٥ .

(٢٨٣) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٥ .

(٢٨٤) المصدر السابق، تعليقا على قول الإمام على: «ومن جزأه «أى الله» فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه». أنظر ص ٢٥ .

(٢٨٥) المصدر السابق، ص ٢٥ .

(٢٨٦) المصدر السابق، ص ٧٥ .

(٢٨٧) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٧ .

(٢٨٨) المصدر السابق. ص ٧٦ .

(٢٨٩) ذكر «بلنت» هذا الرأى للأستاذ الإمام فى مذكراته عن يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٣م بلندن. انظر (كوكب الشرق) فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢م. ويذكر بلنت أن الأستاذ الإمام كان يعترف بوجود الجن والملائكة .

(٢٩٠) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٩ .

(٢٩١) المصدر السابق. ص ٢٩ .

(٢٩٢) ذكر «بلنت» رأى الأستاذ الإمام هذا فى مذكراته عن يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٠٣ بلندن. انظر كوكب الشرق فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢م .

(٢٩٣) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٠٧ .

(٢٩٤) المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٢٩٥) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) عن الله سبحانه: إنه «بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له». انظر ص ٢١٩ .

(٢٩٦) من تعليقات الأستاذ الإمام فى (نهج البلاغة). انظر ص ٢٢١ .
(٢٩٧) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٢٤ . .
(٢٩٨) أى على بن أبى طالب .
(٢٩٩) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٣٣ .
(٣٠٠) السلطة القاهرة الخارقة للعادة دائما التى تفتح الكنوز وتسخر الطير والوحوش والقوى المختلفة فى الوجود .
(٣٠١) المصدر السابق . ص ٨١ .
(٣٠٢) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩م) أخذ القول بخلق الإنسان لأفعاله عن «معبد الجهنى»، والقول بتنزيه الله عن الصفات عن «الجهم بن صفوان». وهو أول من نظم التيار الفكرى الإسلامى القائل بالعدل (الحرية) والتوحيد (التنزيه) فى مدرسة فكرية واحدة ومتميزة هى مدرسة المعتزلة . له مؤلفات كثيرة لم يصل إلينا منها شىء . انظر (المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل) لابن المرتضى، طبعة الهند ص ١٧ ـ ٢٠ .
(٣٠٣) هو الحسن بن أبى الحسن البصرى (٣٠ـ ١٠٠هـ) واسم أبيه «يسار»، نشأ فى بيت النبوة، لأن أمه «خيرة» كانت مولاة «لأم سلمة» إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان الحسن إمام عصره . اتفق معه المعتزلة فى العدل والتوحيد، واختلفوا معه فى الموقف من مرتكب الكبيرة، فسماه هو «منافقا»، وسموه هم «فاسقا» وحكموا بخلوده فى النار وجعلوه فى منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان .
(٣٠٤) هو أبو الحسن على بن إسماعيل بن أبى بشر الأشعرى (٢٦٠ ـ ٣٢٤هـ ٨٧٣ ـ ٩٣٥م) كان معتزليا، ثم خرج عليهم بعد أربعين عاماً من القول بمذهبهم، ورام موقفا وسطا بين الجبر الخالص وبين القول بالحرية الإنسانية والاختيار، فقال بنظرية «الكسب» الذى يقع من الإنسان عند خلق الله للفعل فيه .
(٣٠٥) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة)، ص ٨٠ .
(٣٠٦) من تعليقات الأستاذ الإمام على قول الإمام على رضى الله عنه فى (نهج البلاغة): إن قضاء الله فى الفعل الإنسانى ليس لازما، وقدره ليس حاتما . انظر فى هذا الكتاب ص ٣٧٥ .
(٣٠٧) كان الشيخ رشيد رضا بصحبة الأستاذ الإمام فى الطريق من الأزهر إلى محطة السكة الحديد، فاشترى الأستاذ الإمام «بسكويتاً» من شارع الموسكى وأخذ فى أكله، فدار بينهما هذا الحوار الطريف .
(٣٠٨) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة). انظر ص ٢٠٥ .
(٣٠٩) المصدر السابق ص ٢٢٣، وهو تعليق على قول الإمام على بأننا مقدمون على وقت «يكون المعطى (بفتح الطاء) أعظم أجراً من المعطى (بكسر الطاء)» .
(٣١٠) المصدر السابق . ص ٢٢٤ .
(٣١١) من تعليقات الأستاذ الإمام على خطبة الإمام على فى الناس، عندما أرادوا بيعته بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان . انظر (نهج البلاغة). ص ١١٥ .
(٣١٢) المصدر السابق ص ١٢٤ .
(٣١٣) المصدر السابق ص ١٤٣ .

(٣١٤)من تعليقات الأستاذ الإمام على مقدمة الشريف الرضى لنهج البلاغة . انظر ص ٢١ .
(٣١٥) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٣٥ .
(٣١٦) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٤٠ .
(٣١٧) من معانيه : ذكر النحل وأميرها ، والغرة فى وجه الفرس ، وطائر صغير ، والرئيس الكبير . . .
والمراد هنا أن جمل عائشة كان الشارة والرمز الذى التف من حوله أنصارها فى الموقعة .
(٣١٨) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٦٥ .
(٣١٩) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٧١ .
(٣٢٠) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٦٢ .
(٣٢١) العاقبة ، والهزيمة فى القتال .
(٣٢٢)من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٦٧ .
(٣٢٣) المصدر السابق . ص ٧٤ . والتعليق على قول الإمام على لأصحابه : «لا تقاتلوا الخوارج بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأدركه» .
(٣٢٤) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٤٨ .
(٣٢٥)من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٥٠ .
(٣٢٦) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٥٦ .
(٣٢٧) مكان قريب من الكوفة .
(٣٢٨) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٧٨ .
(٣٢٩) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٥١ .
(٣٣٠) الهودج ، والمرأة ما دامت فى الهودج ، أو المرأة عموماً .
(٣٣١) من تعليقات الأستاذ الإمام على (نهج البلاغة) . انظر ص ٥٣ .
(٣٣٢) السجل الثانى من سجلات مضبطة دار الإفتاء المصرية . ص ١ .
(٣٣٣) تشغل فتاوى الشيخ حسونة النواوى السجل الأول من مضبطة دار الإفتاء المصرية .
(٣٣٤) انظر المنار مجلد ١٩ جزء ٩ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩ عدد ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٣٣٥ - ٢٢ فبراير سنة ١٩١٧م .
(٣٣٥) انظرها فى الجزء الأول من هذه الأعمال . وتاريخها ٩ محرم سنة ١٣٢٢هـ . وتقع فى السجل الثالث ص ٤٤ ، ٤٧ .
(٣٣٦) انظرها فى الجزء الثالث من هذه الأعمال . وتاريخها ٢٥ شوال سنة ١٣١٧هـ . وتقع فى السجل الثانى ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٣٣٧) انظر مضمونها فى الجزء الثالث من هذه الأعمال . أما نصها الحرفى فانظره تحت رقم ٧ فى الفتاوى التى نقدم لها .
(٣٣٨) انظرها فى الجزء الثانى من هذه الأعمال . ولقد أعدنا نشرها هنا ، لأن ما نشر منها قبل ذلك ليس نصها الكامل .
(٣٣٩) عدد أسطر الصفحة فى هذه السجلات ٣٠ سطرا ، ومتوسط كلمات السطر ٣٠ كلمة .
(٣٤٠) كانت قضايا القصاص عندما تعرض على الشيخ حسونة النواوى غالبا ما يضمن جوابه عبارته التقليدية التى تقول : «والذى يقتضيه الحكم الشرعى فى ذلك ، أنه متى ثبت القتل عمدا بالطريق

الشرعى فلولى الجناية القصاص شرعاً. والله أعلم». انظر السجل الأول من سجلات دار الإفتاء ص ١٣٨ فتوى رقم ٢٦٥، وص ١٤٧ فتوى رقم ٢٧٨، وص ٨ فتوى رقم ١٤.

(٣٤١) أى الأستاذ الإمام.

(٣٤٢) هذه هى الفتوى رقم ١ فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء - وهو السجل الأول للأستاذ الإمام - وتقع فى ص ١ من هذا السجل.

(٣٤٣) رقم هذه الفتوى فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٤٥٧، وتقع فى نهاية النهر الأيمن من الصفحة ٨٠ من هذا السجل. ثم يبدأ النهر الأيسر من الصفحة ٨٠ بمساحة بيضاء مكتوب بها عبارة: (فضيلة الشيخ البكرى) ثم تتوالى فتاوى من خلف الأستاذ الإمام فى منصب الإفتاء، وتاريخ أول فتوى له ١٨ رمضان سنة ١٣٢٣ هـ أى بعد وفاة الإمام بأربعة أشهر وعشرة أيام.

(٣٤٤) انظر الفتوى رقم ٣٢.

(٣٤٥) انظر الفتاوى ٣، ٤، ٥.

(٣٤٦) انظر الفتوى ٦.

(٣٤٧) انظر الفتاوى ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦.

(٣٤٨) نشرنا هذه الفتوى فى الجزء الأول من هذه الأعمال وانظر كذلك الفتوى الترنسفالية رقم ٧.

(٣٤٩) انظر الفتوى ١٩.

(٣٥٠) انظر الفتوى ١٠.

(٣٥١) لابن عابدين أيضا: (العقود الدرية فى قول الواقف على الفرائض الشرعية) طبع سنة ١٣٠١هـ.

(٣٥٢) انظر فى كل ذلك (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لحاجى خليفة و (ذيل كشف الظنون) المسمى (إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون) لإسماعيل باشا البغدادى، و(هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) لإسماعيل باشا البغدادى. تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا ورفعت بيلكه الكليسى. طبعة إستانبول سنة ١٩٥١م.
وكذلك (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ليوسف إليان سركيس.
وكذلك (الأعلام) لخير الدين الزركلى. طبعة بيروت. الثالثة.

(٣٥٣) تاريخ هذه الفتوى ١٠ صفر سنة ١٣١٩هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٣٢٦، وتقع فى ص ١٣٣ من هذا السجل.

(٣٥٤) تاريخ هذه الفتوى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٠٧، وتقع فى ص ١٨، ١٩.

(٣٥٥) تاريخ هذه الفتوى ٤ صفر سنة ١٣٢١ هـ. ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٣٧، وتقع فى ص ٢٣.

(٣٥٦) بضم العين وكسر الباء مشددة.

(٣٥٧) فى الأصل: من.

(٣٥٨) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢ هـ. ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٣٧١، وتقع فى النهرين الأيمن والأيسر من ص ٦٤.

(٣٥٩) تاريخ هذه الفتوى ٦ شعبان سنة ١٣٢١هـ. ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٩٠ وتقع فى النهر الأيسر من ص ٣١.

(٣٦٠) تاريخ هذه الفتوى ٨ ذى الحجة سنة ١٣١٩هـ. ورقمها في السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٤، وتقع في ص ١٧٩، ١٨٠.

(٣٦١) تاريخ هذه الفتوى ٧ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٤٣، وتقع فى ص ١٠٤، ١٠٥.

(٣٦٢) أى الأستاذ الإمام.

(٣٦٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٣، وتقع فى النهر الأيسر من ص ٢.

(٣٦٤) أى الأستاذ الإمام.

(٣٦٥)أحد علماء مذهب أبى حنيفة.

(٣٦٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٢٢هـ. ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٣١١ وتقع فى النهر الأيسر من ص ٥٤ والنهر الأيمن من ص ٥٥.

(٣٦٧) تاريخ هذه الفتوى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها في السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٠٦، وتقع فى النهر الأيسر من ص ١٨.

(٣٦٨) تاريخ هذه الفتوى ١٤ رجب سنة ١٣١٨هـ. ورقمها في السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٦، وتقع فى ص ٩٨.

(٣٦٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٢، وتقع فى ص ١٨٢.

(٣٧٠) أى الأستاذ الإمام.

(٣٧١) تاريخ هذه الفتوى ١٧ محرم سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٦٨، وتقع فى ص ١٨٨.

(٣٧٢) تاريخ هذه الفتوى ٦ محرم سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٦٤، وتقع فى ص ١٨٥، ١٨٦.

(٣٧٣) تاريخ هذه الفتوى ١٨ صفر سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٨٠، وتقع فى ص ١٩٥.

(٣٧٤) أى الأستاذ الإمام.

(٣٧٥) تاريخ هذه الفتوى ١٢ صفر سنة ١٣٢٠هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٨، وتقع فى ص ١٩٤.

(٣٧٦) تاريخ هذه الفتوى ٤ صفر سنة ١٣٢١ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ١٣٨، وتقع فى ص ٢٣.

(٣٧٧) تاريخ هذه الفتوى ١٦ شوال سنة ١٣١٨هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٦٨، وتقع فى ص ١١٤.

(٣٧٨) تاريخ هذه الفتوى ٤ رمضان سنة ١٣٢١ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٠٦، وتقع فى النهر الأيمن من ص ٣٤.

(٣٧٩) أي الأستاذ الإمام .
(٣٨٠) تاريخ هذه الفتوى ٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ . ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١١١ ، وتقع في النهر الأيسر من ص ١٩ .
(٣٨١) أي الأستاذ الإمام .
(٣٨٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ محرم سنة ١٣٢١ هـ . ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٣١ ، وتقع فى ص ٢٢ .
(٣٨٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ رجب سنة ١٣١٨هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٣١ ، وتقع فى ص ٩٩ .
(٣٨٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ جمادى الأخرة سنة ١٣٢٠هـ . ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ٢٩ ، وتقع فى النهر الأيمن من ص ٥ .
(٣٨٥) تاريخ هذه الفتوى ١٦ محرم سنة ١٣٢١ هـ . ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٢٤ ، وتقع فى النهر الأيمن من ص ٢١ .
(٣٨٦) تاريخ هذه الفتوى ١٨ صفر سنة ١٣٢١ هـ . ورقمها في السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ١٤٤ ، وتقع فى ص ٢٤ .
(٣٨٧) تاريخ هذه الفتوى ١٩ صفر سنة ١٣٢٠هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٨١ ، وتقع فى ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٣٨٨) أي الأستاذ الإمام .
(٣٨٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٢٨ ، وتقع فى ص ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٣٩٠) تاريخ هذه الفتوى ١٦ صفر سنة ١٣٢٠هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٩ ، وتقع فى ص ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٣٩١) أي الأستاذ الإمام .
(٣٩٢) تاريخ هذه الفتوى ٨ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤١٦ ، وتقع فى ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣٩٣) أي الأستاذ الإمام .
(٣٩٤) تاريخ هذه الفتوى ٢١ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٠ ، وتقع فى ص ١٨١ .
(٣٩٥) تاريخ إجابة هذا السؤال ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ . وهى تقع فى ص ٩٤ من السجل رقم ٢ من سجلات دار الإفتاء . ورقمها فى المسلسل فى هذا السجل ٢١٥ .
(٣٩٦) تاريخ هذه الفتوى نهاية جمادى الأخرة سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى لدار الإفتاء ٢١٧ .
(٣٩٧) تاريخ هذه الفتوى ١٤ رجب سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٣ .
(٣٩٨) أي الأستاذ الإمام .
(٣٩٩) أي أظهر .

(٤٠٠)تاريخ هذه الفتوى ١٤ رجب سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢٤.

(٤٠١)تاريخ هذه الفتوى ٢ صفر سنة ١٣٢١هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٣٦ وتقع في ص ٢٣.

(٤٠٢)تاريخ هذه الفتوى ١٦ صفر سنة ١٣٢١هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٤٢، وتقع في ص ٢٤.

(٤٠٣) تاريخ هذه الفتوى ١٨ صفر سنة ١٣٢١هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٤٣، وتقع في ص ٢٤.

(٤٠٤)أي الأستاذ الإمام.

(٤٠٥) تاريخ هذه الفتوى ٢ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٦، وتقع في ص ١٠١، ١٠٢.

(٤٠٦) تاريخ هذه الفتوى ٢ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٧، وتقع في ص ١٠٢.

(٤٠٧) تاريخ هذه الفتوى ٤ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٨، وتقع في ص ١٠١، ١٠٢.

(٤٠٨) أي الأستاذ الإمام.

(٤٠٩) في الأصل: ولدا.

(٤١٠) في الأصل: فبذلك.

(٤١١) في الأصل: وجون.

(٤١٢) تاريخ هذه الفتوى ٧ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤١، وتقع في ص ١٠٣، ١٠٤.

(٤١٣) تاريخ هذه الفتوى ٩ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٢، وتقع في ص ١٠٤.

(٤١٤) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٤، وتقع في ص ١٠٥، ١٠٦.

(٤١٥) في الأصل: تعد.

(٤١٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٧، وتقع في ص ١٠٦، ١٠٧.

(٤١٧) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٨، وتقع في ص ١٠٧.

(٤١٨)أي الأستاذ الإمام.

(٤١٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٩، وتقع في ص ١٠٧، ١٠٨.

(٤٢٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٠، وتقع في ص ١٠٨.

(٤٢١) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٢، وتقع في ص ١٠٨ .

(٤٢٢) أي الأستاذ الإمام.

(٤٢٣) تاريخ هذه الفتوى ١٩ رمضان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٦، وتقع في ص ١٠٩، ١١٠ .

(٤٢٤) تاريخ هذه الفتوى ٢١ رمضان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٧، وتقع في ص ١١٠ .

(٤٢٥) أي الأستاذ الإمام.

(٤٢٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ رمضان سنة ١٣١٨هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٨، وتقع في ص ١١٠ .

(٤٢٧) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦١، وتقع في ص ١١١، ١١٢ .

(٤٢٨) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٢، وتقع في ص ١١٢ .

(٤٢٩) تاريخ هذه الفتوى ١٤ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٦، وتقع في ص ١١٣ .

(٤٣٠) تاريخ هذه الفتوى ١٥ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٧، وتقع في ص ١١٣، ١١٤ .

(٤٣١) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٠، وتقع في ص ١١٤ .

(٤٣٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٣، وتقع في ص ١١٥ .

(٤٣٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٤، وتقع في ص ١١٦ .

(٤٣٤) تاريخ هذه الفتوى ١٤ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٦، وتقع في ص ١٦٥ .

(٤٣٥) بالأصل: تبدأ أولى.

(٤٣٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٨، وتقع في ص ١٦٥، ١٦٦ .

(٤٣٧) رمز الطاء(ط) يعني القيراط، وهو جزء من أربعة وعشرين جزءا من الفدان.

(٤٣٨) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٠، وتقع في ص ١٦٦ .

(٤٣٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٢، وتقع في ص ١٦٧ .

(٤٤٠) أي الوافدين إلى المدينة المنورة من الآفاق والأقاليم والأوطان الأخرى.

(٤٤١) كلمة في الأصل رسمها هكذا : غته .

(٤٤٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٢ رمضان سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٧ ، وتقع في ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٤٤٣) أي الأستاذ الإمام.

(٤٤٤) في الأصل : المذكور .

(٤٤٥) تاريخ هذه الفتوى ١٥ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١٣ ، وتقع في ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤٤٦) تاريخ هذه الفتوى ٩ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١٩ ، وتقع في ص ١٧٣ .

(٤٤٧) تاريخ هذه الفتوى ١٦ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٢ ، وتقع في ص ١٧٤ .

(٤٤٨) أي الأستاذ الإمام.

(٤٤٩) تاريخ هذه الفتوى ١٨ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٦ ، وتقع في ص ١٧٥ .

(٤٥٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣١ ، وتقع في ص ١٧٦ .

(٤٥١) أي الأستاذ الإمام.

(٤٥٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٣ ، وتقع في ص ١٧٧ .

(٤٥٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٨ ، وتقع في ص ١٧٨ .

(٤٥٤) تاريخ هذه الفتوى غاية ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٩ ، وتقع في ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٤٥٥) أي الأستاذ الإمام.

(٤٥٦) تاريخ هذه الفتوى ٨ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٤٣ ، وتقع في ص ١٧٩ .

(٤٥٧) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٤٧ ، وتقع في ص ١٨٠ .

(٤٥٨) تاريخ هذه الفتوى ٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٤٨ ، وتقع في ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٤٥٩) أي الأستاذ الإمام.

(٤٦٠) تاريخ هذه الفتوى ٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٤٩ ، وتقع في ص ١٨١ .

(٤٦١) أي الأستاذ الإمام.
(٤٦٢) تاريخ هذه الفتوى ٣ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٥٩، وتقع في ص ١٨٣، ١٨٤.
(٤٦٣) تاريخ هذه الفتوى ٣ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٠، وتقع في ص ١٨٤.
(٤٦٤) تاريخ هذه الفتوى ٥ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦١، وتقع في ص ١٨٤، ١٨٥.
(٤٦٥) تاريخ هذه الفتوى ٥ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٢، وتقع في ص ١٨٥.
(٤٦٦) تاريخ هذه الفتوى ٦ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٥، وتقع في ص ١٨٦.
(٤٦٧) تاريخ هذه الفتوى ٦ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٦، وتقع في ص ١٨٦، ١٨٧.
(٤٦٨) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٩، وتقع في ص ١٨٨، ١٨٩.
(٤٦٩) أي الأستاذ الإمام.
(٤٧٠) غير موجودة في الأصل، والسياق يقتضي إضافتها.
(٤٧١) تاريخ هذه الفتوى ٢٧ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٧٠، وتقع في ص ١٨٩، ١٩٢.
(٤٧٢) أي مبلغ أربعمائة وخمسين قرشا.
(٤٧٣) أي عشرة آلاف وأربعة وثمانون جنيها.
(٤٧٤) الشراقي هو الجفاف الشديد في الأرض لتعذر مياه الري.
(٤٧٥) تاريخ هذه الفتوى ١١ صفر سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٧٧، وتقع في ص ١٩٤.
(٤٧٦) أي الأستاذ الإمام.
(٤٧٧) مكانها خرم في السجلات.
(٤٧٨) مكانها خرم في السجلات.
(٤٧٩) تاريخ هذه الفتوى ١٩ صفر سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٨٢، وتقع في ص ١٩٦، ١٩٧.
(٤٨٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ صفر سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٨٣، وتقع في ص ١٩٧.
(٤٨١) رقم هذه الفتوى في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٨٤، وتقع في ص ١٩٧، ١٩٨.
(٤٨٢) أي الأستاذ الإمام.
(٤٨٣) هكذا بالأصل.
(٤٨٤) في الأصل: بعد.

(٤٨٥) في الأصل: مرسلاتان.
(٤٨٦) هكذا بالأصل.
(٤٨٧) في الأصل: انقرادهم.
(٤٨٨) في الأصل: لزريتهم.
(٤٨٩) في الأصل: داربهم.
(٤٩٠) تاريخ هذه الفتوى غاية شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٨، وتقع في ص ١١٧، ١١٨.
(٤٩١) أي الأستاذ الإمام
(٤٩٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢١٦، وتقع في ص ٩٤.
(٤٩٣) تاريخ هذه الفتوى غاية - أي نهاية - جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢١٨، وتقع في ص ٩٥.
(٤٩٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ رجب سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٣، وتقع في ص ٩٩، ١٠٠.
(٤٩٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ رجب سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٥، وتقع في ص ١٠١.
(٤٩٦) تاريخ هذه الفتوى ٥ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٠، وتقع في ص ١٠٢، ١٠٣.
(٤٩٧) تاريخ هذه الفتوى ٣ رمضان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٤، وتقع في ص ١٠٩.
(٤٩٨) تاريخ هذه الفتوى ١٧ رمضان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٥، وتقع في ص ١٠٩.
(٤٩٩) تاريخ هذه الفتوى ١٢ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٠، وتقع في ص ١١١.
(٥٠٠) تاريخ هذه الفتوى ١٩ شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٩، وتقع في ص ١١٤.
(٥٠١) تاريخ هذه الفتوى غاية شوال سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٧، وتقع في ص ١١٧.
(٥٠٢) تاريخ هذه الفتوى غرة صفر سنة ١٣٢١ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٣٥، وتقع في ص ٢٣.
(٥٠٣) تاريخ هذه الفتوى ١٢ صفر سنة ١٣٢١ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ١٤١، وتقع في ص ٢٤.
(٥٠٤) أي الأستاذ الإمام.
(٥٠٥) كلمة بالأصل رسمها هكذا: غاسبه.

(٥٠٦) تاريخ هذه الفتوى ١٢ شعبان سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٣، وتقع في ص ١٦٤ .

(٥٠٧) أي سجل دار الإفتاء .

(٥٠٨) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٩، وتقع في ص ١٦٦ .

(٥٠٩) تاريخ هذه الفتوى ٦ شوال سنة ١٣١٩هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٨، وتقع في ص ١٦٩، ١٧٠ .

(٥١٠) تاريخ هذه الفتوى ١٠ شوال سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١٠، وتقع في ص ١٧٠ .

(٥١١) أي الأستاذ الإمام .

(٥١٢) تاريخ هذه الفتوى ١٠ شوال سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١١، وتقع في ص ١٧٠، ١٧١ .

(٥١٣) في الأصل : له

(٥١٤) تاريخ هذه الفتوى ١٢ شوال سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١٢، وتقع في ص ١٧١ .

(٥١٥) أي الأستاذ الإمام .

(٥١٦) تاريخ هذه الفتوى ٨ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤١٧، وتقع في ص ١٧٣ .

(٥١٧) تاريخ هذه الفتوى ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٠، وتقع في ص ١٧٤ .

(٥١٨) تاريخ هذه الفتوى ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢١، وتقع في ص ١٧٤ .

(٥١٩) أي الأستاذ الإمام .

(٥٢٠) تاريخ هذه الفتوى ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٤، وتقع في ص ١٧٤، ١٧٥ .

(٥٢١) أي الأستاذ الإمام .

(٥٢٢) تاريخ هذه الفتوى ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٥، وتقع في ص ١٧٥ .

(٥٢٣) تاريخ هذه الفتوى ٢١ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٧، وتقع في ص ١٧٥ .

(٥٢٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٤ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٠، وتقع في ص ١٧٦ .

(٥٢٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣١٩هـ. ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٤، وتقع في ص ١٧٧ .

(٥٢٦) أي الأستاذ الإمام .

(٥٢٧) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٣٥، وتقع فى ص ١٧٧، ١٧٨.

(٥٢٨) أى سجل دار الإفتاء.

(٥٢٩) تاريخ هذا الإلحاق والرد عليه ١٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٦، ويقع فى ص ١٨٠.

(٥٣٠) كلمة «ويموت» مكررة فى الأصل.

(٥٣١) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٣٧، وتقع فى ص ١٧٨.

(٥٣٢) تاريخ هذه الفتوى غرة ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٠، وتقع فى ص ١٧٩.

(٥٣٣) تاريخ هذه الفتوى غرة ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤١، وتقع فى ص ١٧٩.

(٥٣٤) أى الأستاذ الإمام.

(٥٣٥) تاريخ هذه الفتوى ١٦ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٥، وتقع فى ص ١٨٠.

(٥٣٦) تاريخ هذه الفتوى ١٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٧، وتقع فى ص ١٨٣.

(٥٣٧) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٨، وتقع فى ص ١٨٣.

(٥٣٨) تاريخ هذه الفتوى ٩ صفر سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٤، وتقع فى ص ١٩٣.

(٥٣٩) أى الأستاذ الإمام.

(٥٤٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٤، وتقع فى ص ١٨٢، ١٨٣.

(٥٤١) كلمة بالأصل رسمها هكذا: التلب.

(٥٤٢) تاريخ هذه الفتوى غرة رجب الحرام سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢١٩، وتقع فى ص ٩٥.

(٥٤٣) أى الأستاذ الإمام.

(٥٤٤) تاريخ هذه الفتوى ٢١ رجب سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٩، وتقع فى ص ٩٨، ٩٩.

(٥٤٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ رجب سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٣٠، وتقع فى ص ٩٩.

(٥٤٦) تاريخ هذه الفتوى ٥ شعبان سنة ١٣١٨ هـ. ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٣٩، وتقع فى ص ١٠٢.

(٥٤٧) تاريخ هذه الفتوى ١٦ شعبان سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٤٦ ، وتقع فى ص ١٠٦ .

(٥٤٨) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٦٣ ، وتقع فى ص ١١٢ .

(٥٤٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٧١ ، وتقع فى ص ١١٥ .

(٥٥٠) تاريخ هذه الفتوى غاية شوال سنة ١٣١٨ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٧٦ ، وتقع فى ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٥٥١) تاريخ هذه الفتوى ٤ صفر سنة ١٣٢١ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ١٣٩ ، وتقع فى ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٥٥٢) السلم : هو بيع شيء موصوف ، مؤجل فى الذمة ، بغير جنسه ، وله شروط ذكرتها كتب الفقه .

(٥٥٣) تاريخ هذه الفتوى ٢ ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٨ ، وتقع فى ص ٣٨ .

(٥٥٤) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شعبان سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٣٩٤ ، وتقع فى ص ١٦٤ .

(٥٥٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٦ شعبان سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٠١ ، وتقع فى ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٥٥٦) تاريخ هذه الفتوى ٣ رمضان سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٠٣ ، وتقع فى ص ١٦٧ .

(٥٥٧) تاريخ هذه الفتوى ١٢ رمضان سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٠٥ ، وتقع فى ص ١٦٨ .

(٥٥٨) تاريخ هذه الفتوى ١٩ رمضان سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٠٦ ، وتقع فى ص ١٦٨ .

(٥٥٩) تاريخ هذه الفتوى ١٩ شوال سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤١٤ ، وتقع فى ص ١٧٢ .

(٥٦٠) تاريخ هذه الفتوى ١٩ شوال سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤١٥ ، وتقع فى ص ١٧٢ .

(٥٦١) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٣٦ ، وتقع فى ص ١٧٨ .

(٥٦٢) تاريخ هذه الفتوى ٦ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٤٢ ، وتقع فى ص ١٧٩ .

(٥٦٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥١ ، وتقع فى ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٥٦٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ . ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٥ ، وتقع فى ص ١٨٣ .

(٥٦٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ محرم سنة ١٣٢٠ هـ. ورقمها في السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٢، وتقع فى ص ١٩٢.

(٥٦٦) أي الأستاذ الإمام.

(٥٦٧) تاريخ وضع الأستاذ الإمام لهذا المشروع ٥ ربيع الآخر سنة ١٣١٨ هـ. ورقمه فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ١٧٨، ويقع فى ص ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩. ويعده تصديق شيخ الأزهر عليه.

وصورته: «صورة تصديق حضرة شيخ الجامع الأزهر ومفتى السادة المالكية:

بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على نبيه. أقول: ما سطر بعاليه من المسائل الإحدى عشرة هى نصوص المالكية، وعليها العمل، وبها الفتوى. سيما إذا دعت إليها الضرورة كما فى زماننا هذا، فالعمل بها أوجب والله أعلم».

وبعد نص التصديق هذا عبارة: «وقد ورد هذا المشروع مصدقا عليه من حضرته بإفادة مؤرخة فى ٦ ربيع آخر سنة ١٣١٨ نمرة/ ٥٢٨ سايرة بعد إرساله لحضرته بإفادة مؤرخة فى ٤ منه نمرة/ ١٩».

وشيخ الأزهر المشار إليه هو المرحوم الشيخ سليم البشرى.

(٥٦٨) أى الأستاذ الأمام.

(٥٦٩) تاريخ هذه الفتوى ٧ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢١، وتقع فى ص ٩٥، ٩٦.

(٥٧٠) تاريخ هذه الفتوى ١٠ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٢، وتقع فى ص ٩٦.

(٥٧١) تاريخ هذه الفتوى ١٨ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٢٧، وتقع فى ص ٩٨.

(٥٧٢) تاريخ هذه الفتوى ٢٧ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٢٣٢، وتقع فى ص ٩٩.

(٥٧٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧١، وتقع فى ص ١١٥.

(٥٧٤) أي الأستاذ الإمام.

(٥٧٥) تاريخ هذه الفتوى ١٧ محرم سنة ١٣٢١ هـ، ورقمها فى السجل الثالث من سجلات دار الإفتاء ١٢٥، وتقع فى النهرين الأيمن والأيسر فى ص ٢١.

(٥٧٦) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٥٦، وتقع فى ص ١٨٣.

(٥٧٧) تاريخ هذه الفتوى ١٠ محرم سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٦، وتقع فى ص ١٩٣.

(٥٧٨) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ محرم سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧١، وتقع فى ص ١٩٢.

(٥٧٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٩ محرم سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها فى السجل الثانى من سجلات دار الإفتاء ٤٧٣، وتقع فى ص ١٩٣.

(٥٨٠) تاريخ هذه الفتوى سنة ١٣٢٠هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٧٥، وتقع في ص ١٩٣.
(٥٨١) في الأصل: ومعتاده.
(٥٨٢) مبلغ من المال كان يدفع بمصر قديما ـ قبل سنة ١٩٥٢م ـ كعوض عن الخدمة العسكرية في الجيش.
(٥٨٣) تاريخ هذه الفتوى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢١٤، وتقع في ص ٩٤.
(٥٨٤) تاريخ هذه الفتوى ٧ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢٠، وتقع في ص ٩٥.
(٥٨٥) أي الأستاذ الإمام.
(٥٨٦) تاريخ هذه الفتوى ١٤ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢٥، وتقع في ص ٩٧، ٩٨.
(٥٨٧) أي الأستاذ الإمام.
(٥٨٨) في الأصل: أمراها.
(٥٨٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٠ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٢٨، وتقع في ص ٩٨.
(٥٩٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ رجب سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٣٤، وتقع في ص ١٠٠، ١٠١.
(٥٩١) كلمة في الأصل رسمها هكذا: بحثا.
(٥٩٢) في الأصل: بأن.
(٥٩٣) تاريخ هذه الفتوى ١٥ شعبان سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٤٥، وتقع في ص ١٠٦.
(٥٩٤) تاريخ هذه الفتوى ٢٧ شعبان سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥١، وتقع في ص ١٠٨.
(٥٩٥) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ شوال سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٧٥، وتقع في ص ١١٦.
(٥٩٦) تاريخ هذه الفتوى ١٣ شعبان سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٥، وتقع في ص ١٦٤.
(٥٩٧) تاريخ هذه الفتوى ٧ رمضان سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٣، وتقع في ص ١٦٧.
(٥٩٨) تاريخ هذه الفتوى ١٦ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٢، وتقع في ص ١٧٤.
(٥٩٩) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٢٨، وتقع في ص ١٧٦.
(٦٠٠) تاريخ هذه الفتوى ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٣٢، وتقع في ص ١٧٦، ١٧٧.

(٦٠١) تاريخ هذه الفتوى ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٥٣، وتقع في ص ١٨٢.

(٦٠٢) تاريخ هذه الفتوى ٦ محرم سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٣، وتقع في ص ١٨٥.

(٦٠٣) أي الأستاذ الإمام.

(٦٠٤) تاريخ هذه الفتوى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢١٣، وتقع في ص ٩٣، ٩٤.

(٦٠٥) أي الأستاذ الإمام.

(٦٠٦) تاريخ هذه الفتوى ٣ رمضان سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٣، وتقع في ص ١٠٩.

(٦٠٧) أي الأستاذ الإمام.

(٦٠٨) تاريخ هذه الفتوى ٣ شوال سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٥٩، وتقع في ص ١١١.

(٦٠٩) أي الأستاذ الإمام.

(٦١٠) تاريخ هذه القضية ١٤ شوال سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٤، وتقع في ص ١١١.

(٦١١) أي الأستاذ الإمام.

(٦١٢) تاريخ هذه الفتوى ١٤ شوال سنة ١٣١٨ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٢٦٥، وتقع في ص ١١٣.

(٦١٣) تاريخ هذه الفتوى ٢٣ شعبان سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٣٩٧، وتقع في ص ١٦٥.

(٦١٤) أي الأستاذ الإمام.

(٦١٥) تاريخ هذه الفتوى ٨ شوال سنة ١٣١٩ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٠٩، وتقع في ص ١٧٠.

(٦١٦) أي الأستاذ الإمام.

(٦١٧) تاريخ هذه الفتوى ٧ محرم سنة ١٣٢٠ هـ، ورقمها في السجل الثاني من سجلات دار الإفتاء ٤٦٧، وتقع في ص ١٨٧.

فهرس تحليلى للموضوعات

الكتابات الاجتماعية

حكومتنا والجمعيات الخيرية (الوقائع المصرية فى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠م). ٥

حب الفقر أو سفه الفلاح (الوقائع المصرية فى ٢٥ نوفمبر و ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠م و ٢٩ يناير سنة ١٨٨١م) ٨

إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية (الوقائع المصرية فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠م) ٢٠

وخامة الرشوة (الوقائع المصرية فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠م) ٢٤

العفة ولوازمها (الوقائع المصرية فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠م) ٢٧

ما أكثر القول وما أقل العمل (الوقائع المصرية فى ١٥ يناير سنة ١٨٨١م) . ٣٢

التمدن (الوقائع المصرية فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨١م) ٣٧

منتدياتنا العمومية وأحاديثها (الوقائع المصرية فى ٩ فبراير سنة ١٨٨١م) ٤١

تخصيص لما يوجب التعميم (الوقائع المصرية فى فبراير سنة ١٨٨١م) . ٤٧

بطلان الدوسة (الوقائع المصرية فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨١م) ٥١

الدوسة (الوقائع المصرية فى ٣ إبريل سنة ١٨٨١م) ٥٤

المعرفة فى المجتمع (الوقائع المصرية فى ١٩ فبراير سنة ١٨٨١م) ٥٨

الأدب الوهمى (الوقائع المصرية فى ٢١فبراير سنة ١٨٨١م) ٦٢

حاجة الإنسان إلى الزواج (الوقائع المصرية فى ٧ مارس سنة ١٨٨١م) .. ٦٦
الـــــزواج ٧٠
حكم الشريعة فى تعدد الزوجات (الوقـائع المصـرية فى ٨ مـارس
سـنـة ١٨٨١م) ٧٦
تعـدد الزوجـات ٨٢
فتوى فى تعدد الزوجات ٨٨
فوائد المصاهرة (الوقائع المصرية فى ١٢ مارس سنة ١٨٨١م) ٩٣
عوائد الأفراح (الوقائع المصرية فى ١٩ مايو سنة ١٨٨١م) ٩٧
المرأة فى صدر الإسلام ١٠٢
حجاب النساء من الجهة الدينية ١٠٤
الــطـــلاق ١١٢
الإنفاق على الزوجة والتطليق على الزوج ١٢٥
الحشيش (الوقائع المصرية فى ١٦ إبريل سنة ١٨٨١م) ١٢٨
وضع الشىء فى غير محله (الوقائع المصرية فى ٧ مايو سنة ١٨٨١م) ١٣٣
الصياح خلف الجنائز (الوقائع المصرية فى ١٤ مايو سنة ١٨٨١م) ١٣٧
عـادات المأتم (الوقـائع المصـرية فى ٨ يونيـو سنة ١٨٨١م) ١٣٩
التـملق (الوقـائع المصـرية فى ٢٣ مـايو سنة ١٨٨١م) ١٤٤
فـسحة التـمثـال عند مركز ضبطيـة العـاصمـة (الوقـائع المصـرية
فى ٥ يونيو سنة ١٨٨١م) ١٤٩
انتقاد فى غير موضعه (الوقائع المصرية فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٨١م) ١٥٣
الخـرافـات (الوقـائع المصـرية فى ١٦ يناير سنة ١٨٨١م) ١٥٥
لجنة إعانة الحجاج (الوقائع المصرية فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨١م) ١٥٨
الانتقاد (ثمرات الفنون) ١٦١

رحلة في صقلية (رحلة سياحية تناول فيها عديدا من موضوعات الفكر والأدب) ١٦٧
بلرم ـ صقلية ١٦٩
كنيسة موريال، وتساهل العرب، وأين هم اليوم؟ ١٧٤
دير الكبوشيين، ومدرستهم، ومقبرتهم في «بلرم» ١٧٦
المكتبة العمومية ودار المحفوظات ١٨١
حاجة السائح إلى معرفة اللغات وأيها أنفع؟ ١٨٤
مسينا ومقبرتها ١٨٩
صخب الصقليين، وتسولهم، وكسلهم ١٩٢
رثاثة الصقليين، ووساختهم، ومقابلتهم بالمصريين ١٩٤
دور الآثار وبساتين النبات ١٩٨
الصور والتماثيل، وفوائدها، وحكمها ٢٠٠
الرسم ٢٠٤
أميرة وأمير من الأسرة الخديوية ٢٠٥
إعانة منكوبي حريق ميت غمر ٢٠٨
منشور ٢١٠
إصلاح القضاء ٢١١
تقرير إصلاح المحاكم الشرعية ٢١٣
مقدمة ـ الحاجة إلى المحاكم الشرعية ٢١٤
أماكن المحاكم ٢١٧
الكتبة ٢٢١
القضاة ٢٢٣
الحجاب ٢٢٨
الأعمال الكتابية ٢٢٨

ما يكفل السرعة فى العمل ٢٣٠
الـدفـــــاتـر ٢٣١
ما يتعلق بالعقود الواردة من المحاكم المختلطة إلى المحاكم الشرعية ٢٣٣
الـدفـتـر خـانات ٢٣٧
الأعـمال الحسابية ٢٣٨
تقييد القاضى فى كل ما يرد إليه ٢٣٩
تشكيل المحكمـــة ٢٤٠
اختصاص المحاكم الشرعية مادة ومكانا ٢٤٢
المرافــعـــات ٢٤٥
التوكيل فى المخاصمات ٢٥٠
الجلســـات ٢٥٣
حـضـور الخـصـوم ٢٥٥
المرافـعـة ٢٥٦
ما تبطل به الدعوى بدون سؤال الخصم ٢٦١
الشـهـادات والأدلة ٢٦٣
الدفع وما يتبعه من المعارضة فى الحكم على الغائب ٢٦٧
الأحـــكـــام ٢٧١
ما لا تُسمع فيه الدعوى ٢٧٣
التنفـيـذ ٢٧٤
الحـــبس ٢٨٠
التفـتـيش ٢٨٢
المحامون أمام المحاكم الشرعية ٢٨٤
مأذونو عقود الزواج ٢٨٦
اللائحة، أو اللوائح ٢٨٩

فى إصلاح القضاء الشرعى ٢٩١
حديث بين كرومر والإمام (فى شأن من شئون القضاء) ٢٩٤
حوار بين الخديو والإمام (حول القاضى التركى لمصر) ٢٩٥
إصلاح الأوقاف ٢٩٧
مشروع ترتيب المساجد ٢٩٩
تراجم ٣٠٧
سيرتى ـ مقدمة ٣٠٩
غاية فى ثلاثة أهداف ٣١٢
الفصل الأول : أهلى ٣١٥
الأنساب فى الإسلام ٣١٩
الفصل الثانى : النشأة والتربية وطلب العلم ٣٢٢
الامتحان فى الأزهر ٣٢٩
تعلمى الفرنسية ٣٣٠
وداع ٣٣٢
الشريف الرضى ٣٣٣
قرابة عثمان وأبى بكر وعمر من النبى ٣٣٧
نوف بن فضالة وجعدة بن هبيرة ٣٣٧
ترجمة جمال الدين الأفغانى ٣٣٨
محمود سامى البارودى ٣٤٨
الحوادث العرابية ٣٥١
الشيخ على الليثى ٣٥٢
رسائل فكرية وإخوانية ٣٥٥
رسالة إلى القس إسحق طيلر ٣٥٧
رسالة ثانية إلى القس إسحق طيلر ٣٥٩

رسالة إلى تولستوى ٣٦١
رسالة ثانية إلى تولستوى ٣٦٣
رسالة إلى سلطان المغرب ٣٦٤
رسالة إلى قاضى قضاة فاس ٣٦٦
رسالة إلى أحد العلماء ٣٦٨
رسالة إلى أحد علماء الشام ٣٧٠
رسالة إلى مناضل سورى (الأستاذ عبد الحميد الزهراوى) ٣٧٣
كلمات ٣٧٣
رسالة إلى حافظ إبراهيم ٣٧٤
كلمات ٣٧٥
رسالة إلى سليمان البستانى ٣٧٦
رسالة إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق ٣٧٨
رسالة إلى حفنى ناصف ٣٧٩
كلمات ٣٨٠
رسالة إلى كاتب ٣٨١
خمس رسائل إلى الشيخ إبراهيم اليازجى ٣٨٢
رسالتان إلى الشيخ عبد المجيد الخانى ٣٨٥
رسالة إلى أحد العلماء ٣٨٨
رسالة إلى أحد الكرماء ٣٨٩
رسالة إلى أحد الأصدقاء ٣٩٠
ثلاث رسائل إلى بعض الأصدقاء ٣٩٢
رسالة فى الشكر، إلى صديق ٣٩٤
رسالة جوابية ٣٩٥
تهنئة بالترقية ٣٩٥

ثلاث رسائل فى التعزية ٣٩٦
رسالة جوابية (فى التعزية) ٣٩٩
رسالة إلى الشيخ على الليثى ٤٠٠
مقدمات وتعليقات ٤٠٣
مقدمة رسالة الواردات ٤٠٥
مقدمة شرح مقامات الهمذانى ٤٠٦
تقديم نهج البلاغة ٤٠٩
كتب المغازى وأحاديث القصاصين ٤١٣
مقدمة البصائر النصيرية ٤١٨
كتاب أسرار البلاغة ٤١٩
بماذا صار الحيوان إنسانا؟ ٤٢٠
الجنس والنوع والفصل ٤٢١
الماهيات: حقيقية واعتبارية ٤٢٢
التعريف باللوازم ٤٢٣
سبل الحد ٤٢٤
العدم ٤٢٦
مادة القضية ٤٢٧
الدائم والقضايا ٤٢٨
فى الحكم الكلى ٤٢٩
الخلق والغريزة ٤٣٠
القياس المركب ٤٣١
قياس يخجل الخصم ٤٣٢
مكان القسمة من القياس ٤٣٥
الفضاء ٤٤١

الاستقراء والتجربة ٤٤٢
حركة فك التمساح ٤٤٣
موضوع علم الموسيقى ٤٤٤
مغالطات ٤٤٥
حقيقة التوحيد ٤٤٦
نفي الجهة عن الله ٤٤٧
صفات الله مثل ذاته ٤٤٧
أقسام الملائكة ٤٤٨
الوحدة بين الله وغيره ٤٤٩
الملائكة والجن ٤٥٠
الرسالات والفطرة ٤٥٠
الهبوط والتكليف والاختيار ٤٥١
الحياة الآخرة ٤٥١
الله والمكان ٤٥٢
تأثير الكواكب ٤٥٢
المشعر ٤٥٣
كلام الله ٤٥٤
مزية العقل ٤٥٤
سلطة الأنبياء ٤٥٥
شكل الأرض ٤٥٥
تراثنا في العقائد ٤٥٦
الفلك والتنجيم ٤٥٦
القضاء والقدر ٤٥٧
عالم التصوف وعالم الواقع ٤٥٧

الأكل فى الطريق العام ٤٥٨
الفيلسوف ٤٥٨
النظام والائتلاف ٤٥٩
الفقير والغنى ٤٥٩
الهجرة من دار الحرب ٤٦٠
على والفتنة ٤٦٠
صاحب الزنج ٤٦١
نهاية الحجاج بن يوسف ٤٦١
خلق الإمام على ٤٦٢
شرح بيت من الشعر لبشار بن برد ٤٦٣
الشورى بعد عمر ٤٦٤
موقعة الجمل ٤٦٦
الإمارة ٤٦٧
على يرجو دفع الحرب ٤٦٧
التحكيم والخروج ٤٦٨
الخريت بن راشد ٤٦٩
الخوارج بعد على ٤٧٠
الأشعث بن قيس ٤٧٠
بسر بن أبى أرطأة ٤٧١
الضحاك بن قيس ٤٧٢
محمد بن أبى بكر ٤٧٣
علقة بن فراس ٤٧٣
أخو غامد ٤٧٤
كلمات ٤٧٤

ملحق الفتـــاوى ٤٧٥
تمهـــيـــد ٤٧٧
فتاوى التجديد والإصلاح الدينى ٤٩٣
فى التأمين والأرباح ٤٩٥
فى الجنسية والقومية ٤٩٧
زى الكتابيين وذبائحهم ٥٠٠
الاعتراض على قانون ظالم ٥٠٢
تحديد أوائل الشهور العربية ٥٠٤
بدع طرأت على الإسلام ٥٠٥
استقلال المرأة الاقتصادى ٥١٢
ولايـــة المـــرأة الأم ٥١٣
سقوط ولاية الأب الماجن ٥١٤
شق بطن الميتة حاملا ٥١٥
أهل الكتاب يستفتون الإمام ٥١٥
العـــودة لدين الحق ٥٢٢
التبنى وفقر الآباء والأمهات ٥٢٣
فتاوى فى الأوقاف والميراث والمشكلات المالية ٥٢٧
فتـــاوى فى الأســرة ومشكلاتها ٦٥١
فتاوى فى القصاص (القود) ٦٨٣
الهـــوامش ٦٩١
الفـــهـــرس ٧٢١